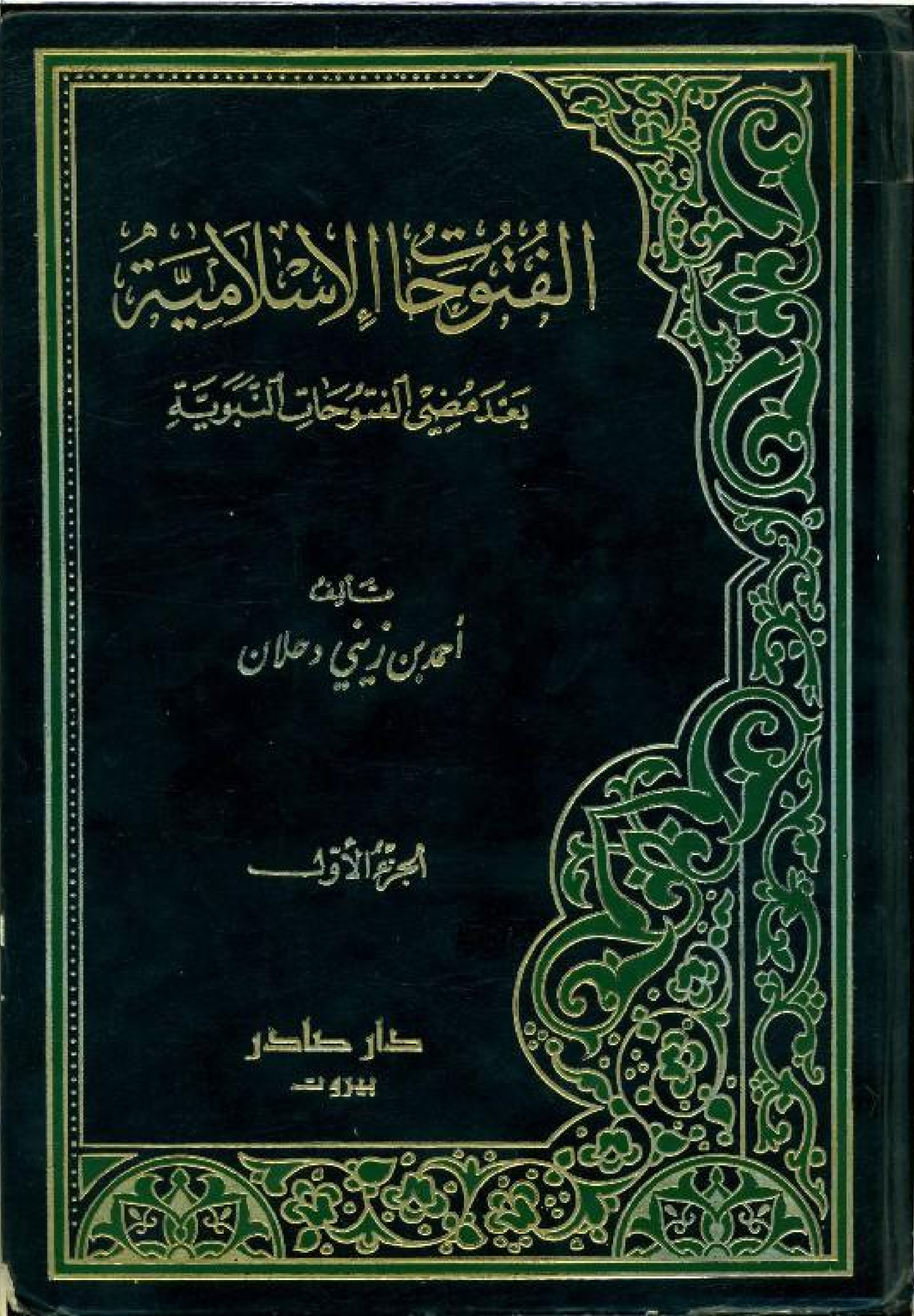


الفتوحات الإسلامية
بعد مضي الفتوحات النبوية
تأليف
أحمد بن زيني دحلان
الجزء الأول
دار صادر
بيروت

الفتوحات الإسلامية

بعد مضي الفتوحات النبوية

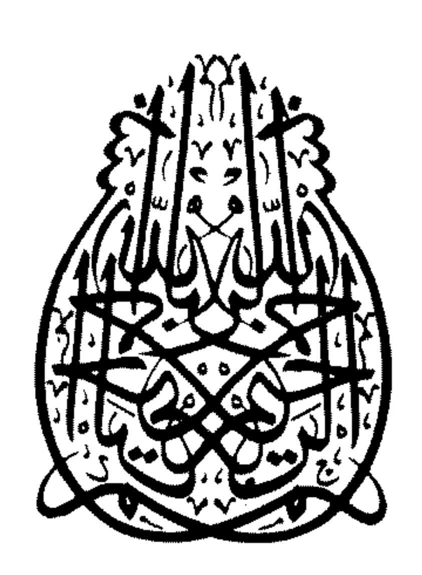
تأليف

أحمد بن زيني دحلان

الجزء الأول

دار صادر

بيروت





مقدمة الناشر :

المؤلّف :

هو : أحمد بن زيني دَحْلان ، فقيه مَكّيّ مؤرّخ ، ولد بمكة سنة ١٢٣٢ هجرية = ١٨١٧ ميلادية ، وتولّىٰ فيها الإفتاء والتدريس .

وفي أيامه أنشئت أول مطبعة بمكة فطبع فيها بعض كتبه ، وكانت وفاته في المدينة سنة ١٣٠٤ هجرية = ١٨٨٦ ميلادية .

ومن تصانيفه المطبوعة :

- الفتوحات الإسلامية (وهو كتابنا هذا) .
- الجداول المرضية في تاريخ الدولة الإسلامية .
- خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام .
- الفتح المبين في فضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت الطاهرين .
- السيرة النبوية[١] .

والكتاب الذي بين أيدينا اختصارٌ مُوَفَّقٌ ، اختصره المؤلّف ـ رحمهُ الله ـ من أُمّات كتب التاريخ العربيّ الإسلاميّ وعيونها ، وأودع بين دَفّتَيْه عُصَارةَ ذَوْقه التاريخي الخصب بأسلوب رشيق يجذب القارئَ إليه جَذْباً ، ويَشُدّه إلىٰ قراءته شَدّاً من غير أن يتعاوره مَلَلٌ أو سَأَم .

---

(١) عَوّلْنا في نقل هذه الترجمة علىٰ « الأعلام » للزركلي ، ١/١٢٩ ، ١٣٠ ، ط٥ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٠ .

وليس هذا الكتاب الفَرْدَ الذي قام باختصاره المؤلف رحمه الله ، فقد قام باختصار سيرة رسول الله ﷺ من كتب السيرة المختلفة ، مثل : سيرة ابن سيد الناس ، وسيرة ابن هشام ، والسيرة الشامية ، والسيرة الحلبية ، إذْ تُعَدُّ هذه الكتب من أَصَحّ الكتب المؤلّفة في شأن السيرة النبوية .

ونحن اليوم إِذْ نَنْشُر هذا السّفر ، لا نزعم أنّه قد كمل ، رغم إعادة النظر فيه تنقيحاً وتدقيقاً مراراً كثيرةً ، وحسبُنا من عملنا أننا قد تلافينا أخطاءً جَمّةً وقعت في طبعتين قد سبقتا هذه الطبعة ، وبذلنا جهداً متواضعاً في تقويم تلك الأخطاء المتنوعة سواءٌ منها البلدان أو الأعلام أو اللغة ، ونهضنا بالكتاب ـ أخيراً ـ وقد ألبسناه حُلّةً قشيبةً نرجو أن يَلْقىٰ قَبولاً لدىٰ القارئ الكريم ، الذي نقول له : إننا قد أخلصنا النّية ، وحَرَصْنا علىٰ الدقة وتَوَخّينا الفائدة والنفع ، وهذا رجاؤنا ، فإنْ كنَّا أصبنا ما نرجو بعملنا فهذا مُرادُنا ، وإنْ تكن الأخرىٰ فإنَّ النقص من طبيعة ابن آدم ، والكمالُ يأبىٰ إلاّ أن يكون بعيداً ، ولا يكلّف الله نفساً إلاّ وسْعها .

الناشر



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ، أما بعد :

فيقول العبد الفقير خادم طلبة العلم بالمسجد الحرام كثير الذنوب والآثام المرتجي من ربه الغفران أحمد بن زيني دحلان غفر الله له ولوالديه ومشايخه ومحبيه والمسلمين أجمعين : هذه وريقات جمعت فيها بغاية الاختصار الفتوحات الإسلامية التي افتتحها أصحاب النبي ﷺ ومن جاء بعدهم من الخلفاء والملوك ، فابتدأت بما كان منها في زمن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وسميتها (الفتوحات الإسلامية) بعد مُضي الفتوحات النبوية ، فأولها بعث جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، لأن النبي ﷺ جهزه في زمنه الذي توفي فيه ، وأمره أن يسير إلى الموضع الذي استشهد فيه أبوه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ومشارف الشام ، وتوفي رسول الله ﷺ قبل مسير جيش أسامة .

فلما استخلف أبو بكر رضي الله عنه وارتد كثير من العرب ، أشار عليه بعض الصحابة رضي الله عنهم بتأخير جيش أسامة رضي الله عنه ، فامتنع وقال : أول شيء أنفذه سير الجيش الذي جهزه رسول الله ﷺ ، ولو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة الذي جهزه رسول الله ﷺ .

فسار أسامة رضي الله عنه بجيشه كما أمر رسول الله ﷺ ، وبث الجنود في بلاد قضاعة التي ارتدت وأغار على إبنى فسبى وقتل وغنم ورجع لأربعين يوماً ، ولم يحدث أبو بكر رضي الله عنه في مغيبه شيئاً ، وكان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه .

ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبي ﷺ ثبتت قريش وثقيف على الإسلام ولم

يرتد أحد منهم ، وأما قريش فثبتهم الله بسهيل بن عمرو العامري رضي الله عنه ، فإنه خطب أهل مكة خطبة تشبه خطبة أبي بكر التي خطب بها يوم وفاة النبي ﷺ وثبت أهل المدينة بها ، فلما جاء خبر وفاة النبي ﷺ إلى أهل مكة ارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون ، فقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة النبي ﷺ وقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ألم تعلموا أن الله قال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] وتلا آيات أخر ، ثم قال : والله إني أعلم أن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما ، وقال يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ فلقد رأيته قائماً مقامي هذا وحده وهو يقول : قولوا معي لا إله إلا الله تدين لكم العرب وتؤدي إليكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله ، فمن بين مستهزىء ومصدق فكان ما رأيتم ، فوالله ليكونن الباقي .

ثم ذكر لهم وفاة رسول الله ﷺ واستخلاف أبي بكر رضي الله عنه ، وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رأيناه ارتدَّ ضربنا عنقه فتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وكلمته تامة وإن الله ناصر من نصره ومقوٍّ دينكم وإن الله جمعكم على خيركم يعني أبا بكر رضي الله عنه ، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به .

وهذه الخطبة هي المقام الذي أخبر به رسول الله ﷺ يوم غزوة بدر لما أسر سهيل بن عمرو مع من أسر من كفار قريش يوم بدر وكان فصيحاً بليغاً يخطبهم ويحثهم ويحرضهم على قتال النبي ﷺ ، فلما أسر قال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو فلا يقوم عليك خطيباً في مواطن أبداً ؛ لأن سهيلاً كان أَعْلَمَ مشقوق الشفة العليا ، والأَعْلَمُ إذا نزعت ثنيتاه لم يستطع الكلام ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده عليه ولا تذمه » فكان ذلك المقام هذه الخطبة التي قام بها حين جاءهم بمكة خبر وفاة النبي ﷺ وثبت الله بها أهل مكة ، وكان إسلام سهيل بن عمرو عام فتح مكة واستشهد يوم اليرموك سنة ثنتي عشرة ، وقيل مات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ويجتمع

نسبه مع النبي ﷺ في لؤي بن غالب لأنه من بني عامر بن لؤي والنبي ﷺ من بني كعب بن لؤي ، وكان سهيل رضي الله عنه من أشراف قريش وله ترجمة واسعة ، وأما ثقيف فثبتهم الله بعثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه فإنه قام فيهم بمثل ما قام به سهيل بن عمرو في مكة .

وكان قبل وفاة النبي ﷺ ظهور مسيلمة الكذاب ودعواه النبوة باليمامة وظهور طليحة بن خويلد الأسدي ودعواه النبوة في بني أسد وغطفان وظهور الأسود العنسي ودعواه النبوة باليمن ، فأما الأسود العنسي فسلط الله عليه فيروزاً الديلمي فقتله وأخبر النبي ﷺ بقتله قبل وفاته ، ثم جاءتهم الأخبار بقتله في أول خلافة أبي بكر رضي الله عنه .

وأما مسيلمة وطليحة الأسدي فسيأتي الكلام عليهما . ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبي ﷺ عظمت مصيبة المسلمين واشرأبت اليهودية والنصرانية وعم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية واضطرمت الأرض ناراً ، وكانت ردتهم مختلفة ؛ فمنهم من قال لو كان نبياً ما مات ، ومنهم من قال انقضت النبوة بموته فلا نطيع أحداً أبداً ، ومنهم من قال نؤمن بالله ، ومنهم من قال ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلي ولكن لا نعطيكم أموالنا . فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن الزكاة مثل الصلاة ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، فجادله كثير من الصحابة منهم عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم ، ومن مجادلتهم له قول عمر رضي الله عنه له تألَّف الناس وارفق فإنهم بمنزلة الوحش ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ، أَجَبّار في الجاهلية وخَوّار في الإسلام ، قد انقطع الوحي وتمَّ الدين ، أينقص وأنا حي ؟! والله لأجاهدنّهم مهما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالاً .

وقال له عمر أيضاً : إنما شحت العرب على أموالها فلو تركت للناس صدقة هذه السنة . فأبى إلا قتالهم .

وقال له عمر أيضاً : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم

وأموالهم » ؟ فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أليس قد قال : « إلا بحقها » ؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والله لو منعوني عقالاً . وفي رواية عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، ولو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي .

فقال عمر رضي الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق ، وقال عمر بعد ذلك : والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة في قتال أهل الردة .

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبي بكر ، أجمعنا ألاّ نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبي بكر على قتالهم ثم اتفق الصحابة كلهم على قتالهم واستصوبوا ما رآه أبو بكر رضي الله عنه .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : كره الصحابة أولاً قتال مانعي الزكاة وقالوا أهل القبلة ، فتقلد أبو بكر رضي الله عنه سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدّاً من الخروج على أثره وهذا دليل على كمال شجاعته .

وقال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبي بكر رضي الله عنه لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة .

ذكر أول وقعة في قتال أهل الرّدّة

كان بعض أهل الردة طمعوا في استيلائهم على المدينة واستئصال الصحابة ليرجعوا الأمر جاهليةً كما كانوا ، فتعجل جماعة من عبس وذبيان ونزلوا في الأبرق ونزل آخرون بذي القصة ومعهم قوم من بني أسد وكنانة ، وبعثوا وفداً إلى أبي بكر يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة ، فأَبَى أبو بكر ذلك وأخذ في الاحتراس والتحذر منهم ، فجعل على أنقاب المدينة علياً والزبير وطلحة وعبدالله بن مسعود وغيرهم ، ورجع وفد المرتدين فأخبروا قومهم بقلة أهل المدينة فأغاروا على من كان بأنقاب المدينة فبعثوا إلى أبي بكر فخرج في أهل المسجد الحاضرين في ذلك الوقت على النواضح ، فهربوا والمسلمون في أتباعهم إلى ذي خشب ، وكان للمرتدين كمين في ذي حسى ، فنفروا إبل المسلمين بشنان نفخوها وفيها حبال ، ثم دهدهوها على الأرض فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ، ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع مسلم فظن المرتدون بالمسلمين الوهن وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر فقدموا عليهم ، وبات أبو بكر رضي الله عنه يعبىء الناس وخرج على تعبئته فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد ، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما ذَرَّ قرن الشمس حتى وَلّوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم وقتلوا رجالاً منهم ، وتبعهم أبو بكر رضي الله عنه ومن معه حتى نزلوا بذي القصة ، وكان ذلك أول الفتح ، ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة ، فذل له المشركون واعتز المسلمون بواقعة أبي بكر هذه واستبشروا .

ولما قدم أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر رضي الله عنه على المدينة وخرج بمن معه من المسلمين إلى ذي حسى وذي القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به فهزم الله المشركين وأخذ الحطيئة أسيراً فطأطأت بنو عبس وبنو بكر ، وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم ، ثم رجع إلى المدينة ، ولما انهزم بنو عبس وذبيان رجعوا إلى طليحة الأسدي وهو ببزاخة ، ثم قطع أبو بكر رضي الله عنه البعوث وعقد الألوية فعقد أحد عشر لواء وجعل لكل لواء أميراً ، وعزم أبو بكر على الخروج لقتال المرتدين بنفسه وأمر الناس بالجهاد فخرجوا وخرج

هو في مئة من المهاجرين والأنصار وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بذي القصة ومكث أياماً ينتظر الناس وبعث إلى من كان حوله من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، فأقبلوا من كل ناحية حتى كثر الناس ، وجعل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما يكلمان أبا بكر في الرجوع إلى المدينة لما رأيا عزمه على المسير بنفسه ، وقال عمر : ارجع يا خليفة رسول الله تكن للمسلمين فئة وردءاً ، فإنك إن تقتل يرتد الناس ويعلو الباطل على الحق وأبو بكر يظهر المسير بنفسه ، وأخرج الدار قطني عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : لما برز أبو بكر واستوى على الراحلة أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بزمامها وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد : شمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً . ولما ألحوا عليه في الرجوع رجع بعد أن بعث الأمراء في كل ناحية لقتال أهل الردة .

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى بزاخة لقتال طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس

ادعى النبوة قبل وفاة النبي ﷺ وزعم أن جبريل يأتيه وسجع للناس الأكاذيب والخرافات التي تمجها الأسماع كقوله : والحمام واليمام ومصر والصوام قد ضمن قبلكم بأعوام ليبلغنَّ ملكنا العراق والشام . وكثر أتباعه من بني أسد وغطفان وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول : إن الله ما يصنع بتعفر وجوهكم ، وتقبيح أدباركم شيئاً ، اذكروا الله واعبدوه قياماً .

فبعث أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد رضي الله عنه لقتال طليحة ومعه كثير من المهاجرين والأنصار ومعه أيضاً عدي بن حاتم في ألف من طَيّىء ، وكان طليحة قد أسلم ثم ارتد في حياة النبي ﷺ وكان كاهناً فادعى النبوة ، فلما توفي النبي ﷺ استطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وغيرهم وارتد أيضاً عيينة بن حصن الفزاري وصار مع طليحة ونزلوا جميعاً ببزاخة فقصدهم خالد بن الوليد بمن معه وتقاتلوا واشتد القتال ثم انهزموا فقتل من قتل وأسلم من أسلم ، فوثب طليحة على فرسه واحتقب امرأته ونجا بها إلى الشام .

رُوي أن طليحة قال لأصحابه لما رأى انهزامهم : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له رجل منهم : أنا أخبركم أنه ليس منّا رجل إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله وإنّا نلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه .

وكان خالد بن الوليد قبل القتال ولقاء القوم أرسل طليعة عكاشة بن محصن الأسدي وثابت بن أرقم الأنصاري فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه ، فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتل طليحة عكاشة وقتل أخوه ثابتاً ، وقيل إن حبالاً أخا طليحة أسر فأرادوا إرساله إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : اضربوا عنقي ولا تروني فعل محمد بكم هذا .

ولما وقع القتال من طليحة وقومه كان خالد رضي الله عنه يحرض المؤمنين ويقول : يا معشر الأنصار الله الله ، واقتحم وسط القوم وكَرَّ على أصحاب طليحة ، فاختلطت الصفوف ، واختلفت السيوف بينهم واشتد القتال ، وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما ، وقاتل عيينة بن حصن مع طليحة قتالاً شديداً وكذلك قومه وكان معه منهم سبعمئة ، ولما انهزم القوم أسر عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة القشيري وأرسلا إلى أبي بكر رضي الله عنه فرجعا إلى الإسلام فقبله منهما ، وأما طليحة فإنه لما انهزم الناس فَرَّ وبقي في الشام عند بني غسان إلى أن توفي أبو بكر رضي الله عنه ، ودخل بنو أسد وغيرهم في الإسلام .

أسلم طليحة وحسن إسلامه ولقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبايعه وقال له عمر رضي الله عنه : أنت قاتل عكاشة وثابت والله لا أحبك أبداً ، فقال : يا أمير المؤمنين ما يهمّك من رجلين أكرمهما الله بالشهادة على يدي ولم يهنّي بأيديهما ، ثم كان لطليحة آثار جميلة في قتال الفرس لما فتح العراق ، وكان من الشجعان المشهورين ، استشهد رضي الله عنه بنهاوند سنة ثمان عشرة .

ولما أوقع الله ببني أسد ما أوقع وانهزموا بثّ خالد السرايا ليصيبوا ما قدروا عليه فجعلت العرب تسير إلى خالد رغبة في الإسلام أو خائفة من السيف ، ومنهم من مضى إلى أبي بكر ولم تأت خالداً ، ولما فرغ خالد من بني أسد سار إلى أرض بني تميم فلما وصل إلى البطاح من أرض تميم لم يجد بها جمعاً ففرق السرايا في نواحيها فلقوا اثني

عشر رجلاً فيهم مالك بن نويرة التميمي وكانوا ممن ارتد ومنع الزكاة فأخذوهم وجاؤوا بهم خالداً ، واختلف الذين أخذوهم في مالك بن نويرة ومن معه فقال قوم إنهم أسلموا فما لنا عليهم من سبيل ، وقال قوم لم يسلموا وإنّ قتلهم وسلبهم حلال ، وكان ذلك رَأْي خالد فيهم فأمر بهم خالد فقتلوا وقتل معهم مالك وتزوج خالد امرأته ، وقيل إن خالداً سمع من مالك كلاماً استدل به على عدم إسلامه من أنه قال : إن صاحبكم قد توفي ، فعلم خالد أنه أراد أنه ﷺ ليس بصاحب له فتيقن رِدَّتَهُ فقتله بعد أن تكرر من مالك قوله فعل صاحبكم شأن صاحبكم ، فقال له خالد : وليس بصاحب لك ؟ .

وقيل إنه لما قدم مالك بن نويرة ومعه الأسرى على خالد حبسهم على ضرار بن الأزور وكانت ليلة ممطرة فنادى مناديه أن أدفئوا أسراكم وكانت في لغة كنانة كناية عن القتل ، فبادر ضرار بقتلهم وكان كنانيّاً ، وسمع خالد الداعية فخرج متأسفاً وقد فرغوا فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه ، ولما قدم خالد على أبي بكر رضي الله عنه سأله عن قتل مالك بن نويرة فأخبره بذلك واعتذر إليه فقبل عذره وأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مِنْ أبي بكر رضي الله عنه أَنْ يقتل خالداً قصاصاً في مالك بن نويرة ، فقال أبو بكر : يا عمر تَأَوَّل خالد فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإني لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين ، ودفع أبو بكر رضي الله عنه ديات لأولياء مالك بن نويرة ومن قتل معه ، وكان مالك بن نويرة أسلم في حياة النبي ﷺ وقدم فجعله النبي ﷺ على صدقات قومه فجمعها ، فلما بلغه وفاة النبي ﷺ ردّها من حيث جاءت وكان أمره ما تقدم .

وكان خالد رضي الله عنه بعد وقعة مالك بن نويرة رجع من البطاح إلى المدينة واجتمع بأبي بكر رضي الله عنه واعتذر مما كان في أمر مالك بن نويرة فقبل عذره وأمره بالمسير إلى قتال مسيلمة ، فسار خالد ومن معه لقتال أهل اليمامة التابعين لمسيلمة ، ولنذكر قبل ذلك خبر سجاح بنت الحارث التميمية .

ذكر خبر سَجَاح

لما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبي ﷺ ، ادَّعت النبوةَ سجاحِ بنتُ الحارث التميمية ، وأقبلت من الجزيرة وتبعها كثير من قومها وقوم بني تغلب وكانوا أخوالها ، وسجعت لهم أسجاع طليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب ، من ذلك قولها : أَعِدّوا

الركاب واستعدّوا للنّهاب ثم أغيروا على الرّباب فليس دونهم حجاب . وأرادت أن تغزو بجموعها أبا بكر بالمدينة ، ثم أشاروا عليها بغزو مسيلمة باليمامة فخرجت بمن معها تريد اليمامة وقالت : عليكم باليمامة ذوقوا ذفيف الحمامة فإنها غزوة صرامة لا يلحقكم بعدها سلامة .

فبلغ ذلك مسيلمة فاحتال عليها وأرسل لها هدية ، ثم أرسل لها يستأمن على نفسه حتى يأتيها فأمنته ، فجاءها في أربعين من بني حنيفة ، وأرسل لها : أبعدي أصحابك ، ففعلت ، وقد ضرب لها قبة فجمّرها وأكثر فيها من رائحة الطيب المحرك للشهوة واجتمع بها في تلك القبة فقالت له : ما أوحى إليك ربك ؟ فقال : ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحَشَى . قالت : وماذا أيضاً ؟ قال : إن الله خلق للنساء أفراجاً وجعل الرجال لهن أزواجاً فتولج فيهن إيلاجاً وتخرجها إذا شاءت إخراجاً فينتجن لهن ثخالاً إنتاجا . قالت : أشهد أنك نبي . قال : هل لك أن أتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب ؟ قالت : نعم . قال :

ألا قُومي إلى النَّيك فقد هيىء لك المضجع
فإن شئت ففي البيت وإن شئت ففي المخدع
وإن شئت سلقناك وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

قالت : بل به أجمع فإنه أجمع للشمل . قال : بذلك أوحي إليّ .

فأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت إلى قومها فقالوا لها ما عندك ؟ قالت كان على الحق فتبعته وتزوجته . قالوا : هل أصدقك شيئاً ؟ قالت لا . قالوا فارجعي فاطلبي الصداق . فرجعت ، فلما رآها أغلق باب الحصن وقال : مالَكِ ؟ قالت : أَصْدِقْني . قال : من مؤذنك ؟ قالت : شبث بن ربعي الرياحي ، فدعاه وقال له : نادِ في أصحابك أن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد صلاة الفجر وصلاة العشاء الأخيرة ، فانصرفت ومعها أصحابها ، فقال بعض منهم :

أَمْسَتْ نبيتنا أنثى نطوفُ بها وأَصْبَحَتْ أنبياءُ الناسِ ذُكْرانا

وصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف والنصف الثاني تترك عنده

من يأخذه ، فأخذت النصف وانصرفت إلى الجزيرة وتركت عنده من يأخذ النصف الباقي ، فلم يفاجئهم إلا وقد جاء خالد إليهم فارْفَضُّوا ، قيل إنها لما قتل مسيلمة سارت إلى أخوالها تغلب بالجزيرة فماتت عندهم ولم يسمع لها ذكر ، وقيل إنها أسلمت وحسن إسلامها وانتقلت إلى البصرة وماتت بها وصلى عليها سمرة بن جندب وهو أمير على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيدالله بن زياد من خراسان وولايته البصرة .

ذكر مسير خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمامة لقتال مُسَيْلِمَة الكذاب ابن حبيب الحنفي

كان أبو بكر رضي الله عنه لما بعث السرايا لقتال المرتدين أرسل عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه في عسكر إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل بن حسنة التميمي وقيل الكندي ، وكان حليفاً لبني زهرة رضي الله عنهما ، فجعل عكرمة فوافاهم فنكبوه فانهزم ، وأقام شرحبيل بالطريق حين أدركه الخبر ، وكتب عكرمة لأبي بكر بالخبر ، فكتب إليه أبو بكر : ألاّ ترجع فتوهن الناس ، امضِ إلى قتال أَهْلَي عمان ومهرة ، وكان قد أرسل إلى قتالهم حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة فأمر عكرمة باللحاق بهما ، ثم لما جاء خالد إلى المدينة بعد قصة مالك بن نويرة أمره بالمسير إلى اليمامة لقتال مسيلمة بن حبيب ومسيلمة من بني حنيفة وهي قبيلة من قبائل ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وكان مسيلمة رئيساً في قومه فقدم مع وفد بني حنيفة على النبي فأسلم واجتمع بالنبي ﷺ وسأله أن يجعل له الأمر بعده ، وكان في يد النبي ﷺ عسيب من سعف النخل فقال لمسيلمة : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتكه . فلما رجع إلى اليمامة ارتد عدوّ الله وادّعى النبوة وقال إني أُشْرِكْتُ في الأمر مع محمد فاتبعه بنو حنيفة ، وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكنَّ قريشاً قوم يعتدون ، وبعث الكتاب مع رجلين من قومه فقال رسول الله ﷺ حين قرأ كتابه أتشهدان أني رسول الله ؟ قالا نعم . قال أتشهدان أن مسيلمة رسول الله ؟ قالا نعم اشترك معك في الأمر . فقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ، ثم كتب إلى مسيلمة في جوابه (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد رسول الله إلى مسيلمة

الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صَوَّت معك ، فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ أخفاه وكتب عن رسول الله كتاباً زعم أنه وصله بثبوت الشركة بينهما وأخرج ذلك الكتاب إلى قومه فافتتنوا بذلك وكان في آخر السنة العاشرة من الهجرة .

قال الزمخشري في ربيع الأبرار : قال الجاحظ : كان مسيلمة قبل ادعاء النبوة يدور في الأسواق التي بين دور العرب والعجم يلتمس تعلم الحيل والنيرنجات واحتيالات أصحاب الرقى والنجوم ، ومما تعلمه من الحيل أنه صب على بيضة من خل حاذق قاطع فلانت حتى إذا مددتها استطالت واستدقت كالعلك ، ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت كهيئتها الأولى فأخرجها إلى قومه وهم قوم أعراب وادعى النبوة ، فآمن به جماعة ووضع الصلاة عن قومه وأحلَّ الخمر والزنا ونحو ذلك واتفق معه بنو حنيفة إلا أفراداً منهم من ذوي عقولهم ومن أراد الله به الخير ثم اشتغل بتأليف سجعات يزعم أنه يعارض بها القرآن وهي : ركيكة ضحكة للعقلاء منها قوله : الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل ومشفر وخرطوم طويل إن ذلك من خلق ربنا لقليل ، ومنها قوله : يا ضفدع كم تنقنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تكدّرين ولا الشارب تمنعين ، ورُوي يا ضفدع بنت ضفدعين لحسن ما تنقنقين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين امكثي في الأرض حتى يأتيك الخفاش بالخبر اليقين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكنْ قريش قوم لا يعدلون ، وسجع اللعين على سورة ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ [الكوثر : الآية ١] فقال : إنا أعطيناك الجواهر فصل لربك وهاجر إن مبغضك لفاجر ، وفي رواية إنا أعطيناك الجماهر فخذ لنفسك وبادر واحذر أن تحرض أو تكاثر ، وفي رواية : إنا أعطيناك الكواثر فصل لربك وبادر في الليالي الغوادر . ولما سمع اللعين والنازعات غرقاً قال : والزارعات زرعاً فالحاصدات حصداً والذاريات قمحاً والطابخات طبخاً والحافرات حفراً والخابزات خبزاً فالثاردات ثرداً فاللاقمات لقماً والآكلات أكلاً ، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ، وله غير ذلك مما يدل على سخافة عقله وعقل من صدقه واتبعه .

رُوِي أن امرأة أتت مسيلمة فقالت ادع الله لنا ولنخلنا ولمائنا فإن محمداً دعا لقومه فجاشت آبارهم وكثر ماؤها ، قال : كيف صنع ؟ قالت دعا بسجل فدعا لهم فيه ثم

تمضمض ومَجَّ فيه فأفرغوه في تلك الآبار ففعل مسيلمة كذلك فغارت تلك المياه .

ولما سمع اللعين أن النبي ﷺ تفل في عين علي رضي الله عنه وكان أرمد فبرىء تفل في عين بصير فعمي ومسح بيده ضرع شاة حلوب فارتفع درها ويبس ضرعها .

وحفرت بنو حنيفة بئراً فأعذبوها متاحاً فجاؤوا إلى مسيلمة وطلبوا منه أن يأتيها وأن يبارك فيها ، فأتاها فبصق فيها فعادت أجاجاً .

وتوضأ مسيلمة في حائط فصبّ وضوءه فيه فلم ينبت ، وقال له رجل بارك على ولدي فإن محمداً يبارك على أولاد أصحابه فلم يؤت بصبي مسح مسيلمةُ رأسه ولا حنكه إلا قرع أو لثغ ، وجاءه رجل فقال : يا أبا ثمامة إني ذو مال وليس لي مولود يبلغ سنتين حتى يموت غير هذا المولود وهو ابن عشرين ولي مولود ولد أمس أحب أن تبارك فيه وتدعو أن يطيل الله عمره ، فقال سأطلب لك الذي طلبت فجعل عمر المولود أربعين سنة ، فرجع الرجل إلى أهله مسروراً فتردى الأكبر في بئر ووجد الصغير ينزع في الموت فلم يمس من ذلك اليوم حتى ماتا جميعاً ، فقالت أمهما فلا والله ما لأبي ثمامة عند إلهه مثل منزلة محمد ﷺ .

كان مسيلمة قبيح الخلقة وذميم الصورة وصفته على عكس صفة رسول الله ﷺ ، وكان يزعم أن جبريل يأتيه بالوحي وكان اسمه هارون بن حبيب وكنيته أبو ثمامة ولقبه مسيلمة وكان يقال له رحمٰن اليمامة ، قيل إنه كان يقول إن الذي يأتيه اسمه رحمٰن ، وقيل إنه من باب تعنتهم في كفرهم .

ولما فرغ خالد من البطاح ورجع إلى المدينة ورضي عنه أبو بكر رضي الله عنه بعثه إلى مسيلمة فتعجل إلى البطاح وأمده أبو بكر رضي الله عنه بالرجال فانتظر البعوث حتى قدمت عليه فنهض إلى اليمامة ، وكان جيشه أربعة آلاف وكان أهل اليمامة أربعين ألف مقاتل ، ولما بلغهم دُنُوُّ خالد بن الوليد رضي الله عنه خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا إليهم ، وأقبل خالد وجعل على مقدمته شرحبيل بن حسنة فهجم عليه من أصحاب مسيلمة ليلة سرية أربعون أو ستون قبض المسلمون عليهم وقتلوهم ، ثم سار خالد ونازل بني حنيفة واشتدت الحرب ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط ، وتذامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالاً شديداً وكانت الحرب يومئذ تارة

للمسلمين وتارة للكافرين ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين حتى أَلْجَؤوا بني حنيفة إلى حديقة احتشدوا فيها فدخلها المسلمون عليهم وقاتلوهم أشد القتال ، فلم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وَحْشي مولى جبير بن مطعم الذي قتل حمزة رضي الله عنه ورجل من الأنصار ، أمّا وحشي فدفع إليه حربته فوقعت بين ثدييه وضربه الأنصاري بسيفه ، واختلف في هذا الأنصاري فقيل هو أبو دجانة وقيل هو عبدالله بن زيد ، قال ابن عمر : فصرخ رجل وقال قتله العبد الأسود ، وقالت جارية على ظهر بيت أمير المؤمنين قتله العبد الأسود ، فولّت بنو حنيفة عند قتله مهزومة وأخذهم السيف من كل جانب ، ثم بقي منهم جماعة بالحصون فصالحهم خالد على كل شيء دون النفوس ، وفي رواية صالحهم على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع ونصف السبي ، وكان وحشي يقول قتلت خير الناس في الجاهلية وشرّ الناس في الإسلام يعني حمزة ومسيلمة .

وفي تاريخ ابن الوردي : لما عُزّي رسول الله ﷺ بحمزة حين قتله وحشي بأحد قال بعضهم ويل لوحشي من النار ، فقال ﷺ : « أما حمزة فأجله قد انقضى وأما وحشي فسوف يدرك الشرف من بعده » فقالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : « هو يقتل مسيلمة الكذاب » فكان كما قال ﷺ .

واستشهد في هذه الوقعة كثير من مشاهير المهاجرين والأنصار وفضلاء الصحابة يطول الكلام بتعداد أسمائهم ، وجملة من قتل من المهاجرين والأنصار من المدينة ثلاثمئة وستون ، ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمئة رجل ، ومن بقية المسلمين ستمئة ، فجملة من استشهد من المسلمين ألف ومئتان وقيل ألف وثمانمئة ومن المشركين نحو عشرين ألفاً قتل منهم في الحديقة فقط سبعة عشر ألفاً كما في تاريخ ابن خلدون ، وكانت هذه الوقعة في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة من الهجرة كذا في تاريخ الخميس ، والذي يقتضيه تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون أنها كانت في أواخر السنة الحادية عشرة لأنهم ذكروا أن مسير خالد إلى العراق في أول سنة اثنتي عشرة ، وكان ذلك بعد فراغه من قتال أهل اليمامة ، وكان القتال يوماً كاملاً من بكرة النهار إلى بعد العصر ، وقاتل خالد بن الوليد في ذلك اليوم قتالاً شديداً وكان يقول شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة ، وقال أبو برزة الأسلمي لقد اقتحم خالد حتى أعذر وصبر حتى

ظفر ، وقال رافع بن خديج خرجنا ونحن أربعة آلاف فانتهينا إلى اليمامة فننتهي إلى قوم هم الذين قال الله فيهم ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الفتح : ١٦] ثم إن الله بمنّه وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر .

وكان مع المسلمين امرأة وهي أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية وهي والدة عبدالله بن زيد الذي قتل مسيلمة مع وحشي وشهدت أمه ذلك اليوم وقطعت يدها في ذلك القتال ، وكانت أم عمارة هذه جاءت إلى أبي بكر رضي الله عنه لما تجهز القوم للخروج واستأذنته في الخروج فقال لها أبو بكر رضي الله عنه : ما مثلك يحال بينه وبين الخروج قد عرفناك وعرفنا جراءتك في الحرب فاخرجي على اسم الله .

وكان مسيلمة قبل خروجهم قد ظفر بابن لها وهو حبيب بن زيد وكان مقبلاً من عمان يريد المدينة ، فسمع به مسيلمة فأرسل من قبض عليه وجيء به أسيراً فقال له مسيلمة أتشهد أني رسول الله ؟ فقال لا أسمع فقال له أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم ، فأمر به فقتل ، وكان كلما قال أتشهد أني رسول الله قال لا أسمع فإذا قال أتشهد أن محمداً رسول الله قال نعم حتى قطعه عضواً عضواً ؛ فقطع يديه من المنكبين ورجليه من الوركين ثم أحرقه بالنار وهو في كل ذلك لا ينزع عن قوله ولا يرجع عما بدأ به حتى مات في النار ، فخرجت أمه مع القوم لتأخذ بثأر ابنها ، فلما انتهوا إلى اليمامة فكانت تقاتل مع المسلمين ، قالت : فلما انتهينا إلى الحديثة ازدحمنا على الباب فاقتحمناه فضاربناهم ساعة وجعلت أقصد عدو الله مسيلمة لأن أراه ، ولقد عاهدت الله لئن رأيته لا أكذب عنه أو أقتل دونه ، وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف حتى بصرت بعدو الله فشددت عليه وعرض لي منهم رجل ضرب يدي فقطعها فوالله ما عرجت عليها حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع قد قتله ابني عبد الله ، وفي رواية وابني يمسح سيفه بثيابه فقلت أقتلته ؟ قال نعم يا أماه فسجدت شكراً لله تعالى وقطع الله دابرهم ، فلما انقطعت الحرب ورجعت إلى منزلي جاءني خالد بن الوليد بطبيب من العرب فداواني بالزيت المغلي وكان والله أشدّ علي من القطع ، وكان خالد كثير التعهد لي حسن الصحبة لنا يعرف لنا حقنا ويحفظ فينا وصية نبينا .

وعن محمد بن يحيى بن حبان قال جرحت أم عمارة يوم اليمامة أحد عشر جرحاً بين ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح وقطعت يدها سوى ذلك ، ولما قدمت

المدينة كان أبو بكر رضي الله عنه يأتيها ويسأل عنها وهو يومئذ خليفة .

وممن استشهد يوم اليمامة ثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب رسول الله ﷺ يفاخر به وفود العرب إذا قدموا عليه يفتخرون بفصاحة خطبائهم وكان يوم اليمامة معه راية الأنصار ، ولما استشهد ودفنه المسلمون سمعوه حين أدخلوه في قبره يقول محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الشهيد ، عثمان البرُّ الرحيم ، فنظروه فإذا هو ميت ، ذكر ذلك القاضي عياض في الشفاء ، وبعد وفاته رآه رجل من المسلمين في منامه يقول له إني موصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إني لما قتلت بالأمس جاء رجل من ضاحية نجد وعلم درعي فأخذها وأتى بها منزله فأكفأ عليها برمته وجعل إلى البرمة رَحْلاً وخباؤه في أقصى العسكر إلى جانب خبائه فرس أبلق يستن في طوله فَأْتِ خالد بن الوليد فأخبره فليبعث إلى درعي فليأخذها ، وإذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ ، فأخبره أنّ علي من الدين كذا ولي من الدين كذا ، وسعد ومبارك غلاماي حرّان فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه .

فلما أصبح الرجل أتى خالداً رضي الله عنه فأخبره ، فبعث خالد إلى الدرع فوجدها كما قال وأخبره بوصيته فأجازها ، ولا نعلم أن أحداً من المسلمين أجيزت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس .

وقد روي أن بلالاً بن الحارث رضي الله عنه كان صاحب الرؤيا .

ولما انقضى القتال اجتمع خالد بن الوليد ببعض أهل اليمامة وسألهم عن أسجاع مسيلمة ، فقصوها عليه فقال : سبحان الله هذا الكلام ما خرج من إلّ ولا برٍّ ، فأين يذهب بكم عن أحلامكم ؟!

وقال أبو بكر في حق أهل اليمامة : لن يزالوا من كذابهم في بلية إلى يوم القيامة إلا أن يعصمهم الله تعالى .

وقصة يوم اليمامة طويلة وقع فيها عجائب من أصحاب النبي ﷺ ؛ كانت معجزات له ﷺ وكرامات لهم وكلها مذكورة في التواريخ ، وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم ، والكلام على بقية أهل الردة الذين قاتلهم غير خالد بن الوليد سيأتي الكلام مؤخراً بعد إتمام الكلام على غزوات خالد بن الوليد بالمشرق والعراق .

ذكر مسير خالد بن الوليد إلىٰ العراق

ولما فرغ خالد بن الوليد من أمَر اليمامة بعث إليه أبو بكر رضي الله عنه في المحرم من سنة اثنتي عشرة ، فأمره بالمسير إلى العراق فسار من اليمامة ، وقيل قدم على أبي بكر رضي الله عنه ، ثم سار من المدينة وانتهى إلى قرية بالسواد وصالحه أهلها على عشرة آلاف دينار فقبضها ووضع الجزية عليهم ، ثم سار إلى الحيرة وخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر ، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو مناجزة الحرب ، فاختاروا الجزية فصالحوه على تسعين ألف درهم ، ثم سار إلى الأُبُلَّة وكان معه عشرة آلاف وأمدّه أبو بكر رضي الله عنه بالمثنى بن حارثة الشيباني ومعه ثمانية آلاف ، وكان قبل مجيء خالد استأذن أبا بكر رضي الله عنه أن يغزو العراق ، فلما قدم خالد أمر أبو بكر المثنى أن يكون مع خالد ونازلوا الحفير وكان ذلك الفرج أعظم فروج فارس وأشدها شوكة ، وكان صاحبه اسمه هرمز فكان يحارب العرب في البر ويحارب الهند في البحر ، فلما سمع هرمز بهم كتب إلى كسرى أزدشير الملك بالخبر وتعجل هو إلى الكواظم واقترن قومه بالسلاسل لئلا يفروا ، فسمع بهم خالد وكانوا سبقوه في النزول على الماء فنزل خالد على غير ماء فقال له أصحابه في ذلك ، فقال لهم : لَعَمْري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين ، فحطوا أثقالهم وتقدم خالد إلى الفرس فلاقاهم ، فأرسل الله سحابة فأغدرت وراء صف المسلمين فقويت قلوبهم وخرج هرمز ودعا خالداً إلى البراز وتواطأ مع أصحابه على الغدر بخالد ، فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلاً ونزل هرمز أيضاً وتضاربا فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز الذين تواطأ معهم فما شغل ذلك خالداً عن قتله ، وحمل القعقاع بن عمرو عليهم فأزاحهم وانهزم أهل فارس وركبهم المسلمون وقتل خالد هرمز وأخذ سلبه وكانت قلنسوته بمئة ألف ، وكانت هذه عادتهم إذا تم شرف الإنسان تكون قلنسوته بمئة ألف ، وبعث خالد بالفتح والأخماس إلى أبي بكر ، وسميت هذه الوقعة ذات السلاسل ، ثم سار خالد فنزل بمكان البصرة وبعث المثنى بن حارثة في آثار العدو فحاصر حصن المرأة وفتحه فأسلمت وتزوجها ، وكان كسرى أزدشير لما جاءه كتاب هرمز بمسير

خالد أمدّه بجيش فلقيه المنهزمون فرجعوا ونزلوا الثِّني ، وهو النهر ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة الثّني ، وسار إليهم خالد واقتتلوا وانهزم الفرس وقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً سوى من غرق ، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة وأخذ الجزية من الفلاحين وصاروا في ذمة ، وكان في السبي والد الحسن البصري وكان نصرانياً .

ولما جاء الخبر إلى كسرى بعث جيشاً عظيماً وعسكروا بالدلجة فسار إليهم خالد فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيراً منهم ، ثم اجتمعوا على مليس ومعهم كثير من نصارى العرب فسار إليهم خالد فبرز إليه مالك بن قيس فقتله خالد واشتد القتال ، ثم انهزموا واستأسر الكثير منهم وقتلهم خالد حتى سال النهر بالدم وسمي نهر الدم ، وبلغ عدد قتلاهم سبعين ألفاً ، ثم سار إلى أمغيشيا فغزا أهلها وأعجلهم عن أن ينقلوا أموالهم فغنم جميع ما فيها وخربها ، فلما بلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه قال : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ، ثم سار إلى الحيرة وحمل الرجال والأثقال في السفن ، فخرج مرزبان الحيرة فعسكر عند العربين وأرسل ابنه ليقاطع الماء عن السفن فوقعت على الأرض ، فسار إليه خالد فقتله وجميع من معه ، ثم سار خالد إلى أبيه في الحيرة فهرب من غير قتال ، وحاصر خالد قصور الحيرة وافتتحها وأكثر القتل فخرج ابن قبيصة من القصر الأبيض وعمرو بن عبد المسيح بن بقيلة وكان مُعَمَّراً فقال له خالد كم أتى عليك ؟ قال مئون سنين ، قيل إن عمره كان أربعمئة سنة ، قال : فما أعجب ما رأيت ؟ قال رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة تخرج المرأة فلا تتزود إلا رغيفاً ، وكان معه خادم معه كيس فسأله خالد ما في الكيس ؟ قال : فيه سم ساعة ، فأخذه خالد ونثره في يده وقال : لِمَ تستصحب هذا معك ؟ قال : خشيت أن يكون على غير ما رأيت فيكون الموت أحب إليّ من مكروه أدخله على قومي ، فقال له خالد : لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، ثم قال خالد : بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء وابتلع السم ، فقال ابن عبد المسيح : والله لتبلُغُنَّ ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا ، وأبى خالد أن يصالحهم إلا على تسليم كرامة بنت عبد المسيح لصحابي اسمه شويل كما في تاريخ ابن الأثير ، وقيل شريك كما في تاريخ ابن خلدون ، وكرامة بنت عبد المسيح قيل اسمها الشيما ، وسبب اشتراط تسليمها له أن النبي ﷺ لما ذكر استيلاء أمته على ملك فارس والحيرة سأله ذلك الصحابي أن يُعْطَى كرامة بنت عبد المسيح .

قال ابن الأثير : وكان رآها شابة فمال إليها فوعده النبي ﷺ ذلك ، فلما فتحت الحيرة طلبها وشهد له شهود بوعد النبي ﷺ فسلموها لخالد وسلمها له وفاء لوعد النبي ﷺ إياه ، فاشتروها منه بألف درهم ، وصالحهم خالد على مئتي ألف وتسعين ألفاً وأهدوا له هدايا فبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر رضي الله عنه فقبلها أبو بكر من الجزية ، وكتب إلى خالد أن يأخذ منهم بقية الجزية .

وقصة بنت عبد المسيح ذكرها الدميري في حياة الحيوان في ترجمة البغلة ، فقال : روى الطبراني وأبو نعيم من طرق صحيحة عن خزيمة بن أوس قال : هاجرت إلى النبي ﷺ فقدمت عليه عند مُنْصَرَفِه من تبوك فأسلمت فسمعته يقول : « هذه الحيرةُ قد رُفِعَتْ إليكم ستفتحونها ، وهذه الشيما بنت بقيلة الأزدية على بَغْلةٍ شهباءَ مُعْتَجِرة بخمارٍ أسود » فقلت : يا رسول الله إنْ نحنُ دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهي لي ، قال عليه الصلاة والسلام : « هي لك » فأقبلنا مع خالد بن الوليد نريد الحيرة ، فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيما بنت بقيلة كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود فتعلقت بها وقلت هذه وهبها لي رسول الله ﷺ ، فطلب مني خالد عليها البينة فأتيته بها فسلّمها لي ، ونزل إلينا أخوها عبد المسيح فقال أتبيعنيها ؟ فقلت نعم ، فقال احتكم ما شئت ، فقلت والله لا أنقصها عن ألف درهم ، فدفع لي ألف درهم ، فقيل لي لو قلت مئة ألف درهم لدفعها لك ، فقلت : لا أحسب مالاً أكثر من ألف درهم .

قال الطبراني : وبلغني أن الشاهدين كانا محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم ، انتهى .

وفي أسد الغابة أن اسم الصحابي المذكور حزيم بن أوس الطائي ، وأن المرأة اسمها الشيما ، وأن الشاهدين محمد بن مسلمة وعبدالله بن عمرو ، وقيل محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير ، فمن قال إن الصحابي شويل أو شريك فلعله يلقب بذلك ، وكذلك من قال إن اسم المرأة كرامة فلعله لقب لها لأن القصة واحدة وهي من معجزاته ﷺ وأعلام نبوته .

والحيرة مدينة بأرض الكوفة على ساحل البحر كان بها ملك النعمان بن المنذر

وغيره من ملوك العرب عمالاً لكسرى ملك الفرس ، والآن لا أثر للمدينة المذكورة ومكان المدينة دجلة .

ذكر فتح ما وراء الحيرة

كان الدهاقين يتربصون بخالد ما يصنع بأهل الحيرة ، فلما صالحهم واستقاموا له جاءته الدهاقين من كل ناحية فصالحوه عما يلي الحيرة من الفلاليح على ألفي ألف ، وبث السرايا في الثغور وأمرهم بالغارة فمخروا السواد كله إلى شاطىء دجلة ، وكتب إلى ملوك فارس يدعوهم إلى الإسلام أو أداء الجزية وأقام بالحيرة سنة يصوب ويصعد والفرس حائرون فيمن يُمَلّكونه لأن ملكهم مات فحصل اضطراب بينهم ، ثم سار خالد إلى الأنبار فحاصرهم وأمر الرماة أن يقصدوا عيونهم فرموا رشقاً واحداً ثم تابعوا فأصابوا ألف عين فسميت تلك الوقعة ذات العيون ، فأرسلوا يطلبون الصلح على أمر لم يرضه خالد فرد الرسل ونحر من إبل العسكر كل ضعيف وألقاه في خندقهم ثم عبره ، فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق فبذلوا لخالد ما أراد وعقدوا الصلح معه وألحقهم بمأمنهم ليس معهم شيء غير المتاع ، ثم صالحه من حول الأنبار وأهل كلواذا .

ذكر فتح عين التمر

ولما فرغ خالد من الأنبار سار إلى عين التمر وبها جمع عظيم من العجم ومعهم جمع من العرب من بني تغلب وغيرهم فقال لهم العرب : نحن أعلم بقتال العرب فدعونا وخالداً ، فقالوا : صدقتم ، فتقدم العرب لقتال خالد فأسر أميرهم ثم قتله وهزمهم وأسر كثيراً منهم فانهزم العجم وتركوا الحصن ، فتحصن المنهزمون من العرب فنازلهم خالد فطلبوا الأمان فأبى فنزلوا على حكمه ، فأخذهم أسرى ، ثم قتلهم أجمعين وسبى كل من في الحصن وغنم ما فيه ، ووجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل فأخذهم فقسمهم على أهل البلاد منهم سيرين والد محمد بن سيرين ونصير والد موسى بن نصير وحمران مولى عثمان رضي الله عنه ، وأرسل إلى أبي بكر بالخبر والخمس .

ذكر خبر دُومَةَ الجَنْدل

لما فرغ خالد من عين التمر جاء كتاب من عياض بن غنم رضي الله عنه ، وكان أميراً على جيش لقتال نصارى العرب الذين بدومة الجندل ، فكتب لخالد يستمده على من بإزائه من نصارى العرب وكانوا قبائل كثيرة ، فسار إليه خالد فنزل دومة الجندل وعياض عليها من الجهة الأخرى فقاتلوا نصارى العرب من الجهتين فانهزموا إلى الحصن فحاصروهم وافتتحوا الحصن عَنْوة وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية ، وأقام خالد بدومة الجندل فطمع الأعاجم بالحيرة وكثرت جموعهم بالحصيد ومعهم كثير من نصارى العرب وكان خالد جعل على الحيرة القعقاع بن عمرو ، فقاتلهم بالحصيد وقتل من العجم مقتلة عظيمة وهزمهم وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، ثم اجتمع الأعاجم بمضيخ بني البرشاء وكثرت جموعهم ، فبلغ الخبر خالداً فكتب إلى القعقاع ومن معه من الأمراء ووعدهم ساعة من ليلة يجتمعون فيها إلى المضيخ وخرج قاصداً إليهم ، فلما كانت تلك الساعة من ليلة الوعد اتفقوا جميعاً فأغاروا عليهم وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوا كثيراً منهم وكان معهم عبد العزى بن أبي رهم ولبيد بن جرير ، وكانا قد أسلما ومعهما كتاب من أبي بكر رضي الله عنه بإسلامهما فقتلا في المعركة ، فوداهما أبو بكر وأوصى بأولادهما ، وكان عمر رضي الله عنه ينقد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة على خالد ، فيقول أبو بكر : كذلك يلقى من نازل أهل الشرك .

ذكر وقعة الثِّنْي والزّميل

كان ربيعة بن بجير التغلبي بالثني والزميل وهما شرقي الرصافة ومعه جموع يريد بها قتال خالد رضي الله عنه ، فلما أصاب خالد أهل المضيخ أمر القعقاع والأمراء بالمسير ليغيروا عليهم ، وسار خالد من المضيخ واجتمع بالثني فبيتوا القوم وأغاروا عليهم من ثلاثة أوجه وجردوا فيهم السيوف فلم يفلت منهم مخبر وغنم وسبى ، ولما انهزم من كانوا بالمضيخ كان فيهم الهذيل بن عمران فلحق بجند لهم كان بالبشر في عسكر ضخم ، فبيتهم خالد بغارة شعواء وقتل منهم مِقتلة عظيمة وقسم الغنائم وبعث الخمس إلى أبي بكر رضي الله عنه ، ثم سار خالد إلى الرضاب وبها جمع من نصارى العرب فهربوا وتفرقوا لما سمعوا بمسير خالد فوصل إليها خالد ولم يلق كيداً .

ذكر وقعة الغراض

ثم سار خالد من الرضاب إلى الغراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة وأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات ، وحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من الفرس فأعانوهم واجتمع معهم من العرب تغلب وإياد والتمر وساروا إلى خالد واقتتلوا بالغراض قتالاً عظيماً ، وانهزمت الروم ومن معهم ، وأمر خالد المسلمين ألاّ يرفعوا عنهم السيف ، فقتل في المعركة وفي الطلب مئة ألف ، وأقام خالد بالغراض عشراً ثم آذن بالرجوع إلى الحِيرة لخمس بقيت من ذي القعدة ، وخرج هو من الغراض حاجاً سراً ومعه عدة من أصحابه يعسف البلاد فأتى مكة وحج ورجع ، فما توافى جنده بالحيرة حتى وافاهم ولم يعلم بحجه إلا من أعلمه ولم يعلم بذلك أبو بكر رضي الله عنه إلا بعد رجوعه فعتب عليه في ذلك وكانت عقوبته إياه أن صرفه إلى الشام من العراق ممداً جموع المسلمين باليرموك ، وكانت غزواته هذه كلها في أقل من سنة لأنه توجه إلى العراق في المحرم سنة اثنتي عشرة كما تقدم .

ولنذكر بقية الكلام على قتال أهل الردة الذي جرى من الأمراء غير خالد بن الوليد ، ثم نرجع لما كان في فتوح الشام .

ذكر ردة بني عامر وهوازن وسليم

كانت بنو عامر تقدم إلى الردة رِجلًا وتؤخر أخرى وتنظر أمر طليحة وما تصنع بنو أسد وغطفان حتى أحيط بهم وأوقع بهم خالد بن الوليد ، وكان رؤساء بني عامر قرة بن هبيرة وعلقمة بن علاثة ، وكان علقمة أسلم ثم ارتد في زمن النبي ﷺ ولحق بالشام بعد فتح الطائف ، فلما توفي النبي ﷺ أقبل مسرعاً حتى عسكر في بني كعب ، فبلغ ذلك أبا بكر رضي الله عنه فبعث إليه سرية عليها القعقاع بن عمرو فأغار على الماء الذي عليه علقمة وكان لا يبرح إلا مستعداً فسابقهم على فرسه فسبقهم وأسلم أهله وولده فأخذهم القعقاع وقدم بهم على أبي بكر رضي الله عنه فجحدوا أن يكونوا على ما كان علقمة ، ولم يبلغ أبا بكر رضي الله عنه أنهم فارقوا دارهم وقالوا له ما ذنبنا فيما صنع علقمة فأرسلهم ، ثم أسلم علقمة فقبل ذلك منه ، وأقبل بنو عامر بعد هزيمة أهل

بزاخة يقولون ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله وأتوا خالد بن الوليد فبايعهم على ما بايع أهل بزاخة وأعطوه أيديهم على الإسلام ولم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطيّء وسليم وعامر إلا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على الإسلام في حال ردتهم ، فأتوه بهم فمثّل بهم وحرّقهم ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال ونكسهم من الآبار ، وأرسل إلى أبي بكر رضي الله عنه يعلمه .

وأما قرة بن هبيرة فكان قد لقي عمرو بن العاص عند منصرفه من عمان بعد وفاة النبي ﷺ ، فقال لعمرو : اتركوا الزكاة فإن العرب لا تدين لكم بالإتاوة ، فغضب عمرو وأسمعه كلاماً وأبلغ مقالته أبا بكر رضي الله عنه فكتب إلى خالد بذلك فقبض على قرة بن هبيرة وبعث به إلى أبي بكر فأسلم واعتذر ، فقبل ذلك منه أبو بكر وحقن دمه .

ثم اجتمع قبائل من غطفان وهوازن وطيّء وأسد إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر في الحوأب وبلغ ذلك خالداً بعد فراغه من أهل بزاخة فقاتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقر وقتلت وقتل حول هودجها مئة رجل فانهزموا .

وأما بنو سليم فكان الفجاء بن عبد ياليل قدم على أبي بكر رضي الله عنه يستعينه مدعياً إسلامه ويضمن له قتال أهل الردة فأعطاه وأمّره ، فخرج إلى الجون وارتد وبعث نجبة بن أبي المثنى من بني الشريد وأمره بشن الغارة على المسلمين في سليم وهوازن ، فبعث أبو بكر إلى طريفة بن حاجز وعبد الله بن قيس الحاسبي فنهضا إليه ولقياه فقتل نجبة وهرب الفجاء فلحقه طريفة فأسره وجاء به إلى أبي بكر رضي الله عنه فأوقد له في مصلى المدينة حطباً ثم رمى به في النار مقموطاً ، وفاءَتْ بنو سليم كلهم ودخلوا في الإسلام ، وكان منهم أبو شجرة بن عبد العزى السلمي ؛ وهو ابن الخنساء وكان قد ارتد وقال شعراً ، منه قوله :

فرويت رمحي من كتيبة خالد ... وإني لأرجو بعدها أن أُعَمرا

يعني عمر بن الخطاب فلما أسلم قبل أبو بكر رضي الله عنه منه الإسلام ، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه قدم المدينة فرأى عمر يقسم مالاً في المساكين فقال : أعطني فإني ذو حاجة ، فقال : ومن أنت ؟ فقال أبو شجرة بن عبد العزى السلمي ،

قال أي عدو الله لا والله ، ألست الذي تقول :

فرويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

وجعل عمر يعلوه بالدرة على رأسه ، فسبقه عَدْواً إلى ناقته فركبها ولحق بقومه وقال أبياتاً ، منها قوله :

ضَنَّ علينا أبو حفص بنائله وكل مختبط يوماً له ورق

ذكر رِدَّة أهل البحرين

كانت عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ ، فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلى إلى الإسلام وكان قد أسلم ووفد على النبي ﷺ ، فلما رجع إلى قومه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، فلما توفي النبي ﷺ ارتدوا وقالوا : لو كان نبياً ما مات . فقال لهم الجارود تعلمون أن لله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا ومحمد ﷺ قد مات وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأسلموا وثبتوا على إسلامهم ، واجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة إلا الجارود ومن تبعه .

وخرج الحطم بن ضبيعة أخو بنو قيس بن ثعلبة في بكر بن وائل فاجتمع إليه كثير من المرتدين وكثير ممن لم يزل مشركاً حتى نزل القطيف وهجر واستغوى من بهما وبعث بعثاً إلى دارِين وإلى جواثى فحصر المسلمون واشتد الحصر على من بهما ، فبعث أبو بكر رضي الله عنه العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه لقتال أهل الردة بالبحرين ومعه جموع من المسلمين فنزل هجر وبعث إلى الجارود أن ينازل بعبد القيس الحطم بن ضبيعة ، وخندق العلاء والمسلمون على أنفسهم وقاتلوا المرتدين وكانوا يتراجعون القتال ويرجعون إلى خندقهم فكانوا كذلك شهراً ، وسمعوا في بعض الليالي ضوضاء شديدة أي جلبة وصياحاً في المشركين فبعثوا من يأتيهم بالخبر فجاءهم بأن القوم سكارى فبيتوهم ووضعوا السيوف فيهم وفرَّ القوم هراباً واقتحموا الخندق فمن بين متردد وناج ومقتول ومأسور وأبادوا القوم وكفى الله شرهم وقسموا الغنائم ، ثم ندب العلاء الناس إلى دارين وقال لهم قد أراكم الله من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر فانهضوا إلى عدوكم واستعرضوا البحر وارتحل وارتحلوا ، وكان بينهم وبين دارين

بحر فاقتحموا البحر على الخيل والإبل والحمير وغير ذلك وفيهم الراجل ودعا
دعوا ، وكان من دعائهم يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا حيّ
محيي الموتى يا حيّ يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا ، فاجتازوا ذلك الخليج بإذن الله
مشون على مثل رملة فوقها ما يغمر أخفاف الإبل وبين الساحل ودارين يوم وليلة بسفن
بحر فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فظفر المسلمون وانهزم المشركون ، وأكثر
مسلمون فيهم القتل فما تركوا بها مخبراً وغنموا وسبوا ، فلما فرغوا رجعوا حتى
بروا كما جاؤوا ، وضرب الإسلام بجرانه فيها ، وكتب العلاء إلى أبي بكر رضي الله
نه يعرفه هزيمة المرتدين وقتل الحطم بن ضبيعة ، ولما قسمت الغنيمة كان للفارس
ستة آلاف وللراجل ألفان ، وكان مع المسلمين راهب من أهل هجر فأسلم فقيل له
ا حملك على الإسلام ؟ قال ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني الله بعدها ، فيض في
رمال ، وتمهيد ثبج البحر ، ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحراً اللهم أنت
رحمن الرحيم لا إله غيرك البديع فليس قبلك شيء والدائم غير الغافل الحي الذي
يموت وخالق ما يرى وما لا يرى وكل يوم أنت في شأن ، علمت كل شيء بغير
علم ، فعلمت أن القوم لم يُعانُوا بالملائكة إلا وهم على حق ، فكان أصحاب
نبي ﷺ يسمعون هذا منه بعد .

والعلاء بن الحضرمي صحابي مشهور توفي سنة أربع عشرة من الهجرة وكان
جاب الدعوة وأصله من حضرموت ونزل جدة ومكة ، وكان حليفاً لحرب بن أمية ،
كان له في هذه الغزوة آثار محمودة وكرامات كثيرة ، منها : أنهم سلكوا مفازة
عطشوا عطشاً شديداً حتى خافوا الهلاك فنزل العلاء وصلى ركعتين ثم قال : يا حليم
عليم يا علي يا عظيم اسقنا ، فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت عليهم
أمطرت حتى ملؤوا الآنية وسقوا الركاب ، قال الراوي ثم انطلقنا حتى أتينا دارين
لبحر بيننا وبينهم ، وفي رواية أتينا على خليج من البحر ما خيض فيه قبل ذلك اليوم
م نجد سفناً ، وكان المرتدون قد أحرقوا السفن فصلى ركعتين ثم قال : يا حليم
عليم يا علي يا عظيم أجزنا ، ثم أخذ بعنان فرسه ، ثم قال : جوزوا باسم الله .

قال أبو هريرة ـ وكان مع القوم ـ : فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خُفٌّ
لا حافرٌ وكان الجيش أربعة آلاف .

وقال إبراهيم بن أبي حبيبة : حبس لهم البحر حتى خاضوا إليهم وجاوزه العلاء وأصحابه مشياً على أرجلهم وكانت تجري فيه السفن قبل .

ذكر رِدّة أهل عُمَانَ والمُهْرَة

كان على أهل عمان والمهرة عاملان للنبي ﷺ جيغر وعياذ ابنا الجلندى ، فلما توفي النبي ﷺ قام بعمان رجل من الأزد يقال له لقيط بن مالك الأزدي فارتد وادعى النبوة ، وتغلّب على عمان ودفع عنها الملكين فبعث جيغر إلى أبي بكر بالخبر فبعث أبو بكر رضي الله عنه حذيفة بن محصن الحميري إلى عمان وعرفجة البارقي إلى المهرة ، وأمرهما أن يكاتبا جيغراً ويأخذا برأيه ، وكان قد بعث عكرمة بن أبي جهل إلى اليمامة ومسيلمة ، ووقعت عليه النكبة ـ كما مر ـ فأمره بالمسير إلى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان والمهرة ويتوجه إذا فرغ من ذلك إلى اليمن ، فمضى عكرمة فلحق بهما قبل أن يصلا عُمَان ، وقد عهد إليهم أبو بكر أن ينتهوا إلى رأي عكرمة فراسلوا جيغراً وعياذاً ، وبلغ لقيطاً المتغلب مجيء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيغر وعياذ بصحار ، واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة وكاتبوا رؤساء الذين تقدموا بجيوشهم ، ثم عمدوا إلى لقيط وأصحابه فقاتلوهم وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفهم ، وهَمَّ المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم من بني ناجية وعليهم الحريث بن راشد من بني عبد القيس وسيحان بن صوحان فانهزم العدو وظفر المسلمون وقتلوا من العدو نحو عشرة آلاف وسبوا الذراري والنساء ، وتم الفتح وقسموا الغنائم وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر رضي الله عنه وكان الخمس ثمانمئة رأس ، وأقام حذيفة بعمان ، وسار عكرمة إلى المهرة فهزمهم وقتل رئيسهم وأصابوا منهم ألفي نجيبة ، وأجاب أهل تلك النواحي إلى الإسلام وبعث إلى أبي بكر رضي الله عنه بالفتح ، ثم سارعوا إلى اليمن .

ذكر رِدّة أهل اليمن

لما ظهر الأسود العنسي وادعى النبوة قبل وفاة النبي ﷺ ارتد كثير من أهل اليمن ، ثم لما قتل فيروز الديلمي الأسود العنسي رجع كثير منهم إلى الإسلام ، فلما جاءهم خبر وفاة النبي ﷺ ارتد الناس إلا القليل ، وكان أبو بكر رضي الله عنه أقام فيروز

الديلمي أميراً على صنعاء فكان يقاتل كل من قدر على قتاله ، وكان باليمن عمال للنبي ﷺ أقامهم قبل وفاته منهم عمرو بن حزم على نجران للصلاة ومعه أبو سفيان بن حرب على الصدقات وعلى ما بين زمع وزبيد ونجران خالد بن سعيد بن العاص ، وعلى همدان كلها عامر بن شهر الهمداني ، وعلى الجند يعلى بن أمية ، وعلى مأرب أبو موسى الأشعري وعلى علك الطاهر بن أبي هالة ، وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضي وعكاشة بن ثور الغوثي ، وعلى كندة المهاجر بن أبي أمية المخزومي ، وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن ينتقد على هؤلاء وهؤلاء في أعمالهم ، فلما ارتد الناس رجع عمرو بن حزم إلى المدينة وتبعه خالد بن سعيد ، وأما المهاجر بن أبي أمية لما ولاه النبي ﷺ على كندة مرض ولم يصل إليها وأقام زياد بن لبيد ينوب عنه ، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد حارب أهل الردة أولاً بالكتب والرسل ولم يرسل إلى من ارتد وابتدأ بالمهاجرين والأنصار ثم استنفر كلاً على من يليه حتى فرغ من آخر أمور الناس لا يستعين بمرتد ، فكتب إلى عتاب بن أسيد بمكة وعثمان بن أبي العاص بالطائف بركوب من لم يرتد على من ارتد .

وكان قد اجتمع بتهامة أوباش من مدلج وخزاعة فبعث عتاب إليهم ففرقهم وقتلهم ، واجتمع بشنوءة جمع من الأزد وخثعم وبجيلة فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص من فرقهم وقتلهم ، واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من علك والأشعريين ، فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق العكي فهزموهم وقتلوهم وأقام بالأجناد ينتظر أمر أبي بكر ومعه مسروق العكي .

وبعث أبو بكر رضي الله عنه إلى نجران ، وكتب أبو بكر إلى عثمان بن أبي العاص أن يضرب البعوث على مخاليف أهل الطائف فضرب على كل مخلاف عشرين وأَمّر عليهم أخاه عبد الرحمن ، وكتب إلى عتاب بن أسيد أن يضرب على مكة وعملها خمسمئة ، ففعل وأَمَّر عليهم أخاه خالداً بن أسيد ، وأقاموا ينتظرون أمر أبي بكر رضي الله عنه .

فأمر المهاجر بن أبي أمية المخزومي أن يسير إلىٰ عمله الذي ولاه النبي ﷺ وأمره بقتال من بين نجران وأقصىٰ اليمن ففعل ذلك ، ومر بمكة والطائف فسار معه خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبيّ بمن معهما ، ومر بجرير بن عبد الرحمن وعكاشة بن ثور

فضمهما إليه ، وكان عمرو بن معد يكرب وقيس بن مكتوم ممن ارتد فظفر بهما المهاجر فأوثقهما وبعث بهما إلىٰ أبي بكر فتابا فقبل توبتهما وردهما ، وسار المهاجر وقتل كل من ظفر به من المرتدين وقاتل من قاتله وقبل توبة من يتوب إلى أن وصل إلى صنعاء ، وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء فجاء الجواب أن يسير إلى كندة مع عكرمة بن أبي جهل وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من المهرة والأزد وناجية وعبد القيس وغيرهم فساروا مع المهاجر إلى كندة ، وكتب زياد النائب على كندة إلى المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمغارة بين مأرب وحضرموت فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل إلى زياد وشدوا إلى كندة وكان قد ارتد كثير منهم ، وارتد الأشعث بن قيس السكسكي فجعلوه أميراً عليهم فقاتلهم المهاجر وهزمهم وقتل كثيراً منهم وفروا إلى البخير حصن لهم فتحصنوا فيه مع من استغووه فحاصروهم وسدّوا عليهم الطريق وقطعوا عنهم المدد ، ولحق عكرمة المهاجر وهم محاصرون القوم ثم استأمن الأشعث إلى عكرمة فخرج إليه فجاء به إلى المهاجر فأمنه في أهله وماله وتسعة من قومه كانوا خرجوا معه فقال لهم المهاجر اكتبوا ما شئتم وهلموا الكتاب حتى أختمه ، واشترطوا على أنفسهم أن يفتحوا لهم باب الحصن ففعلوا ، فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية والنساء فكان في السبي ألف امرأة ، وكان الأشعث بن قيس لما كتب الصحيفة وختم عليها المهاجر كتب التسعة ونسي أن يكتب نفسه فلما فرغوا من القتل والسبي طلب المهاجر الصحيفة التي كتبوها والتي ختم عليها فإذا الأشعث ليس مكتوباً معهم ، فقال المهاجر الحمد لله الذي أخطأنك يا أشعث يا عدو الله قد كنت أشتهي أن يخزيك الله وشده كتافاً فقيل له أخّره وسيره إلى أبي بكر فهو أعلم بالحكم فيه ، فسيّره إلى أبي بكر مع السبي فكان المسلمون يلعنونه سبايا قومه وسماه نساء قومه عرف النار وهو اسم الغادر عندهم ، فلما قدم المدينة قال له أبو بكر : ما تراني أصنع بك ؟ قال : لا أعلم . قال : فإني أقتلك . قال : فأنا إذا راوضت القوم في عشرة فما يحل دمي . قال أبو بكر : فأوجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فيها وإنما كنت قبل ذلك مراوضاً ، فلما خشي القتل قال : أَوَ تَحْتسب فيّ خيراً فتطلق الأسارى وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بأمثالي وترد عليَّ زوجتي ، وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر لما قدم على النبي ﷺ وأخّرها إلى أن يقدم الثانية فتوفي النبي ﷺ وارتد ، فإن

فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله فحقن دمه وزوجه أخته وحسن إسلامه وأقام بالمدينة حتى فتح العراق وشهد فتح القادسية واليرموك وكان مع علي رضي الله عنه في قتال صفين ، وتوفي بالكوفة سنة اثنتين وأربعين من الهجرة وقيل بعد علي رضي الله عنه بأربعين يوماً وصلى عليه الحسين بن علي رضي الله عنهما .

قال ابن الأثير : قد اختلف في تاريخ حرب المسلمين هؤلاء المرتدين فقال ابن إسحٰق : كان فتح اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود إلىٰ الشام سنة اثنتي عشرة ، وقال أبو معشر ويزيد بن غياض وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر : إن فتوح الردة كلها لخالد وغيره كان سنة إحدى عشرة ، وكان مسير خالد إلى العراق في أوائل سنة اثنتي عشرة إلى ذي القعدة منها ، وهذا القول هو الذي يدل عليه سياق تلك الوقائع .

ذكر فتوح الشام

لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أهل الردة واستقامت له العرب حدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد ، فبينما هو كذلك إذ رأى شرحبيل بن حسنة في المنام صورة غزو الشام وبعث الجند ، فجاءه شرحبيل وجلس إليه فقال : يا خليفة رسول الله أحدثت نفسك بالغزو ، وأنت تبعث إلى الشام جنداً ؟ قال : نعم حدثت نفسي بذلك ولم يطلع عليه أحد وما سألتني إلا لشيء ، فأخبره شرحبيل بما رأى فأوّله أبو بكر ببعثه جنداً إلى الشام وفتحها عليهم ، ثم إنه بعد ذلك أمر الأمراء وبعث إلى الشام البعوث .

وعن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي رضي الله عنه قال : لما أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم وشاورهم وكلهم استصوبوا رأي أبي بكر رضي الله عنه ، وقالوا ما رأيت من الرأي فأمضه فإنّا سامعون مطيعون لا نخالف أمرك وعلي رضي الله عنه في القوم لا يتكلم ، فقال أبو بكر ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : أرى أنك مبارك الأمر ميمون النقيبة فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت عليهم نصرت إن شاء الله تعالى ، قال : بشّرك الله بخير ، ومن أين علمت هذا ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يزال هذا الدين ظاهراً على من ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون »

فقال أبو بكر : سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتني سرّك الله في الدنيا والآخرة ، ثم إنه قام في الناس خطيباً ورَغّب الناس في الجهاد ثم أمر بلالاً فأذن في الناس انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، ثم شرع في بعث الجيوش ، وكان ذلك في افتتاح سنة ثلاث عشرة من الهجرة وقيل في أول السنة التي قبلها حين بعث خالد بن الوليد إلى العراق ، وكتب الكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وغيرها فكتب لهم جميعاً بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ ، وقد عزمت أن أوجهكم إلى ناحية بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة ، فمن عَوّل منكم على الجهاد والصدام فليبادر إلى طاعة

الملك العلام ، ثم كتب ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] ثم بعث الكتب إليهم وأقام ينتظر قدومهم ، وكان الذي بعثه بالكتب التي لليمن أنس بن مالك رضي الله عنه ، فما مرت الأيام حتى قدم أنس رضي الله عنه يبشره بقدوم أهل اليمن وقال : يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا بادر لطاعة الله ورسوله وأجابوا دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد والزرد النضيد وقد أقبلت إليك يا خليفة رسول الله مبشراً بقدوم الرجال ، فَسُرَّ أبو بكر رضي الله عنه بقوله سروراً عظيماً ثم عقد الألوية وأمر الأمراء وبعثهم إلى الشام أفواجاً يتبع بعضهم بعضاً ، كلما اجتمع جماعة أمرهم بالتوجه ، فمن الأمراء الذين عقد لهم الألوية : أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وربيعة بن عامر وشرحبيل بن حسنة وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وغيرهم ، وجعل كل واحد أميراً على جماعة وأمره بالتوجه إلى الموضع الذي عينه له وجعل أبا عبيدة أميراً على الجميع ، وكلما توجه أمير يودعه أبو بكر رضي الله عنه ويوصيه ، فكان يوصيهم بوصايا كثيرة ، منها : تقوىٰ الله وحسن الصحبة والمواظبة على الصلوات في أوقاتها جماعة ، وأن يصلح كل منهم نفسه حتى يصلح الله له الناس ، وأن يكرموا رسل العدو إذا قدموا إليهم ، وأن يقللوا لبثهم عندهم حتى يخرجوا من عسكرهم وهم جاهلون لم يطلعوا على شيء من الخلل وأن يمنعوا عسكرهم من محادثتهم ، وأن يكون الأمير هو المتولي لكلامهم ، وأن يكثروا الحرس ويفرقوهم في العسكر ، وأن يكثروا مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم ، فمن وجدوه غَفَل يعاقب بغير إفراط ، وأن يعاقب بينهم في الليل ويجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة وألاّ يغفلوا عن العسكر فيفسدوا ، ولا يجسسوا عليهم فيفضحوهم ، ولا يكشفوا على الناس أسرارهم بل يكتفون بعلانيتهم ، وأن يكثروا من مجالسة أهل الصدق والوفاء وأن يشاوروهم وألاّ يجبنوا فيجبن الناس ، وأن يجتنبوا الغلول فإن الغلول يقرب الفقر ويدفع النصر ، وقال : ستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، إلى غير ذلك مما أوصاهم به .

وكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو لهم إذا خرجوا ، فمن دعائه : اللهم احفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم واحْطُط أوزارهم وأعظم أجورهم .

ولما بلغ هرقل مسير جيوش المسلمين حشد جيوشه وكان بفلسطين فحث الناس وحرضهم على القتال عن دينهم وبلادهم ، ثم أتى دمشق ففعل مثل ذلك ، ثم أتى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم أتى أنطاكية فأقام بها ، وبعث إلى الروم فحشدهم فجاء منهم ما لا يحصى .

ولما دنا أبو عبيدة من الجابية أتاه آت فأخبره أن هرقل بأنطاكية وأنه جمع من الجموع ما لم يجمعه أحد كان قبله من آبائه ، فكتب إلى أبي بكر رضي الله عنه بذلك فجاءه الجواب بعده بالنصر ثقة بوعد الله رسولَ الله ﷺ ، وذكر له أنه ممد له بالرجال ، ثم أمدهم بجند مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وسعيد بن عامر وبجند مع معاوية مدداً لأخيه يزيد ، وكان الناس أقبلوا من كل جهة يريدون الجهاد فكان أبو بكر رضي الله عنه كلما اجتمع أناس بعثهم مدداً لمن سبقهم .

ذكر أول وقعة بالشام

أول وقعة بالشام كانت بالعربة من أرض فلسطين ، خرج ستة قواد من الروم مع كل قائد خمسمئة فكانوا ثلاثة آلاف ، فبعث إليهم يزيد بن أبي سفيان أبا أمامة الباهلي في خمسمئة فحملوا عليهم وهزموهم وقتلوا كثيراً منهم وقائداً من قوادهم ، فاجتمع كثير من الروم بالدثنة فساروا إليهم فهزموهم ، وزحفت جيوش المسلمين حتى قربوا من الشام ، فعند ذلك فزع الروم وأرسلوا إلى ملكهم فأمدهم بجموع كثيرة نحو تسعين ألفاً فنزلوا بثنية جِلّق بأعلى فلسطين وعليهم أخو هرقل شقيقه ونزل هرقل بحمص ، وكان في جهة فلسطين عمرو بن العاص بمن معه من المسلمين ، وبعث هرقل ستين ألفاً نحو أبي عبيدة بالجابية وبعث جيشاً قريباً من ذلك نحو يزيد بن أبي سفيان وكان نازلاً بالبلقاء وجيشاً نحو شرحبيل بن حسنة وكان نازلاً ببصرى ، فرأى المسلمون أن الاجتماع أليق بهم من التفرق فاجتمعوا باليرموك وهو واد بناحية الشام ، وجاء الروم أيضاً واجتمعوا باليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وأقام الجميع شهر صفر وشهري ربيع لا يقدرون منهم على شيء من الوادي والخندق ، ولا يخرج الروم خرجة إلا أخذهم المسلمون وأديلوا عليهم فكانت بينهم وقعات ومناوشات في تلك المدة .

ولما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر رضي الله عنه فكتب إلى

خالد بن الوليد وهو بالعراق يأمره بالمسير إليهم وأن يأخذ نصف الناس الذين عنده ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني ، فسار خالد من العراق في تسعة آلاف وقيل في ستة وأغار في طريقه على كثير من المشركين وأخذهم وناله مشقة كثيرة في مسيره هذا وسار في مفاوز ليس فيها ماء فأمر صاحب كل جماعة أن يعطّشوا بعض الإبل المسنّة ثم يسقوها الماء عللاً بعد نَهَل ـ والعلل الشربة الثانية والنَّهلُ الأولى ـ ثم يصرّوا آذان الإبل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ، ثم ساروا يوماً وليلة وشقوا بطون عشرة من الإبل فمزجوا ما في كرشها من الماء بما كان من الألبان وسقوا ذلك للخيل ، فعلوا ذالك أربعة أيام ، ولما وصل ثنية العقاب وهي من أرض الشام ناشراً رايته وهي راية سوداء كانت لرسول الله ﷺ تسمى العقاب ، أغار على غسان وهم من نصارى العرب الذين بالشام فضجهم وقتل وسبى وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال وسبوا النساء وساقوا العيال إلى خالد ، ثم سار حتى وصل إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم ثم صالحهم ، فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق ، وقيل إن فتح بصرى كان بعد اليرموك ، ثم سار خالد فطلع على المسلمين في ربيع الآخر ، وكان أبو بكر رضي الله عنه كتب لخالد أن يسير من العراق إلى الشام ويلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام ، فكتب خالد كتاباً لأبي عبيدة وأرسله مع عمرو بن الطفيل الأزدي وفيه :

أما بعد : فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتوالي لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته فأنت على حالك التي عليه لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك تمم الله بنا وبك من إحسان ورحمنا وإياك من صلىٰ النار ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فلما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال : بارك الله لخليفة رسول الله ﷺ فيما رأى وحَيّا الله خالداً .

وكان أبو بكر رضي الله عنه كتب لأبي عبيدة رضي الله عنه :

أما بعد : فإني قد وليت خالداً قتال العدو بالشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فإني لم أبعيه عليك ألاَّ تكون عندي خيراً منه ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك خيراً والسلام .

ذكر وقعة اليرموك

لما وصل خالد بن الوليد وتكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا تسعة وثلاثين ألفاً سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل ، وقيل كانوا ستة وثلاثين ألفاً سوى من كان مع عكرمة فيكونون جميعاً أربعين ألفاً ، وكان فيهم ألف صحابي منهم نحو مئة ممن شهد بدراً ، وكان الروم في مئتي ألف وأربعين ألف مقاتل ثمانين ألفاً مقيداً وأربعين ألفاً مسلسلاً للموت وأربعين ألفاً مربوطاً بالعمائم لئلا يفروا وثمانين ألفاً راجلاً ، وكان قتال المسلمين لهم على التساند كل أمير على أصحابه لم يجمعهم أحد حتى قدم خالد من العراق ، وكان القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهراً ، ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال في جمادى الآخرة ، فلما أحس المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين كما كانوا قبل ذلك فمنعهم خالد وسار فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا فيه جهادكم وأرْضُوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم متساندون فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترونه رأياً . قالوا : هات فما الرأي ؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا قالاً وهو يرى أنّا سنتياسر ولو علم بالذي كان لما جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا تنقصه منه إن دان من الأمراء ولا يزيد عليه إن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ، هلمّوا هؤلاء فإن هؤلاء قد تهيؤوا وإن هذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعده ، فهلمّوا فلنتناول الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى تتآمروا كلكم ودعوني أتأمر اليوم فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم ، فخرجت الروم في تعبئة لم ير الراؤون مثلها

قط وخرج خالد في تعبئة لم تعبِّئْها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً ، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرجبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان ، وجعل القعقاع بن عمرو على كردوس وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان ، وكان القاضي أبا الدرداء والقاص أبا سفيان بن حرب وعلى الطلائع قباث بن أشيم وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود ، وقال رجل لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان ، والله لوددت أن الأشقر يعني فرسه براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد ، وكان فرسه قد حفي في مسيره فأمر خالد عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وتقاتلوا فإذا هم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وأمداد مع أنه إنما جاء بخبر وفاة أبي بكر رضي الله عنه واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وولاية أبي عبيدة فبلغه خالداً وأبا عبيدة سراً ، وبينما هم كذلك إذ خرج فارس من فرسان الروم يقال له جرجة إلى بين الصفين وطلب خالداً فخرج إليه وأمّن كلٌ منهما صاحبه ، فقال جرجة : يا خالد أخبرني وأصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : ففيم سميت سيف الله ؟ فقال : إن الله بعث فينا نبيه محمداً ﷺ فكنت فيمن كذبه وقاتله ثم إن الله هداني فتابعته ، فقال : أنت سيف الله سَلَّه الله على المشركين ودعا لي بالنصر . قال : فأخبرني إلامَ تدعو ؟ قال خالد : إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب . قال : فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم ؟ قال : منزلتنا واحدة . قال : فهل له مثلكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل لأننا اتبعنا نبينا وهو حي يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا فمن دخل منكم بنية وصدق كان أفضل منا . فقلت جرجة فرسه وسار مع خالد وأسلم وعلمه الإسلام واغتسل وصلى ركعتين ، ثم خرج مع خالد فقاتل الروم وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى المحامية وعليهم عكرمة بن أبي جهل وعمه الحْرث بن

هشام رضي الله عنهما ، فقال عكرمة قاتلت مع النبي ﷺ ثم أفر اليوم ، ثم نادى من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحٰرث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثخنوا جميعاً جراحاً ، فمنهم عن برئ ومنهم من مات ، وقاتل خالد وجرجة قتالاً شديداً فقتل جرجة عند آخر النهار وصلى الناس الظهر والعصر إيماء وتضعضع الروم وحمل خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسانهم وتركوا الرجالة ، ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجهت للهرب أفرجوا لها فتفرقت ، وقتل الرجالة واقتحموا في خندقهم فاقتحموه عليهم وهوى فيه المقترنون وغيرهم ثمانون ألفاً من المقترنين وأربعون ألفَ مطلقٍ سوى من قتل في المعركة ، وتجلل الفيقار وجماعة من أشراف الروم وبرانيسهم وجلسوا فقتلوا متزملين ، ودخل خالد الخندق ثم نزل في خيمة تذارق أخي هرقل ، فلما أصبحوا أُتي خالد بعكرمة بن أبي جهل جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمر بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجوههما وقطر في حلوقهما الماء ، وكان مع المسلمين كثير من النساء فقاتلن في ذلك اليوم قتالاً كثيراً .

وفي السيرة الحلبية : وكان أبو سفيان بن حرب في ذلك اليوم يقاتل ويحرض المسلمين على القتال ويقول : الله الله عباد الله انصروا دين الله ينصركم الله ، وأصيبت إحدى عينيه في ذلك اليوم فصار أعمى لأنه أصيب عينه الأخرى في غزوة الطائف فجاء بها إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله ويردها له فقال له : « إن شئت دعوت الله وإن شئت خيراً منها في الجنة ؟ » فرمى بها وقال خيراً منها في الجنة .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه رأيته في خلافة عثمان رضي الله عنه وهو أعمى يقوده قائد فيدخل به على عثمان رضي الله عنه .

ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص فنادى بالرحيل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميراً كما أمر على دمشق ، وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمر وعمه الحارث بن هشام وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد وأبان بن سعيد والطفيل بن عمرو بن طليب بن عمير وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص وعياش بن أبي ربيعة وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدي السهيمي ونعيم بن النحام والنضير بن الحارث العبدري أخو النضر بن الحارث الذي قتل كافراً يوم بدر

وأبو الروم بن عمير العبدري أخو مصعب بن عمير ، وقيل قتلوا يوم أجنادين .

أخرج ابن عساكر عن الزهري أن عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه كان يوم اليرموك أعظم الناس بلاء وأنه كان يركب الأسنة ويقاتل قتالاً شديداً حتى جرحت الأسنة صدره ووجهه فقالوا له اتق الله وارفق بنفسك ، فقال : كنت أنا وأبي من أشد الناس علىٰ النبي ﷺ وكنت أقاتل عن اللات والعزى فأبذل نفسي لها فكيف أستبقيها الآن عن الله ورسوله ؟ لا والله أبداً . قال فلم يزدد إلا إقداماً حتى مات يومئذ ووجدوا به بضعاً وسبعين ما بين ضربة وطعنة ورمية .

وأخرج ابن المبارك والبيهقي أن عكرمة بن أبي جهل ترجَّل يوم كذا يقاتل ، فقال خالد بن الوليد : لا تفعل فإن قتلك على المؤمنين شديد ، فقال : خلّ عنّي يا خالد فإنه قد كان لك مع رسول الله ﷺ سابقة وإني وأبي كنّا من أشد الناس على رسول الله ﷺ فمشى وقاتل حتى قتل ، وكان عكرمة يعظم القرآن غاية التعظيم .

وذكر الإمام الغزالي في كتاب آداب تلاوة القرآن من إحياء علوم الدين أن عكرمة المذكور كان إذا نشر المصحف غشي عليه ويقول : هو كلام ربي هو كلام ربي .

وروى أبو نعيم وابن منده وابن عبد البر عن حبيب بن أبي ثابت أن الحارث بن هشام وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل وعياش بن أبي ربيعة وأخا الحارث بن هشام لأمه جرحوا يوم اليرموك ، فلما أثبتوا دُعي للحارث بن هشام بماء ليشربه فنظر إلى عكرمة فقال : ادفعه إلى عكرمة ، فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياش ، فقال : ادفعه إلى عياش ، فما وصل إلى عياش حتى مات ، ولا وصل إلى واحد منهم حتى مات رضي الله عنهم ، وهذا شأن كلهم في هذا الإيثار .

ومما يدل على ذلك أن مثل هذه القصة بعينها قد تكررت في كثير منهم فقد روى ابن المبارك عن أبي جهل حذيفة العدوي ، قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شنة من ماء وإناء فقلت إن كان به رمق سقيته من الماء ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به ينشغ فقلت أسقيك ؟ فأشار أيْ نعم ، فإذا رجل يقول آه فأشار ابن عمي أن انطلق إليه فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص رضي الله عنهما فأتيته فقلت أسقيك ؟ فسمع آخر يقول آه فأشار إلى هشام أن انطلق إليه فجئت فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا

هو قد مات فأتيت ابن عمي فإذا هو قد مات رحمهم الله تعالى ورضي عنهم .

وهذا الذي ذكرناه في وقعة اليرموك هو أصح الأقوال ، وكذا كونها في سنة ثلاث عشرة هو أصح الأقوال ، وأنها قبل فتح الشام وقيل بعد وقعة أجنادين وبعد فتح الشام ، وأنّ واقعة اليرموك وأجنادين كانتا سنة خمس عشرة ، وقيل في وقعة اليرموك إن جيش الروم كان ستمئة ألف وقيل ألف ألف ، وكان مع الروم من العرب المتنصرة ستون ألفاً من غسان ولخم وجذام وأن القتال كان بين المسلمون ومتنصرة العرب ، فلما هزموا زحف الروم بجيوشهم ودام الحرب أياماً كثيرة إلى أن تمت الهزيمة على الروم ، وكان القتلى من الروم لا يحصى عددهم ، وقيل كانوا مئة ألف وخمسة آلاف والأسرى كانوا أربعين ألفاً ، وإن قتلى المسلمين أربعة آلاف ، ولما قسمت الغنائم أصاب الفارس أربعة وعشرون ألف مثقال من الذهب الأحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة ، واتبع خالد بن الوليد المنهزمين من الروم إلى قريب دمشق الشام ومعه كثير من المسلمين يقتلون ويأسرون فيهم ، وكان وقعة اليرموك من أعظم وقائع الإسلام ، ومن المعجزات الدالة على صدق النبي ﷺ ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر وقعة أجنادِين

الأكثرون على أنها بعد اليرموك ، وقيل إنها كانت قبل اليرموك ، وحاصلها أن الروم اجتمع كثير من جنودهم قيل إنهم كانوا تسعين ألفاً بأجنادين ، فسار لهم جيوش المسلمين ونازلوهم وكان على الروم تذارق أخو هرقل لأبويه ، وقيل كان على الروم القيقلان ، وأجنادين ، يُرى بكسر الدال وفتحها ، بين الرملة وبيت جرين من أرض فلسطين ، ولما نزلت الروم بأجنادين واجتمع المسلمون وعسكروا عليهم ، بعث القيقلان رجلاً غريباً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم فدخل فيهم وأقام يوماً وليلة ثم عاد إليه فقال ما وراءك ؟ قال : وجدت قوماً رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ولو زنى رجموه لإقامة الحق فيهم . فقال : إن كنت صدقتني لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها .

ثم انتشب القتال بين المسلمين والروم وكان قتالاً شديداً قتل فيه من المشركين في المعركة ثلاثة آلاف ، وقيل إن قتلاهم بلغوا خمسين ألفاً وقتلى المسلمين أربعمئة وخمسة

وسبعين واتبعهم المسلمين يأسرون ويقتلون ، ثم تحصن المنهزمون منهم في المدائن العظام كدمشق وحمص وإيلياء وقيسارية ، واستشهد رجال من المسلمين منهم الفضل بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما وضرار بن الخطاب الفهري وآخرون رحمهم الله ورضي عنهم ، وقتل تذارق أخو هرقل في وقعة أجنادين ، وقيل في معركة اليرموك .

ذكر فتح دمشق

لما انهزم الروم جاء الخبر لأبي عبيدة أنهم اجتمع لهم جيش بِفِحل ، بكسر الفاء ، وهو موضع بناحية الشام وأتاه الخبر أيضاً بأن أهل دمشق جاءهم مدد من حمص ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فجاءه الجواب يأمره فيه بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكهم ، وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بإزائهم ، وإذا فتح دمشق سار إلى فحل فإذا فتحت سار هو وخالد إلى حمص ، وترك شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص بالأردن وفلسطين ، فامتثل أبو عبيدة أمر عمر رضي الله عنه فأرسل إلى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريباً منها ، وبثق الروم الماء حول فحل فوحلت الأرض فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق وفلسطين ، وبعث أبو عبيدة جنداً فنزلوا بين حمص ودمشق ، وأرسل جنداً آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين ، وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعلى فسطاس ، فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو بن العاص على ناحية ويزيد بن أبي سفيان على ناحية فحصرهم المسلمون سبعون ليلة حصاراً شديداً ، وقاتلوهم بالزحف والمجانيق ، وجاءت خيول من هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون ، واتخذ خالد بن الوليد حبالاً كهيئة السلالم وأدهاقاً ، والدهق الحبل يُرْمىٰ في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان ، فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور ، وأثبتوا الحبال بالشرف ، وكان ذلك الموقع أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم تحدر خالد وأصحابه وترك بذلك الموضع من يحميه وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين ، وثار أهل المدينة

لا يدرون ما الحال ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل من عنده من الروم ، فلما رأى الروم ذلك قصدوا الجهة الأخرى التي فيها أبو عبيدة وقصدوا أبا عبيدة وبذلوا الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب الذي من جهته وقالوا له ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ، ولم يعلم أبو عبيدة بما صنع خالد ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم غير الباب الذي دخل منه أصحاب خالد ودخل خالد عنوة فالتقى خالد وأبو عبيدة في وسط المدينة هذا قتلاً ونهباً وهذا صفحاً وتسكيناً فأمر أبو عبيدة خالداً أن يكف ، وقال إني صالحت القوم ، فقال خالد : إني دخلتها عنوة فتنازعا في ذلك ، ثم أجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صلحهم على المقاسمة وقسموا معهم للجنود التي عند فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو ردء للمسلمين .

هذا هو الصحيح في كيفية دخول خالد وأبي عبيدة ، وقيل إن خالداً ومن معه نقبوا جانباً من السور ودخلوا منه ، ويمكن أن جماعة منهم دخلوا بالحبال التي صنعها وجماعة آخرون نقبوا جانباً من السور ، وأما أبو عبيدة وبقية الأمراء فإنهم دخلوا بالصلح الذي عقد مع أبي عبيدة .

وقد تقدم أن خبر وفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبي عبيدة جاءهم وهم في قتال اليرموك سنة ثلاث عشرة وفتح دمشق كان في رجب سنة أربع عشرة في خلافة عمر رضي الله عنه ، وقيل إنما جاءهم خبر وفاة أبي بكر بعد فتح دمشق سنة ثلاث عشرة ، وإن وفاة أبي بكر رضي الله عنه كان في الليلة التي دخلوا فيها دمشق ، وكان ذلك لثمان بقين من جمادىٰ الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، والقائلون بأن خبر وفاته إنما جاء بعد فتح دمشق هم القائلون بأن وقعة اليرموك كانت بعد فتح دمشق وأنها سنة خمس عشرة ، والقول الأول أصح ، وإنما عزل عمر رضي الله عنه خالداً لأنه كان ينقم عليه مالك بن نويرة ، وقال أيضاً إنّ خالداً فيه تبذير للمال يعطي الشاعر إذا مدحه ويعطي للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحق ولا يبقي لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئاً ، وكان ذلك اجتهاداً من عمر ، وما وقع من خالد كان أيضاً باجتهاد وكل منهما مأجور ولا يريد إلا الحق ، ولما جاء أمر عمر رضي الله عنه بعزله امتثل أمره وما زال أبو عبيدة يستشيره ولا يعمل إلا برأيه ومشورته ، وكان كل منهما يعرف قدر صاحبه وما خص به من الفضائل رضي الله عنهم .

ولما فتحت دمشق وأرسل أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما بالفتح فكان لعمر وأهل المدينة سرور كثير عند ورود خبر الفتح وكتب له عمر أن يرسل الجند الذين جاؤوا من العراق مع خالد فأرسلهم إلى العراق وأَمَّر عليهم هاشم بن أبي وقاص وبقي خالد مع أبي عبيدة ، وسيأتي إن شاء الكلام على بقية فتوحات العراق .

ذكر غزوة فِحل

بكسر الفاء وبالحاء المهملة . لما فتحت دمشق سار أبو عبيدة إلى فحل ، واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان ، وبعث خالداً على المقدمة وعلى الناس شرحبيل بن حسنة ، وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص ، وعلى الخيل ضرار بن الأزور ، وعلى الرجالة عياض بن غنم ، وتقدم أَنَّ الروم بثقوا الماء حول فحل فوحلت الأرض فنازل المسلمون أهل فحل وبينهم وبين الروم تلك المياه والأوحال ، وكتب المسلمون إلى عمر رضي الله عنه وأقاموا ينتظرون الجواب فاغْتَرَتهم الروم فخرجوا عليهم وكان على الروم سقلار بن الخارق فأتوهم والمسلمون حذرون ، وكان شرحبيل بن حسنة لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة ، فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد القتال ليلتهم ويومهم وأظلم الليل عليهم فانهزم الروم وهم حيارى وقد أصيب رئيسهم سقلار والذي يليه نسطوس وظفر المسلمون بهم وركبوهم ، ولم تعرف الروم مأخذهم ، فانتهت بهم الهزيمة إلى الوحل فركبوه ، ولحقهم المسلمون فأخذوهم بحيث إنهم صاروا لا يمنعون يد لامس فزحزحوهم بالرماح ، فكانت الهزيمة بفحل والقتل بالردع فأصيب الروم وهم ثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد ، وقد كان الله يصنع بالمسلمين خيراً وهم كارهون كرهوا البثوق والوحل فكانت عوناً لهم على عدوهم وغنموا أموالهم واقتسموها ، ثم سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما إلى حمص ، وسيأتي ذكر ذلك .

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على دمشق وسار إلى فحل بعث يزيدُ دحيةَ الكلبي إلى تدمر وأبا الأزهر القشيري إلى حوران ، فصالحوا لهما ووليا عليهما ،

وسار يزيد إلى مدينة صيدا وعرقة وجبيل وبيروت ، وهي سواحل دمشق على مَقْدَمِهِ أخوه معاويةُ ، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثيراً من أهلها وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه في ولاية أخيه يزيد ، ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر ولاية عمر وأول ولاية عثمان ، فقصدهم معاوية ففتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع ، ولما ولي عثمان الخلافة جمع لمعاوية الشام كله فوجه معاويةُ سفيانَ بن نجيب الأزديَّ إلى طرابلس ، وهي ثلاث مدن مجتمعة ثم بنى في مرج على أميال منها حصن سفيان فقطع المادة عن أهلها من البر والبحر وحاصرهم ، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى الروم ، فوجه إليهم بمراكب كثيرة وركبوا فيها ليلاً وهربوا ، فلما أصبح سفيان وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ثم يغدون على العدو فوجد الحصن خالياً فدخله وكتب بالفتح إلى معاوية فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود وهو الذي فيه الميناء اليوم ، ثم بناه عبدالملك بن مروان وحصنه ، ثم نقض أهله أيام عبد الملك ففتحه ابنه الوليد في زمانه .

ذكر فتح بيسان وطبرية

لما قصد أبو عبيدة حمص من فحل أرسل شرحبيل بن حسنة ومن معه إلى بيسان فقاتلوا أهلها فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم صالحه من بقي مثل صلح دمشق فقبل ذلك منهم ، وكان أبو عبيدة قد بعث أبا الأعور السلمي إلى طبرية يحاصرهم فصالحه أهلها على مثل صلح دمشق أيضاً وأن يشاطروا المسلمين المنازل ، فنزلها القواد وكتبوا بالفتح إلى عمر رضي الله عنه .

ولقرب الزمن في تلك الغزوات وقرب بعضها من بعض اختلفوا في تقدم بعضها على بعض ، والأمر في ذلك سهل .

ذكر الوقعة بمرج الروم

لما سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما من فحل قاصدين حمص بلغ الخبر هرقل ، فبعث جيشاً عليهم توزر البطريق فنزل بمرج الروم غربي دمشق ، ونزل أبو عبيدة أيضاً بمرج الروم ونازله يوم نزوله شغش الرومي في مثل جيش توزر مدداً لتوزر وعوناً لأهل

حمص ، فلما نزل أصبحت الأرض من توزر بلاقع وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شغش ، وسار توزر يطلب دمشق ، فلما علم خالد بمسيره سار خلفه في جمع ممن معه وبلغ يزيد بن أبي سفيان فعل توزر فخرج من دمشق واستقبله فاقتتلوا فلحقهم خالد ولم يفلت منهم إلا الشريد ، وغنم المسلمون ما معهم فقسمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد ، وعاد يزيد إلى دمشق ورجع خالد إلى أبي عبيدة ، وقد قتل توزر وقاتل أبو عبيدة شغش فاقتتلوا بمرج الروم فقتلت الروم مقتلة عظيمة وقتل شغش وتبعهم المسلمون إلى حمص ، فلما بلغ هرقل ذلك أمر بطريق حمص بالمسير إليها وكان عنده وسار هو إلى الرها وسار أبو عبيدة إلى حمص .

ذكر فتح حمص وبعلبك وغيرهما

لما فرغ أمر مرج الروم سار أبو عبيدة والمسلمون إلى حمص فنازلوها وقاتلوا أهلها فكانوا يغادونهم القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد ، ولقي المسلمون برداً شديداً ولقي الروم حصاراً طويلاً فصبر المسلمون والروم ، وكان هرقل قد أرسل إلى حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها التجهز إلى حمص فثاروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين ، فسيَّر سعد بن أبي وقاص من العراق السرايا إلى هيت وحصروها وسار بعضهم إلى قرقيسيا فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص فكان أهلها يقولون تمسكوا بمدينتكم فإنهم حفاة فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم ، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين أصبع ، فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم إلى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه وقام آخر فلم يجيبوه ، فناجزهم المسلمون فكبروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدعت فكبروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك فخرج أهلها إليهم يطلبون الصلح ولا يعلم المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وصالحوهم على مثل صلح دمشق وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الأسود الكندي في بني معاوية والأشعث بن ميناس في السكون والمقداد في بَليّ وأنزلها غيرهم أيضاً ، وبعث بالأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عبدالله بن مسعود ، وكتب إلى أبي عبيدة أن أقم بمدينتك وادع أهل القوة من عرب الشام فإني غير تارك البعثة إليك ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار إلى حماة

فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤوسهم والخراج على أرضهم ، ومضى نحو شيزر فخرج إليه أهلها يسألونه الصلح على ما صالح عليه أهل حماة فصالحهم وسار إلى معرة حمص ، وهي معرة النعمان نسبت إلى النعمان بن بشير الأنصاري ، فأذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص ، ثم أتى اللاذقية فقاتله أهلها وكان لها باب عظيم يفتحه جمع من الناس ، فعسكر المسلمون على بعد منها ، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة يستر الحفرة منها الفارس راكباً ثم أظهروا أنهم عابرون عنها ورحلوا ، فلما جَنَّهم الليلُ عادوا واستتروا في تلك الحفائر وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون المسلمين قد انصرفوا عنهم فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة ، وملكت عنوة ، وهرب قوم من النصارى ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلّوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم ، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بناه عبادة بن الصامت ثم وسع فيه بعد ، ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة من الروم عنها ، فلما كان زمن معاوية بنى حصناً خارج الحصن الرومي وشحنه بالرجال ، وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت طرسوس وكان حصناً فجلا عنه أهله فبنى معاوية مدينة طرسوس ومصّرها وأقطع بها القطائع للمقاتلة ، وكذلك فعل بِبُلُنْياس وفتح سَلَمْية أيضاً .

ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين ، فلما نزل الحاضر زحف إليهم الروم وعليهم ميناس ، وكان من أعظم الروم بعد هرقل ، فاقتتلوا وقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها ، فماتوا على دم واحد ، وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه ، فقال المسلمون لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ، فنظروا في أمرهم ورأوا ما لقي أهل حمص فصالحوهم على مثل صلح حمص ، فأبى خالد إلا على خراب المدينة فأخربها فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية ، وسببه أن خالداً وعياضاً أدربا إلى هرقل من الشام وأدرب عمرو بن مالك من الكوفة فخرج من ناحية قرقيسيا ، وأدرب عبدالله بن المعتمر من ناحية الموصل ثم رجعوا ، فعندها دخل هرقل القسطنطينية ، فبلغ عمر صنيع خالد ، قال : أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو

كان أعلم بالرجال مني ، وقد كان عزله والمثنى بن حارثة وقال : إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما .

ولما سار هرقل إلى القسطنطينية خرج من الرها فنزل بشمشاط ، ثم أدرب منها إلى القسطنطينية ، فلما أراد المسير من شمشاط علا نَشْزاً ثم التفت إلى الشام ، فقال : السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم ويا ليته لم يولد ، فما أحلى فعله وأمر فتيته على الروم ، ثم سار فدخل القسطنطينية وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندرونة وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم وشعث الحصون ، فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً وربما كمن عندها الروم فأصابوا من المختلفين فاحتاط المسلمون لذلك .

ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

لما فرغ أبو عبيدة من قنّسرين سار إلى حلب ، فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا فوجه إليهم السمط الكندي فحصرهم وفتحها وأصاب فيها بقراً وغنماً فقسم بعضه في جيشه وجعل بقيته في المغنم ، ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو قريب منها فجمع أصنافاً من العرب المتنصرة فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك ، وأتى حلب فتحصن أهلها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم ، وحصرهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد .

ثم سار أبو عبيدة إلى أنطاكية وقد تحصن بها كثير من الخلق من قنسرين وغيرها وحاصرها من جميع الجوانب ، ثم إنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية ، فجلا بعض وأقام بعض ، فأمنهم ، ثم نقضوا ، فوجه إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الأول .

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين ، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء ، وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً من الروم بين معرة مَصْرِين وحلب ، فسار إليهم فلقيهم فهزمهم

وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم ، وفتح معرة مَصْرِين على مثل صلح حلب وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين وتيزين ، وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية ، ثم أتى أبو عبيدة حلب وقال : التاث أهلها فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة ، وسار أبو عبيدة يريد قورُس فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح فصالحه على مثل صلح أنطاكية ، وبثَّ خيله فغلب على جميع أرض قورس ، وفتح تل عَزَاز ، ثم سار إلى منبج وصالحه أهلها على مثل صلح أنطاكية ، وسير عياض بن غنم إلى ناحية دلوك وعبان فصالحه أهلها على مثل صلح منبج ، وولّى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملاً وضم إليه جماعة وشحن النواحي المخوفة ، وسار إلى بالس وبعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء فجلا أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج ، واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات ، وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين .

وكان بجبل اللُّكام مدينة يقال لها جرجومة وأهلها يقال لهم الجراجمة ، فسار إليهم حبيب بن مسلمة من أنطاكية فافتتحها صلحاً على أن يكونوا عوناً للمسلمين ، وسير أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم ، فلقي جمعاً للروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل ، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ولحق به مالك بن الحارث الأشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية فسلموه وعادوا .

وسيّر أبو عبيدة جيشاً آخر إلى مَرْعَش مع خالد بن الوليد ، ففتحها على جلاء أهلها بالأمان وأخربها ، وسيّر جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحَدَث فملكه .

وكل هذه الفتوحات كانت من سنة ثلاث عشرة إلى سنة خمس عشرة يتلو بعضها بعضاً في أزمان متقاربة ، وكان فيها فتح قيسارية وحصر غزة .

ذكر فتح قيسارية وحصر غزة

في سنة خمس عشرة على الصحيح كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى يزيد بن أبي سفيان أن يرسل معاوية إلى قيسارية ، وكتب عمر أيضاً إلى معاوية يأمره بذلك ، فسار معاوية إليها فحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردهم إلى

حصنهم ، ثم زاحفوه آخر ذلك مستميتين ، فهزمهم وقتل فيهم مقتلة عظيمة ، وبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً ، وكملها في هزيمتهم مئة ألف ، وفتحها ، وكان علقمة بن مجزز قد حصر القيقار بغزة ، وجعل يراسله فلم يشفه أحد بما يريد ، فأتاه كأنه رسول علقمة فأمر القيقار رجلاً أن يقعد له في الطريق إذا رجع فإذا مر به قتله ، ففطن علقمة ، فقال لقيقار : إن معي نفراً يشركونني في الرأي فأنطلق فآتيك بهم ، فبعث القيقار إلى ذلك الرجل ألاّ يتعرض له ، فخرج علقمة من عنده فلم يعد ، فكان فعله هذا كما فعل عمرو بن العاص بالأرطبون ، كما سيأتي ، ومجزز ؛ بجيم وزايين .

ذكر فتح بيسان ووقعة أجنادين

لما انصرف أبو عبيدة وخالد رضي الله عنهما إلى حمص ، نزل عمرو بن العاص وشرحبيل رضي الله عنهما على أهل بيسان فافتتحاها ، صالحا أهل الأردن واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وبيسان ، وسار عمرو وشرحبيل إلى الأرطبون ومن معه ، وكان الأرطبون بأجنادين واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمي ، وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً ، وكان قد وضع جنداً عظيماً بإيلياء وجنداً عظيماً بالرملة ، فلما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبر قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب يعني عمرو بن العاص فانظروا عمَّ تنفرج ، وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو ، وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الراسي ومسروقاً العكي على قتال إيلياء ، فشغلوا من به عنه ، وجعل أيضاً أبا أيوب المالكي على من بالرملة من الروم ، فشغلهم عنه .

وتتابعت الإمدادات من عند عمر إلى عمرو ، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على شيء ولا تشفيه الرسل ، فسار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ففطن به الأرطبون وقال : لا شك أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه ، فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه إذا رجع ليقتله ، وفطن عمرو لفعله ، فقال : قد سمعت مني وسمعت منك وقد وقع لك مني موقع وأنا واحد من عشرة بعثنا عمرو إليك فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا الذي عرضت عليَّ الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم . فقال : نعم ، وردَّ الرجل الذي أمره بقتله فخرج عمروٌ من عنده ، ثم

علم الرومي أنها خدعة اختدعه بها ، فقال : هذا أدهى الخلق ، وبلغت خديعته عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : لله در عمرو ، وعرف عمرو مأخذه إذا قاتله فقاتله بأجنادين قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى بينهم وانهزم أرطبون إلى إيلياء ونزل عمرو أجنادين ، وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقدس لأرطبون فدخل بيت المقدس .

ذكر فتح بيت المقدس

كان فتح بيت المقدس سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقيل سنة ست عشرة في ربيع الأول .

وسبب ذلك أنه لما دخل أرطبون ببيت المقدس ، فتح عمرو بن العاص غزة ، ثم فتح سبسطية وفيها قبر يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام ، وفتح نابلس بأمان على الجزية ، وفتح مدينة اللّد ، ثم فتح تبق وعمواس وبيت جبرين ويافا ، وقيل فتحها معاوية وفتح عمرو مرج عيون .

فلما تم له ذلك أرسل إلى أرطبون رجلاً يتكلم بالرومية ، وقال له اسمع ما يقول ، وكتب معه كتاباً فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أرطبون وعنده وزراؤه ، فقال أرطبون : لا يفتح ـ والله ـ عمرو شيئاً من فلسطين بعد أجنادين ، فقالوا له : من أين علمت هذا؟ فقال : صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فرجع الرسول إلى عمرو بن العاص وأخبره بالخبر ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يقول له : إني أعالج عدواً شديداً وبلاداً قد ادخرت لك فرأيك . فعلم أن عمراً لم يقل ذلك إلا لشيء سمعه ، فسار عمر من المدينة .

وقيل إن الروم الذين كانوا ببيت المقدس طلبوا من المسلمين أن يروهم أميرهم فأروهم أبا عبيدة وخالد بن الوليد فقالوا لا نسلم أحداً من هذين مدينة بيت المقدس ولو حاصرتمونا عشر سنين ، وإنما نسلمها لرجل صفته كذا وكذا ، وذكروا صفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكتب أبو عبيدة وبقية الأمراء بذلك لعمر بن الخطاب ، فقدم عليهم ، وكان أبو عبيدة رضي الله عنه لما حصر بيت المقدس أراد أن يصالحهم على مثل صلح أهل مدن الشام فقالوا : لا نصالحهم إلا أن يكون المتولي للعقد عمر بن

الخطاب ، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة وأتى بيت المقدس .

وفي تاريخ ابن الوردي : وكان النبي ﷺ قد قال لعمر رضي الله عنه : « إنك ستفتح بيت المقدس بلا قتال » فكان في الجيئة إظهار معجزة للنبي ﷺ في إخباره بالغيب ، ففتحها بلا سيف كما أخبره النبي ﷺ .

ولما سار عمر من المدينة استخلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال له علي : أين تخرج بنفسك إنك تريد عدواً كلباً؟ فقال عمر : أبادر بالجهاد قبل موت العباس رضي الله عنه إنكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل . فمات العباس لست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه ، فانتقض الناس .

وسار عمر رضي الله عنه من المدينة وهو على بعير له وعليه غرارتان في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد ومعه جماعة من الصحابة وكانوا إذا نزلوا منزلاً لا يبرح به حتى يصلي الصبح ثم يأخذ الجفنة يملؤها سويقاً ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول : كلوا هنيئاً مريئاً ، فيأكل المسلمون ثم يرحل ، فما زال كذلك في مسيره حتى قدم الشام .

وقيل إنه لما قدم الجابية كان على فرس وكان قدومه إلى الشام أربع مرات ، الأولى : على فرس ، والثانية : على بعير ، والثالثة : على بغل ورجع لأجل الطاعون ، والرابعة : على حمار . وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه ، ويستخلفوا على أعمالهم ، فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال : ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم تستقبلوني في هذا الزي وإنما شبعتم منذ سنتين ، وبالله لو فعلتم هذا على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنها يلامعة وإن علينا السلاح ، قال : فنعم إذن واليلامع من السلاح ما برق .

فلما دخل الجابية جاءه أهل بيت المقدس ، وقد هرب عنهم أرطبون إلى مصر ، فصالحوه على الجزية وفتحوها له .

ويروى أن الروم امتنعوا من فتح باب السور حتى يروا عمر ويجدوا فيه الصفة التي يجدونها في كتبهم ، فأمر عمر ببعيره فقدم إليه فاستوى إلى ركوبه عليه وعليه مَرقعة

ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبي عبيدة رضي الله عنهما سائراً بين يديه حتى قرب من السور ووقف بإزاء السور ، فنظر إليه البطريق وهو خلف السور وزعق بأعلى صوته : هذا والله الذي نجد نعته وصفته في كتبنا وهو الذي يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة ، ثم قال لأهل بيت المقدس : ويحكم انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة ، ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة وعقد الجزية ، فَخَرَّ ساجداً لله على قتب بعيره ، ثم نزل إليهم وقال : ارجعوا إلى بلادكم ولكم العهد والذمة إذا سألتمونا وأقررتم بالجزية ، فرجع القوم ولم يغلقوا الأبواب ورجع عمر إلى معسكره وبات فيه ليلة ، فلما كان من الغد قام فدخل إليها ومعه المسلمون ، وعقد الجزية أيضاً لأهل الرملة ، وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة ، وجعل علقمة بن مجزز على نصفها الآخر وأسكنه بيت المقدس ، وضم كل واحد منهما محتضنهما ، ثم سار إلى بيت المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى فيه عرجاً فنزل عنه فأتى ببرذون فركبه فجعل يتجلجل به فنزل وضرب وجهه وقال لا أعلم من علمك هذه الخيلاء ثم لم يركب برذوناً بعده ، وبقي أرطبون بمصر ، فلما ملك المسلمون مصر قتل ، ولما دخل عمر بيت المقدس كشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها ، وأقام عشرة أيام ثم رجع إلى المدينة .

وكان في هذه السنة والتي بعدها كثير من الفتوحات بالعراق ، وسنذكرها إن شاء الله بعد تمام فتوحات الشام ومصر .

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين

في سنة سبع عشرة قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص ، وكان المهيج للروم أهل الجزيرة فإنهم أرسلوا إلى ملك الروم وحثوه على إرسال الجنود إلى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة ففعل ذلك ، فلما عَلِمَ المسلمون باجتماعهم عسكروا بفناء مدينة حمص ، وأقبل خالد من قنسرين إليهم فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة والتحصين إلى مجيء الغياث ، فأشار خالد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر ، فأطاعهم ، وكتب إلى عمر بذلك ، فكتب عمر إلى

أمراء الأجناد بالعراق أن يبعثوا جنداً لإغاثة أبي عبيدة ، وكان عمر رضي الله عنه قد اتخذ في كل مصر خيولاً على قدر ذلك المصر من فضول أموال المسلمين عدة تكون لهم ، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي ونفر من أهل الكوفة ، وفي كل مصر من الأمصار على قدره فإن تأتهم آتية ركب الناس وساروا إلى أن يتجهز بقية الناس .

فلما سمع عمر الخبر كتب إلى سعد بن أبي وقاص بالعراق أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم فإن أبا عبيدة قد أحيط به ، وكتب إليه أيضاً سَرِّحْ سهيل بن عدي إلى الرقة وهي بلدة على الفرات ، بتشديد الراء والقاف المفتوحتين ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ، وأمره أن يسرح عبدالله بن عتبان إلى نصيبين ليقصد حران والرها وأن يسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأن يكون عياض بن غنم على أمراء الجزيرة إن كانت حرب .

فمضى القعقاع من يومه على أربعة آلاف إلى حمص ، وسار عياض بن غنم وأمراء الجزيرة كل أمير إلى كورته ، وسار عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة يريد حمص مغيثاً لأبي عبيدة ، ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص خبر الجنود الإسلامية فارقوا هرقل ورجعوا إلى بلادهم ، وزحف أبو عبيدة إلى الروم فانهزموا ، وقدم القعقاع من العراق بعد الوقعة بثلاث ، فكتبوا إلى عمر بالفتح وبقدوم المدد إليهم ، فكتب إليهم أن أشركوهم في الغنيمة فإنهم نفروا إليكم وانفرق لكم عدوكم ، وقال : جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار ، فلما فرغوا رجعوا ، وبلغ عمر في مسيره هذا إلى الجابية فوافاه خبر انهزام الروم فكتب الجواب لأبي عبيدة ، ورجع من الجابية وأصحب معه خالد بن الوليد ومن معه ، ولما قدم سهيل بن عدي على الرقة سرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة فقبض أهل الرقة عن هرقل وساروا مع سهيل بن عدي إلى إياد بن نزار فإنهم دخلوا أرض الروم فكتب عمر إلى هرقل : بلغني أن حياً من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فوالله لتخرجنّهم أو لنخرجنّ النصارى إليك ، فأخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما يلي الشام والجزيرة .

ذكر فتح الجزيرة وأَرْمِينِيَّةَ

الجزيرة بلاد تشتمل على ديار بكر ومضر وربيعة بين دجلة والفرات إليها ينسب الإمام الجزري ، وأرمينية كورة كانت للروم ، لما أرسل سعد العساكر إلى الجزيرة ارْفَضَّ به أهل الجزيرة عن الروم وساروا إلى كورهم حين سمعوا بإرسال العساكر من الكوفة ، فنزل عليهم سهيل بن عدي وحاصرهم حتى صالحوه ، ونازل عبدالله بن عتبان الموصل ونصيبين فصالحوه كصنع أهل الرقة ، وخرج الوليد بن عقبة فقدم على عرب الجزيرة فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلا إياد بن نزار فإنهم دخلوا أرض الروم ، فكتب الوليد بذلك إلى عمر فكتب عمر إلى هرقل كما تقدم ، ولما أخذوا الرقة ونصيبين ضم عياض إليه سهيلاً وعبدالله بن عتبان وسار بالناس إلى حران ، فلما وصل أجابه أهلها إلى الجزية فقبل منهم ، ثم إن عياضاً سرح سهيلاً وعبدالله إلى الرها فأجابوهما إلى الجزية وأجروا كل ما أخذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة ، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً ، ورجع سهيل وعبدالله إلى الكوفة ، وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم إليه عياض بن غنم إذا أخذ خالد بن الوليد إلى المدينة ، فصرفه إليه ، فاستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عربها ، وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من تغلب الجزية وقال : ليس إلا الإسلام . فكتب إليه عمر : إنما ذلك بجزيرة العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام فدعهم على ألاَّ ينصّروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام .

وكان في تغلب عز وامتناع فهَمَّ بهم الوليد فخاف عمر أن يسطو عليهم فعزله وأمر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمر الحلبي ، والصحيح الذي عليه الأكثر أن فتح الجزيرة معدود من فتح أهل الشام وأنه سنة سبع عشرة وقيل إنه من فتح العراق وإنه سنة تسع عشرة ، وإنما أخذ عمر خالداً معه وعزله عن إمارة الأجناد لأنه رأى منه تبذيراً وسرفاً في الأموال أعطى مرة للأشعث بن قيس عشرة آلاف وله عطايا كثيرة ، فلما قدم المدينة شكا خالد عمر على الناس وقال له : إنك في أمري غير مجمل ، فقال له عمر : من أين هذا الثراء؟ فقال : من الغنائم ، والسهمان ما زاد على ستين ألفاً فهو لك ،

فقوّم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال ، ثم قال : يا خالد ؛ والله إنك علي لكريم وإنك إليّ لحبيب ، وكتب إلى الأمصار إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فخّموه وفتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ؛ فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأَلاَّ يكونوا بعرض فتنة وعوضه عما أخذ منه ، وكان خالد ابن خال عمر رضي الله عنهما لأن أم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة وخالد بن الوليد بن المغيرة ، وكان في قلنسوة خالد التي يقاتل فيها شعرات من شعر رسول الله ﷺ فينتصر بها وببركته ﷺ فلا يزال منصوراً ، وكان يقول : اعتمرنا مع رسول الله ﷺ في عمرة اعتمرها فحلق شعره ، فاستبق الناس إلى شعره فسبقت إلى الناصية فأخذتها فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدم القلنسوة فما وجهته في وجه إلا وفتح لي ، وسماه النبي ﷺ سيفاً من سيوف الله يوم غزوة مؤتة لما أخبر النبي ﷺ أصحابه بالمدينة بما وقع في تلك الغزوة يوم وقوعها ، فذكر لهم استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة ، وقال : « ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله خالدُ بنُ الوليد ففتح الله عليه » .

ومناقبه كثيرة وله ترجمة واسعة ، توفي رضي الله عنه في خلافة عمر رضي الله عنه بحمص وقيل بالمدينة سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، ولما حضرت خالداً الوفاة قال : لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل عندي أرجى من لا إله إلا الله وأنا متترس بها .

وفي سنة ثمان عشرة وقع بالشام الطاعون المسمى طاعون عمواس مات فيه خمسة وعشرون ألفاً ومات فيه أبو عبيدة ، واستخلف معاذ بن جبل فطعن أيضاً فيه ومات ، فاستخلف عمر على الناس عمرو بن العاص ، وطعن فيه يزيد بن أبي سفيان فاستعمل عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان على دمشق وخراجها واستعمل شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها ، ولما حصل ذلك الطاعون قام أبو عبيدة خطيباً في الناس ، فقال : أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم ووعدة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظاً ، فطعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيباً بعده فقال أيها الناس : إن هذا الوجع رحمة ربكم ووعدة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن معاذاً يسأل الله أن يقيم لآل معاذ حظهم فطعن

ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته فلقد كان يقبّلها ثم يقول : ما أحب إلي بما فيك شيئاً من الدنيا ، فلما مات واستخلف عمرو بن العاص خرج بالناس إلى الجبال ورفعه الله عنهم وكان الناس قد أصابهم من الموت ما لم يروا مثله قط وطمع فيهم العدو وطال مكث ذلك الطاعون فإنه مكث شهوراً .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم إلى الشام في مدة ذلك الطاعون ، فلما كان بسرع وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك لقيه أمراء الأجناد فيهم أبو عبيدة بن الجراح فأخبروه بالوباء وشدته ، وكان معه كثير من المهاجرين والأنصار لأنه خرج بهم غازياً ، فجمع المهاجرين الأولين والأنصار فاستشارهم فاختلفوا عليه منهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ، ومنهم القائل إنه بلاء وفناء فلا نرى أن نقدم عليه ، فقال لهم : قوموا ، ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه ، وأشاروا بالعود فنادى عمر في الناس أني مصبح على ظهر ، فقال أبو عبيدة أفراراً من قدر الله؟ فقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة لانتقمت منهم نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة ، أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه؟

وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فحضر فأخبر أنه سمع من النبي ﷺ حديثاً في ذلك وهو قوله ﷺ : « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلدة فلا تقدموا عليه وإذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه » فكان ذلك الحديث موافقاً لما رآه عمر رضي الله عنه فانصرف بالناس إلى المدينة .

ومات في ذلك الطاعون كثير من الصحابة منهم الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو رضي الله عنهما ، ولما فرغ الطاعون كتب أمراء الأجناد إلى عمر رضي الله عنه بما في أيديهم من المواريث ، فسار عمر إلى الشام واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلما قدم الشام قسم المواريث والأرزاق وسدّ فروج الشام ومصالحها وأخذ يدورها ورجع إلى المدينة في ذي القعدة ، ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس : لو أمرت بلالاً فأذّن ، فأمره فأذّن ، فما بقي أحد أدرك النبي ﷺ وبلال يؤذن إلا بكى حتى بلَّ لحيته وعمر أشدهم بكاء ، وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكرهم رسول الله ﷺ .

ذكر فتح مصر والإسكندرية

كان ابتداء الأمر وانتهاؤه في ذلك من سنة ثمان عشرة إلى سنة عشرين ، وقيل إن فتوح مصر كان في سنة ست عشرة لأن عمرو بن العاص رضي الله عنه حمل الطعام لأهل المدينة عام الرمادة التي اشتد القحط فيه في بحر القلزم من مصر إلى المدينة ، وعام الرمادة كان سنة ثمان عشرة .

وقال الجلال السيوطي في كتابه المسمى بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : ولما كانت سنة ثمان عشرة وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه فخلا به فقال : يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزهم عن القتال والحرب ، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو بن العاص يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن عمر بن الخطاب لذلك فأذن له في المسير .

وسبب قوة رجاء عمرو بن العاص في أن الله يفتح مصر على يديه قصة وقعت له في الجاهلية ذكرها السيوطي أيضاً في حسن المحاضرة ، ولنذكرها وإن كان فيها طول تتميماً للفائدة ، قال :

أخرج ابن عبد الحكم عن خالد بن يزيد أنه بلغه أن عمرو بن العاص قدم إلى بيت المقدس بتجارة في نفر من قريش وإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح ، وكان عمرو بن العاص يرعى إبله وإبل أصحابه وكانت رعية الإبل نوباً بينهم ، فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي ثم نام الشماس في مكانه ، وكان إلى جانب الشماس في مكانه حيث نام حفرةٌ فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها سهماً فقتلها ، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد نجاه الله منها فقال لعمرو ما هذا ؟ فأخبره عمرو أنه رماها بسهم فقتلها ، فأقبل على عمرو فقبل رأسه

وقال : قد أحياني الله بك مرة مع شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد ؟ قال : قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل من تجارتنا . فقال له الشماس وكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ قال : رجائي أن أصيب ما أشتري به بعيراً فإني لا أملك إلا بعيرين فأملي أن أصيب بعيراً آخر فيكون لي ثلاثة أبعرة . فقال الشماس : أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي ؟ قال : مئة من الإبل . فقال له الشماس : لسنا أصحاب إبل نحن أصحاب دنانير . قال عمرو : تكون ألف دينار . فقال له الشماس : إني رجل غريب في هذه البلاد وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع إلى بلادي فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك عهد الله وميثاقه أني أعطيك ديتين لأن الله تعالى أحياني بك مرتين ؟ فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال : مصر في مدينة يقال لها الإسكندرية ، فقال له عمرو : لا أعرفها ولم أدخلها قط ، فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها ، فقال له عمرو : تفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق ، فقال الشماس : نعم ، لك علي بالعهد والميثاق أني أفي لك وأردك إلى أصحابك ، فقال عمرو : وكم يكون مكثي في ذلك ؟ قال : شهر ، تنطلق معي ذاهباً عشراً ، وتقيم عندنا عشراً وترجع في عشر ، ولك عليَّ أن أحفظك ذاهباً وأبعث معك من يحفظك راجعاً ، فقال له عمرو : انتظرني حتى أشاور أصحابي ، فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال : لا تخرجوا وأقيموا حتى أرجع إليكم ولكم عليّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني منكم رجل آنس به ، فقالوا : نعم ، وبعثوا معه رجلاً منهم ، فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ذلك وقال : ما رأيت مثل مصر قط ، وكثرة ما فيها من الأموال ، ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها ، وجودة بنائها ، وكثرة أهلها ، وما بها من الأموال ، فازداد تعجباً .

ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيداً عظيماً فيها يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم ، وفيما أخبروا عن تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم أن من وقعت الأكرة في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم .

فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكمامهم ، فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوي حتى وقعت في كُمّ عَمْرٍو فتعجبوا وقالوا : ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة أترى هذا الأعرابي يملكنا !؟ هذا لا يكون أبداً ، وإن ذلك الشماس مشى في أهل الإسكندرية وأعلمهم أن عَمْراً أحياه مرتين وأنه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلاً ورسولاً وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو ومن معه إلى أصحابه ، فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالاً .

فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفاً .

قال عمرو : فكان ذلك المال أول مال تأثلته ، فلما أكرمه الله بالإسلام وفتح على يديه كثيراً من أرض الشام مالت نفسه إلى فتح مصر ورجا أن يتحقق له وقوع الأكرة في كمه مع ما صح من قول النبي ﷺ : « لتفتحنَّ عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذِمّة » فرغب إلى عمر بن الخطاب في أن يسيره إليها حتى وافقه على ذلك ، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك ويقال على ثلاثة آلاف رجل وخمسمئة ، فقال عمر : سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتي كتابي إليك سريعاً إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرو وهو برفح فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل له إنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو : أنتم تعلمون أن هذه القرية

من مصر ؟ قالوا : بلى . فقال : إن أمير المؤمنين عهد إلي وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع وإن لم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص .

فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه إلى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش فكان أول موضع قوتل فيه الفرما الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله على يديه فهزم الروم .

وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وأنّ ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو .

فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواخر فنزل ومن معه ، فقال بعض القبط لبعض ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وإنما هم في قلة من الناس ؟ فأجابه رجل آخر منهم أن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا إلى آخرهم ، فتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه ، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذي يقال له باب لَيُون حيناً وقاتلهم قتالاً شديداً يصبحهم ويمسيهم ، فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجلٌ ، وكتب إليه : إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم أنه صار معك اثنا عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة .

وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق باباً وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الأبواب ، فلما قدم المدد إلى عمرو بن العاص أتى إلى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعرج والياً عليه ، وكان تحت يد

المقوقس ودخل عمرو إلى صاحب الحصن كأنه رسول فتناظر معه في شيء مما هم فيه فقال أخرج وأستشير أصحابي وكان صاحب الحصن أوصى الذي كان على الباب إذا مر به عمرو راجعاً أن يلقي عليه صخرة فيقتله فمر عمرو ـ وهو يريد الخروج ـ برجلٍ من العرب فقال قد دخلت فانظر كيف تخرج ، فرجع عمرو إلى صاحب الحصن فقال إني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت ، فقال العلج في نفسه قَتْلُ جماعة أحبُّ إليَّ من قتل واحد ، فأرسل إلى الذي أمره بقتل عمرو أَلاَّ يتعرض له رجاء أن يأتي بأصحابه فيقتلهم ، فخرج عمرو ، فلما أبطأ عليه الفتح قال الزبير إني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوا جميعاً فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجامع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً أن ينكسر ، فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبَّر وكبروا معه وأجابهم المسلمون من خارج ، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهربوا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه فحينئذ طلب الصلح من عمرو بن العاص على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر ، وقال ابن عبد الحكم شهراً .

قال : إن المسلمين لما حصروا باب لَيُون شهراً كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس ، فلما رأوا حرص المسلمين على فتح الحصن ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا ، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر ، وتخلف الأعرج في الحصن بعد المقوقس ، فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ، ثم لحقوا بالمقوقس في الجزيرة .

فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص إنكم قوم ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى في أيدينا ،

فأرسلوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعث إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به عن شيء .

فلما أتى إلى عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال أترون ؟ إنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم يستحلون ذلك في دينهم ، وإنما فعل عمرو ذلك لأجل أن يروا حال المسلمين وما هم فيه ، ثم رد عليهم عمرو مع رسله إنه ليس بيني وبينك إلا إحدى ثلاث خصال : إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواناً وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولا نهمة ، وإنما جلوسهم في التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم ، فقال عند ذلك المقوقس : والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقدروا على الخروج من موضعهم ، فرد إليه المقوقس رسله أن ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة أنفار أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار وهو أحد الشجعان المشهورين والفصحاء المتكلمين ، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وألاَّ يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث فإن أمير المؤمنين أمرني ألاَّ أقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث خصال ، وكان عبادة بن الصامت رضي الله عنه أسود ، فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده فقال نَحّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ، فقالوا : إن هذا الأسود

أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به ، فقال المقوقس لعبادة تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك وإن اشتد عليّ كلامك ازددت لك هيبة ، فتقدم إليه عبادة ، فقال : قد سمعت مقالتك وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود وكلهم أشد سواداً مني وأفظع منظراً ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مئة رجل من عدوي ولو استقبلوني جميعاً وكذلك أصحابي ؛ وذلك لأننا إنما رغبتنا وبغيتنا الجهاد في الله تعالى واتباع رضوان الله ، وليس غزونا عدونا من حارب الله رغبة في الدنيا ولا طلباً للاستكثار منها إلا أن الله قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالي أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لا يملك إلا درهماً ؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها فيمسك بها جوعته وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا لأن نعيم الدنيا ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك أمرنا ربنا وأمر به نبينا وعهد إلينا ألاَّ تكون همة أحدنا من الدنيا إلا فيما يمسك جوعته ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب عندي من منظره ، وإن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب البلاد وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها ، ثم أقبل المقوقس على عبادة فقال : أيها الرجل قد سمعت مقالتك وما ذكرته عنك وعن أصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرته ، ولا ظهرتم على ما ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة من لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين ظهرنا شهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرأف عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مئة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به ، فقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : يا هذا لا تغرنَّ نفسك ولا أصحابك ، أما

ما تخوفوننا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وإنا لا نقوى عليهم ، فَلَعَمْري ما هذا بالذي يكسرنا عما نحن فيه إن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا ، لأن ذلك أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا وإن الله تعالى قال لنا في كتابه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] وما من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وألاَّ يرده إلى بلده ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا وأمّا أنَّا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه ، فانظر الذي تريد فَبَيِّنْهُ لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل ؛ بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ إلينا من قبل ، أما إن أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته ، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نَسْتَحِلَّ أذاكم ولا التعرض لكم ، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم إذا كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد الله علينا ، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب منكم ما نريد ، هذا ديننا الذي ندين به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم فقال له المقوقس : هذا مما لا يكون أبداً ما تريدون إلا أن تأخذونا لكم عبيداً ما كانت الدنيا ، فقال له عبادة : هو ذاك فاختر ما شئت فقال له المقوقس : أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث ؟ فرفع عبادة يديه فقال : لا ، وربِّ السماء وربِّ هذه الأرض

وربّ كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم .

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه فقال : قد فرغ القول فما تقولون ؟ فقالوا أَوَ يرضى أحدٌ بهذا الذل إذا ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون أبداً أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل ديناً لا نعرفه ، وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداً أبداً فالموت أيسر من ذلك لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا .

فقال المقوقس لعبادة : قد أبى القوم فما ترى ؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون ، فقام عبادة وأصحابه ، فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك : أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبونهم إلى ما هو أعظم منها كارهين ، فقالوا : أي خصلة نجيبهم إليها ؟ قال : إذن أخبركم : أمّا دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لا تقدرون عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثلاث ، قالوا : فنكون لهم عبيداً أبداً ؟ قال : نعم تكونون عبيداً مسلطنين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تباعون وتمزقون في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلوكم وذراريكم ، قالوا : فالموت أهون علينا ، وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة وبالقصر من الروم والقبط جمع كثير .

فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا بهم ومكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير وأسر من أسر وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا ويتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى ، والمقوقس يقول لأصحابه : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ما تنظرون فوالله لتجيبونهم إلى ما أرادوا طوعاً ، أو لتجيبونهم إلى ما أعظم منه كرهاً فأطيعوني قبل أن تندموا ، فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يوفونه ، وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه أني لم أزل حريصاً على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إليَّ بها فأبى ذلك من حضرني من الروم والقبط فلم يكن لي أن أفتات عليهم وقد عرفوا نصحي لك وحبي صلاحهم ورجعوا إلى

قولي فأعطني أماناً أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي ونفر من أصحابك فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعاً وإن أبيتم رجعنا إلى ما كنا عليه .

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك السؤال فقالوا لا تجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير كلها فيئاً لنا وغنيمة كما صار القصر وما فيه ، فقال عمرو : قد علمتم ما عهد إليَّ أمير المؤمنين في عهده فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليّ فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم مع ما قد حال من الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم .

فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعلى أن للمسلمين عليهم منزلاً لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة أيام وإن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها ، فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزيرة فرض الله عليهم الدينارين ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف ، وذلك ستة ملايين ، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار أي اثني عشر مليوناً من الدنانير كل سنة ، وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف ، وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على هذا لازماً له مفترضاً عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج على أن للمقوقس خياراً في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليه وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه وكتبوا به كتاباً .

وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك

أكثر من مئة ألف معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط إذ لا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليهم فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك .

وكتب ملك الروم مثل ذلك إلى جماعة الروم ، فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم : والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مئة رجل منا وذلك أنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة ، يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ويتمنى ألاّ يرجع إلى أهله وبلده ولا ولده ويرون أن لهم أجراً عظيماً فيمن قتلوا منا ، ويقولون إنهم إن قتلوا أدخلوا الجنة وليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا على قدر بُلْغة العيش من الطعام واللباس ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ، وكيف صبرنا معهم ؟ واعلموا معشر الروم والله إني لا أخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه وإني لأعلم أنكم سترجعون غداً إلى قولي ورَأْيي وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني ؛ وذلك أني قد عاينت ورأيت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ، ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة ، ثم أقبل المقوقس على عمرو بن العاص فقال له : إن الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب إليَّ وإلى جماعة الروم ألاَّ نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ، ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه ، وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني ، وقد تم الصلح فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم ، وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب منك أن تعطيني ثلاث خصال ، قال له عمرو : وما هن ؟ قال : لا تنقضن بالقبط وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك فهم متمون لك على ما تحب ، وأما الثانية فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم لا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً فإنهم أهل لذلك فإني نصحتهم فاستغشوني ونظرت إليهم فاتهموني ، وأما الثالثة فأطلب إليك إن مت أنّ تأمرهم أن يدفنوني في أبي حنش

بالإسكندرية ، فأنعم عمرو بن العاص وأجابه إلى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا له الأنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية ، ففعلوا وصارت لهم القبط أعواناً كما جاء في الحديث ، واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ، ثم انتقلوا بسلطيس فاقتتلوا بها قتالاً شديداً ثم هزمهم الله ثم التقوا بالكربون التقوا بها بضعة عشر يوماً ، وكان عبدالله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو ، وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف ، ثم فتح الله يومئذ على المسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية فتحصن بها الروم وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن ، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم ، وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية ، فقال الملك لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها ، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاماً لها وأمر ألاّ يتخلف أحد من الروم ، قال ما بقي للروم بعد الإسكندرية حرمة ، فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى الله المسلمين مؤنته ، وكان موته سنة تسع عشرة .

وقال الليث بن سعد : مات هرقل سنة عشرين فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع كثير ممن قد توجه إلى الإسكندرية وانتشرت العرب عند ذلك وألحت القتال على أهل الإسكندرية فقاتلتهم قتالاً شديداً وحاصرت الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك ، وفتحت يوم الجمعة في شهر المحرم سنة عشرين .

وقال ابن عبد الحكم : أقام عمرو بن العاص محاصراً الإسكندرية أشهراً ، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ما أبطأ بفتحها إلا لما أحدثوا ، وكتب إلى عمرو بن العاص ، أما بعد : فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر إنكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن

الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلا أن يكون غيّرهم ما غيّرهم ، فإذا أتاك كتابي فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية ، وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وَأْمر الناس جميعاً أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ووقت الإجابة وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم ، ففعلوا ففتح الله عليهم .

قال ابن عبد الحكم : حدثني أبي قال : لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال إني فكرت في هذا الأمر فإنه لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله يريد الأنصار ، فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك .

ثم روى ابن عبد الحكم عن الإمام مالك أن ذلك كان سنة عشرين .

ولما هزم الله الروم وفتحت الإسكندرية وهرب الروم في البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر ورجع من كان هرب من الروم في البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم ، وبلغ عمرو بن العاص فكرَّ راجعاً ففتحها وأقام بها وكتب إلى عمر بن الخطاب أن الله قد فتح علينا الإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد ، فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره ألاَّ يجاوزها ويقبح رأيه في اتباعه من هرب ، والذين قتلوا من المسلمين من حين حصار الإسكندرية إلى أن فتحت عنوة اثنان وعشرون رجلاً ، ولما فتحت بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب مبشراً له بالفتح ، فقال معاوية بن خديج لعمرو بن العاص : ألا تكتب معي كتاباً؟ فقال عمرو : ما تصنع بالكتاب ؟ ألست رجلاً عربياً تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ؟ فلما قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخبره بفتح الإسكندرية خرَّ عمر ساجداً وقال : الحمد لله ، وقيل بل كتب عمرو بن العاص مع الرسول كتاباً لعمر بن الخطاب وقال فيه : أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف مَتْنَة وهي المكان الصلب المرتفع بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي وأربعمئة ملهى للملوك .

قال ابن عبد الحكم : لما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية وجد فيها اثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر ورحل منها سبعون ألف يهودي في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو بن العاص .

قيل إن سبب فتح الإسكندرية أن رجلاً كان يقال له ابن بسامة كان بواباً فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له الباب فدخل ، وكان عدة مَن بالإسكندرية من الروم مئتي ألف من الرجال ، فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مئة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفاً مع ما قدروا عليه من المتاع والأهل وبقي من بقي من الأسارى ممن بلغ الخراج فأحصي يومئذ ستمئة ألف سوى النساء والصبيان ، فاختلف الناس على عمرو في قسمتهم وكان أكثر الناس يريدون قسمتها ، فقال عمرو : لا أقدر أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمتها ، فكتب إليه عمر لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئاً للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم ، فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج ، فكانت مصر صلحاً بفريضة دينارين دينارين على كل رجل لا يزاد على كل واحد في جزية أكثر من دينارين إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ، إلا الإسكندرية فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم ، لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة .

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب قال : كانت قرية من قرى مصر قاتلت ونقضوا فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطس وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل الذمة .

وأخرج عن يحيى بن أيوب أن أهل سلطيس وهصيل وبلهيت ظاهروا الروم على المسلمين في جمع كان لهم ، فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الإسكندرية ، فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث القرى ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج

ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط المسلمين على عدوهم ولا يجعلوا فيئاً ولا عبيداً ففعلوا ذلك .

وأخرج ابن عبد الحكم عن هشام بن رقية اللخمي أن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه لما فتح مصر قال لقبط مصر : من كتمني كنزاً عنده فقدرت عليه قتلته ، وأن قبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس ذكروا لعمرو أن عنده كنزاً فأرسل إليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه في السجن ، وعمرو يسأل عنه هل يسمعونه يسأل عن أحد فقالوا : لا إنما سمعناه يسأل عن راهب في الطور فأرسل عمرو إلى بطرس فنزع خاتمه من يده فكتب عمرو إلى ذلك الراهب أن ابعث إليّ بما عندك وختمه بخاتم بطرس ، فجاءه رسوله بقلّة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوباً فيها مالكم تحت الفسقية الكبيرة ، فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع منها البلاط الذي تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين إرْدَبّاً ذهباً مضروبة ، فضرب عمرو رأس بطرس عند باب المسجد ، فأخرج القبط كنوزهم شفقة أن يسعى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس .

ثم ذكر الجلال السيوطي في حسن المحاضرة اختلاف العلماء أن مصر فتحت صلحاً أو عنوة ، فنقل عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب أن مصر كلها صلح إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة ، ونقل عن عون بن حطان أنه كان بِقُرىٰ من مصر منهن أم دنين عهد ، وأخرج عن يحيى بن أيون وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الإسكندرية وثلاث قُرىٰ ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس وهصيل وبلهيت ، ونقل عن أبي هبيرة أن مصر فتحت عنوة ، وأخرج عن عبد الرحمن بن زياد قال : سمعت أشياخنا يقولون إن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، وأخرج عن أبي العالية أنه سمع عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول : لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد إلا أهل أنطابُلُس فإن لهم عهداً يوفى لهم به ، وزاد في رواية عن ابن لَهِيعةَ أن عمراً قال إن شئت قتلت وإن شئت خمست وإن شئت بعت ، وفي رواية عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أن عمر بن الخطاب حبس درها وضرها أن يخرج منه شيء نظراً للإسلام وأهلها ، وأخرج عن زيد بن أسلم قال : كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهدوه فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد ، وأخرج عن الصلت بن أبي عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز

إلى حيان بن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، وأخرج نحو ذلك عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعراك بن مالك وسالم بن عبد الله بن عمر .

وأخرج ابن عبد الحكم ومحمد بن الربيع الجيزي من طرق عن سفيان بن وهب الخولاني ، قال : لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال : يا عمرو اقسمها ، فقال عمرو بن العاص : لا أقسمها ، فقال الزبير : والله لتقسمنّها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر ، فقال عمرو : لم أكن لأحدث حدثاً حتى أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب أقرها حتى يغذوا منها حبل الحبلة يعني ولد الولد .

وروى ابن عبد الحكم عن ابن شهاب قال : كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه جميعاً ذمة وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم إلى اليوم .

قال القضاعي : إن فتح مصر كان يوم الجمعة في شهر محرم سنة عشرين ، وإنهم ساروا إلى الإسكندرية في شهر ربيع الأول سنة عشرين وقيل في آخر جمادى الآخرة ، وإن عمرو بن العاص رضي الله عنه قفل من الإسكندرية بعد فتحها والمقام بها في ذي القعدة سنة عشرين ، وقال الليث بن سعد : أقام عمرو بالإسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر ، ثم انتقل إلى الفسطاط فاتخذها داراً .

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها رأى أن يسكنها ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب عمر إلى عمرو لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فتحول عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط .

وأخرج ابن عبد الحكم أيضاً عن يزيد بن أبي حبيب أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية ألاّ تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم إليكم قدمت ، فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحول صاحب

البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة ، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط ، قال ابن عبد الحكم إن عمرو بن العاص لما كان بمصر كان له فسطاط ، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه ، فإذا فيه يمام قد فرخ فقال : لقد تحرّم بنا فأمر به فأقره كما هو حتى يطير الفراخ ، وأوصى به صاحب القصر ، فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا : أين ننزل ؟ قال : الفسطاط؛ يعني فسطاطه الذي خلعه وكان مضروباً في موضع الدار الذي يعرف اليوم بدار الحصا ، فلذلك سميت مصر الفسطاط .

قال القضاعي : لما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عليهم أمراء فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل .

وقال ابن قتيبة : إن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط .

قال ابن فضل الله في المسالك : مسجد عمرو بن العاص مسجد عظيم بمدينة الفسطاط بناه عمرو موضع فسطاطه وما جاوره ، وموضع فسطاطه حيث المحراب والمنبر ، وبنى عمرو بن العاص داراً لعمر بن الخطاب وكتب له إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع فكتب إلى عمرو أَنّىٰ لِرَجُلٍ بالحجاز تكون له دار بمصر ، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين ، قال ابن لهيعة هي دار البركة فجعلت سوقاً فكان يباع فيها الرقيق .

وبنى خارجة بن حذافة غرفة عالية ، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص سلام عليك أما بعد فقد بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة وأراد أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام ، فلما جاءه الكتاب هدمها .

وسأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار ، فعجب عمرو من ذلك ، فكتب في ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تزرع وهي لا تستنبط بها ماء ولا ينتفع بها ؟ فسأله فقال : إنا لنجد صفتها في الكتب أن فيها غراس الجنة ، وفي رواية إنا لنجد في كتابنا أن ما بين هذا الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة ، فكتب بقوله إلى عمر بن الخطاب فقال

صدق فاجعلها مقبرة للمسلمين ، وفي رواية إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشيء ، فكان أول من دفن فيها رجل من مغافر يقال له عامر فقيل عمرت .

وروى عمرو بن العاص عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض » فقال أبو بكر رضي الله عنه : ولِمَ يا رسول الله ؟ قال : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » ثم قال عمرو بن العاص : فاحمدوا الله معاشر المسلمين على أولادكم .

ولما فتح عمرو مصر أتى أهلها إليه حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنَّة لا يجري إلا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بِكْرٍ بين أبويها فأرضينا أَبَوَيْها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى لا يجري النيل قليلاً ولا كثيراً حتى هَمّوا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه قد أصبت إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت إليك بطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي ، فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أمّا بعد : فإن كنت تجري من قِبَلِكَ فلا تجرِ ، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الواحد القهار أن يجريك ، فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً وقد زالت تلك السُّنَّة السوء عن أهل مصر .

وعن يزيد بن أبي حبيب أن موسى عليه السلام دعا على فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء وطلبوا من موسى أن يدعو الله رجاء أن يؤمنوا فدعا الله فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً ، فاستجاب الله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام .

ذكر فتوحات العراق بعد مسير خالد بن الوليد إلىٰ الشام

لما أراد خالد بن الوليد المسير إلى الشام بأمر أبي بكر رضي الله عنه أخذ معه بعض الجند كما تقدم ، واستخلف على من بقي بالعراق المثنى بن حارثة الشيباني وهو صحابي من نسل ذهل بن شيبان ، وينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزال ، وفد على النبي عليه الصلاة والسلام سنة تسع مع وفود قومه ، وسيّره أبو بكر الصديق رضي الله عنه في صدر خلافته إلى العراق قبل مسير خالد بن الوليد إلى العراق وهو الذي أطمع أبا بكر والمسلمين في الفرس وهوّن أمر الفرس عندهم ، وكان شهماً شجاعاً ميمون النقيبة حسن الرأي أبلى في قتال الفرس بلاء لم يبلغه أحد ، وكان استخلاف خالد له على جيش العراق بأمر من أبي بكر رضي الله عنه ، فلما توجه خالد إلى الشام واستخلفه على الجند أقام بالحيرة وذلك سنة ثلاث عشرة وكان الفرس قد هلك ملكهم كسرى ، كما تقدم ، ثم استقام أمرهم على تملك شهرزان بن أزدشير بن شهريار بن سابور ، فوجّه إلى المثنى بن حارثة جيشاً عظيماً عليهم هرمز جاذويه ، فخرج المثنى من الحيرة نحوه فأقام ببابل فأقبل هرمز نحوه وكتب ملكهم كسرى الذي ملكوه عليهم إلى المثنى كتاباً : إني قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس إنما هم رعاء الدجاج والخنازير ولست أقاتلكم إلا بهم ، فكتب إليه المثنى إنما أنت أحد رجلين إمّا باغٍ فذلك شر لك وخير لنا وإما كاذب فأعظم الكاذبين عند الله فضيحة وعند الناس الملوكُ ، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما أضررتم بهم ، فالحمد لله الذي رد كيدهم إلى رعاة الدجاج والخنازير ، فجزع الفرس من كتابه ، فالتقى المثنى وهرمز ببابل فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان معهم فيل يفرق الناس فانتدب له المثنى ومعه ناس فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون إلى المدائن يقتلونهم ومات ملكهم كسرى شهرزان لما انهزم هرمز .

واختلف الفرس وبقي ما دون دجلة بيد المثنى ، ثم اجتمعت الفرس وملكوا دخت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر ، فخلعوها وملكوا سابور بن شهرزان ، وقام بتدبير أمره الفراخزاد بن لينذوان فقتل وثارت بينهم فتنة وحصروا الملك سابور ، ثم قتلوه وملكوا أزرميدأخت بنت كسرى وتشاغلوا بتلك الفتنة .

وأبطأ على المثنى خبر أبي بكر رضي الله عنه ، فاستخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية وهو صحابي من نسل سدوس بن شيبان؛ والخصاصية جدته نسب إليها وهي من الأزد وأبو يزيد بن سعيد قدم على النبي ﷺ ومعه وفد الأزد وكان اسمه زجا ، فسماه النبي ﷺ بشيراً ، وكان سيّر المثنى إلى أبي بكر رضي الله عنهما ليخبره خبر المشركين ويستأذنه في الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فإنهم أنشط إلى القتال من غيرهم ، فقدم المدينة وأبو بكر مريض قد أشفى ، فأخبره فاستدعى عمر وقال : إني لأرجو أن أموت يومي هذا فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم فقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت وما أصيب الخلق بمثله ، وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم .

ومات أبو بكر رضي الله عنه ليلاً فدفنه عمر رضي الله عنه وندب الناس مع المثنى ، وكان الانتداب إلى فارس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها إليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم ، فكان عمر رضي الله عنه يبايع الناس ثلاثة أيام وفي الرابع ندب الناس إلى العراق فكان أول منتدبيه أبو عبيدة بن مسعود الثقفي وهو صحابي أسلم في عهد النبي ﷺ وهو والد المختار ، وانتدب أيضاً سعد بن عبيد الأنصاري وسليط بن قيس الأنصاري وكان ممن شهد بدراً ، وتتابع الناس وتكلم المثنى فقال : أيها الناس لا يعظمنَّ عليكم هذا الوجه فإنّا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد ، ونلنا منهم واجترأنا عليهم ، ولنا إن شاء الله ما بعدها ، فاجتمع الناس فقيل لعمر : أمّرْ عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار ، قال : لا والله لا أفعل وإنما رفعهم الله بسبقهم ومسارعتهم إلى العدو فإذا فعل فعلهم قوم وتثاقلوا كان الذين ينفرون خفافاً وثقالاً ويسبقون إلى الرفع أولى بالرياسة فيهم والله لا أؤمّر إلاّ أولهم انتداباً ، ثم دعا أبا عبيد وسعداً وسليطاً وقال لهما : لو سبقتما لوليتكما ولأدركتما بها مالكما من السابقة ، فأمَّر أبا عبيد وقال له : اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ولا يمنعني أن أؤمّر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب وفي التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب فإنه لا يصلحها إلا الرجل المكيث ، وأوصاه بجندل ، فكان بعث أبي عبيد أول جيش سيّره عمر رضي الله عنه ثم بعده سيّر يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران بوصية رسول الله ﷺ

وألاّ يجتمع بجزيرة العرب دينان ، واعتذر عمر في عزله المثنى عن الإمارة بقوله إني لم أعزله وخالد بن الوليد عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألاّ يكونوا بعرض فتنة .

ذكر خبر النمارق

فسار أبو عبيد الثقفي وسعد بن عبيدة وسليط بن قيس الأنصاريان ومن معهم والمثنى بن حارثة وأمره عمر بالتقدم إلى ان يقوم عليه أصحابه وأمرهم باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك ، وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس تشاغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرخزاد عشر سنين ثم يكون الملك في آل كسرى إن وجدوا من غلمانهم ، وإلا ففي نسائهم ، فدعت بوران مرازبة فارس وأمرتهم أن يسمعوا لرستم ويطيعوا ، وتَوَّجَتْه فدانت له فارس قبل قدوم أبي عبيد ثم قدم المثنى إلى الحيرة في عشر وقدم بعده أبو عبيد بشهر ، فكتب رستم إلى الدهاقين أن يؤثروا في المسلمين وبعث في كل رستاق رجلاً يؤثر بأهله ووعدهم يوماً وبعث جنداً لمصادمة المثنى .

وبلغ المثنى الخبر فعجل فخرج من الحيرة ونزل خفان ، ونزل جيش الفرس النمارق ، فسار إليه أبو عبيد واقتتلوا بالنمارق قتالاً شديداً فهزم الله أهل فارس وأسر رئيس جيشهم واسمه جابان ولحق المنهزمون كسكر وبها نرسي ابن خالة الملك ، فسار إليهم أبو عبيد واقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزم الفرس وهرب نرسي وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم ، ولما بَلَغَ بوران ورستم هزيمة جابان بعثا لجالينوس بجيش فنزل بباقيشاثا ، فسار إليه أبو عبيد فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد ثم ارتحل حتى قدم الحيرة .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأبي عبيد إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية تقدم على قوم تجرؤوا على الشر وفعلوه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون واحذر لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرره وإذا ضيعه كان بمضيعة ، فكان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظاً على ما أوصاه به عمر رضي الله عنه .

ذكر وقعة قس الناطف

ويقال لها الجسر واستشهاد أبي عبيد رضي الله عنه

ولما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً ومن معه من جنده قال رستم أي العجم أشد على العرب ؟ قالوا بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب فوجهه ومعه فيلة ورد الجالينوس معه ، وقال لبهمن : إن انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه .

فأقبل بهمن جاذويه فنزل بقس الناطف ، وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة فرأت دومة امرأة أبي عبيد في منامها أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر فأخبرت بها أبا عبيد ، فقال هذه الشهادة إن شاء الله تعالى ، فعهد إلى الناس فقال إن قتلت فعلى الناس فلان فإن قتل فعليهم فلان حتى أمر الذين شربوا من الإناء وكلهم من قومه ثقيف ، ثم قال فإن قتل فلان فعلى الناس المثنى بن حارثة ثم عبر على الجسر بجيوشه إلى قس الناطف فالتقى مع بهمن وجيوشه واقتتلوا قتالاً شديداً ، واشتد الأمر بالمسلمين ، فترجل أبو عبيد والناس ثم مشوا إليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم ، فنادى أبو عبيد احتوشوا الفيلة وقَطّعوا بطانها واقلبوا عنها أهلها ، ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذي عليه ، وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلاً إلا حطوا رحاله وقتلوا أصحابه وأهوى الفيل لأبي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه ، فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ، ثم أخذ اللواء الذي أمر بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه ثم قتل الفيلُ الأميرَ الذي بعد أبي عبيد ، وتتابع سبعة أنفس كلهم من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ، ثم أخذ اللواء المثنى بن حارثة فهرب عنه الناس .

فلما رأى عبدالله بن مرشد الثقفي ما لقي أبو عبيد وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر فقطعه وقال : أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا ، وجاز المشركون المسلمين إلى الجسر فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر ، وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال : إنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا أنفسكم .

وقاتل عروة بن زيد الخيل وأبو محجن الثقفي قتالاً شديداً ، وقاتل أبو زُبَيْد الطائي قتالاً شديداً حمية للعرب وكان نصرانياً قدم الحيرة لبعض أمر ، ونادى المثنى : من عبر نجا ، وأمر بعقد الجسر فعبر الناس وكان آخر من قتل سليط بن قيس ، وعبر المثنى فلما عبر ارْفَضَّ عنه أهل المدينة وبقي المثنى في قلة وكان قد جرح وأثبت فيه حلق من درعه ، وكان جملة من مات من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق ، وقتل من الفرس ستة آلاف .

وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه وأنهم صاروا فريقين الفهلوج على رستم وأهل فارس على الفيرزان ، ورجع بهمن إلى المدائن .

ذكر وقعة البُوَيْب

لما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقعة أبي عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى وكان ممن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله البجلي فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجه إلى العراق فأبوا إلا الشام ، فعزم عليهم عمر التوجه إلى العراق وينفلهم ربع الخمس فأجابوا ، وسيّرهم إلى المثنى وكتب إلى أهل الردة فلم يأتِهِ أحد إلا بعثه إلى المثنى ، وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافدوا إليه في جمع عظيم ، وجاءه أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر نصارى وقالوا نقاتل مع قومنا ، وبلغ الخبر رستم والفيرزان فجمعوا جموعهم من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب ، وكان على جيش الفرس مهران الهمذاني فأرسل إلى المثنى يقول إما أن تعبر إلينا وإما أن نعبر إليك فقال المثنى اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطىء الفرات وعبأ المثنى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم فأفطروا ، وأقبل الفرس في ثلاث صفوف مع كل صف فيل ولهم زجل ، فقال المثنى لأصحابه : إن الذين تسمعون فشل فالزموا الصمت ، ودنوا من المسلمين ، وطاف المثنى في صفوفه يحرضهم وقال : إني مكبر ثلاثاً تهيؤوا ، ثم احملوا في الرابعة ، فلما كبروا أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم ، فلما طال القتال واشتد قال المثنى لأنس بن هلال النمري : إنك امرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا فإذا حملتُ على مهران

فاحمل معي فأجابه ، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته ، ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبتان تقتتل ولا يستطيعون أن يفزعوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون ، وأفنى المثنى قلب المشركين ، فلما رأوه قد أزال القلب وثبت مجنبتا المسلمين على مجنبتي المشركين وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم حتى هزموا الفرس ، وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فافترقوا مصعدين ومنحدرين ، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثاً ، وبقيت عظام القتلى دهراً طويلاً وكانوا يحرزون القتلى مئة ألف ، وسمي ذلك اليوم يوم الأعشار أحصى مئة رجل من المسلمين قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس ، وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، وأعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط عمر رضي الله عنه .

ذكر خبر الخنافس وسوق بغداد

سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسوادن وقضاعة وربيعة تخفرونهم ، فركب المثنى وأغار على الخنافس يوم سوقها فانتهب السوق وما فيها وسلب الخضراء ثم رجع إلى الأنبار فتحصن أهلها منه ، فلما عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد وأخذ منهم الأدلاء على سوق بغداد وهو موضع المدينة التي اختطها المنصور فيما بعد وصبحهم في أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء ثم رجع إلى الأنبار وشن الغارات بخيول أصحابه على الأطراف ، وبعث خيلاً على أحياء تغلب بصفين فأغاروا عليهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال وأغاروا على قوم من تغلب والنمر بشاطىء دجلة ففروا وأدركوهم بتكريت فأصابوا ما شاؤوا من النعم .

ذكر الخبر الذي هَيَّج أمر القادسية وتملك يزدجرد

لما رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والفيرزان وهما على أهل فارس : لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم ولم يبلغ من أمركما أن نقركما على هذا الرأي وإن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأنَّ بكما ثم نهلك وقد اشتفينا منكما .

ولم يبق من ولد كسرى من الذكور إلا غلام عمره إحدىٰ وعشرون سنة يدعى يزدجرد فملكوه واجتمعوا عليه فاطمأنت فارس واستوثقوا وتبارى المرازبة في طاعته ومعونته ، فجندوا جنوداً كثيرة ، فبلغ ذلك المثنى والمسلمين فكتبوا إلى عمر بن الخطاب ، ثم بلغهم أن أهل السواد كفروا وصار من له عهد كمن لا عهد له ، فلما وصل الكتاب إلى عمر رضي الله عنه قال : والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب ، فلم يدع رأساً ولا ذا رأي وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا ورماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم .

وكتب عمر إلى المثنى ومن معه يأمره بالخروج من بين العجم والتفرق في المياه التي تلي العجم وألاَّ يَدَعُوا في ربيعة ومضر وخلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضروه إما طوعاً أو كرهاً ففعلوا ذلك ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ، وأرسل عمر في الحجة عند مخرجه إلى الحج إلى عماله على العرب ألاَّ يدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي إلا وجَّهوه إليه ، فأما من كان على النصف ما بين المدينة والعراق فجاء إليه بالمدينة لما عاد من الحج ، وأما من كان أقرب إلى العراق فانضم إلى المثنى بن حارثة وجاءت أمداد العرب إلى عمر ، ولما اجتمع الناس استخلف على المدينة علياً رضي الله عنه وخرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى ضراراً فعسكر به في ابتداء سنة أربع عشرة ، ولا يدري الناس ماذا يريد أيسير أم يقيم ؟ فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق ، فقال العامة سر وسِرْ بُنا معك ، فدخل معهم في رأيهم وقال : ٱغْدُوا واستعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من هذا ، ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وأرسل يطلب حضور علي رضي الله عنه من المدينة فحضر ، فاجتمع أصحاب النبي ﷺ وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، ثم استشارهم فاتفقوا على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ويرميه بالجنود فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح وإلا أعاد رجلاً وبعث آخر ففي ذلك غبن العدو ، فجمع عمر بقية الناس وقال لهم : إني كنت عزمت على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم وقد رأيت أني أقيم وأبعث رجلاً فأشيروا عليّ برجل .

وكان سعد بن أبي وقاص بعثه لصدقات هوازن وكتب إليه بانتخاب ذوي الرأي

والنجدة والسلاح ، فجاء كتابه وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه ، يقول سعد في كتابه : قد انتخبت لك ألف فارس كلهم ذوو نجدة ورأي وصاحب حيطة يحفظ حريم قومه ، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم ، فلما وصل كتابه لعمر قالوا له : قد وجدته يا أمير المؤمنين ، قال : من هو ؟ قالوا سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص ، فانتهى إلى قولهم ، فأرسل إليه وطلبه وأقره على حرب العراق وأوصاه بوصايا كثيرة وسرحه فيمن اجتمع إليه من نفر المسلمين وهم أربعة آلاف ثم أمده بألفين من أهل اليمن وألفين من أهل نجد ، وكان المثنى في ثمانية آلاف وكان سعد بن أبي وقاص من بني زهرة بن كلاب وهم رهط آمنة أم النبي ﷺ ، فهو : سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وآمنة أم النبي ﷺ بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب فيلتقي نسبه مع آمنة في عبد مناف بن زهرة ومع النبي ﷺ في كلاب بن مرة ، وكان سعد رضي الله عنه من السابقين في الإسلام ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن الشجعان المشهورين وهو أول من أراق دماً في سبيل الله وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وشاهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأبلى يوم أحد بلاء عظيماً وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض وشهد له بالجنة ودعا له أن الله يجيب دعوته فكان مجاب الدعوة ، ومناقبه كثيرة رضي الله عنه ، وبه فتح الله العراق ، ولما طعن عمر رضي الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى المستحقين للخلافة ، ومما أوصاه به عمر رضي الله عنه لما جعله أميراً على جيوش العراق أن قال : لا يغرنك من الله أَنْ قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله لا يمحو بالسيىء السيىء ولكنه يمحو السيىء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس في ذات الله سواء ، اللهُ ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويذكرون ما عندهم بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه ووصاه بالصبر .

وسار سعد والمثنى قبله وصار ينتظر قدومه ، فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحات كانت به انتقضت عليه ، ولما وصل سعد رتب الجيوش ولم يزل عمر رضي الله عنه يمده بالرجال حتى استكمل عنده ستة وثلاثون ألفاً ، وأوصى المثنى قبل موته

أخاه المعنى بن حارثة أن يبلّغ سعداً إذا قدم أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلوهم في قعر دارهم فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أن يرد الله الكرّة عليهم ، فلما بلغه ذلك ترحّم على المثنى ومن معه ، وكان مع سعد تسعة وتسعون من أهل بدر وثلاثمئة وبضعة عشر ممن كانت لهم صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلاثمئة ممن شهدوا فتح مكة وسبعمئة من أبناء الصحابة ، وقدم على سعد كتاب عمر بمثل رأي المثنى .

روى الطبراني أن عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص : قد وجّهت إليك وأمددتك بألفي رجل عمر بن معدي كرب وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا تولّهما ، وإنما قال ولا تولّهما لما يعلم فيهما من شدة الإقدام بالعسكر وعدم التأني ، وكان كل منهما يعدُّ بألف فارس لشجاعتهما وشدتهما ، وسيأتي ذكر شيء مما يدل على ذلك .

وكان ملك العرب عامل كسرى بالحيرة قبيصة بن إياس الطائي ، فلما سمع بمجيء سعد سأل عنه وعنده عبد الله بن سنان الأسدي فأخبره أن سعداً رجل من قريش ، فقال قبيصة والله لأحاد به القتال فإن قريشاً عبيد من غلب والله لا يخرجون من بلادهم إلا بخفي ، فغضب عبد الله بن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قبته فقتله ولحق بسعد فأسلم .

وسار سعد بالجيوش حتى نزل القادسية وهي قريب من موضع الكوفة ، وكتب عمر بن الخطاب لسعد رضي الله عنهما : إنكم إذا لقيتم العدو وهزمتموهم فمتى لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو بإشارة أو بلسان كان عندهم أماناً فأجروا لهم ذلك مجرى الأمان والوفاء ، فإن الخطأ بالوفاء بقية ، وإن الخطأ بالغدر هلكة فيها وهنكم وقوة عدوكم ، وكان سعد قد جعل على مقدمة جيشه زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية التميمي وهو صحابي وفد على النبي ﷺ وأسلم ، فلما نزل زهرة في المقدمة وأمسى بعث سرية في ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة ، فلما جاوزوا السَّيْلَحِين سمعوا جلبة فمكثوا حتى حاذوّهم وإذا أخت أزاد مرد بن آزادبه مرزبان الحيرة تزف إلى صاحب الصنين وهو من أشراف العجم ، فحمل بكير بن

عبد الله الليثي أمير السرية على شيرزاد بن آزادبه فدقّ صلبه وطارت الخيل على وجوهها ، وأخذوا الأثنال وآنية آزادبه في ثلاثين من أمراء الدهاقين ومئة من التوابع ومعهم ما لا يدرى قيمته ، فاستاق ذلك ورجع به وأتى به سعداً فقسم ذلك على المسلمين .

ومكث سعد بالقادسية شهراً لم يأته أحد من الفرس وخيله تغير بالأطراف وتأتي بغنائم كثيرة حتى أخصب المسلمون ، ووصف بعض من كان مع سعد قوم سعد الذين كانوا معه في الجيش للحجاج بن يوسف بقوله : ما رأينا قط أزهد في دنيا منهم ولا أشدَّ بغضاً لها وكانوا أبراراً أتقياء ليس فيهم جبان ولا غدّار ، فاستغاث أهل السواد إلى يزدجرد وأعلموه أن العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم شيء وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات ونهبوا الدوابَّ والأطعمة ، وإن أبطأت الغياث أعطيناهم بأيدينا وكتب له بذلك الذي لهم الضياع وهيجوه على إرسال الجنود ، فأرسل يزدجرد إلى رستم وقال له إني أوجهك إلى هذا الوجه فأنت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حلَّ بالفرس مما لم يأتهم مثله ، فأظهر له الإجابة ثم قال له دعني فإن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضربهم بي ولعل الدولة أن تثبت بي إذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر ، والأناة خير من العجلة ، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا ، فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال قد اضطر تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به فأنشدك الله في نفسك وملكك ودعني أقم بعسكري وأسرح الجالينوس فإن تكن لنا فذلك وإلا بعثنا غيره حتى إذا لم نجد بداً صبرنا وقد وهنّاهم ونحن حامون فإني لا أزال مرجواً في أهل فارس ما لم أهزم ، فأبى إلا أن يسير ، فخرج حتى ضرب عسكره بساباط وعلى مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً ، وخرج هو في ستين ألفاً وفي ساقته عشرون ألفاً .

وجاءت الأخبار إلى سعد بذلك ، فكتب إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : لا يكربنَّك ما يأتيك منهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه إلى الله فإن الله جاعلٌ دعاءهم توهيناً لهم ، فأرسل سعد نفراً ممن هم كذلك وأمرهم أن يأتوا يزدجرد ، فخرجوا من العسكر وتركوا رستم واستأذنوا

على يزدجرد فأذن لهم فدخلوا وقد أحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقوله لهم ، واجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط ، وأحضر الترجمان وقال سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا من أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ، فقال النعمان بن مقرن لأصحابه إن شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته ، فقالوا : بل تكلّم ، فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة ثم أمر أن نبتدىء إلى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط وطامع فازداد فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حَسَّن الحَسَنَ وقَبَّحَ القبيحَ فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

فتكلم يزدجرد وقال : إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونا أمركم ولا تطمعوا أن تقدموا لفارس ، فإن كان غرور لحقكم فلا يغرنّكم منا وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم .

فقام المغيرة بن زرارة الأسدي وقال : أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وإنما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، ولَيْس كل ما أرسلوا به قالوه ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه ، فجاوبني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون على ذلك ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد ، ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال النبي ﷺ إليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية ، ثم قال له اختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك ، فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ، ثم استدعى بوِقْرٍ من تراب فقال : احملوه على أشرف هؤلاء ثم

سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، ثم قال لرسل سعد : ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ، فقام عاصم بن عمرو الكناني الليثي ليأخذ التراب ، وقال : أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء ، فحمله على عنقه وخرج إلى راحلته فأخذ التراب وركبها ، وقال لسعد لما جاءه : أبشر قد أعطانا الله مقاليد ملكهم ، واشتد ذلك على جلساء الملك ، وقال الملك لرستم : ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء ما أنتم بأحسن جواباً منهم ، ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمراً ليدركنّه أو ليموتنَّ عليه ، على أني وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه ، فقال رستم : أيها الملك إنه أعقلهم وتطير إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه ، وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيباً وبعث في أثر الوفد وقال لثقته : إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا ، وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم ، فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم ، فقال : ذهب القوم بأرضكم من غير مثال ، وكان منجماً كاهناً .

وأغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على النجاف والغراض فاستاق ثلاثمئة دابة بين بغل وحمار وثور وأوقروها سمكاً ، وصبَّح العسكر فقسمه سعد بين الناس ، ويسمون ذلك اليوم يوم الحيتان ، وبعث سعد سرية أخرى فأصابوا إبلاً لبني تغلب والنمر واستاقوها ومن فيها فنحر سعد الإبل وقسمها في الناس فأخصبوا ، وغار عمرو بن الحارث على النهرين فاستاق مواشي كثيرة وعاد ، وسار رستم من ساباط وجمع آلة الحرب وقال رستم للملك يشجعه بذلك إن فتح الله علينا توجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أهلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المال .

ولما فصل رستم عن ساباط كتب إلى أخيه البنذوان أما بعد : فرموا حصونكم وأعدوا واستعدوا فكأنكم بالعرب قد قارعوكم عن أرضكم وأبنائكم وقد كان من رَأْيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوساً فإن السمكة قد كدرت الماء وإن النعام حسنت والزهرة قد حسنت واعتدل الميزان وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا ، وإن أشد ما رأيت أن الملك قال : لتسيرنّ أو لأسيرنّ بنفسي .

ولقي جابان رستم على قنطرة ساباط وكانا منجمين فشكا إليه وقال له ألا ترى

ما أرى ؟ فقال له رستم أما أنا فأقاد بخشاش وزمام ولا أجد بداً من الانقياد ، ثم سار فنزل بكوثى فأتي برجل من العرب فقال ما جاء بكم وماذا تطلبون ؟ فقال جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا ، قال رستم فإن قتلتم قبل ذلك ؟ قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين ، فقال رستم : قد وضعنا إذن في أيديكم ؟ فقال : أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرّنك من ترى حولك فإنك لست تحاول الأنس وإنما تحاول القدر ، فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهلها إلى رستم ، فقال يا معشر فارس والله لقد صدق العربي والله ما أسلمنا إلا أعمالنا والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حزب أحسن سيرة منكم إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والإحسان فإذا تغيرتم فلا أرى الله إلا مغيّراً ما بكم وما أنا بآمن من أن ينزع الله سلطانه منكم ، وأتي ببعض من يُشْكَىٰ منه فضرب عنقه ، ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهددهم وهمّ بهم ، فقال له ابن بقيلة : لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا .

ولما نزل رستم بالنجف رأى في منامه كأن ملكاً نزل من السماء ومعه النبي ﷺ وعمر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبي ﷺ فدفعه النبي ﷺ إلى عمر فأصبح رستم حزيناً ، وأرسل سعد السرايا ورستم بالنجف والجالينوس بين النجف والسَّيْلَحِين فطافت في السواد فبعث سواداً وحميضة في مئة فأغاروا على النهرين ، وبلغ رستم الخبر فأرسل إليهم خيلاً ، وسمع سعد أن خيله قد وغلت فأرسل عاصم بن عمرو وجابراً الأسدي في آثارهم ، فلقيهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم ، فلما رأته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم .

وأرسل سعد عمرو بن معديكرب وطليحة الأسدي طليعةً ، فساروا في عشرة فلم يسيروا إلا فرسخاً وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤوها فرجع عمرو ومن معه وأَبى طلحة إلا التقدم فقالوا له أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن فارجع معنا ، فأبى فرجعوا إلى سعد فأخبروه بقرب القوم ، ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه ويتوسم فهتك أطناب

بيت رجل عليه واقتاد فرسه ثم هتك على آخر بيته وحلّى فرسه ثم فعل بآخر كذلك ثم خرج يعدو به فرسه ونذر به الناس فركبوا في طلبه فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحة ثم آخر فقتله ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبيه وهما ابنا عمه فازداد فلحق طليحة فكرّ عليه طليحة وأسره ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلا وأسر الثالث وقد شارف طليحة عسكره فأحجموا عنه ودخل طليحة على سعد ومعه الفارسي وأخبره الخبر فسأل الترجمان الفارسي عن ذلك فطلب الأمان فأمّنه سعد ، فقال : أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي ، باشرت الحروب منذ أنا غلام إلى الآن ، وسمعت بالأبطال ولم أسمع بمثل هذا أن رجلاً قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت ، فلما أدركناه قتل الأول وهو يعد بألف فارس ثم الثاني وهو نظيره ثم أدركته أنا ، وخلفت من بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين فرأيت الموت واستؤسرت ، ثم أخبره عن الفرس وأسلم ، ولزم طليحة وكان من أهل البلاء بالقادسية وسماه سعد مسلماً .

ثم سار رستم وقدم الجالينوس وبهمن ذو الحاجب فنزل الجالينوس بحيال زهرة بن الحوية ونزل ذو الحاجب بطرناباذ ونزل رستم بالجزارة ، ثم سار رستم فنزل بالقادسية ، وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم لأجل أن يطاول المسلمين رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا ، وكان قصده أن يطاولهم أكثر من ذلك لولا أن الملك يستعجله وينهضه ، وكان عمر قد كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضاً ، فاستعد للمطاولة ولم يتضرر بها وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً ، منها فيل سابور الأبيض ، وكانت الفيلة تألفه فجعل في القلب ثمانية عشر فيلاً وفي المجنبتين خمسة عشر فيلاً ، فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة ، فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ولو وقف على القنطرة ، وأرسل إلى زهرة فوافقه فأدار ظهره على أن يصالحه ويجعل له جُعْلاً على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك ، بل يقول له : كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ويخبره عن صنيعهم مع العرب ، فقال له زهرة : ليس أمرنا أمر أولئك إنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طِلْبتنا وهمتنا

الآخرة ، وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولاً فدعانا إلى ربه فأجبناه فقال الله لرسوله إني سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ولا يعتصم به أحد إلا عز ، فقال رستم : ما هو ؟ قال : أما عموده الذي لا يصلح إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال : وأي شيء أيضاً ؟ قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم ، قال : ما أحسن هذا ، ثم قال رستم : أرأيت إن أجبت إلى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم ، أترجعون ؟ قال : أي والله ، قال : صدقتني ، أما إن أهل فارس منذ ولي أزدشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم ، فقال زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا ، فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فَأَنِفُوا ، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا ، فدعا سعد جماعة ليرسلهم فقال له رِبْعي بن عامر متى نأتهم جميعاً يروا أنّا قد اختلفنا بهم فلا تزدهم على رجل ، فأرسله وحده فسار إليهم فحبسوه على القنطرة ، وأعلم رستم بمجيئه فأظهر زينته وجلس على سرير من ذهب وبسط البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب وأقبل رِبْعي على فرسه وسيفه في خرقة ورمحه مشدود بعصب وقد ، فلما انتهى إلى البسط قيل له انزل ، فحمل فرسه عليها ونزل وربطها بوسادتين شقهما وأدخل الحبل فيهما فلم ينهوه وأروه التهاون وعليه درع ، وأخذ عباءة بعيره فتدرعها وشدها على وسطه ، فقالوا : ضع سلاحك ، فقال : لم آتكم لأضع سلاحي بأمركم أنتم دعوتموني فأخبروا رستم ، فقال ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه فلم يدع لهم نمرقاً ولا بساطاً إلا أفسده وهتكه برمحه ، فلما دنا من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط فقيل له ما حملك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم ، فقال له ترجمان رستم : ما جاء بكم ؟ قال : الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، من قَبِلَهُ قَبِلْنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا ومن أبى قتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر ، فقال رستم : قد سمعنا قولكم فهل لكم

أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ قال نعم وأن مما سن لنا رسول الله ﷺ ألاّ نمكن الأعداء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل إما الإسلام وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا أنا كفيل بذلك عن أصحابي ، قال : أسيّدُهُمْ أنت ؟ قال : لا ، لكن المسلمون كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم .

فخلا رستم برؤساء قومه فقال هل رأيتم كلاماً قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال ويحكم لا تنظروا إلى ثيابه ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة أن العرب تستخف باللباس وتصون الأحساب ليسوا مثلكم .

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى سعد ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم حذيفة بن محصل فأقبل في نحو من ذلك الزي ولم ينزل عن فرسه ووقف على رستم راكباً ، قال : انزل ، قال لا أفعل ، فقال له : ما جاء بك ولِمَ لم يجيء الأول ؟ قال له : إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتي ، فقال : ما جاء بكم ؟ فأجابه مثل الأول ، فقال رستم : المواعدة إلى يوم ما قال نعم ثلاثاً من أمس ، فرده وأقبل على أصحابه وقال : ويحكم أما ترون ما أرى ؟ جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظم وأقام فرسه على زبرجنا وجاء هذا اليومَ فوقف علينا وهو في يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا .

فلما كان الغد أرسل إلى سعد ابعث إلينا رجلاً ، فبعث المغيرة بن شعبة فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة لا يوصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها ، فأقبل المغيرة حتى جلس موضع رستم على سريره فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، وإني لم آتكم ولكن دعوتموني اليوم علِمت أنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول ، فقالت السفلة : صدق والله العربي

وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أولينا حيث كانوا يصغّرون أمر هذه الأمة .

ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال : لم نزل متمكنين في البلاد ظاهرين على الأعداء أشرافاً في الأمم فليس لأحد مثل عزنا وسلطاننا ننصر عليهم ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين والشهر للذنوب ، فإذا انتقم الله منا ورضي علينا يرد لنا الكرة على عدونا ،، ولم يكن في الأمم أمة أصغر عندنا أمراً منكم كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ثم نردكم ، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا الجهد في بلادكم فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر لكل واحد منكم بوقر تمر وتنصرفون عنا فإني لست أشتهي أن أقتلكم .

فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم ، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ، ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهلاً لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلباً من الله رحمة ورأفة علينا إن الله تبارك وتعالى قد بعث فينا رسولاً ، ثم ذكر مثل ما تقدم من ذكر الإسلام والجزية والقتال وقال له : وإن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه ، فقال رستم : إذن تموتون دونها ! فقال المغيرة : يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، يظفر من بقي منا بمن بقي منكم ، فاستشاط رستم غضباً ثم حلف ألاَّ يرتفع الصبح غداً حتى نقتلكم أجمعين ، وانصرف المغيرة ، وخلا رستم بأهل فارس وقال : أين هؤلاء منكم هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين ، والله لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم ألاّ يختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء فلجوا وتجلدوا ، فأرسل رستم رسوله خلف المغيرة وقال له : إذا قطع القنطرة فأعلمه أن عينه تفقأ غداً ، فأعلمه الرسول بذلك فقال المغيرة : بشرتني

بخير وأجر ولولا أن أجاهد بعد هذا اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت ، فرجع إلى رستم فأخبره ، فقال : أطيعوني يا أهل فارس إني لأرى فيكم نهمة لا تستطيعون ردها .

ثم أرسل إليه سعد بقية ذوي الرأي فساروا وكانوا ثلاثة فقالوا لرستم : إن أميرنا يدعوك إلى ما هو خير لنا ولك ، والعافية أن تقبل ما دعاك إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عوناً لكم على أحد إن أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يديك وليس بينك وبين أن تغبط بهذا الأمر إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك ، فقال لهم : إن الأمثال أوضح من كثير من الكلام إنكم كنتم أهل جهد وقشف لا ينتصفون ولا تمتنعون فلم نسيء جواركم ، وكنا نميركم ونحسن إليكم ، فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا ووصفتم لقومكم ذلك ووعدتموهم ، ثم أتيتمونا وإنما مثلكم ومثلنا كمثل رجل كان له كرم فرأى فيه ثعلباً فقال : وما ثعلب ؟ فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم ، فلما اجتمعوا إليه سد صاحب الكرم النقب الذي كن يدخلن منه فقتلهن فقد علمت أن الذي حملكم على هذا الحرص والجهاد فارجعوا ، ونحن نميركم لأني لا أشتهي أن أقتلكم ومثلكم أيضاً كالذباب يرى العسل فيقول : من يوصلني إليه وله درهمان فإذا دخل غرق ونشب فيقول : من يخرجني وله أربعة دراهم وقال أيضاً إِنْ رَجُلٌ وضع سلة وجعل طعاماً فيها فأتى الجرذان فخرقوا السلة فدخلوا فيها فأراد سدها فقالوا له لا تفعل إذن تخرقه ولكن انقب بحياله ثم اجعل قصبة مجوفة فإذا دخلها الجرذان وخرجن منها فاقتل كل ما خرج منها وقد سددت عليهم أن يقتحموا القصبة ولا يخرج منها أحد إلا قتل ، فما دعاكم إلى ما صنعتم ولا أرى عدداً ولا عدة ؟ قال : فتكلم القوم وذكروا سوء حالهم وما منّ الله به عليهم من إرسال رسوله واختلافهم أولاً ثم اجتماعهم على الإسلام وما أمرهم به من الجهاد ، قالوا : وأما ما ضربت لنا من الأمثال فليس كذلك وإنما مثلكم كمثل رجل غرس أرضاً واختار لها أشجاراً وأجرى إليها الأنهار ، وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ، ويقومون على جناتها ، فحلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب فأطال إمهالهم فلم يستحيوا ، فدعا إليها غيرهم وأخرجهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس وإن أقاموا فيها صاروا خَوَلاً لهؤلاء

فيسومونهم الخسف أبداً ، والله لو لم يكن ما نقول حقاً ولم يكن إلا لدينا لما صبرنا عن الذي نحن فيه من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرجكم ولقارعناكم عليه ، فقال رستم : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ فقالوا اعبروا إلينا ، ورَجَعوا من عنده عشياً .

وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا موقفهم وأرسل إليهم شأنكم والعبور فأرادوا القنطرة فقال : لا ، ولا كرامة أما شيء غلبناكم عليه فلا نرده عليكم ، فباتوا يسكّرون (أي يسدون) العتيق حتى الصباح بالتراب والعصب والبرادع حتى جعلوه طريقاً واستتم بعدما ارتفع النهار .

ورأى رستم من الليل كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ قِسِيَّ أصحابه فختم عليها ، ثم صعد بها إلى السماء ، فاستيقظ مهموماً واستدعى خاصيته فقصها عليهم وقال : إن الله ليعظنا لو اتعظنا .

ولما ركب رستم ليغير كان عليه درعان ومغفر وأخذ سلاحه ووثب فإذا هو على فرسه ولم يضع رجله في الركاب وقال : غداً ندقهم دقاً ، فقال له رجل : إن شاء الله فقال : وإن لم يشأ ، ثم قال : إنما صفا للثعلب حين مات الأسد يعني كسرى وإني أخشى أن تكون هذه سنة القرود ، وإنما قال هذه الأشياء توهيناً للمسلمين عند الفرس ، وإلا فالمشهور عنه الخوف من المسلمين وقد أظهر ذلك إلى من يثق به .

ذكر يوم أرماث

لما عبر الفرس العتيق (اسم للماء مطلقاً ويسمى به نهر هناك) وجلس رستم على سريره وضرب عليه طيارة وعَبَّى في القلب ثمانية عشرة فيلاً عليها صناديق ورجال ، وفي المجنبتين ثمانية أو سبعة أفيال ، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته ، وكان الملك يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالاً على كل دعوة (أي وظيفة) رجلاً ، أولهم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم فكُلَّما فعل رستم شيئاً قال الذي معه للذي يليه كان كذا وكذا ، ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه وهكذا إلى أن ينتهي إلى يزدجرد في أسرع وقت ، وأخذ المسلمون مصافَّهم وكان أميرهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أصابه دماميل وعرق النسا فلا يستطيع الجلوس إنما هو مُكِبٌّ على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف في أصل

حائطه ولو تعداه الصف فُوَاقَ ناقةٍ لأخذ برمته ، وما نقص ذلك من شجاعة سعد رضي الله عنه ، وعابه بعض من كان يبغضه فقال :

نقـــاتِـــلُ حتّـــى أنــــزلَ اللهُ نَصْــــرَهُ   وسَعْــدٌ ببـــابِ القـــادسيـــةِ مُعْصِـــمُ
فَـــأُبْنَـــا وَقَـــدْ آمَـــتْ نســـاءٌ كثيـــرةٌ   ونِســـوةُ سَعْـــدٍ ليـــس فيهـــنَّ أَيِّـــمُ

فبلغت أبياته سعداً وكان مجاب الدعوة فقال : اللهمَّ إن كان هذا كاذباً وقال الذي قاله رياء وسمعة فاقطع عني لسانه ، فبينما هو واقف في الصف يومئذ أتاه سهم غرب فأصابه فكان سبباً في اعتقال لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى ، ونزل سعد إلى الناس فاعتذر إليهم وأراهم ما به من القروح في فخذيه وإليتيه ، فعذره الناس وعلموا حاله ، ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة على الناس فاختلف عليه فأخذ نفراً ممن شغب عليه فحبسهم في القصر منهم أبو محجن الثقفي وقيدهم ، وقيل بل كان حبس أبي محجن بسبب شرب الخمر ، وأعلم الناس أنه قد استخلف خالد بن عرفطة فسمعوا وأطاعوا ، وخطب الناس يومئذ وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثهم على الجهاد وذكرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس ، وكذلك فعل أمير كل قوم ، وأرسل سعد نفراً من ذوي الرأي والنجدة منهم المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس الأسدي وغالب وعمرو بن معدي كرب وأمثالهم ، ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعَبدة بن الطَّبيب وغيرهم ، وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا ، وكان صف المسلمين مع حائط قديس والخندق فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعقيق ، وقد تقدم أن جيش رستم كان مئة وعشرين ألفاً ، وجيش المسلمين كان بضعة وثلاثين ألفاً ، وكان مع الفرس ثلاثون ألف مسلسل ، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الأنفال ، فلما قرئت هَشَّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها ، فلما فرغ القراء منها قال سعد : الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فإذا صليتم فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ، فإذا كبرت الثالثة فكبروا وينشط فرسانكم الناس ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما كبر سعد الثانية برز أهل النجدات فأنشبوا القتال وخرج إليهم من الفرس أمثالهم فاعتوروا الطعن والضرب ، وبرز غالب بن عبدالله الأسدي وأنشد أبياتاً فخرج إليه هرمز وكان من

ملوك الباب وكان متوجاً فأسره غالب فجاء به سعداً ورجع ، وبرز عاصم بن عمرو التميمي وطارد فارساً فانهزم فتبعه عاصم حتى خالط صفهم فحموه فأسر عاصم رجلاً على بغل وعاد به وإذا هو خباز الملك ومعه من طعام الملك وخبيصه فأتى به سعد فنفله أهل موقفه ، وخرج فارس فطلب البراز فبرز إليه عمرو بن معدي كرب فأخذه وجلد به الأرض فذبحه وأخذ سواريه ومنطقته ، وحملت الفيلة على المسلمين ففرقت بين الكتائب فنفرت الخيل وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلاً فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمن معها ، وأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة وعمن معها من الناس ، فخرج طليحة بن خويلد وحمال بن مالك في كتائبهما فباشروا الفيلة وخرج إلى طليحة فيل عظيم منهم فقتله طليحة ، وقام الأشعث بن قيس في كندة فقال : معشر كندة لله در بني أسد أي فَرٍّ يفرون وأي هَزٍّ يهزون عن مواقفهم أعني كل قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم من العرب ، فنهضوا ونهض معه فأزالوا الذين بإزائهم .

فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب ، والجالينوس ، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد فاجتمعت جلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف إليهم المسلمون ، ورحا الحرب تدور على أسد ، وحملت الفيلة على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها ، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمي فقال : يا معشر بني تميم أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا : بلى والله ، ثم نادى في رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة ، فقال : يا معشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ، وقال يا معشر الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها (الوضين ما يربط به القتب) وخرج يحميهم ورحا الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد ، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذناب توابيتها فقطعوا وضنها وارتفع عواؤهم فما بقي لهم فيل إلا عوى وقتل أصحابها ، ونُفِّس عن أسد وردوا فارساً عنهم إلى مواقفهم ، واقتتلوا حتى غربت الشمس ، ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء ، وأصيب من أسد في تلك العشية خمسمئة وكانوا ردأً للناس وكان عاصم حامية للناس ، وهذا اليوم الأول ؛ وهو يوم أرماث .

ذكر يوم أغواث

ولما أصبح القوم وكَّل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم ، فسلّم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم ، وأما القتلى فدفنوا هنالك على شرف وهو واد بين العذيب وعين الشمس ، فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصي الخيل من الشام وكان فتح دمشق قبل القادسية ، فلما قدم كتاب عمر على أبي عبيدة بن الجراح بإرسال أهل العراق سيّرهم والأمير عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وكان من الشجعان المشهورين وكان له صحبة أسلم عام الفتح رضي الله عنه وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي وله صحبة روي عنه أنه قال : شهدت وفاة رسول الله ﷺ ، فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً وهم ألف كلَّما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة تقدم أصحابه في عشرة ، فأتى الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع وطلب البراز فقالوا فيه (أي القعقاع) يقول أبو بكر رضي الله عنه : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا ، فخرج إليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع فنادى يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وتضاربا فقتله القعقاع وجعلت خيله ترد إلى الليل وتنشط الناس وكأن لم يكن بالأمس مصيبة ، وفرحوا بقتل ذي الحاجب وانكسرت الأعاجم بذلك ، وطلب القعقاع البراز فخرج إليه الفيرزان والبنذوان فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان ونادى القعقاع يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها ، فاقتتلوا حتى المساء فلم ير أهل فارس في هذا اليوم ما يعجبهم وأكثر المسلمون فيهم القتل ، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل لأن توابيتها كانت قد تكسرت بالأمس فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد .

وكان القعقاع كلما طلعت قطعة من أصحابه كبّر وكبّر المسلمون ويحمل ويحملون ، وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على إبل قدْ ألبسوها وهي مجللة مبرقعة وأطافت بهم خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث ، فجعلت

خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين ، فلما رأى الناس ذلك سُرُّوا بهم فلقي الفرس من الإبل أعظم ما لقي المسلمون من الفيلة ، وحمل رجل من تميم على رستم يريد قتله فقتل دونه ، وخرج رجل من فارس يبارز فبرز إليه الأعرف بن الأعلم العقيلي فقتله ، ثم برز إليه آخر فقتله ، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوه بسلاحه فَعَفَّر في وجوههم التراب حتى رجع إلى أصحابه .

وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة كلما طلعت قطعة حملت حملة وأصاب فيها وقتل فكان آخرهم بزرجمهر الهمذاني ، وبارز الأعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه ، وقاتلت الفرسان إلى نصف النهار ، فلما اعتدل النهار تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل ، فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد ، ولم يزل المسلمون يرون يوم أغواث الظفر وقتلوا أعلامهم وجالت فيه خيل القلب وثبت رجلهم ، فلولا أن خيلهم عادت أخذ رستم أخذاً ، وبات الناس على ما بات عليه القوم ليلة أرماث .

وقد ذكرنا أن أبا محجن الثقفي كان قد حبس بالقصر وقيد ، فلما كان يوم أغواث قال لسلمى زوج سعد بن أبي وقاص هل لك أن تُخلّي عني وتعيريني البلقاء ـ وهي فرس سعد ـ فله عليَّ إنْ سَلَّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي ، فأبت ، فلم يزل بها حتى رضيت أن تطلقه فأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها وخرج للقتال ولم يعلم به أحد ، فلما كان بحيال الميمنة كبّر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنة الفرس فكان يقصف الناس قصفاً منكراً ، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفون من هو فقال بعضهم هو من بعض أصحاب هاشم أو هاشم بنفسه ، وكان سعد يقول : لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء ، وقال بعض الناس : هذا الخضر ، وقال بعضهم : لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا إنه ملك ، فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد فقالت له سلمى : في أي شيء حبسك سعد ؟ فقال : والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني فقلت :

إذا مِتُّ فادفِنّي إلى أَصْلِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوتٍ عروقُها

ولا تَـدْفِنَنّـي فـي الفـلاةِ فـإنّـي أخـاف إذا مـا مِـتُّ أن لا أذوقَهـا

فلذلك حبسني .

فلما أصبحت سلمى أتت سعداً فصالحته وكانَتْ مغاضبة له وأخبرته بخبر أبي محجن فأطلقه فقال اذهب فما أنا مؤاخذك بشي تقوله حتى تفعله ، فقال لا جرم لا أجيب لساني إلى قبيح أبداً .

وكان عدد قتلى المسلمين وجرحاهم يوم أغواث ألفين بين جريح وميت ، ومن المشركين عشرة آلاف فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء ، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور وكان على الشهداء حاجب بن زيد ، وأما قتلى المشركين فبين الصفين وكان ذلك مما يقوي المسلمين ، وبات القعقاع تلك الليلة يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه وقال : إذا طلعت الشمس فأقبلوا مئة مئة فإن جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجداً لا يشعر به أحد ، وأصبح الناس على مواقفهم ، فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فعبأ أصحابه .

وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيت الفيلة حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم وأقبلت الرجالة مع الفيلة يحمونها أن تقطع وضنها ومع الرجالة فرسان يحمونهم فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأن الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أطافوا به كان آنَسَ .

فلما انتشب القتال كبّر المسلمون وتقدموا وكثر الطعن والضرب وأقبل هاشم والحرب قائم فعبأ أصحابه سبعين سبعين وحمل حتى خالط القلب واشتد القتال ، وحمل عمرو بن معدي كرب وضرب في الفرس حتى ستره الغبار وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوه وإن سيفه لفي يده يصادمهم وقد طعن فرسه ، فأخذ برجل فرس أعجمي فلم يطق الجري فنزل عنه صاحبه وفر إلى أصحابه وركبه عمرو ، وبرز فارس فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له بشر بن علقمة وكان قصيراً فترجّل الفارس إليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقودُ فرسه مشدودٌ في منطقته ، فلما سَلَّ سيفه نفر الفرس ، فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثني عشر ألفاً ، فلما رأى سعد الفيول قد فرقت في الكتائب وعادت لفعلها أرسل

إلى القعقاع وعاصم بن عمرو : اكفياني الأبيضَ ، وكانت كلها آلفة له وكان بإزائهما وقال لحمال والزبيل : اكفياني الأجرب وكان بإزائهما ، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما في خيل ورجل وفعل حمال والزبيل بمثل فعلهما ، فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما في عين الفيل الأبيض فنفض رأسه فطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا مَنْ كان عليه ، وحمل حمال والزبيل الأسديان على الفيل الآخر فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى وضربه الزبيل فأبان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنف الزبيل وجبينه بالطبرزين فأفلت الزبيل جريحاً وبقي الفيل جريحاً متحيراً بين الصفين كلما جاء صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المشركين نخشوه ، وولى الفيل وكان يدعى الأجرب وقد عور حمال عينه فألقى نفسه في العتيق فأتبعته الفيلة فخرقت صف الأعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها .

فلما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل وتزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا فاشتد القتال وصبر الفريقان وجاء الليل ، وكانت تسمى تلك الليلة ليلة الهرير لتركهم الكلام وإنما كانوا يهرون هريراً ، وأرسل سعد طليحة الأسدي وعمرو بن معدي كرب ليلة الهرير إلى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها حرساً خشية أن يأتي القوم منها ، فلما أتياها قال طليحة لو خضنا وأتينا الأعاجم من خلفهم ، قال عمرو : بل نعبر أسفل ، فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس وتعجب المسلمون وطلبه الأعاجم فلم يدركوه ، وأما عمرو فإنه أغار أسفل المخاضة ورجع وخرج جماعة من فرسان المسلمين وطاردوا جماعة من الفرس فإذا هم لا يشدون ولا يريدون غير الزحف فقدم المسلمون صفوفهم وزاحفوهم بغير إذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع ، فقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له إن لم يستأذني ، ثم لحقهم أسد ، فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، ثم حملت النَّخَعُ ، فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرها ، ثم حملت بجيلة ، فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، ثم حملت كندة ، فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، ثم زحف الرؤساء ورحىٰ الحرب تدور على القعقاع ، وكان سعد قال لهم إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا فكبر في أثناء تلك الحملة تكبيرتين فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضاً وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالاً بعد ما وصلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها

كصوت القيون (جمع قين وهو الحداد) ليلتهم إلى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم إفراغاً وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط ، وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم ، وأقبل سعد على الدعاء ، فلما كان عند الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأصبح الناس ليلة الهرير وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالي وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ، فسار القعقاع في الناس فقال : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة فاحملوا فإن النصر مع الصبر ، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح ، فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجدّ في أمر الله منكم ولا هؤلاء ، يعني الفرس ، أجرأ على الموت منكم فحملوا فيما يليهم وخالطوا من بإزائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حتى انتهيا وانفرج القلب وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق وهي دبور ومال الغبار عليهم ، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به ، وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال فهي واقفة ، فاستظل في ظل بغل وحمله ، وضرب هلال بن علقمة الحمل الذي تحته رستم ، فقطع حباله ووقع عليه أحد العدلين ، ولا يراه هلال ولا يشعر به ، فأزال عن ظهره فقاراً فرآه هلال فضربه ضربة فنفحت مسكاً ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه وأخذ برجليه ، ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، ثم ألقاه بين أرجل البغال ، ثم صعد السرير وقال : قتلت رستم ورب الكعبة إليّ إليّ ، فأطافوا به وكبروا ، فنفله سعد سلبه ولم يظفر بقلنسوته ، ولو ظفر بها لكانت قيمتها مئة ألف .

وقيل إن هلالاً لما قصد رستم رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثم احتز رأسه وعلقه ونادى : قتلت رستم ، فانهزم قلب المشركين ، وقام جالينوس على الردم (بالدال) ونادى الفرس إلى العبور وكانت الهزيمة عليهم .

وأما المقترنون فإنهم جشعوا ، فتهافتوا في العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفاً ، وأخذ ضرار بن الخطاب العلم الأكبر الذي كان للفرس فعوض عنه ثلاثين ألفاً وكانت قيمته ألف ألف ومئتي ألف ، وقتل من الفرس في

المعركة عشرة آلاف سوى من قتلوا في الأيام قبله ، وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمئة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف ، وجمعت الأسلاب والأموال فجمع شيء لم يجمع قبله ولا بعده مثله ، وأمر سعد القعقاع وشرحبيل باتباع المنهزمين حتى بلغ مقدار الخرارة من القادسية وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلاثمئة فارس ، ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وقتلوا ما بين الخرارة إلى السَّيْلَحِين إلى النجف ، وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الأسرى ، فرأى شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلاً أسيراً من الفرس واستكثر سعد سلب الجالينوس ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكتب عمر إلى سعد تعمد إلى مثل زهرة بن الحوية وقد صلى بمثل ما صلى به تفسد قلبه وقد بقي عليك من حربك ما بقي أمْضِ له سلبه وفَضِّلْهُ على أصحابه عند عطائه بخمسمئة .

فلما اتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير إلى الفارس فيأتيه فيقتله وربما أخذ سلاحه فقتله به وربما أمر رجل فيقتل أحدهما صاحبه ، ولحق سلمان بن ربيعة الباهلي وعبد الرحمن بن ربيعة بطائفة من الفرس قد نصبوا راية وقالوا : لا نبرح حتى نموت فقتلهم سلمان ومن معه ، وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة من الفرس استحيوا من الفرار فقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين لكل كتيبة منها رئيس .

وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين منهم من هرب ومنهم من ثبت حتى قتل ، وكان ممن هرب من أمراء الكتائب الهرمزان ، ثم تراجع الناس من طلب المنهزمين وقد قتل مؤذنهم فتشاحّ المسلمون في الأذان حتى كادوا يقتتلون وأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل منهم فأذّن وفضل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمسمئة خمسمئة وهم خمسة وعشرون رجلاً ، وأما أهل الأيام قبلها فإنه فرض لهم على ثلاثة آلاف وفضلوا على أهل القادسية ، فقيل لسعد : لو ألحقت بهم أهل القادسية ، فقال : لم أكن لألحق بهم من لم يدركهم ، قيل له : لو فضلت من بعدت داره على من قاتلهم بفنائه ، قال : كيف أفضل عليهم وهم شجن العدو ، وهل فعل المهاجرون بالأنصار ؟ .

هذا وكانت العرب تتوقع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية فيما بين العذيب إلى

عدن أبين وفيما بين الأبلة وأيلة يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وكانت في كل بلدة مصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها ، فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت بها أناساً من الإنس ، فسبقت أخبار الإنس .

وكتب سعد إلى عمر بالفتح وبعدة من قتلوا وبعدة من أصيب من المسلمين ، وسمى من يعرف مع سعد بن عميلة الفزاري ، وكان عمر يسأل الركبان من حين يصبح إلى انتصاف النهار عن أهل القادسية ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، قال فلما لقي البشير سأله ، من أين ؟ فأخبره ، فقال : يا عبد الله ، حدثني ، قال : هزم الله المشركين وعمر يخبّ معه يسأله والآخر يخبره ، وهو يسير على ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة وإذا الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين ، قال البشير : هلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ، فقال عمر : لا بأس عليك يا أخي .

وأقام المسلمون بالقادسية في انتظار قدوم البشير ، وأمر عمر الناس أن يقوموا على أقباضهم ويصلحوا أحوالهم ويتابع إليهم أهل الشام ممن شهدوا اليرموك ودمشق ممدين لهم .

والصحيح أن وقعة القادسية كانت سنة أربع عشرة كما تقدم ، وقيل كانت سنة خمس عشرة ، وقيل كانت سنة ستّ عشرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر الوقائع بعد فتح القادسية إلى أن فتحت مدائن كسرىٰ

لما فرغ سعد رضي الله عنه من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالهم ، ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوال ، فلما وصلت مقدمة المسلمين برس لقوا جنداً من الفرس فقاتلهم المسلمون ، فهزم الله الفرس وقتل المسلمون كثيراً منهم ، وانحاز المنهزمون إلى بابل وكان بها كثير من جندهم وعليهم الفيرزان ، فقصدهم المسلمون فقاتلوهم وقتلوا كثيراً منهم وهزموا الباقين ، فانطلقوا على وجوههم ، فسار الهرمزان نحو الأهواز فأخذ ما فيها من الأموال لكسرى ، وسار إلى نهاوند فأخذ ما فيها من الأموال كلها وكان بها كنوز لكسرى ،

وسار النخير خان ومهران الرازي إلى المدائن وقطعا الجسر ، فأقام سعد ببابل وأرسل زهرة بن الحوية إلى نهر شير قبالة المدينة العتيقة من المدائن الغربية ، فتلقاه دهقان ساباط للصلح فأرسله إلى سعد فصالحه على تأدية الجزية ، فوصل سعد والمسلون إلى نهر شير ليحاصروا المدائن فرأوا الإيوان من بعد ، فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى هذا ما وعد الله ورسوله ، وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة محاصرين لها ، وكان نزولهم عليها في ذي الحجة فحاصروها شهرين ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً ودنوا إليهم بالدبابات ، وأرسل سعد الخيول فأغارت على من ليس له عهد فأصابوا مئة ألف فلاح ، فأرسل سعد إلى عمر بالخبر فكتب له عمر : إن من جاءكم من الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو في أمان ، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به ، فخلى سعد عنهم وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة فتراجعوا فلم يبق في غربي دجلة إلى أرض العرب سوادي إلا آمن واغتبط بملك الإسلام .

واشتد الحصار بأهل المدائن الغربية حتى أكلوا السنانير والكلاب وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم ، فبينما هم يحاصرونهم إذ أشرف عليهم رسول الملك فقال : الملك يقول لكم هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم وما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ، فقال له أبو مقرن الأسود مقالة أنطقه الله بها ولا يدري ما قال لهم لا هو ولا من كان معه فرجع الرجل فقطعوا دجلة إلى المدائن الشرقية التي فيها الإيوان ، فقال لأبي مقرن من كان معه ما قلت له ؟ فقال : والذي بعث محمداً بالحق ما أدري وأنا أرجو أن أكون نطقت بالذي هو خير ، وسأله سعد والناس عما قال فلم يعلم ، فنادى سعد في الناس فنهضوا إليهم فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج رجل إلا رجل ينادي بطلب الأمان فأمنوه ، فقال لهم ما بقي بالمدينة من يمنعكم فدخلوا فما وجدوا فيها شيئاً ولا أحداً إلا أسارى وذلك الرجل فسألوه لأي شيء هربوا ، فقال بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريدون بأترج كوثى ، فقال الملك يا ويلنا إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا ، فساروا إلى المدينة القصوى فدخل المسلمون المدينة الغربية وأنزلهم سعد المنازل .

ذكر فتح المدائن التي بها إيوان كسرىٰ

لما دخل المسلمون المدائن الغربية كان البحر بينهم وبين المدائن الشرقية التي فيها الإيوان وليس للمسلمين سفن يعبرون فيها ورأى سعد رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت ، فعزم سعد لتأويل الرؤيا فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن عدوكم قد اعتصم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليهم معه ويخلصون إليكم إذا شاؤوا في سفنهم فينا وشونكم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه قد كفاكم أهل الأيام وعطلوا ثغوركم وقد رأيت من الرأي أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا ، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم ، فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، فندب الناس إلى العبور ، وقال : من يبدأ ويحمي لنا الفراض (وهي فريضة النهر ومن البحر محيط السفن) حتى تتلاحق به الناس لِكَيْلا يمنعوهم من العبور ؟ فانتدب له عاصم بن عمرو وذوو البأس في ستمئة من أهل النجدات استعمل عليهم عاصماً ، فتقدمهم عاصم في ستين فارساً وجعلهم على خيل ذكور وإناث ليكون أساساً لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة ، فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها اقتحموا عليها دجلة فأفلتوا عاصماً وقد دنا من الفراض ، فقال عاصم : الرماح الرماح أشرعوا الرماح ، وتوخوا العيون لتقوا فاطعنوا ، وتوخى المسلمون عيونهم ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ومن نجا منهم صار أعور من الطعن وتلاقوا الستمئة بالستين غير متعبين .

ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها أذن للناس في الاقتحام ، وقال : قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرنّ الله وليه وليظهرنّ دينه وليهزمنّ عدوه ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وتلاحق الناس في دجلة وأنهم يتحدثون كما يتحدثون في البر وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطىء شيء ، وكان الذي يساير سعداً سلمان الفارسي رضي الله عنهما فغابت بهم خيولهم وسعد يقول حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرنّ الله وليه وليظهرنّ دينه وليهزمنّ عدوه إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تِغلب الحسنات ، فقال له سلمان : الإسلام جديد ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر أما والذي نفس سلمان بيده

ليخرجنّ منه أفواجاً كما دخل فيه أفواجاً فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً إلا أن مالك بن عامر العنبري سقط منه قدح فذهبت به جرية الماء فقال الذي يسايره معيراً له أصابه القدر فطاح ، فقال : والله إني لعلى حالة ما كان الله ليسلبني قدحي من بين العسكر ، فلما عبروا ألقته الريح إلى الشاطىء فتناوله بعض الناس وعرفه صاحبه فأخذه صاحبه ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلاً من بارق يدعى عرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر وكاد يغرق فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذه بيده فأخرجه سالماً وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض أعرافها .

فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمر لم يكن في حسابهم خرجوا هاربين نحو حلوان وكان يزدجرد قد قدم عياله إلى حلوان قبل ذلك وخلف مهران والنخيرخان وكان على بيت المال بالنهروان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والألطاف مالا يدرى قيمته وخلفوا ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة ، وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ثلاث مرات ، أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسية النصف وبقي النصف ، ولما دخلوا المدائن نزل سعد القصر الأبيض وجاء جماعة من الفرس وعقدوا الجزية ، وبعث سعد جماعة إلى الأطراف من كل جهة يغيرون ويؤمنون من أراد الأمان واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى ولم يغير ما فيها ولما دخل سعد الإيوان قال : ﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان : ٢٥] إلى قوله ﴿ قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٨] وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات ، ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور الماء وكان يدعى يوم الجراثيم لا يعيا أحد إلا اشمخرت له جرثومة من الأرض يستريح عليها لما يبلغ الماء حزام فرسه .

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

اجتمع عند سعد بعد دخوله المدائن من الغنائم والأموال ما لا يحصى ، ورأوا بالمدائن قباباً مملوءة سلالاً مختومة برصاص فحسبوه طعاماً فإذا فيه آنية الذهب والفضة ، وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً فعجنوا به فوجدوه مراً ، وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر الهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وكبّوا عليه ، فقال بعض

المسلمين إن لهذا البغل لشأناً ، فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وإذا هو محمل عليه حلية كسرى ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ، ولحق الكلح بغلين معهما فارسان فقتلهما وأخذ البغلين فإذا عليهما سفطان فيهما تاج كسرى مرصعاً وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً .

وأدرك القعقاع فارسياً فقتله وأخذ منه عيبتين ، في إحداهما خمسة أسياف وأدراع ، منها درع كسرى ومغافره ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ملك الترك ، ودرع النعمان ، ودرع داهر ملك الهند ، استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر وأيام هرب النعمان من كسرى ، وكذا الأسياف فأحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيّره بين الأسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه ذرع بهرام ونفل سائرها إلا سيف كسرى والنعمان بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون .

وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران فقتل أحدهما وهرب الآخر وأخذ الحماران فإذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر كان كسرى يضعها على أسطوانة التاج وأقبل رجل بحق إلى صاحب الأقباض فقال هو والذي معه ما رأينا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به ، فقالوا من أنت ؟ فقال والله لا أخبركم فتحمدوني ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس ، وقال سعد : والله إن الجيش ذو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر لقد تتبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء .

وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما : والله الذي لا إله إلا هو ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة ، فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وهم طليحة وعمرو بن معدي كرب وقيس بن المكشوح .

وقال عمر رضي الله عنه لما قدم عليه بسيف كسرى ومِنْطقته وزبرجده : إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة ، فقال علي رضي الله عنه : إنك عففت فعفت الرعية .

فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفيء بين الناس بعدما خَمَّسه وكانوا ستين ألفاً فأصاب الفارس اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل ، ونَفَلَ من الأخماس في أهل البلاء ، وقسم المنازل بين الناس وأحضر العيالات فأنزلهم الدور فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحلوان وتكريت والموصل ، ثم تحولوا إلى الكوفة وأرسل سعد من الخمس كل شيء أراد أن يعجب منه العرب وما كان يعجبهم أن يقع ، وكان من جملة ما غنموه بساط كسرى ويقال له القطيف وهو من أعجب ما كان لملك الفرس وهو بساط واحد طوله ستون ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً كانت الأكاسرة تعده للشتاء إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم في رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة وخلاف ذلك فصوص كالدر ، وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات ، وفي الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة ، وثمره الجوهر وأشباه ذلك ، وأراد سعد إخراج خمس القطيف فلم يعتدل قسمته فقال للمسلمين : هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه ؟ فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء ، فإنا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً ، فقالوا نعم ، فبعث به إلى عمر ، فلما قدم خمس الغنائم على عمر رضي الله عنه قسمه في موضعه ثم قال أشيروا عليَّ في هذا القطيف فمن بين مشير بإبقائه ذخيرة للملة وآخر مفوض إليه ، فأشار عليٌّ رضي الله عنه بقسمته بين المسلمين وقال إن تبقه على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له ، فقال : صدقتني إذ نصحتني ، فقطعه بينهم فأصاب علياً قطعة منه .

قال ابن الأثير فباعها بعشرين ألفاً ، وفي السيرة الحلبية بعشرين ألف دينار .

وكان النبي ﷺ قال لسراقة بن مالك الكناني حين أراد التعرض للنبي ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة : « كيف بك إذا أُلْبِسْتَ سِوَارَيْ كسرى ومنطقته وتاجَه » ، فلما أتي بذلك كله لعمر بن الخطاب مع جملة ما أتي به من خمس الغنائم دعا سراقة بن مالك وألبسه إياهما ، وكان سراقة رجلاً أزب أي كثير شّعر الساعدين ، فقال عمر : ارفع

يديك وقل الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى ابن هرمز الذي كان يقول : أنا رب الناس وألبسهما سراقة رجلاً أعرابياً من مدلج ورفع عمر صوته ، ثم أركب سراقة وطيف به في المدينة إظهاراً لمعجزة النبي ﷺ حيث أخبر بذلك قبل وقوعه ، ولم يأخذ عمر رضي الله عنه شيئاً من تلك الغنائم التي قسمها بين الناس وكان يقرأ قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران : ١٤] الآية ، ويقول اللهم إنه لا طاقة لنا أن نحب إلا ما زينته فوفقني أن أنفقه في حقه ، وكان رضي الله عنه يبكي ويقول : إن الله زوى الدنيا عن النبي ﷺ وصاحبه وفتحها لي فأخاف أن أكون مستدرجاً .

وروى البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق أن عمر رضي الله عنه قال : اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا اللهمّ إني أسألك أن أنفقه في حقه .

ورواه الدارقطني بأبسط من هذا فقال : إن عمر بن الخطاب أُتي بمال من المشرق يقال له نفل كسرى فأمر به فصب وغُطي ، ثم دعا الناس فاجتمعوا ثم أمر به فكشف عنه فإذا هو حلي وجواهر ومتاع ، فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وحمد الله عز وجل فقالوا له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ هذه غنائم غنمها الله لنا ونزعها من أهلها ، فقال : ما فتح الله من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمهم .

قال زيد بن أسلم : فبقي من ذلك المال مناطق وخواتم فرفع فقال عبد الله بن أرقم لعمر رضي الله عنه حتى متى تحبسه لا تقسمه فقال : إذا رأيتني فارغاً فأذني به ، فلما رآه فارغاً بسط شيئاً في حش نخله ثم جاء به في مكتل فصب فكأنه استكثره ثم قال : اللهم أنت قلت ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران : ١٤] فتلا الآية حتى فرغ منها ، ثم قال : لا نستطيع إلا أن نحب ما زينت لنا فقني شره وارزقني أن أنفقه في حقه ، فما قام حتى ما بقي منه شيء .

ذكر وقعة جلولاء وفتح حلوان في سنة ست عشرة أيضاً

لما انتهى الفرس إلى جلولاء بعد الهرب من المدائن احتفروا خندقاً واجتمعوا على مهران الرازي ، وتقدم يزدجرد إلى حلوان وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد إلى طرقهم ، فبلغ ذلك سعداً فأرسل إلى عمر فكتب إليه عمر أن سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو وإن هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين

السواد والجبل وليكن الجند اثني عشر ألفاً فيهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ، ففعل ذلك سعد وسار هاشم من المدائن فمر ببابل فصالحه دهقانها على أن يفرش له جريب الأرض دراهم ففعل وصالحه ثم مضى حتى قدم جلولاء فحاصرهم في خنادقهم وأحاط بهم وطاولهم الفرس وجعلوا لا يخرجون إلا إذا أرادوا ، وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يوماً في كل ذلك ينصر المسلمون عليهم ، وجعلت الأمداد ترد من يزدجرد إلى مهران ، وأمد سعد المسلمين ، وخرجت الفرس وقد اختلفوا فاقتتلوا فأرسل الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم في الخندق فجعلوا فيه طرقاً مما يليهم ليصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم ، وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير إلا أنه كان أعجل ، وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذي زحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر منادياً فنادى يا معشر المسلمين هذا أميرهم قد دخل الخندق وأخذ به فأقبلوا إليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله ، وإنما أمر بذلك ليقوي المسلمين فحملوا ، ولا يشكون بأن هاشماً في الخندق فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدوا من الحسك فعقرت دوابهم وعادوا رجالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا القليل ، وقتل يومئذ منهم مئة ألف فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء بما جللها من قتالهم فهي جلولاء الوقيعة فسار القعقاع بن عمرو في الطلب حتى بلغ خانقين .

ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الري ، وقدم القعقاع وحلوان فنزلها في جند ، ولما سار يزدجرد من حلوان استخلف عليها خسرسنوم وكان الزينبي دهقان حلوان ، فلما قرب القعقاع من حلوان خرج عليه خسرسنوم والزينبي بمن معهما فقتل الزينبي وهرب خسرسنوم ، واستولى المسلمون على حلوان ، وبقي القعقاع بها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة فلحقه القعقاع ، واستخلف على حلوان قباذ ، وكان أصله خراسانياً ، وكتبوا إلى عمر بالفتح وبنزول القعقاع حلوان ، واستأذنوه في اتباعهم فأبى وقال : لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال ، وأدرك القعقاع في اتباعه الفرس مهران بخانقين فقتله ، وأدرك الفيرزان فنزل وتوغل في الجبل فتحامى

وأصاب القعقاع سبايا فأرسلهن إلى هاشم فقسمهم فاتخذن سراري فولدن ، وممن ينسب إلى ذلك السبي أمُّ الشَّعْبِيّ ، وقسمت الغنيمة وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب ، وقيل إن الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف ، وبعث سعد الأخماس إلى عمر رضي الله عنه بعد أن قسم الأربعة الأخماس على الغانمين ، فلما قدم الخمس على عمر رضي الله عنه قال : والله لا يجنحه سقف حتى أقسمه ، فبات عبد الله بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانه في المسجد ، فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه ، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجواهره بكى ، فقال له عبدالرحمن بن عوف : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله إن هذا لموطن شكر ، فقال عمر : والله ما ذلك يبكيني ، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم ، ومنع عمر من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض ، وتبعيض المياه ، وما كان لبيوت النار وسكك البرد وما كان لكسرى ومن جاء معه وما كان لمن قتل ، وخاف أيضاً الفتنة بين المسلمين فلم يقسمه ومنع من بيعه لأنه لم يقسم وأقروها حبيساً يولونها من أجمعوا عليه بالرضا وكانوا لا يجمعون إلا على الأمراء فلا يحل بيع شيء من أرض السواد ما بين حلوان والقادسية ، واشترى جرير أرضاً على شاطىء الفرات فرد عمر ذلك الشراء وكرهه .

ذكر اتخاذ البصرة والكوفة مصراً من الأمصار

اختلف في السنة التي اتخذت البصرة فيها مصراً فقيل سنة ست عشرة .

بعد فتح جلولاء أرسل سعد عتبة بن غزوان رضي الله عنه بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاتخذها مصراً وخرج عليه أهل الأبلّة فقاتلهم عتبة فهزموهم ، واجتمع أهل دستميسان فقاتلهم عتبة فهزمهم وأخذ مرزبانها أسيراً ، وكان من سبي ميسان يسار أبو الحسن البصري وأرطبان جد عبد الله بن عون بن أرطبان ، وقيل إن اتخاذ عتبة البصرة مصراً كان في سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة ، وأما الكوفة فاتخذها سعد مصراً سنة خمس عشرة دَلَّهم على موضعها ابن بقيلة ، قال لسعد : ألا أدلك على أرض الله ارتفعت عن القبة وانحدرت عن الفلاة ؟ فَدَلَّهُ على موضعها فتحول سعد من المدائن إليها ، وسبب ذلك أن العرب استوخمت المدائن وبعث سعد أناساً يستطيبون لهم أرضاً ينزلونها فاستطابوا الكوفة وهواءها فتحول إليها سعد ومن معه سنة سبع عشرة .

ذكر فتح تكريت والموصل في سنة ست عشرة أيضاً

كان ذلك بعد فتح جلولاء ، وسبب ذلك أن الأنطاق سار من الموصل إلى تكريت وخندق عليه ليحمي أرضه ومعه الروم وإياد وتغلب والنمر والشهارجة ، فبلغ ذلك سعداً فكتب إلى عمر فكتب إليه عمر : أن سرح إليه عبد الرحمن بن المعتم واستعمل على مقدمته ربعي بن الأفكال وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة ، فسار عبدالله إلى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومن معه أربعين يوماً فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً وأرسل عبدالله بن المعتم إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعوهم إلى نصرته وكانوا لا يخفون عليه شيئاً .

ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم إلى السفن فأرسلت تغلب وإياد والنمر إلى عبد الله بالخبر وسألوه الأمان وأعلموه أنهم معه ، فأرسل إليهم إن كنتم صادقين فأسلموا ، فأجابوه وأسلموا ، فأرسل إليهم عبدالله إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التي تلي دجلة وكبروا

واقتلوا من قدرتم عليه ، ونهض عبد الله والمسلمون وكبروا وكبرت تغلب وإياد والنمر وأخذوا الأبواب فظن الروم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم مما يلي دجلة فقصدوا الأبواب التي عليها المسلمون وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيين الذين أسلموا تلك الليلة فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد والنمر ، وأرسل عبد الله بن المعتم ربعي بن الأفكل إلى نينوى والموصل ، وقال اسبق الخبر وسرح معه تغلب وإياد والنمر ، فقدمهم ابن الأفكل إلى الحصن ، فسبقوا الخبر وأظهروا الظفر والغنيمة وبشّروهم ووقفوا بالأبواب ، وأقبل ابن الأفكل فاقتحم عليهم الحصن وكلبوا أبوابه فنادوا بالإجابة إلى الصلح وصاروا ذمة وقسموا الغنيمة فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم وسهم الراجل ألف درهم وبعثوا بالأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وولي حربَ الموصل ربعي بن الأفكل والخراجَ عرفجة بن هرثمة ، ثم فتحت بقية أعمال الموصل وجميع معاقل الأكراد وصار الجميع للمسلمين .

ذكر فتح ماسبذان في سنة ست عشرة أيضاً

لما انقضى فتح جلولاء بلغ سعداً أن آذين بن هرمزان قد جمع جمعاً وخرج بهم إلى السهل فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب في جيش فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتتلوا فأسرع المسلمون القتال في المشركين ، وأخذ ضرار آذين أسيراً فضرب رقبته ، ثم خرج في الطلب حتى انتهى إلى السيروان فأخذ ماسبذان عنوة ، فهرب أهلها في الجبال فدعاهم فاستجابوا له وأقاموا بها حتى تحول سعد إلى الكوفة ، فأرسل إليه فنزل الكوفة ، واستخلف على ماسبذان ابن الهذيل الأسدي ، فكانت أحد فروج الكوفة .

ذكر فتح قرقيسياء في سنة ست عشرة أيضاً

لما انقضى فتح جلولاء أرسل سعدٌ عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند نحو هيت فنازل من بها وقد خندقوا عليهم ، فلما رأى اعتصامهم بخندقهم ترك الأخبية على حالها وخلف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم ، وخرج في نصف الناس فجاء قرقيسياء على غِرّة فأخذها عَنْوة ، فأجابوا إلى الجزية ، ثم إن الحارث بن يزيد راسل أهل هيت فأجابوا إلى الجزية ، وكانت ثغور الكوفة أربعة : حلوان وعليها القعقاع ، وماسبذان وعليها ضرار بن الخطاب ، وقرقيسياء وعليها عمر بن مالك ،

والموصل وعليها عبدالله بن المعتم ، وكان بها خلفاؤهم إذا غابوا عنها .

ذكر غزوة فارس من البحرين في سنة سبع عشرة

لما كان العلاء الحضرمي على البحرين في خلافة أبي بكر ثم خلافة عمر رضي الله عنهما ندب الناس لغزو فارس في البحر ، وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر خوف الغرق فخالفه وندب الناس إلى قتال فارس فأجابوه ففرقهم أجناداً على أحدها الجارود بن المعلى ، وعلى الآخر سوار بن همام ، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى ، وخليد على جميع الناس ، وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر ، فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس فخرجوا إلى إصطخر وبإزائهم أهل فارس وعليهم الهربد ، فقاتلوهم قتالاً شديداً بمكان يدعى طاوس ، فقتل سوار والجارود وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ، ثم أراد المسلمون الرجوع إلى البصرة فلم يجدوا إلى الرجوع سبيلاً ، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا .

ولما بلغ عمر رضي الله عنه صنيع العلاء أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا وقال : فإني ألقي في روعي كذا وكذا نحو الذي كان ، فأرسل عتبة جيشاً كثيفاً اثني عشر ألف مقاتل وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد بني عامر بن لؤي ، فسار بالناس على الساحل لا يعرض له أحد حتى التقى أبو سبرة وخليد ، وكان أهل إصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين جمعوا أهل فارس إليهم من كل وجهة فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاوس ، وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا ، وهي الغزوة التي شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ، ثم انكفوا بما أصابوا ورجعوا إلى البصرة سالمين .

ذكر الخبر عن فتح الأهواز ومناذر ونهر تِيْرىٰ

في سنة سبع عشرة فتحت الأهواز ومناذر ونهر تيرى وقيل سنة عشرين ، وكان السبب في هذا الفتح أنه لما انهزم الهرمزان يوم القادسية وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس قصد خوزستان فملكها وقاتل بها من أرادهم ، فكان الهرمزان يغير على أهل ميسان ودستميسان من مناذر ونهر تيرى ، فاستمدّ عتبة بن غزوان سعداً فأمدّه بجيوش

والتقوا هم والهرمزان بين نهر تيرى وبين دلب ، وتوجه بعض جيوشهم لأخذ مناذر ونهر تيرى ، فبينما الهرمزان يقاتل الذين التقى معهم جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهر تيرى ، فكسر ذلك قلب الهرمزان ومن معه فهزمه الله وإياهم ، وقتل المسلمون منهم ما شاؤوا وأصابوا ما شاؤوا ، واتبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دجيل ، وأخذوا ما دونه وعسكروا بحيال سوق الأهواز ، وعبر الهرمزان جسر سحق الأهواز وأقام وصار دجيل بين الهرمزان والمسلمين ، فلما رأى الهرمزان مالا طاقة له به طلب الصلح فاستأمروا عتبة فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلها ما خلا نهر تيرى ومناذر وما غلب المسلمون عليه من سوق الأهواز فإنه لا يرد عليهم ، ثم وقع اختلاف بين المسلمين والهرمزان في حدود الأرض فحاربهم ومنع ما قبله واستعان بالأكراد ، فكتب عتبة بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر يأمره بقصده ، وأمدّه بجنده فالتقوا مع الهرمزان عند جسر سوق الأهواز مما يلي السوق ، فانهزم الهرمزان ، وسار إلى رامهرمز ، وفتح المسلمون سوق الأهواز واتسعت لهم البلاد إلى تُسْتَر ، ثم لم يزل القتال بينهم وبين الهرمزان إلى أن طلب الصلح فأجاب عمر إلى ذلك وأن يكون ما أخذه المسلمون بأيديهم واصطلحوا على ذلك ، وأقام الهرمزان والمسلمون يمنعونه إذا قصده الأكراد ويجبى إليهم .

ذكر فتح رامهرمز وتُسْتَر وأسر الهرمزان

كان فتح رامهرمز وتستر والسوس في سنة سبع عشرة ، وكان سبب فتحها أن يزدجرد لم يزل وهو بمرو يثير أهل فارس أسفاً على ما خرج من ملكهم فتحركوا وتكاتبوا هم وأهل الأهواز وتعاقدوا على النصرة ، فكتب الأمراء بذلك إلى سعد فكتب إلى عمر فكتب إليه عمر أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن ، وعجل ولينزلوا بإزاء الهرمزان ويتحققوا أمره ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ـ وكان على البصرة ـ أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأَمّرْ عليهم سعد بن عدي أخا سهيل وابعث معه البراء بن مالك ، ومجزأة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعاً أبا سبرة بن أبي رهم ، فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة ، فسار إلى الأهواز وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز ، فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره بالشدة ورجا أن يقتطفه ومعه أهل فارس ، فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم إن

الله عز وجل هزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بتستر ، وسار النعمان إلى رامهرمز ونزلها وصعد إلى أبذج فصالحه تيرويه على أبذج ورجع إلى رامهرمز فأقام بها ، ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الأهواز وهم يريدون رامهرمز فأتاهم خبر الوقعة وهم بسوق الأهواز وأتاهم الخبر أن الهرمزان نزل بتستر فساروا نحوه وسار أيضاً النعمان وغيره من الأمراء فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والأهواز وعليهم الخنادق ، وأمدَّ عمر المسلمين أيضاً بأبي موسى وجعله على أهل البصرة وعلى الجميع أبا سبرة ، فحاصروهم أشهراً وأكثروا فيهم القتل وزاحفهم المشركون أيام تستر ثمانين زحفاً يكون لهم مرة وعليهم مرة ، فلما كان في آخر زحف منها واشتد القتال قال المسلمون للبراء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك رضي الله عنهما : يا براء ، أَقْسِمْ على ربك ليهزمنّهم ، وكان مجاب الدعوة ، فقال : اللهم اهزمهم لنا واستشهدني فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم ثم دخلوا مدينتهم وأحاط بها المسلمون ، فبينما هم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجل إلى النعمان يستأمنه على أن يدلّه على مدخل يدخلون منه ورمى في ناحية أبي موسى بسهم إن أمنتموني دللتكم على مكان تأتون المدينة منه ، فأمّنوه في نشابة فرمى إليهم بأخرى ، وقال : انهضوا من قبل مخرج الماء فإنكم تقتحمونها ، فندب الناس إليه فانتدب له عامر بن قيس وبشر كثير ونهضوا لذلك المكان ليلاً وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مع الرجل الذي يدلهم على المدخل إلى المدينة ، فانتدب له بشر كثير فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج فدخلوا في السرب والناس من خارج ، فلما دخلوا المدينة كبروا فيها وكبر المسلمون من خارج ، وفتحت الأبواب فاجتلدوا فيها ونازلوا كل مقاتل وقصد الهرمزان القلعة فتحصن بها وأطاف به الذين دخلوا فنزل إليهم على حكم عمر فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وسهم الراجل ألفاً ، وجاء صاحب الرمية والرجل الذي خرج بنفسه فأمنوهما ومن أغلق بابه معهما وقتل من المسلمين بشر كثير ، وممن قتله الهرمزان بنفسه مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ، وخرج أبو سبرة بنفسه في أثر المنهزمين إلى السوس ونزل عليها ومعه النعمان بن مقرن وأبو موسى ، وكتبوا إلى عمر فكتب إلى أبي موسى يرده إلى البصرة فانصرف إليها من السوس وسار زِرُّ بن عبدالله اللقيمي إلى جند يسابور فنزل إليها ، وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك

والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب وتاجه وكان مكللاً بالياقوت ، وألبسوه حليته ليراه عمر والمسلمون ، فطلبوا عمر فلم يجدوه ، فسألوا عنه فقيل جلس في المسجد لوفد من الكوفة فوجدوه في المسجد متوسداً برنسه وكان قد لبسه للوفد ، فلما قاموا عنه توسده ونام فجلسوا دونه وهو نائم والدرة في يده ، فقال الهرمزان أين عمر ؟ قالوا : هو ذا ، فقال : أين حرسه وحجابه ؟ قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب . قال فينبغي أن يكون نبياً . قالوا : بل يعمل بعمل الأنبياء ، فاستيقظ عمر لجلبة الناس فاستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهرمزان ؟ قالوا : نعم ، فقال الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وغيّر أشباهه فأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوباً صفيقاً ، فقال له عمر : يا هرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : يا عمرُ إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم ، فلما كان الآن معكم غلبتمونا ، ثم قال له : ما حجتك وما عذرك في انتقاضك مرة بعد أخرى ؟ فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك . قال : لا تخف ذلك واستسقىٰ ماء فأتي به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا فأتي به في إناء يرضاه ، فقال : إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب ، فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه ، فقال عمر : أعيدوا عليه ولا تجمعوا بين القتل والعطش ، فقال : لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر : إني قاتلك . فقال : قد أمنتني فقال كذبت . قال أنس : صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته . قال عمر : يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ، والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك . قال إنك يا أمير المؤمنين قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك حتى تشربه ، وقال لعمر من حوله مثل ما قال أنس ، فأقبل على الهرمزان وقال : خدعتني والله لا أنخدع إلا أن تسلم فأسلم ففرض له فيمن فرض لهم ألفين وأنزله المدينة وكان المترجم بينهما المغيرة بن شعبة لأنه كان يفقه بالفارسية إلى أن جاء المترجم .

ذكر فتح السوس

لما نزل أبو سبرة على السوس كان بها شهريار أخو الهرمزان فأحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرات وحاصروهم ثم اقتحموا البابَ ودخلوا عليهم ، فألقى

المشركون ما بأيديهم ونادوا الصلح الصلح ، فأجابهم إلى ذلك المسلمون بعد ما دخلوها عنوة واقتسموا ما أصابوا .

وقيل في فتح السوس إن يزدجرد سار بعد وقعة جلولاء ، فنزل إصطخر ومعه سياه في سبعين من عظماء الفرس فوجهه إلى السوس والهرمزان إلى تستر ، ونزل سياه بين رامهرمز وتستر ودعا من معه من عظماء الفرس وقال لهم قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في إيوانات إصطخر ويشدون خيولهم في شجرها وقد غلبوا على ما رأيتم فانظروا لأنفسكم ، فقالوا رأينا رأيك ، قال أرى أن تدخلوا في دينهم ووجهوا شبرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى فشرط عليهم أن يقاتلوا معه العجم ولا يقاتلوا العرب وإن قاتلهم أحد من العرب منعهم منهم وينزلوا حيث شاؤوا ويلحقوا بأشرف العطاء ويعقد لهم ذلك عمر على أن يسلموا ، فأعطاهم عمر ما سألوا فأسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار تستر ، ومضى سياه إلى حصن قد حاصره المسلمون في زي العجم فألقى نفسه إلى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم فرآه أهل الحصن صريعاً فظنوه رجلاً منهم ففتحوا له باب الحصن ليدخلوه إليهم فوثب وقاتلهم حتى خلوا عن الحصن وهربوا فملكه .

ذكر مصالحة جنديسابور

ثم سار بعض المسلمين عن السوس فنزل بجنديسابور وزر بن عبدالله محاصرهم ، فأقاموا عليها يقاتلونهم فرمى إلى من بها من عسكر المسلمين بالأمان فلم يفجأ المسلمين إلا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا أسواقهم ، فسألهم المسلمون فقالوا رميتم لنا بالأمان فقبلناه وأقررنا الجزية ، فقال المسلمون : ما فعلنا ، وسأل المسلمون بعضهم من فعل ذلك ، فإذا هو عبد يدعى مكثفاً كان أصله منها فعل هذا ، فقالوا هو عبد ، فقال أهلها : لا نعرف العبد من الحر ، وقد قبلنا الجزية وما بدلنا فإن شئتم فاغدروا فكتبوا إلى عمر فأجار أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم .

ذكر مسير المسلمين إلى كرمان وغيرها

قيل في سنة سبع عشرة أذن عمر للمسلمين في الانسياح في بلاد فارس وانتهى في ذلك إلى رأي الأحنف بن قيس حيث قال له : يا أمير المؤمنين نهيتنا عن الانسياح في

البلاد وأن فارس لا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم فلا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا في الانسياح فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ، فقال عمر : صدقتني والله ، وأذن في الانسياح وأمر أبا موسى أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة فيكون هنالك حتى يأتيه أمره ، وبعث بألوية من ولي مع سهيل بن عدي فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس ولواء أزدشير وسابور إلى مُجاشع بن مسعود السلمي ولواء إصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي ولواء نسا ودار بجرد إلى سارية بن زنيم الكناني ولواء كرمان إلى سهيل بن عدي ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو ولواء مكان إلى الحكم بن عمير التغلبي ، فخرجوا ولم يتهيأ مسيرهم في ذلك الوقت ، وأمدهم بنفر من أهل الكوفة ، وسيأتي الكلام على تفصيل ذلك .

ذكر وقعة نهاوند

قيل إنها كانت سنة ثمان عشرة ، وقيل سنة تسع عشرة وقيل سنة إحدى وعشرين ، وكان الذي هيج أمر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا من جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كاتبت الفرس ملكهم وهو بمرو فحركوه وكاتب الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند ، ولما وصل أوائلهم بلغ سعداً الخبر فكتب إلى عمر ، وثار بسعد قوم سعوا به وتعصبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس ، وكان جماعة خالفوا سعداً وصاروا يشكون منه ، فمِمَّن تحرك في أمره الجراح بن سنان الأسدي في نفر ، فقال لهم عمر : والله ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكم ، فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس ، وكان محمد بن مسلمة صاحب العمال يقتص آثار من شكا زمان عمر ، فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه فما سأل عنه جماعة إلا أثنوا عليه خيراً سوى من مالأ الجراح الأسدي فإنهم سكتوا ولم يقولوا سواء وما لا يسوغ لهم حتى انتهوا إلى بني عبس فسألهم وقال أسامة بن قتادة : اللهم إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، ولا يغزو في السرية . فقال سعد : اللهم إن كان قالها رياء وكذباً وسمعة فأَعْمِ بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن ، فعمي واجتمع عنده عشر بنات ، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يحبسها فإذا عبر عليها قال دعوة سعد الرجل المبارك .

ثم دعا سعد على أولئك النفر ، فقال : اللهم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً ورياء فَأَجْهِد بلادهم ، فجهدوا ، وقطع الجراح بن سنان بالسيوف يوم بادر الحسن بن علي رضي الله عنهما ليغتاله بساباط ، وشدخ قبيصة بالحجارة ، وقتل أربد بالوجيء ونعال السيوف .

وكان سعد رضي الله عنه مجاب الدعوة لأن النبي ﷺ دعا له بذلك وكان من العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين للإسلام ومن أخوال النبي ﷺ وهو أول رجل رمى بسهم في سبيل الله وأول رجل أهرق دماً من المشركين في سبيل الله ، وجمع له النبي ﷺ أبويه فقال فداك أبي وأمي .

ثم إن محمد بن مسلمة رجع إلى المدينة بسعد وبالقوم الذين شكوا منه فقدموا على عمر فأخبروه الخبر فقال : كيف تصلي يا سعد ؟ قال : أطيل الأوليين وأخفف في الأخيرتين . فقال : هكذا الظن بك يا أبا إسحاق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بيناً ، فأراد عمر رضي الله عنه الاحتياط وقطع النزاع لئلاّ يطول الشر ويتسع الأمر ، فقال من خليفتك يا سعد على الكوفة ؟ فقال عبدالله بن عبدالله بن عتبان ، فأقره وأمر سعداً بالبقاء معه في المدينة ، ولما طعن عمر رضي الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض وقال : إن تولوا سعداً فأهل هو وإلا فليستعن به الوالي فإني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ، هكذا كان سبب نهاوند فابتداء البعث كان في زمن سعد وأما الوقعة فهي في زمان عبدالله بن عبدالله بن عتبان .

فنفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ألفاً ومئة ألف مقاتل ، وكان سعد كتب إلى عمر بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له : ن أهل الكوفة يستأذنون في الانسياح وأن يبدؤوهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم ، فجمع عمر الناس واستشارهم وقال لهم : هذا يوم له ما بعده وقد هممت أن سير فيمن قبل لي ومن قدرت عليه أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين ثم أستنفرهم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم أو يقضي ما أحب ، فإن فتح الله عليهم صببتهم في لمدانهم ، فقال طلحة بن عبيدالله : يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور ، وعجمتك لبلابل ، واحتنكتك التجارب ، وأنت وشأنك ورأيك لا ينبو في يديك ولا يكل عليه

إليك هذا الأمر ، فَمُرْنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب وقُدْنا ننقد فإنك ولي هذا الأمر وقد بلوت وجربت واحتربت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم ، ثم جلس ، فعاد عمر فقام عثمان ، فقال : أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فإنك إذا سرت قَلَّ عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز غذاء وأكثر يا أمير المؤمنين لأنك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز ، إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه ، وجلس ، فعاد عمر فقام علي بن أبي طالب فقال : أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إذا أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم وإنك إن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك ما بين يديك من العورات والعيال أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق ، فرقة في حرمهم وذراريهم ، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم إن الأعاجم إن ينتظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشد لكلبهم عليك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر ، فقال عمر : هذا هو الرأي كنت أحب أن أتابع عليه فأشيروا علي برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقياً ، فقالوا أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك ، فقال : والله لأولين رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً ، فقيل من هو ؟ فقال النعمان بن مقرن المزني ، فقالوا هو لها ، وكان النعمان يومئذ معه جمع من أهل الكوفة قد اقتحموا جنديسابور والسوس فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع الجيوش عليه فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى الفيرزان ومن معه ، وكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان ليستنفر الناس مع النعمان ويجتمعوا عليه بماه فندب الناس فكان أسرعهم إلى ذلك الرواد ليبلوا في الدين وليدركوا حظاً ، فخرج الناس وعليهم حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن أخو النعمان بن مقرن حتى قدموا على النعمان ، وكتب خالد إلى الجند الذين كانوا بالأهواز

ليشغلوا فارسَ عن المسلمين وعليهم المقترب وحرملة وزر ، فأقاموا بتخوم أصبهان وفارس وقطعوا أمداد فارس عن أهل نهاوند ، واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عمر وجرير بن عبدالله البجلي والمغيرة بن شعبة وغيرهم ، فأرسل النعمان طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن معدي كرب وعمرو بن ثني وهو ابن أبي سلمى ليأتوه بخبر القوم فخرجوا وساروا يوماً إلى الليل فرجع إليه عمرو بن ثني فقالوا : ما أرجعك ؟ فقال : لم أكن في أرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها ، ومضى طليحة وعمرو بن معدي كرب ، فلما كان آخر الليل رجع عمرو ، فقالوا ما أرجعك ؟ قال سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً فرجعت ومضى طليحة حتى انتهى إلى نهاوند ، وبين موضع المسلمين الذين هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخاً ، فقال الناس : ارتدّ طليحة الثانية فعلم كلام القوم ورجع ، فلما رأوه كبروا فقال : ما شأنكم ؟ فأعلموه بالذي خافوا عليه فقال : والله لو لم يكن دين إلا العربي ما كنت لأحرز العرب الطماطم هذه العرب العادية ، فأعلم النعمان أنه ليس بينهم وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد ، فرحل النعمان وعبّأ أصحابه وهم ثلاثون ألفاً فجعل على مقدمته أخاه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع بن عمرو وعلى الساقة مجاشع بن مسعود ، وقد توافت إليه أمداد المدينة فيهم المغيرة بن شعبة فانتهوا إلى أسبيذهان والفرسُ وقوفٌ على تعبئتهم وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذي جعل مكان ذي الحاجب وقد توافى إليهم الأمداد بنهاوند كل من غاب عن القادسية ليسوا بدونهم ، فلما رآهم النعمان كبر وكبر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطت العرب الأثقال وضرب فسطاط النعمان فابتدر أشراف الكوفة فضربوا فساطيطهم ونشب القتال بعد حط الأثقال فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجال ، وإنهم انحجزوا في خنادقهم يوم الجمعة وحاصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء الله ، والفرس بالخيار لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج ، فخاف المسلمون أن يطول أمرهم حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع اجتمع أهل الرأي من المسلمين ، وقالوا نراهم علينا بالخيار وأتوا النعمان في ذلك فوافوه وهو يروي في الذي رووا فيه فأخبروه فبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي فأحضرهم فتكلم النعمان فقال : قد ترون المشركين واعتصامهم

بخنادقهم ومدنهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شاؤوا ولا يقدر المسلمون على إخراجهم ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق ، فما الرأي الذي به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل ؟ فتكلم عمرو بن غنم وكان أكبر الناس وكانوا يتكلمون على الأسنان فقال : التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل من أتاك ، فردوا عليه رأيه ، وتكلم عمرو بن معدي كرب فقال : ناهضهم وكابدهم ولا تخفهم ، فردوا جميعاً عليه رأيه وقالوا إنما يناطح بنا الجدران وهي أعوان علينا ، وقال طليحة : أرى أن تبعث خيلاً لينشبوا القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً فإنّا لم نستطرد لهم في طول ما قتلناهم فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقتلناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب .

فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة فأنشب القتال فأخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد وقد تواثقوا ألاّ يفروا وقد قرن بعضهم بعضاً كل سبعة في قران وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا ، فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا هي ، فلم يبق أحد إلا من يقوم على الأبواب وركبوهم ، ولحق القعقاع بالناس ، وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تعبئة في يوم جمعة صدر النهار ، وقد عهد النعمان إلى الناس عهده وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتروا بالجحف من الرمي ، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح وشكا الناس وقالوا للنعمان : ألا ترى ما نحن فيه ؟ فما تنتظر بهم ائذن للناس في قتالهم ؟ فقال رويداً رويداً ، وانتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت إلى رسول الله ﷺ أن يلقى العدو فيها وذلك عند الزوال ، فلما كان قريباً من تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية يذكرهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر وقال لهم إني مكبر ثلاثاً فإذا كبرت الثالثة فإني حامل فاحملوا وإن قتلت فالأمر بيد حذيفة بن اليمان فإن قتل ففلان حتى عد سبعة آخرهم المغيرة ، ثم قال اللهم أعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك ، وقيل بل قال : اللهم أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضني شهيداً ، فبكى الناس ورجع إلى موقفه وكبر ثلاثاً والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال ، وحمل النعمان والناس معه وانقضت رايته

انقضاض العقاب والنعمان معلم ببياض القبا والقلنسوة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها وما كان يسمع إلا وقع الحديد ، وصبر لهم المسلمون صبراً عظيماً وانهزم الأعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والأعتام ما طبق أرض المعركة دماً يزلق الناس والدواب ، فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيداً رُمي بسهم في خاصرته فقتله وزلق به فرسه فصرع فسجاه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية وناولها حذيفة فأخذها وتقدم موضع النعمان وترك نعيماً مكانه وقال لهم المغيرةُ : اكتموا مُصَابَ أميركم حتى تنظروا ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يوهن الناس فاقتتلوا ، فلما أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا وتبعهم المسلمون وعمى الله على المشركين قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذي كانوا دونه فوقعوا فيه فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعض في قياد واحد فيقتلون جميعاً وجعل يعقرهم حسك الحديد فمات منهم في اللهب مئة ألف أو يزيدون سوى من قتل في المعركة ، وقيل قتل في اللهب ثمانون ألفاً سوى من قتل في الطلب ولم يفلت إلا الشريد ، ونجا الفيرزان من الصرعى فهرب نحو همذان فتابعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فأدركه بثنية همذان وهي إذ ذاك مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلاً فحبسه الدواب على أجله ، فلما لم يجد طريقاً نزل عن دابته وصعد الجبل فتبعه القعقاع راجلاً فأدركه فقتل المسلمون الفيرزان على الثنية وقالوا إن لله جنوداً من عسل واستاقوا العسل وما معه من الأحمال وسميت الثنية ثنية العسل ، ودخل المشركون همذان والمسلمون في آثارهم فنزلوا عليها وأخذوا ما حولها ، فلما رأى ذلك خسرسنوم استأمنهم .

ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرن فقال لهم أخوه معقل هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة فاتبعوا حذيفة ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة واحتووا على الأمتعة والأموال والأسلاب والأثاث وأتاهم الهربذ صاحب بيت النار على أمان فقال لحذيفة أتؤمنني ومن شئت على أن أخرج لك ذخيرة لكسرى تركت عندي لنوائب الزمان ؟ قال : نعم ، فأحضر جوهراً نفيساً في سفطين فأرسلهما حذيفة مع الأخماس إلى عمر ، وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقي مع السائب بن الأقرع الثقفي وكان كاتباً حاسباً أرسله عمر إليهم وقال إن فتح الله عليكم فاقسم على المسلمين فيئهم وخذ الخمس وائتني به ، وإن هلك هذا

الجيش فاذهب فبطن الأرض خير من ظهرها .

قال السائب : فلما فتح الله على المسلمين وأحضر الفارسي السفطين اللذين كانا عنده فإذا فيهما اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، فلما فرغت من القسمة احتملهما معي وقدمت على عمر ، وكان عمر رضي الله عنه قد قدر الوقعة فبات يتململ ويخرج ويتوقع الأخبار ، فبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه فرجع إلى المدينة ليلاً فمر به راكب فسأله من أين أقبلت ؟ فقال من نهاوند ، وأخبره بالفتح وقتل النعمان ، فلما أصبح الرجل يحدث بهذا بعد ثلاث من الوقعة ، فبلغ الخبر عمر فسأله فأخبره فقال ذاك بريد الجن ثم قدم البريد بعد ذلك فأخبره بما يسره ولم يخبره بقتل النعمان .

قال السائب : فخرج عمر من الغد يتوقع الأخبار قال فأتيت فقال : ما وراءك ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كَتَدِهِ ، فلما رأيت ذلك وما لقي قلت : يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه ، فقال : أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر ، ثم أخبرته بالسفطين ، فقال : أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والحق بجندك ، قال ففعلت وخرجت سريعاً إلى الكوفة ، وبات عمر ، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً فما أدركني حتى دخلت الكوفة فأنخت بعيري وأناخ بعيره على عرقوب بعيري ، فقال الحق بأمير المؤمنين فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن ، قال فركبت معه فقدمت على عمر ، فلما رآني قال لي : ومالي وللسائب ؟ قلت ولماذا ؟ قال : ويحك والله ما هو إلا أن نمت الليلة التي خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبني إلى السفطين يشتعلان ناراً يقولون لنكوينَّك بهما فأقول إني سأقسمهما بين المسلمين فخذهما عني فضعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم ، قال فخرجت بهما فوضعتهما في مسجد الكوفة فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألف ألف درهم ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً .

وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ، وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده للفرس اجتماع وملك المسلمون

بلادهم ، ولم يزل أمر يزدجرد في انتكاس ونقصان وكلما أخذت منه مدينة انتقل إلى أخرى إلى أن قتل في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين ، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر فتح الدينور والصيمرة وغيرهما

لما انصرف أبو موسى من نهاوند ، وكان قد جاء مدداً على بعث أهل البصرة ، فمر بالدينور ، فأقام بها خمسة أيام وصالحه أهلها على الجزية ، ومضى فصالحه أهل شيروان على مثل صلحهم ، وبعث السائب بن الأقرع الثقفي إلى الصيمرة مدينة مهرجانقذف ففتحها صلحاً .

ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما

لما انهزم المشركون دخل من سلم منهم همذان وحاصرهم نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو ، فلما رأى ذلك خسرسنوم استاء منهم وقبل منهم الجزية على أن يضمن منهم همذان ودستبى وألاّ يؤتى المسلمون منهم فأجابوه إلى ذلك وأمنوه ومن معه من الفرس ، وأقبل كل من كان هرب منهم ، وبلغ الخبر الماهين بفتح همذان وملكها فاقتدوا بخسرسنوم وكاتبوا حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا وأجمعوا على القبول .

ذكر فتح أصبهان

بعث عمر رضي الله عنه إليها عبدالله بن عبدالله بن عتبان وكان شجاعاً من أشراف الصحابة ومن وجوه الأنصار ، وأمده بأبي موسى ، وكان على جند أصبهان الأسبيدان وعلى مقدمته شهريار بن جاذويه شيخ كبير في جمع عظيم ، فاقتتلوا برستاق أصبهان قتالاً شديداً ، ودعا الشيخ إلى البراز فبرز له عبدالله بن ورقاء الرياحي فقتله وانهزم أهل أصبهان ، وسمي ذلك الرستاق رستاق الشيخ إلى هذا اليوم ، وصالحهم الأسبيدان على رستاق الشيخ وهو أول رستاق أخذ من أصبهان ، ثم سار عبد الله إلى مدينة جي وهي مدينة أصبهان والملك بأصبهان الفاذوسفان فنزل بالناس على جي وحاصرها وقاتلها ، ثم صالحه الفاذوسفان على أصبهان على أن من أقام الجزية أقام على ماله وأن يجري من أخذت أرضه عنوة مجراهم ومن أبى وذهب كانت لكم أرضه ، فخرج الناس من جي ،

ودخلوا في الذمة إلا ثلاثين رجلاً من أصبهان ، فلحقوا بكرمان ، ثم قدم كتاب عمر إلى عبدالله يأمره بالمسير إلى سهيل بن عدي ليكون معه على قتال من بكرمان ، فسار واستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع ولحق بسهيل ونازلوا كرمان حتى فتحوها ، وسيأتي ذكر ذلك في فتوحات سنة ثلاث وعشرين .

ذكر فتح زَوِيلة

في سنة إحدى وعشرين بعث عمرو بن العاص من مصر عقبة بن نافع الفهري بجيش ، فافتتح زويلة صلحاً وما بين برقة وزويلة فصار سلماً للمسلمين .

ذكر فتح همذان ثانياً

قد تقدم مسير نعيم بن مقرن إلى همذان وفتحها على يده ويد القعقاع بن عمرو ، فلما رجعا عنها كفر أهلها فرجع إليهم نعيم بن مقرن في سنة اثنتين وعشرين وحاصرهم ثم سألوا الصلح ففعل وقبل منهم الجزية ، وقيل إن ذلك كان سنة أربع وعشرين بعد مقتل عمر رضي الله عنه لستة أشهر وإن نعيماً خرج إليهم في جيش كثيف وقاتلهم قتالاً شديداً وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند فانهزم الفرس هزيمة قبيحة وقتل مقتلة كبيرة لا يحصون ، وقيل إن المغيرة بن شعبة حين كان عاملاً على الكوفة أرسل جرير بن عبدالله البجلي إلى همذان فقاتله أهلها وأصيب عين جرير بسهم فقال أحتسبها عند الله الذي زين بها وجهي وسلبنيها في سبيله ، ثم فتحها على مثل صلح نهاوند وغلب على أرضها قسراً ، وقيل كان فتحها على يد المغيرة بنفسه وكان جرير على مقدمته ، وقيل فتحها قرظة بن كعب الأنصاري .

ذكر فتح قزوين وزنجان

لما سير المغيرة جريراً إلى همذان ففتحها سير البراء بن عازب في جيش إلى قزوين ، فسار البراء حتى أتى أبهر وهو حصن فقاتلوه ثم طلبوا الأمان فأمنهم وصالحهم ثم غزا قزوين ، فلما بلغ أهلها الخبر أرسلوا إلى الديلمي يطلبون النصرة فوعدهم ووصل المسلمون إليهم فخرجوا لقتالهم ، والديلم وقوف على الجبل لا يمدون يداً ، فلما رأى أهل قزوين طلبوا الصلح على صلح أبهر ، ثم غزا البراء الديلم حتى أدوا إليه

الإتاوة وغزا جيلان والطيلسان وفتح زنجان عنوة ، ولما ولي الوليد بن عقبة الكوفة غزا أيضاً الديلم وجيلان وموقان والبَبّر والطيلسان ثم انصرف .

ذكر فتح الرَّي

في سنة اثنتين وعشرين غزا نعيم بن مقرن الري ، وخرج من الري الزينبي أبو الفرخان فلقي نعيماً طالباً الصلح ومسالماً له ومخالفاً لملك الري وهو سياوخش ابن مهران بن بهرام ، فاستمد ملك الري أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فأمدوه خوفاً من المسلمين فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل الري إلى جنب مدينتها فاقتتلوا به ، وكان الزينبي قال لنعيم إن القوم كثير وأنت في قلة فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهضهم أنت فإنهم إذا خرجنا عليهم لم يشتدوا لك ، فبعث معهم نعيم خيلاً من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو فأدخلهم الزينبي المدينة ولا يشعر القوم وبينهم نعيم بياتاً فشغلهم عن مدينتهم فاقتتلوا وصبروا حتى سمعوا التكبير من ورائهم فانهزموا ، فقتلوا مقتلة عظيمة ، وفاء الله على المسلمين بالري نحواً مما في المدائن ، وصالحه الزينبي على الري ومرزبة غلبهم نعيم ، وراسله المصمغان في الصلح على شيء يفتدي به منه على دنباوند فأجابه إلى ذلك ، وقيل إن فتح الري كان سنة إحدى وعشرين .

في ذكر فتح قُومس وجُرْجان وَطَبرِستان

لما أرسل نعيم إلى عمر بالبشارة وأخماس الرَّي كتب إليه عمر يأمره بإرسال أخيه سويد بن مقرن ومعه هند بن عمرو الجملي وغيره إلى قومس ، فسار سويد نحو قومس فلم يقم له أحد فأخذها سلماً وعسكر بها وكاتبه الذين لجؤوا إلى طبرستان منهم أهل المفاوز فأجابهم إلى الصلح والجزية ، ثم سار إلى جرجان فعسكر بها فكاتبوه وصالحوه على الجزية ، وقيل إن ذلك كان سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه .

ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة

في سنة اثنتين وعشرين سار عمرو بن العاص من مصر إلى برقة فصالحه أهلها على الجزية ، ثم سار إلى طرابلس الغرب فحاصرها شهراً فلم يظفر بها وكان قد نزل شرقيها ، فخرج رجل من المسلمين من بني مدلج يتصيد في سبعة نفر وسلكوا غربي المدينة ، فلما رجعوا اشتد عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر ولم يكن السور متصلاً بالبحر والبلد فدخلوا المدينة من ذلك الجانب وكبروا ، فلما سمع الروم التكبير في البلد ظنوا أن المسلمين دخلوها فلم يكن لهم ملجأ إلا سفنهم ، ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف في المدينة وسمعوا الصياح فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد فلم يفلت من الروم إلا القليل بما خف معهم في مراكبهم ، وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس ، فلما امتنع عليه فتح طرابلس أمنوا واطمأنوا ، فلما فتحت طرابلس سير عمرو جنداً إلى سبرة فصبحوها ، وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح لأنهم لم يكن بلغهم خبر فتح طرابلس ، فوقع المسلمون عليهم ودخلوا الحصن مكابرة وغنموا ما فيه وعادوا إلى عمرو ، ثم عاد عمرو إلى برقة وقد اجتمع بها قوم من البربر فصالحوه على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية ، وشرطوا أن يبيعوا من أرادوا من أولادهم في جزيتهم .

ذكر فتح أذربيجان

لما فتح نعيم الري بعث سماك بن خرشة الأنصاري وليس بأبي دجانة ممداً لبكير بن عبدالله بأذربيجان ، وكان بكير قد سار إليها بأمر عمر فأمر عمر نعيماً أن يمد بكيراً بسماك بن خرشة ، وكان بكير حيث بعث إليها سار حتى إذا طلع بجبال جرميذان طلع عليهم إسفنديار بن فَرُّخْزاذ فاقتتلوا فانهزم الفرس وأخذ بكير إسفنديار أسيراً ، فقال له إسفنديار : الصلح أحب أم الحرب ؟ فقال : بل الصلح ، فقال : أمسكني عندك فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجىء إليهم لم يقوموا لك وَجَلَوْا إلى الجبال التي حولها ومن كان من التحصن تحصن ، فأمسكه عنده وصارت البلاد إليه إلا ما كان من حصر وقدم عليه سماك بن خرشة ممداً وإسفنديار في أمان ، وقد افتتح ما يليه وافتتح

عتبة بن فرقد ما يليه ، وكتب بكير إلى عمر يستأذنه في التقدم فأذن له أن يتقدم نحو الباب وأن يستخلف على ما افتتحه فاستخلف عليه عتبة بن فرقد فأقر عتبة سماك بن خرشة على عمل بكير الذي كان افتتحه ، وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد ، وكان بهرام بن فَرُّخْزاذ قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره حتى قدم عتبة فاقتتلوا فانهزم بهرام ، فلما خبره إسفنديار وهو في الأسر عند بكير قال : الآن تم الصلح وطفئت الحرب ، فصالحه وأجاب إلى ذلك أذربيجان كلهم وعادت أذربيجان سلماً ، وكتب بذلك بكير وعتبة إلى عمر وبعثا بما خمسا .

ذكر فتح الباب

الباب مدينة عظيمة بناها كسرى ، ففي هذه السنة أعني سنة اثنتين وعشرين أمر عمر رضي الله عنه سراقة بن عمرو ، وكان يدعى ذا النور ، بالمسير إلى الباب وجعل على مقدمته عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي وكان له صحبة وكان أيضاً يدعى ذا النور وجعل على أحد مجنبتيه حذيفة بن سعيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبدالله الليثي ، وكان بكير سبقه إلى الباب وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي ، فسار سراقة ، فلما خرج من أذربيجان قدم بكير إلى الباب ، وكان الملك بها يومئذ شهريار وهو من ولد شهريار الذي أفسد بني إسرائيل وغزا الشام بهم ، فلما أطل عبد الرحمن بن ربيعة على الباب كاتبه شهريار واستأمنه على أن يأتيه ففعل فأتاه فقال إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعينهم على ذي الحسب ولست من الفتح ولا الأرمن في شيء ، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا منكم ويدي مع أيديكم وجزيتي إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتوهنونا بعدوكم ، فسيّره عبد الرحمن إلى سراقة فلقيه بمثل ذلك فأجابه بقبول ذلك منه ، ثم قال له سراقة لا بد من الجزية ممن يقيم ولا يحارب العدو ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب سراقة في ذلك إلى عمر فأجازه عمر واستحسنه .

ذكر فتح موقان

لما فرغ سراقة من الباب أرسل بكير بن عبدالله وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية ، فوجه بكيراً إلى موقان وحبيباً

إلى تفليس وحذيفة إلى جبال اللان وسلمان إلى الوجه الآخر ، وكتب سراقة إلى عمر بفتح الباب وبإرسال هؤلاء النفر إلى الجهات المذكورة فأتى عمر أمراً لم يظن أن تستتم له بغير مؤنة لأنه فرج عظيم وجند عظيم ، فلما استوثقوا واستحلوا الإسلام مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ولم يفتح أحد من أولئك القواد إلا بكير فإنه فض أهل موقان ثم تراجعوا على الجزية على كل حالم ديناراً ، ولما بلغ عمر موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن بن ربيعة أقر عبد الرحمن على فرج الباب وأمره بغزو الترك .

ذكر غزوة الترك

لما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك وكان في بلنجر بأقصى ولاية الباب وهم أمم كثيرة فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب ، فقال له شهريار : ما تريد أن تصنع ؟ قال أريد غزو الترك في بلنجر ، قال : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، قال عبد الرحمن : لكنا لا نرضى حتى نغزوهم في ديارهم وبالله إن معنا أقواماً لو يأذن لهم أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الروم ، قال : وما هم ؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنية ولا يزال هذا الأمر لهم دائماً ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم ، فغزوا بلنجر غزاة في زمن عمر فقالوا : ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت فهربوا منه وتحصنوا ، فرجع بالغنيمة والظفر وقد بلغت خيله البيضاء على رأس مئتي فرسخ من بلنجر وعادوا ولم يقتل منهم أحد ، ثم غزاهم أيام عثمان فظفر كما كان يظفر حتى تبدل أهل الكوفة وظهر فيهم الاختلال ، فغزا عبد الرحمن بن ربيعة بعد ذلك الترك فتذامرت عليه واجتمعوا في الفيافي فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه فخرجوا عليه عند ذلك فاقتتلوا واشتد قتالهم ونادى مناد من الجو صبراً عبد الرحمن وموعدكم الجنة ، فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف أصحابه ، وأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة فقاتل بها ونادى من الجو صبراً آل سلمان ، فقال سلمان : أو ترى جزعاً ، وخرج سلمان بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جرجان ، ولم يمنعهم ذلك من إنجاء جسد عبد الرحمن ، فهم يستسقون به إلى الآن .

ذكر فتح خراسان

كان فتح خراسان في سنة ثلاث وعشرين على الصحيح ، وسبب ذلك أن يزدجرد سار إلى الري بعد هزيمة أهل جلولاء وانتهى إليها وعليها أبان جاذويه فوثب على يزدجرد فأخذه فقال يزدجرد يا أبان تغدرني ؟ قال : لا ولكن قد تركت ملكك فصار في يد غيرك فأحببت أن أكتتب ما كان لي من شيء ، وأخذ خاتم يزدجرد واكتتب صكاً بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم إلى يزدجرد ، فسار يزدجرد من الري إلى أصبهان ، ثم سار منها إلى كرمان والنار التي يعبدونها معهم ، ثم قصد خراسان فأتى مرو فنزلها وبنى للنار بيتاً واطمأن وأمن من أن يؤتى وإن له من بقي من الأعاجم ، وكاتب الهرمزان وأثار أهل فارس فنكثوا ، وأثار أهل الجبال والفيرزان فنكثوا .

فأذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس ، وكتب للأحنف بن قيس بالمسير إلى خراسان وكان قبل ذلك قد عقد له لواء عليها مع الألوية التي عقدها ، فسار بجيش كثيف فدخلها من الطبسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي ، ثم سار نحو مرو الشاهجان فأرسل إلى نيسابور مطرف بن عبدالله بن الشخير وإلى سرخس الحارث بن حسان ، فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ حتى نزلها ونزل الأحنف مرو الشاهجان ، وكتب يزدجرد وهو بمرو الروذ إلى خاقان وإلى ملك الصغد وإلى ملك الصين يستمدهم .

وخرج الأحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلي بعدما لحقت به أمداد الكوفة وسار نحو مرو الروذ ، فلما سمع يزدجرد سار عنها إلى بلخ ونزل الأحنف مرو الروذ ، وقدم أهل الكوفة إلى يزدجرد واتبعهم الأحنف فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ وانهزم يزدجرد وعبر النهر ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم ، فبلخ من فتوحهم ، وتتابع أهل خراسان فمنهم من هرب ومنهم من شد على الصلح فيما بين نيسابور إلى طخارستان ، وعمد الأحنف إلى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر ، وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح فقال عمر : وددت أن بيننا وبينها بحراً من نار ، فقال عليٌّ : ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأن أهلها ينتقضون منها ثلاث مرات فيحتاجون في الثالثة فكان ذلك بأهلها أحب إلي من أن يكون

بالمسلمين ، وكتب عمر إلى الأحنف أن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوزه .

ولما عبر يزدجرد النهر مهزوماً وما أنجده خاقان من الترك وأهل فرغانة والصغد فرجع يزدجزد وخاقان إلى خراسان فنزل بلخ ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه بمرو أيضاً ، وكان الأحنف لما بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر إليه خرج ليلاً يستمع هل يسمع برأي ينتفع به ، فمر برجلين ينقيان علفاً وأحدهما يقول لصاحبه لو أسندنا الأمير إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتون من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله عليهم ، فلما أصبح جمع الناس ورحل بهم إلى سفح الجبل وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحوٌ منهم ، وأقبلت الترك ومن معها فنزلت وجعلوا يغادونهم القتال ويراوحونهم وفي الليل ينتحون عنهم ، فخرج الأحنف ليلة طليعة لأصحابه حتى إذا كان قريباً من عسكر خاقان وقف ، فلما كان في وجه الصبح خرج فارس الترك بطوقه فضرب بطبله ثم وقف قريباً من العسكر موقفاً يقفه مثله فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه الأحنف فقتله وأخذ طوق التركي ووقف ، فخرج آخر من الترك ففعل مثل فعل صاحبه فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف ، ثم خرج الثالث من الترك ففعل مثل فعل الرجلين فحمل عليه الأحنف فقتله ثم انصرف الأحنف إلى عسكره .

وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلهم يضرب بطبله ثم يخرجون بعد الثالث ، فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتولين فقاتلوا فقام خاقان وتطير فقال قد طال مقامنا وأصيب فرساننا مالنا في قتال هؤلاء القوم خير فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحداً ، وأتاهم الخبر بانصراف خاقان والترك إلى بلخ .

وقد كان يزدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمرو الروذ وانصرف إلى مرو الشاهجان فتحصن حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج يزدجرد خزائنه من مواضعها وخاقان مقيم ببلخ ، فلما جمع يزدجرد خزائنه وكانت كبيرة عظيمة وأراد أن يلحق بخاقان ، قال له أهل فارس : أي شيء تريد أن تصنع ؟ قال : أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين ، قالوا : إن هذا رأي سوء ارجع بنا إلى هؤلاء القوم

فنصالحهم فإنهم أوفياء أهل دين وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا من مملكة عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم ، فأبى عليهم فقالوا : دع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يلينا لا تخرجها من بلادنا فأبى ، فاعتزلوه وقاتلوه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها وانهزم منهم ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ إلى فرغانة ، وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيماً بها زمن عمر كله إلى أن كفر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه ، وسيرد ذكر ذلك في موضعه .

ثم أقبل فارس بعد رحيل يزدجرد على الأحنف فصالحوه ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة واغتبطوا بملك المسلمين ، وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية ، وسار الأحنف إلى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة في كورها الأربع ثم رجع إلى مرو الروذ فنزلها وكتب بفتح خاقان ويزدجرد إلى عمر ، ولما عبر خاقان يزدجرد النهر لقوا رسول يزدجرد الذي أرسله إلى ملك الصين فأخبرهما أن ملك الصين قال له : صِفْ لي هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم إلا بخير فيهم وشر فيكم ، فقلت : سلني عما أحببت ، فقال : أيوفون بالعهد ؟ قلت : نعم . قال : وما يقولون لكم قبل القتال ؟ قلت : يدعوننا إلى واحدة من ثلاث : أما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم أو الجزية والمنعة أو المنابذة ، قال : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟ قلت طوع قوم وأرشدهم ، قال : فما يحلون وما يحرمون ؟ فأخبرته ، قال : هل يحلون ما حرم عليهم أو يحرمون ما حلل لهم ؟ قلت : لا ، قال : إن هؤلاء القوم لا يزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال : أخبرني عن لباسهم فأخبرته وعن مطاياهم فقلت : الخيل العراب ووصفتها له ، قال : نعمت الحصون ، ووصفت له الإبل وبروكها وقيامها بحملها فقال : هذه صفة دواب طوال الأعناق وكتب معه إلى يزدجرد أنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجند أوله بمرو وآخره بالصين إلا جهالة بما يحق علي ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سربهم أزالوني ما داموا على وصفهم فسالمهم وارض منهم بالمسالمة ولا تهيجهم مالم يهيجوك ، فأقام يزدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان .

ولما وصل خبر الفتح إلى عمر بن الخطاب جمع الناس وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد الله تعالى في خطبته على إنجاز وعده ، ثم قال : ألا وإن ملك المجوسية قد هلك فليس يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم ، ألا وإن الله أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم فإني أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم .

ذكر فتح شهرزور والصامغان

استعمل عمر رضي الله عنه عزرة بن قيس على حلوان ، فحاول عزرة فتح شهرزور فلم يقدر عليها فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح حلوان ، فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت ، وصالح أهل الصامغان ودار أباذ على الجزية والخراج وقتل خلقاً كثيراً من الأكراد وكتب إلى عمر : أن فتوحي قد بلغت أذربيجان فولاه إياها وولى هرثمة بن عرفجة الموصل ، ولم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة إلى الموصل حتى أفردت عنها آخر خلافة الرشيد .

ذكر غزو معاوية بلاد الروم

في هذه السنة أعني سنة اثنتين وعشرين غزا معاوية بلاد الروم ودخلها في عشرة آلاف من المسلمين فأثخن فيهم وغنم ورجع سالماً .

ذكر الخبر عن فتح توَّج

لما خرج أهل البصرة الذين توجهوا إلى فارس أمراء عليها وكان فيهم سارية بن زنيم الكناني ، فساروا وأهل فارس مجتمعون بتوج فلم يقصدهم المسلمون بل توجه كل أمير إلى الجهة التي أمر عليها ، وبلغ ذلك أهل فارس فتفرقوا إلى بلدانهم كما افترق المسلمون فكانت تلك هزيمتهم وتشتت أمورهم ، فقصد مجاشع بن مسعود السلمي سابور وأزدشير فالتقى هو والفرس بتوج فاقتتلوا ما شاء الله ثم انهزم الفرس وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا كل قتلة ، وغنموا ما في عسكرهم وحصروا توج فافتتحوها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما فيها وكان ذلك افتتاح سنة ثلاث وعشرين ، وهذه توج الأخيرة والأولى هي التي استقدمتها جنود العلاء بن الحضرمي أيام طاوس ، ثم دعوا إلى الجزية فرجعوا وأقروا بها ، وأرسل مجاشع بن مسعود السلمي بالبشارة والأخماس إلى عمر رضي الله عنه .

ذكر فتح إِصْطَخْرَ وجور وغيرهما

في سنة ثلاث وعشرين قصد عثمان بن أبي العاص الثقفي إصطخر ، وكان عمر عقد له لواء إصطخر لما عقد الألوية لمن أذن لهم في الانسياح إلى بلاد فارس ، فالتقى عثمان هو وأهل إصطخر بجور فاقتتلوا وانهزم الفرس وفتح المسلمون جور ثم إصطخر وقتلوا ما شاء الله ثم فر منهم من فر فدعاهم عثمان إلى الجزية والذمة فأجابه الهربذ إليها فتراجعوا ، وكان عثمان قد جمع الغنائم لما هزمهم فبعث بخمسها إلى عمر وقسم الباقي في الناس ، وفتح عثمان كيزرون والنوبندجان وغلب على أرضها وفتح هو وأبو موسى مدينة شيراز وأرَّجان ، وفتح شينيز علّى الجزية والخراج ، وقصد عثمان أيضاً جنابا ففتحها ولقيه جمع الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها ، ثم إن شهرك خلع

الطاعة في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فوجه إليه عثمان بن أبي العاص ابنه وأتته الأمداد من البصرة وأميرهم عبد الله بن معمر وشبل بن معبد فالتقوا بأرض فارس ، فقال شهرك لابنه وهما في المعركة وبينهما وبين قرية شهرك ثلاثة فراسخ وتسمى القرية أيضاً شهرك : يا بني أين يكون غداؤنا ههنا أم بشهرك ؟ قال له : يا أبت إن تركونا فلا يكون غداؤنا ههنا ولا بشهرك ولا يكون إلا في المنزل وما أراهم يتركوننا ، فما فرغا من كلامهما حتى شب المسلمون الحرب فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل شهرك وابنه وخلق كثير والذي قتَل شهرك الحكم بن أبي العاص أخو عثمان ، وقيل قتله سوار بن همام العبدي حمل عليه فطعنه فقتله .

وحوصر الفرس بمدينة سابور فصالح عليها ملكها أزرنبان ، وكان في جيوش المسلمين أبو صفرة والد المهلب ، قيل إن عبد الله بن معمر أمير الأمداد التي جاءت لهذا الجيش من البصرة بلغه أن أزرنبان يريد الغدر به فقال له : أحب أن تتخذ لأصحابي طعاماً وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التي تليني فإني أحب أن أَتَمَشَّشَ العظام ففعل وجعل يأخذ العظم لا يكسر إلا بالفؤوس فيكسره بيده ويأخذ مخه وكان من أشد الناس ، فقام أزرنبان وقبل قدمه وقال هذا مقام العائذ بك وأعطاه عهداً .

ذكر فتح نَسَا ودارَابجَرد

قد تقدم أن عمر رضي الله عنه لما عقد ألوية لمن أذن لهم في الانسياح في بلاد فارس عقد لواء لسارية بن زنيم الكناني على نسا ودارابجرد في سنة ثلاث وعشرين ، فسار حتى انتهى إليهم ، فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله ، ثم إنهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير وأتاهم الفرس من كل جانب ، فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار فنادى من الغد الصلاة جامعة حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم ، وكان ابن زنيم والمسلمون في صحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم وإن استندوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد ، فقام عمر على المنبر فقال : يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما ، وصاح عمر وهو يخطب : يا ساريةَ بن زنيم الجبلَ يا سارية الجبلَ ، ثم أقبل على الناس فقال : إن لله جنوداً ولعل بعضها أن

تبلغهم ، فسمع سارية ومن معه الصوت فلجؤوا إلى الجبل ثم قاتلوهم فهزمهم الله تعالى ، كذا في الكامل لابن الأثير .

وهذه القصة رواها كثير من أئمة الحديث بأسانيد صحيحة منهم البيهقي وأبو نعيم وابن مردويه واللالكاي وابن الأعرابي والخطيب بألفاظ متعددة والمعاني متقاربة ، فمنها رواية لابن عمر قال : وجه عمر جيشاً ورأس عليهم رجلاً يدعى سارية فبينما عمر يخطب جعل ينادى يا سارية الجبل ثلاثاً ، ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال : يا أمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً ينادي يا سارية الجبلَ ثلاثاً ، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى ، فقيل لعمر إنك تصيح بذلك وذلك الجبل الذي كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم .

وفي رواية لابن عمر أيضاً كان عمر يخطب يوم الجمعة فعرض في خطبته أن قال : يا سارية الجبل من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناس بعضهم لبعض ، فقال لهم علي رضي الله عنه : ليخرجنّ مما قال ، فلما فرغ سألوه ، فقال : وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرّون بجبل فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد وإن جازوا هلكوا فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه ، فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم ، قال : فعدلنا إلى الجبل ففتح الله علينا .

وفي رواية عن عمرو بن الحارث ، قال : بينا عمر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال يا سارية الجبل مرتين أو ثلاث ، ثم أقبل على خطبته فقال بعض الحاضرين لقد جن إنه لمجنون ، فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه ، فقال : إنك لتجعل لهم على نفسك مقالاً ، بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح يا سارية الجبل أي شيء هذا ؟ قال : إني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل ، فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه وفيه إن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا منادياً ينادي يا سارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم ، فقال أولئك الذين طعنوا عليه دعوا هذا الرجل فإنه مصنوع له انتهى .

وأصاب المسلمون في مغانمهم مع سارية سفطاً فيه جوهر فاستوهبه منهم سارية وبعث به إلى عمر فقدم الرسول على عمر وهو يطعم الطعام فأمره فجلس وأكل ، فلما انصرف عمر تبعه الرسول فظن عمر أنه لم يشبع فأمره فدخل بيته ، فلما جلس أتى عمر بغدائه خبز وزيت وملح جريش فأكلا ، فلما فرغا قال الرجل : أنا رسول سارية يا أمير المؤمنين ، قال : مرحباً وأهلاً ، ثم دنا حتى مس ركبته وسأله عن المسلمين فأخبره بقصة السفط فنظر إليه وصاح به لا ولا كرامة حتى يقدم عليّ ذلك الجند فيقسمه بينهم فطرده ، فقال : يا أمير المؤمنين إني قد أنضيت جملي واستقرضت في جائزتي فأعطني ما أَتَبَلَّغ به ، فما زال به حتى أبدله بعيراً من إبل الصدقة وجعل بعيره في إبل الصدقة ، ورجع الرسول مغضوباً عليه محروماً ، وسأل أهل المدينة الرسول هل سمعوا شيئاً يوم الوقعة ؟ قال : نعم ، سمعنا يا سارية الجبل وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا .

ذكر فتح كَرْمان

كان سهيل بن عدي قد عقد له عمر لواء على كرمان مع الألوية التي عقدها فأمره في هذه السنة أعني سنة ثلاث وعشرين بالمسير إلى كرمان ، فسار ولحقه عبدالله بن عبدالله بن عتبان وحشد لهم أهل كرمان واستعانوا عليهم بالقفص فاقتتلوا في أداني أرضهم ففضَّ الله تعالى المشركين وأخذ المسلمون عليهم الطريق وقتل النسير بن عمرو العجلي مرزبانها ، فدخل النسير من قبل طريق القرى اليوم إلى جيرفت وعبدالله بن عبدالله من مفازة سير فأصابوا ما أرادوا من بعير أو شاة ، فَقَوَّموا الإبل والغنم فتحاصوها بالأثمان لعظم البخت على العرب وكرهوا أن يزيدوا ، وكتبوا إلى عمر بذلك فأجابهم إذا رأيتم أن البخت فضلٌ فزيدوا .

ذكر فتح سجستان

كان عاصم بن عمرو قد عقد له عمر لواء على سجستان مع الألوية التي عقدها فأمره في هذه السنة بالمسير إليها ، فسار ولحقه عبدالله بن عمير فاستقبلهم أهلها فالتقوا هم وأهل سجستان في أداني أرضهم فهزمهم المسلمون ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان ، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنّج وما احتازوا من الأرضين فأعطوا ، وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أن قندهار حِمَىً فكان المسلمون يتجنبونها

خشية أن يصيبوا منها شيئاً فيخفر ، وأقيم أهل سجستان الخراج ، وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجاً يقاتلون القندهار والترك وأمماً كثيرة .

ذكر فتح مُكْران بضم الميم وسكون الكاف

كان الحكم بن عمرو التغلبي قد عقد له عمر لواء على مكران مع الألوية التي عقدها فأمره في هذه السنة بالمسير إليها ، فسار حتى انتهى إليها ولحقه شهاب بن المخارق وسهيل بن عدي وعبدالله بن عبدالله بن عتبان ، فانتهى إلى دوين النهر وأهل مكران على شاطئه فاستمد ملكهم ملك السند فأمده بجيش كثيف فالتقوا مع المسلمين فانهزموا وقتل منهم في المعركة مقتلة عظيمة ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ورجع المسلمون إلى مكران فأقاموا بها وكتب الحكم إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس مع صحار العبدي ، فلما قدم المدينة سأله عمر عن مكران ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هي أرض سهلها جبل وماؤها وشل وتمرها دقل وعدوها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير فيها قليل والقليل فيها ضائع وما وراءها شر منها ، فقال أسجّاع أنت أم مخبر ؟ لا والله لا يغزوها جيش لي أبداً ، وكتب إلى سهيل والحكم بن عمرو ألاّ يجوزن مكران أحد من جنودهما وأمرهما ببيع الفيلة التي غنمها المسلمون ببلاد الإسلام وقسم أثمانها على الغانمين .

ذكر فتح بيَرُوذَ والأهواز

لما وصلت الخيول إلى الكور اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الأكراد وغيرهم وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى أقصى ذمة البصرة حتى لا يؤتى المسلمون من خلفهم وخشي أن يهلك بعض جنوده أو يخلفوا في أعقابهم ، فاجتمع الأكراد ببيروذ وأبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ، ثم سار فنزل بهم ببيروذ فالتقوا في رمضان بين نهري تيرى ومناذر ، فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقبل القوم وعزم أبو موسى على الناس فأفطروا ، وتقدم المهاجر وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل ووهن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة ، واشتد جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فقده ، فرقّ له أبو موسى فاستخلفه عليهم في جند وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان واجتمع بها بالمسلمين الذين يحصرون جيا ، فلما فتحت رجع أبو موسى إلى البصرة ، وفتح

الربيع بن زياد الحارثي بيروذ من نهر تيرىٰ وغنم ما معهم .

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد

كان عمر رضي الله عنه إذا اجتمع إليه جيش من المسلمين أَمَّر عليهم أميراً من أهل العلم والفقه ، فاجتمع إليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي فقال : سر باسم الله ، قاتِلْ في سبيل الله من كفر بالله ، فإذا لقيتم عدوكم فادعوهم إلى الإسلام فإن أجابوا وأقاموا بدارهم فعليهم الزكاة وليس لهم من الفيء نصيب ، وإن ساروا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم وإن أبوا فادعوهم إلى الجزية فإن أجابوا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم وإن تحصنوا منكم وسألوكم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله أو ذمة الله ورسوله فلا تجيبوهم فإنكم لا تدرون أتصيبون حكم الله ورسوله وذمتهما أم لا ، ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ولا تمثلوا .

فساروا حتى لقوا عدداً من الأكراد المشركين فدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فلم يجيبوا فقاتلوهم فهزموهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فقسمه بينهم ، ورأى سلمة جوهراً في سفط فاسترضى عنه المسلمين وبعث به إلى عمر فقدم الرسول بالبشارة وبالسفط على عمر فسأله عن أمور الناس وهو يخبره حتى أخبره بالسفط فغضب غضباً شديداً وأمر به فوجىء به في عنقه ، ثم قال إن تفرق الناس قبل أن تقدم عليهم ويقسمه سلمة فيهم لأَسُوءَنَّك فسار حتى قدم على سلمة فباعه وقسمه في الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً ، وفي هذه السنة غزا معاوية الروم وفتح عسقلان صلحاً .

إلى هنا انتهت الفتوحات التي كانت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

واستشهد عمر رضي الله عنه لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وقصة استشهاده مشهورة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها .

أخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل آنفاً فقلت يا جبريل حدثني بفضائل عمر بن الخطاب ، فقال : لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح في قومه ما نفدت فضائل عمر » . وإن عمر حسنة

من حسنات أبي بكر رضي الله عنهما ، وربما أن العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر رضي الله عنه ، لكن من كان ذا بصيرة وأمعن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل في نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للإسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الإسلام في ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التي فتحها الله على يديه حتى كثر العلم واتسع الإسلام وكثر المسلمون ، يتضح له أن كل خير وقع لأهل الإسلام منذ خلافة عمر رضي الله عنه إلى يوم القيامة كله من فضائل عمر رضي الله عنه ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم ، وذلك شيء لا يمكن ضبطه ولا إحصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح في قومه .

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إني لأرجو لأمتي في حبهم أبا بكر وعمر ما أرجو لهم في قول لا إله إلا الله » .

وأخرج أبو ذر الهروي أن رسول الله ﷺ قال : « عمر معي وأنا مع عمر والحق بعدي مع عمر حيث كان » .

وهذا مثل ما قال ﷺ في حق علي رضي الله عنه : « وأدر الحق معه حيث دار » .

فكلٌّ من عمر وعلي رضي الله عنهما كان مع الحق ، ولهذا كان علي رضي الله عنه مع الخلفاء الثلاثة قبله في زمن خلافتهم ولم ينازع أحداً منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم ، فلما جاءت نوبة خلافته ونوزع في ذلك قاتل من نازعه ، فلا يصح أن ينسب إليه أن سكوته في زمن الخلفاء الثلاثة كان تقية ، حماه الله من المحاباة في دين الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر الفتوحات في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

كانت البيعة لعثمان رضي الله عنه في أوائل المحرم سنة أربع وعشرين ، فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عملاً بقول عمر رضي الله عنه : أُوصِي الخليفة بعدي أن يستعمل سعداً فإني لم أعزله عن سوء ولا خيانة ، فكان أول عامل بعثه عثمان رضي الله عنه .

ذكر خلاف أهل الإسكندرية

في سنة خمس وعشرين خالف أهل الإسكندرية ونقضوا صلحهم ، وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم ، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح فأجابوهم إلى ذلك ، فسار إليه من القسطنطينية جيش كثير وعليهم منويل الخصي ، فأرسلوا بها واتفق معهم من بها من الروم ، ولم يوافقهم المقوقس بل ثبت على صلحه .

فلما بلغ الخبر إلى عمرو بن العاص سار إليهم وسار الروم إليه ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية ، وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة منهم منويل الخصي .

وكان الروم لما خرجوا من الإسكندرية قد أخذوا أموال تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم ، فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة ، فرد عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البينة ، وهدم عمرو سور الإسكندرية وتركها بغير سور ، وفي هذه السنة بلغ سعد بن أبي وقاص عن أهل الري عزم على نقض العهد ، فأرسل إليهم وأصلحهم ، وغزا الديلم ثم انصرف .

ذكر صلح أهل أرمينية وأذربيجان

في هذه السنة نقضت أهل أذربيجان فأمر عثمان رضيَ الله عنه الوليد بن عقبة بن أبي معيط أن يغزوهم ، وكان على الكوفة لأن سعد بن أبي وقاص اختصم مع عبدالله بن

مسعود فاستحسن عثمان رضي الله عنه أن يعزل سعداً قطعاً للنزاع ، فعزله وولاها الوليد فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبدالله بن شبيل الأحمسي فأغار على أهل موقان والببَرْ والطيلسان ، ففتح وغنم وسبى ، فطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على ثمانمئة ألف درهم ، وقبض المال وبث السرايا ، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً ، فسار في أرمينية يقتل ويسبي ويغنم ، ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد فعاد الوليد وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل ، ثم أتى الحديثة فنزلها فأتاه بها كتاب عثمان ؛ فيه : أن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن الروم قد أقبلت على المسلمين في جموع كثيرة وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة فابعث إليهم رجلاً له نجدة وبأس في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه والسلام ، فقام الوليد في الناس وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي فانتدب معه ثمانية آلاف ، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم فشنوا الغارات على أرض الروم ، فأصاب الناس ما شاؤوا من الغنائم وافتتحوا حصوناً كثيرة .

وقيل إن الذي أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص ، وكان على الكوفة بعد عزل الوليد ، وكان سبب عزل ذلك أن عثمان كتب إلى معاوية أن يغزو حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية وهي غير التي بأذربيجان بالعراق ، فوجهه إليها فأتى قالي قلا فحصرها وضَيّق على من بها فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية ، فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم ، وأقام حبيب بها فيمن معه شهراً ، ثم بلغه أن بطريق أرميناقس وهي البلاد التي صارت بعد بيد أولاد السلطان قلج أرسلان السلجوقي وهي مَلَطْيَة وسيواس وأَقْصَرَىٰ وقونية وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم ، واسم القس المذكور الموريان ، فكتب حبيب إلى معاوية يخبره فكتب معاوية إلى عثمان فأرسل عثمان إلى سعيد بن العاص يأمره بإمداد حبيب فأمره بسلمان في ستة آلاف .

وأجمع حبيب على تبييت الروم فسمعته امرأته أم عبدالله بنت يزيد الكلبية ، فقالت أين موعدك ؟ فقال سرادق الموريان ، ثم بيتهم فقتّل من وقف له ، ثم أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته إليه فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب سرادق .

ولما انهزمت الروم عاد حبيب إلى قالي قلا ، ثم سار منها ونزل مربالا فأتاه بطريق خَلّاط بكتاب عياض بن غنم بأمان البطريق المذكور فأجراه عليه وحمل إليه البطريق ما عليه من المال ونزل حبيب خلاط ، ثم سار منها فلقيه صاحب مكس وهي من البسفرجان فقاطعه على بلاده ، ثم سار منها إلى أزدشاط وهي القرية التي يكون منها القرمز الذي يصبغ به فنزل على نهرديل وسرح الخيول إليها فحصرها فتحصن أهلها فنصب عليهم منجنيقاً فطلبوا الأمان فأجابهم إليه وبث السرايا فبلغت خيله ذات اللجم ، وإنما سميت ذات اللجم لأن المسلمين أخذوا لجم خيولهم فكبسهم الروم قبل أن يلجموها ثم ألجموها فقاتلوهم فظفروا بهم ، ووجه سرية إلى سراج طير وبغروند فصالحه بطريقهما على إتاوة فقدم عليه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده ، وأتى السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب على حصونهم ، وسار إلى جرزان فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح فصالحه ، وسار إلى تفليس فصالحه أهلها وهي من جرزان ، وفتح عدة حصون تجاورها صلحاً .

وسار سلمان بن ربيعة الباهلي إلى إيران ففتح البلقان صلحاً على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم الجزية والخراج ، ثم أتى سلمان مدينة برذعة فعسكر على الثرثور نهر بينه وبينها نحو فرسخ فقاتله أهلها أياماً وشن الغارات في قراها فصالحوه على مثل صلح البلقان ودخلها ووجه خيله ففتحت رساتيق الولاية ، ودعا أكراد البلاشجان إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدى بعضهم الصدقة وهم قليل ووجه سرية إلى شمكور ففتحوها ، وسار سلمان إلى مجمع إرسل والسكر ففتحه وصالحه صاحب سكر وغيرها على الإتاوة ، وصالحه ملك شروان وسائر ملوك الجبال وأهل مسقط والشابران ومدينة الباب وهي غير التي في العراق ، وهذه بقرب حلب .

ذكر غزوة معاوية الروم

في هذه السنة سنة خمس وعشرين غزا معاوية الروم فبلغ عَمُّورِية وهي المسماة بروسة ، فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرسوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته ، ثم غزا بعد ذلك يزيد بن الحر العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك ولما خرج هدم الحصون إلى أنطاكية .

ذكر غزوة إفريقية

في هذه السنة سير عمرو بن العاص عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف إفريقية غازياً بأمر عثمان ، وكان عبدالله من جند مصر ، فلما سار إليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده ، فلما عاد عبدالله كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية فأذن له في ذلك .

ذكر غزوة كابُل

في هذه السنة أرسل عثمان رضي الله عنه عبدالله بن عامر إلى كابل وهي عمالة سجستان فبلغها في قول ، فكانت أعظم من خراسان حتى مات معاوية فامتنع أهلها .

ذكر فتح إفريقية

كان ذلك في سنة ست وعشرين ، وقد تقدم أن عبدالله بن أبي سرح استأذن عثمان رضي الله عنه في غزو إفريقية فأذن له وقال إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نفلاً ، وأَمّر عثمان عبدالله بن نافع بن عبد القيس وعبدالله بن نافع بن الحارث على جند وسرحهما وأمرهما بالاجتماع مع عبدالله بن أبي سرح على صاحب إفريقية ، فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر وَطِئوا أرض إفريقية ، وكانوا في جيش كثير عدتهم عشرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ، ولم يقدموا على دخول إفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها .

ثم إن عثمان ولى عبدالله بن أبي سرح مصر فأرسل إلى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية والاستكثار من الجموع ، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم

بذلك فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبدالله بن عباس وغيره ، فسار بهم عبدالله بن أبي سرح إلى إفريقية ، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عبدالله بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب فنهبوا من عندها من الروم وساروا نحو إفريقية ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة ، وكان هرقل ملك الروم قد ولاه إفريقية فهو يحمل الخراج إليه كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد ، فبلغ عسكره مئة ألف وعشرين ألف فارس ، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك ، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبدالله بن أبي سرح يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول إحداهما ، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان ، فسير عبدالله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم ، فسار مجداً ووصل إليهم وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر فَفَتَّ ذلك في عضده .

ورأى عبدالله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهيرة ، فإذا أذن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه وشهد القتال من الغد ، فلما رأى ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقيل إنه سمع منادي جرجير يقول من قتل عبدالله بن أبي سرح فله مئة ألف دينار وأزوجه ابنتي وهو يخاف على جيش المسلمين إن قتل فحضر عنده عبدالله بن الزبير وقال له تأمر منادياً ينادي من أتاني برأس جرجير نفلته مئة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن أبي سرح إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم ، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك .

فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين في

خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذن بالظهر هَمَّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى اتبعهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكلٌّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من الشجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير قتله عبد الله بن الزبير وانهزم الروم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية وأعطيت لعبد الله بن الزبير مع مئة ألف .

ونازل عبد الله بن أبي سرح المدينة فحصرها حتى فتحها ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفاً .

ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا .

وسيّر عسكراً إلى حصن الأعاجم وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار وأرسل إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية ، ثم عاد عبدالله بن أبي سرح إلى مصر ، وكان مقامه بإفريقية سنة وثلاثة أشهر ، ولم يفقد من المسلمين سوى ثلاثة منهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر فدفن هناك .

ذكر انتقاض إفريقية وفتحها ثانية

كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدي له كل ملك من ملوك النصارى الخراج من مصر وإفريقية وأندلس وغير ذلك ، فلما صار ملك إفريقية للمسلمين أرسل هرقل بعد مدة إلى أهلها بطريقاً وأمر أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون ، فنزل البطريق في قرطاجنة وجمع النصارى الذين في إفريقية وأخبرهم بما أمر الملك فأبوا عليه وقالوا نحن نؤدي ما كان يؤخذ منا وقد كان ينبغي له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منا .

وكان قد قدم بأمر إفريقية بعد قتل جرجير رجلٌ آخر من الروم فطرده البطريق بعد فتن كثيرة وتغلب الروم على إفريقية ، فسار ذلك الرجل إلى الشام وبها معاوية وقداستقر له الأمر بعد قتل علي رضي الله عنه فوصف له إفريقية وطلب أن يرسل معه جيشاً ، فسير

معه معاوية بن حُدَيج السكوني فوصل إلى إفريقية وهي نار تضطرم ومعه عسكر عظيم فنزل عند قمونية وأرسل البطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل ، فلما سمع بهم معاوية بن حُدَيج ، سيّر إليهم جيشاً من المسلمين فقاتلوهم فانهزم الروم وحصر حصن جلولاء ، فلم يقدر عليه فانهدم الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه وبث السرايا فسكن الناس وأطاعوا وعاد إلى مصر .

ذكر غزوة الأندلس

لما افتتحت إفريقية في خلافة عثمان رضي الله عنه أمر عثمان رضي الله عنه عبدالله بن نافع بن الحصين وعبدالله بن نافع بن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر ، وكتب عثمان إلى من انتدب معهما أما بعد فإن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، فخرجوا ومعهم البربر ففتح الله على المسلمين فتوحات كثيرة من أراضي إفريقية وزاد في سلطان المسلمين مثل إفريقية ، وأما الأندلس فلم تفتح إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك كما سيأتي إن شاء الله .

ذكر غزوة قِنَّسْرِين

وفي سنة سبع وعشرين غزا معاوية قنسرين فقتل وسبى وغنم ورجع ، وفي سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرس على يد معاوية .

ذكر فتح قبرس في خلافة عثمان رضي الله عنه

غزا سنة ثمان وعشرين وكان معه جماعة من الصحابة منهم أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام ، وكان معاوية قد استأذن عمر رضي الله عنه أن يغزو في البحر فلم يأذن له خوفاً من ركوب البحر ، فلما كانت خلافة عثمان رضي الله عنه استأذن وألح عليه فأذن له وقال : لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ، ففعل .

وسار المسلمون من الشام إلى قبرس ، وسار عبد الله بن أبي سرح من مصر ، فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة بعد قتل وسبي كثير في قبرس ويؤدون مثلها لملك الروم .

وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الأنصارية ألقتها بغلتها بجزيرة قبرس فاندقت عنقها فماتت تصديقاً للنبي ﷺ حيث أخبرها أنها في أول من يغزو في البحر كما في صحيح البخاري .

ذكر انتقاض أهل فارس

في سنة تسع وعشرين انتقض أهل فارس فسار إليهم عبيد الله بن معمر فالتقوا على باب إصطخر فقتل عبيد الله وانهزم المسلمون ، وبلغ الخبر عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وكان على مقربة بعد عزل أبي موسى ، وكان لعبد الله بن عامر صحبة فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس فالتقوا بإصطخر واشتد القتال فانهزم الفرس وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفتحت إصطخر عنوة وأتى دارابَجَرد وقد غدر أهلها ففتحها ، وسار إلى مدينة جور فانتقضت إصطخر فلم يرجع وتمم السير إلى جور وحاصرها إلى أن فتحها ، وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام يصلي ذات ليلة وإلى جانبه جراب له فيه خبز ولحم ، فجاء كلب فجره وغدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفي ، فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة ، فلما فرغ منها ابن عامر عاد إلى إصطخر وفتحها عنوة بعد أن حاصرها واشتد القتال عليها ورميت بالمجانيق وقتل بها خلقاً كثيراً من الأعاجم وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساورة وكانوا قد لجؤوا إليها .

ذكر غزوة سعيد بن العاص طبرستان

في سنة ثلاثين غزا سعيد بن العاص طبرستان ، وكان على الكوفة بعد عزل الوليد بن عقبة ، وكان أهل طبرستان في خلافة عمر صالحوا سويد بن مقرن على مال بذلوه ثم نقضوا فغزاهم سعيد بن العاص ومعه الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وأناس من أصحاب النبي ﷺ ، وخرج ابن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيداً ونزل نيسابور ونزل سعيد قومس وأتى جرجان فصالحوه على مئتي ألف ثم أتى طميسة فقاتله أهلها ، وضرب سعيد يوماً رجلاً بالسيف على عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه فسألوه الأمان فأعطاهم وفتح أيضاً نامية ، وفي هذه السنة غزا حذيفة الباب مدداً لعبدالرحمن بن ربيعة ، وفي هذه الغزوة رأى حذيفة اختلافاً كثيراً بين الناس في القرآن فلما رجع أشار على عثمان بجمع القرآن في المصاحف ففعل ، وقصة ذلك مشهورة لا حاجة لذكرها .

ذكر غزوة الصواري

في سنة إحدى وثلاثين غزا معاوية الصواري ؛ وسببها أن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام فخرجوا في خمسمئة مركب أو ستمئة ، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى أهل مصر عبد الله بن أبي سرح على طريق البحر وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح ، فقال المسلمون الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلون ويدعون والروم يضربون بالنواقيس ، ومن الغد قربوا سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها من بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر ، وقتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم مالا يحصى وصبر الفريقان صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحاً ، ولم ينج من الروم إلا الشريد ، وسار قسطنطين إلى صقلية فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم فقالوا أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ولو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه وأذنوا لهم في المسير إلى القسطنطينية .

ذكر مقتل يزدجرد بن شهريار ملك الفرس

في سنة إحدى وثلاثين كان مقتل يزدجرد ، واختلف في كيفية قتله اختلافاً كثيراً ، وكان قد هرب من فارس إلى خراسان ، ولم يزل المسلمون يتبعونه ويقفون أثره من مدينة إلى مدينة وهو يهرب ، ثم بيته جماعة من الترك فقتلوه ، وقيل نام عند رجل ينقر الأرحاء فقتله ، وقيل غير ذلك ، وكان ملكه عشرين سنة منها أربع سنين في دعة وست عشرة في تعب من محاربة العرب إياه وغلظتهم عليه ، وكان آخر من ملك آل أزدشير بن بابك ، صفا الملك بعد للعرب .

ذكر مسير عبد الله بن عامر إلىٰ خراسان وفتحها

لما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقض أهل خراسان وغدروا ، فلما افتتح ابن عامر فارس قام إليه حبيب بن أوس التميمي فقال له أيها الأمير إن الأرض بين يديك ولم

يفتح منها إلا القليل فسر فإن الله ناصرك قال أولم تؤمر بالمسير ؟ وقيل إن الأحنف بن قيس قال له إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فالله ناصرك ومعز دينه ، فسار إلى كرمان واستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمي وله صحبة وأمره بمحاربة أهلها ، وكانوا قد نكثوا أيضاً ، واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحارثي وكانوا أيضاً قد نقضوا الصلح وغدروا ، ثم سار ابن عامر إلى نيسابور ، وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطَّبَسَيْن وهما حصنان وهما بابا خراسان ، فصالحه أهلها على ستمئة ألف درهم ، وبعث سرية إلى رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخِرْزَ من أعمال نيسابور أيضاً ، وفتح جُوَيْن من أعمال نيسابور أيضاً ، ووجه الأسود بن كلثوم العدوي إلى بَيْهَق من أعمالها أيضاً فقصه قصبته ، ودخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيه ودخلت معه طائفة من المسلمين فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الأسود حتى قتل هو وطائفة ممن معه وقام بأمر الناس بعده أخوه أدهم بن كلثوم فظفر وفتح بيهق ، وكان الأسود يدعو الله أن يحشره في بطون السباع والطير فلم يواره أخوه ودفن من استشهد من أصحابه .

وافتتح ابن عامر في هذه الغزوة بُشْتَ من نيسابور ، وهذه بُشْتُ بالشين المعجمة وليست بِبُسْت التي بالسين المهملة ، فإن تلك من بلاد الداون وهذه من خراسان من نيسابور ، وافتتح أيضاً خَوَاف وإسفرايين وأَرْغِيَان ثم قصد نيسابور بعدما استولى على أعمالها وافتتحها فحصر أهلها شهراً وكان على كل ربع منها مرزبان للفرس يحفظه فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الإمارة على أن يُدخِلَ المسلمين المدينة فأجيب إلى ذلك فأدخلهم ليلاً ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها الأكبر في حصنها ومعه جماعة وطلب الأمان والصلح على جميع نيسابور فصالحه على ألف ألف درهم .

وولي نيسابور قيس بن الهيثم السلمي وسير جيشاً إلى نَسَا وأَبِيْوَرْدَ فافتتحوها صلحاً وسيّر سرية أخرى إلى سرخس مع عبدالله بن خازم السلمي فقاتلوا أهلها ، ثم طلبوا الأمان والصلح على أمان مئة رجل فأجيبوا إلى ذلك ، فصالحهم مرزبانها على ذلك وسمى مئة رجل ولم يذكر نفسه فقتله عبدالله ودخل سرخس عنوة وأتى مرزبان طوس إلى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمئة درهم وسير جيشاً إلى هراة عليهم عبدالله بن خازم فبلغ مرزبان هراة ذلك فسار إلى ابن عامر فصالحه عن هراة وباذغيس وبوشنج ،

وقيل بل سار ابن عامر في الجيش إلى هراة فقاتله أهلها ، ثم صالحه مرزبانها على ألف ألف درهم .

ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل إليه مرزبان مرو فصالحه على ألفي ألف ومئتي ألف درهم ، وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي إلى مرزبانها ، وكانت مرو كلها صلحاً إلا قرية منها يقال لها سِنْج فإنها أخذت عنوة ، ووجه ابن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان فمر برستاق يعرف بعد ذلك برستاق الأحنف ويدعى سوانجرد ، فحصر أهلها فصالحوه على ثلاثمئة ألف درهم ، فقال الأحنف : أصالحكم على أن يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف فرضوا بذلك ، ومضى الأحنف إلى مرو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم وهزمهم وحصرهم ، وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن ، فكتب إلى الأحنف أنه دعاني إلى الصلح إسلام باذان فصالحه على ستمئة ألف وسير الأحنف سرية فاستولى على رستاق بغ واستاقت منه مواشي ، ثم صالحه أهلها وجمع له أهل طخارستان فاجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ، ومن حولهم من خلق كثير فالتقوا واقتتلوا ، وحمل ملك الغانيان على الأحنف فانتزع الرمح من يده وقاتل قتالاً شديداً فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً كيف شاؤوا وعاد إلى مرو الروذ ، ولحق بعض العدو بالجوزجان ، فوجه إليهم الأقرع بن حابس التميمي في خيل وقال : يا بني تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم ، وابدؤوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم .

فسار الأقرع فلقي العدو بالجوزجان فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة وفتح الأحنف الطالقان صلحاً وفتح الفارياب ، ثم سار الأحنف إلى بلخ وهي مدينة طخارستان فصالحه أهلها على أربعمئة ألف وقيل سبعمئة ألف ، واستعمل على بلخ أَسيداً بفتح الهمزة ابن المتَشَمِّس ، ثم سار إلى خوارزم وهي على نهر جيحون فلم يقدر عليها فاستشار أصحابه فقال له حضين ـ بالضاد المعجمة ـ ابن المنذر قال عمرو بن معدي كرب :

إذا لم تَسْتَطِعْ شيئاً فدعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ

فعاد إلى بلخ وقد قبض أَسيد صلحها .

ولما تم لابن عامر هذا الفتح قال له الناس ما فتح لأحد ما فتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان ، فقال لا جرم لأجعلنّ شكري لله تعالى على ذلك أن أخرج محرماً من موقفي هذا فأحرم بعمرة من نيسابور ، وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم ، فسار قيس بعد شخوصه في أرض طخارستان فلم يأت بلداً منها إلا صالحه أهلها وأذعنوا له حتى أتى سِمِنْجان فامتنعوا عليه فحصرهم حتى فتحها عنوة .

ذكر فتح كَرْمان

لما سار ابن عامر عن كرمان إلى خراسان واستعمل مجاشع بن مسعود السلمي على كرمان أمره أن يفتحها ، وكان أهلها قد نكثوا وغدروا ففتح هميد عنوة ، واستبقى أهلها وأعطاهم أماناً وبنى بها قصراً يعرف بقصر مجاشع ، وأتى السيرجان وهي مدينة كرمان فأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصنون وفتحها عنوة فجلا كثير من أهلها عنها ، وفتح جيرفت عنوة ، وسار في كرمان فدوخ أهلها وأتى القفص وقد تجمّع له خلق كثير من الأعاجم الذين جلوا فقاتلهم فظفر بهم ، وظهر عليهم وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران وبعضهم بسجستان فأقطعت العرب منازلهم وأرضهم فعمدوها واحتفروا لها القني في مواضع منها وأدوا العشر .

ذكر فتح سِجِسْتان وكابُل وغيرهما

قد تقدم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب ثم إن أهلها نقضوا بعده ، فلما توجه ابن عامر إلى خراسان سير إليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثي فقطع المفازة حتى أتى حصن زالق فأغار على أهله يوم مهرجان وأخذ الدهقان فافتدى نفسه بأن غرز عنزة وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس ، ثم أتى بلدة يقال لها كركوية فصالحه أهلها ، وسار إلى زرنج فنزل على مدينة روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم المشركون وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأتى الربيع ناشروذ ففتحها ، ثم أتى شروان فغلب عليها وسار منها إلى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم ، فأرسل إليه مرزبانها ليصالحه وٱسْتَأْمَنَهُ على نفسه ليحضر عنده فأمنه وجلس له الربيع على جسد من أجساد القتلى واتكأ على آخر وأمر أصحابه ففعلوا مثله ، فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على ألف وصيف مع كل وصيف جام من

ذهب ، ودخل المسلمون المدينة ثم سار منها وأتى القرية التي بها مربط فرس رستم الشديد فقاتله أهلها فظفر بهم ثم عاد إلى زرنج وأقام بها نحو سنة وعاد إلى ابن عامر واستخلف عليها عاملاً فأخرج أهلها العامل وامتنعوا ، فكانت ولاية الربيع سنة ونصفاً وسبى فيها أربعين ألف رأس وكان كاتبه الحسن البصري ، فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة حبيب بن عبد شمس على سجستان ، فسار إليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف ، وغلب عبد الرحمن ما بين زرنج والكش من ناحية الهند ، وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الدوان ، فلما انتهى بلد الدوان حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ، ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع وفتح كابل وزابلستان وهي ولاية غَزْنَة ، ثم عاد إلى زرنج فأقام بها ، ثم استخلف عليها أمير بن أحمر اليشكري ، وانصرف فأخرج أهلها أمير بن أحمر وامتنعوا .

غزوة مضيق القُسْطَنْطينيّة

في سنة اثنتين وثلاثين غزا معاوية بن أبي سفيان مضيق القسطنطينية فقتل وسبى وغنم ورجع .

ذكر غزوة بلَنْجَر

لما تتابعت الغزوات على الخزر والترك تذامروا وقالوا كنا لا يقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لا نقوم لها ، فقال بعضهم إن هؤلاء لا يموتون وما أصيب من أحد في غزوهم ، وكان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يقتل منهم أحد ، فلهذا ظنوا أنهم لا يموتون ، فقال بعضهم أفلا تجربون ؟ فكمنوا لهم في الغياض فمر بالكمين نفر من الجند فرموهم منها فقتلوهم فتواعد رؤوسهم على حربهم ثم اتعدوا يوماً ، وكان عثمان قد كتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب أن الرعية قد أبطرها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فإني أخشى أن يقتلوا ، فلم يرجع عبدالرحمن عن مقصده فغزا نحو بلنجر ، وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً وقتل عبد الرحمن وكان يقال له ذو النون وهو اسم سيفه ، فأخذ

أهل بلنجر جسده فجعلوه في تابوت فهم يستسقون به ، فلما قتل وقتل كثير ممن معه انهزم الناس وافترقوا فرقتين فرقة نحو الباب فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبدالرحمن كان قد سيره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان ، فلما لقوه نجوا معه وفرقة نحو جيلان وجرجانه ، فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة .

ذكر خروج الترك مع ملكهم قارِن

في سنة ثنتين وثلاثين خرجت جموع من الترك من ناحية خراسان في أربعين ألفاً عليهم قارن من ملوكهم فانتهى إلى الطَّبَسَيْنِ ، واجتمع له أهل باذغيس وهراة وقهستان ، وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمي استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه إلى مكة محرماً فدوخ جهتها وكان معه ابن عمه عبدالله بن خازم فقال لابن عامر اكتب لي على خراسان عهداً إذا خرج منها قيس ففعل ، فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن خازم : ما ترى ؟ قال : أرى أن تخرج من البلاد فإن عهد ابن عامر عندي بولايتها ، فترك منازعته وذهب إلى ابن عامر ، وقيل أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستمده ، فلما خرج أشهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس ، وسار ابن خازم للقاء الترك في أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك ، فلما قرب من قارن أمر الناس أن يدرك كل رجل منهم على زُجّ رمحه خرقة أو قطناً ثم يكثروا دهنه ، ثم سار حتى أمسى فقدم مقدمته ستمئة ثم أتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النار في أطراف الرماح فانتهت مقدمته إلى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش وكانوا آمنين من البيات ، ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتخفض وترفع ، فهالهم ذلك ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ، ثم غشيهم ابن خازم وأكثروا القتل في المشركين وقتل ملكهم قارن فانهزم المشركون واتبعهم المسلمون يقاتلونهم كيف شاؤوا وأصابوا سبياً كثيراً ، وكتب ابن خازن بالفتح إلى ابن عامر فرضي وأقره على خراسان .

غزوة حصن المرأة

في سنة ثلاث وثلاثين غزا معاوية حصن المرأة من أرض الروم بناحية ملاطية فقتل وسبى وغنم ورجع ، وفي هذه السنة كانت غزوة عبدالله بن سعد بن أبي سرح إفريقية الثانية حين نقض أهلها العهد .

ذكر انتقاض أهل قبرس وغزوهم في سنة ٣٣

وفي هذه السنة نقض أهل قبرس وأعانوا الروم على الغزو في البحر بمراكب أعطوهم إياها ، فغزا معاوية أهل قبرس وفتحها عنوة وقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفاً فبنوا المساجد وبنى مدينة .

وفي تاريخ جنابي أن في سنة خمس وثلاثين ركب البحر أمير مصر عبدالله بن أبي سرح من الإسكندرية بقصد غزو القسطنطينية فاستقبلهم ملك الروم في ألف مركب وكان المسلمون في مئة مركب فالتقوا بأسكلة قنكة مغرب أنطاكية ، فرأى ملك الروم رؤيا عبرت له بتعبير مستخرج من الألفاظ التي رآها فجمعت وخرج منها حروف ترجمتها : لا تطلب الغلبة ، فلم يعمل بمقتضى ذلك بل استهان بالمسلمين وقاتلهم ففتح الله النصر للمسلمين ، وولّى الكفار هاربين فمنهم من غرق في البحر ومنهم من أخذه السيف ومنهم من أسر وغنم المسلمون كثيراً من مراكبهم ، ورجعوا إلى جزيرة رودس وشنوا الغارة وفتحوها في أسرع زمان وضربوا على من فيها الجزية وأعطوهم الأمان .

ذكر فتح رُودُس سنة ٣٥

وفي تاريخ ابن الأثير أن فتح رودس كان في سنة خمسٍ وثلاثين في خلافة معاوية فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ، وسيأتي ذكر ذلك ولعله فتح ثان .

بعد هذا الفتح انتهت الفتوحات التي كانت في خلافة عثمان رضي الله عنه ، ثم وقع الاختلاف بين المسلمين في شأن الأمراء إلى أن قتل عثمان رضي الله عنه شهيداً وقصته مشهورة لا حاجة لنا إلى ذكرها .

وكان استشهاده لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً ، وقيل إلا ثمانية أيام ، وقيل بل قتل أيام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة ، وقيل ثمانياً وثمانين ، وقيل تسعين ، ثم بويع علي رضي الله عنه ووقع الاختلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في قتلة عثمان وكانوا مجتهدين في طلب الحق ، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ ، فالمصيب له

أجران والمخطىء له أجر واحد فيجب الإمساك عما جرى بينهم وتأويله بأحسن التأويل وحمله على أحسن المحامل .

واستمر الحال إلى أن استشهد علي رضي الله عنه سبع عشرة خلت من رمضان سنة أربعين وعمره ثلاث وستون سنة ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

ثم بويع ابنه الحسن رضي الله عنه واستمر ستة أشهر .

ثم نزل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه حقناً لدماء المسلمين وتحقيقاً لقول النبي ﷺ : « إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فكان إجماع الصحابة على خلافة معاوية رضي الله عنه سنة إحدى وأربعين في ربيع الأول وقيل الآخر ، وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص على مصر ، وكان عقبة بن نافع بن عبد قيس على إفريقية فانتهى إلى لواتة ومزاتة فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبى ، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس فقتل وسبى .

وفتح في سنة ثلاث وأربعين كوراً من كور السودان وافتتح ودان وهي من برقة وافتتح عامة بلاد البربر وهو الذي اختط القيروان سنة خمسين ، وفي سنة اثنتين وأربعين أيضاً غزا المسلمون اللان وغزوا الروم أيضاً وهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم .

وفي سنة ثلاث وأربعين غزا بُسْر بن أبي أرطاة الروم وشَتَىٰ بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية ، وفيها أعاد معاوية عبدالله بن عامر على ولاية البصرة وجعل إليه ولاية خراسان وسجستان ، فاستعمل ابن عامر عبدالرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطي ، فكان يغزو البلد قد كفر أهله فيفتحه حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة تطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة ، ثم سار إلى بست ففتحها عنوة وسار إلى زران فهرب أهلها وغلب عليها ، ثم سار إلى خشك فصالحه أهلها ، ثم أتى الرخج فقاتلوه فظفر بهم وفتحها ، ثم سار إلى زابلستان وهي غَزْنَة وأعمالها فقاتله أهلها ، وقد كانوا نكثوا ففتحها وعاد إلى كابل ، وقد نكث أهلها ففتحها واستعمل ابن عامر على ثغر

السند عبدالله بن سوار العبدي ، فغزا القيقان فأصاب مغنماً ، ثم غزاهم مرة أخرى فاستنجدوا بالترك فقتلوه ، وكان كريماً لم يوقد أحداً في عسكره ناراً فرأى ذات ليلة ناراً فقال : ما هذه ؟ قالوا امرأة نفساء يعمل لها الخبيص فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام .

ذكر غزوة السند

وفي سنة أربع وأربعين دخل المسلمون مع عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وشتوا بها ، وغزا بسر بن أرطاة في البحر ، وغزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بنة والأهواز بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقُتلوا جميعاً .

وفي سنة ست وأربعين غزا الروم مالك بن عبدالله وشَتَىٰ في أرض الروم ، وقيل بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وقيل بل كان مالك بن هبيرة السكوني .

وفي سنة سبع وأربعين كان مشتى مالك بن هبيرة بأرض الروم غازياً ومشتى عبد الرحمن القيني بأنطاكية ، وفيها سار الحكم بن عمرو الغفاري ، وكان على خراسان ، إلى جبال الغور فغزاه من بها وكانوا قد ارتدوا فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا ، وكان المهلب بن أبي صفرة مع الحكم بخراسان وغزا معه بعض جبال الترك فغنموا وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق فعني الحكم بالأمر فولى المهلب الحرب فلم يزل يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك فقال له : إما أن تخرجنا من هذا المضيق أو لأقتلنك ، فقال له : أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق وسير الأثقال نحوه فإنهم يتجمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق فبادرهم إلى طريق أخرى فما يدركونكم حتى تخرجوا منه ، ففعل ذلك فسلم الناس بما معهم من الغنائم .

وفي سنة ثمان وأربعين كان على غزو المسلمين للروم في الشتاء عبد الرحمن القيني وفي الصيف عبدالله بن قيس الفزاري ، وغزا مالك بن عبيرة السكوني البحر ، وغزا عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر البحرين ، وغزا يزيد بن شجرة الرهاوي بأهل الشام في البحر .

ذكر غزوة القُسْطَنطينية

في سنة تسع وأربعين وقيل ثمان وأربعين سير معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم للغزو وجعل عليهم سفيان بن عوف الأزدي ، وكان في الجيش عبدالله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري ويزيد بن معاوية ، فأوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية واقتتل المسلمون والروم قتالاً شديداً واستشهد أبو أيوب رضي الله عنه ودفن بالقرب من سورها .

وفي سنة خمسين جهز معاوية بُسْر بن أرطاة وسفيان بن عوف الأزدي لأرض الروم وغزا فضالة بن عبيد الله الأنصاري في البحر ، وفي هذه السنة استعمل معاوية عقبة بن نافع الفهري على إفريقية وكان مقيماً ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، وله في تلك البلاد جهاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس فدخل إفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوه وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ، ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقصد موضع القيروان وكانت أجمة مشتبكة بها شيء كثير من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله تعالى وكان مستجاب الدعوة ومن أصحاب النبي ﷺ ، ثم نادى أيتها الحيات والسباع إنّا أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنّا فإنّا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل ورأى ذلك كثير من قبائل البربر فأسلموا ، وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم حتى كان دورها ثلاثة آلاف باع وستمئة باع ، وكان في أثناء عمارة المدينة المذكورة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها .

وفي سنة إحدى وخمسين كان على غزو المسلمين فضالة بن عبيد فشتى بالروم

وفي الصيف بُسْر بن أبي أرطاة ، وفي السنة المذكورة غزا بلخ الربيع بن زياد والحارث وكان على خراسان ففتحها صلحاً وكانت قد نقضت بعدما صالحهم الأحنف بن قيس ، وفتح الربيع أيضاً قهستان عنوة وقتل من بناحيتها من الأتراك وبقي منهم نيزك طرخان فقتله قتيبة بن مسلم في ولايته .

وفي سنة اثنتين كان على غزو المسلمين الروم سفيان بن عوف وبسر بن أبي أرطاة في الشتاء ، وفي الصيف محمد بن عبدالله الثقفي .

وفي سنة ثلاث وخمسين كان على الجيش في الشتاء عبدالرحمن بن أم الحكم الثقفي بالروم ، وفي هذه السنة فتحت رُودُس جزيرة في البحر فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ، ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم ، وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم ، فلما توفي معاوية أقفلهم ابنه يزيد وأخذ الجزية والخراج من أهلها .

وفي سنة أربع وخمسين كان على جيش المسلمين في غزوهم الروم محمد بن مالك شتاء ومعن بن يزيد السلمي صيفاً ، وفي هذه السنة فتح المسلمون جزيرة أرواد قرب القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أمية ، وفي هذه السنة أيضاً استعمل معاوية على خراسان عبيدالله بن زياد ، فسار إلى خراسان فقطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل في جيش ، وفتح رامَنِي ونَسَفَ وبِيكَنْد وهي من بخارى وغنم غنائم كثيرة ، ولما لقي الترك وهزمهم كان مع ملكهم زوجته فعجلوها عن لبس خُفَّيها فلبست أحدهما وبقي الآخر فأخذه المسلمون فقوم بمئتي ألف درهم .

وفي سنة خمس وخمسين كان على جيش المسلمين في الغزو شتاء عمرو بن محرز وقيل عبدالله بن قيس الفزاري .

وفي سنة ست وخمسين كان على جيش المسلمين في غزو الروم جنادة بن أبي أمية ، وغزا في البحر يزيد بن شجرة وفي البر عياض بن الحارث ، وفي هذه السنة استعمل معاوية على خراج خراسان وحربها سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما قدم خراسان قطع جيحون إلى سمرقند والصغد وهزم الكفار وفتح ترمذ صلحاً .

وفي سنة سبع وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم عبدالله بن قيس شتاء .

وفي سنة ثمان وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم مالك بن عبدالله الخثعمي وفي البحر عمرو بن يزيد الجهني وقيل جنادة بن أبي أمية .

وفي سنة تسع وخمسين كان على جيش المسلمين عمرو بن مرة الجهني بأرض الروم في البر وفي البحر جنادة بن أبي أمية ، وقيل لم يكن في البحر غزو هذه السنة ، وفي هذه السنة غزا المسلمون حصن كمخ من بلاد الروم ومعهم عمير بن الحباب السلمي ، فصعد عمير السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم فصعد المسلمون فكان الفتح بعمير وبذلك كان يفتخر .

وفي سنة ستين كانت غزوة لمالك بن عبيد الله في سورية ، وفي السنة المذكورة توفي معاوية رضي الله عنه .

وفي سنة إحدى وستين استعمل يزيد على خراسان سلم بن زياد فقدم خراسان وعبر نهر جيحون وكان معه المهلب بن أبي صفرة وكان مما يلي خوارزم مدينة يجتمع فيها كثير من ملوكهم ، وكان المسلمون يكاتبون أمراءهم بغزو تلك المدينة فيأبون عليها ، فألح المهلب على سلم وسأله التوجه إلى تلك المدينة فوجهه في ستة آلاف فحاصرهم فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين ألف ألف ، وكان في صلحهم يأخذ منهم عروضاً فكان يأخذ الرأس والدابة والمتاع بنصف ثمنه ، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف ، وغزا سلم سمرقند ووجه جيشاً إلى خجندة فهزموا واستعمل سلم أخاه يزيد على سجستان فغدر أهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد ، فسار إليهم يزيد بن زياد في جيش فاقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم كثير ، فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سير طلحة بن عبدالله الخزاعي وهو طلحة الطلحات ففدى أبا عبيدة بن زياد بخمسمئة ألف درهم ، وسار طلحة من كابل إلى سجستان والياً عليها فجبى المال وأعطى زواره ومات بسجستان ، وفيه يقول القائل :

رَحِمَ اللهُ أَعْظُماً دَفَنوها بِسِجِسْتانَ طَلْحَةَ الطَّلَحاتِ

ذكر غزوة عقبة بن نافع بلاد السوس وكثير من وقائع إفريقية

في سنة اثنتين وستين ترك بالقيروان عقبة بن نافع جنداً من الذراري والأموال ، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي ، وأحضر أولاده فقال إني قد بعت نفسي من الله

عز وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله وأوصى بما يفعل بعده ، ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وغنم منها غنائم كثيرة ، ودخل المنهزمون المدينة ، وحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم ، فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أَرَبَة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ورحل إلى تاهرت ، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير من المسلمين واقتتلوا قتالاً شديداً ، واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ، ثم إن الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ، ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق من الروم اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ، ثم سأله عن الأندلس فعظم الأمر عليه فسأله عن البربر فقال هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وهم بالسوس الأدنى وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد ، فسار عقبة إليهم نحو السوس الأقصى وهو مغرب طنجة فانتهى إلى أوائل البربر فلقوه في جمع كثير فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه ، وسار هو حتى وصل إلى السوس الأقصى ، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا ، وغنموا منهم وسبوا سبياً كثيراً ، وسار حتى بلغ ساليان ورأى البحر المحيط فقال : يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ، ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفاً منه ، واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس ، فنزله ولم يكن به ماء فلحق الناس عطش كثير وأشرفوا على الهلاك فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرس له الأرض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء فنادى عقبة في الناس فحفروا حسا كثيرة وشربوا فسمي ماء الفرس ، فلما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من الله وأنه لم يبق أحد يخشاه ، وسار إلى يهوذا لينظر إليها في نفر يسير ، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه وأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه ، ثم أرسل الروم إلى

كُسَيْلَة بن كرم البربري ليسرع لقتال عقبة فبادر إلى ذلك ، وكان كُسَيْلَة المذكور قد أسلم في مدة إمارة أبي المهاجر بإفريقية قبل عقبة وحسن إسلامه وهو من أكابر البربر وصحب أبا المهاجر ، فلما ولي عقبة عرفه أبو المهاجر محل كُسَيْلة وأمره بإكرامه فلم يقبل عقبة واستخف بكسيلة ، وأتى عقبة مرة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين فقال كسيلة هؤلاء فتياني وغلماني يكفوني المؤنة ، فشتمه وأمره بسلخها ، فقبح أبو المهاجر ذلك عند عقبة فلم يرجع فقال له : أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه ، فتهاون به عقبة فأضمر كُسَيْلَةُ الغدر ، فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا إلى كُسَيْلَة وأعلموه حاله ، وكان في عسكر عقبة وقد أضمر الغدر وأعلم الروم بذلك وأطمعهم ، فلما أرسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة ، فقال أبو المهاجر : عاجله قبل أن يقوى جمعه ، فزحف عقبة إلى كُسَيْلَة فتنحى كُسَيْلَة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما كثر جمعه قاتل عقبة فهزمه ، فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد ، وأسر محمد بن أوس الأنصاري في نفر يسير فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان ، فعزم زهير بن قيس البلوي على القتال وكان خليفة عقبة بالقيروان فخالفه جيش الصنعاني وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير إلى العود معهم ، فسار إلى برقة وأقام بها .

وأما كسيلة فاجتمع إليه جمع من أهل إفريقية ، وقصد إفريقية وبها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين فطلبوا الأمان من كُسَيْلَة فأمنهم ودخل القيروان واستولى على إفريقية وأقام بها .

وحصلت الفتنة بين عبدالملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، فلما قوي أمر عبد الملك أنفذ الجيوش إلى إفريقية ، وكتب إلى زهير بن قيس البلوي بولاية إفريقية ، فسار سنة تسع وستين إلى إفريقية بالجيوش فبلغ خبره إلى كسيلة ، فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال : قد رأيت أن أرحل إلى ممش فأنزلها فإن بالقيروان خَلْقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثبت هؤلاء من ورائنا فإذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيراً فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من إفريقية وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا ،

فأجابوه إلى ذلك ، ورحل إلى ممش ، وبلغ ذلك زهيراً فلم يدخل القيروان ، بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ، ثم رحل في طلب كسيلة ، فلما قاربه نزل وعَبَّأَ أصحابه وركب إليه ، فالتقى العسكران واشتد القتال وكثر القتل في الفريقين حتى آيس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك أكثر النهار ، ثم نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش ، وتبع المسلمون الروم والبربر فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا .

وفي هذه الواقعة ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم وعاد زهير إلى القيروان ، ثم إن زهيراً رأى بإفريقية مُلْكاً عظيماً فأبىٰ أن يقيم ملكاً وقال : إنما قدمت للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك ، وكان عابداً زاهداً ، فترك بالقيروان عسكراً وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة ، ورحل في جمع كثير يريد مصر .

وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة فاغتنموا خلوها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صِقلّيَة ، وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية إلى برقة ، فأخبر الخبر فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ورحل هو ومن معه وكان الروم كثيراً ، فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع فباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر الروم فقتلوا زهيراً وأصحابه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية .

ولما سمع عبدالملك بن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد وكان مشغولاً بما كان بينه وبين ابن الزبير ، فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه جهز جيشاً كثيراً ثم سيرهم إلى إفريقية واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان بن النعمان الغساني ولم يدخل إفريقية قط جيش مثله ، فلما ورد القيروان تجهز منها وسار إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها ، فلما وصل إليها كان بها من الروم والبربر مالا يحصى كثرة فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، فدخل حسان قَرْطاجَنَّة بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلاً ذريعاً وأرسل الجيوش فيما حوله فأسرعوا إليه خوفاً فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه ، ثم

بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في أصطفورة وبَنْزَرت وهما مدينتان فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة ، فصبر لهم المسلمون فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا وطئه ، وخافه أهل إفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة بونة فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا ، فلما صح الناس قال حسان : دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية ، فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة ؛ وكانت بربرية وهي بجبل أوراس ، وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة فسأل أهل إفريقية عنها فعظموا محلها وقالوا لها إن قتلتها لم تختلف البربر بعد عليك فسار إليها ، فلما قاربها هدمت حصن باغاية ظناً منها أنه يريد الحصون ، فلم يعرّجْ حسان على ذلك وسار إليها فالتقوا على نهر نيني واقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر منهم كثير وانهزم حسان ، ثم إنها أطلقت الأسرى سوى خالد بن يزيد القيسي وكان شريفاً شجاعاً فاتخذته ولداً ، فسار حسان حتى فارق إفريقية وأقام وكتب إلى عبد الملك بالمقام إلى أن يأتيه أمره فأقام بعمل برقة خمس سنين فسمي ذلك المكان قصور حسان إلى الآن .

وملكت الكاهنة إفريقية كلها وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم ، ثم سير إليه عبد الملك الجنود والأموال وأمره بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة ، فأرسل حسان رسوله سراً إلى خالد بن يزيد وهو عند الكاهنة بكتاب ليتعلم منه الأمور ، فكتب إليه خالد جوابه في رقعة يعرفه تفرق البربر ويأمره بالسرعة ، وجعل الرقعة في خبزة ، وعاد الرسول فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول ذهب ملكهم فيما يأكل الناس فطلب الرسول فلم يوجد فوصل إلى حسان وقد احترق الكتاب بالنار فعاد إلى خالد وكتب بما كتب أولاً وأودعه قربوس السرج فوصل إلى حسان فسار ، فلما علمت الكاهنة بمسيره إليها قالت العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ولا أرى إلا أن أخرب إفريقية حتى ييأسوا منها وفرقت أصحابها ليخربوها فخربوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال ، وهذا هو الحرب الأول لإفريقية ، فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها فسره

ذلك ، فسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء وجعل فيها عاملاً ، وسار إلى قفصة ليتقرب الطريق فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى القسطيلية ونفزاوة ، وبلغ الكاهنة قدومه فأحضرت ولدين لها وخالد بن زيد وقالت لهم إني مقتولة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم أماناً ، فساروا إليه وبقوا معه وسار حسان نحوها فالتقوا واقتتلوا أشد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء ، ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر وقتلوا قَتْلاً ذريعاً ، وانهزمت الكاهنة ثم أدركت فقتلت ، ثم إن البربر استأمنوا إلى حسان فأمنهم وشرط عليهم أن يكوّن منهم عسكراً مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو فأجابوه إلى ذلك فجعل على هذا العسكر ابني الكاهنة ، ثم فشا الإسلام في البربر وعاد حسان إلى القيروان وأقام لا ينازعه أحد إلى أن توفي عبد الملك سنة ست وثمانين ، فلما ولي ابنه الوليد ولّى إفريقية عمه عبد الله بن مروان وعزل حسان ثم استعمل الوليد على إفريقية موسى بن نصير سنة تسع وثمانين ، وسيأتي الكلام على غزواته .

ذكر صلح عبد الملك بن مروان لملك الروم

كانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية لحدوث الفتن بين المسلمين .

والصوائف الجيوش التي كانت تجهز في أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار ، واستمر ذلك من صدر الإسلام إلى أواخر الدولة العباسية .

ولما اشتدت الفتنة بين ابن الزبير وعبد الملك اجتمعت الروم سنة سبعين واستجاشوا على من بالشام من المسلمين ، فصالح عبد الملك ملكهم على أن يؤدي إليه كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين .

وفي سنة ثلاث وسبعين خرج الروم من ناحية أرمينية في ستين ألفاً وكان على أرمينية محمد بن مروان من قبل أخيه عبد الملك فقاتلهم وهزمهم وأكثر القتل فيهم .

وفي سنة أربع وسبعين استعمل عبد الملك على خراسان أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، فلما وصل أمية إلى كرمان استعمل ابنه عبدالله على سجستان ، فلما قدمها غزا ملك الترك رتبيل وكان رتبيل هائباً للمسلمين ، فلما وصل عبدالله إلى بست أرسل رتبيل يطلب الصلح وبذل ألف ألف وبعث إليه بهدايا ورقيق ، فأبى عبد الله قبول

ذلك وقال إن ملأ لي هذا الرواق ذهباً وإلا فلا صلح ، وكان غزا فَخَلّىٰ له رتبيل البلاد حتى أوغل فيها وأخذ عليه الشعاب والمضايق فطلب أن يخلي عنه وعن المسلمين ولا يأخذ منه شيئاً ، فأبى رتبيل ، وقال : بل يأخذ ثلاثمئة ألف درهم صلحاً ويكتب لنا كتاباً : لا يغزوا بلادنا ما كنت أميراً ولا يحرق ولا يخرب ، ففعل ذلك ، وبلغ ذلك عبد الملك فعزله .

وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان صائفة وكانت الروم خرجت من قبل مرعش وكذا في السنة التي بعدها .

وفي سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مُجَّاعَة بن سِعْرٍ التميميُّ من قبل الحجاج فغزا وفتح أماكن من قندابيل .

وفي سنة ست وسبعين غزا محمد بن مروان الروم من ناحية مَلَطْيَة .

وفي سنة سبع وسبعين غزا الصائفة الوليد بن عبد الملك .

وفي سنة ثمان وسبعين وَلّى الحجاج عبيدالله بن أبي بكرة سجستان وكان رتبيل ملك الترك مصالحاً وكان يؤدي الخراج وربما امتنع ، فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة يأمره بمناجزته وألاّ يرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله ، فسار عبيد الله في أهل البصرة وأهل الكوفة وكان على أهل الكوفة شريح بن هانيء وكان من أصحاب علي رضي الله عنه ، ومضى عبيدالله حتى دخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ما شاء وهدم حصوناً وغلب على أرض من أراضيهم وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضاً بعد أرض حتى أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً فأخذوا على المسلمين العقاب والشعاب فسقط في أيدي المسلمين فظنوا أن قد هلكوا فصالحهم عبيدالله على سبعمئة ألف درهم يوصلها إلى رتبيل ليمكن المسلمين من الخروج من أرضه فلقيه شريح فقال له إنكم لا تصالحون على شيء إلا حسبه السلطان من أعطياتكم ، وقد بلغت من العمر طويلاً وقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان وإن فاتتني اليوم الشهادة ما أدركها حتى أموت ، ثم قال شريح : يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوكم ، فقال له عبيد الله بن أبي بكرة : إنك شيخ قد خرفت . فقال له شريح : إنما حسبك أن يقال بستان عبيد وحمام عبيد ، يا أهل الإسلام من أراد منكم

الشهادة فإليّ ، فاتبعه ناس من المتطوعة وفرسان الناس وأهل الحفاظ فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلاً ، وقاتل شريح حتى قتل في أُناسٍ من أصحابه ونجا من نجا فخرجوا من بلاد رتبيل .

وفي هذه السنة أصاب أهل الروم أهل أنطاكية وظفروا بهم .

وفي سنة ثمان وسبعين عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وضمها لأعمال الحجاج فولّى على خراسان المهلب بن أبي صفرة .

ذكر غزوة المهلب ما وراء النهر حين كان والياً علىٰ خراسان

في سنة ثمانين قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش فأتاه ابن عم ملك الختل ودعاه إلى غزو الختل وكان اسم ملكهم الشبل ، فوجه المهلب مع ابن عم الملك ابنه يزيد بن المهلب فنزل يزيد ناحية ونزل ابن عم الملك ناحية فبيته الشبل وأخذه فقتله ، فحصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حملت إليه ورجع يزيد عنهم ووجه المهلب ابنه حبيباً فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً فنزل جماعة من العدو قرية ، فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسميت المحترقة ورجع حبيب إلى أبيه ، وأقام المهلب بكش سنتين فقيل له لو تقدمت إلى ما وراء ذلك فقال ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند ، وصالح المهلب أهل كش على فدية يأخذها منهم ، وأتاه كتاب ابن الأشعث بخلع الحجاج ويدعوه إلى مساعدته فبعث بكتابه إلى الحجاج وأقام بكش .

ذكر تسيير الجنود إلىٰ رُتْبِيل مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

قد تقدم ذكر حال المسلمين حين دخل ابن أبي بكرة بلاد رتبيل ، ثم استأذن الحجاج عبد الملك في تسيير الجنود نحو رتبيل فأذن له عبد الملك فأخذ الحجاج في تجهيز الجيش ، فجعل على أهل الكوفة عشرين ألفاً ، وعلى أهل البصرة عشرين ألفاً ، وجَدَّ في ذلك وأعطى الناس أعطياتهم كملاً ، وأنفق فيهم ألفي ألف سوى أعطياتهم ، وأنجدهم بالخيل الرائقة والسلاح الكامل ، وأعطى كل رجل يوصف بشجاعة وغَنَاء ، وكان يسمى جيش الطواويس لحسنه .

فلما فرغ من أمر الجند بعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بأمر من عبد الملك ، وكان الحجاج يبغض عبدالرحمن المذكور ، فسيَّره على ذلك الجيش طاعة لأمر عبد الملك ، فسار بهم حتى قدم سجستان ، وبلغ الخبر رتبيل فأرسل يعتذر ويبذل الخراج فلم يقبل منه ، فسار إليه ودخل بلاده وترك له رتبيل أرضاً أرضاً ورستاقاً رستاقاً وحصناً حصناً وعبد الرحمن يحوي ذلك ، وكلما حوى بلداً بعث إليه عاملاً وجعل معه أعواناً ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا جاز من أرض عظيمة وملأ الناس أيديهم من الغنائم العظيمة منع الناس من الوغول في أرض رتبيل ، وقال : نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها إن شاء الله تعالى ، ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد أن يعمل .

فلما أتى كتابه إلى الحجاج كتب جوابه ، إن كتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة ، وقد صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً وأحببت أن تكف عن ذلك العدو وتسخي النفس بمن أصيب من المسلمين فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ، ثم أردفه كتاباً آخر بنحو ذلك وفيه أما بعد : فمر من قِبَلَكَ من المسلمين فليحاربوا وليقيموا بها فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم ، ثم كتب كتاباً ثالثاً بذلك ويقول له : إن مضيت لما أمرتك به وإلا فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس ، فدعا عبد الرحمن الناس وقال لهم أيها الناس إني لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم في كل ما يحيط به نفعكم ناظر ، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضوه ذوو أحلامكم وأولي التجربة منكم وكتبت بذلك إلى أميركم الحجاج فأتاني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو وهي البلاد التي هلك بها إخوانكم بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وآبىٰ إذا أبيتم ، فثار إليه الناس وقالوا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع ، فكان أول من تكلم أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني وله صحبة رضي الله عنه ، فقال بعد حمد الله : أما بعد فإن الحجاج يرى بكم ما رأى القائل الأول احمل عبدك على الفرس فإن هلك فلك وإن نجا فلك ، وإن الحجاج ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلايا كثيرة ويغشى

اللهوب واللصوب فإن ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ولا يبقي عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا الأمير عبد الرحمن فإني أشهدكم أني أول خالع ، فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا قد خلعنا عدو الله ، وقام عبد الله المؤمن بن شبث بن رِبْعِيّ ، فقال : عباد الله إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود (التجمير حبس الجيش في أرض العدو من غير رجوع) فإنه بلغني أنه أول من جمر البعوث ولم تعاينوا الأحبة أو يموت أكثركم فيما أرى ، فبايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم الحجاج فانفوه عن بلادكم ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق ، وعلى النصرة لعبد الرحمن ولم يذكروا عبد الملك .

وجعل عبد الرحمن على بست عياضَ بن هميان الشيباني ، وعلى زرنج عبد الله بن عامر التميمي ، وصالح رتبيل على أن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقي وإن هزم فأراد منعه رجع إلى العراق ، وجعل عبد الرحمن على مقدمته عطية بن عمرو العنبري ، وجعل على كرمان حريبة بن عمرو التميمي ، فلما بلغ فارس اجتمع الناس بعضهم إلى بعض وقالوا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك فاجتمعوا إلى عبد الرحمن ، فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان بن أبجر من بني تيم الله بن ثعلبة قام فقال أيها الناس : إني خلعت أبا ذبان (كنية عبد الملك) كخلع قميصي ، فخلعه الناس إلا قليلاً منهم وبايعوا عبد الرحمن ، وكانت بيعته تبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين .

فلما بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبد الملك بخبر عبد الرحمن ويسأله أن يعجل بعثه بجنود إليه ، ولما بلغ المهلب خبر عبد الرحمن كتب إلى الحجاج من خراسان أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل ليس يرده شيء حتى ينتهي إلى قراره وإن لأهل العراق شدة في أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم فاتركهم حتى يسقطوا إلى أهاليهم ويشموا أولادهم ثم واقعهم عندها فإن الله ناصرك عليهم .

فلما قرأ كتابه شتمه وسبه وقال ما إليَّ نظر وإنما نظر إلى ابن عمه يعني عبد الرحمن لأن كلاًّ من المهلب وعبد الرحمن من قحطان ، ثم بعد وقوع بعض الوقائع بين الحجاج

وعبد الرحمن نظر في كتاب المهلب فاسْتَصْوَبَ ما قاله وقال لله دره أي صاحب حرب هو ! .

ولما وصل كتاب الحجاج لعبد الملك هاله ودعا خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه الكتاب فقال يا أمير المؤمنين إن كان الحدث من سجستان فلا تخفه وإن كان من خراسان فإني أتخوفه ، فجهز الجند إلى الحجاج على البريد من مئة ومن خمسين ومن أقل وأكثر ، وكُتُبُ الحجاج تتصل بعبد الملك كل يوم بخبر عبد الرحمن ، فنزل الحجاج البصرة ، ولما اجتمع الجند عنده سار من البصرة ليلقى عبد الرحمن ولم يتركهم حتى يسقطوا إلى أهاليهم كما كتب إليه المهلب فنزل تستر وقدم بين يديه مقدمة إلى دجيل فلقوا عنده خيلاً لعبد الرحمن فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد ، وكان ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين وقتل منهم جمع كثير .

فلما أتى خبر الهزيمة إلى الحجاج رجع إلى البصرة وتبعه أصحاب عبد الرحمن فقتلوا وأصابوا بعض أثقالهم ، وأقبل الحجاج حتى نزل الزاوية وجمع عنده الطعام وترك البصرة لأهل العراق فأقبل عبد الرحمن حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها قراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام ، ثم دخل عبد الرحمن ومن معه الكوفة وبايعه أهلها وصار له جيش يبلغ مئة ألف فيهم كثير من الصحابة وأبنائهم وعلماء التابعين وغيرهم ، وممن بايع عبد الرحمن وكان في جيشه سعيد بن جبير والشعبي وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وهؤلاء من كبار العلماء التابعين ، ومن الصحابة أبو طفيل عامر بن وائلة ، ووقع بينهم وبين جيوش الحجاج وقائع كثيرة في أكثرها كان النصر لجيوش عبد الرحمن ، ثم إن عبد الملك وأهل الشام قالوا إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه فإن عزله أيسر من حربهم ونحقن بذلك الدماء ، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان إلى الحجاج في جند كثيف وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يجريا عليهم أعطياتهم كما يجرى على أهل الشام وأن ينزل عبد الرحمن بن الأشعث أي بلد شاء من بلاد العراق فإذا نزله كان والياً عليه ما دام حياً وعبد الملك خليفة ، فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزل الحجاج وصار محمد بن مروان أمير العراق ، وإن أبى أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالي القتال ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في

طاعته ، فلم يأت الحجاج أمراً قط كان أشد عليه ولا أوجع لقلبه من ذلك فخاف أن يقبل أهل العراق عزله فيعزله عنهم ، فكتب إلى عبد الملك والله لو أعطيت أهل العراق نزعي لم يلبثوا إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جراءة عليك ، وذكر له أشياء مما فعله أهل العراق أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم قال له إن الحديد بالحديد يلمع ، فأبى عبد الملك إلا عرض عزله على أهل العراق ، فلما اجتمع عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان مع الحجاج خرج عبدالله بن عبد الملك وقال : يا أهل العراق أنا ابن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا ، وخرج محمد بن مروان وقال : أنا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا فذكر هذه الخصال ، فقالوا : نرجع العشية ، فرجعوا واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث ، فقال لهم : قد أعطيتم أمراً ، انتهازكم اليوم إياه فرصةٌ ، وإنكم اليوم على النصف ، فإن كانوا اعتدوا عليكم بيوم كذا فأنتم تعتدون عليهم بيوم كذا ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء ، القومُ لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقضون ، فوالله لا زلتم عليهم جراء ، وعندهم أعزاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم ، فوثب الناس من كل جانب فقالوا : إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة ، والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرخيص والمادة القريبة والله لا نقبل ، وأعادوا خلعه ثانية وأبلغوا ذلك عبدالله بن عبد الملك ومحمد بن مروان فقالا للحجاج : شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فإنا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع ، فقال : قد قلت إنه لا يراد بهذا الأمر غيركم ، فكانا يسلمان عليه بالأمرة . ويسلم عليهما بالأمرة .

ثم أعيد القتال واشتد الأمر ، وتفصيل ذلك يطول ، وجملة الأيام التي اقتتلوا فيها مئة يوم وثلاثة أيام ، ثم وقعت الهزيمة على أصحاب عبد الرحمن ، ثم رجع الحجاج إلى الكوفة وعاد محمد بن مروان إلى الموصل وعبدالله بن عبد الملك إلى الشام ، وأخذ الحجاج يبايع الناس الذين كانوا مع عبد الرحمن وكان لا يبايع أحداً إلا قال أشهد أنك كفرت فإن قال نعم بايعه وإلا قتله فأتاه رجل من خثعم كان معتزلاً للناس جميعاً فسأله عن حاله فأخبره باعتزاله ، فقال له : أنت متربص أتشهد أنك كافر ؟ قال : بئس الرجل أنا أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر قال إذن أقتلك قال وإن قتلتني ، فَقَتَله ، ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق إلا رحمه ، ثم أتي بعده بآخر فقال

الحجاج : أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال له الرجل : أتخادعني عن نفسي . أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ؟ فضحك منه وخلّى سبيله ، وأُتي بمحمد بن سعد بن أبي وقاص فقال له يا ظل الشيطان وأعظم الناس تيهاً وكبراً تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وعبدالله بن عمر ثم صرت مؤذناً لابن الأشعث وجعل يضرب رأسه بعود في يده حتى أدماه ثم أمر به فقتل ، ثم أتي بعمر بن موسى بن عبيدالله بن معمر فقال يا عبد المرأة يقوم بالعامود على رأسك ابن الحائك يعني ابن الأشعث وتشرب معه في الحمام ، فقال : أصلح الله الأمير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك وإن عاقبت عاقبت مذنبين ، فقال الحجاج : أما إنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعوفي منها الأبرار وأما اعترافك فعسى أنه ينفعك فرجا له السلام ثم أمر به فقتل ، وأتي الحجاج بأسيرين فأمر بقتلهما فقال أحدهما إن لي عندك يداً قال وما هي ؟ قال ذكر عبد الرحمن بن الأشعث يوماً أمك بسوء فنهيته ، قال ومن يعلم ذلك قال هذا الأسير الآخر ، فسأله الحجاج فصدقه فقال له الحجاج فَلِمَ لم تفعل كما فعل ؟ قال وينفعني الصدق عندك ؟ قال نعم ، قال منعني البغض لك ولقومك ، فقال خلوا عن هذه الفعلة وعن هذه الصدقة ، وقتل الحجاج يوم الهزيمة ممن قبض عليهم عشرة آلاف .

ولما انهزم أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث نادى منادي الحجاج من لحق بقتيبة بن مسلم الباهلي فهو آمن وكان قد ولى قتيبة الري وسار إليه فلحق به ناس كثير ، وكان منهم الشعبي فذكره الحجاج يوماً فسأل عنه فقالوا له إنه لحق بقتيبة بن مسلم بالري فكتب الحجاج إلى قتيبة يأمره بإرسال الشعبي فأرسله ، قال الشعبي : فلما قدمت على الحجاج لقيت يزيد بن أبي مسلم وكان صديقاً لي فاستشرته ، فقال : اعتذر مهما استطعت وأشار بمثل ذلك إخواني ونصحائي ، فلما دخلت على الحجاج فرأيت غير ما ذكروا لي فسلمت عليه بالأمرة ، وقلت أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق وَآيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق والله قد مردنا عليك وحرضنا وجهدنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا ، فقال الحجاج : أنت والله أحبُّ إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر

سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت وقد أمنت يا شعبي كيف وجدت الناس بعدنا ؟ فقلت : أصلح الله الأمير اكتحلت بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقد صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفاً ، قال : انصرف يا شعبي فانصرفت .

وأما سعيد بن جبير فإنه اختفى ثم هرب إلى خراسان وتنقل إلى أماكن كثيرة مختفياً ثم جاور بمكة ، فلما وَلي إمارة مكة خالد بن عبدالله القسري بعد موت عبد الملك ومبايعة ابنه الوليد قيل لسعيد بن جبير إن خالداً رجل سوء فلو سرت عن مكة ، فقال : والله لقد فررت حتى استحييت من الله ويستحبني ما كتب الله ، فلما قدم خالد مكة كتب له الوليد بحمل أهل العراق إلى الحجاج ، فأخذ سعيد بن جبير وأرسل مع حرسين فانطلق أحدهما لحاجة وبقي الآخر فقال لسعيد إني أبرأ إلى الله من دمك إني رأيت في منامي فقيل لي تبرأ من دم سعيد بن جبير فاذهب حيث شئت فإني لا أطلبك ، فأبى سعيد ، فرأى ذلك الحرسي تلك الرؤيا ثلاثاً ويأذن لسعيد في الذهاب وهو لا يفعل ، فقدموا به الكوفة فأنزل في داره وأتاه قراء الكوفة فجعل يحدثهم وهو يضحك وبنية له في حجره ، فلما نظرت إلى القيد في رجله بكت ثم أدخلوه على الحجاج ، فلما أُتِيَ به أقبل عليه فقال : يا سعيد ألم أشركك في إمارتي ألم أفعل بك كذا ألم أستعملك ؟ قال : بلى ، قال : فما أخرجك علي ؟ قال : إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطىء مرة ويصيب أخرى ، فطابت نفس الحجاج ثم عادوه في شيء ، فقال : إنما كانت بيعة في عنقي ، فغضب الحجاج وانتفخ وقال : يا سعيد ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى ، قال : ثم قدمت الكوفة والياً فجددت البيعة فأخذت بيعتك لأمير المؤمنين ثانية ؟ قال : بلى ، قال : فنكثت بيعتين وتُوفِي بواحدة للحائك بن الحائك والله لأقتلنك ، قال : إني إذن لسعيد كما سمتني أمي ، فأمر به فضربت عنقه ، فلما سقط رأسه هلل ثلاثاً ، فلما قتل التبس عقل الحجاج فجعل يقول : قيدونا قيدونا فظنوا أنه يريد القيود فقطعوا رجلي سعيد من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود ، وكان الحجاج إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول : يا عدو الله فيم قتلتني ؟ فيقول : مالي ولسعيد بن جبير مالي ولسعيد بن جبير ، وعاش الحجاج أياماً ثم هلك بعده .

قال الإمام الشعراني في الطبقات : قتل في شعبان وتوفي الحجاج في رمضان وكان بينهما خمسة عشر يوماً .

وفي تاريخ ابن خلكان أن الحجاج رؤي في النوم بعد موته فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال : قتلني بكل قتيل قتلته قتلة وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة ، وكان عُمْر سعيد بن جبير سبعاً وأربعين سنة وقيل سبعاً وخمسين ، قيل إن سعيد بن جبير قال : اللهم لا تسلطه على أحد بعدي فلم يقتل أحداً بعده .

قال الإمام أحمد : قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه ، وكان قتله سنة أربع وتسعين وقيل خمس وتسعين ، فبين قتله وانتهاء فتنة ابن الأشعث إحدى عشرة سنة فقد كان ابتداء فتنة ابن الأشعث سنة إحدى وثمانين وانتهاؤها سنة ثلاث وثمانين .

وأما ابن الأشعث فإنه لما انهزمت جيوشه سار إلى رتبيل ملك الترك فأكرمه وآواه ، ثم أرسل إليه الحجاج ، يتوعده ويتهدده فقتله وبعث برأسه إلى الحجاج ، وقيل بل أصابه مرض فمات فقطع رأسه وأرسله للحجاج فبعث به إلى عبد الملك فطيف به في الشام ليريه الناس ثم أرسله لأخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فطيف به في مصر ، وكان ذلك سنة خمس وثمانين .

فتح قالِي قَلاَ

في سنة إحدى وثمانين سير عبد الملك بن مروان ابنه عبيدالله في جيش ففتح قالي قلا ، وفي هذه السنة هجم جماعة من الديلم على قزوين فتصايح الناس وأغلقوا الأبواب وقاتلوهم قتالاً عظيماً وظفر المسلمون بهم فلم يفلت منهم أحد ، وفي هذه السنة كان يزيد بن المهلب في مفازة بست في ستين فارساً فلقيهم خمسمئة من الترك فقاتلوهم قتالاً شديداً فقتلوا كثيراً من الترك إلى أن انهزموا .

وفي سنة اثنتين وثمانين توفي المهلب واستخلف على خراسان ابنه يزيد فأقره الحجاج .

وفي سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك بباذغيس بعد حصار وقتال

فملكها وما فيها من الأموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها ، وكان نيزك إذا رآها سجد لها معظماً لها ، وفي هذه السنة غزا عبيدالله بن عبد الملك الروم ففتح المصيصة وبنى حصنها ووضع بها ثلاثمئة مقاتل من ذوي البأس ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك وبنى مسجدها ، وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان أرمينية فهزمهم ثم سألوه الصلح فصالحهم .

وفي سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب وولى أخاه الفضل بن المهلب ، فغزا باذغيس وأصاب مغنماً فقسمه فأصاب كل رجل ثمانون ، ثم غزا أخرون (اسم بلد) وشومان فغنم وقسم ما أصاب ، ولم يكن للفضل بيت مال فكان يعطي الناس كلما جاءه شيء وإن غنم شيئاً قسمه فيهم ، وفي هذه السنة غزا محمد بن مروان أرمينية فصاف بها وشتى .

وفي سنة ست وثمانين توفي عبدالملك بن مروان وولي ابنه الوليد ، فأبقى الحجاج وَوَلَّى هذا خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي ؛ وباهلة بن قيس عيلان بن مضر ، وعزل الفضل ، وافتتح قتيبة خوارزم وسمرقند وبخارى ، وقد كانوا كفروا بعد فتحها الأول وبلغ ما لم يبلغه المهلب ولا غيره ، فجهز قتيبه عند قدومه الجيوش للغزو ، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين بلخ وساروا معه ، فقطع النهر فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه إلى بلده ، فمضى معه فسلمها إليه لأن ملك أخرون وشومان كان يسيء جواره ، ثم سار قتيبة إلى أخرون وشومان وهما من طخارستان ، فصالحه ملكها على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة ، ثم انصرف إلى مرو (إحدى قواعد إقليم خراسان الأربع وهي مَرْوُ وهَراةُ وبَلْخُ وياسور) واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت وهي من فرغانة ، وفتح أَخْسِيكَث وهي مدينة فرغانة القديمة .

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم . وفي سنة سبع وثمانين كتب قتيبة إلى نيزك طرخان صاحب باذَغِيس أن يطلق من عنده من أسرى المسلمين ، وكتب إليه يتهدده فخافه نيزك فأطلق الأسرى وبعث بهم إليه ، وكتب له قتيبة مع سليم الناصح مولى عبيدالله بن أبي بكر يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه ، وكتب إليه يحلف بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطالبنه حيث كان حتى يظفر به أو يموت دونه ، فقدم

بالكتاب ، فقال له نيزك وكان يستنصحه : يا سليم ما أظن عند صاحبك خيراً كتب إليَّ كتاباً لا يكتب إلى مثلي ، فقال له سليم : إنه رجل شديد في سلطانه ، سهل إذا سوهل صعب إذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابك إليك فأحسن حالك عنده ، فعقد الصلح لأهل باذغيس على ألاّ يدخلها قتيبة .

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم فقتل منهم عدداً كثيراً بسوسنة من ناحية المصيصة ، وقيل إن الذي غزا في هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بواق وحصن الأخرم وحصن بولس وقمقم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبى ذريتهم ونساءهم .

ذكر غزوة قتيبة بِيكَنْد

كانت غزوة بيكند سنة سبع وثمانين وهي أدنى مدائن بخارى ، سار إليهم قتيبة بجيوشه ، فلما نزل بهم واستنصر الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه خبر شهرين ، وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وهم يقتتلون كل يوم ، وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تنذر فأعطاه أهل بخارى مالاً ليرد عنهم قتيبة فأتاه سراً من الناس وقال له إن الحجاج قد عزل وأتى عامل إلى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح فأمر به فقتل خوفاً من أن يظهر الخبر فيهلك الناس ، ثم أمر الصحابة بالجدّ في القتال فقاتلهم قتالاً شديداً فانهزم الكفار يريدون المدينة ، وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاؤوا ، وتحصن من دخل المدينة بها فوضع قتيبة الفعلة ليهدم سورها فسألوه الصلح فصالحهم ، واستعمل عليهم عاملاً وارتحل عنها يريد الرجوع ، فلما سار خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه فرجع قتيبة فنقب سورهم فسقط ، فسألوه الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل ما كان من المقاتلة ، وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل أعور هو الذي استجاش الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة : أفدي نفسي بخمسة آلاف جريرة قيمتها ألف ألف ، فاستشار قتيبة الناس فقالوا : هذا زيادة في الغنائم ، وما عسى أن يبلغ كيد هذا ؟ قال : لا والله لا يُرَوَّع بك مسلم أبداً فأمر به فقتل ، وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصر

ولا أصابوا بخراسان مثله ، فقوي المسلمون ، فلما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع إلى مرو .

ذكر فتح طُوَانة من بلد الروم

في سنة ثمان وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلد الروم ، وكان الوليد قد كتب إلى صاحب أرمينية يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يعرفه أن الخزر وغيرهم من ملوك جبال أرمينية قد أجمعوا على قصد بلاده ففعل ذلك ، وقطع الوليد البعث على أهل الشام إلى أرمينية وأكثروا وعظم جهازه ، وساروا نحو الجزيرة ، ثم عطفوا منها إلى بلد الروم فاقتتلوا هم والروم ، فانهزم الروم ، ثم رجعوا ، فانهزم المسلمون ، فبقي العباس في نفر منهم ابن محيريز الجمحي ، فقال له العباس أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ فقال ابن محيريز : نادهم يأتوا ، فنادى العباس : يا أهل القرآن ، فأقبلوا جميعاً فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة وحصرهم المسلمون وفتحوها ، قيل وفي هذه السنة أيضاً غزا مسلمة بن عبد الملك الروم أيضاً ففتح ثلاثة حصون أحدها حصن قسطنطين وغزالة وحصن الأخرم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وأخذ الأموال .

ذكر غزوة نُومشكث ورامثنة

في هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم نومشكث واستخلف على مرو أخاه يسار بن مسلم ، فتلقاه أهلها فصالحهم ، ثم سار إلى رامثنة فصالحه أهلها وانصرف عنهم ، وزحف إليه الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة في مئتي ألف وملكهم ابن أخت ملك الصين فاعترضوا المسلمين فلحقوا عبدالرحمن بن مسلم أخا قتيبة وهو على الساقة بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل ، فلما قربوا منه أرسل إلى قتيبة يخبره وأدركه الترك فقاتلوه ، ورجع قتيبة فانتهى إلى عبد الرحمن وهو يقاتل الترك وقد كاد الترك يظهرون عليه ، فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم وقاتلوا إلى الظهر وأبلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة ، فانهزم الترك ورجع قتيبة فقطع النهر عند ترمِذ وأتى مرو .

وفي سنة تسع وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد الروم ، فافتتح مسلمة حصن عمورية وفتح العباس أذرولية ولقي من الروم جمعاً فهزمهم ، وقيل إن

مسلمة قصد عمورية فلقي بها جمعاً من الروم كثيراً ، فهزمهم وافتتح هرقلة وقلونية ، وغزا العباس الصائفة من ناحية البذندون .

ذكر غزوة قتيبة بخارىٰ

في هذه السنة أتى قتيبة كتاب الحجاج يأمره بقصد وردان خذاه ، فعبر النهر من زم ، فلقي الصغد وأهل كش ونسف في الطريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ، ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان ، فلقوه في جمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين فظفر بهم ، وغزا وردان خذاه ملك بخارى فلم يظفر بشيء ، فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج يخبره ، فكتب إليه الحجاج : أَنْ صَوِّرْها ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج أَنْ تُبْ إلى الله جل ثناؤه مما كان منك وأْتِها من مكان كذا وكذا ، وكتب إليه أن كسَّ بكش وانسُفْ نَسَف ورِدْ وردان وإياك والتحويط ودعني وثنيات الطريق .

فلما ورد الكتاب على قتيبة خرج غازياً سنة تسعين ، فاستجاش وردان خذاه بالصغد والترك ومن حوله فأتوه وقد سبق إليها قتيبة فحصرها ، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إلى المسلمين يقاتلونهم ، فقالت الأزد : اجعلونا ناحية وخلّوا بيننا وبين قتالهم ، فقال قتيبة : تقدموا ، فتقدموا ، وقاتلوهم قتالاً شديداً ، ثم إن الأزد انهزموا حتى دخلوا المعسكر وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فَكَرّوا راجعين ، فانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم ، فوقف الترك على نشز ، فقال قتيبة : من يزيلهم عن هذا الموضع ؟ فلم يقدم عليهم أحد من العرب ، فأتى قتيبة بني تميم فقال لهم : يوم كأيامكم ، فأخذ وكيع بن حسان بن قيس التميمي اللواء وقال : يا بني تميم أتسلمونني اليوم ؟ قالوا لا يا أبا مطرف ، وكان هريم بن أبي طلحة على خيل تميم ووكيع رأسهم فقال وكيع : يا هريم قَدّمْ خيلك ، ودفع إليه الراية فتقدم هريم وتقدم وكيع في الرجالة فانتهى هريم إلى نهر بينهم وبين الترك فوقف ، فقال وكيع : تَقَدَّمْ يا هريم ، فنظر هريم نظر الجمل الهائج الصائل وقال أأقحم الخيل هذا النهر فإن انكشفت كان هلاكها يا أحمق ؟ فقال وكيع يا ابن اللخناء أترد أمري فحذفه بعمود كان

معه فعبر هريم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فعمل عليه جسراً من خشب ، وقال لأصحابه : من وَطَّن نفسه على الموت فليعبر وإلا فليثبت مكانه ، فما عبر معه إلا ثمانمئة رجل ، فلما عبر بهم ودنا من العدو قال لهريم ائتِ مطاعنهم فاشغلهم عنا بالخيل ، فحمل عليهم حتى خالطهم وحمل هريم في الخيل فطاعنهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أحدروهم من التل ، ونادى قتيبة : ما ترون العدو منهزمين ؟ فلم يعبر أحد النهر حتى انهزموا وعبر الناس ، ونادى قتيبة من أتى برأس فله مئة ، فأتي برؤوس كثيرة فجاء يومئذ أحد عشر رجلاً من بني قريع كل رجل برأس فيقال له من أنت ؟ فيقول قريعي ، فجاء رجل من الأزد برأس فقيل له من أنت ؟ فقال قريعي فعرفه جهم بن زحر فقال كذب والله إنه أزدي فقال له قتيبة : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال رأيت كل من جاء يقول قريعي فظننت أنه ينبغي لكل من جاء برأس أن يقوله ، فضحك قتيبة . وجرح خاقان وابنه وفتح الله عليهم وكتب بالفتح إلى الحجاج .

ذكر صلح قتيبة مع الصُّغْد

لما أوقع قتيبة بأهل بخارى هابه الصغد فرجع طرخون ملكهم ومعه فارسان فدنا من عسكر قتيبة وطلب رجلاً يكلمه ، فأرسل إليه قتيبة حيان النبطي ، فطلب الصلح على فدية يؤديها إليهم ، فأجابه قتيبة إلى ما طلب ورجع طرخون إلى بلاده ورجع قتيبة ومعه نيزك .

ذكر غدر نَيْزَك وفتح الطَّالَقَان

لما رجع قتيبة من بخارى ومعه نيزك وقد خاف لما يرى من الفتوح فقال لأصحابه : أنا مع هذا يعني قتيبةَ ولست آمنه فلو استأذنته ورجعت كان الرأي ، قالوا : افعل ، فاستأذن قتيبة فأذن له وهو بآمُل فرجع يريد طخارستان وأسرع السير حتى أتى النوبها وقال لأصحابها : لا أشك أن قتيبة قد ندم على إذنه وسيبعث إلى المغيرة بن عبدالله يأمره بحبسي ، وندم قتيبة على إذنه له فأرسل إلى المغيرة يأمره بحبس نيزك ، وسار نيزك وتبعه المغيرة فوجده قد دخل شعب خلم فرجع المغيرة وأظهر نيزك الخلع وكتب إلى أَصْبَهْبُذ بلخ وإلى باذان ملك مرو الروذ ، وإلى ملك الطالقان وإلى ملك الفرياب ، وإلى ملك الجوزجان ، يدعوهم إلى خلع قتيبة فأجابوا فواعدهم الربيع أن يجتمعوا

ويغزوا قتيبة ، وكتب إلى كابل شاه يستظهر به وبعث إليه بثقله وماله وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه فأجابه إلى ذلك ، وكان جبغويه ملك طخارستان ضعيفاً فأخذه نيزك فقيّد بقيد من ذهب لئلاّ يخالف عليه ، وكان جبغويه هو الملك ونيزك عبده فاستوثق منه وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه ، وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرق الجند ، فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثني عشر ألفاً إلى البروقان وقال : أقم بها ولا تحدث شيئاً فإذا انقضى الشتاء سر نحو طخارستان واعلم أني قريب منك ، فسار ، فلما كان آخر الشتاء كتب قتيبة إلى نيسابور وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود فقدموا قبل أوانهم ، فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد خلع وطابق نيزك على الخلع فأتاه قتيبة فأوقع بأهل الطالقان فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سِمَاطَيْن أربعة فراسخ في نظام واحد ، ثم استعمل على الطالقان أخاه عمر بن مسلم ، ثم سار إلى الفارياب فخرج إليه ملكها مذعناً فقبل منه ولم يقتل بها أحداً ، واستعمل عليها رجلاً من أهله .

وبلغ ملك الجُوزَجَان خبرهم فهرب إلى الجبال ، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين فقبل منهم ولم يقتل أحداً ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني ثم أتى بلخ فلقيه أهلها فلم يقم بها إلا يوماً واحداً وسار يتبع أخاه عبد الرحمن إلى شعب خلم ، ومضى نيزك إلى بغلان ، وخلف مقاتلة على فم الشعب ومضائقه ليمنعوه ووضع مقاتلته في قلعة حصينة من وراء الشعب فأقام قتيبة أياماً يقاتلهم على مضيق الشعب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقاً يسلكه إلى نيزك إلا الشعب أو مفازه لا تحتملها العساكر فبقي متحيراً ، فقدم إنسان فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة التي من وراء الشعب ، فأمنه قتيبة وبعث معه رجالاً فانتهى بهم إلى القلعة من وراء شعب خلم فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم ، وهرب من بقي منهم ومن كان في الشعب ، فدخل قتيبة الشعب فأتى القلعة ومضى إلى سِمِنْجَان فأقام بها أياماً ، ثم سار إلى نيزك وقدم أخاه عبد الرحمن ، فارتحل نيزك من منزله فقطع وادي فرغانة ووجه ثقله وأمواله إلى كابُل شاه ، ومضى حتى نزل الكرز وعبد الرحمن يتبعه ، فنزل عبد الرحمن حذاء الكرز ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان ، فتحصن نيزك في الكرز وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد وهو صعب لا تطيقه الدواب ، فحصره قتيبة شهرين حتى قل ما في يد نيزك من الطعام وأصابهم الجدري وجدر جبغويه ، وخاف قتيبة الشتاء

فدعا سليماً الناصح وكان يصادق نيزك فقال انطلق إلى نيزك واحتل لتأتيني به من غير أمان فإن احتال وأبى فَأَمِّنه واعلم أني إن عاينتك وليس هو معك صلبتك ، قال : فاكتب إلى عبد الرحمن لا يخالفني ، فكتب إليه فقدم عليه فقال له ابعث رجالاً ليكونوا على فم الشعب فإذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب ، فبعث عبد الرحمن خيلاً فكانت هناك وحمل سليم معه أطعمة وأخبصة أوقاراً وأتى نيزك فقال له : إنك أسأت إلى قتيبة وغدرت ، قال نيزك : فما الرأي ؟ قال أرى أن تأتيه فإنه ليس ببارح وقد عزم على أن يشتو مكانه هلك أو سلم ، قال نيزك : كيف آتيه على غير أمان ؟ قال : ما أظنه يؤمّنك لما في نفسك عليك لأنك قد ملأته غيظاً ولكني أرى ألاّ يعلم حتى تضع يدك في يده فإني أرجو أن يستحيي ويعفو ، قال : إني أرى نفسي تأبى هذا وهو إن رآني قتلني ، فقال سليم : ما أتيتك إلا لأشير عليك بهذا ولو فعلت لرجوت أن تسلم وتعود حالك عنده فإذا أبيت فإني منصرف ، وقدم سليم الطعام الذي معه ولا عهد لهم بمثله فانتهبه أصحاب نيزك فساءه ذلك ، فقال له سليم : إني لك من الناصحين أرى أصحابك قد جهدوا وإن طال بهم الحصار لم آمنهم أن يستأمنوا بك فَأْتِ قتيبة ، فقال : لا آمنه على نفسي ولا آتيه إلا بأمان وإنّ ظني أن يقتلني وإن أمنني ولكن الأمان أعذر إليّ .

قال ابن خلدون ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب وهو يمتنع حتى قال : وإنه قد أمنك ، وقوله ولم يزل إلخ ، هو مثل من أمثال العرب يضرب في الخداع والمماكرة اهـ ميداني .

فقال سليم : قد أمنك أفتتهمني ؟ قال لا ، وقال له أصحابه ، اقبل قول سليم فلا يقول إلا حقّاً ، فخرج معه ومع جبغويه وصول طرخان خليفة جبغويه ، وحبس طرخان صاحب شرطته وشقران ابن أخي نيزك ، فلما خرجوا من الشعب عطف الخيل التي خلفها سليم فحالوا بين الأتراك أصحاب نيزك والخروج فقال نيزك : هذا أول الغدر ، قال سليم : تخلّف هؤلاء عنك خير لكُ ، وأقبل سليم ونيزك ومن معه حتى دخلوا على قتيبة فحبسهم وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك ، واستخرج قتيبة ما كان في الكرز من متاع ومن كان فيه ، فقدم به على قتيبة فانتظر بهم كتاب الحجاج فأتاه كتابه بعد أربعين يوماً يأمره بقتل نيزك ، فدعا قتيبة الناس واستشارهم في قتله واختلفوا فقال

ضرار بن حصين : إني سمعتك تقول أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله فإن لم تفعل فلا ينصرك الله عليه أبداً ، فدعا نيزك فضرب عنقه بيده وأمر بقتل صول وابن أخي نيزك ، وقتل من أصحابه سبعمئة وقتل اثني عشر ألفاً وصلب نيزك وابن أخيه وبعث برأسه إلى الحجاج ، وأخذ الزبير مولى عباس الباهلي حقاً لنيزك فيه جوهر فكان أكثر من بلاده مالاً وعقاراً من ذلك الجوهر ، وأطلق قتيبة جبغويه ومَنَّ عليه وبعث به إلى الوليد فلم يزل بالشام حتى مات الوليد ، فلما قتل قتيبة نيزك رجع إلى مرو ، وأرسل ملك الجوزجان يطلب الأمان فأمّنه على أن يأتيه ، فطلب رهناً ويعطي رهائن فأعطاه قتيبة حبيب بن عبدالله بن حبيب بن محمد وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته وقدم على قتيبة ثم رجع فمات بطالقان ، فقال أهل الجوزجان إنهم سموه فقتلوا حبيباً وقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده وذلك سنة إحدى وتسعين .

ذكر قتل ذاهر ملك السند وفتح السند

قد تقدم ذكر أول غزو المسلمين في السند في سنة ثلاث وأربعين في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وأن عبدالله بن عامر استعمل على ثغر السند عبدالله بن سوار العبدي ، وفي سنة أربع وأربعين غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند عاملاً للحكم بن عمرو الغفاري حين كان على خراسان .

وفي سنة خمس وسبعين كان على خراسان .

وفي سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن مسعر التميمي من قبل الحجاج .

وفي سنة تسع وثمانين تم فتح بقية السند للمسلمين على يد محمد بن القاسم بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ابن عم الحجاج لأن الحجاج هو ابن يوسف بن الحكم فيجتمع هو والحجاج في الحكم بن أبي عقيل .

وَلَّى الحجاج محمد بن القاسم المذكور واستعمله على ذلك الثغر وسيّر معه ستة آلاف مقاتل وجهزه بكل ما يحتاج إليه حتى المسالّ والإبر والخيوط ، فسار محمد إلى مركان فأقام بها أياماً ثم أتى فنزبور ففتحها ، ثم سار إلى أرمائيل ففتحها ، ثم سار إلى الديبل فقدمها يوم الجمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة ، فخندق

حين نزل الديبل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقاً يقال له العروس كان يمد به خمسمئة رجل ، وكان بالديبل بدٌّ عظيم ؛ والبد صنم في بناء عظيم ، وكان تحت منارة عظيمة مرتفعة ، وفي رأس المنارة دقل عظيم ، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبّت الريح أطافت بالمدينة ، وكانت تدور وكل ما يعبد فهو عندهم بد ، فحصر الديبل وطال حصارها فرمى الدقل بحجر العروس فكسره فتطير الكفار بذلك ثم خرجوا إليه فناهضهم القتال فهزمهم حتى ردهم إلى البلد ، وأمر بالسلاليم فنصبت فصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل فيها ثلاثة أيام ، وهرب عامل ذاهر ملك السند عنها وأنزلها محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها ، وسار عنها إلى البِيْرون ، وكان أهلها بعثوا إلى الحجاج فصالحوه ، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم ، ثم سار عنها فجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهراً دون مهران ، فأتاه أهل سربيلس فصالحوه ووظف عليهم الخراج ، ثم عبر نهر مهران واستعد ملك السند لمحاربته واسمه ذاهر بن صعصعة ، ثم عقد الجسر على النهر فقاتله ذاهر وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة وهم قواد السند ، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع بمثله ، وترجّل ذاهر فقاتل حتى قتل عند المساء ، ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا ، فلما قتل ذاهر لحقت امرأة ذاهر بمدينة رور ، فساروا إليها وخافته فأحرقت نفسها وجواريها ، وملك المدينة ولحق المنهزمون بمدينة برهمناداباد العتيقة ففتحها عنوة وقتل من وجد بها وخربها ، ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة وقطع نهر بباس إلى الملتان فحاصرها وقطع الماء عنها ، فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وقتل سدنة البد وهم ستة آلاف وأصابوا ذهباً كثيراً فجمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه من كوة في وسطه وسميت الملتان فرج بيت الذهب ؛ والفرج الثغر .

وكان بدُّ الملتان يهدى إليه الأموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون أنَّ صنمه هو أيوب النبي ﷺ .

وعظمت فتوح بن محمد بن القاسم ونظر الحجاج في النفقة على ذلك الثغر فكان ستين ألف ألف درهم ، ونظر في الخمس الذي حمل إليه فكان مئة ألف ألف وعشرين ألف ألف ، فقال : ربحنا النصف وهو ستون ألف ألف وأدركنا ثأرنا ورأس ذاهر .

ولما مات الحجاج سنة خمس وتسعين وكان محمد بن القاسم بالملتان فأتاه خبر

وفاته فرجع إلى الرور والبغرور وكان قد فتحهما فأعطى الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة ثم أتى محمد الكيرج فخرج إليه دوهر فقاتله فانهزم دوهر وقيل بل قتل ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى .

ومات الوليد بن عبد الملك ووَلي أخوه سليمان فعزل محمد بن القاسم عن السند وولاها يزيد بن أبي كبشة السكسكي فأخذ محمداً وقيّده وحمله إلى العراق فبكى أهل السند على محمد ، فلما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط فعذبه صالح ثم قتله ، وكان الحجاج قتل آدم أخا صالح وكان يرى رأي الخوارج ، ومات يزيد بن أبي كبشة بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً ، واستعمل سليمان بن عبد الملك على السند حبيب بن المهلب فقدمها وقد رجع ملوك السند إلى ممالكهم وغلبوا عليها ، فنزل حبيب على شاطىء مهران فأعطاه أهل الرور الطاعة وحارب قوماً فظفر بهم ثم مات سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن تملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فأسلم جيشبة بن ذاهر والملوك ، وتسمّوا بأسماء العرب ، وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر بن عبد العزيز على ذلك الثغر .

ذكر غزو الهند وفتحه

لما كان عمرو بن مسلم الباهلي عاملاً لعمر بن عبد العزيز على السند غزا بعض الهند فظفر ، ثم إن الجنيد بن عبد الرحمن المري ولي السند أيام هشام بن عبد الملك ، فأتى الجنيد شط مهران فمنعه جيشبة بن ذاهر العبور وأرسل إليه إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح بلادي ولست آمنك فأعطاه رهناً وأخذ منه رهناً على خراج بلاده ثم ارتدوا وكفر جيشبة وحارب ، وقيل إنه لم يحارب ولكن الجنيد تجنى عليه فأتى الهند وجمع جموعاً ، وأعد السفن ، واستعد للحرب ، فسار إليه الجنيد بالسفن فالتقوا في بطيحة ، فأخذ جيشبة أسيراً فقتله وهرب صصة بن ذاهر وهو يريد أن يمضي إلى العراق ويشكو غدر الجنيد فلم يزل الجنيد يؤنسه حتى وضع يده في يده فقال وكان ذلك سنة سبع ومئة .

وغزا الجنيد الكيرج من آخر الهند وكانوا قد نقضوا فاتخذ كباشاً وشك بها سور

المدينة ؛ والكباش آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الحبل فتدق الحائط فينهدم ، فلما شَكَّ السور بالكباش ثَلَمَه فدخلها ، فقتل وسبى ووجه العمال إلى المرمذ والمنذل ، ودهنج وبرونج ، وبعث جيشاً إلى أزين فأغاروا عليها وحرقوا ربضها وفتح البيلمان وحصل عنده سوى ما حمل أربعون ألف ألف وحمل مثلها ، وولّى الجنيد الهند تميم بن زيد القيني فضعف ووهن ثم مات ، وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم ، ثم ولى الحكم بن عوام الكلبي وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة فبنى مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين ، وكان معه عمر بن محمد بن القاسم الثَّقفي وكان يفوض إليه عظيم الأمور فأغزاه من المحفوظة ، فلما قدم عليه وقد ظفر أمره فبنى مدينة سماها المنصورة فهي التي ينزلها الأمراء واستخلص ما كان قد غلب عليه العدو ورضي الناس بولايته ، ثم قتل الحكم وكان العمال يقاتلون العدو فكانوا يفتتحون ناحية ويأخذون ما تيسر لهم لضعف الدولة الأموية بعد ذلك إلى أن جاءت الدولة العباسية .

ذكر فتوحات موسىٰ بن نصير بإفريقية

في سنة تسع وثمانين استعمل الوليد على إفريقية موسى بن نصير ، فوصل إلى إفريقية وكان البربر قد طمعوا في البلاد ، وبلغه أن بأطراف البلاد قوماً خارجين عن الطاعة فوجه إليهم ابنه عبدالله فقاتلهم فظفر بهم وسبى منهم ألف رأس ، وسيّر ابنه أيضاً في البحر إلى جزيرة ميورقة فنهبها وغنم منها مالا يحصى وعاد سالماً ، فوجه ابنه هارون إلى طائفة أخرى فظفر بهم وسبى منهم نحو ذلك ، وتوجه هو بنفسه إلى طائفة أخرى فغنم نحو ذلك فبلغ الخمس ستين ألف رأس من السبي ، ولم يذكر أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا .

ثم إن إفريقية قحطت واشتد بها الغلاء فاستسقى بالناس وخطبهم ولم يذكر الوليد فقيل له في ذلك فقال هذا مقام لا يدعى فيه لأحد ولا يذكر لأحد إلا الله عز وجل ، فسقي الناس ورخصت الأسعار .

ثم خرج غازياً إلى طنجة يريد من بقي من البربر وقد هربوا خوفاً منه ، فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد ، فاستأمن البربر إليه

وأطاعوه ، واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد وجعل معه جيشاً كثيفاً جلهم البربر ، وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض ، وعاد إلى إفريقية فمر بقلعة مجانة فتحصن أهلها منه وترك عليها من يحاصرها حتى فتحت وحينئذ لم يبق له في إفريقية من ينازعه .

وقيل كانت ولاية موسى سنة ثمان وسبعين استعمله عليها عبدالعزيز بن مروان وهو حينئذ على مصر لأخيه عبد الملك ، وفي هذه السنة أعني تسعاً وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذربيجان ففتح حصوناً ومدائن هناك ، وغزا مسلمة أيضاً أرض الروم سنة تسعين ففتح حصوناً خمسة ، وغزا العباس بن الوليد حتى بلغ أَرْزَن .

ذكر غزوة قتيبة بن مسلم شومان وكشَّ ونَسَفَ

في سنة إحدى وتسعين سار قتيبة إلى شومان فحصرها ، وكان سبب ذلك أن ملكها طرد عامل قتيبة من عنده ، فأرسل إليه قتيبة رسولين أحدهما من العرب اسمه عياش والآخر من خراسان ، يدعوان ملك شومان أن يؤدي ما كان صالح عليه ، فقدما على شومان فخرج أهلها إليهما فرموهما فانصرف الخراساني وقاتلهم عياش فقتلوه ، ووجدوا به ستين جراحة ، وبلغ قتله قتيبة فسار إليهم بنفسه ، فلما أتاها أرسل أخاه صالح بن مسلم إلى ملكها وكان صديقاً له يأمره بالطاعة ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح فأبى وقال لرسول صالح : أتخوّفني من قتيبة وأنا أمنع الملوك حصناً ؟ فأتاه قتيبة وقد تحصّن ببلده فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه ، وقتل رجل في مجلس الملك بحجر ، فلما خاف أن يظهر عليه قتيبة جمع ما كان في الحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر بالقلعة لا يدرك قعرها ثم فتح القلعة وخرج إليهم فقاتلهم حتى قتل وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ، ثم سار إلى كش ونسف ففتحهما ، وامتنعت عليه فارياب فأحرقها فسميت المحترقة ، وسيّر من كش ونسف أخاه عبد الرحمن إلى الصغد وكان ملكها طرخون فقبض عبد الرحمن من طرخون ما كان صالحه عليه قتيبة ودفع إليه رهناً كان معه ، ورجع إلى قتيبة ببخارى ، وكان قد سار إليها من كش ونسف فرجعوا إلى مرو .

ولما كان قتيبة ببخارى تملك بخارى خذاه وكان غلاماً حدثاً وقتل من يخاف أن

يضاده ، وقيل إن قتيبة سار بنفسه إلى الصغد ، فلما رجع عنهم قالت الصغد لطرخون إنك رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير لا حاجة لنا فيك ، فحبسوه وولوا غوزك فقتل طرخون نفسه .

وفي هذه السنة غزا عبدالعزيز بن الوليد الصائفة ، وفيها عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك ، فغزا مسلمة الترك من ناحية أذربيجان حتى بلغ الباب وفتح مدائن وحصوناً ونصب عليها المجانيق ، وغزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم في سنة ثنتين وتسعين ، ففتح حصوناً ثلاثة ، وجلا أهل سوسنة إلى بلاد الروم .

ذكر فتح الأندلس

في سنة ثنتين وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس في أثني عشر ألفاً ، وكانوا قبل ذلك سبعة آلاف فنزلوا جبل طارق ، ثم أمدهم موسى بخمسة آلاف فصاروا أثني عشر ألفاً ، فلقي ملك الأندلس بعد أن جمع جيوشه في أعمال شذونة ، فزحف له طارق بجميع من معه وزحف الملك وكان جيشه مئة ألف واتصلت الحرب ثمانية أيام ، ثم قتل ملكهم قتله طارق بيده وهزم الله الكفار ، وسار طارق متبعاً لهم فأدرك خلقاً من المنهزمين فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزموا ، ولم يلق المسلمون بعدها حرباً مثلها ، ولم تقف هزيمة العدو على موضع بل كانوا يسلمون له بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً ، فتوغل في بلاد الأندلس وفتحها مدينة بعد مدينة ، والكلام على ذلك يطول ، وهو مبسوط في التواريخ .

واستقامت الأمور هناك وعلا الإسلام ، وأما القتلى من الكفار من أول الفتح إلى آخره فشيء كثير لا يمكن إحصاؤه والقتل من المسلمين بالنسبة لذلك قليل جداً ، وأما الغنائم من الذهب والفضة والخيل والجواهر والأثاث وبقية الأشياء فشيء كثير لا يمكن حصره ولا ضبطه ، وكانت توجد الطنفسة منسوجة بقضبان الذهب ، وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، فكان الجند إذا وجدوها لا يستطيعون حملها فيأتون بالفأس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر ، ومما وجد في تلك الغنائم مئة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الجواهر الثمينة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكي مرصعة بالجواهر ، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال من أواني الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ، ومما وجدوه مائدة سليمان عليه السلام ، قيل إنها من منهوبات بُخْتَنَصَّر لما خرب بيت المقدس ، وقيل إنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الثروة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فصاغوا من ذلك المال تلك المائدة وكانت مصوغة من الذهب ، وقيل من الذهب والفضة مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم يَرَ الراؤون مثلها ، وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد كلها مكللة بالجواهر وحافاتها وأرجلها منها وكان

لها ثلاثمئة وستون رجلاً وقيل خمسة وستون ، فحملت إلى الوليد ومعها ثلاثون ألف رأس من السبي ومن الذهب والفضة والجواهر ونفائس الأمتعة مالا يقدر قدره ، وكان ابتداء القتال والفتح لليلتين بقيتا من رمضان سنة ثنتين وتسعين .

والتحق موسى بن نصير بمولاه طارق بن زياد في رمضان سنة ثلاث وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفاً ، وتوغلا في الأندلس إلى أن وصلوا إلى بلاد الأفرنج ، فنمي الخبر إلى الوليد بن عبد الملك واشتد قلقه على المسلمين فبعث إليهم يأمرهم بالرجوع ، قيل إنهم انتهوا إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصابوا فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فإذا فيها : يا بني إسماعيل انتهيتم فارجعوا وإن سألتم إلى ماذا ترجعون أخبرتكم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض وقد فعلتم ، فرجعوا سنة خمس وتسعين .

ووَلّى موسى على إفريقية ابنه عبد الله وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز وعلى طنجة ابنه عبد الملك ، فصار جميع الأندلس والمغرب بين أولاده ، ورجع هو ومولاه طارق .

قيل كان رجوعهم قبل وفاة الوليد وقيل بل كان بعد موت الوليد وولاية سليمان ، وقيل قدموا والوليد مريض مرض الموت .

ثم اتسع أمر المسلمين بالأندلس وصار لهم ملك ضخم ، ثم استولى عليها النصارى شيئاً فشيئاً إلى سنة تسعمئة وأربع فاستولوا عليها جميعاً ، وبقي قليل من المسلمين لا ناصر لهم قاموا في بعض الجبال على النصارى ثم تقووا عليهم وأخرجوهم وكان آخرهم خروجاً سنة ألف وعشر ، وأسأل الله أن يهيىء للإسلام من ينصره حتى يسترجع ما استولى عليه الكفار .

ذكر غرق المسلمين الذين حصل منهم غلول في غنائم الأندلس

لما فتح موسى بلاد الأندلس سيَّر طائفة من عسكره في البحر إلى جزيرة سردانية وهي في بحر الروم من أكبر الجزائر كثيرة الفواكه ، فدخلها المسلمون ، وعمد النصارى إلى ما لهم من آنية ذهب وفضة فألقوا الجميع في الميناء الذي لهم ، وجعلوا أموالهم في سقف بنوه للبيعة العظمى التي لهم تحت السقف الأول ، وغنم المسلمون فيها مالا يحد ولا يوصف وأكثروا الغلول ، فاتفق أن رجلاً اغتسل في الميناء فعلقت

رجله في شيء فأخرجه فإذا صحفة من فضة فأخذ المسلمون جميع ما في الميناء ، ثم دخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حمام في سقف الكنيسة فرماه بسهم فأخطأه ووقع في السقف وانكسر لوح فنزل منه شيء من الدنانير ، فاستخرج المسلمون جميع ما كان في السقف وأخذوه وازدادوا غلولاً ، فكان بعضهم يذبح الهرة ويرمي ما في جوفها ويملأ جلدها دنانير ويخيط عليه ويلقيه في الطريق فإذا خرج أخذها ، وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهباً ، فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلاً يقول : اللهم غَرّقهم فغرقوا عن آخرهم فوجدوا أكثر الغرقى والدنانير على أوساطهم .

وفي سنة خمس وثلاثين ومئة غزا هذه الجزيرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري وكان على الأندلس فقتل من بها قتلاً ذريعاً ثم صالحوه على الجزية فأخذت منهم ثم منعوا وبقيت لم يغزها أحد بعده فعمرها الروم .

فلما كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة أخرج إليها المنصور بن القائم العلوي صاحب إفريقية أسطولاً من المهدية فمروا بجنوة ففتحوا المدينة وأوقعوا بأهل سردانية وسَبَوْا فيها وأحرقوا مراكب كثيرة وأخربوا جنوة وغنموا ما فيها .

وفي سنة ست وأربعمئة غزاها محمد العامري من الأندلس ، وكان صاحبها في البحر ، في مئة وعشرين مركباً ففتحها وقتل فأكثر وسبى النساء والذرية ، فسمع بذلك ملوك الروم فجمعوا إليه وساروا إليه من البر الكبير في جمع عظيم فاقتتلوا ، وانهزم المسلمون وأخرجوا من جزيرة سردانية ولم يُغْزَ بعد ذلك .

ذكر غزوة سجستان

وفي سنة اثنتين وتسعين غزا قتيبة بن مسلم سجستان وأراد قصد رتبيل الأعظم ، فلما نزل قتيبة سجستان أرسل رتبيل إليه رسلاً بالصلح فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم عبد ربه بن عبدالله الليثي .

ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد

في سنة ثلاث وتسعين صالح قتيبة بن مسلم خوارزم شاه ، وكان سبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفاً فغلبه أخوه خرزاد على أمره وكان أصغر منه ، وكان إذا بلغه

أن عند أحد ممن هو منقطع إلى الملك جارية أو مالاً أو دابة أو بنتاً أو أختاً أو امرأة جميلة أرسل إليه وأخذه منه ، وكان لا يمتنع عليه أحد ولا الملك فإذا قيل للملك قال لا أقوى به وهو مغتاظ عليه ، فلما طال ذلك عليه كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلمها له واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه وكل من يضاده ليحكم فيهم بما يرى ، ولم يطلع أحداً من مرازبته على ذلك ، فأجابه إلى ما طلب وتجهز للغزو ، وأظهر قتيبة أنه يريد الصغد وسار من مرو وجمع خوارزم شاه أجناده ودهاقينه وقال إن قتيبة يريد الصغد وليس بغازيكم فهلموا نتنعم في ربيعنا هذا فأقبلوا على الشرب والتنعم فلم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزارسب ، فقال خوارزم شاه لأصحابه : ما ترون ؟ قالوا : نرى أن نقاتله ، قال : لكني لا أرى ذلك لأنه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ولكني أصرفه بشيء أؤديه إليه فأجابوه إلى ذلك ، فسار خوارزم شاه ونزل بمدينة الفيل من وراء النهر وهي أحصن بلاده وقتيبة لم يعبر النهر فأرسل إليه خوارزم شاه فصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع وعلى أن يعينه على خام جرد ، فقبل قتيبة ذلك ، وقيل صالحه على مئة ألف رأس ، ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد وكان أحد أعداء خوارزم شاه وكان يغازي خوارزم شاه فقاتله فقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه ، وقدم منهم بأربعة آلاف أسير فقتلهم قتيبة ، وسلم قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم ودفع أموالهم إلى قتيبة .

ذكر فتح سَمَرْقَنْد

لما قبض قتيبة صلح خوارزم شاه قام إليه المجشر بن مزاحم السلمي فقال له سراً : إن أردت الصغد يوماً من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن يأتيهم عامل وإنما بينك وبينهم عشرة أيام فقال : أأشار عليك بهذا أحد ؟ قال : لا ، قال : أفسمعه منك أحد ؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلم به أحد لأضربنَّ عنقك ، فلما كان الغد أمر أخاه عبد الرحمن فسار في الفرسان والرماة وقدم الأثقال إلى مرو فسار يومه ، فلما أمسى كتب إليه قتيبة إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو وسر بالفرسان والرماة إلى الصغد واكتم الأخبار فإني في الأثر ، ففعل عبد الرحمن ما أمره ، وخطب قتيبة الناس وقال لهم : إن الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا ما بلغكم وإني أرجو أن تكون

خوارزم والصغد كقريظة والنضير ، ثم سار فأتى الصغد فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاث أو أربع فحصرهم بسمرقند شهراً واستجاشوا ملك الشاش وأخشاد خاقان وفرغانة وكتبوا لهم إن العرب إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها ، فنظروا وقالوا إنما نؤتى من سفلتنا فإنهم لا يجدّون كجدّنا ، فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والأساورة والأبطال وولّوا عليهم ابن خاقان وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة فيبيتوه فإنه مشغول بحصار سمرقند ، فساروا .

وبلغ قتيبة الخبر فانتخب من عسكره ستمئة فارس من الشجعان وبعث بهم أخاه صالح بن مسلم وأمرهم بالمسير إلى عدوهم فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم فجعل صالح له كمينين ، فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوهم ، فلما رأوا صالحاً حملوا عليه ، فلما اقتتلوا شدّ الكمينان عن يمين وشمال فلم يُرَ قوم كانوا أشد من أولئك .

قال بعض أصحاب صالح : إنا لنقاتلهم في الليل إذ رأيت قتيبة وقد جاء سراً فضرب ضربة أعجبتني فقلت : كيف ترى بأبي وأمي ؟ قال : اسكت فَضَّ الله فاك ، ثم قاتلوهم أشدّ القتال فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم إلا الشريد وحوينا أسلابهم وسلاحهم واحتززنا رؤوسهم وأسرنا منهم أسرى فسألناهم عَمَّن قتلنا فقالوا ما قتلتم إلا ابن ملك أو عظيماً أو بطلاً ، كان الرجل منهم يعدّ بمئة ، فجمعوا له جموعاً وأرادوا قتاله فوجه قتيبة جموعاً إلى خوارزم مع المغيرة بن عبد الله ، وعزَلَ إياساً من سمرقند وولى أخاه عبدالله بن مسلم ، فلما قدم المغيرة على سمرقند خشي ملكهم من أبناء الذين كان قتلهم ففرّ إلى بلاد الترك ، وجاء المغيرة فقتل وسبى وملك خوارزم وصالحه الباقون على الجزية .

ذكر غزوة قتيبة الشَّاشَ وفَرْغانَةَ

في سنة أربع وتسعين قطع قتيبة النهر وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل ، فساروا معه فوجّههم إلى الشاش وتوجّه هو إلى فرغانة فأتى خجندة فجمع له أهلها جموعاً واقتتلوا معه مراراً ، كل ذلك يكون ظفراً للمسلمين ، ثم إن قتيبة أتى كاشان مدينة فرغانة وأتاه الجنود الذين وجههم إلى

الشاش ، وقد فتحوها وأحرقوا أكثرها وانصرف إلى مرو ، وفي هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، ففتح أنطاكية ، وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد غزالة وبلخ والوليد بن هشام المعيطي برج الحمام ويزيد بن أبي كبشة أرض سورية .

ذكر غزوة الشَّاش

في سنة خمس وتسعين بعث الحجاج بجيش من العراق إلى قتيبة فغزا بهم الشاش ، فلما كان بشاشَ أو بكُشْمَاهَانَ أتاه موت الحجاج في شوال فغمّه ذلك ورجع إلى مرو ، وتفرق الناس ، فأتاه كتاب الوليد : قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدّك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك فأتمّ مغازيك وانتظر ثواب ربّك ولا تُغَيّبْ عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأني أنظر إلى بلائك والثغر الذي أنت فيه ، وفي هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح هرقلة ، وفيها فتح آخر الهند إلا الكيرج والمندل ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وفي هذه السنة افتتح العباس بن الوليد قنَّسرين .

ذكر فتح قتيبة مدينة كاشْغَر

في سنة ست وتسعين غزا قتيبة كاشغر ، فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند ، فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه ، ومضى إلى فرغانة وأرسل إلى شعب عصام من يسهل الطريق إلى كاشغر وهي أدنى مدائن الصين ، وبعث جيشاً مع كبير بن فلان إلى كاشغر فغنم وسبى سبياً ، فختم أعناقهم ، وأوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب إليك ملك الصين أن ابعث إليَّ رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح ، فأمر لهم بعدّة حسنة ومتاع حسن من الخزّ والوشي وغير ذلك وخيول حسنة ، وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي ، فقال لهم : إذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم ، فساروا وعليهم هبيرة ، فلما قدموا عليه دعاهم ملك الصين فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل وتطيَّبوا ولبسوا النعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده فنهضوا ، فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟

فقالوا : رأينا قوماً ما هم إلا نساء ما بقي منّا أحد إلا انتشر ما عنده ، فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشي والعمائم الخز والمطارف وعدوا عليه ، فلما دخلوا قيل لهم ارجعوا وقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك ، فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسيَّ وركبوا ، فنظر إليهم ملك الصين فرأى مثل الجبل ، فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمّرين فقيل لهم ارجعوا فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ فقالوا ما رأينا مثل هؤلاء ، فلمّا أمسى بعث إليهم أن ابعثوا إليَّ زعيمكم فبعثوا إليه هبيرة بن مشمرج ، فقال له : قد رأيتم عظيم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي ، وإني سائلكم عن أمر فإن لم تصدقوني قتلتكم ، قال : سل ، قال : لِمَ صنعتم بزيّكم الأول اليوم الأول والثاني والثالث ما صنعتم ؟ قال : أمّا زِيّنا اليوم الأول فلباسنا في أهلنا ، وأما اليوم الثاني فزِيُّنا إذا أممنا أمراءنا ، وأما الثالث فزيّنا لعدوّنا ، قال : ما أحسن ما دبّرتم دهركم فقولوا لصاحبكم ينصرف ، فإني قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ، قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون يعنون الشام ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه ، وقد حلف أميرنا ألاّ ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية ، قال : فإنّا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطؤه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ، ثم بعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم وشيء من تراب أرضهم ، وأجاز العشرة الوافدين فأحسن جائزتهم ، فقدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ، ووصل الخبر إلى قتيبة في هذه الغزوة بموت الوليد فرجع .

ذكر مقتل قتيبة بن مسلم

كان قتيبة فحل عمال الدولة الأموية والحجاج فرعونها ، ومكث قتيبة على خراسان ثلاث عشرة سنة ، وفتح كثيراً من المدائن التي كانت فتحت قبله ، ثم كفر أهلها وتغلبوا ، فقاتلهم حتى فتحها ، وفتح غيرها أيضاً كما تقدم .

وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين قتل وعمره سبع وأربعون سنة ، وسبب قتله موافقته للوليد بن عبد الملك حين أراد خلع أخيه سليمان ؛ وذلك أن عبدالملك بن مروان عهد بالخلافة لابنه الوليد ثم من بعده لأخيه سليمان ، فأراد الوليد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لابنه عبد العزيز فلم يوافقه على ذلك إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم ، ثم مات الحجاج ثم مات الوليد ولم يتمكن من خلع أخيه ، فبويع لأخيه سليمان فخاف قتيبة منه ، وكان سليمان بن عبد الملك صديقاً ليزيد بن المهلب ، فخاف قتيبة أن يعزله ويولي يزيد بن المهلب فدعا الناس لخلع سليمان ، وكان قتيبة قد عزل وكيع بن حسان عن رئاسة بني تميم وصَيَّرها لضرار بن حصين الضبي ، فلما أراد خلع سليمان لم يوافقه وكيع وتجمّع معه كثير من قومه ، فثار من ذلك فتنة بين المسلمين بخراسان يطول الكلام بذكرها ، فقتل فيها قتيبة وقتل معه من أهله إخوته عبد الرحمن وعبدالله وصالح وحصين وعبد الكريم ومسلم ، وقتل كثير ابنه ، وكان عدّة من قتل مع قتيبة من أهل بيته أحد عشر رجلاً ، ونجا عمر بن مسلم أخو قتيبة وحمل رأس قتيبة ورؤوس أهل بيته إلى سليمان بن عبد الملك وقام بالأمر بخراسان وكيع بن حسان تسعة أشهر ، ولما قتل قتيبة قال رجل من أهل خراسان : يا معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منّا فمات لجعلناه في تابوت فكنا نستقي به ونستفتح به .

وفي هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية واستعمل ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة ، وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الوضّاحية ففتح الحصن الذي فتحه الوضّاح صاحب الوضّاحية ، وفيها غزا عمر بن هبيرة أرض الروم في البحر فشتى بها .

ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان

كان سليمان بن عبد الملك ولى يزيد بن المهلب العراق ، وبعد مقتل قتيبة بتسعة أشهر ولاّه خراسان فأقام عمالاً له بالعراق وتوجّه إلى خراسان .

ذكر فتح جرجان وطبرستان

في سنة ثمان وتسعين غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان لما قدم خراسان ، وسبب غزوهما واهتمامه بهما أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك بالشام كان

سليمان كلما فتح قتيبة فتحاً يقول ليزيد : ألا ترى ما يفتح الله على قتيبة ؟ فيقول يزيد : ما فعلت جرجانَ التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور ؟ ويقول : هذه الفتوح ليست بشيء ، الشأنُ هي جرجان ، ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل على باب منها فلا يقدم عليه أحد ، فلما ولاه سليمان خراسان لم يكن له همة غير جرجان ، فسار إليها في مئة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالي والمتطوعة ، فابتدأ بقهستان فحاصرها ، وكان أهلها طائفة من الترك وكان أهلها يخرجون ويقاتلون فيهزمهم المسلمون في كل ذلك فإذا هزموا دخلوا الحصن ، فخرجوا ذات يوم وخرج إليهم الناس فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انهزموا ودخلوا الحصن ، ثم ألحّ عليهم القتال وقطع عنهم المواد واشتدّ عليهم الحصار فطلب الصلح صول دهقان قهستان على أن يؤمنه على نفسه وأهله وماله ليدفع له المدينة بما فيها ، فصالحه ووفى له ودخل المدينة فأخذ مما كان فيها من الأموال والكنوز والسبي مالا يحصى ، وقتل أربعة عشر ألف تركي صبراً ، وكتب إلى سليمان بن عبد الملك بذلك ، ثم خرج حتى أتى جرجان .

وكان أهل جرجان قد صالحهم سعيد بن العاص ، وكان يَجْبُون أحياناً مئة ألف وأحياناً مئتي ألف وأحياناً ثلاثمئة ألف ربما أعطوا ذلك وربما منعوه ، ثم امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خراجاً ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد ، ومنعوا ذلك الطريق فلم يكن يسلك طريق خراسان أحد إلا على فارس وكرمان ، وأول من صيّر الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولي خراسان ، وبقي أمر جرجان كذلك حتى ولي يزيد بن المهلب فأتاهم فاستقبلوه بالصلح وزادوه وهابوه فأجابهم إلى ذلك وصالحهم ، فلما فتح قهستان وجرجان طمع في طبرستان أن يفتحها فعزم على أن يسير إليها ، فاستعمل عبدالله بن المعمر اليشكري على ساسان وقهستان وخلف معه أربعة آلاف ، ثم أقبل إلى أدنى جرجان مما يلي طبرستان فاستعمل على إيز وسار راشداً بن عمر وجعله في أربعة آلاف ودخل بلاد طبرستان فأرسل إليه الأصبهبذ صاحبها يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها ، ووجّه أخاه أبا عيينة من وجه وابنه خالد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبي من وجه ومع كل منهم جيش وقال : إذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس ، وأقام يزيد معسكراً واستجاش الأصبهبذ أهل جيلان والديلم ، فأتوه

فالتقوا في سفح الجبل فانهزم المشركون في الجبل واتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشعب فدخل المسلمون وصعد المشركون في الجبل ، واتبعهم المسلمون يرومون الصعود ، فرماهم العدو بالنشاب والحجارة فانهزم أبو عيينة والمسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون في الجبل حتى انتهوا إلى عسكر يزيد وكف عدوهم عن اتباعهم ، وخافهم الأصبهبذ ، فكانت أهل جرجان ومقدمهم المرزبان يسألهم أن يبيتوا من عندهم من المسلمون وأن يقطعوا عن يزيد المادة والطريق فيما بينه وبين بلاد الإسلام ويعدهم أن يكافئهم على ذلك ، فثاروا بالمسلمين فقتلوهم أجمعين وهم غارون في ليلة وقتل عبدالله بن المعمر ومن معه فلم ينج منهم أحد وكتبوا إلى الأصبهبذ بأخذ المضايق والطرق .

وبلغ ذلك يزيد بن المهلب وأصحابه فعظم عليهم وهالهم وفزع يزيد إلى حيان النبطي ، وكان من رؤساء جنده ليسير إلى الأصبهبذ في عمل الصلح فأتى حيان الأصبهبذ فقال له : أنا رجل منكم وإن كان الدين فرق بيني وبينكم فأنا لكم ناصح فأنت أحبُّ إليَّ من يزيد بن المهلب ، وقد بعث يستمد وأمداده منه قريبة وإنما أصابوا منه طرفاً ولست آمن من أن يأتيك من لا تقوم له فأَرِحْ نفسك وصالحه فإن صالحته صيّر حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم أصحابه ، فصالحه على سبعمئة ألف وأربعمئة وَقْر زعفران أو قيمته من العين وأربعمئة رجل على كل رجل منهم ترس وطيلسان ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكسوة ، ثم رجع حيان إلى يزيد بن المهلب فقال : ابعث من يحمل صلحهم ، فقال : من عندهم أو من عندنا ؟ فقال : من عندهم ، وكان يزيد قد طابت نفسه أن يعطيهم ما سألوا ويرجع إلى جرجان ، فأرسل يزيد من يقبض ما صالحهم عليه وانصرف إلى جرجان .

ذكر فتح جُرْجَانَ الفتح الثاني

قد تقدم ذكر فتح قهستان وجرجان ثم غدر أهله بأصحاب يزيد بن المهلب ، فلما صالَحَ يزيدُ أَصْبَهْبَذَ طبرستان سار إلى جرجان وعاهد الله لئن ظفر بهم لا يرفع السيف حتى يطحن بسائل دمائهم ويأكل من ذلك الطحين ، فأتاها وحصر أهلها بحصن فجأة سبعة أشهر وهم يخرجون إليه في الأيام فيقاتلون ويرجعون ، وكانوا متمتعين في الجبل

والأوعار ، فبينما هم كذلك إذ ظفروا برجل يعرف الطرق فضمن له اليزيد دِيةً إن دلّهم على الحصن وطرقه ومعالمه ، فانتخب معه يزيد ثلاثمئة رجل واستعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد وقال يزيد للرجل : متى تصلون ؟ قال : غداً العصر فساروا ، فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو إلى النار فهالهم ذلك فهجم خالد بن يزيد ومن معه عليهم قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه ، وسار يزيد بمن معه يقاتلهم من جهة أخرى فما شعروا إلا بالتكبير من ورائهم فانقطعوا جميعاً إلى حصنهم ، وركبهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلهم وصلبهم فرسخين إلى يمين الطريق ويساره .

قيل إن الذين قتلهم أربعين ألفاً ، فلذلك كان عمر بن عبد العزيز يسمي يزيد بن المهلب جباراً ، وأجرى الماء على الدم ، وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ليبر يمينه ، فطحن وخبز وأكل وبنى مدينة جرجان ولم تكن بنيت قبل ذلك مدينة ، ورجع إلى خراسان ، واستعمل على جرجان جهم بن زحر الجحفي ، وكتب بالفتح إلى سليمان وأخبره أنه قد حصل من الخمس ستمئة ألف ألف ، فقال له كاتبه المغيرة بن أبي قرة مولى بني سدوس : لا تكتب تسمية المال فإنك من ذلك بين أمرين إما استكْثَرَهُ فأمرك بحمله ، وإما سَمَحَتْ نفسُه لك به فأعطاكه فيكلف الهدية فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله فكأني بك قد استغربت ما سمعت ولم يقع منه موقعاً ويبقى المال الذي سميت مخلداً في دواوينهم ، فإن وَلِي والٍ بعده أخذك به ، وإن ولي من يتحامل عليك لم يرض بإضعافه ، فاكتبْ فَسَلْهُ القدوم ، وشافِههُ بما أحببت ، فهو أسلم يقبل منه ، وأمضى الكتاب فكان الأمر كما قال كاتبه ، فإن عمر بن عبد العزيز لما ولي بعده سليمان طالبه بذلك المال سنة تسع وتسعين وعزله وقيده وحبسه ثم هرب من السجن في سدة مرض عمر بن عبدالعزيز ، ثم لما بويع يزيد بن عبد الملك بعد عمر بن عبدالعزيز طلب يزيد بن المهلب فجمع جموعاً وقاتل يزيد بن عبدالملك بعد أن خلعه وبايع الناس لنفسه وكانت جموع يزيد بن المهلب نحو مئة ألف وآخر الأمر قتل هو وكثير من إخوته وأهل بيته وذلك سنة اثنتين ومئة ، وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ .

قيل إن يزيد بن المهلب أصاب في غنائم جرجان تاجاً فيه جوهر فقال لأصحابه : أترون أحداً يزهد في هذا ؟ قالوا لا ، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال : خذ هذا

التاج ، قال : لا حاجة لي فيه ، قال : عزمتُ عليك . فأخذه ، فأمر يزيد رجلاً ينظر لما يصنع به فلقي سائلاً فدفعه إليه فأخذ الرجل السائل فأتى به يزيد فأخبره ، فأخذ يزيد التاج وعوض السائل مالاً كثيراً .

ذكر محاصرة القسطنطينية

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وتسعين ، سار سليمان بن عبد الملك إلى دابق وجهز جيشاً مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير إلى القسطنطينية ، وسبب ذلك أنه مات ملك الروم فأتى إليون من أذربيجان لسليمان بن عبد الملك فأخبره بموته ، وضمن له فتح الروم فوجّه ذلك الجيش مع أخيه مسلمة فسار إلى القسطنطينية ، فلما دنا منها أمر كل فارس أن يحمل معه مدّين من طعام على عجز فرسه إلى القسطنطينية ففعلوا ، فلما أتاها أمر بالطعام فألقي أمثال الجبال وقال للمسلمين : لا تأكلوا منه شيئاً وأغيروا في أرضهم وازرعوا ، وعمل بيوتاً من خشب ، فَشَتَى فيها وصيّف ، وزرع الناس وبقي الطعام في الصحراء ، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات والزرع ، وأقام مسلمة قاهراً للروم معه أعيان الناس ، فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً فلم يقبل ، فقالت الروم لإليون : إن صرفت عنا المسلمين ملّكناك ، فاستوثق منهم فأتى مسلمة فقال له : إن الروم قد علموا أنّك لا تصدقهم القتال ، وإنك تطاولهم ما دام الطعام عندك فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم ، فأمر به فأحرق ، فقوي الروم وأصابوا المسلمين حتى كادوا يهلكون وبقوا على ذلك حتى مات سليمان سنة تسع وتسعين .

وقيل إنما خدع إليون مسلمة بأن سأله أن يدخل من الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوا أن أمر مسلمة وأمرهم واحد وأنهم في أمان من السبي والخروج من بلادهم ، فأذن له وكان إليون قد أعدّ السفن والرجال فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر إلا ما لا يذكر ، وأصبح أليون محارباً وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت لامرأة لعيبت بها ، ولقي الجند ما لم يلقه جيش آخر حتى إن الرجل كان يخاف أن يخرج من العسكر وحده ، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب ، وسليمان مقيم بدابق ، ودخل الشتاء فلم يقدر أن

يمدهم حتى مات ، فلما بويع عمر بن عبد العزيز بعده بعث إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ، ووجّه له خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحثَّ الناس على معونتهم ، فرجعوا سنة تسع وتسعين .

وفي سنة مئة وإحدى توفي محمد بن مروان وتوفي عمر بن عبدالعزيز فبويع ليزيد بن عبدالملك ، وكان في مدته الحرب المتقدم ذكره بينه وبين يزيد بن المهلب .

غزوة الترك

في سنة اثنتين بعد قتل يزيد بن المهلب استعمل يزيد بن عبد الملك على العراق وخراسان أخاه مسلمة بن عبد الملك ، فاستعمل مسلمة على خراسان سعيد الملقب خذينة ، ومعناه الدهقانة ربة البيت لأنه كان رجلاً ليناً متنعماً ، وهو سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص ، فجدُّه الحارث أخو مروان بن الحكم فاستضعفه الناس وسمّوه خذينة فطمعت الترك ، فجمعهم خاقان ووجّههم إلى الصغد وعلى الترك صول ، فأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي محاصرين لما فيه من المسلمين ، وفيه أهل مئة بيت من المسلمين بذراريهم ، وكان على سمرقند عثمان بن عبدالله بن مطرف بن الشخّير ، استعمله سعيد خذينة فكتبوا إليه يستمدونه ، وخافوا أن يبطىء عليهم المدد فصالحوا الترك على أربعين ألفاً وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة ، وندب عثمان الناس فانتدب أربعة آلاف مع المسيب بن بشر الرياحي من سائر القبائل ، فقال لهم المسيب : من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم ، فرجع عنه ألف وقال ذلك أيضاً بعد فرسخ فرجع ألف آخر ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف ، فلما كان على فرسخين من العدو وأخبره بعض الدهاقين بأن القوم أتاهم ملك الترك وبايعه كل الدهاقين غيري ، وأنا في ثلاثمئة مقاتل فهم معكم وعندي الخبر قد كانوا صالحوهم وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة ، فلما بلغهم مسيركم إليهم قتلوا الرهائن وميعادهم أن يقاتلوا غداً ويفتحوا لهم القصر يعني الباهلي الذي فيه أهل مئة بيت .

فبعث المسيب إلى القصر المذكور رجلين عجمياً وعربياً يأتيانه بالخبر فجاؤوا في ليلة مظلمة ، وقد أجرت الترك الماء بدائر القصر لئلاّ يصل إليه أحد ودنوا من القصر فصاح بهم الربيئة فقالا له : اسكت وادع لنا فلاناً من المسلمين الذين في القصر فدعاه

فأعلماه قرب العسكر وسألاه هل عندكم امتناع غداً ؟ فقال لهما : نحن مستميتون وقد أجمعنا على تقديم نسائنا للموت أمامنا حتى نموت جميعاً غداً ، فرجع إلى المسيب فأخبراه ، فقال لمن معه : إني سائر إلى هذا العدو المحاصرين للقصر فمن أحب أن يذهب فليذهب ، فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت فأصبح وسار وقد ازداد القصر تحصيناً بالماء الذي أجراه الترك ، فلما كان بينه وبين الموضع الذي فيه الترك نصف فرسخ نزل وكان قد أجمع على بياتهم ، فلما أمسى أمر أصحابه بالصبر وحثّهم عليه وقال : ليكن شعاركم : يا محمد ، ولا تتبعوا مولياً وعليكم بالدوابّ التي لهم فاعْقِروها فإنها إذا عقرت كانت أشدّ عليهم منكم وليست بكم قلة فإن سبعمئة سيف لا يضرب بها في عسكر إلا أوهنوه وإن كثر أهله ، فلما دنوا منهم كبّروا وذلك في السحر ، وثار الترك وخالطهم المسلمون فعقروا الدوابّ وترجّل المسيب في رجال معه فقاتلوا قتالاً شديداً ، وانقطعت يمين رجل من المسلمين فأخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذبّ بيده حتى استشهد وقتلوا كثيراً منهم وعظيماً من عظمائهم ، فانهزمت الترك ونادى منادي المسيب لا تتبعوهم واقصدوا القصر لإطلاق من فيه واحملوا من فيه ولا تحملوا من متاعهم إلا الماء ومن حمل امرأة أو صبياً أو رجلاً ضعيفاً لا يقدر على المشي حسبةً فأجره على الله ومن أبى فله أربعون درهماً ، وإن كان في القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه ، فأتوا القصر وحملوا من فيه وأخرجوهم ثم ساروا إلى سمرقند ، ورجعت الترك من الغد فلم يروا في القصر أحداً ورأوا قتلاهم فقالوا لم يكن الذين جاؤونا بالأمس من الإنس ، قال بعض من كان بالقصر : لما التقوا ظننا أن القيامة قد قامت لما سمعنا من هَماهِم القوم وَوَقْع الحديد وصهيل الخيل .

وفي هذه السنة غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية أرمينية وهو على الجزيرة قبل أن يلي العراق فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً وقتل سبعمئة أسير ، وفيها غزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم فافتتح دلسة .

ذكر غزوة الصُّغْد

وفي هذه السنة عبر سعيد خذينة النهر وغزا الصُّغْد ، وقد كانوا نقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين ، فقال الناس لسعيد : إنك قد تركت الغزو وقد أغار الترك

وأعانهم أهل الصغد ، فقطع النهر وقصد الصغد فلقيه الترك وطائفة من الصغد فهزمهم المسلمون ، فقال سعيد : لا تتبعوهم وقال هم جباية أمير المؤمنين يعني يأخذ منهم المال ففي استئصالهم ضياع له ، وفي رواية قال : هم بستان أمير المؤمنين وقد هزمتموهم أفتريدون بوارهم وقد قاتلتم يا أهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم فانكفوا عنهم ؟

ثم سار المسلمون إلى واد بينهم وبين المرج فقطعه بعض العسكر ، وقد أكمن لهم الترك ، فخرجوا عليهم وانهزم المسلمون إلى الوادي ، ثم تلاحق المسلمون ، وجاء الأمير والناس فانهزم العدو ، وكان سعيد إذا بعث سرية فأصابوا وغنموا وسبوا ردّ السبي وعاقب السرية فثقل سعيد على الناس وضعفوه وسعوا في عزله فعزل سنة ثلاث ومئة وولي مكانه سعيد الحرشي بالحاء المهملة والشين المعجمة من بني الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ينتهي إلى قيس بن عيلان بن مضر .

وفي سنة ثلاث ومئة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح مدينة يقال لها دلسة .

ذكر الوقعة بين الحرشي والصُّغْد

لما قدم الحرشي خراسان كان الناس بإزاء العدو وقد نكبوا فخطبهم وحث الناس على الجهاد وقال : إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدة ولكن بنصر الله وعز الإسلام فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولما سمع أهل الصغد بقدوم الحرشي خافوا على أنفسهم لأنهم كانوا قد أعانوا الترك على أصحاب خذينة ، فأجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم فقال لهم ملكهم لا تفعلوا وأقيموا واحملوا خراج ما مضى واضمنوا له خراج ما يأتي وعمارة الأرض والغزو معه إن أراد ذلك واعتذروا مِمّا كان منكم وأعطوه رهائن ، قالوا : نخاف ألاّ يرضى ولا يقبل ذلك منا ولكن نأتي خجندة فنستجير بملكها ونرسل إلى الأمير فنسأله الصفح عما كان منا ونوثق أنه لا يرى أمراً يكرهه ، فقال لهم ملكهم أنا رجل منكم والذي أشرت به عليكم خير لكم ، فأبوا وخرجوا إلى خجندة وأرسلوا إلى ملك فرغانة يسألونه أن يمنعهم وينزلهم مدينة فأراد أن يفعل ، فقالت أمه لا يدخل هؤلاء الشياطين مدينتك ولكن فَرّغْ لهم رستاقاً يكونون فيه ، فأرسل إليهم : سَمّوا رُستاقاً تكونون فيه حتى أفرغه لكم وأجلوني أربعين يوماً وقيل عشرين يوماً

فاختاروا شعب عصام بن عبد الله الباهلي ، وكان قتيبة قد خلفهم فيه فقال : نعم ، ولا أنا على عقد وجوار حتى تدخلوه إن أتتكم غزية قبل أن تدخلوه ليس لكم عليَّ جوار ، فرضوا ففرغ لهم الشعب فجاء الخبر إلى الحرشي فغزاهم وعاجلهم قبل أن يدخلوا شعب عصام ، وخرج أهل الصغد للقتال فانهزموا وقد كانوا حفروا خندقاً وغطوه بالتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال ، فلما انهزموا أخطأ الطريق وأسقطهم الله في ذلك الخندق ، ثم حاصرهم الحرشي ونصب عليهم المجانيق فأرسلوا إلى ملك فرغانة ليجيرهم ، فقال قد شرطت عليكم أَنْ لا جوارَ قبل الأجل الذي بيني وبينكم ، فطلبوا الصلح من الحرشي على أن يردوا ما في أيديهم من سبي العرب ويعطوا ما كثر من الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة ولا يغتالوا أحداً فإن أحدثوا حدثاً استبيحت دماؤهم ، فقبل منهم وخرجوا من خجندة ونزلوا في العسكر ، وبلغ الحرشي أنهم قتلوا امرأة ممن كان في أيديهم من المسلمين فقتل الذي قتلها ، فخاف منه بعض عظمائهم أن يقتله فنقض وخرج واعترض الناس ومعه جماعة منهم فقتل ناساً وتضعضع العسكر ولقوا منه شراً وانتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت ، وقتل الصغد أسرى عندهم من المسلمين مئة وخمسين رجلاً فأخبر الحرشي بذلك فأمر بقتلهم وعزل النجار عنهم فقاتلهم الصغد بالخشب ولم يكن لهم سلاح فقتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة آلاف وقيل سبعة آلاف ، وغنم أموال الصغد وذراريهم وأخذ منه ما أعجبه وكتب إلى يزيد بن عبد الملك بالفتح وسرح الحَرْشي سرية إلى حصن يطيف به وادي الصغد ، فتلقوها على فرسخ وقاتلوا فهزموا ودخلوا الحصن فحصروا فيه ثم طلبوا الصلح على ألاّ يتعرض لنسائهم وذراريهم ويسلموا القلعة ، فقبل منهم ذلك وبعث الأمناء لقبض ما في القلعة فقبضوه وباعوه وقسموه .

وسار الحرشي إلى كش وصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر بن سيار قبض صلح كش ، وكان في نسف خزائن منيعة فوجّه إليها المسربل بن الخريت وكان صديقاً لملكها فجاء للملك وأخبره بما صنع الحرشي بأهل خجندة وخوفه ، قال : فما ترى ؟ قال : أن تنزل بأمان ، قال : فما أصنع بمن لحق بي ؟ قال : تجعلهم في أمانك فصالحهم فأمنوه وبلاده ، ورجع الحرشي إلى بلاده ومعه الملك فقتله وصلبه ومعه الأمان ، وكانت هذه الوقائع سنة أربع ومئة ، وفيها عزل الحرشي عن خراسان ووليها مسلم بن سعيد الكلابي .

ذكر غزو المسلمين بلاد الخزر وظفر الخزر بهم

في هذه السنة دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني ، فاجتمعت الخزر ـ وهم التركمان ـ في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك ولقوا المسلمين في مكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً ، فقتل كثير من المسلمين واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه ، وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة ، فقال ثبيت : يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ، ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد .

ذكر غزوة أخرىٰ علىٰ الخزر

ولما تمت الهزيمة المذكورة على المسلمين طمع الخزر في البلاد فجمعوا وحشدوا ، فولى يزيد على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وأمده بجيش كثيف ، فسار لغزو الخزر فتسامعوا به فعادوا حتى نزلوا بباب الأبواب ، ونزل الجراح إلى برذعة فأقام بها حتى استراح هو ومن معه ، وسار نحو الخزر فعبر نهر الكر فسمع بأن بعض مَنْ معه من أهل تلك الجبال قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح إليه ، فحينئذ أمر الجراح مناديه فنادى في الناس أن الأمير ههنا عدة أيام فاستكثروا من الميرة فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يخبره أن الجراح مقيم ويشير عليه بترك الحركة ، فلما كان الليل أمر الجراح بالرحيل ، فسار مجداً حتى انتهى إلى مدينة باب الأبواب فلم ير الخزر فدخل البلد وبث السرايا للنهب والغارة على ما يجاوره فغنموا وعادوا من الغد ، وسار الخزر إليه وعليهم ابن ملكهم فالتقوا عند نهر الران واقتتلوا قتالاً شديداً ، فظفروا بالخزر وهزموهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل منهم خلق كثير ، وغنم المسلمون جميع ما معهم وساروا حتى نزلوا على حصن يعرف بالحصين لنزول أهله بالأمان على مال يحملونه فأجابهم ونقلهم عنها ، ثم سار إلى مدينة يرغو فأقام عليها ستة أيام وهو مجد في قتالهم فطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم منه .

ذكر فتح بَلَنْجَر

ثم سار الجراح إلى بلنجر وهو حصن مشهور من حصونهم فنازله ، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمئة عجلة فشدوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن ، وكانت تلك العجل أشد شيء على المسلمين في قتالهم ، فلما رأوا الضرر الذي عليهم انتدب جماعة منهم نحو ثلاثين رجلاً وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم وحملوا حملة رجل واحد وتقدموا نحو العجل ، وجَدَّ الكفار في قتالهم ورموا من النشاب ما كان تحجب عين الشمس ، فلم يرجع أولئك حتى وصلوا إلى العجل وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها وجذبوها فانحدرت وتبعها سائر العجل لأن بعضها كان مشدوداً إلى بعض ، وانحدر الجميع إلى المسلمين والتحم القتال واشتد وعظم الأمر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر ، ثم إن الخزر انهزموا واستولى المسلمون على الحصن عنوة وغنموا جميع ما فيه ، فأصاب الفارس ثلاثمئة دينار وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً ، ثم إن الجراح أحضر صاحب بلنجر ورد إليه أمواله وأهله وحصّنه وجعله عيناً لهم يخبرهم بما يفعله الكفار ، ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه ، ثم إن الترك والتركمان تجمعوا وأخذوا الطرق على المسلمين ، فكتب صاحب بلنجر إلى الجراح يعلمه بذلك فعاد مجدّاً حتى وصل إلى رستاق مليء وأدركهم الشتاء فأقام المسلمون به ، وكتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ويسأله المدد فوعده إنفاذ العساكر إليه وأدرك يزيد أجله قبل إنفاذ الجيش ، وكان موته في شعبان سنة خمس ومئة .

فلما مات يزيد وبويع أخوه هشام بن عبد الملك أرسل إلى الجراح وأقره على عمله ووعده المدد ، ثم أرسله إليه فقوي أمر الجراح فغزا اللان في سنة ست وصالحه أهلها فأدوا الجزية ، ثم إن هشاماً عزل الجراح عن أرمينية سنة سبع ومئة وولاها أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى سنة إحدى عشرة ، ثم عزل أخاه مسلمة وولاها الجراح ثانية فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ، ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً ، فجمعت الخزر جموعها وحشدت وسارت إلى بلاد الإسلام من ناحية اللان ، فلقيهم الجراح

فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان ، وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فاستشهد الجراح ومن كان معه بمرج أردبيل ، وكان قد استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على أرمينية .

ولما قتل الجراح طمع الخزر وأَوْغَلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب على المسلمين وكان الجراح خيّراً فاضلاً وكان أولاً من عمال عمر بن عبد العزيز على خراسان ورثاه كثير من الشعراء ، ولما بلغ هشاماً خبره دعا سعيداً الحرشي وكان قد عزل عن خراسان فقال له : بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين ، قال : كلا ، يا أمير المؤمنين الجراح أعرف بالله من أن ينهزم ولكنه قتل ، قال : فما رأيك ؟ قال : تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد ثم تبعث إليَّ كل يوم أربعين رجلاً ، ثم اكتب إلى أمراء الأجناد يوافوني ، ففعل ذلك هشام ، وسار الحرشي فكان لا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد ، ولم يزل كذلك حتى وصل إلى مدينة أرزن فلقيه جماعة من أصحاب الجراح وبكوا وبكى لبكائهم وفرق فيهم نفقة وردهم معه وجعل لا يلقاه أحد من أصحاب الجراح إلا ورده معه ، ووصل إلى خلاط وهي ممتنعة عليه فحصرها وفتحها وقسم غنائمها في أصحابه ، ثم سار عن خلاط وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء إلى أن وصل إلى برذعة فنزلها ، وكان ابن خاقان يومئذ بأذربيجان يغير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة ورثان ، فخاف الحرشي أن يملكها فأرسل بعض أصحابه إلى أهل ورثان سراً يعرفهم وصولهم ويأمرهم بالصبر ، فسار القاصد ولقيه بعض الخزر ، فأخذوه وسألوه عن حاله فأخبرهم وصدقهم فقالوا له إن فعلت ما نأمرك به أحسنَّا إليك وأطلقناك وإلا قتلناك ، قال فما الذي تريدون ؟ قالوا : تقول لأهل ورثان إنكم ليس لكم مدد ولا من يكشف ما بكم وتأمرهم بتسليم البلد إلينا ، فأجابهم إلى ذلك ، فلما قارب المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه فقال لهم : أتعرفونني ؟ قالوا : نعم أنت فلان قال : فإن الحرشي قد وصل إلى مكان كذا في عساكر كثيرة وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر ففي هذين اليومين يصل إليكم ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل وقتلت الخزر ذلك الرجل ورحلوا عن مدينة ورثان فوصلها الحرشي في العساكر وليس عندها أحد فارتحل يطلب الخزر إلى أردبيل ، فسار الخزر عنها ، ونزل الحرشي باجروان فأتاه فارس على فرس أبيض فسلم عليه وقال له : هل

لك أيها الأمير في الجهاد والغنيمة ؟ قال : كيف لي بذلك ؟ قال : هذا عسكر الخزر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا وقد نزلوا على أربعة فراسخ ، فسار الحرشي ليلاً ، فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربع جهات فكبسهم مع الفجر ووضع المسلمون فيهم السيف فما بزغت الشمس حتى قتلوا أجمعون غير رجل واحد ، وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان ، فلما دخلها أتاه ذلك الرجل صاحب الفرس الأبيض فسلم وقال : هذا جيش للخزر ومعهم أموال للمسلمين وحرم الجراح وأولاده بمكان كذا ، فسار الحرشي إليهم فما شعروا إلا والمسلمون معهم فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤوا ولم يفلت من الخزر إلا الشريد واستنقذوا من معهم من المسلمين والمسلمات وغنموا أموالهم ، وأخذ أولاد الجراح فأكرمهم وأحسن إليهم وحمل الجميع إلى باجروان .

وبلغ خبر ما فعله الحرشي بعساكر الخزر ابن ملكهم فوبّخ عساكره وذمهم ونسبهم إلى العجز والوهن فحرض بعضهم بعضاً وأشاروا عليه بجمع أصحابه ، والعود إلى قتال الحرشي ، فجمع أصحابه من نواحي أذربيجان فاجتمع معه عساكر كثيرة ، وسار الحرشي فالتقيا بأرض برزند واقتتل الناس أشد قتال وأعظمه ، فانحاز المسلمون يسيراً فحصرهم الحرشي فأمرهم بالصبر فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة ، واستغاث من مع الخزر من الأسارى ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء فعندها حرض المسلمون بعضهم بعضاً ولم يبق أحد إلا وبكى رحمة للأسرى واشتدت نكايتهم في العدو فولوا الأدبار منهزمين وتبعهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر أَرَس وعادوا عنهم وحووا ما في عساكرهم من الأموال والغنائم وأطلقوا الأسرى والسبايا وحملوا إلى باجروان .

ثم إن ابن ملك الخزر جمع من لحق به من عساكره وعاد بهم نحو الحرشي فنزل على نهر البَيْلَقَان ، وبلغ الخبر الحرشي فسار نحوه في عساكر المسلمين فوافاهم وهم على نهر البَيْلَقَان فالتقوا هناك فصاح الحرشي بالناس فحملوا حملة صادقة ضعضعوا صفوف الخزر ، وتابع الحملات وصبر الخزر صبراً عظيماً ، ثم كانت الهزيمة عليهم فولوا الأدبار منهزمين وكان من غرق منهم في النهر أكثر ممن قتل ، وجمع الحرشي الغنائم وعاد إلى باجروان فقسمها وأرسل الخمس إلى هشام بن عبد الملك وعرفه ما فتح الله به على المسلمين ، فكتب إليه هشام يشكره وأقام بباجروان فأتاه كتاب هشام

يأمره بالمسير إليه ، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على أرمينية وأذربيجان فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ، ففتحت مدائن وحصون على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقد جاز مسلمة بلنجر ، فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى باب الأبواب في آخر رمق ، فعزله هشام وولى أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد .

وسيأتي الكلام إن شاء الله على غزواته وما افتتحه وإنما تابعنا الكلام إلى سنة ثلاث عشرة لارتباط بعضهم ببعض .

ولنرجع إلى إتمام الكلام على الفتوحات الحاصلة في غير أذربيجان وأرمينية من سنة خمس إلى سنة ثلاث عشرة فيقول : كان في سنة خمس غزوة لسعيد بن عبد الملك بأرض الروم ، فبعث سرية في نحو ألف مقاتل فأصيبوا جميعاً ، وفي سنة ١٠٤ استعمل مسلم بن سعيد الكلابي أميراً بخراسان بعد عزل الحرشي عنها ، فغزا الترك بما وراء النهر سنة ١٠٥ فلم يُفْتَحْ شيء وقفل ، فتبعه الترك فلحقوه والناس يعبرون جيحون فوقف على الساقة عبيد الله بن زهير ومعه خيل بني تميم حتى عبر الناس سالمين ، وغزا مسلم أيضاً تلك السنة فشين ، فصالح أهلها على ستة آلاف رأس ودفع إليه القلعة .

وفي سنة خمس ومئة أيضاً غزا مروان بن محمد الصائفة اليمنى فافتتح قونية من أرض الروم وكمخ .

ذكر غزو مسلم بن سعيد الكلابي الترك

في سنة ست ومئة قطع مسلم النهر ولحق به من لحق من أصحابه ، فلما بلغ بخارى أتاه كتاب خالد بن عبيد الله القسري يخبره بولايته العراق ويأمره بإتمام غزواته ، فسار إلى فرغانة ، فلما وصلها بلغه أن خاقان قد أقبل عليه وأنه في موضع ذكروه فارتحل فسار ثلاث مراحل في يوم وأقبل إليهم خاقان فلقي طائفة من المسلمين وأصاب دوابَّ

لمسلم وقتل جماعة من المسلمين ، ثم أطاف خاقان بالعسكر وثار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر ، فرحل مسلم بالناس فسار ثمانية أيام والترك يحيطون بهم وأصاب الناس عطش وأحرق الناس ما ثقل من الأمتعة فحرقوا ما قيمته ألف ألف وأتوا خجندة فأصابتهم مجاعة ، ولما أراد عبور النهر والترك محيطون به ، أمر مسلم الناس أن يخترطوا سيوفهم ويحملوا ، ففعلوا وصارت الدنيا كلها سيوفاً فأفرجوا لهم فعبروا ، ثم وافاه كتاب خالد بن عبدالله بعزله وولاية أخي خالد وهو أسد بن عبد الله القسري .

وفي سنة سبع ومئة ملك الجنيد بن عبد الرحمن بعض بلاد السند وقتل صاحبه جيشبة وتقدم تفصيل ذلك .

ذكر غزوة بالأندلس

في سنة سبع ومئة غزا عنبسة بن الكلبي عامل الأندلس لهشام بن عبد الملك بلد الفرنج في جمع كثير ، ونازل مدينة قرقونة وحصر أهلها فصالحوه على نصف أعمالهم وعلى جميع ما في المدينة من أسرى المسلمين وأسلابهم وأن يعطوا الجزية ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه ، فعاد عنهم عنبسة .

ذكر غزوة الغُور

في هذه السنة غزا أسد بن عبد الله الغُورَ ، وهو جبال هراة فعمد أهلها إلى أثقالهم فصيروها في كهف ليس إليه طريق ، فأمر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بسلاسل فتواصلوا إلى الكهف فاستخرجوا ما قدروا عليه .

ذكر غزوة الختّل والغُور

في سنة ثمان ومئة قطع أسد النهر وأتاه خاقان فلم يكن بينهما قتال ، وقيل عاد مهزوماً من الختل وأظهر أنه يريد أن يشتو بسرخ دره فأمر الناس فارتحلوا ووجّه راياته وسار في ليلة مظلمة إلى سرخ دره ، فكبّر الناس فقال : ما لهم ؟ فقالوا : هذه علاماتهم إذا قفلوا ، فقال للمنادي : نادِ أن الأمير يريد الغوريين ، فمضى إليهم فقاتلوهم يوماً وصبروا لهم ، ثم عادوا من الغد فاقتتلوا وانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم وظهروا على البلاد وأسروا وسبوا وغنموا ورجعوا .

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم مما يلي المدينة ففتح قيسارية وهي مدينة مشهورة ، وفيها أيضاً غزا إبراهيم بن هشام ففتح حصناً من حصون الروم ، وفيها أيضاً سار ابن خاقان ملك الترك إلى أذربيجان فحصر بعض مدنها ، فسار إليه الحارث بن عمر الطائي فالتقوا فاقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نهر أَرَس ، فعاد إليه ابن خاقان فعاود الحرب أيضاً فانهزم ابن خاقان ، وقتل من الترك خلق كثير ، وفي سنة تسع ومئة فصل هشام بن عبد الملك ولاية خراسان عن ولاية العراق وعزل أسداً عن خراسان واستعمل على خراسان أشرس بن عبد الله السلمي ، وله وقائع مع أهل سمرقند ستأتي .

وفي هذه السنة غزا عبد الله بن عقبة الفهري في البحر ، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصناً يقال له طيبة ، وفيها غزا أيضاً مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذربيجان ، وتقدم ذكر ذلك .

وفي هذه السنة أيضاً غزا بشر بن صوفان عامل إفريقية جزيرة صقلية فغنم شيئاً كثيراً ، ثم رجع إلى القيروان .

ذكر ما جرىٰ لأشرس بن عبد الله السلمي مع أهل سمرقند وغيرها

في سنة عشر ومئة أرسل أشرس جماعة إلى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية ، فدعوهم لذلك فأسلموا فجاء الخبر إلى أشرس بأن الخراج قد انكسر ، فكتب أشرس إلى العامل بلغني أنهم لم يسلموا رغبة وإنما أسلموا نفوراً من الجزية فانظروا من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سوراً من القرآن فارفعوا الجزية عنه ، وعزل ذلك العامل وولى ابن هانيء فكتب لأشرس إنهم أسلموا ، وبنوا المساجد ؟ فكتب إليه أشرس أن يعيد الجزية على من كانت عليه ولو أسلم فاعتزلوا في سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند وامتنعوا وأرادوا ، فكتب أشرس بوضع الخراج عنهم فرجعوا وضعف أمرهم ثم تتبعوا وحبسوا وأقيمت عليهم العقوبات وخرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذت الجزية ممن أسلم ، فكفرت الصغد وبخارى واستجاشوا بالترك ، فخرج أشرس غازياً فنزل آمُل وأقام شهراً ، وقدم قطن بن قتيبة بن مسلم في عشرة آلاف فعبر النهر ولقي الترك وأهل الصغد وبخارى

معهم خاقان فحصروا قطناً في خندقه وأغار الترك على سرح المسلمين ، فبعث أشرس
خيلاً استنقذت من أيدي الترك ما أخذوه ، ثم عبر أشرس النهر بالناس ولحق بقطن
فلقيهم العدو فانهزموا أمامهم .

وسار أشرس بالناس حتى جاء بيكند فحصرها المسلمون فقطع أهل البلد عنهم
الماء وأصابهم العطش فرحلوا قاصدين البلد فاعترضهم دونها العدو فقاتلوهم قتالاً
شديداً حتى أزالوا الترك عن الماء ، وحمل قطن بن قتيبة في جماعة تعاقدوا على الموت
فانهزم العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم إلى الليل ، ثم رجع أشرس إلى بخارى وجهز
عليها عسكراً يحاصرونها ، ثم حاصر خاقان مدينة كمرجة من خراسان وبها جمع من
المسلمين ، فأغلقوا الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق ليمنعوا الكفار من الدخول
إليهم ، ثم أمر خاقان بقطع الخندق فجعلوا يلقون فيه الحطب الرطب ليعبروا عليه ،
فجعل المسلمون يلقون حطباً يابساً على الحطب الرطب حتى سوي الخندق ، فأشعلوا
فيه النيران وهاجت ريح شديدة صنعاً من الله فاحترق الحطب في ساعة واحدة وكانوا
جمعوه في سبعة أيام ، ثم فرق خاقان على الترك أغناماً وأمرهم أن يأكلوا لحمها
ويحشوا جلودها تراباً ويكبسوا خندقها ففعلوا ذلك ، فأرسل الله سحابة فأمطرت مطراً
شديداً فاحتمل السيل ما في الخندق وألقاه في النهر الأعظم ورماهم المسلمون بالسهام
فأصابت بازغرى نشابة في سرته فمات من ليلته ، وكان داهية ، وكان خاقان
لا يخالفه ، فدخل عليهم بموته أمر عظيم .

فلما امتد النهار جاؤوا بالأسرى الذين عندهم وهم مئة فقتلوهم ، وكان عند
المسلمين مئتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم واستماتوا ، واشتد القتال ولم يزل
أهل كمرجة كذلك حتى أقبلت جنود العرب فنزلت فرغانة فَعيَّر خاقان قومه في طول
المدة وعدم الفتح ، قال : زعمتم أنها تفتح في خمسة أيام فصارت الخمسة شهرين ،
وأمرهم بالرحيل وشتمهم فقالوا : أَمْهِلْنا إلى غد وانظر ما نصنع ، فلما كان الغد وقف
خاقان وتقدم ملك الطاربنده فقاتل المسلمين وقتل منهم ثمانية وجاء حتى وقف على
ثلمة إلى جنب بيت فيه مريض من تميم فرماه التميمي بكلوب فتعلق بدرعه ثم نادى
النساء والصبيان فجذبوه فسقط لوجهه ورماه رجل بحجر فأصاب أصل أذنه فصرع
وطعنه آخر فقتله ، فاشتد قتله على الترك وأرسل خاقان إلى المسلمين إنه ليس من رأينا

أن نرتحل عن مدينة نحاصرها دون افتتاحها فارحلوا أنتم عنا ، فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم ، فأعطاهم الترك الأمان على أن يرحل خاقان عنهم ويرحلوا هم عنها إلى سمرقند أو الدبوسية ، فرأى أهل كَمَرْجَةَ ما هم فيه من الحصار فأجابوا إلى ذلك فأخذوا من الترك رهائن ألاَّ يعرضوا لهم وطلبوا أن يكون كُورْصُول التركي معهم في جماعة ليمنعهم إلى الدَّبُوسِيَّة ، فسلموا إليهم الرهائن وأخذوا هم أيضاً من المسلمين رهائن وارتحل خاقان عنهم ، ثم رحلوا هم بعده ، فقال الأتراك الذين مع كورصول إن بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن أن يخرجوا علينا ، فقال لهم المسلمون إن قاتلوكم قاتلناهم معكم ، فساروا فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها إلى الفرسان فظنوا أن كمرجة فتحت ، وأن خاقان قد قصدهم فتأهبوا للحرب فأرسل المسلمون إليهم يخبرونهم خبرهم فلقوهم وحملوا من كان يضعف عن المشي ومن كان مجروحاً ، فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا إلى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم ويأمرونه بإطلاقهم ، فجعلت العرب تطلق رجلاً من الرهن والترك رجلاً حتى بقي سباع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب وجعل كل فريق يخاف من صاحبه الغدر ، فقال سباع خلوا رهينة الترك فخلوه ، وبقي سباع مع الترك فقال له كورصول : ما حملك على هذا ؟ قال : وثقت بك وقلت ترفع نفسك عن الغدر ، فوصله كورصول وأعطاه سلاحه وبرذوناً وأطلقه .

وكان مدة حصار كمرجة ثمانية وخمسين يوماً ، فيقال إنهم لم يسقوا إبلهم خمسة وثلاثين يوماً .

وفي هذه السنة ارتد أهل كردر فأرسل إليهم أشرس جنداً فظفروا بهم ، وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الروم ، ففتح صملة ، وغزا الصائفة عبدالله بن عقبة الفهري ، وفيها مات الحسن البصري وعمره سبع وثمانون سنة ، وفيها أيضاً مات محمد بن سيرين وعمره إحدى وثمانون سنة .

ذكر غزوة ما وراء النهر

في سنة إحدى عشرة ومئة عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل عليها الجنيد بن عبد الرحمن المري الغطفاني القيسي ، فلما قدم خراسان سار

إلى ما وراء النهر ، وأرسل الجنيد إلى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد أن أمدني بخيل ، وخاف أن يقتطع دونه ، فوجّه إليه أشرس عامر بن مالك الحماني في جماعة ، فلما كان عامر ببعض الطريق عرض له الترك والصغد فدخل حائطاً حصيناً وقاتلهم على الثلمة ، وكان من معه واصل بن عمرو القيسي وعاصم بن عمر السمرقندي ، فاستداروا مع جماعة من القوم حتى صاروا من وراء الماء الذي هناك ، ثم جمعوا قصباً وخشباً وعبروا عليه ، فلم يشعر خاقان إلا والتكبير من خلفه ، وحمل المسلمون على الترك فقاتلوهم وقتلوا عظيماً من عظمائهم وانهزم الترك وسار عامر إلى الجنيد فلقيه وأقبل معه ، فلما انتهى إلى فرسخين من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم ، فكاد الجنيد يهلك ومن معه ثم أظهره الله ، وسار حتى قدم العسكر فظفر الجنيد وقتل الترك وزحف إليه خاقان فالتقوا دون رزمان من بلاد سمرقند ، وأسر الجنيد من الترك ابن أخي خاقان فبعث به إلى هشام ورجع الجنيد إلى مرو وقد ظفر ، وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى قيسارية ، وغزا في البحر عبد الله بن أبي كريم .

وفي سنة اثنتي عشرة ومئة كان دخول الجراح بن عبد الله الحكمي بلاد الخزر وقتله ، وتقدم الكلام على ذلك مستوفى .

ذكر وقعة الجنيد بن عبد الرحمن المري بالشعب

في سنة ثنتي عشرة ومئة خرج الجنيد من مرو غازياً طَخَارِستان ، فوجّه عمارة بن حُرَيْم إلى طَخَارِستان في ثمانية عشر ألفاً ، ووجّه إبراهيم بن بسام الليثي في عشرة آلاف إلى وجه آخر وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سَوْرَةُ بن الحُرّ ، فكتب سورة إلى الجنيد : أن خاقان جاش الترك فخرجت إليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوثَ الغوثَ .

فأمر الجنيد الناس بعبور النهر ، فقال له جماعة من جنده : إن الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفاً ولا زحفاً ، وقد فرقت كثيراً من الجند ولا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً فاكتب إلى عمارة فليأتك وامهل ولا تعجل .

قال : فكيف بسورة ومن معه من المسلمين ، لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت ؟ .

ثم عبر الجنيد بمن كان حاضراً فنزل كش وتأهب للمسير ، وبلغ مسيره فغوّروا الآبار التي في طريق كش ، فقال الجنيد : أي طريق إلى سمرقند أصلح ؟ فقالوا : طريق المحترقة ، فقال المجشر بن مزاحم السلمي : القتل بالسيف أصلح من القتل بالنار ، طريق المحترقة كثير الشجر والحشيش ، ولم يزرع منذ سنين ، فإن لقينا خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ، ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء ، فأخذ الجنيد طريق العقبة فارتقى في الجبل ، فأخذ المجشر بعنان دابته وقال : إنه كان يقال : إن رجلاً مترفاً من قيس يهلك على يديه جند من جنود خراسان وقد خفنا أن تكونه ، فقال : ليفرغ روعك . قال : أما ما كان بيننا مثلك فلا ، فبات في أصل العقبة ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربع فراسخ ، ودخل الشعب فصبّحه خاقان في جمع عظيم ، وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك فحمل خاقان على المقدمة فرجعوا إلى العسكر والترك وتتبعهم وجاؤوا من كل وجه .

فرتّب الجنيد جيشه وجعل على كل جهة رئيساً مشهوراً بالشجاعة ، وشدّ نصر بن سيّار هو ومن معه على العدو فكشفوهم ثم كروا عليهم ، وقتل يومئذ من الأزد ثمانون رجلاً ، وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا ، فكانت السيوف لا تقطع شيئاً فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به حتى ملَّ الفريقان فكانت المعانقة ، ثم تحاجزوا .

فبينا الناس كذلك إذ أقبل رَهَجٌ وطلعت فرسان ، فنادى منادي الجنيد : الأرضَ الأرضَ ، فترجّل وترجّل الناس ، ثم نادى : ليخندقْ كل قائد على حياله فخندقوا وتحاجزوا وقد أصيب من الأزد مئة وتسعون رجلاً وكان قتالهم يوم الجمعة ، فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر فلم يجد موضعاً للقتال أسهل من الموضع الذي نزل به قبائل بكر بن وائل فقصدهم ، فلما قربوا حملت بكر عليهم فأفرجوا لهم وسجد الجنيد واشتد القتال بينهم .

فلما رأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه ، فقال له عبد الله بن حبيب : اختر إما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر ، قال : هلاك سورة أهون عليّ ، قال : فاكتب له فليأتك من سمرقند في أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه ، فكتب إليه الجنيد يأمره بالقدوم ، فقال لسورة حُلَيْس بن غالب الشيباني : إن الترك بينك وبين

الجنيد ، فإن خرجت كَرّوا عليك فاختطفوك ، فكتب إلى الجنيد : إني لا أقدر على الخروج ، فكتب إليه الجنيد يا ابن اللّخناء تخرج وإلا وجهت إليك شدّاد بن خليد الباهلي ـ وكان عدوه ـ فاخرج والزم الماء ولا تفارقه ، فأجمع على المسير ، وقال : إذا سرت على النهر لا أصل في يومين وبيني وبين هذا الوجه ليلة فإذا سكنت الريح سرت ، فجاءت عيون الأتراك فأخبروهم بمقالة سورة ، ورحل سورة واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحنظلي ، وسار في أثني عشر ألفاً فأصبح على رأس جبل فتلقاه خاقان حين أصبح وسار ثلاثة فراسخ وبينه وبين الجنيد فرسخ فقاتلهم أشد القتال وصبروا ، فقال غوزك لخاقان : اليوم حار فلا نقاتلهم حتى يحمي عليهم السلاح ، فوافقهم وأشعل النار في الحشيش وحال بينهم وبين الماء ، فقال سورة لعباد : ما ترى يا أبا سليم ؟ فقال : أرى أن الترك يريدون الغنيمة ، فاعقر الدواب وأحرق المتاع وجرد السيف فإنهم يخلون لنا الطريق ، وإن منعونا شرعنا الرماح ونزحف زحفاً وإنما هو فرسخ حتى نصل إلى العسكر . فقال : لا أقوى على هذا ولا فلان وفلان وعَدَّ رجالاً ، ولكن أجمع الخيل فأصكهم بها سلمت أم عطبت .

وجمع الناس وحملوا فانكشف الترك وثار الغبار فلم يبصروا ، وكان من وراء الترك لهيب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسورة فاندقت فخذه ، وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم غير ألفين ويقال ألف ، وكان ممن نجا عاصم بن عمير السمرقندي .

وانحاز المهلب بن زياد العجلي في سبعمئة إلى رستاق يسمىٰ المرغاب فنزلوا قصراً هناك فأتاهم الإسكندر صاحب نسف ومعه غوزك ، فأعطاهم غوزك الأمان ، فقال قُريش بن عبد الله العبدي : لا تثقوا بهم ولكن إذا جَنَّنا الليل خرجنا عليهم حتى نأتي سمرقند ، فعصوه فنزلوا بالأمان فساقهم إلى خاقان فقال : لا أجيز أمان غوزك فقاتلهم الوجف بن خالد ومعه المسلمون فأصيبوا غير سبعة عشر رجلاً ، فقتلوا غير ثلاثة ، وقتل سورة في اللهب ، فلما قتل خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادراً فقال له خالد بن عبيد الله : سِرْ وأسرع . فقال له المجشر : انزل ، وأخذ بلجام دابته فنزل ونزل الناس معه فلم يستتم نزولهم حتى طلع الترك ، فقال المجشر له : لو لقونا قبل نزولنا ونحن نسير ألم يهلكونا ؟ فلما أصبحوا تناهضوا فجال الناس ، فقال

الجنيد : أيها الناس إنها النار . فرجعوا ونادى الجنيد : أيُّ عبد قاتل فهو حر ، فقاتل العبيد قتالاً عجب منه الناس فسرّوا بما رأوا من صبرهم وصبر الناس حتى انهزم العدو ومضوا ، فقال موسى بن التغراء تفرحون بما رأيتم من العبيد إن لكم منهم ليوماً أروزبان ؛ أي ذا رياسة ، ومضى الجنيد إلى سمرقند فحمل عيال من كان في صحبة سورة إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر .

ولما انصرف الترك بعث الجنيد بالخبر إلى هشام ، وكتب إليه أن سورة عصاني أمرته بلزوم الماء فلم يفعل ، فتفرق عنه أصحابه فأتتني طائفة وطائفة إلى نسف وطائفة إلى سمرقند ، وأصيب سورة في بقية أصحابه ، فكتب هشام إلى الجنيد : قد وجّهت إليك عشرة آلاف من أهل البصرة وعشرة آلاف من أهل الكوفة ومن السلاح ثلاثين ألف رمح ومثلها تَرِسَة ومثلها سيفاً ، فافرض أيَّ ما شئت في العطاء ، فلا غاية لك في الفريضة بخمسة عشر ألفاً .

ولما سمع هشام بمصاب سورة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مُصَابُ سورة بخراسان ، ومصاب الجراح بالباب . وأَبْلىٰ نصر بن سيار يومئذ بلاء حسناً .

وأرسل الجنيد ليلة بالشعب رجلاً وقال له : تسمّع ما يقول الناس وكيف حالهم ، ففعل ثم رجع إليه ، فقال : رأيتهم طيبة أنفسهم يتناشدون الأشعار ويقرؤون القرآن ، فسرّه ذلك .

قال عبيد بن حاتم بن النعمان : رأيت فساطيط بين السماء والأرض فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لعبد الله بن بسطام وأصحابه فقتلوا في غد . فقال رجل : مررت في ذلك الموضع بعد ذلك بحين فشممت رائحة المسك .

وأقام الجنيد بسمرقند ، وتوجّه خاقان إلى بخارى وعليه قطن بن قتيبة بن مسلم ، فخاف الجنيد الترك على قطن بن قتيبة فشاور أصحابه فقال قوم : نلزم سمرقند . وقال قوم : نسير منها فنأتي رَبِنْجَن ، ثم كش ثم إلى نسف ، فنتصل منها إلى أرض زم ونقطع النهر وننزل آمُل فنأخذ عليه بالطريق ، واستشار عبد الله بن أبي عبد الله مولى بني سالم وأخبره بما قالوا فاشترط عليه ألاّ يخالفه فيما يشير به عليه من ارتحال ونزول وقتال ، فقال : نعم ، قال : فإني أطلب إليك خصالاً ، قال : وما هي ؟ قال : تخندق حيثما

نزلت ولا يفوتنك حمل الماء ولو كنت على شاطىء نهر ، وَأَنْ تطيعني في نزولك وارتحالك ؟ قال : نعم ، قال : أما ما أشاروا عليك في مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث يبطىء عنك ، وأما ما أشاروا من طريق كش ونسف ، فإنك إن سرت بالناس من غير الطريق فَتَّتَّ في أعضادهم وانكسروا عن عدوهم واجترأ عليك خاقان وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له ، فإن أخذت غير الطريق بلّغ أهل بخارى ما فعلت فيستسلموا لعدوهم وإن أخذت الطريق الأعظم هابك العدو ، والرأي عندي أن تأخذ عيال من قتل مع سورة فتقسمهم على عشائرهم وتحملهم معك فإني أرجو بذلك أن ينصرك الله على عدوك وتعطي كل رجل تخلّف بسمرقند ألف درهم وفرساً ، فأخذ برأيه وخلف بسمرقند عثمان بن أبي عبد الله بن الشخير في أربعمئة فارس وأربعمئة راجل ، فشتم الناس عبد الله بن أبي عبد الله ، وقالوا : ما أراد إلا هلاكنا .

فخرج الجنيد وحمل العيال معه وسرح الأشحب بن عبيد الحنظلي ومعه عشرة من الطلائع ، وقال : كلما مضيت مرحلة تسرح رجلاً يعلمني الخبر ، وسار الجنيد فأسرع سيره فقال له عطاء الدوسي : انظر ضعف شيخ في العسكر فسلحه سلاحاً تاماً بسيفه ورمحه وترسه وجعبته ، ثم سِرْ على قدر مشيه ، وإنا لا نقدر على سرعة المسير والقتال ، ففعل الجنيد ذلك ، ولم يعرض للناس عارض حتى خرجوا من الأماكن المخوفة ودنا من الطواويس .

وأقبل إليهم خاقان وبكرٌ مُبَيّتة أول يوم من رمضان واقتتلوا فأتاه عبد الله بن أبي عبد الله وهو يضحك ، فقال الجنيد : ليس هذا يوم ضحك ، قال : الحمد لله إذ لم يلقك هؤلاء في جبال معطشة وعلى ظهر ، إنما أتوك وأنت مخندق آخر النهار كالّين وأنت معك الزاد فقاتلوا قليلاً ثم رجعوا ، ثم قال للجنيد : ارتحل فإن خاقان ودَّ أنك تقيم فينطوي عليك إذا شاء ، فسار وعبد الله على الساقة ثم أمره بالنزول فنزل واستقى الناس وباتوا ، فلما أصبحوا ارتحلوا فقال عبد الله : أتوقّع أن خاقان يصدم الساقة اليوم فشدوها بالرجال فقواهم الجنيد ، وجاءت الترك فمالت على الساقة فاقتتلوا واشتدّ القتال بينهم وقتل مسلم بن أحوز عظيماً من عظماء الترك فتطيروا من ذلك وانصرفوا من الطواويس .

وسار المسلمون فدخلوا بخارى يوم المهرجان فتلقوهم بالدراهم البخارية

فأعطاهم عشرة عشرة ، قال عبد المؤمن بن خالد : رأيت عبد الله بن أبي عبد الله في المنام بعد موته فقال : حدث الناس عني برأيي يوم الشعب ، وكان الجنيد يذكر خالد بن عبدالله فيقول : زبدة الناس من الزبد ، صنبور من صنبور ، قُلٌّ من قُلّ ، هيفة من الهيف ، والهيفة : الضبع ، والقُلُّ : الفرد ، والصنبور : الذي لا أخ له .

وقدمت الجنود من الكوفة والبصرة على الجنيد فسرح معهم حَوْثرة بن زيد العَنْبريّ فيمن انتدب معه ، وبقي الجنيد في ولايته إلى سنة ست عشرة ومئة كما سيأتي ، وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح خرشنة .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة غزا عبد الله البطل أرض الروم ومعه عبد الوهاب بن بخت فانهزم الناس عن البطل ، فحمل عبد الوهاب وهو يقول ما رأيت فرساً أجبن منه وسفك الله دمي إن لم أسفك دمك ، ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنّة تفرّون ؟ ثم تقدم في نحو العدو فمر برجل يقول واعطشاه ، فقال : تقدم الري أمامك فخالط القوم فقتل وقتل فرسه ، وفي هذه السنة أيضاً تفرق مسلمة بن عبد الملك بالجيوش ببلاد خاقان ففتحت حصون مدائن على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من كانوا وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان ، فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم على خاقان في جمع لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقد جاز مسلمة بلنجر ، فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ، ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة ، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان ، وطوى المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى باب الأبواب في آخر رمق ، وقد تقدم ذكر ذلك وأعيد هنا ليرتبط الكلام ببعضه .

ذكر قتل عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس

وفي سنة ثلاث عشرة أيضاً كان غزو من المسلمين الذين بإفريقية على بلاد أفرنجة ، وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد استعمل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على إفريقية والأندلس ، فاستعمل عبيدة على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فغزا أفرنجة وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة ، وكان فيما أصاب صورة رِجْل ـ بكسر الراء وسكون الجيم ـ من ذهب مفصّصة بالدر والياقوت والزمرد فكسرها

وقسمها في الناس ، فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضباً شديداً وكتب إليه يتهدده ، فأجابه عبد الرحمن ـ وكان رجلاً صالحاً ـ أما بعد : فإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً يعني فإن الله قادر على أن ينجيني مما تتهددني به ، ثم خرج غازياً مرة ثانية ببلاد الفرنج فقتل هو ومن معه شهداء .

ذكر ولاية مروان بن محمد أَرْمِينِيَّة وأَذَرْبَيْجَان بعد انقضاء غزو مَسْلَمة بن عبد الملك

في سنة أربع عشرة ومئة استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، وكان سبب ذلك أنه كان في عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر ، فلما عاد مسلمة سار مروان إلى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه فسأله عن سبب قدومه فقال : ضقت ذرعاً بما أذكره ولم أر من يحمله غيري ، قال : وما هو ؟ قال مروان : قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين ، ثم رأى أمير المؤمنين أنه يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم فوالله ما وطىء من بلادهم إلا أدناه ، ثم إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعد القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قُصاراه السلامة وقد أردت أن تأذن لي في غزوة أُذْهِبُ بها عنا العار وأنتقم من العدو ، فقال : قد أذنت لك ، قال : وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل ، قال : قد فعلت ، قال : وتكتم هذا الأمر عن كل واحد ، قال : قد فعلت وقد استعملتك على أرمينية ، فودّعه وسار إلى أرمينية والياً عليها وسيّر هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة ، فاجتمع عنده من الجنود والمتطوعة مئة وعشرون ألفاً ، فأظهر أنه يريد غزو اللان وقصد بلادهم ، وأرسل إلى ملك الخزر يطلب منه المهادنة ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل إليه ملك الخزر من يقرر الصلح ، فأمسك الرسول عنده إلى أن فرغ من جهازه وما يريد ، ثم أغلظ لهم القول وآذنهم بالحرب وسيّر الرسول إلى صاحبه بذلك ووكل به من يسيره على طريق فيه بعد ، وسار هو في أقرب الطريق فما وصل الرسول إلى صاحبه إلا ومروان قد وافاهم فأعلمه صاحبه الخبر ، وأخبره بما قد جمع له مروان وحشد

واستعد ، فاستشار ملك الخزر أصحابه فقالوا إن هذا قد اغترك ودخل بلادك إن أقمت إلى أن تجمع جنودك لم يجتمعوا عندك إلا بعد مدة فيبلغ منك ما يريد ، وإن أنت لقيته على حالك هذا هزمك وظفر بك ، والرأي أن تتأخر إلى أقصى بلادك وتدعه وما يريد ، فقبل رأيهم وسار حيث أمروه .

ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى وانتهى إلى آخرها ، وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم وانتقم منهم ودخل بلاد ملك السرير ، فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ، ودان له الملك وصالحه على ألف رأس نصفين خمسمئة غلاماً وخمسمئة جارية سود الشعر ومئة ألف مد من البر تحمل إلى الباب وصالحه أهل قرمان على مئة رأس نصفين وعشرين ألف مد من البر ، ثم دخل أرض زريكران فصالحه ملكها ، ثم أتى أرض حمزين فأبى حمزين أن يصالحه فحاصرهم فافتتح حصنهم عنوة ، ثم أتى سغدان فافتتحها صلحاً ، ووظف على طبرشانشاه عشرة آلاف مدبّر كل سنة تحمل إلى الباب ، ثم نزل على قلعة صاحب اللكز وقد امتنع من أداء الوظيفة فخرج ملك اللكز يريد ملك الخزر فقتله راع بسهم وهو لا يعرفه ، فصالح أهل اللكز مروان واستعمل عليهم عاملاً ، وسار إلى قلعة شروان وهي على البحر فأذعن أهلها بالطاعة ، وسار إلى الدودانية فأوقع بهم ثم عاد .

وفي هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى فأصاب ربض أقرن ، وغزا عبد الله البطال الروم والتقى هو وقسطنطين في جمع فهزمهم البطال وأسر قسطنطين ، وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى وبلغ قيسارية .

وفي سنة خمس عشرة ومئة غزا معاوية بن هشام أرض الروم وغزا عبد الملك بن قطن عامل الأندلس أرض البشكنس فغنم وعاد سالماً .

وفي سنة ست عشرة ومئة غزا معاوية بن عبد الملك أرض الصائفة ، وفيها عزل هشام بن عبد الملك الجنيد بن عبد الرحمن المري عن خراسان واستعمل عليها عاصم بن عبد الله الهلالي ، وسبب ذلك أن الجنيد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فغضب هشام لعداوته ليزيد بن المهلب لأنه خلع أخاه يزيد بن عبد الملك كما تقدم ، فولى عاصماً خراسان ، وكان الجنيد أصابه استسقاء فقال هشام لعاصم : إن أدركته وبه

رمق فأزهق نفسه ، فقدم عاصم وقد مات الجنيد ، وفي هذه السنة استعمل هشام على إفريقية عبد الله بن الحجاب الموصلي فسيَّر جيشاً إلى صِقلِّية وهي بكسرات مشددة اللام جزيرة بالمغرب ، فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الروم وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين منهم عبد الرحمن بن زياد ، فبقي أسيراً إلى سنة إحدى وعشرين ومئة .

وفي سنة ست عشرة أيضاً جهز عبيد الله بن الحجاب جيشاً مع حبيب بن أبي عبيدة وسيّرهم إلى أرض السودان فظفر بهم ظفراً لم يظفر أحد مثله وأصاب ما شاء ، ثم غزا البحر ثم انصرف سالماً ، وفيها سيّر أيضاً ابن الحجاب جيشاً إلى السوس فغنموا وظفروا وعادوا .

وفي سنة سبع عشرة ومئة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة وفرق سراياه في أرض الروم ، وفيها بعث مروان بن محمد وهو على أرمينية بعثين وافتتح أحدهما حصوناً ثلاثة من أللّان ونزل الآخر على تومانشاه فنزل أهلها على الصلح .

وفي هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبد الله عن خراسان وأعاد أمر خراسان لوالي العراق خالد بن عبد الله القسري فولى خالد خراسان أخاه أسد بن عبد الله ، وهذه ولايته الثانية ، وسيأتي ذكر غزواته .

وفيها بعث عبيد الله بن الحجاب حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد إلا ظفر به ، وأصاب من الغنائم والسبي أمراً عظيماً فملىء أهل المغرب منه رعباً ، وأصاب في السبي جاريتين من البربر ليس لكل واحدة منهما غير ثدي واحد ، ورجع سالماً وسيّر جيشاً في البحر سنة سبع عشرة ومئة أيضاً إلى جزيرة السردانية وهي جزيرة كبيرة ببحر المغرب ففتحوا منها ونهبوا وغنموا وعادوا ، وسيّر جيشاً إلى صقلية سنة اثنتين وعشرين ، فلم يلقه أحد إلا هزمه ، فظفر ظفراً لم ير مثله حتى نزل على مدينة سرقوسة وهي من أعظم مدن صقلية فقاتلوه فهزمهم وحصرهم فصالحوه على الجزية .

وفي سنة ثمان عشرة ومئة غزا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبد الملك أرض

الروم ، وفي هذه السنة كانت وفاة معاوية المذكور في حياة والده وأعقب أولاداً منهم عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الذي ملك الأندلس وأولاده بعده .

وفي هذه السنة غزا أسد بن عبد الله القسري والي خراسان طخارستان ثم أرض جبوية فغنم وسبى ، وفيها غزا مروان بن محمد بن مروان أرمينية ودخل أرض ورنيس من ثلاثة أبواب ، فهرب منه ورنيس إلى الخزر ونزل حصنه فحصره مروان ونصب عليه المجانيق ، فقتل ورنيس قتله بعض من اجتاز به ، وأرسل رأسه إلى مروان فنصبه لأهل حصنه فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية .

ذكر مقتل خاقان

لما كانت سنة تسع عشرة ومئة غزا أسد بن عبد الله القسري بلاد الختل ، فافتتح منها قلاعاً ، وامتلأ أيدي العسكر من السبي والشاء ، ولما بلغ الخبر خاقان جيش جيوشه وقصد أسداً ، فعبر المسلمون النهر راجعين إلى بلادهم ، فتبعهم خاقان والتقوا بعد عبور النهر واقتتلوا قتالاً شديداً وهزموا خاقان ، ثم مضى أسد إلى بلخ وشتى فيها ثم قصدهم خاقان بجيوشه إلى بلخ ثم التقوا على فرسخين من الجوزجان فانهزم خاقان ومن معه وتبعهم المسلمون ثلاثة فراسخ وغنموا مئة وخمسين ألفاً من الشاء ودواب كثيرة ، ورجع أسد إلى بلخ ، ثم وصل خاقان إلى بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ولاعب يوماً خاقان بالنرد كورصول فغمزه كورصول وتشاجرا فصلك كورصول يد خاقان فكسرها فحلف خاقان ليكسرنّ يده فتنحى وجمع جمعاً ، ثم بيّت خاقان فقتله وتفرقت الترك واشتغلت الترك بغير بعضهم على بعض ، وأرسل أسد مبشراً إلى هشام ، فلما بلغ هشام بن عبدالملك مقتل خاقان سجد شكراً لله ، ثم غزا أسد الختل مرة ثانية وفرق عسكره في أودية الختل فملؤوا أيديهم من الغنائم والسبي وهرب أهله إلى الصين .

وفي سنة تسع عشرة أيضاً غزا الوليد بن القعقاع أرض الروم وغزا مروان بن محمد بن مروان من أرمينية فدخل بلاد اللان وسار فيها حتى خرج منها إلى بلاد الخزر فمر ببلنجر وسمندر ، وانتهى إلى البيضاء التي يكون فيها خاقان ، وكان ذلك قبل مقتل خاقان فهرب منه خاقان .

وفي سنة عشرين توفي أسد بن عبد الله بمدينة بلخ ، وفيها عزل هشام بن

عبدالملك خالد بن عبد الله عن العراق وولى يوسف بن عمر الثقفي وولى نصر بن سيار الكناني خراسان بعد موت أسد بن عبد الله ، وفي هذه السنة غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة وفتح سندرة ، وغزا إسحاق بن مسلم العقيلي تومانشاه وافتتح قلاعها وخرب أرضها ، وفي هذه السنة توفي مسلمة بن عبدالملك بن مروان .

وفي سنة إحدى وعشرين ومئة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير .

ذكر غزوات نَصْر بن سَيَّار الكِنانيِّ ما وراء النهر

كان نصر بن سَيّار عاقلاً حازماً شجاعاً مدبراً ، عمرت خراسان في مدة ولايته عمارة لم تعمر قبلها ، وأحسن الولاية والجباية ، مكث والياً على خراسان إلى سنة ثلاثين ومئة فكانت مدة ولايته عشر سنين ، وكان قبل ولايته من أمراء الأجناد بخراسان وَوُلّيَ على بعض من المدائن ، وكان جعفر بن حنظلة الذي استخلفه أسد على خراسان عند موته قد عرض على نصر أن يوليه بخارى ، فاستشار البختري بن مجاهد مولى بني شيبان فقال له لا نقبلها لأنك شيخ مضر وكأنك بعهدك قد جاء على خراسان كلها ، فلما أتاه عهده بعث إلى البختري ليأتيه ، فقال البختري لأصحابه : قد وُلي نصر خراسان ، فلما أتاه سلم عليه بالإمارة فقال : من أين علمت ؟ فقال : كنت تأتيني ، فلما بعثت إليّ علمت أنك قد وُلّيت ، ولما مات أسد بن عبد الله وبلغ خبر موته هشام بن عبد الملك استشار عبد الكريم بن سليط الحنفي وكان عالماً فيمن يوليه خراسان ، فقال عبد الكريم : يا أمير المؤمنين أما رجل خراسان حزماً ونجدة فالكرماني ، فأعرض عنه وقال : ما اسمه ؟ قال : جديع بن علي ، قال : لا حاجة لي فيه وتطيّر ، قال : فالمسنّ المجرب يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيباني ، قال هشام : ربيعة لا تُسَدُّ بها الثغور ، قال عبد الكريم : فقلت في نفسي كره ربيعة واليمن فارمه بمضر ، فقلت : عقيل بن معقل الليثي إن غفرت هنته ، قال : ما هي ؟ قلت : ليس العفيف ، قال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : منصور بن أبي الخرقاء السلمي إن غفرت نكره فإنه مشؤوم ، قال : غيره ، قلت فالمجشّر بن مزاحم السلمي عاقل شجاع له رَأْي مع كذب فيه ، قال : لا خير في الكذاب ، قلت : يحيى بن الحصين ، قال : ألم أخبرك أن ربيعة لا تُسدُّ بها الثغور ؟ قال فقلت نصر بن سيار ، قال : هو لها ، قلت : هو عفيف

مجرب عاقل إن غفرت له واحدة ، قال : ما هي ؟ قلت : عشيرته بخراسان قليلة ، قال : لا أبا لك تريد أكثر مني عشيرة أنا عشيرته ، فكتب عهده وبعثه مع عبد الكريم فأعطاه نصر لما أتاه به عشرة آلاف درهم ، واستعمل نصر على خراسان رجال مضر إلى أربع سنين ، لم يستعمل أحداً من غير مضر .

وغزا نصر في سنة إحدى وعشرين ما وراء النهر مرتين إحداهما من نحو الباب الجديد ، فسار من بلخ من تلك الناحية ، ثم رجع إلى مرو وخطب الناس وأخبرهم أنه أقام منصور بن عمر بن أبي الخرقاء على كشف المظالم ، وأنه قد وضع الجزية عمن قد أسلم وجعلها على من كان يخففه عنه من المشركين ، فرغبوا في الإسلام فلم تمض جمعة حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم وثمانون ألفاً من المشركين كانت قد ألقيت عنهم ، فحوّل ما كان على المسلمين ، ثم ضيف الخراج ووضعه مواضعه ، ثم غزا الثانية إلى زرشغر وسمرقند ، ثم رجع ، ثم غزا الثالثة إلى الشاش من مرو ، فحال بينه وبين عبور نهر الشاش كورصول في خمسة عشر ألفاً ، وكان معهم الحارث بن سريج ، وكان قبل ذلك من أمراء المسلمين على جند خراسان ، ثم وقعت فتنة بينهم فاعتزلهم وصار مع خاقان ثم مع كورصول ، فعبر كورصول في أربعين رجلاً فبيت العسكر في ليلة مظلمة ومع نصر ملك بخارى في أهل بخارى ومعه أهل سمرقند وكش ونسف وهم عشرون ألفاً فنادى نصر أَنْ لا يخرجن أحد واثبتوا على مواضعكم ، فخرج عاصم بن عمير السعدي وهو على جند سمرقند ، فمرت به خيل الترك فحمل على رجل في آخرهم فأسره ، فإذا هو ملك من ملوكهم وصاحب أربعة آلاف قبة ، ثم تبين أنه كورصول فأتى به إلى نصر فقال له نصر : من أنت ؟ قال : كورصول ، فقال نصر : الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله ، قال : ما ترجو من قتل شيخ وأنا أعطيك أربعة آلاف بعير من إبل الترك وألف برذون تقوي به جندك وتطلق سبيلي ، فاستشار نصر أصحابه فأشاروا بإطلاقه فلم يوافقهم ثم سأله عن عمره ، قال : لا أدري ، قال : كم غزوت ؟ قال : اثنتين وسبعين غزوة ، قال : أشهدت يوم العطش ؟ قال : نعم ، قال نصر : لو أعطيتني ما طلعت عليه الشمس ما أفلتّ من يدي بعدما ذكرت من مشاهدك ، وقال لعاصم بن عمير السعدي : قم إلى صلبه فخذه ، فقال : من أسرني ؟ فقال نصر وهو يضحك : أسرك يزيد بن قران

الحنظلي وأشار إليه ، قال : هذا لا يستطيع أن يغسل آسته أو لا يستطيع أن يتم بوله فكيف يأسرني ، أخبرني من أسرني ؟ قال : عاصم بن عمير ، قال : لست أجد ألم القتل إذا كان أسرني فارس من فرسان العرب ، فقتله وصلبه على شاطىء النهر ، فلما قتل كورصول أحرقت الترك ابنتيه وقطعوا آذانهم وقطعوا شعورهم وأذناب خيلهم ، فلما أراد نصر الرجوع أحرقه لئلا يحملوا عظامه ، فكان ذلك أشد عليهم من قتله .

وارتفع إلى فرغانة فسبى بها ألف رأس ، وكتب يوسف بن عمير أمير العراق إلى نصر سر إلى هذا الغادر دِينَه في الشاش يعني الحارث بن سُرَيْج ، فإن أظفرك الله به وبأهل الشاش فخرّبْ بلادهم واسب ذراريهم وإياك وورطة المسلمين ، فقرأ الكتاب على الناس واستشارهم ، فقال يحيى بن الحصين أنظر أهذا من أمير المؤمنين أو من الأمير ؟ فقال نصر : يا يحيى تكلمت بكلمة أيام عاصم فبلغت الخليفة فحظيت بها وبلغت الدرجة الرفيعة ، فقلت أقول مثلها : سر يا يحيى فقد أوليتك مقدمتي ، فلام الناس يحيى ، فسار إلى الشاش فأتاهم الحارث بن سريج فنصب عليهم عرادتين ، بالتشديد تثنية عرادة شيء أصغر من المنجنيق ، وأغار الأخرام وهو فارس الترك على المسلمين فقتلوه وألقوا رأسه إلى الترك فصاحوا وانهزموا .

وسار نصر إلى الشاش فتلقاه ملكها بالصلح والهدية والرهن واشترط عليه نصر إخراج الحارث بن سريج عن بلده ، فأخرجه إلى فاراب ، ثم تنقل الحارث في بلاد الترك إلى سنة ست وعشرين ، ثم اصطلح مع المسلمين ورجع إلى خراسان سنة سبع وعشرين ، فكانت مدة مفارقته المسلمين واتصاله بالترك ثنتي عشرة سنة ، وردّ عليه نصر ما كان أخذ له ، ثم استعمل نصر على الشاش بعد الصلح مع أهله نيزك بن صالح مولى عمرو بن العاص ، ثم سار حتى نزل قباء من أرض فرغانة وكانوا أحسوا بمجيئه فأحرقوا الحشيش وقطعوا الميرة ، فوجّه نصر إلى والي صاحب فرغانة فحاصروه في حصن وغفلوا عنه ، فخرج وغنم دوابَّ المسلمين ، فوجّه إليهم نصر رجالاً من تميم ومعهم محمد بن المثنى وكَمَنَ المسلمون لهم ، فخرج الترك ، واستاقوا بعض الدواب ، فخرج عليهم المسلمون فهزموهم وقتلوا الدهقان وأسروا ابن الدهقان فقتله نصر ، ثم سألوه الصلح فأرسل نصرٌ سليمان بن صول بكتاب الصلح إلى صاحب فرغانة فأمر به فأدخل به الخزائن ليراها ثم رجع إليه فقال : كيف رأيت الطريق فيما بيننا وبينكم ؟ قال : سهلاً كثير الماء والمرعى

فكره ذلك ، وقال : ما أَعْلَمَكَ ؟ قال سليمان : قد غزوت غرشستان وغور الختل وطبرستان فكيف لا أعلم ؟ قال : فكيف رأيت ما أعددنا ؟ قال : عدة حسنة ، ولكن ما علمت أن المحور لا يسلم من خصال لا يأمن أقرب الناس إليه وأوثقهم في نفسه أو يفنى ما جمع فيسلم برمته أو يصيبه داء فيموت ، فكره ما قال له ، وأمر فأحضر كتاب الصلح فأجاب إليه وسير أمه معه وكانت صاحبة أمره فقدمت على نصر فأذن لها وجعل يكلمها ، وكانت مما قالته له كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء لا يكون ملكاً : وزير يبث إليه ما في نفسه ويشاوره ويثق بنصيحته ، وطباخ يشتهي الطعام اتخذ له ما يشتهي ، وزوجة إذا دخل عليها مغتماً فنظر إلى وجهها زال غمه ، وحصن إذا فرغ أتاه فأنجاه ؛ تعني البرذون ، وسيف إذا قاتل لا يخشى خيانته ، وذخيرة إذا حملها عاش بها أين كان من الأرض ، ثم دخل تميم بن نصر في جماعة فقالت : من هذا ؟ قالوا : هذا فتى خراسان تميم بن نصر ، فقالت : ماله نبل الكبير ولا حلاوة الصغير ، ثم دخل الحجاج بن قتيبة بن مسلم الباهلي ، فقالت : من هذا ؟ فقالوا : الحجاج بن قتيبة بن مسلم ، فأحبته وسألت عنه ، وقالت : يا معشر العرب ما لكم وفاء ولا يصلح بعضكم بعضاً ، قتيبةُ الذي ذلّل لكم ما أرى ، وهذا ابنه تقعده دونك فحقه أن تجلسه أنت المجلس وتجلس أنت مجلسه ، وعقدت الصلح ورجعت .

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

في سنة إحدى وعشرين غزا مروان بن محمد بأرمينية وهو والبها ، فأتى قلعة بيت السري ، فقتل وسبى ، ودخل غوميك وهو حصن فيه بنت الملك وسريره فهرب الملك منه حتى أتى حصناً يقال له خيزج فيه سرير من ذهب ، فسار إليه مروان ونازله صيفيته وشتويته فصالح الملك على ألف رأس كل سنة ومئة ألف مد فصالحه ، وسار مروان فدخل أرض أزر وبطران فصالحه ملكها ، ثم سار في أرض تومان فصالحه ، وسار حتى أتى حمزين فأخرب بلاده وحصر حصناً له شهراً فصالحه ، ثم أتى مروان أرض مسداز فافتتحها على صلح ، ثم نزل مروان كيران فصالحه طبرسران .

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير ، وفي هذه السنة قتل البطال واسمه عبدالله أبو الحسين الأنطاكي وقتل معه جماعة من المسلمين ببلاد الروم

وكان كثير الغزو إلى الروم والإغارة على بلادهم ، وله عندهم ذكر عظيم ، حُكي أنه دخل بلادهم في بعض غزواته هو وأصحابه فدخل قرية ليلاً وامرأة تقول لصغيرها وهو يبكي : تسكت وإلا سلمتك للبطال ، ثم رفعته بيدها وقالت : خذ يا بطال ، وكان قريباً منها ولم تعلم به فتناوله من يدها ، وكان عبد الملك بن مروان يرسله مع ابنه مسلمة إلى بلاد الروم ، وأمّره مرة على رؤساء أهل الجزيرة والشام وأمر ابنه مسلمة أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال : إنه ثقة شجاع مقدام ، فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس ، وله قصص ووقائع كثيرة .

ذكر صلح نصر بن سيّار مع الصُّغْد

في سنة ثلاث وعشرين ومئة صالح نصر بن سيار الصغد ، وسبب ذلك أن خاقان لما قتل في ولاية أسد بن عبدالله تفرقت الترك في إغارة بعضها على بعض ، فطمع أهل الصغد في الرجعة إليها وانحاز قوم منهم إلى الشاش ، فلما ولي نصر بن سيار أرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع إلى بلادهم وأعطاهم ما أرادوا ، وكانوا يسألون شروطاً أنكرها أمراء خراسان ، منها ألاّ يعاقب من كان مسلماً فارتد عن الإسلام ، ولا يعدى عليهم في دين لأحد من الناس ، ولا يؤخذ أسراء المسلمين منهم إلا بقضية قاض وشهادة عدول ، فعاب الناس في ذلك على نصر وتكلموا فيه ، فقال : لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك ، وأرسل رسولاً إلى هشام بن عبد الملك في ذلك فأجابه إليه .

وفي سنة أربع وعشرين ومئة غزا سليمان بن هشام الصائفة فلقي إليون ملك الروم فهزمه وقتل وسبى وغنم .

وفي سنة خمس وعشرين توفي هشام بن عبدالملك وبويع الوليد بن يزيد بن عبدالملك فأقصر نصر بن سيار على خراسان ، ثم ثارت فتن بين أولاد عبد الملك ، وقتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ، وبويع اليزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وتوفي بعد ستة أشهر ، وبويع أخوه إبراهيم بن الوليد ، ثم خلع بعد سبعين يوماً ، وبويع مروان بن محمد سنة سبع وعشرين فأقر نصر بن سيّار على ولاية خراسان ، واستمر مروان بن بن محمد خمس سنين وعشرة أشهر ، وثارت الفتن بينه وبين بني

العباس ، وقتل مروان بن محمد سنة اثنتين وثلاثين وعمره اثنتان وستون سنة ، وقامت الدولة العباسية ، وتفصيل ذلك كله طويل مذكور في التواريخ ، والقصد في هذا الكتاب ذكر الفتوحات التي فيها جهاد الكفار ، وفي مدة هذه الفتن انقطع الغزو والجهاد وانتشرت الفتن بين المسلمين في كل قطر وإقليم .

ذكر غزو ملك الروم مَلَطْيَة

نشأ من الفتن التي كانت بين المسلمين في هذه السنين أن الروم طمعوا في البلاد ، فأقبل قسطنطين ملك الروم إلى ملطية وكمخ في سنة ثلاث وثلاثين ومئة في خلافة السفاح أول خلفاء بني العباس ، فلما أقبل قسطنطين نازل كمخ ، فأرسل أهلها إلى أهل مَلَطْية يستنجدونهم ، فسار إليهم منها ثمانمئة مقاتل فقاتلهم الروم فانهزم المسلمون ، ونازل الروم مَلَطْية وحصروها ، وأرسل قسطنطين إلى أهل مَلَطْية إني لم أحصركم إلا على علم من المسلمين واختلافهم فلكم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتى أحترز مَلَطْية ، فلم يجيبوه إلى ذلك فنصب المجانيق فأذعنوا وسلّموا البلد على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الإسلام وحملوا ما أمكنهم حمله وما لم يقدروا على حمله ألقوه في الآبار والمجاري ، وسار ملك الروم إلى قاليقلا فنزل مرج الخصي وأرسل كوشان الأرمني بحصرها فنقب أخوان من الأرمن من أهل المدينة ردماً كان في سورها فدخل كوشان ومن معه المدينة فغلبوا عليها وقتلوا رجالاً وسبوا النساء وساقوا الغنائم إلى ملك الروم ، وفي هذه السنة كان متولياً على خراسان أبو مسلم القائم بدعوة بني العباس فوجّه أبا داود خالد بن إبراهيم الذهلي إلى الختل فدخلها ، فلما دخل إلى أرض فرغانة تحالف إخشيد فرغانة وملك الشاش ، واستمد إخشيد ملك الصين فأمدّه بمئة ألف مقاتل ، فحصروا ملك الشاش فنزل على حكم ملك الصين ، وبلغ الخبر أبا مسلم فوجّه إلى حربهم زياد بن صالح ، فالتقوا على نهر طراز ، فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين ألفاً وأسروا نحو عشرين ألفاً وهرب الباقون إلى الصين .

ذكر غزوة كشّ

سنة أربع وثلاثين ومئة غزا أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلي أهل كش ، فقتل ملكها وهو سامع مطيع وقتل أصحابه وأخذ منهم الأواني الصينية المنقشة المذهبة لم ير

مثلها ، ومن السروج ومتاع الصين من الديباج والطرف شيئاً كثيراً ، وحمله إلى أبي مسلم وهو بسمرقند وقتل عدة من دهاقينهم ، ورجع أبو داود إلى بلخ .

وفي سنة خمس وثلاثين ومئة غزا عبدالله جزيرة صقلية وغنم بها وسبى بعد أن غزا أيضاً تلمسان .

وفي سنة ست وثلاثين ومئة توفي السفاح وبويع أخوه المنصور وقتل أبا مسلم سنة سبع وثلاثين ، وولّى خراسان بعد قتل أبي مسلم أبا داود خالد بن إبراهيم الذهلي ، وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم إلى بلاد الإسلام فدخل ملطية عنوة ، قهر أهلها وهدم سورها وعفا عمن فيها من المقاتلة والذرية ، فبعث المنصور أخاه العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومعه صالح بن علي وعيسى بن علي في جيش ، فبنوا ما كان ملك الروم أخربه من السور ، ثم غزوا الصائفة سنة تسع وثلاثين ومئة من درب الحدث ، فوغلوا في أرض الروم وغزوا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية تجاهدا في سبيل الله ، وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة المهراني .

وفي هذه السنة كان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم ، وبناها وعمرها ورد أهلها إليها وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة وغيرهم فأقاموا فيها وحموها ، ولم يكن بعد ذلك صائفة إلى سنة ست وأربعين لاشتغال المنصور بالفتنة التي كانت بينه وبين بني عبد الله بن الحسن بن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ، وقيل إنَّ الحسن بن قحطبة غزا الصائفة سنة أربعين مع عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام ، وأقبل قسطنطين ملك الروم في مئة ألف فبلغ جيحان فسمع كثرة المسلمين فأحجم عنهم ، ثم لم يكن بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين ، لكن حصلت وقائع وغزوات بخراسان وغيرها في هذه المدة كما سترى ذلك .

وفي سنة تسع وثلاثين ومئة كان دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأندلس وتملّكها ، وخرجت الأندلس عن ولاية بني العباس ، وقصة تملّك عبد الرحمن الداخل الأندلس طويلة ، ملخّصها أنه لما قامت الدولة العباسية أخذوا

بتتبعون بني أمية قتلاً ، فهرب عبد الرحمن المذكور مختفياً وما زال يتنقل حتى دخل الأندلس ، وكان بالأندلس رجال من بقايا مواليهم فأعانوه حتى انتزع الأندلس من عمال بني العباس بعد حروب كثيرة ، واستفحل ملكه وملك بنيه بعده بالأندلس ، وكان دخوله بالأندلس في خلافة المنصور العباسي ، وكان المنصور يعجب من أمره ويسميه صقر قريش ، وأراد استرجاع الأندلس من يده فلم يتمكن منه ، والكلام على ذلك طويل ذكرته في التاريخ الذي جمعته في أخبار الأندلس ملخصاً عن نفح الطيب وغيره ، ولما استقامت أموره وتمكنت دولته بلغه عن بعض من أعانه أنه يقول لولا أنا ما توصل لهذا الملك وكان منه أبعد من النجم ، وقال قائل آخر إنما أعانه سعده لا عقله وتدبيره فحركه ذلك إلى أن قال :

لا يلــف ممتــنٌّ علينـا قـائــلٌ	لـولايَ مـا ملـك الإمـام الـداخـلُ
سَعْـدي وحَـزْمـي والمهنَّـدُ والقَنَـا	ومقـادرٌ بَلَغـتْ وحـالٌ حـائـلُ
إنَّ الملـوكَ مـع الـزمـان كـواكـبٌ	نجـمٌ يطـالعنـا ونجـمٌ آفِـلُ
والحـزمُ كـلُّ الحـزم أن لا يَغْفُلـوا	أَيـرومُ تـدبيـرَ البَـريّـةِ غـافـلُ ؟
ويقـول قـوم سَعْـدُهُ لا عَقْلُـهُ	خيـرُ السعـادةِ مـا حَـوَاهـا العـاقـلُ
أبنـي أميـة قـد جَبَـرْنـا صَـدْعَكُـمْ	بـالغـرب رغمـاً والسعـود قبـائـلُ
مـا دام مـن نسلـي إمـامٌ قـائـمٌ	فـالملـكُ فيكـم إمـامٌ متـواصـلُ

وما زال مستمراً في ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر إلى أن توفي سنة ١٧٢ وعمره تسع وخمسون سنة ، واستمر الملك في بنيه إلى أواخر القرن الرابع ، وسيأتي ذكر كثير من غزواته وفتوحاتهم ، ولنرجع إلى تمام الكلام على فتوحات بني العباس .

ففي سنة ١٤٠ مات أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلي عامل خراسان وأقيم مقامه عبدالجبار بن عبدالرحمن الأزدي ، ثم ظهر منه مخالفة وعصيان وأراد خلع المنصور فجهز عليه في سنة إحدى وأربعين ابنه المهدي وعمره نحو خمس عشرة سنة ومعه جيش ، فأسر عبد الجبار وبعث به إلى المنصور فقتله وصارت ولاية خراسان للمهدي بن المنصور ، وكان كثير من أهل خراسان قد نقضوا لما تغيرت الدولة واسترجع بعض الكفار ما كان لهم من الملك ، فكتب المنصور إلى ابنه المهدي أن يغزو طبرستان .

ذكر غزو طبرستان

في سنة إحدى وأربعين ومئة كتب المنصور إلى ابنه المهدي وهو على خراسان أن يغزو طبرستان وينزل الري ويوجّه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود إلى الأصبهبذ وكان الأصبهبذ يومئذ محارباً للمصمغان ملك دنباوند معسكراً بإزائه ، فلما بلغه دخول جنود الإسلام بلاده ودخول أبي الخصيب سايره فقال المصمغان للأصبهبذ : متى قهروك صاروا إليّ فاجتمعوا على حرب المسلمين ، فانصرف الأصبهبذ إلى بلاده فحارب المسلمين فطالت تلك الحروب ، فوجّه المنصور عمر بن العلاء إلى طبرستان وكان عالماً ببلاد طبرستان فأخذ الجنود وقصد الرُّويان ففتحها وأخذ قلعة الطلق وما فيها وطالت الحروب فألح حازم على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر وصار الأصبهبذ إلى قلعته فحصر فطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من الذخائر ، وكتب بذلك ، فوجه المنصور رجالاً أحصوا ما في الحصن وانصرفوا ، ودخل الأصبهبذ بلاد جيلان من الديلم وأخذت ابنته وقصدت الجنود بلد المصمغان فظفروا به وبالحيرة أم منصور بن المهدي .

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئة خلع الطاعة عيينة بن موسى بن كعب عامل السند فبعث المنصور عمر بن أبي حفص العنكي عاملاً على السند والهند ، فسار وغلب عليها بعد حروب .

ذكر نكث الأَصْبَهْبُذ

في سنة اثنتين وأربعين ومئة نكث الأصبهبذ بطبرستان العهد بينه وبين المسلمين ، وقتل من كان ببلاده منهم ، فلما انتهى الخبر إلى المنصور سيّر مولاه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة وروح بن حاتم ، فأقاموا على الحصن يحاصرونه وهو فيه ، فلما طال عليهم المقام احتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي ففعلوا ، ولحق بالأصبهبذ فقال له فعل بي هذا تهمة منهم لي أن يكون هو أي معك ، وأخبره أنه معه وأنه دليل على عورة عسكرهم ، فقبل ذلك الأصبهبذ وجعله في خاصته ولطفه ، وكان باب حصنهم من حجر يُلقى إلقاءً يرفعه الرجال وتضعه عند فتحه

وإغلاقه ، وكان الأصبهبذ يوكل به ثقاة أصحابه نوباً بينهم ، فلما وثق الأصبهبذ إلى أبي الخصيب وكله بالباب فتولى فتحه وإغلاقه حتى أنس به ، ثم كتب أبو الخصيب إلى روح وخازم وألقى الكتاب في سهم وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة وواعدهم ليلة في فتح الباب ، فلما كانت تلك الليلة فتح لهم فقتلوا من في الحصن من المقاتلة وسبوا الذرية وأخذوا أسكلا أم إبراهيم بن المهدي ، وكان مع الأصبهبذ سمٌّ فشربه ومات .

ذكر نكث الديلم

في سنة ثلاث وأربعين نكث الديلم وثاروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فبلغ ذلك المنصور فندب الناس إلى قتال الديلم وجهادهم ، فساروا إليهم وقتلوهم وأخضعوهم سنة أربع وأربعين .

وفي سنة خمس وأربعين كان ابتداء مدينة بغداد وانتقل المنصور إليها سنة ست وأربعين ، وفيها خرجت الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة .

وفي سنة ست وأربعين غزا الصائفة جعفر بن حنظلة البهراني ، وغزا ملك بن عبد الله الخثعمي بلاد الروم فغنم غنائم كثيرة .

وفي سنة سبع وأربعين أغار أسترخان الخوارزمي في جمع الترك على المسلمين بناحية أرمينية وسبى من المسلمين خلقاً ، ودخلوا تفليس ، فسيّر المنصور إلى محاربتهم جبرائيل بن يحيى وحرب بن عبد الله في جند كثير فقاتلوهم فهزم جبرائيل وقتل حربٌ من أصحابه ، وقُتِل من أصحاب جبرائيل خلقٌ كثير .

وفي سنة سبع وأربعين غزا العباس بن محمد أرض الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث ، وأغزا عبد الرحمن الداخل صاحب الأندلس مولاه بدراً إلى بلاد العدو فجازوا إليه وأخذ الجزية .

ذكر خروج أستاذسيس

في سنة خمسين ومئة خرج أستاذ سيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من خراسان ، وكان فيما قيل في ثلاثمئة ألف مقاتل ، فغلبوا على عامة خراسان وساروا

حتى التقوا هم وأهل مرو الروذ ، فخرج إليهم الأجشم المروذي في أهل مرو الروذ فقاتلوه قتالاً شديداً ، فقتل الأجشم المروذي وكثر القتل في أصحابه وهزم عدة من القواد ، فوجّه المنصور وهو بالرازان خازم بن خزيمة إلى المهدي ، فولاه المهدي محاربة أستاذسيس وضم إليه القواد ، فسار إليه خازم وأخذ معه من انهزم وجعلهم في أخريات الناس يكثّر بهم من معه ، وكان معه من هذه الطبقة اثنان وعشرون ألفاً ، ثم انتخب منهم ستة آلاف وضمهم إلى اثني عشر ألفاً كانوا معه من المنتخبين ، وكان بكار بن سلم العقيلي فيمن انتخب وتعبأ للنسال ، وكان لؤلؤة مع الزبرقان فمكر بهم وراوغهم في أن ينقلهم من موضع إلى موضع وخندق إلى خندق حتى قطعهم ، ثم سار خازم إلى موضع فنزله وخندق عليه وعلى جميع أصحابه ، وجعل له أربعة أبواب وجعل على كل باب ألفاً من أصحابه الذين انتخبوا ، وأتى أصحاب أستاذ سيس ومعهم الفؤوس والرازة والزبر ليحطموا الخندق ، فأتوا الخندق من الباب الذي عليه بكار بن سلم فحملوا على أصحاب بكار حملة هزموهم بها ، فرمى بكار بنفسه فترجّل على باب الخندق وقال لأصحابه لا يؤتى المسلمون من ناحيتنا فترجّل معه من أهله وعشيرته نحو خمسين رجلاً وقاتلوهم حتى ردوهم ، وأقبل على الباب الذي عليه خازم رجل من أصحاب أستاذسيس اسمه الحريش وهو الذي كان يدبر أمرهم ، فلما رآه خازم مقبلاً بعث إلى الهيثم بن شعبة وكان في الميمنة يأمره أن يخرج من الباب الذي عليه بكار فإن من بإزائه قد شغلوا عنهم ويسيروا حتى يغيب عن أبصارهم ثم يرجع من خلف العدو ، وقد كانوا يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن مسلم بن قتيبة من طخارستان ، وبعث خازم إلى بكار يقول له إذا رأيت رايات الهيثم قد جاءت فكبروا وقولوا قد جاء أهل طخارستان ، ففعل ذلك الهيثم وخرج خازم في القلب على الحريش يشغلهم بالقتال وصبر بعضهم لبعض ، فبينما هم على ذلك نظروا إلى أعلام الهيثم قد أقبلت فتنادوا بينهم : جاء أهل طخارستان ، وحمل أصحاب خازم فكشفوهم ولقيهم أصحاب الهيثم فطعنوهم بالرماح ، ورموهم بالنشاب، وخرج نهار بن حصين من ناحية الميسرة وبكار بن سلم وأصحابه من ناحيتهم فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف فقتلهم المسلمون فأكثروا ، فكان عدد من قتل سبعين ألفاً ، وأسروا أربعة عشر ألفاً ونجا أستاذسيس إلى جبل في نفر يسير فحصرهم خازم وقتل الأسرى ، ووافاه أبو عون وعمرو بن سلم ومن

معهما فنزل أستاذسيس على حكم أبي عون فحكم أن يوثَّق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد وأن يُعْتَقَ الباقون وكانوا ثلاثين ألفاً ، فأمضى خازم حكمه وكسا كلَّ رجل ثوبين ، وكتب إلى المهدي بذلك ، فكتب المهدي إلى المنصور .

وقد قيل إن أستاذسيس قد ادّعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل ، قيل إنه جد المأمون أبو أمه مراجل وابنه غالب خال المأمون ، وفي هذه السنة قدم المهدي من خراسان فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنؤوه بمقدمه ، فأجازهم وحملهم وكساهم وفعل بهم المنصور مثل ذلك وبنى له الرصافة ، وفيها غزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي .

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئة استعمل المنصور على خراسان حميد بن قحطبة فغزا كابل ، وغزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام .

وفي سنة ثلاث وخمسين غزا الصائفة معيوف بن يحيى ، فوصل إلى حصن من حصون الروم ليلاً وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه ، ثم قصد اللاذقية فسبى منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين .

وفي سنة أربع وخمسين غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالي فبلغ الفرات .

وفي سنة خمس وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي ، وفيها طلب ملك الروم الصلح إلى المنصور على أن يؤدي الجزية .

وفي سنة ست وخمسين غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالي .

وفي سنة سبع وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي فسبى وغنم .

وفي سنة ثمان وخمسين توفي المنصور وبويع ابنه محمد المهدي ، وغزا الصائفة معيوف بن يحيى من درب الحدث فلقي العدو فاقتتلوا ثم تحاجزوا .

وفي سنة تسع وخمسين غزا العباس بن محمد الصائفة الرومية فبلغوا القُرَّة وفتحوا مدينة للروم ومطمورة ، ولم يُصَبْ من المسلمين أحدٌ ورجعوا سالمين .

ذكر فتح مدينة باربد بالهند

وفي سنة ستين ومئة فتحت مدينة باربد ، وكان المهدي سيّر في سنة تسع وخمسين جيشاً في البحر وعليهم عبد الملك بن شهاب المسمعي إلى بلاد الهند في جمع كثير من الجند والمتطوعة وفيهم الربيع بن صبيح ، فساروا حتى نزلوا على مدينة باربد ، فلما نازلوها حاصروها من نواحيها وحرض الناس بعضهم بعضاً على الجهات وضايقوا أهلها ، ففتحها الله عليهم عنوة ، واحتمى أهلها بالبلد الذي لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقتل الباقون ، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً وأفاءَها الله عليهم .

وفي سنة ستين أيضاً غزا ثمامة بن العبس الصائفة ، وغزا الغمر بن العباس الخثعمي بحر الشام .

وفي سنة إحدى وستين غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل بدابق ، وجاشت الروم في ثمانين ألفاً فأتى ثمامة عمق مرعش فقتل وسبى وأتى مرعش فحاصرها فقاتلهم ، وقُتِل من المسلمين عدةٌ كثيرة ، وكان عيسى بن علي مرابطاً بحصن مرعش فانصرف الروم إلى جيحان ، وبلغ الخبر المهدي فعظم عليه وتجهز لغزو الروم كما سنذكره .

وفي سنة اثنتين وستين خرجت الروم إلى الحدث فهدموا سورها ، وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألف مرتزق سوى المتطوعة ، فبلغ أذرولية وأكثر التحريق والتخريب في بلاد الروم ولم يفتح حصناً إلا لقي جمعاً ، ورجع الناس سالمين ، وفيها غزا يزيد بن أسيد السلمي من ناحية قاليقلا فغنم وافتتح ثلاثة حصون وسبى .

ذكر غزو المهدي

في سنة ثلاث وستين تجهز المهدي لغزو الروم فخرج وعسكر بالبردان وجمع الأجناد من خراسان وغيرها وسار عنها ، واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي وعمره نحو عشرين سنة ، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وعمره نحو سبع عشرة سنة ، وسار على الموصل والجزيرة وعبر الفرات إلى حلب ، وأرسل وهو بحلب فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم ، وسار عنها مشيعاً لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان ، فسار هارون بالجيش حتى نازل حصن سمالوا فحصره ثمانية وثمانين يوماً ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالأمان ، وَوَفَى لهم وفتحوا فتوحاً كثيرة ورجعوا ، ولما عاد المهدي من الغزاة زار بيت المقدس .

وفي سنة أربع وستين ومئة غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحدث ، فأتاه ميخائيل البطريق في تسعين ألفاً ، فخاف عبد الكبير ومنع الناس من القتال ورجع بهم ، فأراد المهدي قتله فَشُفِّع فيه فحبسه .

وفي هذه السنة غزا عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس بلاد الأفرنج فدوخها ونهب وسبى ، وبلغ قلهرة وفتح مدينة فكِيرة وهدم قلاع تلك الناحية ، وسار إلى بلاد البشكنس ونزل على حصن مثمين الأقرع فافتتحه ، ثم تقدم إلى ملدوثون بن أطلال وحصر قلعته وقصد الناس جبلها وقاتلوهم فيها فملكوها عنوة وخربوها ثم رجعوا .

ذكر غزو هارون الرشيد الروم

في سنة خمس وستين سيّر المهدي ابنه هارون الرشيد لغزو الروم في خمسة وتسعين ألفاً وتسعمئة وثلاثة وتسعين رجلاً ، فأوغلوا في بلاد الروم ، ولقيهم عَسْكَرُ نِقِيطا قَوْمِسُ القَوَامِسة ، فبارزه يزيد بن مزيد الشيباني فأثخنه يزيد ، وانهزمت الروم وغلب المسلمون على عسكرهم وساروا إلى الدُّمُسْتُق وهو صاحب المسالح أي الثغور ، فحمل لهم مئة ألف دينار وثلاثة وتسعين ألفاً وأربعمئة وخمسين ديناراً ، ومن الفضة إحدى وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألفاً وثمانمئة درهم ، وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية ، وملكُ الروم يومئذ أُغَسْطَة امرأةُ إِليون وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطريق ، وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً مُخَوّفاً ، فأجابته إلى ذلك ، ومقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة ، ورجع عنها .

وكانت الهدنة ثلاث سنين ، وكان مقدار ما غنم المسلمون إلى أن اصطلحوا خمسة آلاف رأس سبياً وستمئة وثلاثة وأربعين رأساً ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين ألف رأس ، وذبح من البقر والغنم مئة ألف رأس ، وقتل من الروم في الوقائع قبل الصلح أربعة وخمسون ألفاً ، وقتل من الأسرى صبراً ألفان وتسعون أسيراً .

وفي سنة ثمان وستين ومئة نقض الروم الصلح ، فوجه عليّ بن سليمان وهو على الجزيرة وقنسرين يزيد بن البدر بن البطال فغنموا وظفروا .

وفي سنة تسع وستين ومئة توفي المهدي وبويع ابنه موسى الهادي ، وغزا الصائفة معيوف بن يحيى الراهب ، وقد كانت الروم قبل ذلك جاؤوا مع بطريقهم إلى الحديثة فهرب الوالي وأهل السوق فدخلها الروم ، فقصدهم معيوف فبلغ مدينة أشنة فغنم وسبى .

وفي سنة سبعين ومئة توفي الهادي وبويع أخوه هارون الرشيد واستمر إلى سنة ثلاث وتسعين ومئة فكانت مدته ثلاثاً وعشرين سنة ، وكان يحج سنة ويغزو سنة .

وفي سنة إحدى وسبعين توفي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام صاحب الأندلس ، وكانت دولته بالأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة ، ثم صار الملك لأولاده بعده فقام بالأمر بعده ابنه هشام .

وفي سنة أربع وسبعين غزا الصائفة عبد الملك بن صالح الهاشمي من قبل هارون الرشيد .

وفي سنة خمس وسبعين غزاها ابنه عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، وفيها سار هشام بن عبد الرحمن صاحب الأندلس إلى بلاد الأفرنج ، فقصد ألبة والقلاع فلقيه العدو فظفر بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وفتح الله عليه .

وفي السنة التي بعدها غزا عبد الملك بن عبد الواحد ففعل مثل ذلك ، وكذا في سنة سبع وتسعين فدخلوا بلاد العدو فبلغوا أربُونة وجرندة ، وكان بها حامية الأفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها ، فرحل عنها إلى أربُونة ففعل مثل ذلك وأوغل في بلادهم ، ووطىء أرض بَرْبَطَانية فاستباح حريمها وقتل مقاتلتها وجاس البلاد شهوراً يخرب الحصون ويحرق ويغنم ، وقد أجفل العدو من بين يديه هارباً ، وأوغل في بلادهم ورجع سالماً معه من الغنائم ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وهي من أشهر مغازي المسلمين بالأندلس ، وفعل مثل ذلك في السنتين اللتين بعدها .

وتوفي هشام صاحب الأندلس سنة ثمانين ومئة وقام بالأمر بعده ابنه الحكم .

ومن غزوات الرشيد الشهيرة غزوة أرض الروم في سنة إحدى وثمانين فتح فيها حصن الصفصاف ، وفيها غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة .

وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم ، وكان عدة الأسرى ثلاث آلاف وسبعمائة .

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئة غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ أُفسوس مدينة أصحاب الكهف .

ذكر غزو الخزر بلاد الإسلام

في سنة ثلاث وثمانين ومئة خرج الخزر من باب الأبواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مئة ألف رأس وانتهكوا أمراً عظيماً لم يسمع بمثله ، فولّى الرشيد أرمينية ليزيد بن مَزْيد الشيباني مضافاً إلى أذربيجان ووجّهَهُ إليهم فظفر بهم .

وفي سنة ست وثمانين ومئة ملك الفرنج لعنهم الله مدينة برشلونة بالأندلس وأخذوها من المسلمين ونقلوا حماة ثغورهم إليها ، وتأخر المسلمون إلى ورائهم ، وكان سبب ملكهم إياها اشتغال المسلمين بفتنة كانت بينهم .

ذكر غزو الروم

وحيث ذكر الروم هنا وفيما تقدم وفيما يأتي فالمراد بهم النصارى اليونان الذين كان لهم ملك القسطنطينية وهم غير النصارى المعروفين بالأفرنج كالفرنسيس وإنكلترة .

وفي سنة سبع وثمانين ومئة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فأناخ على قُرَّة وحصرها ، ووجّه العباس بن جعفر بن محمد الأشعث فحصر حصن سنان حتى جهد أهلها فبعث إليه الروم ثلاثمئة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم ، فأجابهم ورحل عنهم صلحاً .

وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها رِيني ، فخلعها الروم وملكت نقفور ، فكتب نقفور إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد : فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخِّ وأقامت نفسها مقام البَيْدَق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بِحَمْلِ أضعافه إليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحُمْقِهِنَّ ، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، وإلا فالسيف بيننا وبينك .

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزَّه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من هٰرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام .

ثم سار من يومه حتى نزل على هِرَقْلَةَ ففتح وغنم وأحرق وخرب ، فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه إلى ذلك .

فلما رجع من غزواته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وكان البرد شديداً فأمن رجعة الرشيد إليه ، فلما جاء الخبر بنقضه ما جَسَرَ أحدٌ على إخبار الرشيد خوفاً على أنفسهم العودة في مثل ذلك البرد ، وإشفاقاً من الرشيد ، فاحتيل له بشاعر من أهل جندة فقال أبياتاً منها :

نَقَضَ الذي أَعْطَيْتَهُ نِقْفُورُ ... فَعَلَيْهِ دائرةُ البَوَارِ تدورُ
أَبْشِرْ أميرَ المؤمنين فإنّه ... فَتْحٌ أتاكَ بِهِ الإلهُ كَبيرُ
فَتْحٌ يزيدُ على الفتوح يؤمّنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصور

فلما سمع الرشيد ذلك قال : أَوَقَدْ فعل ذلك نقفور ؟! . فرجع إلى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة حتى بلغ بلادهم ، فأقام بها حتى شفي واشتفى وبلغ ما أراد ورجع .

وفي هذه السنة ملك الأفرنج مدينة تُطِيلَة بالأندلس فتجهز الحكم صاحب الأندلس ، وسير العسكر مع ابن عم له ، فلقي المشركين وقاتلهم ، ففض جمعهم وهزمهم وقتل أكثرهم ، ونجا الباقون منهزمين .

وفي سنة ثمان وثمانين ومئة غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة ، ودخل أرض الروم فخرج إليه نقفور ملك الروم واقتتلوا وقتل من الروم أربعون ألفاً وسبعمئة .

وفي سنة تسع وثمانين كان الفداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم .

ذكر فتح هِرَقْلَةَ وقبرس وغيرهما

في سنة تسعين غزا هارون الرشيد الروم في مئة ألف وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة سوى الأتباع والمتطوعة وفتح هرقلة وأخربها ، ووجّه داود بن عيسى سائراً في

أرض الروم في سبعين ألفاً يخرب وينهب ، ففتح الله عليه ، وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودَلْسَةَ .

وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف ومقدونية ، واستعمل حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر فبلغ قبرس ، وكانوا قد نقضوا العهد ، فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً .

ثم سار الرشيد إلى طوانة فنزل بها ، وبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ولده دينارين وعن بطارقته كذلك ، وكتب نقفور إلى الرشيد في جارية من سَبْيِ هِرَقْلة كان خطبها لولده ، فأرسلها إليه .

ذكر غزو الفرنج بالأندلس

في سنة إحدى وتسعين ومئة تجهز لُذَريق ملك الفرنج بالأندلس وجمع جموعه ليسير إلى مدينة طرطوشة ليحصرها ، فبلغ ذلك الحكَم صاحب الأندلس فجهز العساكر وسيّرها مع ولده عبد الرحمن ، فاجتمعوا في جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة ، فساروا فلقوا الأفرنج في أطراف بلادهم قبل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئاً ، فاقتتلوا وبذل كل من الطائفتين جهده واستنفذوا معه ، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الكفار وكثر القتال فيهم والأسر ، ونهبت أموالهم وأثقالهم ، وعاد المسلمون ظافرين غانمين .

وفي هذه السنة غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه وخمسين رجلاً ، وسلم الباقون ، وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس التي في الثغور ، وألزم أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم .

وفي سنة اثنتين وتسعين تحركت الخُرَّميّة بناحية أذربيجان ، فوجه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف فقتل وسبى وأسر ، فأمره الرشيد بقتل الأسرى وبيع السبي .

وفي هذه السنة كان الفداء الثاني بين المسلمين والروم ، وكان عدة الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمئة أسير .

وفي سنة ثلاث وتسعين توفي هارون الرشيد وبويع ابنه الأمين ، ثم وقع الاختلاف بينه وبين أخيه المأمون إلى أن قتل الأمين سنة ثمان وتسعين ومئة ، وكان المأمون بخراسان فبويع وقدم العراق سنة اثنتين ومئتين ، وقيل سنة أربع .

ذكر الغزو بالأندلس إلى بلاد الفرنج

في سنة مئتين جهز الحكم صاحب الأندلس جيشاً مع وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج ، فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخربها ونهبها

وهدم عدة من حصونها كلما أهلك موضعاً وصل إلى غيره ، فاستخرج خزائن ملوكهم ، فلما رأى ملكهم فعل المسلمين ببلادهم كاتب جميع ملوك تلك النواحي مستنصراً بهم فاجتمعت إليه النصرانية من كل أَوْبٍ ، فأقبل في جموع عظيمة بإزاء عسكر المسلمين وبينهم فاقتتلوا قتالاً شديداً عدة أيام والمسلمون يريدون أن يعبروا النهر وهم يمنعون المسلمين من ذلك ، فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون إليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهزم المشركون إلى النهر فأخذهم السيف والأسر ، فمن عبر النهر سلم ، وأسر جماعة من ملوكهم وقمامصتهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه ، فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوماً يقتتلون كل يوم ، فجاءت الأمطار وزاد النهر وتعذر جوازه وقفل عبد الكريم عنهم .

وفي سنة إحدى ومئتين وقع انتقاض في الديلم فسيّر المأمون عبد الله بن خُورْداذَبّه إلى طبرستان ، فافتتح جبال طبرستان وأسر ملك الديلم وأشخصه إلى المأمون .

وفي سنة ست ومئتين توفي الحكم صاحب الأندلس وقام بالأمر بعده ابنه عبد الرحمن الأوسط ، وفي هذه السنة غزا المسلمون من إفريقية جزيرة سردانية فغنموا وأصابوا من الكفار وأصيب منهم ثم عادوا .

وفي سنة ثمان ومئتين سيّر عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى الأفرنج واستعمل عليه الوزير عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فساروا إلى ألبة والقلاع فنهبوا بلاد ألبة وأحرقوها وحصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحه بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين ، فغنم أموالاً جليلة القدر واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيراً وعادوا سالمين .

وفي سنة عشر ومئتين سير عبد الرحمن بن الحكم أيضاً جيشاً إلى بلاد الأفرنج واستعمل عليه ابنه عبيدالله المعروف بابن البلنسي ، فسار ودخل بلاد العدو وتردد فيها بالغارات والسبي والقتل والأسر ، ولقي جيوش الأعداء في ربيع الأول فاقتتلوا وانهزم المشركون وكثر القتل فيهم وكان فتحاً عظيماً .

وفيها افتتح عسكر سيّره عبد الرحمن أيضاً حصن القلعة من أرض العدو وتردد فيها بالغارات منتصف شهر رمضان .

وفي سنة اثنتي عشرة ومئتين سير عبد الرحمن أيضاً جيشاً إلى بلاد الأفرنج فوصلوا إلى برشلونة ، ثم ساروا إلى جرندة وقاتل أهلها ، فأقام الجيش شهرين ينهبون ويقتلون ويخربون ثم رجعوا .

وفي هذه السنة سيّر زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب عامل المأمون على إفريقية جيشاً في البحر إلى جزيرة صقلية وكان الروم تغلبوا عليها ، فلما وصلوا إليها ملكوا كثيراً منها ثم أمد الروم قسطنطين ملكهم بجيوش ووقعت وقائع كثيرة ، ثم كان النصر للمسلمين وقتلوا من الروم خلقاً كثيراً .

ذكر غزو المأمون إلى الروم

في سنة خمس عشرة ومئتين سار المأمون إلى الروم في المحرم وانتهى إلى طرسوس ودخل منها بلاد الروم في جمادى الأولى ، ودخل ابنه العباس من ملطية ، فأقام المأمون على حصن قُرَّة حتى افتتحه عَنْوة وهدمه ، وقيل إن أهله طلبوا الأمان فأمنهم وفتح قبله حصن ماجِدَة ، ووجه أشناس إلى حصن سندس فأتاه برئيسه ، ووجّه عُجَيف بن عنبسة وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع ثم رجع المأمون .

وفي سنة ست عشرة ومئتين عاد المأمون إلى بلاد الروم ، وسبب ذلك أنه بلغه أن ملك الروم قتل ألفاً وستمئة من أهل طرسوس والمصيصة ، فسار حتى دخل أرض الروم ، وقيل إن سبب دخوله أن ملك الروم كتب إليه ، بدأ بنفسه فسار ولم يقرأ كتابه ، فلما دخل أرض الروم أناخ على أنطيغوا فخرجوا على صلح .

ثم سار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ، ووجّه أخاه المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً ومطمورة .

ووجّه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وقتل وأحرق وأصاب سَبْياً ورجع .

ثم سار المأمون إلى كيسوم فأقام بها يومين ، ثم ارتحل إلى دمشق ، ثم إلى مصر ، ثم رجع إلى الروم سنة سبع عشرة ومئتين فأناخ على لؤلؤة وهي اسم الحصن مئة يوم ، ثم رحل عنها وترك عُجَيْفاً عليها ، فخدع وأسر ثمانية أيام ثم أطلق .

ثم جاء ملك الروم فأحاط بعجيف فبعث إليه المأمون الجنود ، فارتحل ملك الروم ، وخرج أهل لؤلؤة إلى عُجَيْف بأمان ، وأرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك .

وفي سنة ثمان عشرة ومئتين توفي المأمون وهو في بلاد الروم عند نهر البذندون وحمل إلى طرطوس فدفن بها ، وبويع أخوه المعتصم بوصية منه ، وعهد إليه .

في هذه السنة دخل كثير من أهل الجبال وهمذان وأصفهان وماسبذان وغيرها في

دين الخُرَّمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان فوجّه إليهم المعتصم العساكر وعليهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فأوقع بهم في أعمال همذان وقتل منهم ستين ألفاً وهرب الباقون إلى بلاد الروم .

والخُرَّميّة فرقة من المجوس يعتقدون مذهب التناسخ وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره ، والرجل منهم ينكح أمه وأخته وبنته ورئيسهم بَابَك الخُرَّمي ، وكان للمعتصم معهم وقائع يطول الكلام بذكرها إلى أن أباد كثيراً منهم بالقتل والأسر .

ذكر خروج الروم إلى زِبَطْرَة

في سنة ثلاث وعشرين ومئتين خرج ملك الروم إلى بلاد الإسلام وأوقع بأهل زبطرة وغيرها ، وقيل إنه خرج في مئة ألف وقيل أكثر من ذلك ، فقتل أهل زبطرة الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبى المسلمات ، ومَثَّل بمن صار في يده من المسلمين ، وسَمَلَ أعينهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، فنفر إلى قتالهم أهل الثغور من الشام والجزيرة إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح .

ذكر فتح عَمُّورِية وبُرُوسَةَ

لما خرج ملك الروم ، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم وامُعتَصِمَاه ، فأجابها وهو جالس على سريره لبيكِ لبيكِ ، ونهض من ساعته وصاح في قصره النفير النفير ، وبلغه أن عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية ، فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك ، وفرق عساكره ثلاث فرق فخربوا بلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا إلى قانورية ، ثم اجتمعوا إلى عمورية وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق ، وكانت في غاية الحصانة .

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال : فتحها المعتصم في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومئتين .

وسبب فتحها أن رجلاً وقف على المعتصم فقال : يا أمير المؤمنين كنت بعمورية

وجاريةٌ من أحسن النساء سيرة قد لطمها عِلْجٌ على وجهها ، فنادت وامعتصماه ، فقال العِلْجُ : وما يقدر عليه المعتصم يجيء على أبلق ينصرك ؟ وزاد في ضربها ، فقال المعتصم : وفي أي جهة عمورية ؟ فقال له الرجل : هكذا ، وأشار إلى جهتها فرد المعتصم وجهه إليها ، وقال : لبيكِ أيتها الجارية لبيكِ هذا المعتصم بالله أجابك ، ثم تجهز إليها في اثني عشر ألف فرس أبلق ، وفي هذه التلبية يقول له في قصيدة أبو تمام حبيبٌ الطائيُّ :

لَبَّيْـتَ صَـوْتـاً زِبَطِيـاً قَـدْ هَـرَقْـتَ لـه   كـأسَ الكَـرى ورُضَـابَ الخُـرَّدِ العُـرُبِ

فلما حاصرها وطال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له إنا نرى أنك ما تفتحها إلا في زمان نضج العنب والتين ، فبعد عليه ذلك واغتم لذلك ، فخرج ليلة متجسساً في العسكر يسمع ما يقول الناس ، فمر بخيمة حداد يضرب نعال الخيل ، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة يضرب نعال الخيل ويقول في رأس المعتصم ؟ فقال : له معلمه : اتركنا من هذا مالك والمعتصم ، فقال : ما عنده تدبير ، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة على قوته ولا يفتحها لو أعطاني الأمر ما بتُّ غداً إلا فيها ، فتعجب المعتصم مما سمع وانصرف إلى خيامه وترك بعض رجاله موكلاً بالغلام .

فلما أصبح جاؤوا به فقال : ما حملك يا هذا على ما بلغني عنك ؟ فقال : الذي بلغك حق ، ولكن ما وراء خبائك ، وقد فتح الله عمورية ؟ فقال : قد وليتك ، وخلع عليه وقدمه على الحرب ، فجمع الرماة ، واختار منهم أهل الإصابة وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفي البدن من أوله إلى آخره خط أسود من خشب عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر فحمى السهام بالنار وقال للرماة : من أخطأ منكم ذلك الخط الأسود ضربت عنقه وإذا بذلك الخط خشب ساج ، فعندما حصلت فيه السهام المحمية قامت النار فيه واحترق ، فنزل البدن كما هو وتحامى الرجال ، ودخل البلد بالسيف ، وذلك قبل الزمان الذي ذكره المنجمون ، وفي ذلك يقول أبو تمام حبيبٌ الطائيُّ في قصيدته التي امتدح بها المعتصم عند فتح عمورية :

السيـفُ أصـدقُ أنبـاءً مـن الكتـبِ   فـي حَـدِّهِ الحـدُّ بيـن الجـدِّ واللَّعِـبِ
بيضُ الصَّفائح لا سُودُ الصَّحَائِفِ في   مُتُـونِهِـنَّ جَـلاءُ الشَّـكِّ وَالـرِّيَـبِ

إلى آخر ما ذكره في القصيدة ، فلما دخلها ومعه الرجل الذي بلغه حديث الجارية قال له : سر بي إلى الموضع الذي رأيتها فيه ، فسار به وأخرجها من موضعها وقال لها : يا جارية هل أجابك المعتصم وملَّكها العلجَ الذي لطمها والسيد الذي كان يملكها وجميعَ ماله ، وأخذ السيف الروم ، وأقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه وأقام عليها خَمْساً وخمسين يوماً ، وفرق الأسرى على القواد وسار إلى نحو طرسوس ، ثم رجع إلى دار ملكه .

ذكر غزوات زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب عامل إفريقية

قد تقدم ذكر غزوة من غزواته سنة اثنتي عشرة ومئتين ، ثم كانت له غزوة في سنة ثلاث عشرة ، وكذا في سنة أربع عشرة وهكذا إلى سنة ثلاث وعشرين ومئتين ، والكلام على تفصيل تلك الغزوات طويل ، وفي أكثرها كان النصر للمسلمين ، وتوفي زيادة الله المذكور سنة ثلاث وعشرين ، وَوَلي بعده أخوه الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، وسيَّر سَرِيةً سنة أربع وعشرين إلى صقلية فغنمت وسلمت .

وفي سنة خمس وعشرين استأمن عدة حصون إلى المسلمين من جزيرة صقلية ، منها : حصن البلّوط وقَرْلُون ومرو ، وسار أسطول المسلمين إلى قِلَّوْرِيَة ففتحها ، ولقي أسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال ، فعاد الأسطول إلى القسطنطينية مهزوماً ، فكان فتحاً عظيماً .

وفي سنة ست وعشرين ومئتين سارت سرية للمسلمين بصقلية إلى قصريانِهْ ، فغنمت وأحرقت وسبت ، فلم يخرج إليهم أحد ، فسارت إلى حصن الغِيران وهو أربعون غار فغنمت جميعها .

وفي سنة ثلاث وعشرين سيّر عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى ألبة والقلاع ، فنزلوا حصن الفرات ، وغنموا ما فيه وقتلوا أهله ، وسبوا النساء والذرية وعادوا ، وسيّر جيشاً أيضاً في سنة أربع وعشرين فكان بينهم وبين المشركين حرب شديدة ، فانهزم المشركون وقتل منهم ما لا يحصى ، وفعل مثل ذلك سنة خمس وعشرين ومئتين .

وفي سنة أربع وعشرين نقض كثير من أهل طبرستان فجهز المعتصم عليهم الجيوش ، وقاتلهم كثيراً وأسر آخرين حتى رجعوا إلى الطاعة .

وتوفي المعتصم سنة سبع وعشرين وبويع ابنه الواثق .

وفي هذه السنة سيّر عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى أرض العدو ، فلما كانوا بين أَرْبُونَة وشَرْطَانية تجمعت الروم عليهم وأحاطوا بالعسكر وقاتلوهم الليل كله ، فلما أصبحوا أنزل الله نصره على المسلمين وهزم عدوهم .

وفي هذه السنة أيضاً سيّر عبد الرحمن بن الحكم جيشاً وجعل عليه عبد الله المعروف بابن البلنسي إلى بلاد العدو فوصلوا إلى ألبة والقلاع ، فخرج إليه المشركون في جمعهم وكان بينهم حرب شديد وقتال عظيم ، فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصى وجمعت الرؤوس أكداساً أي مجموعاً بعضها فوق بعض حتى كان الفارس لا يرى من يقابله ، وفيها خرج ملكهم لذريق في عسكره وأراد الغارة على مدينة سالم من الأندلس ، فسار إليه فرتون بن موسى في عسكر جرار فلقيه وقاتله فانهزم لذريق وكثر القتل في عسكره ، وسار فرتون إلى الحصن الذي كان بناه أهل ألبة وراء ثغور المسلمين فحصره وافتتحه وهدمه .

ذكر غزوات بإفريقية

وفي سنة ثمان وعشرين ومئتين غزا في البحر بإفريقية الفضل بن جعفر الهمداني ، فنزل مرسى مسيني وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة ، واستأمن إليه أهل نابل وصاروا معه ، وقاتل الفضل الروم الذين بها مدة سنتين ، واشتد القتال فلم يقدر على أخذها ، فمضى بطائفة من العسكر واستداروا خلف جبل مُطِلّ على المدينة فصعدوا إليه ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال الفضل بن جعفر ومن معه ، فلما رأى أهل البلد أن المسلمين دخلوا عليهم مّن خلفهم انهزموا وفتح البلد وفتح أيضاً مدينة مسكان .

وفي سنة تسع وعشرين ومئتين خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية ، فبلغ شرة ، فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، فانهزمت الروم وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف رجل ، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ولم يكن بصقلية مثلها .

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئتين حصر الفضل بن جعفر مدينة مَسّيني ، فأخبر الفضل أن أهل مَسّيني قد كاتبوا البطريق الذي بصقلية لينصرهم فأجابهم وقال لهم : إن العلامة عند وصولي أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني ، فإذا رأيتم ذلك في اليوم الرابع أصل إليكم فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتةً ، فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال ، فلما رأى أهل مسيني النار أخذوا في أمرهم وأعد الفضل ما ينبغي أن يستعد به ، وكمن الكمناء ، وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا إلى جهة الكمين فإذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم فإذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم ، فلما كان اليوم الرابع خرج أهل مَسّيني وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق ، فانهزم المسلمون واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ، ولم يبق بالبلد أحد إلا خرج ، فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين عليهم من خلفهم ووضعوا السيف فيهم فلم ينج منهم إلا القليل فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ويسلموا المدينة فأجابهم المسلمون إلى ذلك وأمنوهم وسلموا المدينة .

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومئتين وصل عشر شلنديات من الروم ، فأرسوا بمرسى

الطين وخرجوا ليغيروا فضلّوا الطريق ، فرجعوا خائبين وركبوا البحر راجعين فغرق منها سبع قطع .

وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين صالح أهل رغوس وسلموا المدينة للمسلمين بما فيها ، فهدمها المسلمون وأخذوا منها ما أمكن حمله .

وفي سنة خمس وثلاثين سار طائفة من المسلمين إلى مدينة قَصْريانّه ، فغنموا وسبوا وأحرقوا وقتلوا في أهلها ، وكان الأمير على صقلية للمسلمين محمد بن عبد الله بن الأغلب وكان مقيماً بمدينة بَلَرْم ولم يخرج منها ، وإنما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح وتغنم ، وكانت إمارته عليها تسع عشرة سنة وتوفي سنة ست وثلاثين ومئتين .

وفي سنة ثمان وعشرين ومئتين بعث عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً عليهم الحارث بن يزيع لقتال الأفرنج ، فوقع القتال وأصاب الحارث ضربة في وجهه قلعت عينه ثم أسر فجهز عبد الرحمن بن الحكم جيشاً واستعمل عليه ابنه محمد فأوقع بالأفرنج وقتل ملكهم غرسية وكثيراً من قومه وأطلق الحارث بن يزيع .

وفي سنة ثلاث ومئتين خرج جماعة كثيرون في بحر الأندلس من المجوس وأوقعوا المسلمين في مدائن كثيرة ، فجهز عليهم عبد الرحمن بن الحكم جيوشاً كثيرة مع قواده فقاتلوا المجوس قتالاً شديداً وهزموهم وقتلوا كثيراً منهم في وقائع كثيرة .

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئتين ، بعث الواثق جيشاً لقتال الروم فقصدوا جليقية وقتلوا وأسروا وسبوا وغنموا ثم قصدوا إليون فحصروها ورموها بالمجانيق ، فخاف أهلها فتركوها بما فيها وخرجوا هاربين ، فغنم المسلمون منهم ما أرادوا وخربوا البلاد ولم يقدروا على هدم سورها لأن عرضه سبع عشرة ذراعاً ، فتركوه ومضوا وقد ثلموا فيه ثلماً كثيرة .

وفي هذه السنة أمر الواثق بفداء المسلمين واجتمع المسلمون والروم على نهر اللامس ، وأحضر المسلمون من معهم من الأسرى وأحضر المشركون من معهم من الأسرى ، وكان النهر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر ، ويأتي كلٌّ إلى أصحابه فإذا وصل الأسير إلى

المسلمين كبَّروا وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا حتى فرغوا ، وكان النهر مخاضة تعبره الأسرى ، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمئة وستين نفساً ، ومن النساء والصبيان ثمانمئة نفس والملحق بالمسلمين من أهل الذمة مئة نفس ، ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم الباهلي المقدم في أمر الفداء شاتياً فأصاب الناس ثلجٌ ومطر فمات من المسلمين مِئتا نفس وأسر نحوهم وغرق بالبذندون خلق كثير ، وجاء بطريق من الروم ينذره فقال وجوه الناس لأحمد : إن عسكراً فيه سبعة آلاف لا تتخوف عليهم فإن كنت كذلك فواجه القوم واطرق بلادهم ، ففعل وغنم نحواً من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة ورجع ، فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعي ، وتوفي الواثق سنة اثنتين وثلاثين وبويع أخوه المتوكل بن المعتصم .

وفي سنة خمس وثلاثين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً كثيفاً لقتال الأفرنج فبلغوا ألبة وغنموا وظفروا .

وفي سنة ست وثلاثين سيّر جيشاً إلى برشلونة فقتلوا من أهلها فأكثروا وأسروا جَمّاً غفيراً وغنموا وعادوا سالمين ، وكذا في سنة سبع وثلاثين ، وتوفي الحكم سنة ثمان وثلاثين وقام بالأمر بعده ابنه محمد .

ذكر غزوات وفتوحات بإفريقية

قد تقدم أن ابتداء فتوح المسلمين لإفريقية كان في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة عشرين من الهجرة ، ولما كانت خلافة هارون الرشيد وَلي على إفريقية إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة أربع وثمانين ومئة ، وتوارث بنوه الملك بعده عمالاً لخلفاء بني العباس ، واستمر ذلك فيهم إلى سنة مئتين وست وتسعين فزالت دولتهم لما صار ملك إفريقية للفاطميين ، ويقال لهم العبيديون ، فكانت مدة ملك بني الأغلب مئة سنة واثنتي عشرة سنة ، وكان مقر ملكهم القيروان ، واتسع ملكهم وقوي بإفريقية وصار لهم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرة وملك ضخم ومراكب في البحر ، ولهم كثير من المآثر المحمودة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة ، وقد تقدم ذكر كثير منها ، وسيأتي غيرها وأكثر فتوحات إفريقية كان على أيديهم .

وتقدم أن أول من اختط مدينة القيروان عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه ، ولد في عهد النبي ﷺ ولم تثبت له صُحْبة وكان صالحاً من كبار التابعين وخيارهم ، وكان خَطَّ القيروان سنة خمسين من الهجرة حين كان أميراً على إفريقية في خلافة معاوية رضي الله عنه ، فلما اختطها صارت قاعدة إفريقية ومقر ملكها ، ثم بعد سنين كثيرة صارت مدينة تونس بدلاً عنها ، وإفريقية بلاد واسعة ، قال في القاموس : إن إفريقية قبالة الأندلس ، وقال السيد مرتضى في شرحه على القاموس : إن إفريقية قبالة جزيرة صقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة عنها إلى جهة المغرب ، وصِقِلِّية بكسراتٍ مشدّدة اللام : جزيرة عظيمة بالمغرب كثيرة البلدان والقرى والمواشي افتتح المسلمون كثيراً من مدائنها وقراها بعد غزوات كثيرة ، وكان أول الغزو إليها زمن ولاية معاوية بن حُدَيْج على إفريقية في خلافة معاوية رضي الله عنه ولم يفتحها ، وتتابع الغزو إليها في زمن ولاية بني الأغلب من أول دولتهم إلى آخرها ، وتملكوا أكثر الجزيرة ، ولم يزل الفتح فيها والغزو إليها ولم يتم فتحها إلى أن انقضت ولاية بني الأغلب سنة مئة وست وتسعين ، وجزيرة صقلية الآن داخلة في إيطالية .

واعلم أن المغرب يشتمل على ثلاث ممالك عظام : وهي ، المغرب الأدنى والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، فالمغرب الأدنى القيروان ، وتونس ، وطرابلس الغرب وأعمال كل منها ، والمغرب الأوسط تلمسان والجزائر وأعمالها وذلك الآن بيد الفرنسيس تملكوه من سنة ألف ومئتين وست وأربعين ، والمغرب الأقصى فاس ومرَّاكُش والسوس وأعمالها وذلك الآن بيد سلطان فاس وإنما قيل لذلك المغرب الأقصى لأنه أبعد من دار الخلافة في صدر الإسلام وكان قبل استحداث مدينة تونس مدينةٌ عظمى تسمى (قَرْطاجَنَّة) بتشديد النون المفتوحة ، وكانت مدينة شهيرة من عجائب الدنيا وكانت عند الروم تضاهي مدينة رومة ، وكان بها كثير من ملوك الفرنج ومعهم من الفرنج أمم لا تحصى ، فغزاها المسلمون سنة تسع وستين من الهجرة بأربعين ألفاً من الجند أميرهم حسان بن النعمان في خلافة عبد الملك بن مروان ، فحاصرها حسان بن النعمان بمن معه من الجند إلى أن افتتحها وقتل كثيراً ممن كان فيها ونجا قوم منهم في المراكب إلى جزيرة صقلية وقوم منهم إلى الأندلس .

ولما انصرف عنها حسان بن النعمان دخلها قوم من أهل الضواحي والبادية ،

وتحصنوا بها ، فرجع إليهم حسان وقاتلهم أشد قتال وافتتحها عنوة وأمر بتخريبها وإعفاء أثرها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر ، ولم يبق بها إلا آثار خفيفة تدل على ما كان فيها من عجائب الصنعة وإحكام العمل ، وعمر على أنقاضها مدينة تونس بالقرب منها .

ومن غزوات بني الأغلب غزوة لزيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في سنة مئتين واثنتين جهز جيشاً في مراكب البحر إلى مدينة سردانية وهي جزيرة كبيرة ببحر المغرب كانت للروم فغنموا وقتلوا كثيراً ورجعوا سالمين .

وفي سنة سبع ومئتين سير جيشاً ففتحوا مواضع من جزيرة صقلية ، وسير أيضاً جيشاً في سنة ثنتي عشرة ، ففتحوا أيضاً مواضع كثيرة من جزيرة صقلية ، ثم وقع اختلاف بين ملوك الروم الذين كانوا في صقلية ، فاستنجد بعض منهم بزيادة الله بن الأغلب ووعده بأنه يملكه جزيرة صقلية ، فسيّر معه جيشاً في ربيع الأول من سنة ثنتي عشرة ومئتين ، فوصلوا إلى مدينة مازر من صقلية ، ثم ساروا فلقيهم جمع من الروم فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً فانهزمت الروم وقتل كثير منهم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم ، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ، ثم توجهوا إلى حصار قصريانَّهْ وهي من جزيرة صقلية ، وبث المسلمون السرايا في كل ناحية فغنموا شيئاً كثيراً ، وافتتحوا عمراناً كثيراً حول سرقوسة ، وحاصروا سرقوسة براً وبحراً ولحقتهم الأمداد من إفريقية فضيقوا على سرقوسة ، فوصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير من الروم مدداً لجماعاتهم ، وذلك في سنة ثلاث عشرة ومئتين ، وقد حَلَّ بالمسلمين وَباءٌ شديد هلك فيه كثير منهم ، فلما رأى المسلمون شدة الوباء ووصول الروم تحمل المسلمون في مراكبهم ليسيروا ويتركوا الحصار ، فوقف الروم في مراكبهم على باب المرسى فمنعوا المسلمين من الخروج ، فلما رأى المسلمون ذلك أحرقوا مراكبهم ، وعادوا ورحلوا إلى مدينة ميناو فحصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن ، وسار طائفة منهم إلى حصن جرجَت فقاتلوا أهله ، وملكوه وسكنوا فيه ، واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ، ثم ساروا إلى مدينة قصريانَّهْ ووصل جيش كثير من القسطنطينية مدداً لمن في الجزيرة فتلقاهم المسلمون واقتتلوا ، فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير ، ودخل منهم مَنْ سَلِم قصريانَّهْ ، ثم إن سرية للمسلمين سارت للغنيمة فخرج عليها طائفة

من الروم ، فاقتتلوا وانهزم المسلمون وعادوا من الغد ومعهم جمع من عسكر المسلمين ، فخرج إليهم الروم وقد اجتمعوا وحشدوا وتصادقوا مرة ثانية واقتتلوا ، فانهزم المسلمون أيضاً وقتل منهم نحو ألف قتيل ، وعادوا إلى معسكرهم وخندقوا عليهم فحصرهم الروم ودام القتال بينهم ، فضاقت الأقوات على المسلمين ، فعزموا على بيات الروم ، فعلموا بهم ففارقوا الخيام ، فلما خرج المسلمون لِبَيَاتِ الروم لم يجدوا أحداً وأقبل عليهم الروم من كل ناحية فأكثروا القتل في المسلمين وانهزم الباقون من المسلمين ودخلوا ميناو فحصرهم الروم ، ودام الحصار على المسلمين حتى أكلوا الدواب والكلاب .

فلما سمع بذلك من في مدينة جرجَت من المسلمين ، هدموا المدينة وساروا إلى مازر ، ولم يقدروا على نصرة إخوانهم من المسلمين ودام الحال إلى أن دخلت سنة أربع عشرة ومئتين ، وقد أشرف المسلمون على الهلاك ، إذ أقبل أسطول كبير من المسلمين الذين في الأندلس خرجوا غزاة ، ووَصَلَتْ أيضاً في ذلك الوقت مراكب كثيرة من إفريقية مدداً للمسلمين ، فبلغت عدة الجميع ثلاثمئة مركب ، فنزلوا إلى الجزيرة فانهزم الروم عن حصار المسلمين وفرج الله عنهم .

وسار المسلمون إلى مدينة بلرم وكانت للروم فحصروها وضيقوا على من بها ، فطلب صاحبها الأمان لنفسه ولأهله ولماله فأجيب إلى ذلك ، وسار في البحر إلى بلاد الروم ، ودخل المسلمون البلد في رجب سنة ست عشرة ومئتين فلم يروا فيه إلا أقل من ثلاثة آلاف إنسان ، وكان فيه لما حصروه سبعون ألفاً ، ماتوا كلهم ، وبقي المسلمون إلى سنة تسع عشرة ومئتين .

ثم ساروا إلى مدينة قصريانّهْ فخرج إليهم من كان فيها من الروم فاقتتلوا أشد قتال ، ففتح الله على المسلمين وانهزم الروم إلى معسكرهم ، ثم رجعوا في الربيع فقاتلوهم ، فنصر الله أيضاً المسلمين ، ثم سار المسلمون أيضاً سنة عشرين إلى قصريانّهْ ، فقاتلهم الروم فهزمهم الله تعالى ، وانتصر المسلمون عليهم ، وأسرت امرأة لبطريقهم وابن له ، وغنم المسلمون ما كان في معسكرهم وعادوا إلى بلرم .

ثم سيّروا عسكراً إلى ناحية طبرمين فغنموا غنائم كثيرة ، ثم عدا بعض عسكر

المسلمين على أمير المسلمين وهو محمد بن سالم فقتلوه ولحقوا بالروم ، فأرسل زيادة الله بن الأغلب من إفريقية الفضل بن يعقوب عوضاً عنه ، فسار في سرية إلى ناحية سرقوسة فأصابوا غنائم كثيرة ، ثم سارت سرية كبيرة فغنمت وعادت ، فعرض لهم الملك صاحب صقلية ومعه جمع كثير من الروم فتحصنوا من الروم في أرض وعرة وشجر كثيف فلم يتمكن الملك من قتالهم ووافقهم إلى العصر ، فلما رأى أنهم لا يقاتلونهم عاد عنهم ، فتفرق أصحابه وتركوا التبعية ، فلما رأى المسلمون ذلك حملوا عليهم حملة صادقة فانهزم الروم وطعن الملك وجرح عدة جراحات وسقط عن فرسه ، فأتاه حُماة أصحابه ، واستنقذوه جريحاً وحملوه وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ومتاع ودواب فكانت وقعة عظيمة .

وسيّر زيادة الله بن الأغلب من إفريقية إلى صقلية أبا الأغلب إبراهيم بن عبد الله أميراً على تلك الجيوش ، فوصل إليهم منتصف رمضان ، فبعث أسطولاً فلقوا أسطول الروم فغنم المسلمون ما فيه من مال وأسروا ما فيه من رجال فضرب أبو الأغلب رقاب كل من فيه ، وبعث أسطولاً آخر إلى قوصرة فظفر بحراقة فيها رجال من الروم ورجل من أهل إفريقية كان مسلماً فَتَنَصَّر فأتى بهم فضربت رقابهم ، وسارت سرية أخرى إلى جبل النار والحصون التي في تلك الناحية فأحرقوا الزرع وغنموا وأكثروا القتل .

ثم سيّر أبو الأغلب سنة إحدى وعشرين ومئتين سرية إلى جبل النار أيضاً فغنموا غنائم كثيرة حتى بيع الرقيق بأبخس الأثمان وعادوا سالمين .

وفيها سيّر أبو الأغلب أيضاً سرية إلى قُسُنْطَانَة ، فغنموا وسبوا ولقيهم العدو فكانت بينهم حرب استظهر فيها الروم ، وفيها أيضاً جهز أسطولاً فساروا نحو الجزائر فغنموا غنائم عظيمة وفتحوا مدناً ومعاقل وعادوا سالمين ، وفيها أيضاً سَيّر سرية إلى مدينة قصريانة ، فخرج إليهم العدو فاقتتلوا ، فانهزم المسلمون وأصيب منهم جماعة ، ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب كبار برجالها وشلندى ، فلما جاء الشتاء وأظلم الليل رأى رجل من المسلمين غفلة من أهل قصريانة ، فتقرب ورأى طريقاً فدخل منهم ولم يعلم به أحد ثم انصرف إلى العسكر فأخبرهم ، فجاؤوا معه فدخلوا من ذلك الموضع ، وكبروا وملكوا ربضه ،

وتحصن المشركون منهم بحصنه ، وطلبوا الأمان فأمنوهم ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا إلى بَلَرْم .

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئتين وصل كثير من الروم في البحر إلى صقلية ، وكان المسلمون قد حاصروا جُفْلُوذ وقد طال حصارها ، فلما وصل الروم رحل المسلمون عنها ، وجرى بينهم وبين الروم الواصلين حروب كثيرة ، ثم جاء المسلمين الخبرُ بوفاة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية فوهن المسلمون ثم تشجعوا وضبطوا أنفسهم .

(سرقوسة) بسين مفتوحة وقاف وواو وسين ثانية ، و(بَلَرْم) بفتح الباء الموحدة واللام وتسكين الراء وبعدها ميم ، و(مِيناو) بميم وياء تحتها نقطتان ونون بعد الألف واوٌ ، و(جرجَت) بجيم وراء وجيم ثانية مفتوحة وتاء فوقها نقطتان ، و(قصريانه) بالقاف والصاد المهملة والراء والياء تحتها نقطتان وبعد الألف نون مشدّدة وهاء .

وهذه الغزوات هي التي ذكرت مجملة قبل هذا الموضع بورقة استحسنّا تدارك ذكرها تفصيلاً لما اشتملت عليه من الفوائد .

ولما توفي محمد بن عبد الله أمير صقلية سنة ست وثلاثين كما تقدم ، اجتمع المسلمون بها على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب فولوه أمرهم ، وكتبوا بذلك إلى محمد بن الأغلب أمير إفريقية ، فأرسل إليه عهداً بولايته ، فكان العباس يرسل السرايا وتأتيه الغنائم إلى أن أتاه عهده بولايته فخرج بنفسه وأرسل سرية إلى قلعة أبي ثور ، فغنموا وأسروا وعادوا فقتل الأسرى ثم توجه إلى مدينة قَصْرُيانّه فنهب وأحرق وخرب ليخرج إليه البطريق فلم يفعل فعاد العباس .

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئتين خرج حتى بلغ قصريانّه وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان قبلها يسكن سُرَقُوسة ، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قصريانّهْ لحصانتها ، فخرج العباس ومعه جمع عظيم فغنم وخرب ، وأتى قطانية وسرقوسة ونوطس ورغوس فغنم من جميع هذه البلاد وخرب وأحرق ، ونزل على شيرة وحصرها خمسة أشهر فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس .

وفي سنة اثنتين وأربعين سار العباس في جيش كثيف ففتح حصوناً جمة .

وفي سنة ثلاث وأربعين سار إلى قصريانّهْ فخرج أهلها فلقوه فهزمهم وقتل فيهم فأكثر ، وقصد سرقوسة وَطَبَرْمِين وغيرهما فنهب وخرب وأحرق ونزل القصر الجديد وحصره وضيّق على من به من الروم ، فبذلوا له خمسة عشر ألف دينار فلم يقبل منهم ، وأطال الحصر فسلموا إليه الحصن على شرط أن يطلق مئتي نفس فأجابهم إلى ذلك وملكه وباع كل من فيه سوى مئتي نفس وهدم الحصن .

ذكر فتح قَصْرُيانَّهْ

في سنة أربع وأربعين ومئتين فتح المسلمون مدينة قصريانّهْ وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة ، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قصريانّهْ لحصانتها ، وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين إلى مدينة قصريانّهْ وسرقوسة وسيّر جيشاً في البحر فلقيهم أربعون شلندى للروم ، فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم وأخذ المسلمون منهم عشر شلنديات برجالها ، وعاد العباس إلى مدينته ، فلما كان الشتاء سيّر سرية فبلغت قصريانّهْ فنهبوا وخربوا وعادوا ، وكان معهم أسير من الروم له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال : استبقني ولك عندي نصيحة ، قال : وما هي ؟ قال : أملكك قصريانّهْ والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم فهم غير محترسين ، ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة ، فانتخب العباس ألفي فارس أنجاداً أبطالاً وسار إلى أن قاربها وكمن هناك مستتراً وسيّر عمه رباحاً في شجعانهم ، فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيّد بين يدي رباح فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك فنصبوا السلالم وصعدوا حتى وصلوا إلى سور المدينة قريباً من الصبح والحرس نيام ، فدخلوا من باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقذار ، فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب ، وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلّوا الصبح بها يوم الخميس ، وبنى فيها في الحال مسجداً ونصب فيه منبراً وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيه من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه ، وذلّ الشرك يومئذ بصقلية ذلاً عظيماً .

ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقاً من القسطنطينية في ثلاثمئة شلندى وعسكر كثير ، فوصلوا إلى سرقوسة ، فخرج إليهم العباس من المدينة ولقي الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا في مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مئة شلندى ، وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب .

وفي سنة ست وأربعين ومئتين نكث كثير من قلاع صقلية فخرج العباس إليهم وقاتلهم فانهزم الروم وقتل كثير منهم ، وسار إلى بعض القلاع التي نكثت فحصرها ، فأتاه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فرحل إليهم وجرى بينه وبينهم قتال شديد فهزمهم وعاد إلى قصريانَّهْ فحصنها وشحنها بالعساكر .

وفي سنة سبع وأربعين ومئتين سار العباس إلى سَرَقُوسَة فغنم وسار إلى غِيران فرقنة فاعتلَّ ومات بعد ثلاثة أيام فنبشه الروم وأحرقوه ، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفاً وغزا أرض قِلَّوْرِيَة وأَنْكَبُرْدَةَ وأسكنها المسلمين .

ذكر مسير الروم إلى أرض مصر

في سنة تسع وثلاثين ومئتين في خلافة المتوكل جاءت ثلاثمئة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ أحدهم في مئة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها إلى صدر الرجل فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر ، فجازه قوم فسلموا وغرق كثير من نساء وصبيان ، ومن كان به قوة سار إلى مصر ، وكان على معونة مصر عنبسة بن إسحاق الضبي ، فلما حضر العيد أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا إلى مصر فساروا منها ، فاتفق وصول الروم وهي فارغة من الجند فنهبوا وأحرقوا وسبوا وأحرقوا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع وغير ذلك ، وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمئة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك ، وكان عنبسة قد حبس بسر بن الأكشف بدمياط فكسر قيده وخرج يقاتلهم وتبعه جماعة وقتل من الروم جماعة ، وسارت الروم إلى أشنوم تنيس وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتصم ، فنهبوا ما فيه من سلاح وأخذوا البابين ورجعوا ، ولم يعرض لهم أحد ، وغزا الصائفة في هذه السنة عليّ بن يحيى الأرميني .

وفي سنة أربعين كان قتال بين محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس وبين الأفرنج ، فكان النصر له عليهم وقتل منهم نحو ثمانية آلاف .

وفي سنة إحدى وأربعين قتلت تدورة ملكة الروم من أسرى المسلمين اثني عشر ألفاً فإنها عرضت النصرانية على الأسرى ، مَنْ تَنَصَّر تركَتْهُ ومَنْ أبى قتلته ، وأرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم ، ففداهم المتوكل وكانوا سبعمئة وخمسة وثمانين رجلاً ، ومن النساء مئة وخمساً وعشرين امرأة .

ذكر إغارة البِجَاة على مصر
وبجاوة أرض النبوة ، والبِجاة أهل تلك الأرض

في سنة إحدى وأربعين أغارت البجاة على مصر وكانت قبل ذلك لا تغزو بلاد الإسلام لهدنة قديمة ، وفي بلادهم معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى أهل مصر ،

فامتنعوا أيام المتوكل وقتلوا من وجدوه من المسلمين ، فلما بلغ الخبر المتوكل شاور وزراءه في أمرهم فذكروا له أنهم أهل بادية وأهل إبل وشياه ، وأن الوصول إلى بلادهم صعب ، لأنها مفاوز بين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهر في أرض قفرة وجبال وعرة ، وأن كل من يدخلها من الجيوش يحتاج أن يتزود للمدة التي يتوهم أنه يقيمها إلى أن يخرج إلى بلاد الإسلام ، فإن جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجاة باليد ، وأن أرضهم لا ترد على سلطان شيئاً ، فأمسك المتوكل عنهم فطمعوا ، وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم ، فولّى المتوكل محمد بن عبد الله القمي محاربتهم ، وكتب إلى عنبسة بن إسحاق عامل حرب مصر بإراحة علته وإعطائه من الجند ما يحتاج إليه ، ففعل ذلك .

وسار محمد إلى البِجَاة وتبعه ممن يعمل في المعادن والمتطوعة عالم كثير ، فبلغت عدتهم نحو عشرين ألفاً بين فارس وراجل ، ووجّه إلى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موفورة بالذخيرة ، وأمر أصحابه أن يوافوه بها في ساحل البحر مما يلي بلاد البجاة ، وسار حتى جاوز المعادن التي يعمل منهم الذهب وسار إلى حصونهم وقلاعهم وخرج إليه ملكهم وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له في جيش كثير أضعاف مَنْ مع القمي ، وكانت البجاة على الإبل فتحاربوا أياماً وطاولهم البجاة ، لتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم ، فيأخذوهم بغير حرب ، فأقبلت تلك المراكب التي فيها الأقوات في البحر ، ففرق القمي ما كان فيها في أصحابه فاتسعوا فيها ، فلما رأى ملك البجاة ذلك صدقهم القتال ، وجمع لهم فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً وكانت إبلهم ذعرة تنفر من كل شيء ، فلما رأى القمي ذلك جمع كل جرس في عسكره وجعلها في أعناق خيله ثم حملوا على البجاة فنفرت إبلهم لأصوات الأجراس ، فحملتهم على الجبال والأودية ، وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً حتى أدركهم الليل ، ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم .

ثم إن ملكهم طلب الأمان فأمنه على مملكته وبلاده فأدى لهم الخراج للمدة التي كان منعها وهي أربع سنين ، وسار القمي إلى المتوكل فخلع عليه وعلى أصحابه ، وفي هذه السنة أغارت الروم على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط (الزط جيل من السودان طوال الأجسام) من نسائهم وذراريهم ودوابهم ، وفي هذه السنة أيضاً سير

محمد صاحب الأندلس الجيوش إلى غزو الأفرنج فدخلوا بلادهم ووصلوا إلى ألبة والقلاع وافتتحوا بعض حصونها وعادوا .

وفي سنة اثنتين وأربعين خرجت الروم من ناحية سميساط حتى قاربوا آمد وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحواً من عشرة آلاف ثم رجعوا ، فخرج قوم من المتطوعة في آثارهم فلم يلحقوهم ، وكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرميني أن يسير إلى بلادهم ثانياً ففعل ، وفي هذه السنة سيّر محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً إلى بلاد الأفرنج فدخلوا إلى برشلونة وحاربوا قلاعها وجاوزوها إلى ما وراء أعمالها ففتحوا كثيراً وافتتحوا حصناً من أعمال برشلونة يسمى طراحة من حصون برشلونة .

وفي سنة أربع وأربعين بعث المتوكل بغا الكبير في العساكر الصائفة فدخل بلاد الروم فدوخها واكتسحها من سائر النواحي ورجع .

وفي سنة خمس وأربعين أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً ، وغزا علي بن يحيى الأرميني الصائفة ، ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود إليها فبعث إليهم ملك الروم يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا إليه (لؤلؤة) قلعة للصقالبة ، فأصعدوا البطريق إليهم ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ، ثم سلموا البطريق ولؤلؤة إلى بلكاجور فسيره إلى المتوكل ، فبذل ملك الروم في فدائه ألف مسلم كانوا مأسورين عنده .

وفي سنة ست وأربعين أيضاً غزا عمر بن عبيد الله الأقطع الصائفة فجاؤوا بسبعة عشر رأساً ، وغزا قربياس فجاء بخمسة آلاف رأس ، وغزا الفضل بن قارون فافتتح حصن أنطاكية ، وغزا بلكاجور فغنم وسبى ، وغزا علي بن يحيى الأرميني فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الدواب والرمك والحمير نحواً من عشرة آلاف رأس .

وفي هذه السنة كان الفداء على يد علي بن يحيى الأرميني ففُودِي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفساً .

وفي هذه السنة والتي قبلها خرج المجوس من بلاد الأندلس في مراكب إلى بلاد الإسلام ، فأمر محمد بن عبد الرحمن صاحب البلاد بإخراج العساكر إلى قتالهم ،

فوصلت مراكب المجوس إلى إشبيلية فخلت بالجزيرة ودخلت إلى قتالهم وأحرقت المسجد الجامع ، ثم جازت إلى العدوة ثم تقدموا إلى حائط أفرنجة وأغاروا وأصابوا من النهب والسبي كثيراً ثم انصرفوا ، فلقيتهم مراكب محمد فقاتلوهم فأحرقوا مركبين من مراكب المجوس وأخذوا مركبين آخرين فغنموا ما فيها ، فَحمِي المجوس عند ذلك وجَدّوا في القتال ، واستشهد جماعة من المسلمين ، ثم مضت مراكب المجوس حتى وصلت إلى مدينة بنبلونة فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجي فافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار ، وفي هذه السنة غزا عامل طرسونَة بنبلونة ، فافتتح حصن بيلسان وسبى أهله ، ثم كانت على المسلمين في اليوم الثاني وقعة استشهد فيها جماعة .

وفي سنة سبع وأربعين غزا محمد صاحب الأندلس في جيوش كثيرة بنبلونة ، فوطىء بلادها ودوّخها وخربها ونهبها وقتل فيها فأكثر وافتتح حصوناً وأسر فرتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنة ثم أطلقه .

وفي هذه السنة قُتِلَ المتوكلُ قَتَلَهُ خدمُهُ الأتراك ، وبويع ابنه المنتصر ومات بعد ستة أشهر ، وبويع المستعين بن المعتصم .

ذكر فتوحات وغزوات بإفريقية

لما توفي أمير صقلية العباس بن الفضل سنة سبع وأربعين ولّى الناس عليهم ابنه عبد الله ، وكتبوا إلى الأمير بإفريقية بذلك ، وأخرج عبد الله السرايا ففتح قلاعاً متعددة ، وبعد خمسة أشهر وصل من إفريقية خفاجة بن سفيان أميراً على صقلية وكان وصوله سنة ثمان وأربعين فأكثر الغزوات والسرايا على الروم بتلك النواحي وشنّ عليهم الغارات ففتح حصوناً كثيرة ، واستمر إلى سنة خمس وخمسين وتوفي ، وأقيم بعده ابنه محمد وكان الروم يحاصرون مالطة فسير إليهم جيشاً سنة ست وخمسين ، فلما سمع الروم بذلك رحلوا ، ثم قتل محمد بن خفاجة سنة سبع وخمسين قتله خدمه الخصيان ، وهربوا ، فطلبهم الناس فأدركوهم ، فقتلوهم .

وفي سنة ثمان وأربعين ومئتين سار جيش للمسلمين بالأندلس إلى مدينة برشلونة وهي للفرنج فأوقعوا بأهلها ، فراسل صاحبها ملك الفرنج يستمده ، فأرسل إليه جيشاً كثيفاً وأرسل إليه المسلمون يستمدون ، فأتاهم المدد فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالاً

شديداً فملكوا أرباضها وبرجين من أبراج المدينة ، فقتل من المشركين خلق كثير ، وسَلِم المسلمون وعادوا وقد غنموا .

وفي سنة ثمان وأربعين غزا وَصِيف التركي بلاد الروم ومعه اثنا عشر ألفاً فدخل بلاد الروم وافتتح حصن فَرُورية .

وفي سنة تسع وأربعين سيّر محمد صاحب الأندلس جيشاً إلى مدينة ألبة والقلاع من بلاد الفرنج ، فجالت الخيل في ذلك الثغر وغنمت وافتتحت بها حصوناً منيعة ، وفي سنة تسع وأربعين أيضاً غزا جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصناً ومطامير ، واستأذنه عمر بن عبيدالله الأقطع في المسير إلى بلاد الروم فأذن له ، فسار في خلق كثير من أهل ملطية ، فلقيه الملك في جمع عظيم من الروم بمرج الأسقف فحاربه محاربة شديدة قتل فيها من الفريقين خلق كثير ، ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفاً وقتل عمر وممن معه ألفان من المسلمين ، فلما قتل عمر بن عبيد الله خرج الروم إلى الثغور الجزرية وكلبوا عليها وعلى أموال المسلمين وحُرَمِهم ، فبلغ ذلك علي بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميافارقين في جماعة من أهلها ومن أهل السلسلة ، فنفر إليهم فقتل في نحو من أربعمئة رجل ، ولما اتصل الخبر ببغداد وسامِرّاء بقتل عُمَرَ بن عبيد الله وعلي بن يحيى وكانا من شجعان الإسلام شديداً بأسهما عظيماً غَنَاؤهما عن المسلمين وفي الثغور ، شَقَّ ذلك عليهم مع استعظامهم قتل الأتراك للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير وقام بعض الأجناد يطلبون أرزاقهم ، وثار من ذلك فتن متتابعة يطول الكلام بذكرها ، واستمرت إلى أن خلع المستعين وبويع المعتز بن المتوكل سنة إحدى وخمسين ومئتين ، ثم قتل المستعين سنة اثنتين وخمسين ومئتين .

وفي سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر .

ذكر غزوة عظمى من الأندلس على بلاد الأفرنج

في سنة إحدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين ، سيّر محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً مع ابنه المنذر إلى بلاد الفرنج ، فساروا وقصدوا الملاحة ، وكانت أموال لذريق ملك الفرنج بناحية ألبة والقلاع ، فلما عَمَّ المسلمون بلدهم بالخراب والنهب جمع لُذَرِيق عساكره وسار يريدهم فالتقوا بموضع يقال له فج المركوين فاقتتلوا فانهزم الفرنج إلا أنهم لم يبعدوا ، واجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم ، واشتد القتال فولى الفرنج منهزمين لا يلوون على شيء ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وكان عدد ما أخذ من رؤوس الفرنج ألفين وأربعمئة واثنين وتسعين رأساً ، وكان فتحاً عظيماً ، وعاد المسلمون بالغنائم الكثيرة ، وسير جيشاً أيضاً في السنة التي بعدها فقصدوا ألبة والقلاع ومدينة مانة وقتلوا من أهلها عدداً كثيراً ثم قفلوا سالمين .

وفي سنة ثلاث وخمسين أيضاً سيّر جيشاً ، فافتتحوا حصون جرفيق وغلبوا على أكثرها .

وفي سنة خمس وخمسين ومئتين خُلِعَ المعتز ثم قُتِل ، وبويع المهتدي ابن الواثق وخُلِعَ ثم قتل سنة ست وخمسين ، وبويع المعتمد على الله بن المتوكل ، وفي سنة تسع وخمسين ومئتين خرجت عساكر الروم فنازلوا سميساط ثم نازلوا ملطية وقاتلهم أهلها فانهزم الروم وقتل بطريق من بطارقتهم ، وفي هذه السنة سارت سَرِيّة للمسلمين بإفريقية إلى سرقوسة فصالحهم أهلها على أن يطلقوا الأسرى من المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا ثلاثمئة وستين أسيراً ، فلما أطلقوهم عادوا منهم .

ذكر القتال مع صاحب الزِّنج

ابتدأ ظهور صاحب الزِّنْج وكان في سنة خمس وخمسين ومئتين ، وذِكْرُ القتال معه مُلْحق بالقتال مع الكفار لأنه وإن كان يدّعي الإسلام لكن ما فعله بأهل الإسلام أشنع مما تفعله الكفار كما ستراه ، والكلام على قصته طويل مبسوط في التواريخ ،

وتلخيصها أن رجلاً من بني عبد القيس اسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم كان في سُرَّ مَنْ رَأَى وأصله من الرّي وكان متحصلاً بحاشية المستنصر بن المتوكل يمدحهم بشعره ويستمنحهم من عطائهم ، ثم أنه شخص من سُرَّ مَنْ رَأى سنة تسع وأربعين ومئتين إلى البحرين ، وادّعى نسبته في العلويين ، فقال مرة إنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وقال مرة إنه من ولد الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب ، ودعا الناس بِهَجَرَ إلى طاعته فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم وخالفه آخرون ، فجرى بين الطائفتين عصبية وقتال قُتِل فيه جماعة ، وكان أكثر البحرين قد أحلوه محلّ نبي ، وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه ، فقام منهم جماعة وتنكروا له فانتقل إلى الأحساء وصحبه جماعة من أهل الحرين ، ثم تنقل في البادية وقال أوتيت في تلك الأيام بالبادية آيات من آيات أمانتي ظاهرة للناس منها أني لقنت سوراً من القرآن ، فجرى بها لساني في ساعة وحفظتها في دفعة واحدة منها سبحان والكهف وص ، ومنها أني تفكرت في الموضع الذي أقصده حيث نبت بي البلاد فأظلتني غمامة وخوطبت منها فقيل لي اقصد البصرة ، إلى غير ذلك من مقالاته المخترعة .

وفي (تاريخ الخلفاء) للجلال السيوطي أنه ادّعى أنه أرسل إلى الخلق يرد الرسالة وكان له منبر يصعد إليه ويسب عثمان وعلياً ومعاوية والزبير وطلحة وعائشة .

وفي تاريخ ابن الأثير وابن خلدون أنه كان يرى رَأْيَ الخوارج ، وهذا يبطل انتسابه إلى العلويين .

وكان أول ظهوره للناس سنة خمس وخمسين ومئتين ، وكان في مبدأ أمره يدعو الغلمان من الزنوج الذين يسكنون السباخ في جهة البصرة فاجتمع له منهم خلق كثير ، وكان يعدهم بالعتق ويرغبهم في الإحسان فإذا جاء أحد من موالي الزنوج يطلبون عبيدهم يأمر كل عبد أن يضرب مولاه ثم يحبسهم ثم يطلقهم ، فامتنع موالي الزنوج من طلب عبيدهم وكان يخطب العبيد وغيرهم ممن تبعه في كل وقت ويرغبهم ، ولم يزل هذا دأبه والزنوج يأتون إليه بكثرة ويتابعونه ويدخلون في أمره ، واتخذ له راية وكتب عليها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] الآية ، فكثرت جيوشه ، واستحكم أمره ، وشن الغارات ،

وبث أصحابه يميناً وشمالاً للإغارة والنهب ، وسار الجيش إلى الأبلّة فخرجوا له بأربعة آلاف فهزمهم وملك الأبلة ثم سار إلى القادسية فملكها ونهبها ، فكثر عنده المال والسلاح .

فخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله فهزمهم وقتل منهم ، وأخذ سلاحهم ، ثم خرج طائفة أخرى فكذلك ، وأخرى فكذلك ، ثم خرج له قائد من البصرة بجيش فهزمهما وقتل منهما ، وكان معهما سفن ألقتها الريح إلى الشط ، فغنم ما فيها ، وكثر شغبه وفساده ، وجاء أبو هلال من قواد الأتراك في أربعة آلاف مقاتل فلقيه فهزمه وقتل كثيراً من أصحابه ، ثم خرج إليه أبو منصور أحد موالي الهاشميين في عسكر عظيم فهزمهم ، وكان من أعيان أصحابه يحيى بن محمد الأزرق البحراني وسليمان بن جامع وهو قائد جيشه ، وذَكَرَ ريحان أحد غلمانْ السورجيين وهو أول من صحبه منهم ، أنه كان موكلاً بغلمان مولاي أنقل لهم الدقيق ، فأخذني أصحابه فساروا بي إليه ، وأمروني أَنْ أسلم عليه بالأمرة ففعلت فسألني عن الموضع الذي جئت منه فأخبرته ، وسألني عن أخبار البصرة فقلت : لا علم لي ، وسألني عن غلمان السورجيين وعن أحوالهم وما يجري لهم ، فأعلمته فدعاني إلى ما هو عليه فأجبته فأمرني أن أحتال على من قدرت عليه من الغلمان الزنج وأقبل بهم عليه ووعدني أن يجعلني قائداً على من أتيته بهم ، فعدت إليه من الغداة وقد أتيته بجماعة من الزنج وجاء جماعة مع الغلمان الدباشين ، وما زال يدعو غلمان أهل البصرة وغيرهم فيقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب ، فاجتمع عنده خلق كثير منهم ، فخطبهم ووعدهم أن يجعلهم قواداً ويملكهم الأموال ، وحلف لهم بالأيمان ألاّ يغدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئاً من الإحسان إليهم ولمن أتى به ، وجاء إليه بعض موالي العبيد وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم لكل منهم عبده ، فبطح أولئك الموالي ، وأمر كل من عنده من العبيد ، فضربوا مواليهم كل سيد خمسمئة سوط ، وكان إذا خطب العبيد يذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال ، وأن الله تعالى أبعدهم من ذلك ، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال ، وجاءه مرة رجل من رؤساء الزنج يكنى بأبي صالح بثلاثمئة من الزنج ، فلما كثروا جُعل القواد فيهم منهم وقال لهم : كل من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه .

وما زالت جيوشه تكثر من الزنج وغيرهم حتى بلغت ألوفاً مؤلفة وأعداداً

لا تحصى ، فشن الغارات على القرى والأمصار وأكثر القتل والنهب ، وجهز له الخليفة الجيوش الكثيرة المرة بعد الأخرى ، وهو يهزم الجيوش ويقتل كثيراً منها ويسبي من القرى والأمصار النساء والذرية ، وما زال أمره هكذا أربع عشرة سنة حتى ظفروا به وقتلوه واضمحلَّ أمره .

قال الجلال السيوطي في (تاريخ الخلفاء) : استمر القتال مع صاحب الزنج من حين تولى المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد سنة ست وخمسين ومئتين إلى سنة سبعين ومئتين فقتل فيها رئيس الزنج لعنه الله ، قال : وذكر الصّولي أن الذين قتلهم من المسلمين ألف ألف وخمسمئة ألف إنسان ، وقتل باليوم الواحد بالبصرة ثلاثمئة ألف ، ولما قوي أمر صاحب الزنج صار المباشر لقتاله وقيادة الجيوش الموفق طلحة بن المتوكل وهو أخو الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل وباشر معه أيضاً لقيادة بعض تلك الجيوش ابنُه أبو العباس أحمد الذي صار بعد المعتمد على الله خليفة ، ولقب بالمعتضد .

قال المسعودي في تاريخه المسمى (مروج الذهب) : شخص الموفق لمحاربة صاحب الزنج في صفر سنة سبع وسبعين ومئتين ، وقدم الموفق ابنه أبا العباس في ربيع الآخر إلى سوق الجيش وقيادته ، وكان رجل يقال له الشعراني من أصحاب صاحب الزنج قد تحصّن في جمع كثير من الزنج ، ففتح أبو العباس ابن الموفق هذا الموضع وغنم جميع ما كان فيه ، ثم فتح مواضع كثيرة وقتل من كان فيها من الزنج ، وسار الموفق إلى الأهواز فأصلح ما أفسده الزنج ، ثم عاد إلى البصرة فلم يزل منازلاً لصاحب الزنج حتى قتل ، فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر يقتل الصغير والكبير والذكر والأنثى ويحرق ويخرب ، وقد كان أتى البصرة في وقعة واحدة من وقائعه فقتل ثلاثمئة ألف من الناس ، وكان المهلبي من أصحاب صاحب الزنج بعد هذه الوقعة بالبصرة ، فنصب منبراً وكان يصلي يوم الجمعة بالناس ويخطب على ذلك المنبر ويدعو لصاحب الزنج ويلعن جبابرة بني العباس وكثيراً من الصحابة ، فاجتمع من بقي من أهل البصرة وأرادوا الخروج على المهلبي ليقتلوه فعلم بهم فوضع السيف فيهم فمن ناج سالم ومن مقتول ومن غريق ، واختفى كثير من الناس في الدور والآبار ، فكانوا يظهرون في الليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها فيأكلونها والفئران والسنانير فأفنوها حتى

لم يقدروا منها على كل شيء ، فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه وعدموا من ذلك الماء العذب .

وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة تنازع وعندها أختها وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلون لحمها قالت المرأة فما ماتت حتى ابتدرنا فقطعناها وأكلناها ولقد حضرت أختها ، ثم جاءت وهي تبكي ومعها رأس أختها فقيل لها ويحك مالك تبكين ؟ قالت : اجتمعوا على أختي فما تركوها حتى تموت موتاً حسناً حتى قطعوها فظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئاً إلا رأسها ، وهي تشتكي ظلمهم لها في أختها ، ومثل هذا كثير وأعظم مما وصفنا .

ثم قال المسعودي : وبلغ من أمر عسكر صاحب الزنج أنه كان ينادي فيه عن المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس ، فتباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادي عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان الفلاني ولكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ، ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال : هو مولاك وأولى بك من غيره ، ثم قال المسعودي وقد تكلم الناس في مقدار ما قتل في هذه السنين من الناس فمُكْثِرٌ ومُقلّلٌ ، فأما المكثر فإنه يقول أفنى من الناس ما لا يدركه العدّ ولا يقع عليه الإحصاء ولا يعلم ذلك إلا الله تعالى عالم الغيب فيما فتح من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأراد أهلها ، والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمئة ألف ألف انتهى .

وقال الجلال السيوطي في (تاريخ الخلفاء) : ولما قتل هذا الخبيث لعنه الله تعالى أُتي برأسه على رمح ودخلوا به بغداد وعملت الزينة وضج الناس بالدعاء للموفق طلحة ومدحه الشعراء ، وكان يوماً مشهوداً وتراجع الناس إلى المدائن التي كان أخذه وهي كثيرة كواسط والبصرة وغيرهما ، انتهى .

وبالجملة فإن هذه القضية كانت مصيبة عظمى على أهل الإسلام . هذا تلخيص قصة صاحب الزنج باختصار وإن أردت تفصيل الوقائع والحروب التي كانت لهذه القصة

في تلك السنين فانظرها في التواريخ تجدها مبسوطة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ملك الروم ولؤلؤة

في سنة ثلاث وستين ومئتين سلمت الصقالبة لؤلؤة إلى الروم وهي قلعة للصقالبة ، وكان سبب ذلك أن أحمد بن طولون قد أدمن الغزو بطرسوس قبل أن يلي مصر ، فلما وَلي مصر سنة خمس وخمسين كان يؤثر أن يلي طرسوس ليغزو منها أميراً فلم يجب إلى ذلك ، وكان العمال الذين يأتون طرسوس يسيئون السير ، وآل الأمراء إلى استيلاء الروم على القلعة المذكورة فشق ذلك على أهل طرسوس لأنها كانت شَجًى في حلق العدو ، ولم يكن يخرج الروم في بر أو بحر إلا رأوه وأنذروا به ، واتصل الخبر بالمعتمد على الله فقلد طرسوس أحمد بن طولون واستعمل عليها من يقوم بغزو العدو ويحفظ ذلك الثغر ويقيم الجهاد ، وفي هذه السنة سيّر محمد صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش كبير وجعل طريقه على ماردة ، فلما جاوزها إلى أرض العدو تبعه تسعمئة فارس من العسكر فخرج عليهم جمع كثير من الفرنج فاقتتلوا قتالاً كثيراً صبروا فيه وقتل من الفرنج عدد كثير ، ثم استظهر المشركون على التسعمئة فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم وأكرمهم الله بالشهادة .

وفي سنة أربع ومئتين غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاووس في أربعين ألفاً من أهل الثغور الشامية فأثخن في الروم وغنم ورجع .

فلما رحل عن البَذَندون خرج عليه جمع من الروم فأحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون ونزلوا وعرقبوا دوابهم وقاتلوا حتى قُتلوا إلا خمسمئة فإنهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم ، وقتل الروم من قتلوا وأسروا عبد الله بن رشيد بعد ضربات أصابته وحمل إلى ملك الروم فبعث به إلى أحمد بن طولون صاحب مصر ومعه كثير من الأسرى وأهدى لابن طولون عدة مصاحف .

ذكر ملك المسلمين مدينة سرقوسة

في سنة أربع وستين ومئتين ملك المسلمون سرقوسة وهي من أعظم مدائن صقلية ، وكان سبب ملكها أن جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فأفسد زرعها وزرع

ما حولها من بلاد صقلية التي بأرض الروم ، ونازل سرقوسة وحصرها براً وبحراً وملك بعض أرباضها ، فوصلت مراكب الروم نجدة لها ، فسيّر إليها أسطولاً فأصابوها ، فتمكنوا حينئذ من حصرها ، فأقام العسكر محاصراً لها تسعة أشهر ، وفتحت عنوة ، وقتل من أهلها عدة ألوف ، وأصيب فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة أخرى ، ولم ينج من رجالها إلاّ الفذ النادر ، وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين ثم هدموها ، ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا هم والمسلمون فظفر بهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع فقتلوا من فيها ، وانصرف المسلمون إلىٰ بلادهم .

وفي هذه السنة سيّر محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش إلى مدينة بنبلونة وجعل طريقه على سرقسطة فقاتل أهلها ، ثم انتقل إلى تطيلة وجال في مواضع ، ثم دخل بنبلونة فخرب كثيراً من حصونها وأذهب زروعه وعاد سالماً .

وفي سنة خمس وستين خرج خمسة من بطارقة الروم إلى أَذَنَة ، فقتلوا وأسروا وقتل نحواً من ألف وأربعمئة ، وأسروا نحواً من أربعمئة ، وكان أرجوز والي الثغر ، فعزل عنها في سنة ست وستين ومئتين ، ووردت سرية من الروم إلى ديار ربيعة فأسرت نحواً من مئتين وخمسين إنساناً ومثّلت بالمسلمين ، فنفر إليهم أهل الموصل ونصيبين ، فرجعت الروم .

وفي هذه السنة لقي أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقلية ، فظفر الروم بعد قتال شديد ولحق من سلم منهم إلى مدينة بَلَرْم من صقلية .

وفي هذه السنة أيضاً غزا عامل ابن طولون الثغور الشامية في ثلاثمئة من أهل طرسوس ، واعترضهم أربعة آلاف من الروم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل المسلمون خلقاً كثيراً من العدو وأصيب من المسلمين جماعة .

وفي سنة سبع وستين ولي جزيرة صقلية الحسن بن العباس ، فبعث السرايا إلى كل ناحية وخرج إلى قطانية فأفسد زَرْعَها,وزَرْعَ طبرمين وقطع أشجارها ، وسار إلى بقارة فأفسد زرعها ، وانصرف إلى بَلَرْم ، وأخرجت الروم سرايا فأصابوا من المسلمين كثيراً .

وفي سنة ثمان وستين سارت سرية من صقلية فلقيهم جيش الروم ، فأصيب

المسلمون كلهم غير سبعة نفر وعزل الحسن بن العباس عن صقلية ووليها محمد بن الفضل ، فبث السرايا في كل ناحية من صقلية ، وخرج هو في جيش عظيم ، فسار إلى مدينة قطانية فأهلك زرعها ، ثم رحل إلى أصحاب الشلندية فقاتلهم فأصاب فيهم فأكثر القتل ، ثم رحل إلى طبرمين فأفسد زرعها ، ثم رحل فلقي عسكر الروم فاقتتلوا ، وانهزم الروم وقتل أكثرهم ، فكانت عدة القتلى ثلاثة آلاف قتيل ، ووصلت رؤوسهم إلى بَلَرْم ، ثم سار المسلمون إلى قلعة كان الروم بنوها عن قريب ، وسموها مدينة الملك فملكها المسلمون عنوة ، وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها ، وفي هذه السنة خرج ملك الروم المعروف بابن الصَّقْلبِيَّة فنازل ملطية فأعانهم أهل مَرْعَش والحدث ، فانهزم ملك الروم .

وغزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية الفرغاني عامل ابن طولون ، فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً وغنم الناس ، فبلغ السهم أربعين ديناراً .

وفي سنة تسع وستين خرج محمد بن الفضل أمير صقلية في عسكر ناحية رمطة وبلغ العسكر إلى قطانية ، فقتل كثير من الروم وسبى وغنم ، ثم انصرف إلى بلرم .

وفي سنة سبعين زحف الروم في مئة ألف ، ونزلوا قلمية على ستة أميال من طرسوس ، فخرج إليهم بازمار عامل طرسوس لابن طولون ليلاً فبيتهم وقتل منهم سبعين ألفاً وجماعة من البطارقة ، وقتل مقدمهم بطريق البطارقة ، وغنم منهم سبعة صلبان ذهب وفضة ، وكان معظمها من ذهب مُكَلّلاً بالجواهر ، وغنم خمسة عشر ألف دابة ، ومن السروج والسيوف مثل ذلك ، وأربعة كراسي من ذهب ، ومئتين من فضة وعشرين علماً من الديباج وآنية كثيرة ، ونحواً من عشرة آلاف علم ديباج وديباجاً كثيراً وغير ذلك .

وفي هذه السنة أراد إسماعيل بن موسى أحد أمراء الأندلس بناء مدينة مارِدَة ، فلما سمع الفرنجي صاحب برشلونة جمع وحشد يريد منعه من ذلك ، فسمع به إسماعيل فقصده وقاتله وهزمه وقتل أكثرهم وبقي أكثر القتلى في تلك الأرض دهراً طويلاً .

وفي سنة إحدى وسبعين سارت سرية للمسلمين بصقلية إلى رمطة ، فخرجت وغنمت وسبت وأسرت كثيراً وعادت ، وسار جيش كثير من صقلية إلى قطانية فأهلك ما فيها ، وسار إلى طبرمين فقاتل أهلها وأفسد زرعها وتقدم فيها ، فأتى رسول بطريق

الروم يطلب الهدنة ، والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمئة أسير من المسلمين ورجع الجيش .

وفي سنة اثنتين وسبعين غزا الصائفة بازمار وخرجت سرية من صقلية إلى الروم الذين بها فغنمت وعادت ، وفيها قدم بطريق من القسطنطينية في عسكر كبير ، فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين فسلموها على أمان ولحقوا بصقلية ، ثم سار عسكر البطريق إلى مدينة منتية فحصروها حتى سلمها أهلها بأمان .

وفي سنة ثلاث وسبعين غزا بالصائفة بازمار وتوغّل في أرض الروم وقتل وغنم وأسر وسبى وعاد إلى طرسوس ، وفيها توفي محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ومدة ملكه أربع وثلاثين سنة ، وَوَلي بعده ابنه المنذر ، وتوفي بعد سنة وأحد عشر شهراً وبويع أخوه عبد الله .

ذكر غزو الروم ووفاة بازمار

في سنة ثمان وسبعين خرج بازمار غازياً في جيش فبلغوا شكند ونازلوها ، فأصاب بازمار شظية من حجر منجنيق فرجع ومات بالطريق ودفن بطرسوس .

وفي سنة تسع وسبعين توفي المعتمد على الله وبويع المعتضد بن الموفق بن المتوكل ، وفي سنة ثمانية غزا إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان بلاد الترك وافتتح مدينة ملكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحواً من عشرة آلاف وقتل منهم خلقاً كثيراً وغنم من الدواب مالا يحصى ، وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم .

وفي سنة إحدى وثمانين غزا المسلمون الروم فدامت الحرب بينهم اثني عشر يوماً فظفر المسلمون وغنموا غنيمة كثيرة وعادوا .

ذكر حصر الصقالبة القسطنطينية

في سنة ثلاث وثمانين سارت الصقالبة إلى الروم فحصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وخربوا البلاد ، فلم يجد ملك الروم منهم خلاصاً ، فجمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة ، ففعلوا لكون الصقالبة كفاراً فكشفوا الصقالبة وأزاحوهم عن القسطنطينية ، ولما رأى ملك الروم

ذلك خاف من المسلمين على نفسه فردهم وأخذ منهم السلاح وفرقهم في البلاد حذراً من جنايتهم عليه ، وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم ، فكان جملة من فُدِي من المسلمين الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمئة وأربعة أنفس .

وفي سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق في البحر ، فغنم مراكب كثيرة ، فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها ، وأحرق المراكب وفتح حصوناً كثيرة وعاد سالماً ، وفيها غزا ابن الإخشيد صاحب مصر بأهل طرسوس ففتح الله على يديه ، وبلغ إسكندرونة .

وفي سنة سبع وثمانين غزا أبو العباس أحمد بن الأغلب مدينة بَلَرْم براً وبحراً فخرج إليه أهلها فقاتلوه ثم انهزموا ، ووقع القتل فيهم وملك البلد ، ثم رحل إلى طبرمين فقطع كرومها وقاتلوهم ، ثم رحل إلى قطانية فحصرها ، فلم ينل منها غرضاً فرجع إلى صقلية إلى أن دخلت سنة ثمان وثمانين فتجهز للغزو وطاب الزمان وعمر الأسطول وسيره إلى قطانية ونصب عليها المجانيق وأقام أياماً ثم انصرف إلى مَسّيني وجاز إلى ريُّو وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلهم على باب المدينة وهزمهم ، وملك المدينة بالسيف وغنم من الذهب والفضة ما لا يحد وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة ورجع إلى مَسِّيني وهدم سورها ووجد بها مراكب وصلت من القسطنطينية ، فأخذ منها ثلاثين مركباً ورجع إلى المدينة .

وفي سنة ثمان وثمانين ومئتين سير المعتضد جيشاً إلى صائفة الروم ففتحوا حصوناً كثيراً ورجعوا بأسرى كثيرة ، ثم إن الروم ساروا في البر والبحر إلى ناحية كيسوم فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفاً وعادوا .

وفي سنة تسع وثمانين توفي المعتضد وبويع ابنه المكتفي .

وفي سنة إحدى وتسعين ومئتين خرجت الترك في خلق كثير إلى ما وراء النهر ، فوجّه إليهم صاحب خراسان إسماعيل الساماني جيشاً كثيراً وتبعهم من المتطوعة خلق كثير ، فساروا نحو الترك فوصلوا إليهم وهم غارون فكبسهم المسلمون مع الصبح وقتلوا منهم خلقاً عظيماً لا يحصون وانهزم الباقون واستبيح عسكرهم وعاد المسلمون سالمين غانمين .

وفي هذه السنة خرج من الروم مئة ألف حاملين عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف إلى الثغور ، فقصد جماعة منهم الحدث (بلدة الروم) فأغاروا وسبوا وأحرقوا .

وفي هذه السنة غزا من طرسوس القائد المعروف بغلام زرافة ففتح مدينة أنطاكية بالسيف وقتل خمسة آلاف من الروم ، وأسر مثلهم واستنقذ من الأسارى خمسة آلاف وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع فقسمها مع غنائم أنطاكية ، فكان السهم ألف دينار .

وفي سنة اثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها فنفر أهل المصيصة وأهل طرسوس وأجلوهم وأصيب جماعة من المسلمين .

وفي هذه السنة كان الفداء ، فكان جملة من فُودِي من أسرى المسلمين ألف نفس ومئتي نفس .

وفي سنة ثلاث وتسعين أغارت الروم على قُورُس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ، ثم انهزموا وقتل الروم أكثرهم ، ودخل الروم قُورُس فأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها .

وفي سنة أربع وتسعين غزا ابن كَيْغَلَغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف رأس سبي ودواب ومتاع ، ودخل بِطْريق من بطارقة الروم في الأمان وأسلم .

وفيها أيضاً غزا ابن كَيْغَلَغ فبلغ شكند وفتح الله عليه ، وسار إلى ألليس فغنموا منها نحواً من خمسين ألف رأس وقتلوا مقتلة عظيمة من الروم وانصرفوا سالمين ، وكان بِطريق على حرب أهل الثغور من قِبل ملك الروم ، فأرسل ذلك البِطريق إلى المكتفي يطلب الأمان فأعطاه فخرج من حصنه ومعه مئتا أسير من المسلمين كانوا معه في الحصن ، وكان ملك الروم أرسل ليقبض عليه فأعطى المسلمين سلاحاً ، فخرجوا معه وقبضوا على الذين أرسلهم ملك الروم ليقبضوا عليه ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما في عسكرهم ، فاجتمعت الروم لمحاربة البطريق ، فسار إليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين ، فبلغوا قونية ، فبلغ الخبر إلى الروم فانصرفوا عنه فانصرف البِطريق ومن معه إلى بغداد ، وأخرب المسلمون قونية ، وأرسل ملك الروم إلى الخليفة المكتفي فطلب الفداء .

وفي سنة ثلاث وتسعين افتتح إسماعيل الساماني صاحب خراسان مدائن كثيرة من بلاد الأتراك والديلم .

وفي سنة خمس وتسعين توفي المكتفي ، وبويع أخوه المقتدر بن المعتضد .

وفي هذه السنة فُودِي من المسلمين ثلاثة آلاف نفس رجالاً ونساء .

وفي سنة ست وتسعين كان ابتداء دولة العبيديين بإفريقية ، وتفصيل ذلك طويل مذكور في التواريخ ، وفي هذه السنة بعث المقتدر جيشاً لغزو الروم وعليه مؤنس الخادم فظفر وغنم وأسر منهم جماعة وعاد .

وفي سنة سبع وتسعين وجه المقتدر القائد ابن سيما لغزو الصائفة ، وكذا في سنة ثمان وتسعين .

وفي سنة تسع وتسعين غزا الصائفة رستم أمير الثغور من ناحية طرسوس فحصر حصن مليح الأرمني ، ثم دخل بلده وأحرقها .

وفي سنة ثلاثمئة توفي عبد الله بن محمد صاحب الأندلس وبويع حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله ، واستمر عبد الرحمن الناصر خمسين سنة ، وهو أوّل من تَسَمَّى منهم بأمير المؤمنين لما رأوا ظهور الضعف من خلفاء بني العباس ، وكانوا قبل ذلك يقال لمن وَلي منهم الأمير فلان ، وغزا عبد الرحمن الناصر في بلاد الفرنج غزوات كثيرة وأثخن فيهم حتى خضعوا له وصاروا يهادونه ويلتمسون رضاه ، وتفصيل غزواته يطول الكلام بذكرها ، وسيأتي ذكر شيء منها .

وفي سنة اثنتين وثلاثمئة سار الوزير للمقتدر علي بن عيسى لغزو الصائفة فلم يتيسر له فغزاها ثانية في برد شديد وثلج ، وغزا أيضاً بشر الخادم والي طرسوس بلاد الروم ، ففتح فيها وغنم وسبى وأسر مئة وخمسين بِطريقاً ، وكان السبي نحواً من ألفي رأس .

وفي سنة ثلاث وثلاثمئة أغارت الروم على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه ، وجرى على الناس أمر عظيم وظهرت للروم أيضاً فأوقعوا بجماعة من مقاتلة طرسوس والغزاة فقتلوا منهم نحو ستمئة فارس ، ولم تكن للمسلمين صائفة في هذه السنة لكثرة الفتن في بغداد في مدة المقتدر ، وفيها خرج مليح الأرمني إلى مرعش وعاث في بلدها وأسر جماعة ممن حولها وعاد .

وفي سنة أربع وثلاثمئة سار مؤنس الخادم إلى بلاد الروم لغزو الصائفة بجيوش كثيرة وفتح حصوناً كثيرة من الروم وعاد فأكرمه المقتدر وخلع عليه .

وفي سنة خمس وثلاثمئة جاءت رسل من ملك الروم للخليفة المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأجيبوا إلى ذلك ، وأنفذ المقتدر مع مؤنس للفداء مئة ألف وعشرين ألف دينار ، وكان قبل ذلك عقد لِثُمَل الخادم على الغزاة في بحر الروم ، وسار .

وكان قبل ذلك أيضاً غزا جِنّيُّ الصفوانيُّ بلاد الروم فغنم ونهب وسبى وعاد سالماً ، فقرئت الكتب على المنابر ببغداد بذلك ، ثم جاءت رسل ملك الروم بطلب الهدنة .

وفي سنة ثلاثمئة وثمان غزا عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس جليقية فاستنجد عليه ملوك الأفرنج بعضهم بعضاً فهزمهم ووطىء بلادهم ودوّخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب الحصون .

وفي سنة اثنتي عشرة وثلاثمئة غزا بنبلونة وفعل أكثر من ذلك ، وله غزوات غيرها يطول الكلام بذكرها ، والجلالقةُ هم الإسبنيول .

وفي سنة عشر انقضت الهدنة التي كانت بين المقتدر وملك الروم فغزا المسلمون في البر فغنموا وسلموا ، ودخل أهل طرسوس مَلَطْيَة فظفروا وبلغوا من بلاد الروم وأظفر بهم ما لم يظنوه وعادوا .

وفي سنة إحدى عشرة غزا مؤنس بلاد الروم فغنم وفتح حصوناً وغزا ثُمَل أيضاً في البحر فغنم من السبي ألف رأس ومن الدواب ثمانية آلاف رأس ومن الغنم مئتي ألف رأس ومن الذهب والفضة شيئاً كثيراً .

وفي سنة اثنتي عشرة جاء رسول ملك الروم بهدايا يطلب الهدنة وتقرير الفداء فأجيب إلى ذلك ، ثم غدروا بالصائفة ، فدخل المسلمون بلاد الروم فأثخنوا ونهبوا وسبوا وعادوا .

وفي سنة ثلاث عشرة كتب ملك الروم إلى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج فإن فعلوا وإلا قَصَدهم ، فقتل الرجال وسبى الذرية ، وقال : إنني قد صح عندي ضعف وُلاتِكم فلم يفعلوا ذلك ، فسار إليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية بها وسبى منها سنة

ـبع عشرة ، وفتح الروم أبواباً من الربض فدخلوا فقاتلهم أهلها وأخرجوهم وخربوا
ـى كثيرة من قراها ونبشوا الموتى ومثّلوا بهم ، وقصد أهل ملطية بغداد مستغيثين فلم
ناثوا فعادوا بغير فائدة ، وغزا أهل طرسوس صائفة فغنموا وعادوا .

ذكر حرب بين المسلمين والروم

في سنة خمس عشرة وثلاثمئة خرجت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو فاقتتلوا فاستظهر الروم وأسروا من المسلمين أربعمئة رجل ، فقتلوا صبراً ، وسار الدمستق في جيش عظيم إلى مدينة دبيل فحاصرها وضيق عليها ، والدمستق عندهم ملك عظيم يلي بلاد الروم التي هي شرقي دجلة القسطنطينية ، ويكون تحت أمر الملك الذي في القسطنطينية ، وكان مع الدمستق دبابات ومجانيق ومزاريق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد ، وكان الرامي بها من أشجعهم ، فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله وأراح الله المسلمين منه ، وكان الدمستق يجلس على كرسي عال ليشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر له أهل البلد وهو ملازم للقتال حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيه نقوباً كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها ومن فيها من العسكر قتالاً شديداً ، فانتصر المسلمون وأخرجوا الروم منها وقتلوا منها نحو عشرة آلاف رجل .

وفي هذه السنة أيضاً غزا ثُمَل الصائفة من طرسوس ولقي جمعاً كثيراً من الروم فاقتتلوا فانتصر المسلمون عليهم ، وقتلوا من الروم كثيراً وعاثوا في أنعامهم وغنموا ثلاثمئة رأس من الغنم ، ولقيهم رجل من رؤساء الأكراد يعرف بابن الضحاك ، وكان له حصن يعرف بالجعفري وكان قد ارتد عن الإسلام وتنصّر ، وسار إلى ملك الروم وخدمه فأجزل له العطيّة وأمره بالعود إلى حصنه ، فلقيه المسلمون فقاتلوه فأسروه وقتلوا كلَّ مَنْ معه .

وفي سنة ست عشرة وثلاثمئة خرج الدمستق في عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحاً وجعل الصليب في جامعها ، ورحل إلى بدليس ففعل بها كذلك ، وخاف أهل أرزن وغيرهم ففارقوا بلادهم وانحدر أعيانهم إلى بغداد واستغاثوا إلى الخليفة فلم يغاثوا .

وفي هذه السنة وصل سبعمئة رجل من الروم والأرمن إلى ملطية ومعهم الفؤوس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل ، ثم ظهر أن مليحاً الأرمني وضعهم ليكونوا

بها فإذا حصرها سلموها إليه ، فعلم أهل ملطية فقتلوهم وأخذوا ما معهم .

وفي سنة سبع عشرة خُلِع المقتدر وبويع أخوه القاهر ، ثم بعد يومين أعيد المقتدر وخُلِع القاهر ، وكانت هذه الفتنة هائلة وبسببها ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم منها ملطية وميافارقين وآمد وأرزن وغيرها ، وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم ، وأرسلوا إلى بغداد يستأذنون في التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم ، فلم يحصلوا على فائدة فعادوا فصالحوا الروم وملّكوهم البلاد .

وفي سنة سبع عشرة أيضاً كان دخول القرامطة مكة يوم التروية ، وهو الثامن من ذي الحجة ، فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وقلعوا الحجر الأسود وأنفذوه إلى هَجَر ، وقلعوا باب البيت ، وأصعدوا رجلاً ليقلع الميزاب وكان من ذهب فأصيب بسهم من جبل أبي قبيس فما أخطأ نحره وخَرَّ ميّتاً ، فأصعدوا آخر مكانه فسقط من فوق إلى أسفل على رأسه ومات ، فهاب الثالث الإقدام على القلع فتركوا قلع الميزاب ، وكان جملة من قتلوه من الطائفين والمصلين والمحرمين في مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألفاً ، وسَبَوْا من النساء والذرية مثل ذلك ، وتلك مصيبة ما أصيب الإسلام بمثلها ، وكان رئيسهم عدو الله المكَنّى بأبي طاهر ، ركض عند الكعبة فرسه ، وسيفه مشهور بيده ، وصفّر لفرسه عند البيت الشريف فبال وراث ، قيل إن الذين قتلهم في المطاف ألف وسبعمئة وملأ بئر زمزم من رؤوسهم ، والكلام على هذه القصة وغيرها من وقائعهم طويل مذكور في التواريخ ، وقاتلهم خلفاء بني العباس ، ولهم معهم وقائع كثيرة ، وكان ابتداء ظهورهم سنة ثمان وسبعين ومئتين ، ولهم عقائد قبيحة يكفرون بها وإن كانوا يدّعون الإسلام ويزعمون أنهم يدعون الناس للبيعة للمهدي المنتظر ، وزعموا أنه محمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكل ذلك زور وباطل .

قال ابن الأثير : ولم يكن لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبد الله ، ومكث الحجر الأسود عندهم في هَجَر اثنتين وعشرين سنة ، وكانوا يريدون تحويل الحج إلى هَجَر ، فلما آيسوا من ذلك أرجعوه إلى موضعه من البيت وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة ، وابتلي أبو طاهر رئيسهم بداء الأكلة فصار يتناثر لحمه بالدور ، وتقطعت

أوصاله ، وطال عذابه ، ومات شر ميتة ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وإنما ذكرنا هذه القصة ، لأن قتال هؤلاء وما فعلوه ملحق بقتال الكفار وأفعالهم ، ولا عبرة بكونهم يدّعون الإسلام ، فإنهم كانوا يستبيحون دماء المسلمين ويرون ضلال المسلمين كافة ، ومن عقائدهم الزائغة المكفرة أن الصلاة ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها فقط ، وأن النبيذ حرام والخمر حرام ولا غسل من الجنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة وأن محمد بن الحنفية رسول الله بعد النبي ﷺ إلى غير ذلك من ضلالاتهم ، واستمرت شوكتهم إلى سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة ، ثم اضمحلَّ أمرهم شيئاً فشيئاً حتى لم يبق لهم دولة .

تنبيه

يوجد على وجه الحجر الأسود قطع كانت تكسرت منه ثم ألصقت به ، واشتهر على ألسنة كثير من الناس أن تَكَسُّر هذه القطع من القرامطة لما أخرجوا من الحجر الأسود ، وليس الأمر كذلك ، بل سبب تكسُّرِها ما ذكره السنجاري في (تاريخ مكة) ونصُّ عبارته : في سنة أربعمئة وأربع عشرة يوم النفر الأول وكان جمعة دخل المسجد رجل أشقر بيده سيف مسلول ودبوس من حديد ، فتقدم بعد أن فرغ الإمام من صلاة الجمعة ، وقصد الحجر الأسود فضربه بالدبوس ثلاث مرات وقال إلى متى يعبد هذا الحجر ومحمد وعلي فليمنعني مانع من هذا فإني أريد ربَّ هذا البيت ، فخافه أكثر الحاضرين وكاد يهرب ، فسار إليه رجل فضربه بخنجر فقتله وقطّعه الناس بالسلاح ثم أحرقوه فحصل في الحجر الأسود شظب ، وخرج منه قطع صغار أعادها سَدَنَةُ الكعبة وأميرُ مكة وألصقوها بالملك ، فصارت آثار ذلك باقية إلى الآن اهـ . ولنرجع إلى ما كنا بصدده .

وفي سنة تسع عشرة وثلاثمئة غزا ثُمَل والي طرسوس بلاد الروم ، فعبر نهراً ونزل عليهم ثلج إلى صدور الخيل ، وأتاهم جمع كثير من الروم ، فواقعوهم فنصر الله المسلمين فقتلوا من الروم ستمئة وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيئاً كثيراً .

وعاد ثُمَل إلى طرسوس ودخل بلاد الروم صائفة في جمع كثير من الفارس

والراجل ، فبلغوا عمورية ، وكان قد تجمّع بها كثير من الروم ففارقوها لما سمعوا خبر ثُمَل ، ودخل المسلمون فوجدوا فيها من الطعام والأمتعة شيئاً كثيراً فأخذوا وأحرقوا ما كانوا عمروه منها وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا أنقرة وهي التي تسمى الآن أنكورية ، وعادوا سالمين ولم يلقوا كيداً ، فبلغت قيمة السبي مئة ألف دينار وستة وثلاثين ألف دينار .

وفي هذه السنة كاتب ابن الديراني وغيره من الأرمن وهم بأطراف أرمينية الروم وحثوهم على قصد بلاد الإسلام ووعدوهم النصر ، فسارت الروم في خلق كثير فخربوا بذكرى وبلاد خلاط وما جاورها ، وقُتِل من المسلمين خلق كثير ، وأسروا كثيراً منهم فبلغ خبرهم مفلحاً غلام يوسف بن أبي السَّاج وهو والي أذربيجان ، فسار في عسكر كبير وتبعه كثير من المتطوعة إلى أرمينية ، وقصد بلد ابن الديراني ومن وافقه فخربه وقتل أهله ونهب أموالهم ، وبالغ الناس في كثرة القتلى من الأرمن حتى قيل إنهم كانوا مئة ألف قتيل والله أعلم ، وتحصن ابن الديراني بقلعة له .

وفي هذه السنة أيضاً سارت الروم إلى سميساط فحصروها فاستصرخ أهلها بسعيد بن حمدان صاحب الموصل وديار ربيعة ، فتجهز وسار مسرعاً إليهم ، وقد كاد الروم يفتحونها ، فلما قاربهم هربوا منه ، فسار إلى ملطية وكان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد إليهم فحكموا على المسلمين ، وكان في ملطية جمعٌ من الروم ومن عسكر مليح الأرمني ومعهم بُنَيٌّ بن نفيس صاحب المقتدر ، وكان قد تنصَّر وهو مع الروم ، فلما أحسوا بإقبال سعيد خرجوا منها وخافوا أن يأتيهم سعيد بن حمدان في عسكره من خارج المدينة ويثور أهلها بهم ، فهلكوا ففارقوها ، ودخلها سعيد ، ثم استخلف عليها أميراً وعاد عنها ودخل بلاد الروم غازياً وقدم بين يديه سريتين فقتلا من الروم خلقاً كثيراً قبل دخوله إليها .

وفي سنة عشرين قتل المقتدر .

(استطراد) قال العلامة القرطبي في تاريخه : كان المقتدر في كل عام يصرف يوم عرفة من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألفاً ، وكان يصرف في كل سنة في طريق مكة والحرمين ثلاثمئة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار ، وكان في داره

إحدى عشر ألف غلام خَصِي غير الصقالبة والروم والسود ، وختن خمسة من أولاده فصرف في ختانهم ستمئة ألف دينار ، وقدم مرة عليه رسل ملك الروم بهدايا لطلب الهدنة ، فعمل المقتدر موكباً عظيماً لإرهاب العدو فأقام مئة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل صفّين من باب الشماسية إلى دار الخلافة ببغداد لتمرّ الرسل بين الصفين في هذه المسافة ، وأقام بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم ثم الحجّاب وهم سبعمئة حاجب ، ونصبت الستور على حيطان دار الخلافة ، فبلغت ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج ، وكانت البسط الفاخرة التي فرشت في الأرض اثنين وعشرين ألف بساط ، وفي الحضرة مئة سَبُع في سلاسل الذهب والفضة ، وكان من جملة الزينة شجرة صيغت وصنعت من الذهب والفضة والجواهر وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة ، وعلى الأغصان طيور من ذهب وفضة ينفخ الريح فيها فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص ، وهذا بعد وهن الدولة العباسية وضعفها فكيف كانت زينتها في أيام قوة دولتهم في كمال وصفها ؟ فسبحان من لا يزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تغيره الشؤون ولا تحوله الأحوال وهو الله الكبير المتعال لا إله إلا هو وحده لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا مثال ، كوّن الأكوان وقدّرها تقديرها ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيراً .

ولنذكر قصة قتل المقتدر فإن فيها اعتباراً لكل من كانت له بصيرة ، وهي تدل على أن هوان الدنيا وخسة قدرها عند الله تعالى وذوي البصائر من عباده .

وحاصلها : أن مؤنساً الخادم كان عبداً خصياً من عبيد المعتضد والد المقتدر ، فلما صارت الخلافة للمقتدر زاده في رفعة القدر وولاّه قيادة كثير من جيوشه وصار من أعظم وزرائه .

وفي سنة عشرين وثلاثمئة حصلت وحشة بينه وبين المقتدر ، فسار مؤنس إلى الموصل مغاضباً للمقتدر فاستولى المقتدر على أقطاع مؤنس وماله وأملاكه وأملاك أصحابه وكتب إلى بني حمدان أمراء الموصل بصد مؤنس عن الموصل وقتاله ، فجرى بين مؤنس وبينهم قتال فانتصر مؤنس واستولى على الموصل ، واجتمعت عليه العساكر من كل جهة ، فسار بهم إلى جهة بغداد ، ثم لما وصل إلى بغداد نزل عند باب

الشماسية بجنوده فخرج المقتدر إلى قتال مؤنس بمن معه من العساكر لأن كثيراً منهم انحدروا إلى واسط ليكونوا مع مؤنس .

ولما خرج المقتدر للقتال كان بين يديه الفقهاء والقراء ومعهم المصاحف منشورة ، وعليه البردة النبوية ، ووقف على تل فألح عليه أصحابه بالتقدم إلى القتال فتقدم ، ثم انهزم أصحابه فلقي المقتدر قومٌ من العسكر مغاربة فقال لهم : ويحكم أنا الخليفة ، فقالوا : قد عرفناك يا سفلة أنت خليفة إبليس ، فضربه واحد منهم بسيفه فسقط إلى الأرض ، فذبحوه وقطعوا رأسه ورفعوه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا ما عليه حتى سراويله وكشفت عورته ، ثم حفروا له في موضعه ودفنوه وعفي قبره وحملوا رأسه إلى مؤنس وهو بالراشدية لم يشهد الحرب ، فلما رأى مؤنس رأس المقتدر لطم وجهه وبكى ، ثم إن القاهر أخا المقتدر لما بويع بعد قتل المقتدر وتمكّن له الأمر قتل مؤنساً .

ولم تطل مدة القاهر بل خُلِع سنة اثنتين وعشرين وسُمِلَتْ عيناه وعاش دهراً طويلاً أعمى محبوساً في دار الخلافة ، ثم أطلقوه وأهملوه فوقف يوماً بجامع منصور بين الصفوف وقال تصدّقوا عليّ فأنا من قد عرفتم ، وذلك في أيام المستكفي ليشنع عليه ، فمنعوه من الخروج إلى أن مات سنة تسع وثلاثين وعمره ثلاث وخمسون سنة ، ولما خُلِع القاهر بويع الراضي بن المقتدر .

وفي هذه السنة سار الدمستق إلى سميساط في خمسين ألفاً ونازل ملطية وحصرها مدة طويلة هلك أكثرها بالجوع ، وضرب خيمتين على إحداهما صليب : وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليرد إليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه ونبلغه مأمنه .

فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهلهم وأموالهم وسيّر مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم ، ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأكثروا القتل وفعلوا الأفاعيل الشنيعة ، وصار أكثر البلاد في أيديهم ، وفتحوا بلد جنوة ومروا بسردانية فأوقعوا بأهلها ثم مروا بقرقيسياء من ساحل الشام فأحرقوا مراكبها وعادوا سالمين .

وفي سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم ، وكان عدة من فُودِي من المسلمين ستة آلاف وثلاثمئة أسير ما بين ذكر وأنثى .

وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمئة توفي الراضي وبويع أخوه المتقي بن المقتدر .

وفي سنة ثلاثين وصل الروم إلى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان ، وفي هذه السنة غزا ثُمَل من ناحية طرسوس إلى بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وعاد سالماً وقد أسر عدة من بطارقتهم .

وفي سنة إحدى وثلاثين أرسل ملك الروم إلى المتقي بالله يطلب منه منديلاً يزعم أن المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وإنه في بيعة الرُّها ، وذكر أنه إن أرسل المنديل أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين ، فأحضر المتقي بالله القضاة والفقهاء واستفتاهم ، فاختلفوا ، فبعضٌ رأى تسليمه إلى الملك وإطلاق سراح الأسرى ، وبعضٌ قال إن هذا المنديل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الإسلام لم يطلبه ملك من ملوك الروم وفي دفعه إليهم غضاضة ، وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير ، فقال إن خلاص المسلمين من الأسر ومن الضر والضنك الذي هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل ، فأمر الخليفة بتسليمه إليهم وإطلاق الأسرى ، ففعل ذلك وأرسل إلى الملك من يستلم الأسرى من بلاد الروم فأطلقوا .

ذكر خروج الروسية على بلاد الإسلام

في سنة اثنتين وثلاثين خرجت طائفة من الروسية في البحر إلى نواحي أذربيجان وركبوا في البحر في نهر الكر وهو نهر كبير ، فانتهوا إلى مدينة بَرْذعة ، فخرج إليهم نائب ملك الديلم بأذربيجان في جموع من الديلم والمتطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل ، فلقوا الروس فلم يكن إلا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم وقتلوا عن آخرهم ، وتبعهم الروس إلى البلد فهرب من كان له مركوب وترك البلد ، فنزله الروس ونادوا فيه بالأمان ، وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية لمقاتلتهم ، فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم ، وكان عامة البلد يخرجون ويرمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم ، فينهاهم الروس عن ذلك فلم ينتهوا سوى العقلاء فإنهم كفوا أنفسهم وسار العامة والرعاع لا يضبطون أنفسهم .

فلما طال ذلك نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه وألاّ يقيموا بعد ثلاثة أيام ، فخرج من كان له ظهر يحمله وبقي أكثرهم بعد الأجل ، فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا بعد القتل بضع عشرة ألف نفس وجمعوا من بقي بالجامع وقالوا اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم ، وسعى لهم إنسان نصراني فقرر على كل رجل عشرين درهماً فلم يقبل منهم إلا عقلاؤهم ، فلما رأى الروس أنه لا يحصل منهم شيء قتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا الشريد ، وغنموا أموال أهلها ، واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسنوها .

ذكر مسير المرزبان بن محمد بن مسافر ملك الدَّيْلَم إليهم

لما فعل الروس بأهل برذعة ما ذكرناه استعظمه المسلمون وتنادوا بالنفير وجمع المرزبان بن محمد الناس واستنفرهم فبلغت عدة من معه ثلاثين ألفاً ، وسار بهم فقاتلوهم فامتنعوا عليه ، فأكمن لهم بعض الأيام فهزمهم وقتل أميرهم ونجا الباقون إلى حصن البلد ، وحاصرهم المرزبان حتى هربوا من البلد ، وحملوا ما قدروا عليه ، وطَهَّر الله البلد منهم .

وملك الروس أيضاً في هذه السنة رأس عين واستباحوها ثلاثاً وقاتلهم الأعراب ففارقوها ، وكانوا ثمانين ألفاً مع من سبق .

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة خُلِع المتقي بن المستكفي بن المكتفي بن المعتضد ومكث سنة وأربعة أشهر ، ثم خُلع وبويع المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة حين تغلب بنو بُوَيْه على الخلفاء ، وبنو بويه كزبير ويقال أيضاً بسكون الواو وفتح الياء ، ينتهي نسبهم إلى ملوك الفرس ، وإنما نسبوا إلى الديلم لأنهم طال مقامهم ببلادهم ، وخدموا كثيراً من عمال الخلفاء حتى صاروا قواد جيوش ، ثم تَقوّى أمرهم حتى تغلبوا على الخلفاء وصار الملك بأيديهم ، وليس للخلفاء إلا الاسم والدعاء على المنابر وكتابة المناشير وكتابة أسمائهم على الدراهم والدنانير ، وأخبارهم طويلة مذكورة في التواريخ .

ودخل معز الدولة بن بويه بغداد بجيوشه سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة وخلع الخليفة المستكفي بن المكتفي وأقام في الخلافة المطيع لله بن المقتدر ، وكان ابتداء ظهورهم سنة عشرين وثلاثمئة ، وما زالوا يتغلبون على ممالك بني العباس شيئاً فشيئاً حتى تغلبوا على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة ، وصاروا يتوارثون الملك بالتغلب إلى سنة ثمان وأربعين وأربعمئة ، فقامت دولة السلجوقية وتغلبوا عليهم وعلى الخلفاء أيضاً .

وفي سنة خمس وثلاثين كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم على يد نصرٍ الثمليّ أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص ، وكان عدة الأسرى ألفين وأربعمئة أسير وثمانين أسيراً من ذكر وأنثى ، وفضل للروم على المسلمين مئتان وثلاثون أسيراً لكثرة من معهم من الأسرى ، فوافاهم ذلك سيف الدولة ، ومن هذا التاريخ صار أمر الصوائف إلى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص .

وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة غزا سيف الدولة بن حمدان بلد الروم فلقيه الروم واقتتلوا ، فانهزم سيف الدولة ، وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس .

وفي سنة ثمان وثلاثين غزا سيف الدولة أيضاً بلاد الروم وأوغل فيها وفتح حصوناً كثيرة وسبى وغنم ، فلما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه المضايق ، فهلك من كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً ، واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ، ونجا سيف الدولة في عدة يسيرة .

ذكر غزوة بصقلية

في سنة أربعين غزا الروم بصقلية الحسن بن علي الكلبي عامل المنصور العبيدي ، وجاءت جنود من القسطنطينية مدداً للروم بصقلية ، فاقتتلوا مع المسلمين أشد القتال ، ثم انهزم الروم وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى الليل وغنموا جميع أثقالهم وسلاحهم ودوابهم .

وفي سنة إحدى وأربعين ملك الروم مدينة سَرُوج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وأخربوا المساجد .

وفي سنة ثلاث وأربعين غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وغنم ، وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق ، فعظم الأمر على الروم وعلى الدمستق ، فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور .

فسار إليه سيف الدولة ، فالتقوا عند الحدث فاشتد القتال بينهم وصبر الفريقان ، ثم إن الله تعالى نصر المسلمين ، فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق كثير ، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته ، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولاً .

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمئة سار سيف الدولة في جيوش إلى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خَرْشَنَة وصارِخَة ، وفتح عدة حصون وسبى وأسر وأحرق وخرب وأكثر القتل فيهم ورجع إلى أَذَنة ، فأقام بها ، ثم رجع إلى حلب ، فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا إلى ميافارقين وأحرقوا أسوارها ونهبوا وخربوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم وعادوا ، وفي هذه السنة سار الروم في البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفاً وثمانمئة رجل ، وأحرقوا القرى التي حولها ، وفعلوا مثل ذلك أيضاً بطرسوس والرها سنة ثمان وأربعين .

وفي سنة تسع وأربعين غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كثير فأثر فيها آثاراً كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً ، وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق ، فلما أراد الرجوع ، قال له من معه من أهل طرسوس إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأيُ أن

ترجع معنا ، فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره ، وعاد من الدرب الذي دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلاً وأسراً ، وتخلّص هو في ثلاثمئة رجل بعد جهد ومشقة ، وهذا من سوء رأي كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب .

وفي سنة ثلاثمئة وخمسين سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية ، فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيها من المسلمين وقتل كثيراً منهم وأفلت صاحب أنطاكية وبه جراحات .

وفي هذه السنة غزا نجا غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميافارقين ، وغنم ما قيمته عظيمة ، وسبى وأسر وخرج سالماً .

ذكر استيلاء الروم علىٰ مدينة زَرْبَة
وهو ثغر قرب المصيصة ، والمصيصة بلدة بالشام

في سنة إحدى وخمسين وثلاثمئة نزل الروم مع الدمستق على عين زَرْبَة ، وهي في سفح جبل عظيم وهو مشرف عليها ، وهم في جمع عظيم ، فأنفذ بعض عسكره فصعدوا الجبل فملكوه ، فلما رأى ذلك أهلها وأن الدمستق قد ضيق عليه ومعه الدبابات وقد وصل إلى السور وشرع في النقب ، طلبوا الأمان فأمنهم الدمستق وفتح له باب المدينة ، فدخلها فرأى أصحابه الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة فنزلوا بعد إجابتهم إلى الأمان ، ونادى في البلد أول الليل بأن يخرج أهله إلى المسجد الجامع ومن تأخر في منزله قتل ، فخرج من أمكنه الخروج ، فلما أصبح أنفذ رجاله في المدينة وكانوا ستين ألفاً وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله ، فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ، وأمر بجمع ما في البلد من السلاح فكان شيئاً كثيراً ، وأمر من في المسجد أن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك ومن أمسى قتل ، فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون ، وماتوا في الطرقات .

وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار ، وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة .

وأقام الدمستق في بلد الإسلام إحدى وعشرين يوماً وفتح حول عين زَرْبَة أربعة وخمسين حصناً للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان ، وكان من جملة تلك الحصون التي فتحت بالأمان حصنٌ أمر أهله بالخروج منه فخرجوا ، فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجردوا سيوفهم ، فاغتاظ الدمستق لذلك ، فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمئة رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ، فلما أدركه الزمن الذي يصوم فيه النصارى انصرف عل أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية .

وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد خرج في أربعة آلاف من الطرسوسيين فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم ، وقتل أخاً لابن الزيات فعاد إلى طرسوس ، وكان قد قطع الخطبة لسيف الدولة ابن حمدان ، فلما أصابهم هذا الوهن أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة وأرسلوا له بذلك ، فلما علم ابن الزيات حقيقة الأمر صعد إلى رَوْشَنٍ في داره فألقى نفسه إلى نهر تحته فغرق . وأرسل أهل بغْراس للدمستق وبذلوا له مئة ألف درهم ، فأقرهم وترك معارضتهم .

ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وردهم منها بغير سبب

في هذه السنة استولى الروم على مدينة حلب دون قلعتها ، وكان سبب ذلك أن الدمستق سار إلى حلب ولم يشعر به المسلمون ، لأنه كان قد خلف عسكره بقيسارية ، ودخل كما ذكرناه ، فلما قضى صوم النصارى خرج إلى عسكره من البلاد جريدة ، ولم يعلم به أحد ، وسار بهم فعند وصوله سبق خبره وكبس مدينة حلب ، ولم يعلم به سيف الدولة بن حمدان ولا غيره ، فلما بلغها وعلم سيف الدولة الخبر أعجله الأمر عن الجمع والاحتشاد ، فخرج إليه فيمن معه فقاتله فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه ، فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد بل قتلوا جميعهم ، فانهزم سيف الدولة في نفر يسير ، وظفر الدمستق بداره ، وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين ، فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثمئة بدرة من الدراهم ، وأخذ له ألفاً وأربعمئة

بغل ومن خزائن السلاح ما لا يحصى ، فأخذ الجميع وخرب الدار وملك الحاضر ، وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم في السور ثلمة ، فقاتلهم أهل حلب عليها فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها ، فلما جنهم الليل عمروها ، فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن .

ثم إن رجالة الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها ، فلحق الناس أموالهم ليمنعوها ، فخلا السور منهم ، فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فصعدوا إلى أعلاه فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله ، فنزلوا وفتحوا الأبواب ، ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ، ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا ، وكان في حلب ألف وأربعمئة من الأسرى فتخلصوا ، وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسَبَوْا من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة ، فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة ، أمر الدمستق بإحراق الباقي ، وأحرق المساجد ، وكان قد بذل لأهل البلد الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ومالاً ذكره ، وينصرف عنهم فلم يجيبوه إلى ذلك فملكهم كما ذكرناه ، وكان عدة عسكره مئتي ألف رجل ، منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن وهي الصدر والدرع وثلاثون ألفاً للهدم ، وإصلاح الطرق من الثلج ، ومعه أربعة آلاف بغل تحمل الحسك الحديد ، وهي أداة للحرب من حديد لها شوك تلقى حول العسكر للحفظ من الدخول إليهم .

ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه ، وأقام الدمستق تسعة أيام وأراد الانصراف عن البلد بما غنم ، فقال له ابن أخت الملك وكان معه : هذا البلد قد حصل في أيدينا فليس من يدعنا عنه فلأي سبب تنصرف عنه ؟ فقال له الدمستق : قد بلغنا ما لم يكن الملك يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا ما لم يسمع بمثله ، فتراجعا الكلام إلى أن قال له الدمستق : انزل على القلعة فحاصرها فإنني مقيم بعسكري على باب المدينة ، فقدم ابن أخت الملك إلى القلعة ومعه سيف وترس وتبعه الروم ، فلما قرب من باب القلعة أُلقي عليه حجر فسقط ورُمي بخشب ، فقتل فأخذه أصحابه ، وعادوا إلى الدمستق ، فلما رآه قتيلاً قتل من معه من أسرى المسلمين ، وكانوا ألفاً ومئتي رجل وعاد إلى بلاده ولم يعرض لسواد حلب ، وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود إليهم بزعمه .

ذكر فتح طَبَرْمِينَ من صِقِلِّيَة

وفي هذه السنة سارت جيوش المسلمين بصقلية ، وأميرهم حينئذ أحمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسن عامل العبيديين إلى قلعة طبرمين من صقلية أيضاً وهي بأيدي الروم ، فحاصروها وهي أمنع الحصون وأشدها على المسلمين ، فامتنع أهلها ودام الحصار عليهم ، فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا إلى الماء الذي يدخلها ، فقطعوه عنها وأجروه إلى مكان آخر ، فعظم الأمر عليهم وطلبوا الأمان فلم يجابوا إليه ، فعادوا وطلبوا أن يؤمنوا على دمائهم ويكونوا رقيقاً للمسلمين وأموالهم فيئاً ، فأجيبوا إلى ذلك ، وأخرجوا من البلد وملكه المسلمون ، وكانت مدة الحصار سبعة أشهر ونصف ، وأسكن القلعة نفراً من المسلمين ، وسميت المعزية نسبة للمعز العبيدي صاحب إفريقية .

وسار جيش إلى رمطة مع الحسن بن عمار فحصروها وضيقوا عليها ، فلما رأى الروم ذلك خافوا وأرسلوا إلى ملك القسطنطينية يعلموه الحال ويطلبون منه أن ينجدهم بالعساكر ، فجهز إليهم عسكراً عظيماً يزيدون على أربعين ألف مقاتل وسيرهم في البحر ، فوصلت الأخبار إلى الأمير أحمد أمير صقلية فأرسل إلى المعز بإفريقية يعرفه ذلك ويستمده ويسأله إرسال العساكر إليه سريعاً ، وشرع هو في إصلاح الأسطول والزيادة فيه وجمع الرجال المقاتلة في البر والبحر ، وأما المعز فإنه جمع الرجال وحشد وفرق فيهم الأموال الجليلة وسيرهم مع الحسن بن علي والد أحمد ، فوصلوا إلى صقلية في رمضان ، وساروا إلى الذين يحاصرون رمطة فكانوا معهم على حصار .

فأما الروم فإنهم وصلوا أيضاً إلى مدينة صقلية في شوال ونازلوا عند مدينة مسيني وزحفوا منها بجموعهمم التي لم يدخل صقلية مثلها إلى رمطة .

فلما سمع الحسن بن عمار مقدمة الجيش الذين يحاصرون رمطة ذلك جعل عليها طائفة من عسكره يمنعون من يخرج منها ، وبرز بالعساكر للقاء الروم وقد عزموا على الموت ، ووصل الروم وأحاطوا بالمسلمين ، ونزل أهل رمطة إلى من يليهم ليأتوا المسلمين من ظهورهم ، فقاتلهم الذين جعلوا هناك لمنعهم وأبعدوهم عما أرادوا ، وتقدم الروم إلى القتال وهم مدلون بكثرتهم وبما معهم من العدد وغيرها والتحم القتال وعظم الأمر على المسلمين وألحقهم العدو بخيامهم وأيقن الروم بالظفر ، فلما رأى

المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت ورأوا أنه أسلم لهم وأخذوا بقول الشاعر :

تـأخـرتُ أَسْتبقـي الحيـاةَ فلـم أجِـدْ لِنفســي حيــاةً مِثْــلَ أَنْ أَتَقَــدَّمــا

فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم وحَمِي الوطيس حينئذ وحرضهم على قتال الكفار ، وكذلك فعل بطارقة الروم وحملوا وحرضوا عساكرهم ، وحمل منويل مقدم الروم ، فقتل في المسلمين فطعنه المسلمون فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من اللباس ، فرمى بعضهم فرسه فقتله ، واشتد القتال عليه فقتل هو وجماعة من بطارقته ، فلما قتل انهزم الروم أقبح هزيمة وأكثر المسلمون فيهم القتل ووصل المنهزمون إلى حرف خندق عظيم كالحفرة فسقطوا فيها من خوف السيف ، فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت ، وكانت الحرب من بكرة إلى العصر ، وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال مالا يحد ، وكان في جملة الغنيمة سيف هندي مكتوب عليه هذا سيف هندي وزنه مئة وسبعون مثقالاً طالما ضرب به بين يدي رسول الله ﷺ ، فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرؤوس وسار من سلم من الروم إلى ريُو .

وأما أهل رمطة فإنهم ضعفت نفوسهم وكانت القوات قد قلّت عندهم فأخرجوا من فيها من الضعفاء وبقي المقاتلة فزحف إليهم المسلمون وقاتلوهم إلى الليل ولزموا القتال في الليل أيضاً وتقدموا بالسلالم فملكوها عنوة وقتلوا من فيها وسبوا الحرم والصغار وغنموا ما فيها ، وكان شيئاً كثيراً عظيماً ، ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها .

ثم إن الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة ريُو منهم وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم ، فركب الأمير أحمد في عساكره وأصحابه في المراكب أيضاً وزحف إليهم في الماء ، وقاتلهم واشتد القتال بينهم وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء وخرقوا كثيراً من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي أحد على أحد ، وسارت سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها فبذل أهلها لهم كثيراً من الأموال وهادنوهم ، وكانت هذه الوقائع في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة والهدنة في سنة أربع وخمسين ، وهذه الوقعة الأخيرة تعرف بوقعة المجاز .

(ولنرجع) إلى تمام الكلام على حوادث سنة إحدى وخمسين ، ففيها أخذ الروم حصن درك وثلاثة حصون مجاورة له ، وفيها سيّر سيف الدولة حاجبه في جيش مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم ، فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا ، فقصد الروم حصن سيسية فملكوه ، وفيها سار نجا غلام سيف الدولة في جيش إلى حصن زيادة فلقيه جمع من الروم فهزمهم واستأمن إليه من الروم خمسمئة رجل .

وفي هذه السنة أيضاً في شوال أسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان بن منبج ، وكان متقلداً لها وكان ذا فصاحة وبلاغة وله ديوان شعر جيد ، وبقي أسيراً إلى سنة خمس وخمسين فافتداه سيف الدولة بمال جزيل وتسلّمه منهم .

وفي سنة إحدى وخمسين أيضاً سار جيش من الروم إلى جزيرة إقريطش ، فأرسل أهلها إلى المعز العبيدي صاحب إفريقية يستنجدونه ، فأرسل إليهم نجدة فقاتلوا الروم ، فانتصر المسلمون وأسروا من كان بالجزيرة من الروم .

وفي سنة اثنتين وخمسين دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين ودخلها أيضاً نجا غلام سيف الدولة من درب آخر ، وأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا إلى قونية وعادوا .

وفي هذه السنة اجتمع جماعة كثيرة من الأرمن ، وقصدوا الرها فأغاروا عليها فغنموا وأسروا وعادوا موفورين .

ذكر حصر الروم المصيصة ووصول الغزاة إلىٰ خراسان

في سنة ثلاث وخمسين حصر الروم مع الدمستق المصيصة وقاتلوا أهلها ، ونقبوا سورها ، واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعوهم عنه بعد قتال عظيم ، وأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهما أهلها ، فقتل من المسلمين خمسة عشر ألف رجل ، وأقام الروم في بلاد الإسلام خمسة عشر يوماً لم يقصدهم من يقاتلونهم ، فعادوا لغلاء الأسعار وقلة الأقوات ، ثم إن إنساناً وصل إلى الشام من خراسان يريد الغزو ومعه خمسة آلاف رجل وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين ، فلما وصلوا إلى سيف الدولة في صفر أخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن

المسلمين فوجد الروم قد عادوا ، وافترق الغزاة الخراسانية إلى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم إلى بغداد ومنها إلى خراسان ، ولما أراد الدمستق العود إلى بلاد الروم أرسل إلى أهل المصيصة وأذنة وطرسوس إني منصرف عنكم لا لعجز ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء وأنا عائد إليكم فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودي قتلته ، ثم نزل ملك الروم بعد ذلك على طرسوس وحصرها وجرى بينهم وبين أهلها حروب كثيرة سقط في بعضها الدمستق إلى الأرض وكاد يؤسر فقاتلت عليه الروم وخلصوه ، وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم ، ورحل الروم عنهم وتركوا عسكراً على المصيصة مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر لم يمنعهم منها أحد ، فاشتد الغلاء على الروم وكثر فيهم الوباء ، فمات كثير منهم فاضطروا إلى الرحيل .

ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس

في سنة أربع وخمسين وثلاثمئة سار نِقْفُور ملك الروم إلى قيسارية ليقرب من بلاد الإسلام وأقام بها ونقل أهله إليها ، فأرسل إليه أهل طرسوس والمصيصة يبذلون له إتاوة ويطلبون منه أن يُنْفِذَ إليهم بعضَ أصحابه يقيم عندهم ، فعزم على إجابتهم . فأتاه الخبر بأنهم قد ضعفوا وعَجِزوا ، وأنهم لا ناصر لهم ، وأَنَّ الغلاء قد اشتد عليهم ، وقد عجزوا عن القوت ، وأكلوا الكلاب والميتة وقد كثر فيهم الوباء ، فيموت منهم في اليوم نحو ثلاثمئة ألف نفس . فعاد نقفور عن إجابتهم ، وأحضر الرسول ، وأحرق الكتاب على رأسه ، واحترقت لحيته ، وقال لهم : أنتم كالحية في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته ، وأنتم إنما أطعتم لضعفكم وإن تركتم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم . وأعاد الرسول وجمع جيوش الروم .

وسار إلى المصيصة بنفسه فحصرها وفتحها عنوة بالسيف ووضع السيف فيهم ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم رفع السيف ونقلَ كلَّ من بها إلى بلد الروم ، وكانوا نحو مئة ألف إنسان .

ثم سار إلى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان ، فأجابهم إليه ، وفتحوا البلد ، فَلَقِيهم بالجميل ، وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم

ما يطيقون ويتركون الباقي ، ففعلوا ذلك ، وساروا براً وبحراً وسيّر معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية .

وجعل الملك المسجد الجامع إصطبلاً لِدَوابِه ، وأحرق المنبر وعَمَرَ طرسوس وحَصَّنَها ، وجلب الميرة إليها حتى رَخُصَت الأسعار ، وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملك ، وتنصَّر بعضهم والعياذ بالله تعالى .

وأراد الملك المقام بها ليقرب من بلاد الإسلام ، ثم عاد إلى القسطنطينية ، وأراد الدمستق أن يقصد ميافارقين وبها سيف الدولة فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية .

وفي هذه السنة نزلت طائفة من الترك على بلاد الخزر فاستنصر أهل الخزر بأهل خوارزم فلم ينجدوهم ، وقالوا أنتم كفار فإن أسلمتم نصرناكم فأسلموا إلا ملكهم ، فنصرهم أهل خوارزم وأزالوا الترك عنهم ، ثم أسلم ملكهم بعد ذلك .

ذكر خروج الروم إلى بلاد الإسلام

في سنة خمس وخمسين وثلاثمئة في شوال خرجت الروم ، فقصدوا مدينة آمد ونزلوا عليها وحاصروها وقتلوا أهلها ، فقتل منهم ثلاثمئة رجل ، وأسر نحو أربعمئة أسير ، ولم يمكنهم فتحها فانصرفوا إلى دارا وقربوا من نصيبين ، ولقيتهم قافلة واردة من ميافارقين فأخذوها ، وهرب الناس من نصيبين خوفاً منهم حتى بلغت أجرة الدابة مئة درهم ، وأرسل سيف الدولة الأعراب ليهرب معهم ، وكان في نصيبين ، فاتفق أن الروم عادوا قبل هربه فأقام بمكانه وساروا من ديار الجزيرة إلى الشام فنازل أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها ، فلم يمكنهم فتحها فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس .

وفي سنة ست وخمسين توفي سيف الدولة وملك ابنه أبو المعالي شريف .

وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمئة وصلت سرية كبيرة من الروم إلى أنطاكية فقتلوا في سوادها وغنموا وسبوا اثني عشر ألفاً من المسلمين .

وفي سنة ثمان وخمسين دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله ، فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها ، وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه ، فقصد قلعة عرقة فأخذه الروم وجميع ماله وكان كثيراً ، وقصد ملك الروم حمص ، وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلَوها ، فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتحريقاً وملك ثمانية عشر منبراً ، وأما القرى فكثيرة لا تحصى ، وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء ، ولا يمنعه أحد إلا بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم ، فأتاه جماعة منهم وتنصّروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم ، وصار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين ، فأراد أن يحصر أنطاكية وحلب ، فبلغه أن أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه فامتنع من ذلك وعاد ومعه من السبي نحو مئة ألف رأس ، ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان ، فأما الكهول الشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه ، وكان بحلب

ـرغوية غلام سيف الدولة فصانع الروم عليها فعادوا إلى بلادهم ، فقيل كان سبب ـعودهم كثرة الأمراض والموت ، وقيل ضجروا من طول السفر والغيبة عن بلادهم ـعادوا على عزم الرجوع ، وسيّر ملك الروم سرية إلى الجزيرة فنهبوا وسبوا وأحرقوا ـعادوا .

ذكر ملك الروم أنطاكية

في سنة تسع وخمسين وثلاثمئة ملك الروم مدينة أنطاكية ، وسبب ذلك أنهم حصروا حصناً بالقرب من أنطاكية يقال له حصن بُوقا ووافقوا أهله وهم نصارى على أن ـرحلوا منه إلى أنطاكية ، ويظهر أنهم إنما انتقلوا منه خوفاً من الروم فإذا صاروا بأنطاكية ـعانوهم على فتحها ، وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك ، وانتقل أهل ـلحصن ونزلوا بأنطاكية بالقرب من الجبل الذي بها ، فلما كان بعد انتقالهم بشهرين ـجاءت الروم مع أخي نقفور الملك ، وكانوا نحو أربعين ألفاً ، فأحاطوا بسور أنطاكية ـصعدوا الجبل إلى الناحية التي بها أهل حصن بوقا ، فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا ـلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور ، وملك الروم البلد ووضعوا في أهله السيف ، ـم أخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد وقالوا لهم اذهبوا حيث شئتم ، ـأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان فحملوهم إلى بلاد الروم سبياً ، وكانوا ـيزيدون على عشرين ألفاً .

ذكر ملك الروم مدينة حلب وعودهم عنها

لما ملك الروم أنطاكية أنفذوا جيشاً إلى حلب ، وكان أبو المعالي شريف بن سيف ـلدولة محاصراً لها وبها قَرْغوية غلام سيف الدولة متغلباً عليها ، فلما سمع أبو المعالي ـخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهم وحصروا البلد وبه قرغوية ، وأهل البلد ـد تحصنوا بالقلعة ، فملك الروم المدينة وحصروا القلعة فخرج إليهم جماعة من حلب ـتوسّطوا بينهم وبين قرغوية ، وترددت الرسل فاستقر الأمر بينهم على هدنة مؤبدة على ـال يحمله قرغوية إليهم ، وأن يكون الروم إذا أرادوا الغزو لا يمكّن قرغوية أهل القرى ـن الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون إليه منها ، وكان مع حلب

حماة وحمص وكفر طاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرى ، وسلموا الرهائن إلى الروم ، وعادوا من حلب وتسلمها المسلمون .

ذكر ملك الروم منازكرد

وفي هذه السنة أرسل ملك الروم جيشاً إلى منازكرد من أعمال أرمينية ، فحصروها وضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة وقهراً ، وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون في أقطار البلاد وصارت كلها سائبة لا تمتنع عليهم يقصدون أيها شاؤوا لضعف ملوك الإسلام عن مدافعتهم ووقوع الفتن بينهم .

ذكر ما فعله الروم بالجزيرة

في سنة إحدى وستين وثلاثمئة في المحرم ، أغار ملك الروم على الرها ونواحيها ، وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد ، وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ، فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين ، وقاموا في الجوامع والمشاهد ، واستنفروا المسلمين ، وذكروا ما فعل الروم من النهب والقتل والأسر والسبي ، فاستعظمه الناس ، وخوّفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنهم لا مانع لهم عنهم ، فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة المطيع لله وأرادوا الهجوم عليه ، فَمُنِعوا من ذلك وأغلقت الأبواب ، فأسمعوه ما يقبح ذكره .

ذكر انهزام الروم وأسر الدُمُسْتُق

في سنة اثنتين وستين وثلاثمئة كانت وقعة بين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وبين الدمستق بناحية مَيّافارِقين ، وكان سببها ما ذكرناه من غزو الروم بلاد الإسلام ، فلما رأوا أنهم لا مانع لهم قوي طمعهم على أخذ آمِدَ ، فسار الدمستق إليها وبها هزار مرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان ، فكتب إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة يستصرخه ويعلمه الحال ، فسيّر إليه أخاه هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق ، وكان الدمستق في كثرة ، فلقياه في مضيق لا تجول فيه الخيل والروم على غير أهبة

فانهزموا ، وأخذ المسلمون الدمستق أسيراً ولم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات .

وفي سنة ثلاث وستين أصاب الخليفة المطيع لله فالج فثقل لسانه وتعذرت عليه الحركة فخلع نفسه ، وبويع لابنه الطائع لله .

وفي سنة ست وستين توفي الحكم بن عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس وأقيم بعده ابنه هشام وكان صغيراً ولقب المؤيد ، وقام بأمره الوزير المنصور ابن أبي عامر واشتغل بالغزو وفتح من بلاد الأعداء كثيراً وامتلأت الأندلس بالغنائم ، واستمر المنصور ستاً وعشرين سنة غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة يطول الكلام بذكرها ، وسيأتي ذكر شيء منها .

ومن محاسن غزواته أنه دخل بلاد الفرنج غازياً فجاز الدرب إليها وهو مضيق بين جبلين وأوغل في بلاد الفرنج يسبي ويخرب ويغنم ، فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب وهم عليه يحفظونه من المسلمين ، فأظهر أنه يريد المقام في بلادهم وشرع هو وعسكره في عمارة المساكن وزرع الغلات ، وأحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون إليه ، فلما رأوا عزمه على المقام مالوا إلى السلم ، فراسلوه في ترك الغنائم والجواز إلى بلاده فقال : أنا عازم على المقام ، فتركوا له الغنائم فلم يجبهم إلى الصلح ، فبذلوا له مالاً ودوابَّ تحمل له ما غنمه من بلادهم ، فأجابهم إلى الصلح ، وفتحوا الدرب فجاز إلى بلاده .

ذكر غزوات بالهند

وكان القائم بتلك الغزوات السلطان سُبَكْتُكِين ، بضم السين وفتح الباء وسكون الكاف الأولى وفتح التاء وكسر الكاف الثانية ، وبنوه بعده ، وسبكتكين كان في الأصل غلاماً لأبي إسحاق بن ألبتكين صاحب جيش غزنة السامانية ملوك خراسان عمال الخلفاء العباسيين ، وكان سبكتكين مقدماً عند مولاه أبي إسحاق المذكور ، فلما مات أبو إسحٰق لم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم ، فاجتمع عسكره واتفقوا على تقديم سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته ، فقدموه عليهم وولوه أمرهم سنة ست وستين وثلاثمئة فأحسن السيرة فيهم ، وصار لهم ملك ضخم توارثه بنوه في كابل والهند وخراسان إلى سنة سبع وأربعين وخمسمئة ، فتكون مدة ولايتهم مئتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريباً ، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ، ولا سيما السلطان محمود بن سبكتكين فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة ، وكان مقر سلطنتهم غزنة فهي دار ملكهم وهي من مدائن كابل ، وهذا ذكر أول غزواتهم .

ففي سنة ست وستين وثلاثمئة غزا سبكتكين وهو والد السلطان محمود صاحب غزنة ، فافتتح قلاعاً حصينة على شواهق الجبال وعاد سالماً ظافراً ، ولما رأى جبال ملك الهند ما دهمه وأن بلاده تملك من أطرافها ، جمع الجيوش الكثيرة واستكثر من الفيول وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين ، فسار سبكتكين عن غزنة إليه ومعه عساكره وخلق كثير من المتطوعة ، فالتقوا واقتتلوا أياماً كثيرة وصبر الفريقان وبالقرب منهم عقبة غورك ، وفيها عين ماء لا تقبل نجساً ولا قذراً وإذا ألقي فيها شيء من ذلك اكفهرّت السماء وهبّت الرياح وكثر الرعد والبرق والأمطار ، ولا تزال كذلك إلى أن تطهر من الذي ألقي فيها ، فأمر سبكتكين بإلقاء نجاسة في تلك العين فجاء الغيم والرعد والبرق وقامت القيامة على الهنود لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وتوالت عليهم الصواعق والأمطار واشتد البرد حتى هلكوا وعميت عليهم المذاهب واستسلموا لشدة ما عاينوه ، وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب الصلح وترددت الرسل فأجابهم إليه بعد امتناع على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه ، فاستقر ذلك ورهن عنده

جماعة من أهله على تسليم البلاد ، وسيّر معه سبكتكين من يتسلمها فإن المال والفيلة كانت معجلة ، فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه .

فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر وسار نحو الهند فأخرب كل ما مرَّ عليه من بلادهم ، وقصد لمغان وهي من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الإسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها ، فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة ، فلما بلغ الخبر ملك الهند جمع العساكر وسار في مئة ألف مقاتل ، فلقيه سبكتكين وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود ففعلوا ذلك ، فضجر الهنود من دوام القتال معهم وحملوا حملة واحدة ، فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب وحمل المسلمون أيضاً جميعهم واختلط بعضهم ببعض فانهزم الهنود وأخذهم السيف من كل جانب وأسر منهم ما لا يُعدّ وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة ، وذلّ الهنود بعد هذه الواقعة ولم يقم لهم بعدها راية ورضوا بِأَلاَّ يطلبوا في أقاصي بلادهم ، ولما قوي سبكتكين بعد هذه الوقعة أطاعه الأفغانية والخلج وصاروا في طاعته .

ذكر غزوة للأمير أبي القاسم الكلبي أمير صقلية

في سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة في ذي القعدة سار الأمير أبو القاسم من صقلية يريد الجهاد ، وسبب ذلك أن ملكاً من ملوك الأفرنج يقال له بردويل ، خرج في جموع كثيرة يريد صقلية ، فحصر قلعة مالطة وملكها وأصاب سريتين ، فسار الأمير أبو القاسم بعساكره ليرحله عنها ، فلما قاربها خاف وجبن فجمع وجوه أصحابه وقال لهم : إني راجع من مكاني هذا فلا تكسروا على رأيي ، فرجع هو وعساكره ، وكان أسطول الكفار يساير المسلمين في البحر ، فلما رأوا المسلمين راجعين أرسلوا إلى بردويل ملك الفرنج يعلمونه ويقولون له إن المسلمين خائفون منك فالْحَقْ بهم فإنك تظفر .

فجرد الفرنجي من عساكره أثقالهم وسار جريدة وجَدّ في السير فأدركهم في العشرين من المحرم سنة ثنتين وسبعين ، فتعبّأ المسلمون للقتال واقتتلوا واشتدت الحرب بينهم ، فحمل طائفة من الفرنج على القلب والأعلام فشقوا العسكر ووصلو إليها وقد تفرق كثير من المسلمين عن أميرهم واختل نظامهم فوصل الفرنج إليه فأصابته

ضربة على أم رأسه فقتل وقتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم ، ثم إن المنهزمين من المسلمين راجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا ، واشتد حينئذ الأمر وعظم الخطب على الطائفتين فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل وأُسِرَ من بطارقتهم كثير ، وتبعهم المسلمون إلى أن أدركهم الليل وغنموا من أموالهم كثيراً ، وأفلت ملك الفرنج هارباً ومعه رجل يهودي كان خصيصاً به ، فوقف فرس الملك فقال له اليهودي اركب فرسي فإن قتلت فأنت لولدي ، فركبه الملك ونجا وقتل اليهودي .

ولما قتل الأمير أبو القاسم كان معه ابنه جابر فقام مقام أبيه ورحل بالمسلمين لوقته ، ولم يمكنهم من إتمام الغنيمة فتركوا كثيراً منها .

ذكر دخول الروسية في دين النصرانية

قد تأخر دخول الروسية في النصرانية عن بقية الأفرنج سكان أوروبة ، وذلك أنه كان أول دخول الروسية في دين النصرانية سنة خمس وسبعين وثلاثمئة ، وسبب ذلك أنه وقع اختلاف بين ملوك الروم مع بعضهم ، فاستنجد بعض منهم بملوك الإسلام ، وذلك البعض هو ورد الرومي وكان من أكابر رؤوسهم وقواد جيوشهم وعظماء بطارقتهم ، فطمع في الملك ولا قدرة له على قتال بقية المتنازعين ، فكاتب أبا تغلب ابن حمدان أمير حلب والموصل نيابة عن الخليفة واستنجد به وصاهره ، فأجابه ابن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور ، فحصل له جيش ضخم فقصد قتال الروم بذلك الجيش فأخرجوا له جيشاً بعد جيش وهو يهزمهم ، فقوي جنانه فقصد القسطنطينية ، ومع تلك الجيوش أيضاً ورد الرومي الطالب لتملك القسطنطينية فجمعوا له جيوشاً كثيرة ، وقاتلوه قتالاً شديداً حتى انهزم ، فرجع ورد الرومي إلى بلاد الإسلام وقصد ديار بكر ، ونزل بظاهر ميافارقين ، وكاتب عضد الدولة بن بويه المتغلب بالعراق على الخلفاء ، ووعد ببذل الطاعة فأجابه بجواب حسن ووعده بأن ينصره ، فبلغ ذلك ملوك الروم ، وكان ملكان منهما أخوين مشتركين في ملك القسطنطينية فكاتبا عضد الدولة ، وبعثا له بهدايا واستمالاه ، فقوي في نفسه ترجيح جانبهما وأعرض عن نصرة ورد الرومي ، وكتب لنائبه بديار بكر وهو أبو علي التميمي أن يقبض على ورد

الرومي وأصحابه ، فشرع يدبر الحيلة عليه ، فبلغ الخبر بعض أصحاب ورد ، فقالوا له : إن ملوك الروم قد كاتبوا عضد الدولة وراسلوه في أمرنا ، ولا شك أنهم يرغبونه بالمال وغيره فيسلمنا إليهم فالرأيُ أن نرجع إلى بلاد الروم ونصطلح معهم إن أمكننا أو نحاربهم ونبذل أنفسنا فإما ظفرنا أو متنا كراماً .

فقال وَرْدٌ : ما هذا رأيٌ ولا رأينا من عضد الدولة غير الجميل ولا يجوز أن ننصرف قبل أن نعلم ما عنده .

فلما قال لهم ورد ذلك فارقَهُ كثير من أصحابه ، فطمع فيه أبو علي التميمي نائب عضد الدولة بديار بكر فكاتبه وطلب حضوره عنده والاجتماع به ، فأجابه ورد إلى ذلك وحضر عنده ، فلما اجتمع به قبض عليه وعلى ولده وأخيه وبعض أصحابه وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وحبسهم بميافارقين ، ثم حملهم لعضد الدولة ببغداد ، فبقوا في الحبس إلى أن مات عضد الدولة سنة خمس وسبعين وصار ملك بني بويه لصمصمام الدولة فأطلق ورداً الرومي ومن كان محبوساً معه ، وشرط عليه إطلاق عدد كثير من أسارى المسلمين ، وأن يسلم له سبع حصون عينها من بلاد الروم برساتيقها ، وألاَّ يقصد بلاد الإسلام لا هو ولا أحد من أصحابه مدة حياته ، وجهزه مما يحتاج إليه من مال وغيره .

فسار ورد إلى بلاد الروم واستمال في طريقه خلقاً كثيراً من أهل البوادي وغيرهم وأطمعهم في العطاء والغنيمة ، فاجتمع معه جيش فسار به حتى نزل بملطية فتملكها فقوي بها وبما فيها من مال وغيره ، وقصد من ملوك الروم ورديس بن لاوِن وراسله واستماله ، فاستقر الأمر بينهما على أن تكون القسطنطينية وما جاورها من شمال الخليج لورديس ، والجانب الآخر لورد وتحالفا ، ثم اجتمعا فقبض ورديس على ورد وحبسه ، ثم ندم فأطلقه عن قريب ، وعبر ورديس الخليج وحصر القسطنطينية وبها الملكان وضيق عليهما ، فكاتبا ملك الروسية واستنجدا به وعرضا عليه التزوج بأخت لهما ، فأجابهما لما طلباه منه من النجدة فامتنعت أختهما من تسليم نفسها إلى من يخالفها في الدين ، فتنصر ملك الروسية فكان ذلك أول دخول الروسية في النصرانية ، ثم تزوجها وسار بجنوده إلى قتال ورديس فاقتتلوا ، فقتل ورديس واستقر الملكان في

ملكهما ، وكاتبا ورداً واصطلحا معه وأقراه على ما بيده من الممالك ، وبقي دهراً طويلاً ثم هلك مسموماً .

استطراد

حيثما ذكر بعض المؤرخين ابتداء دخول الروسية في النصرانية فينبغي أيضاً ذكر ابتداء دخول غيرهم من دول الأفرنج في النصرانية ، وذلك يتوقف أولاً على ذكر ابتداء كل دولة منها وكيف كانت ديانتها قبل دخولها في النصرانية ، وبيان ذلك أن أقدم الدول وأقواها في أوائل الدهور دولة الفرس فإنهم كانوا أقوى الدول ، وكانت الدول في أقطار الأرض تخضع لهم وتنقاد لأمرهم ، وينتهي نسب ملوك الفرس إلى وشهنج وهو مهلائيل بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام ، وكان وشهنج ملكاً مسلماً صالحاً له ملك واسع وآثار حميدة كثيرة ثم تغير من جاء بعده من عقبه فأحدثوا دين المجوسية ، واتخذوا إلهين اثنين : النور والظلمة ، فأثبتوا إلهاً وهو النور ، وشيطان وهو الظلمة ، وقالوا : إن النور هو الله ، وقالوا : إنه قديم ، وسموه يزدان ، وقالوا : إن الظلمة إله مخلوق وهو الشيطان وسموه أهرمن ، فأصل دينهم مَبْنيٌّ على تعظيم النور وهو يزدان ، وتحقير الظلمة وهو أهرمن ، فلما عظموا النور عبدوا النار .

وقيل إن الفرس وملوكهم ينتهي نسبهم إلى فارس إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وقيل إنهم من ولد كيومرث وهو آدم عليه السلام ، ويقولون إن الملك فيهم من كيومرث وهو آدم عليه السلام ، وبقي فيهم إلى أن استلبه منهم المسلمون من هذه الأمة في أوائل ظهور الإسلام ، وكان في زمن مدة ملكهم موجوداً في مشارق الأرض ومغاربها ملوك كثيرة ولكن هم كانوا أقوى الملوك ، وكان أكثر الملوك ينقادون لهم ويدخلون تحت طاعتهم ، ومن جملة الملوك الذين كانوا يخضعون لهم ملوك اليونان وملوك الروم ، إلى أن صار ملك اليونان للإسكندر ، فقاتلهم وقهرهم واستلب الملك منهم ، وجعل في أرضهم ملوكاً من أكابرهم صاروا تحت طاعته يسمون ملوك الطوائف ، وكانوا عشرين ملكاً ، وكذلك قهر الإسكندر ملوك الروم فكانوا تحت طاعته ، فمن حين غلبة الإسكندر لملوك الفرس صار ملك اليونان أقوى الملوك ، ودخل تحت طاعته ملوك الفرس وملوك الروم ، وهذا الإسكندر يقال له الإسكندر

الرومي مع أنه كان من اليونان لكنه نسب إلى الروم لغلبته إياهم وقهره لهم ودخولهم تحت طاعته .

وقيل إن أول من ظهر أمره من اليونان رجل اسمه اللن ولد سنة أربع وسبعين لمولد موسى عليه السلام ، وقيل إن تاريخ ظهور ملك اليونان سنة ثمان وستين وخمسمئة لوفاة موسى عليه السلام ، وكان تاريخ غلبة الإسكندر للفرس والروم بعد مضي خمسة آلاف سنة ومئتين وإحدى وثمانين سنة من هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض ، وذلك أيضاً بعد مضي ثلاثة آلاف سنة وتسع وثلاثين سنة من الطوفان ، وذلك أيضاً بعد مضي ألف وتسعمئة سنة وثمان وخمسين سنة من مولد إبراهيم عليه السلام ، وبعد مضي ألف وستمئة سنة وثلاث عشرة سنة من وفاة موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ، فكان ميلاده بعد غلبة الإسكندر بثلاثمئة وثلاث سنين .

وكان الناس قبل ميلاد عيسى عليه السلام يؤرخون بغلبة الإسكندر ، ثم بعد ميلاد عيسى عليه السلام صاروا يؤرخون بميلاد عيسى عليه السلام وتركوا التاريخ بغلبة الإسكندر .

ولما بعث نبينا سيدنا محمد ﷺ اصطلح المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أنهم يؤرخون بالهجرة ، وكان بين الهجرة وميلاد عيسى عليه السلام ستمئة وإحدى وثلاثون سنة ، وقيل ستمئة وإحدى وعشرون سنة .

وكان اليونان يعبدون الكواكب ، وكانت لهم أصنام على صور الكواكب يعبدونها ، وكان من اليونان الفلاسفة الذين دونوا علم الطب اليوناني ، وكان كثير منهم ينكرون حدوث العالم ويقولون إنه قديم يعتقدون التأثير الطبيعي .

ولما غلب الإسكندر ملوك فارس والروم بقي الملك في اليونان إلى مضي ثلاثة عشر ملكاً منهم ، وذلك مئتان واثنتان وثمانون سنة أولها من غلبة الإسكندر ، ثم غلبهم الروم واستلبوا الملك منهم فصارت الغلبة لملك الروم ، وهذا الإسكندر الذي غلب فارس والروم غير الإسكندر المذكور في القرآن الذي يقال له ذو القرنين ، كما حقق ذلك جماهير المفسرين للقرآن فإنهم حققوا أن الإسكندر ذا القرنين المذكور في القرآن كان مسلماً صالحاً ، بل قيل بنبوته وإنه كان قبل الإسكندر الرومي بدهور طويلة .

وأما الروم الذين غلبوا اليونان واستلبوهم ملكهم فإنهم من عقب روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، فغلب الروم اليوم واستلبوهم ملكهم بعد مضي مئتين واثنتين وثمانين سنة من غلبة الإسكندر ، ولم يرجع اليونان ملكهم واستمروا رعية لغيرهم وسكنوا المورة ، واستمروا رعية أيضاً إلى ظهور الدولة العثمانية .

فلما كانت سنة ألف ومئتين وست وثلاثيتن حصل منهم خروج عن الطاعة للسلطان محمود الثاني العثماني ، فجهز عليهم وقاتلهم ، ثم توسط بعض الدول بينهم بالصلح ، وتوسطوا أيضاً في جعلهم دولة مستقلة ببلاد المورة ، فكان الأمر كذلك إلى هذا الوقت .

وأما الأروام فإنهم بعد فتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ثمان وخمسين وثمانمئة انقرضت دولتهم ولم ترجع لهم دولة ، بل هم رعية للدولة العثمانية إلى الآن ، وكان انتقال ملك اليونان للروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمئة وخمس وأربعين سنة .

وكانت ديانة الروم عبادة الكواكب والأصنام التي على صور الكواكب ، فكانوا تابعين في ذلك لليونان ، لأن الغالب على الناس أن يكونوا على دين ملوكهم ، واستمر الروم على ذلك إلى أن دخلوا في دين النصارى وذلك بعد مُضِي مئتين وسبع وثلاثين سنة من ميلاد المسيح عليه السلام .

ثم إن بعض ملوك الروم أعاد عبادة الأصنام ، وصار يقتل من يتبع الملة المسيحية وبعضهم يقبلها ويردها إلى أن تملّك منهم قسطنطين فارتضى الملة المسيحية ودخل فيها وأمر الناس بالدخول فيها والتمسك بها وكان ذلك سنة ثلاثمئة وست من ميلاد المسيح فتنصّر الروم جميعاً .

وكان مقرّ ملك الروم مدينة رومة إلى أن بنى القسطنطينية فإن الملك قسطنطين المذكور هو الذي بناها ونقل كرسي السلطنة من رومة إلى القسطنطينية ، وكان ذلك سنة ثلاثمئة واثنتي عشرة من ميلاد المسيح عليه السلام ، وقيل إن هذا تاريخ بناء القسطنطينية ، وأما نقل كرسي السلطنة إليها فكان سنة ثلاثمئة وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السلام .

وأما مدينة رومة فأول من بناها ملك من ملوك الروم قبل غلبتهم لليونان اسمه روملس ، ويقال لها رومة ورومية ، وكان بناؤه إياها قبل ميلاد المسيح بسبعمئة وثلاث وخمسين سنة .

وأما بين كيفية غلبة اليونان للفرس وغلبة الروم لليونان والمحاربات الواقعة بينهم ، فلا حاجة إلى ذكر شيء منها لأن ذلك شيء طويل لا فائدة في ذكره .

ولما ملك الروم اليونان وغلبوا عليهم واستلبوهم ملكهم ، خضع للروم كثير من الملوك ودخل تحت طاعتهم كثير من الملوك الذين لا يستطيعون محاربتهم الروم كملوك الأفرنج الذين في أوروبة وكثير من ملوك إفريقية وآسية ، وصار ملك الروم ضخماً قوياً واسعاً ، واستمر ذلك إلى سنة أربعمئة وست وسبعين مسيحية ، وذلك قبل الهجرة بمئة وست وأربعين سنة ، فاستلب ملك إيطالية ملك رومة وانتزعها من ملك القسطنطينية وهو ملك الروم وفصلها عن ملكه وصارت من ممالك إيطالية ، لكنه لم يستقل بملكها بل نازعه في ذلك كثير من دول أوروبة ، ووقع بينه وبينهم محاربات وانتزاع ورجوع مرة بعد أخرى ، والكلام على ذلك طويل ، وما صار لملك إيطالية استقلال تام بالملك إلى سنة ألف وسبع وعشرين من ميلاد المسيح الموافق ذلك سنة أربعمئة وثمان عشرة هجرية ، فاستقلالهم بالملك تأخر إلى هذا الوقت وإن كانوا متقدمين بالنسبة إلى وجود أصل ملكهم فهو أقدم دول أوروبة بالنسبة لكونهم أول من أخرج رومة عن طاعة ملك الروم وإن كان تمام استقلالهم متأخراً .

وأما أول الاستقلال فهو سنة أربعمئة وست وسبعين مسيحية ، وذلك قبل الهجرة بمئة وست وأربعين سنة ، بل كان لهم ملوك أيضاً قبل ذلك ، لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الروم ، بل قال بعضهم : إن أول وفودهم إلى أرض إيطالية وسكناهم فيها كان قبل ميلاد المسيح بألف وسبعمئة سنة ، فهذا وجه قول من قال إنهم أقدم ملوك الأفرنج الذين في أوربة ، ومن حين وفودهم في ذلك الوقت كان لهم رئيس بمنزلة الملك . وأما دخولهم في دين النصارى فكان بعد ميلاد المسيح عليه السلام بخمسمئة سنة .

ثم لم يزل دين النصارى ينتشر عند الأفرنج سكان أوروبة إلى سنة خمسمئة وست وتسعين من ميلاد المسيح ، ثم زاد انتشاره حتى عم أكثرهم ، وتأخر عن الدخول فيه الروسية لأنهم إذْ دخلوا فيه سنة ثلاثمئة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم ، ولما كانت إيطالية أقدم تلك الطوائف كان تأسيس دينهم ومقر رؤساء الدين عندهم .

وقد كانت النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام مثلما كانوا عليه حين كان بين أظهرهم من الإقرار لله بالوحدانية وله بالرسالة مع الإقرار بأنه عبد الله ورسوله ، ثم بعد رفعه دخلت عليهم شُبَهٌ حصل بسببها الافتراق في دينهم فانقسموا ثلاث طوائف :

ملكانية ونسطورية ويعقوبية .

فالملكانية مصرحة بالتثليث كما قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣] فهؤلاء يقولون الآلهة ثلاثة المسيح وأمه والله ، ويقولون إن المسيح ناسوت كلي قديم أزلي من قديم أزلي ، ويقولون إن مريم ولدت إلهاً أزلياً ، ويطلقون لفظ الأبوة على الله تعالى ، وتنزَّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ويطلقون أيضاً لفظة النبوة على عيسى عليه السلام إطلاقاً حقيقياً .

وأما النسطورية فخالفوا الملكانية فلم يقولوا بالامتزاج ، بل قالوا : إن الكلمة أشرقت على جسد عيسى كإشراق الشمس على كوة أو على بلور .

وأما اليعقوبية فيقولون : انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح ، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧] .

وأما المسلمون فقالوا كما ذكر الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] فهذا هو المراد من الكلمة ومن الشبه التي دخلت على النصارى حتى قالوا بألوهية عيسى عليه السلام : أنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، وما عقلوا أن ذلك بأمر الله ، بل هو فعل الله وخلقه وإيجاده أجراه على يد عيسى عليه السلام ، وقد أقام الله عليهم الحجة في إبطال زعمهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥] .

فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة : ٧٥] برهان على افتقارهما إلى الطعام كافتقار جميع الحيوانات ، فكيف يكون إلهاً من يفتقر إلى الطعام ولا يكون قوامه إلا به ؟! .

وأيضاً أكل الطعام يستلزم البول والغائط ، فكيف يكون إلهاً من يحتاج إلى أن يبول ويتغوط ؟! .

فأكل الطعام كناية عن البول والغائط ، لكن لم يعبر بالبول والغائط لفحش الإتيان بلفظهما ، والقرآن العزيز ألفاظه في غاية النزاهة والعذوبة مع غاية الفصاحة والبلاغة .

ومن شبههم أيضاً : كون المسيح ولد بلا أب فنسبوه إلى الله تعالى ، وغاب عن عقولهم آدم عليه السلام فإنه أغرب من عيسى عليه السلام فإنه بلا أب ولا أم ، وقد أبطل الله لهم هذه الشبهة حيث قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] فخلق آدم بلا أب ولا أم أعجب من خلق عيسى من أم بلا أب .

وبعد دهور طويلة افترق النصارى فرقتين :

إحداهما : تسمى كاثوليكية .

والأخرى بروتستانية .

ومع ذاك فبينهم اختلاف كثير ، ويتشعب من اختلافهم مذاهب كثيرة ليس هذا محل تفصيلها .

والمذهب الكاثوليكي عند النصارى هو الأسقف العظيم ، والحبر الكبيس القسيس الفخيم ويسمونه البابا ، ومقره وسكناه رومة عند دولة إيطالية ، فله الرئاسة على كل متمسك بالمذهب المذكور ؛ بمعنى أن له النظر في إجراء الأحكام الدينية الباطنية ، فهو عندهم بمنزلة القطب عند المسلمين ، وكان له عندهم ملك سياسي في الأراضي التي تحت سلطته وأكثر إيطالية على المذهب الكاثوليكي ، وكانوا في سنة سبعمئة وست وعشرين من ميلاد المسيح الموافق مئة وثمانية من الهجرة ، جعلوا للبابا دولة جمهورية تكون تحت رئاسته ، فكان ذلك التاريخ مبدأ أمره ، ولم يزل يترقى في أمر البابا حتى صارت له سطوة الدين والدنيا ، فكانت لهم ممالك واسعة في الأرض وكانوا رؤساء في الدين والدنيا بحيث إنهم صار لهم حق كبير في تولية ملوك أوروبة وعزلهم حسب مشيئتهم ، فكانت لهم سطوة سائدة على كل ملوكهم ، وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد ، وأما هم فكان لهم ثلاث تيجان واحد فوق واحد دلالة على كمال السلطنة وعلوها .

وبلغ اعتبارهم عندهم أنهم عندما كانوا يركبون على الخيل يمسك لهم الركاب كثير من ملوكهم ، وكانوا إذا أمروا بمحاربة أمة لا يخالفهم أحد ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حي .

وكان البابا مرة ألزم إمبراطور ألمانية أن يقف حافياً ثلاثة أيام في فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب الغفران ، ورفس البابا مرة برجله تاج ملك جرمانيا حيث كان جاثياً أمامه يطلب الغفران .

قال بعض مؤرخي الأفرنج المتأخرين : إن جهالة تلك الأعصار طمست بصائر الشعوب حتى لم يروا خطأ في رؤساء الدين ، فكانوا يذعنون لكل أحكامهم ويخضعون لكل ما يستقر عليه رأيهم كأنه منزل من الله تعالى لا يشوبه عيب ، فلما بلغت شوكتهم إلى هذا الحد لم يبق في أوروبة مملكة إلا واضطربت من أفعالهم ، ولا ملك إلاّ تعكر من مطامعهم ، ولا كرسي إلا وارتجَّ من شوكتهم ، فنشأ من ذلك فتن كثيرة كان منها انحطاط أمر الباباوات شيئاً فشيئاً إلى سنة ألف وثمانمئة وإحدى وسبعين مسيحية الموافق ألفاً ومئتين وثمانياً وثمانين هجرية ، فسقط أمرهم بالكلية ودخل الإيطاليون إلى عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه ، وأبقوه على الكاثوليكية رئيساً فقط ومقره في الكنيسة الرومانية ، وليس له من الرئاسة غير ذلك ، واستمر الأمر كذلك إلى هذا الوقت .

وأما الأحكام بين الرعايا وما يتعلق بالسياسة وتدبير الملك ، فقد جعلوا لها قوانين ودونوها بعقولهم ، واتخذوا لكل نوع منها مجالس مخصوصة ، وهكذا سائر دول أوروبة مع أنه كان عندهم في الإنجيل وفي الكتب القديمة أحكام مدونة تتعلق بالعبادات والمعاملات والأنكحة ، فتركوا كثيراً منها وأسسوا تلك القوانين العقلية ورأوها أقوى في تثبيت ملكهم .

ثم إن الملكانية الذين تقدم أنهم يسمون كاثوليكية استمروا على المذهب الكاثوليكي إلى القرن التاسع ، فلما كثر المنكرون برئاسة البابا صاحب رومة ، وصاروا يسمون المنكرين لرئاسته بروتستان ، وصارت هذه التسمية عندهم مثل تسمية المبتدعين الخارجين عن مذهب أهل السُّنّة عند المسلمين ، فإن المسلمين أهل السنّة

يسمون المخالفين لهم بالمبتدعة ، فصار عندهم النصارى الملكانية لا يسمى كاثوليكياً إلا من اعترف برئاسة البابا ، ومن لم يعترف بها فهو بروتستان بمنزلة المبتدع عند المسلمين ، وكان هذا الإصلاح عندهم في القرن التاسع من قرون الهجرة النبوية ، فهذا هو الفرق الأعظم عندهم بين الفريقين .

ومع ذلك فالذين يسمونهم بروتستان كثيراً منهم لا يستأنفون من هذه التسمية ، لكن الأكثر منهم إذا قيل له أنت بروتستان يستأنف من ذلك ولا يرضى بهذا اللقب لأنه بمنزلة المبتدع ، ويقول أنا كاثوليكي وإن كان غير معترف برئاسة البابا .

ثم إن بين الفريقين أيضاً اختلافاً في مسائل كثيرة أعظمها : أن البروتستان لا يعترفون برئاسة البابا ، بل يقولون هو من جملة رؤساء الأساقفة ، ولا تنحصر رئاسة الأساقفة فيه ، بل هي فيه وفي أسقف القسطنطينية وأسقف إسكندرية ، لا مزية ولا رئاسة لأحد الثلاثة على الآخرين ، ولا يزيد قدر أحد الثلاثة عن الآخرين .

وأما الكاثوليكية الأصليون عندهم فهم المعترفون برئاسة البابا صاحب رومة على غيره .

ومن الاختلاف الواقع بينهم أن بعض البروتستان يخالف مذهب الملكانية الأصلي للفريقين في اعتقاد التثليث ، لأنهم نظروا في كتب أهل الإسلام وأدلتهم على وحدانية الله ، فاعترفوا بصحة تلك الأدلة واعترفوا بوحدانية الله تعالى ، لكنهم لم يعترفوا برسالة سيدنا محمد ﷺ واعترفوا برسالة عيسى المسيح عليه السلام ، وقالوا إنه عبد الله ورسوله ويوافقون النصارى في بقية ديانتهم ، فهذا موضع من مواضع المخالفة بينهم وبين الكاثوليكية .

لكن هذا الاعتقاد أعني اعتقاد الوحدانية لله تعالى لا يقول به كل البروتستان ، بل بعضهم ، والبعض الآخر من البروتستان يقولون بالتثليث مثل الكاثوليكية لكنهم سموهم بروتستان لعدم اعترافهم برئاسة البابا ، بل يقولون أصول الأساقفة أسقف رومة وأسقف القسطنطينية وأسقف الإسكندرية ، ثم إن جميع الفريقين لهم عبادات مشروعات مختلفة اختلافاً كثيراً لم يتفقوا كلهم على شيء منها إلا الدعاء فإنهم كلهم اعترفوا بمشروعيته .

وأما صلاتهم وصيامهم وباقي عبادتهم فهم مختلفون فيها اختلافاً كثيراً ، فمن ذلك أن الصوم يقول الكاثوليكية إنه فرض ، ويقول البروتستان إنه سُنّة وليس بفرض ، والصوم المذكور هو صوم أربعين يوماً في فصل الربيع الذي يكون قبل الصيف بحيث يكون آخر الأربعين موافقاً آخر الربيع ، هذا متفق عليه بينهم ، لكن الكاثوليكية الأكثر منهم وهم أهل الديانة القوية منهم يقولون إن الصوم هو إمساك عن تناول الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها في الأربعين يوماً .

وأما البروتستان وبعض الكاثوليكية الذين ضعفت ديانتهم فإنهم يجوزون في حالة الصيام تناول الطعام والشراب لكنهم يقولون لا يجوز تناول اللحم بجميع أنواعه ، وكذا ما تولّد من الحيوان كاللبن والسمن إلا الحوت فإنهم يُجَوّزون تناوله حالة الصيام ، ويتناولون أيضاً الخبز والحلوى وسائر الأطعمة غير اللحم ما عدا الحوت ، ويشربون الخمر والماء في حالة الصيام .

ومن الفروق بين الفريقين أن لكل منهم أولياء يعتقدون فيهم ويتوسلون بهم ، لكن بينهم اختلاف في بعض الأولياء ، فهذا البعض يعترف به أحد الفريقين دون الآخر وبالعكس ، فإذا كان الأولياء الذين يعتقدهم الكاثوليك لا يعتقدهم إنسان يقولون إنه بروتستان .

وهناك فرقة يسمونهم اللاتينية ، وفرقة يسمونهم أهل الديانة الروسية (أرثوذكس) ، وذلك بسبب عدم اعترافهم برئاسة البابا وإن كانوا موافقين الكاثوليك في جميع ما هم عليهِ من الديانات والاعتقادات ، ومع ذلك فكثير من اللاتينية وأهل الديانة الروسية يقولون : نحن كاثوليك ، افتخاراً بهذا اللقب فيقولون لهم كذبتم أنتم لاتينية أو من أهل الديانة الروسية حيث إنكم لم تعترفوا برئاسة البابا .

وهناك فروق كثيرة بين طوائفهم ومذاهب مختلفة يكفر فيها بعضهم بعضاً لا حاجة إلى ذكرها ، وإنما المدار عندهم في الفرق بين الكاثوليكية والبروتستان الاعتراف برئاسة البابا وعدم الاعتراف بها .

وقد عرفت أن الأصل الأصيل عندهم في تأسيس الديانات والأقدمية في الملك هي دولة إيطالية ، ومع ذلك فبعضٌ منهم ينكرون رئاسة البابا فيكونون عندهم بروتستان ،

لكن الأكثر منهم يعترفون بها فيقرون لهم بأنهم كاثوليك ، وبعضٌ من الفرنسيس والإنكليز وغيرهم خرجوا عن ملة النصارى بالكلية في الباطن وإن كانوا يعترفون بها في الظاهر ، وأما في الباطن فصاروا كالزنادقة عند المسلمين ، فهؤلاء لا يعترفون في الباطن بشيء من دياناتهم ، بل لا يعترفون بنبوة عيسى ولا غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل بعض منهم ينكرون الصانع ولا يعترفون ببعث ولا نشور ويقولون : ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر ، فهؤلاء دهرية لكنهم لا يتظاهرون بذلك ، بل يخفونه ويظهرون أنهم على ملة النصارى ، وفي هذا القدر كفاية ، فلنتمم الكلام على ذكر بقية دولهم وكيفية ابتداء كل دولة ومتى كان دخولهم في النصرانية .

(أما دولة الفرنسيس) فأصلهم أيضاً شعوب وقبائل مختلفة دخلت تلك البلاد في أوقات مختلفة واستوطنوا تلك الأرض التي هم فيها الآن ، وأخص تلك القبائل وأشهرها قوم يقال لهم أيضاً الأفرنك بالكاف ثم غيّرت بجيم فصارت الأفرنج ، وقيل أصله فرنك بالكاف فأبدلت الكاف سيناً فصار فرنسة .

وفي تاريخ ابن خلدون عند ذكره الفرنسيس قال : هذه الأمة المعروفة بالفرنجة تسميها العامة بالأفرنسيس نسبة إلى بلد من أمهات بلدانهم تسمى أفرنسية وينتهي نسب أكثرهم إلى يافث بن نوح عليه السلام ، ومع ذلك فقد اختلط بهم كثير من غير جنسهم وصاروا ملحقين بهم ، والغالب أنه إذا أطلق الأفرنج إنما ينصرف إليهم فيراد بهم الفرنسيس ، وقد يطلق اسم الأفرنج على غيرهم من تلك الطوائف الساكنين بأوروبة حتى صار هذا الإطلاق شائعاً في هذه الأزمان .

وابتدأ الملك في الفرنسيس من سنة أربعمئة وعشرين من ميلاد المسيح وذلك قبل الهجرة بمئتين واثنتين من السنين ، هذا ابتداء انتظام الملك فيهم واستقلالهم فيه ، وأما قبل ذلك فكان لهم ملوك لم ينتظم أمرهم ولم يكمل لهم الاستقلال ، بل كانوا تارة يكون لهم استقلال وتارة يكونون تحت طاعة غيرهم وقهره ، وأما إذا اعتبر ابتداؤهم الأصلي فإنه كان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون وكانوا تحت قهر ملوك اليونان ، ثم بعد ذهاب ملك اليونان صاروا تحت قهر ملوك الروم فلا يحسب لهم ملك مستقل في تلك الأزمان .

وكانت ديانتهم عبادة الأوثان التي على صور الكواكب ، وعبّر بعضهم عن ديانتهم قبل دخولهم في النصرانية بأنها تشبه أهل الهند عباد الأوثان ، ثم دخلوا في النصرانية سنة ست وتسعين وأربعمئة من ميلاد المسيح عليه السلام ، وكان أول من دخل منهم في النصرانية الملك كاويس ، وأكثرهم يدّعون أنهم على المذهب الكاثوليكي وكثير منهم على المذهب البروتستاني ، ومنهم من لا يتدين بدين النصارى ولا غيرهم وينكرون بعثة الأنبياء عليهم السلام ، بل منهم من ينكر الصانع ، ولكنهم يتسترون ويقولون إنهم على دين النصارى .

ومن ملوك الفرنسيس المشهورين بن كارلويس الكبير المسمى شارلمان كان ساعياً في ترقي أسباب العلوم العقلية والفنون الأدبية والصناعية التي يتسع بها ملكهم ، وشاع صيته وانتشر ذكره ومكث في الملك خمساً وأربعين سنة ، وكان معاصراً لهارون الرشيد ، وكان بينه وبينه مكاتبات ، وأهدى إليه الرشيد مرة شطرنجاً ثميناً وساعة فلكية من مخترعات بلاد المشرق ، وأهدى إليه أيضاً أنواعاً كثيرة من البزورات التي تزرع وليست في بلادهم الأفرنجية ، وأرسل له مفاتيح كنيسة في بيت المقدس ، وأمر الرشيد العمال الذين كانوا في بيت المقدس أن يعاملوا الزوار الذين يأتون من بلاد الفرنسيس للزيارة أحسن المعاملة ، ومات شارلمان المذكور سنة ثمانمئة وأربع عشرة مسيحية الموافق مئة وتسعاً وتسعين هجرية ، فيكون موته بعد وفاة الرشيد .

وأما عدد سكان أرضهم وعدد رعاياهم وعساكرهم وما هو عندهم من الأموال والسلاح وغير ذلك فلا حاجة بنا إلى ذكره ، وكذا ما كان يقع بينهم وبين بقية الدول الأفرنج من المحاربات وتغلّب بعضهم على بعض فلا حاجة بنا إلى ذكره .

نعم وقع بينهم وبين الإنكليز أمر غريب عجيب ؛ وهو أنهم تحاربوا ومكث الحرب بينهم واستدام نحو مئة وست عشرة سنة ، تارة تكون الغلبة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ، وكان ابتداء ذلك الحرب من سنة ألف وثلاثمئة وسبع وثلاثين مسيحيّة الموافق سبعمئة وثمانياً وثلاثين هجرية ، وانتهاؤه بالصلح بينهم سنة ألف وأربعمئة وثلاث وخمسين مسيحية الموافق سنة ثمانمئة وسبعٍ وخمسين هجرية ، وذلك مبسوط في تواريخهم ويسمونه حرب المئة سنة .

وكان استيلاء الفرنسيس على الجزائر بإفريقية سنة ألف ومئتين وست وأربعين ، وفي سنة ألف ومئتين وست وتسعين أدخلوا المحاكم التونسية في حمايتهم .

(وأما دولة الإنكليز) ويقال لها دولة إنكلترة أو بريطانية ، فكان أول ظهورهم قبل ميلاد المسيح بخمس وخمسين سنة ، وكان بينهم وبين الأفرنج دول أوروبة محاربات كثيرة ، ولم ينتظم الملك لهم ولم يتم الاستقلال إلا سنة ثمانمئة وسبع وعشرين مسيحية الموافق مئتين وثلاثاً وأربعين هجرية .

وكان أول دخولهم النصرانية سنة خمسمئة وست وتسعين ، وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة ، وهم أيضاً مثل الفرنسيس فيهم الكاثوليكية والبروتستان والدهرية ، وأما أصلهم الذي تنتهي إليه أنسابهم ، فهم مجتمعون من أصناف وفروع شتى ، وفيهم جماعة من الكليتيين ، وجماعة ينتهي نسبهم إلى يافث بن نوح عليه السلام ، ولهم جزيرتان منفصلتان إحداهما جزيرة بمملكة بريطانية ، والأخرى جزيرة إيرلندة ، ولذلك اشتهرت مملكتهم بمملكة بريطانية وإيرلندة .

وكانوا في أول أمرهم كالوحوش ويلبسون جلود الوحوش ، وكانت مساكنهم حقيرة يقيمونها تارة من الأعواد وأوراق الشجر وتارة من الطين ، وكان شغلهم صيد الحيوانات يتعيشون منها وحالهم يشبه أجلاف العرب ، وكانوا يسجدون للصخور والحجارة وينابيع الماء ، ثم لم يزل أمرهم يظهر ، ويقوى حتى صارت لهم دولة قوية ، وكان استيلاؤهم على الهند مبتدؤه سنة ألف وسبعمئة وسبع وخمسين مسيحية الموافق سنة ألف ومئة وثنتين وسبعين هجرية ، وتمام استيلائهم على الهند سنة ألف وثمانمئة وست عشرة مسيحية الموافق سنة ألف ومئتين وثمانٍ هجرية ، وكان تمام استيلائهم المذكور بعد حروب وعناء شديد ، وأما استيلاؤهم على جبل طارق الذي في المغرب فكان سنة ألف ومئة وست عشرة هجرية انتزعوه من الإسبانيول في السنة المذكورة ، وقد حاول الإسبانيول والفرنسيس انتزاعه بعد ذلك من الإنكليز مراراً عديدة فلم يتيسر لهم ذلك ، وكان الإسبانيول قبل أخذه منهم قد انتزعوه من المسلمين سنة ثمانمئةٍ وسبع وستين هجرية .

وهذا الجبل من أعظم الحصون في العالم ويعتبر مفتاحاً للبحر المتوسط وهو مقابل

للجزيرة الخضراء التي هي من بلاد الأندلس فاصل بينهما وبين إفريقية ، ويسمى جبل الفتح وجبل طارق ؛ وهو طارق بن زياد الذي فتح الأندلس سنة ثنتين وتسعين من الهجرة ، وطارق هذا هو مولى موسى بن نصير بضم النون وفتح الصاد مصغراً ، وموسى المذكور هو مولى عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك بن مروان ووالد عمر بن عبد العزيز ، فسُمّي الجبل باسم طارق المذكور لأنه نزل بالمسلمين عنده لما قصد فتح الأندلس ، ويسمّي جبلَ الفتح أيضاً للعلة المذكورة ، والعامة يسمونه جبل الطار ، وصوابه جبل طارق .

وأما دولة النمسة المسماة أيضاً أوستورية

فهم أيضاً من أصناف شتى وأكثرهم من التتار ، وابتداء دولتهم كان من سنة ثلاث وثلاثين من ميلاد المسيح ، وكان بعض دول أوروبة يدخلونهم تحت طاعتهم ويتغلبون عليهم ، وما حصل للنمسة استقلال الملك التام إلا من سنة تسعمئة واثنتين وثمانين مسيحية الموافق سنة مئتين وثمانٍ وأربعين هجرية ، ودخولهم في النصرانية في حدود السنين التي دخل فيها من تقدم ذكرهم ، ومثل ذلك يقال فيمن يأتي ذكرهم من الدول الروسية ، فإنه تأخر دخولهم في النصرانية إلى سنة ثلاثمئة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم .

وأما دولة البروسية

فهو قسم كبير من جرمانية ، ويقال لجرمانية أيضاً ألمانية وهم أمم كثيرة لهم ملوك شتى والبروسية طائفة منهم ، وابتداء دولتهم من سنة أربع وخمسين من ميلاد المسيح واستقلالهم التام بالملك من سنة ألف وثلاثمئة وخمس عشرة مسيحية الموافق سنة ثمانمئة وثمان عشرة هجرية ، ثم انضم إلى حمايتهم كثير من الدول الصغار من دول جرمانيا فقوي ملكهم واتسع .

وأما دولة الروسية المسماة بالموسكوف

فهم أيضاً مجتمعون من أجناس كثيرة ، ومنهم من ينتهي نسبه إلى يافث بن نوح عليه السلام ، وكانوا قبل استقلالهم في الملك تحت الرومانية قبل ميلاد المسيح ، ثم

لما تَقَوّى بعض دول أوربة تغلبوا عليهم فكانوا تحت طاعتهم ، وما كان لهم الاستقلال التام بالملك إلا من سنة ثمانمئة واثنتين وستين مسيحية الموافق سنة مئتين وثمانياً وأربعين هجرية ، وكانوا يعبدون الأوثان كغيرهم من دول أورربة ، ودخولهم في النصرانية سنة ثلاثمئة وخمس وسبعين كما تقدم .

وأما دولة إسبانية ويقال لهم أيضاً الإسبانيول

فهم أيضاً من أجناس مختلفة ، وكان لهم ملوك في القديم تابعون لدولة اليونان ثم لدولة الرومانيين بعد اليونان ، ثم تغلب عليهم بعض من هو أقوى منهم من ملوك أورربة ، ثم استولى المسلمون على أكثر ممالكهم لما فتح الأندلس ، فكان الأندلس تحت يد إسبانية إلى سنة اثنتين وتسعين هجرية ، فانتزعه المسلمون منهم وبقي لهم ملك ضعيف في آخر الأندلس ، ووقع بينهم وبين المسلمين حروب كثيرة ، ثم انتزعوا الأندلس من المسلمين شيئاً فشيئاً إلى أواخر التسعمئة من الهجرة ثم أخرجوا من بقي من المسلمين بالأندلس في سنة ألف وعشر واستقلوا بالملك ، وكانت ديانتهم عبادة الأوثان كغيرهم ممن تقدم ودخلوا في النصرانية في الزمن الذي دخل فيه من تقدم ذكرهم .

وأما دولة البرتغال

فكانت تابعة أيضاً للرومانيين ، وكانت ممالكهم في أواخر الأندلس ، فلما استولى المسلمون على الأندلس أضافوها إلى ما بيدهم من الأندلس ، ثم انتزعت من المسلمين سنة أربعمئة وتسع وثمانين هجرية ، واستولى عليها الإسبانيول ، ثم انتزعها البرتغال من الإسبانيول ، واستقلوا بالملك فيها سنة ألف وخمسين هجرية .

وأما دولة هولاندة ويقال لهم الفلمنك

فكانت تحت طاعة إسبانية ، وكان بين الدولتين حروب كثيرة استمرت نحو ثمانين سنة إلى أن استقلوا بالملك في حدود تسعمئة وسبع وثمانين من الهجرة ، وكان في السنين المذكورة استيلاؤهم على بلاد الجاوى ، وكان دخولهم في النصرانية في حدود السنين التي دخل فيها من تقدم ذكرهم .

وأما دولة الدنيمارك

فكانت تحت طاعة ملوك أوروبة إلى سنة ست وتسعين وثلاثمئة وألف مسيحية الموافق سبعمئة وتسعاً وتسعين هجرية ، فاستقلوا بالملك .

وأما دولة السويد والنورويج

فكانت أيضاً تحت ملوك أوروبة ، ثم ساروا تحت طاعة الدنيمارك ، ثم استقلوا بالملك سنة ألف وخمسمئة وثلاث وعشرين مسيحية الموافق تسعمئة وثلاثين هجرية .

وأما دولة البلجيك

فهي من ممالك جرمانية ، وما صار استقلالها إلا من سنة ألف وثمانمئة وثلاثين مسيحية الموافق سنة ألف ومئتين وأربعين هجرية .

وأما دولة السويسرة

فكانت أيضاً يتداول التملك عليها ملوك أوروبة ، واستقلت بالملك سنة ألف وستمئة وثمان وأربعين مسيحية الموافق سنة ألف وثمانٍ وخمسين هجرية .

وأما دولة باوارية

فمملكتهم تجمع ملوكاً كثيرة كل واحد منهم له مملكة صغيرة ، وكانت تلك الممالك وملوكها تحت طاعة من قوي من ملوك أوروبة ، ثم صارت ممالك باوارية مستقلة سنة خمسمئة وثلاثين مسيحية الموافق لما قبل الهجرة باثنين وتسعين سنة ، ثم صارت هذه الممالك في هذه السنين تابعة لملك البروسية .

فائدتان

الأولى : تتفرع مسألة فقهية على معرفة تاريخ دخول هذه الطوائف في دين النصرانية وهي أنه : إن كان دخولهم فيه قبل نسخه فإنهم يلحقون بأهل الكتاب في حل أكل ذبيحتهم وفي حل تزوج المسلمين نساءهم ، وإنْ كان دخولهم فيه بعد نسخه فلا

يلحقون بأهل الكتاب ، فيما ذكر ، ونَسْخُ دينهم إنما كان ببعثة نبينا محمد ﷺ ، قال الإمام الرازي في تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : ٥] ما نصه : قال الكثير : إنما يحل نكاح الكتابية التي دانت بالتوراة والإنجيل قبل نزول القرآن ، قالوا والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : ٥] فقوله من قبلكم يدل على أنّ من دان بالكتاب بعد نزول القرآن خرج عن حكم أهل الكتاب اهـ .

وذكر الخطيب الشربيني في تفسيره مثل ذلك في حِلّ أكل ذبائحهم ، وهذا الذي ذكره كل منهما هو مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وأما أهل المذاهب الثلاثة فلم يقولوا بهذا التفصيل ، بل أطلقوا القول بِحِلِّ أكل ذبائح أهل الكتاب وحِلّ التزويج من نسائهم ، ولو دخلوا في دين أهل الكتاب بعد نَسْخِه .

الفائدة الثانية

كانت دول الفرنج قبل ظهور الإسلام في غاية التوحش وعدم المعرفة بالحرب والصنائع وأنواع السياسات وتدبر الحروب وأنواع العلوم العقلية ، وما وُجِد ذلك فيهم وما انتشر إلا بعد ظهور الإسلام ومخالطتهم للمسلمين ، فتعلموا ذلك منهم ، فحصل لهم التمدن والحضارة .

قال بعض مؤرخيهم عند ذكر الحروب التي كانت بينهم وبين المسلمين في القرن السادس أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي المسماة بحرب الصليب ما نصه : إن تلك الحروب وإن هلك فيها كثير من النفوس وذهب فيها كثير من الأموال من غير حصول على المقصود ، لكنه أعقب نتائج نافعة لهم ، منها أنهم من ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم المسلمين صناعة التجارة والزراعة وكثيراً من العلوم العقلية والفلكية ، وألفوا التواريخ النافعة ، وتوسعوا في معرفة علم الفلك وألفوا فيه ، وتخلقوا بأخلاق الحضر ، وتعودوا الأسفار براً وبحراً لاستكشاف أحوال الأقطار ، واكتشفوا أمريكة في أسفارهم سنة ثمانمئة وتسعين هجرية ، ولم تكن قبل ذلك معلومة لأحد قط ، واكتسبوا من المسلمين أنواع الفروسية واللعب بالخيل والرماح ، وتعاطوا المعاني الغريبة في كلامهم وأشعارهم ولا سيما من كانوا منهم مُخالطين للمسلمين

بالأندلس ، وتعلموا أيضاً المشورة في الأحكام ، وعلموا أن الملك يفسد بالاستبداد وعدم المشورة ، فدونوا لهم أحكاماً وقوانين يرجعون إليها ، واستكثروا من جمع كتب الإسلام وترجمتها بلسانهم ليعلموا معانيها فأَخَذُوا منها ما يكون به صلاح الملك ، واتخذوا مدارس لتعليم أنواع الفنون وعرفوا أن الملك لا ينتظم إلا بذلك كله .

ومن مقالات بعض مؤرخيهم لا تصلح السكنى ببلد حتى تكون الشريعة فيها أقوى من السلطان ، ومراده بالشريعة ما أسسوه من القواعد العقلية لأحكامهم وسياسة ملكهم .

وإذا كان هذا في تلك الأحكام العقلية فكيف إذا رجع المسلمون إلى شريعتهم المطهرة المؤسسة بالوحي من الله تعالى ، وتمسكوا بها حتى يكون حكم السلطان تابعاً لحكمها ؟! فلا شك أنها تكون أقوى من السلطان .

وقال بعض مؤرخيهم أيضاً : ما بلغت أمة من الأمم غاية الاستقامة إلا باحترام قوانين أحكامها المؤسسة على العدل ، كما أن عدم احترامها يكون منشأ الرجوع إلى القهقرى ، ولا يتوهم أن ذلك لبركة في قوانينهم العقلية ، وإنما ذلك بسبب ابتنائها على التجاوب العادي ومراعاة الوازع الدنيوي .

وأما الشريعة المطهرة فهي أقوى من ذلك كله ، لأنها مبنية على الوحي الإلهي الذي يحصل من اتباعه كمال البركة ، وإذا كانت مخالفة قوانينهم يرونها موجبة للانحطاط ، فلا شك أن مخالفة الشريعة المطهرة يحصل منها كمال الانحطاط مع ما يعقب ذلك من العذاب في الدار الآخرة .

وقال بعض مؤرخيهم : وبالجملة فالسبب المذكور ، وهو مخالفة الأوروباويين للأمة الإسلامية المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة ، كان ابتداء التمدن عند الأوروباويين .

تتميم

ذكر كثير من المفسرين للقرآن العزيز وكثير من المؤرخين أن الذين ملكوا الدنيا مشرقها إلى مغربها ثلاثة : مسلمان وكافر .

أما المسلمان فهما سليمان بن داود عليهما السلام وذو القرنين ، وأما الكافر فهو النمروذ الذي كان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وزاد بعضهم رابعاً كافراً وهو بُخْتَنَصَّر ، فيكونون أربعة مسلمين وكافرين .

لكن قال ابن الأثير في (الكامل) : إن بُخْتَنَصّر لم يملك الدنيا كلها ، وإنما كان له ملك واسع وهو الذي خرب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل وأسر سبعين ألفاً منهم ؛ لأن الله سلطه عليهم لما كثرت فيهم المعاصي والمخالفات ، وبختنصّر هذا كان مجوسياً من مجوس بابل ، ولم يُعرف له أب ، وكان عاملاً على العراق لملك الفرس ، وكان بين ابتداء ملكه وتخريبه بيت المقدس تسعة عشر سنة ، وبين الهجرة وتخريبه بيت المقدس ألف وثلاثمئة وتسع وتسعون سنة ، وبقي خراباً سبعين سنة ثم عمر ، وتراجعت إليه بنو إسرائيل والذي عمره بعض ملوك الفرس بوحي من الله تعالى إلى النبي أرمياء عليه السلام ، فأخبر ذلك النبي ملك الفرس فامتثل أمره وعمره ، ثم خرب مرة ثانية بعد رفع عيسى عليه السلام بأربعين سنة ، وذلك قبل الهجرة بخمسمئة ونيف وخمسين سنة ، وكان ذلك التخريب لما قتل اليهود يحيى بن زكريا عليه السلام ، فسلط الله عليهم الفرس والروم فقتلوهم وسبوهم ونفوهم من ديارهم وخربوا بيت المقدس .

وقد ذكر الله تعالى هذين التخريبين في القرآن العزيز في سورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[الإسراء : ٤ ، ٥] الآية .

وذكر المرة الثانية في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ [الإسراء : ٧] أي بعثناهم وسَلَّطْناهم ليسوؤوا وجوهكم ، وبقي خراباً إلى أن عمره ملك من ملوك الروم بعد تنصّرهم ، وبنى كنيسة قمامة على القبر الذي تزعم النصارى أن عيسى دفن فيه ، وخربوا هيكل بيت المقدس إلى الأرض وأمروا أن يُلْقى في موضعه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة الشريفة مزبلة ، وبقي على ذلك إلى أن قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام سنة ست عشرة من الهجرة وفتح بيت المقدس فأزال ذلك وأرجع موضع الصخرة كما كان ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات الإسلامية فنقول : وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة خلع الطائع لله ، وبويع القادر بالله ، أحمد بن إسحاق بن المقتدر .

وفي سنة اثنتين وثمانين نزل ملك الروم بأرمينية ، وحصر خلاط ومَنازكرد وأرجيش فضعفت نفوس الناس عنه ، ثم هادنه أبو علي الحسن بن مروان الكردي مدة عشر سنين ، فعاد ملك الروم إلى بلاده .

وفي هذه السنة سار بغراخان إيلك ملك الترك بعساكره إلى بخارى ، فسيّر إليه الأمير نوح بن منصور الساماني جيشاً كثيراً ، ولقيهم إيلك فهزمهم ، فعادوا إلى بخارى وهو في إثرهم ، فخرج الأمير نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه فاقتتلوا قتالاً شديداً أجلت المعركة عن هزيمة إيلك ، فعاد منهزماً إلى بلاده .

وفي سنة ثلاث وثمانين جمع ملك الترك جيوشاً كثيرة ، وسار إلى بخارى فملكها بسبب اختلاف وقع بين المسلمين مع بعضهم .

وفي سنة سبع وثمانين توفي سبكتكين صاحب غزنة ووقع اختلاف بين ولديه إسماعيل ومحمود ، وتَمَّ الملك لمحمود ، فاستولى على خراسان وغيرها وصار ملكاً ضخماً ، وجاءه التقليد من الخليفة القادر بالله ولقب يمين الدولة .

ذكر غزوة يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة

في سنة اثنتين وتسعين تجهز بجيوش كثيرة لغزو الهند وقصد برشور ، فأتاه عدو الله جيبال ملك الهند في عساكر كثيرة ، فاختار يمين الدولة من عساكره خمسة عشر ألفاً ، وسار نحوه فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان ، فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأُسر ملك الهند ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته ، وغنم المسلمون منهم أموالاً جليلة ، وجواهر نفيسة ومن جملة ذلك قلادة كانت في عنق ملكهم من الجواهر عديمة النظير قومت بمئتي ألف دينار وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي الأسرى ، وغنموا خمسمئة ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلاداً كثيرة .

فلما فرغ من غزوته أحب أن يطلق ملك الهند الذي أسره ليراه الهنود في شعار الذل فأطلقه بما قرره عليهم فأدى المال ، ومن عادات الهنود أنهم من حصل منهم في أيدي

المسلمين أسيراً لم ينعقد له بعدها رئاسة ، فلما رأى ملك الهند حاله بعد خلاصه حلق رأسه ثم ألقى نفسه في النار فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة .

ذكر غزوة أخرى في الهند أيضاً

لما فرغ يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين من أمر جيبال رأى أن يغزو غزوة أخرى ، فسار نحو وَيْهَنْد فأقام عليها محاصراً لها حتى فتحها وقهرها ، وبلغه أن جماعة من الهنود قد اجتمعوا بشعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعناد ، فسيَّر إليهم جيشاً من عسكره فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فيهم ، ولم ينج منهم إلا الشريد الفريد ، وعاد إلى غزنة سالماً ظافراً .

ذكر غزوة بِهَاطِيَةَ من بلاد الهند

في سنة خمس وتسعين وثلاثمئة غزا يمين الدولة بهاطية ، من بلاد الهند وهي مدينة حصينة عالية السور يحيط بها خندق عميق فامتنع صاحبها ، ثم إنه خرج إلى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ، ثم انهزم في الرابع وطلب المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقه المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم ، وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم فقتل المقاتلة وسبيت الذرية وأخذت الأموال .

وأما الملك فإنه لما عاين الهلاك أخذ جماعة من ثقاته وسار إلى رؤوس تلك الجبال ، فسيّر إليه يمين الدولة سرية فلم يشعر الملك إلاّ وقد أحاطوا به وحكموا السيوف في أصحابه ، فلما أيقن بالعطب أخذ خنجراً فقتل نفسه ، وأقام يمين الدولة بهاطية وأصلح أمرها ورتب قواعدها ، وعاد منها إلى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعليمه ، ولقي في عَوْدِهِ شدة شديدة من الأمطار وكثرتها وزيادة الأنهار ، فغرق مما معه ومِنْ عسكره شيء عظيم .

ذكر غزوة الملتان

في سنة ست وتسعين وثلاثمئة غزا السلطان يمين الدولة الملتان ، وكان سبب ذلك أن وليها كان قد أسلم ، ثم نقل عنه خبث الاعتقاد ونسب إلى الإلحاد ودَعا أهل ولايته

إلى ما هو عليه ، فأجابوه ، فرأى يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد ، وخاصة سيحون فإنه منع جانبه من العبور فأرسل إلى أندبال يطلب إليه أن يأذن له في العبور من بلاده إلى الملتان فلم يجبه إلى ذلك ، فابتدأ به قبل الملتان فدخل بلاده وجاسها وأكثر القتل فيها والنهب لأموال أهلها والإحراق لأبنيتها ، ففر أندبال من بين يديه وهو في أثره كالشهاب في أثر الشيطان من مضيق إلى مضيق إلى أن وصل قشمير ، ولما سمع ملك الملتان بخبر إقباله علم عجزه عن الوقوف بين يديه والعصيان عليه فنقل أمواله إلى سرنديب وأخلى الملتان ، فوصل يمين الدولة إليها ونازلها ، فإذا أهلها في ضلالهم يعمهون ، فحصرهم وضيق عليهم ، وتابع القتال حتى افتتحها عنوة ، وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم .

ذكر غزوة كواكير

ثم سار عن الملتان إلى كواكير ، وكان بها ستمئة صنم فافتتحها وأحرق الأصنام ، فهرب صاحبها إلى قلعة له ، فسار خلفه إليها وهي حصن كبير يسع خمسمئة ألف إنسان وفيه خمسمئة فيل وعشرون ألف دابة ، وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة ، فلما قام بها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق ما لأحد طاقة عليه فأمر بقطعها ، ورأى في الطريق وادياً عظيم العمق بعيد القعر ، فأمر أن يعلم منه مقدار ما يسع عشرين فارساً فطموه بالجلود المملوءة تراباً ، ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوماً وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه ، ثم بلغه اختلاف في خراسان فأراد الرجوع ، فصالح ملك الهند على خمسمئة فيل وثلاثة آلاف فضة ، ولبس خلعة يمين الدولة بعد أن استعفى من شد المنطقة وقطع أصبعه الخنصر وأنفذها إلى يمين الدولة توثقة فيما يعتقدونه ، وعاد يمين الدولة إلى خراسان لإصلاح ما اختلف فيها ، وكان عازماً على الدخول في بلاد الهند .

ذكر غزوة إلى الهند

في سنة سبع وتسعين وثلاثمئة سار يمين الدولة نحو الهند ، وسبب ذلك أن بعض أولاد ملوك الهند كان قد أسلم على يديه واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم ،

فلما كان الآن بلغه أنه ارتد عن الإسلام ومال لأهل الكفر والطغيان ، فسار إليه مجدّاً ، فحين قاربه فَرَّ الهندي من بين يديه ، واستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها إلى حكم الإسلام ، واستخلف عليها بعض أصحابه وعاد إلى غزنة .

ذكر غزوة بهيم نغر

في سنة ثمان وتسعين غزا يمين الدولة وانتهى إلى شاطىء نهر هندمند ، فلاقاه هناك أبرهمن بال بن أندبال في جيوش الهند فاقتتلوا مَليّاً من النهار ، وكادت الهند تظفر بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى نصرهم عليهم فظفر بهم المسلمون فانهزموا على أعقابهم وأخذهم المسلمون بالسيف ، وتبع يمين الدولة أثر أبرهمن بال حتى بلغ بهيم نغر وهي على جبل عال ، وكان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم فينقلون إليها أنواع الذخائر قرناً بعد قرن وأعلاق الجواهر وهم يعتقدون ذلك ديناً وعبادة ، فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يسمع بمثله ، فنازلهم يمين الدولة وحاصرهم وقتلهم .

فلما رأى الهنود كثرة جمعه وحرصهم على القتال وزحفهم إليه مرة بعد أخرى ، خافوا وجبنوا وطلبوا الأمان وفتحوا باب الحصن ، ومَلَك المسلمون القلعة ، وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته ، فأخذ منها من الجواهر مالا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ، ومن الأواني الذهبيات والفضيات سبعمئة ألف وأربعمئة مَنٍ ، وكان فيها بيت مملوء من الفضة طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً إلى غير ذلك من الأمتعة ، وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم ففرش تلك الجواهر في صحن داره ، وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك فأدخلهم إليه فرأوا ما لم يسمعوا بمثله .

ذكر غزوة بالهند

في سنة أربعمئة تجهز يمين الدولة إلى الهند عازماً على غزو نارين ، فسار إليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها ، فلما رأى ملك الهند أنه لا قوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه وخمسين فيلاً ، وأن يكون في خدمته أَلْفَا فارس لا يزادون ، فقبض منه ما بذله وعاد عنه إلى غزنة .

ذكر غزوة يمين الدولة بلاد الغور وغيرها

في سنة إحدى وأربعمئة غزا يمين الدولة بلاد الغور ، وهي بلاد تجاور غزنة ، وكان الغور كفاراً يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غلقة ، وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها ، فلما كثر ذلك منهم ، أنف يمين الدولة أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر ، فجمع العساكر وسار إليهم حتى انتهى مقدمة جيشه إلى مضيق قد شحن بالمقاتلة ، فتَناوشوا الحرب وصبر الفريقان ، فسمع يمين الدولة الحال فجدّ في السير إليهم وملك عليهم مسالكهم ، فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغور ، فبرز من مدينته في عشرة آلاف مقاتل ، فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار فرأوهم أشجع الناس وأقواهم على القتال ، فأمر يمين الدولة عساكره أن يولّوا الأدبار على سبيل الخديعة والاستدراج ففعلوا ، فلما رأى الغور ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوه حتى أبعدوا عن مدينتهم ، فعطف المسلمون إليهم ووضعوا السيف فيهم فأبادوهم قتلاً وأسراً ، وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم .

ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا ما فيها ، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعاً ، فلما رأى كبيرهم ما فعل المسلمون شرب سماً كان معه فمات وخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار المسلمين وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه وعاد .

ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار فقطع مفازة من رمل ، ولحق عساكرَه عطشٌ شديد كادوا يهلكون منه فلطف الله سبحانه وتعالى بهم وأرسل عليهم مطراً سقاهم وسهل عليهم السير في الرمل ، فوصل إلى الكفار وهم جمع عظيم ومعهم ستمئة فيل فقاتلهم أشد قتال صبر فيه بعضهم لبعض ، ثم إن الله نصر المسلمين وهزم الكفار وأخذ غنائمهم وأكثر القتال فيهم وعاد سالماً مظفراً منصوراً .

ذكر فتح يمين الدولة ناردين

في سنة أربع وأربعمئة سار يمين الدولة إلى الهند في جمع عظيم وحشد كثير وقصد واسطة البلاد من الهند ، فجمع من عنده من قواده وأصحابه وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسالك فاحتمى به وطاول المسلمين ، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية ، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً ، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل وتصافَّ هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الأمر ، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم وغنموا ما معهم من مال وفيل وسلاح وغير ذلك ، فلما فرغ من غزوته أرسل إلى الخليفة القادر بالله يخبره ، فكتب له منشوراً وعهداً بخراسان وما بيده من الممالك ولقبه نظام الدين .

ذكر غزوة تانيشر

في سنة خمس وأربعمئة ذكر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب ، وأن صاحبها غالٍ في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين ، فعزم على غزوه في عقر داره وأن يذيقه شربة من كأس قتاله ، فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة ، فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف بعيدة الأكناف والماء بها قليل ، فلقوا شدة وقاسوا مشقة إلى أن قطعوها ، فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهراً شديد الجرية صعب المخاضة ، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يُدِلُّ بها ؛ أي يتعزّز بها ، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الكفار بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور ، ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار ، فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة ، وعادوا إلى غزنة موفرين ظافرين .

ذكر غزوة إلى الهند

في سنة ست وأربعمئة غزا يمين الدولة الهند على عادته ، فَضَلَّ أَدِلاَّؤه الطريق ، ووقع هو وعسكره في مياه فاضت من البحر فغرق كثير ممن معه ، وخاض الماء بنفسه أياماً حتى تخلّص وعاد إلى خراسان .

ذكر غزوة قشمير وقنُّوج وغيرها

في سنة سبع وأربعمئة سار يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين من غزنة إلى الهند عازماً على غزو قشمير إذ كان قد استولى على ما بينه وبين قشمير من بلاد الهند ، وأتاه المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل مما وراء النهر وغيره من البلاد ، وسار إليها ثلاثة أشهر سيراً دائماً وعبر نهر سيحون وجيلوم وهما نهران عميقان شديدا الجرية ، فوطىء أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الإتاوة ، فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه إلى مقصده ، فبلغ ماجون في العشرين من رجب وفتح ما حولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب وهو آخر ملوك الهند ، فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ، ما هاله وأرعبه وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلباً للخلاص فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى قلعة كلجند وهو من أعيان الهند وشياطينهم ، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة ، فسيّر كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها ، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقاً مختصرة إلى الحصن ، فلم يشعروا إلا وهم معهم ، فقاتلهم قتالاً شديداً فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا وأخذهم من خلفهم ، ولقوا نهراً عميقاً بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم ، وكان القتلى والغرقى قريباً من خمسين ألفاً ، وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ، ثم قتل نفسه بعدها ، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه .

ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو من مهرة الهند وهو من أحصن الأبنية على نهر ، ولهم به من الأصنام كثير ، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر وكان

فيها من الذهب ستمئة ألف وتسعون ألفاً وثلاثمئة مثقال ، وكان بها من الأصنام المَصُوغة من النقرة نحو مئتي صنم ، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي .

وسار نحو قنوج وصاحبها راجيال ، فوصل إليها في شعبان ، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كنك وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة وأن من غرق نفسه فيه طهر من الآثام ، فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها وهي سبع على الماء المذكور وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون أنها عملت من مئة ألف سنة إلى ثلاثمئة ألف كذباً منهم وزوراً ، ولما فتحها أباحها عسكره .

ثم سار إلى قلعة البراهمة فقاتلوه وثبتوا ، فلما عضهم السلاح علموا أنهم لا طاقة لهم فاستسلموا للسيف فقتلوا ولم ينج منهم إلا الشريد .

ثم سار نحو قلعة آسي وصاحبها جندبال وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه .

ثم سار إلى قلعة شروة وصاحبها جندرآي ، فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمي بها وعَمِي خبره فلم يُدْرَ أين هو ، فنازل يمين الدولة حصنه فافتتحه وغنم ما فيه ، وسار في طلب جدرآي جريدة وقد بلغه خبره ، فلحق به في آخر شعبان فقاتله ، فقتل أكثر جند جندرآي وأسر كثيراً منهم ، وغنم ما معه من مال وفيول ، وهرب جندرآي في نفر من أصحابه فنجا ، وكان السبي في هذه الغزوة كثيراً حتى إن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم .

ثم عاد إلى غزنة ظافراً ، ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبني بناء لم يسمع بمثله ، ووسع فيه وكان جامعها القديم صغيراً وأنفق ما غنمه في هذه الغزوة في بنائه .

وفي هذه السنة تفرقت ممالك الأندلس وصار عامل كل قطر منه متغلباً على ما بيده لضعف ملوك بني أمية ، وكثرت الفتن بينهم وبين العلويين بني إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى .

ذكر خروج الترك من الصين

في سنة ثمان وأربعمئة خرج الترك من الصين في عدد كثير يزيدون على ثلاثمئة ألف ، وكانوا أجناساً منهم الخطابية الذين ملكوا ما وراء النهر ، وكان خروجهم للاستيلاء على ممالك الإسلام وكان أقرب بلاد الإسلام إليهم بلاساغون ، وكان ملكها من صالحي ملوك الإسلام يحب العلم وأهله ويميل إلى أهل الدين ويصلهم ويقربهم واسمه طغان خان ، وكان قد ملك أيضاً تركستان ومرض مرضاً شديداً وطال به المرض فطمعوا في البلاد لذلك ، فساروا إليه وملكوا بعض ممالكه وغنموا وسبوا وبقي بينهم وبين بلاساغون ثمانية أيام ، فلما بلغه الخبر وكان مريضاً بها سأل الله أن يعافيه فينتقم من الكفرة ويحمي البلاد منهم ثم يفعل به بعد ذلك ما أراد ، فاستجاب الله له وشفاه ، فجمع العساكر وكتب إلى سائر بلاد الإسلام يستنفر ، فاجتمع إليه الناس من المتطوعة مئة ألف وعشرون ألفاً ، فلما بلغ الترك خبر عافيته وجمعه العساكر وكثرة من معه عادوا إلى بلادهم ، فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة عن مئتي ألف رجل وأسر نحو مئة ألف وغنم من الدواب والخركاهات وغير ذلك من الأواني الذهبية والفضية ومعمول الصين مالا عهد لأحد بمثله وعاد إلى بلاساغون ، فلما بلغها عاوده مرضه فمات منه .

وما أشبه قصته بقصة سعد بن معاذ الأنصاري في غزوة الخندق فإنه دعا الله لما جرح في أكحله أن يبقيه حتى يأخذ ثأره من بني قريظة ، فاستجاب الله دعاءه ، ثم بعد الانتقام منهم وقتلهم انفجر جرحه ومات رضي الله عنه ، ولما مات طغان خان ملك بعده أخوه رسالان خان ولقب شرف الدولة .

ذكر غزوة يمين الدولة إلى الهند والأفغانية

في سنة تسع وأربعمئة سار يمين الدولة إلى الهند غازياً واحتشد وجمع واستعدّ وأعدّ أكثر مما تقدم وقَصَدَ بيدا اللعين وكان أعظم ملوك الهند مملكة وأكثرهم جيشاً ، وتسمى مملكته كجوراهة ، وسار يمين الدولة عن غزنة وابتدأ في طريقه بالأفغانية وهم كفار

ذكر فتح قلعة من الهند

في سنة أربع عشرة وأربعمئة غزا يمين الدولة الهند وأوغل فيها فغنم وقتل حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع ليس له مصعد إلا من موضع واحد وهي كبيرة تسع خلقاً وبها خمسمئة فيل ، وفي رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع ما يحتاج الناس إليه ، فحصرهم يمين الدولة وأدام الحصار وضيق عليهم ، واستمر القتال فقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ما حَلَّ بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان فأمّنهم وأقر ملكهم فيها على خَراج يأخذه منهم ، وأُهْدي له هدايا كثيرة منها طائر على هيئة القُمْريّ ، من خاصيته أنه إذا أحضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منها ماء وتحجر ، فإذا حك وجعل على الجراحات ألواسعة ألحمها .

ذكر فتح سُومَنَات

في سنة ست عشرة وأربعمئة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن وأخذ الصنم المعروف بسومَنَات ، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند وهم يحجون إليه كل ليلة خسوف فيجتمعون عنده ما ينيف عن مئة إنسان ، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء ، وكانوا يحملون إليه كلَّ عِلْق نفيس ويعطون سَدَنَتَه كلَّ مال جزيل ، وله من الأوقاف ما يزيد على عشرة آلاف قرية ، وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا تحصى قيمته ، ولأهل الهند نهر كبير يسمى كنك يعظمونه غاية التعظيم ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم ، وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مئتي فرسخ ، وكان يحمل من مائه كل يوم إلى سومنات ما يغسل به ، ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه وثلاثمئة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم وثلاثمئة رجل وخمسمئة أَمَة يغنون ويرقصون على باب الصنم ، ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم .

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً وكسر صنماً يقول الهنود إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء ، فلما بلغ ذلك

يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم دخلوا في الإسلام ، فاستخار الله تعالى وسار عن غزنة عاشر شعبان في هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة ، وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان ، وفي طريقه إلى الهند برية قفر لا ساكن فيها ولا ماء ولا مِيرة ، فتجهز هو وعسكره على قدرها ، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد أَنْهَلْوَارَة ، فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصوناً مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها ، فيسّر الله له ففتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم ، وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أَوْثانَها وامتاروا منها بالماء وما يحتاجون إليه ، وسار إلى أَنْهَلْوَارَة فوصلها مُسْتَهَلَّ ذي القعدة ، فرأى صاحبها المدعو بهيم قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب وقصد حصناً له يحتمي به ، فاستولى يمين الدولة على المدينة ، وسار إلى سومنات فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان شبه الحجاب النقباء لسومنات على ما سَوَّل لهم الشيطان ، فقاتل من بها وفتحها وخَرَّبها وكسر أصنامها ، وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء ، فلقي عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك ، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا دبولوارة وهي على مرحلتين من سومنات ، وقد ثبت أهلها ظناً منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم ، فاستولى عليها وقتل من رجالها وغنم أموالها وسار عنها إلى سومنات ، فوصل يوم الخميس منتصف ذي القعدة ، فرأى حصناً حصيناً مبنياً على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه ، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم ، فلما كان الغد وهو يوم الجمعة زحف وقاتل من به ، فرأى الهنود من المسلمين قتالاً لم يعهدوا مثله ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم وصعدوا إليه وأعلنوا بكلمة الإخلاص وأظهروا شعار الإسلام ، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفّروا له خدودهم ، وسألوه النصر وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض ، فلما كان الغد بكّر المسلمون إليهم وقاتلوهم فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومَنات فقاتلوا على بابه أشد قتال ، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومَنَات فيتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه

ويخرجون ، فيقاتلون إلى أن يقتلوا ، حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما فأدركهم المسلمون ، فقتلوا بعضاً وغَرَّقوا بعضاً .

وأما البيت الذي فيه سومَنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفّح بالرصاص ، وسومَنات من حجر طوله خمسة أذرع ؛ ثلاثة مدورة ظاهرة ، وذراعان في البناء وليس بصورة مصورة ، فأخذه يمين الدولة فكسره ، وأحرق بعضه وأخذ بعضه إلى غزنة فجعله عَتَبَة الجامع ، وكان بيت الصنم مظلماً وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق ، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مِئتا مَنٍ ، كلما مضى طائفة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم ، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم ، وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار ، فأخذ الجميع ، وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل .

ثم إن يمين الدولة ورد عليه الخبر أن بهيم صاحب أنهلوارة قد قصد قلعة تسمى كندهة في البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخاً ، فسار إليها يمين الدولة من سومنات ، فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين ، فسألهما عن خوض البحر هناك ، فعرَّفاه أنه يمكن خوضه لكن إن تحرك الهواء يسيراً غرق من فيه ، فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن معه فخرجوا سالمين فرأوا بهيم وقد فارق قلعته وأخلاها ، فعاد عنها وقصد المنصورة وكان صاحبها قد أسلم ثم ارتد عن الإسلام ، فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة فارقها واحتمى بغياض أشبة فقصده يمين الدولة من موضعين ، فأحاط به وبمن معه فقتلوا أكثرهم وغرق منهم كثير ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ثم سار إلى بِهَاطِيَة فأطاعه أهلها ودنوا له فرحل إلى غَزْنة ، فوصلها عاشر صفر من سنة سبع عشرة وأربعمئة .

ذكر غرق الأسطول بجزيرة صقلية

في سنة ست عشرة وأربعمئة خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قِلَّوْرِيَة وهي مجاورة لجزيرة صقلية ، وشرعوا في بناء

المساكن ينتظرون وصول مركبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك ، فبلغ ذلك المعز بن باديس عامل إفريقية للعبيديين ، فجهز أسطولاً كبيراً أربعمئة قطعة وحشد فيها وجمع خلقاً كثيراً وتطوع جمع كثير بالجهاد رغبة في الأجر ، فسار الأسطول في كانون الثاني فلما قرب من جزيرة قوصرة ، وهي قريب من بر إفريقية ، خرج عليهم ريح شديد ونوء عظيم ، فغرق أكثرهم ولم ينج منهم إلا اليسير .

ذكر غزوة المسلمين إلى الهند

في سنة إحدى وعشرين وأربعمئة غزا أحمد بن ينالتكين النائب عن يمين الدولة ببلاد الهند مدينة لليهود وهي من أعظم مدنهم يقال لها نَرْسَىٰ ، ومع أحمد نحو مئة ألف فارس وراجل ، وشنَّ الغارة على البلاد ونهب وسبى وخَرّب الأعمال وأكثر القتل والأسر ، فلما وصل إلى المدينة دخل من أحد جوانبها ، ونهب المسلمون في ذلك الجانب يوماً من بكرة النهار إلى آخر النهار ، ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجواهرجيين حسب ، وباقي أهل البلد لم يعلموا بذلك لأن طوله منزل من منازل الهنود وعرضه مثله ، فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره ، وبلغ من كثرة ما نهب أنهم اقتسموا الذهب والفضة كَيْلاً ، ولم يصل إلى هذه المدينة عسكر للمسلمين قبله ، فلما فارقه أراد العود إليه مرة أخرى فلم يقدر على ذلك ومنعه أهله .

وفي هذه السنة توفي يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين ، وعمره إحدى وستون سنة ، ومدة ملكه أربع وثلاثون سنة ، وكان صالحاً عادلاً محباً للعلماء مكرماً لهم ومحباً للجهاد ، ووقع بعده اختلاف بين ابنيه محمد ومسعود وتم الملك لِمَسعُود .

ذكر خروج ملك الروم إلىٰ الشام وانهزامه

في سنة إحدى وعشرين وأربعمئة خرج ملك الروم إلى القسطنطينية في ثلاثمئة ألف مقاتل إلى الشام ، فلم يزل بعساكره حتى بلغ قريب حلب ، فلحقهم عطش شديد ، وكان أصحابه مختلفين عليه ، وعبر على عسكره جمع من العرب ليسوا بالكثير فظن أنها كبسة فخاف ورحل ، وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون ،

وأخذوا من الملك أربعمئة بغل مُحَمَّلة مالاً وثياباً ، وهلك كثير من الروم عطشاً ، ونجا الملك وحده ، ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شيء أَلْبتّة ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ، حتى إن الملك لبس خُفّاً أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر ، فتركه ولبس الأسود ليعمى خبره على من يريده ، وانهزموا وغنم المسلمون جميع ما كان معهم .

ذكر غزوة فضلون الكردي الخزر وما كان منه

كان فضلون الكردي هذا بيده قطعة من أذربيجان ، استولى عليها وملكها ، فاتفق أنه غزا الخزر في هذه السنة فقتل منهم وسبى شيئاً كثيراً ، فلما أراد العَوْدَ إلى بلاده أبطأ في سيره وظن أنه دَوَّخهم وشغلهم بما عمله بهم فاتبعوه ، مُجِدِّين وكبسوه وقتلوا من أصحابه والمتطوعة الذين معه أكثر من عشرة آلاف قتيل ، واستردوه والغنائم التي أخذت منهم ، وغنموا أموال العساكر الإسلامية وعادوا .

ذكر غزوة الروم مدينة الرّها

في سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة مَلَك الروم مدينة الرّها ، وكان بالرّها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر ، الكبيرُ بيد ابن عطير ، والصغير بيد ابن شبل ، فراسل ابن عطير أرمانوس ملك الروم وباعه ما بيده بعشرين ألف دينار وعدة قرى ، فتسلموا البرج الذي له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل وقتل الروم المسلمين وخربوا المساجد ، فسمع نصر الدولة بن مروان ملك بلاد الكرد الخبر فسيّر جيشاً إلى الرّها فحصروها وفتحوها عنوة ، واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى غيرهم بالبِيعَة التي لهم وهي من أكبر البِيَع وأحسنها عمارة ، فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد وبقي الروم بالبُرْجَيْن ، وسيّر إليهم ابن مروان عسكراً نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم ودخل الروم البلد وملكوها وما جاورها من بلاد المسلمين ، فصالحهم ابن وثّاب النميري على حَرّان وسَرُوج وحمل إليهم خراجاً .

وفي هذه السنة توفي الخليفة القادر بالله وكانت خلافته إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وبويع بعد ابنه القائم بأمر الله .

ذكر ملك الروم قلعة أفامية

في سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة ملك الروم قلعة أفامية بالشام بسبب اختلاف العمال من المسلمين ، فدخل حسان بن المفرج الطائي بلد الروم هارباً من الدزبري عامل في الشام لخليفة مصر ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير ، فسار إلى أفامية فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم .

ذكر فتح قلعة سَرَسْتَى وغيرها من بلاد الهند

في سنة خمس وعشرين وأربعمئة قصد السلطان مسعود بن محمود سبكتكين قلعة سَرَسْتَى ، وهي من أمنع حصون الهند وأحصنها ، فحصرها ، وقد كان أبوه حصرها غير مرة فلم يتهيأ له فتحها ، فلما حصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالاً على الصلح فأجابه إلى ذلك ، وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها لمسعود من جملة ما تقرر عليه ، فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها ضعف الهنود دونها لو أنه إن صابرهم ملكهم ، فرجع عن الصلح وطَمَّ خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره وفتح الله عليه وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم وأخذ ما جاورها من البلاد ، ثم رحل عنها إلى قلعة نغسى وحصرها فرآها عالية لا ترام يرتد البصر بها وهو حسير ، إلا أنه أقام عليها يحصرها فخرجت عجوز ساحرة فتكلمت باللسان الهندي طويلاً وأخذت مكنسة فبلّتها بالماء ورشّته منها إلى جهة عسكر المسلمين فمرض وأصبح لا يقدر أن يرفع رأسه وضعفت قوته ضعفاً شديداً فرحل عن القلعة لشدة المرض ، فحين فارقها زال ما كان به وأقبلت الصحة والعافية إليه ، وسار إلى غزنة .

ذكر غزوة ملك الروم قلعة بركوي

هذه قلعة متاخمة للأرمن كانت في يد أبي الهيجاء بن ربيب الدولة ابن أخت وهسوذان بن مملان ، فتنافر هو وخاله ، فأرسل خاله إلى الروم فأطمعهم فيها ، فسيّر

ملك الروم إليها جمعاً كثيراً فملكوها سنة خمس وعشرين وأربعمئة ، فبلغ الخبر إلى الخليفة فأرسل إلى أبي الهيجاء وخالِه مَنْ يُصْلِح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة ، فاصطلحا ولم يتمكنا من استعادتها ، واجتمع إليهما خلق كثير من المتطوعة فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم بها .

وفي سنة سبع وعشرين اجتمع ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا جموعاً وأمدهما نصر الدولة بن مروان بعسكر كثيف فساروا جميعاً إلى السويداء وربض الرّها ، وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت ، واجتمع إليها أهل القرى المجاورة لها ، فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمئة رجل وغنموا ما فيها وسبوا خلقاً كثيراً ، وقصدوا الرها فحصروها ، وقطعوا الميرة عنها ، واشتد الأمر فخرج البطريق الذي فيها متخفياً ولحق بملك الروم وعرفه الحال ، فسيّر معه خمسة آلاف فارس فعاد بهم ، فعرب ابن وثاب مقدم عساكر نصر الدولة فكمنا لهم ، فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم فقُتل من الروم خلق كثير وأُسر البطريق وحمل إلى باب الرها ، وقالوا لمن فيها إما أن تفتحوا الباب وإلا قتلنا البطريق والأسرى الذين معه ، ففتحوا الباب للعجز عن حفظه ، وتحصّن أجناد الروم بالقلعة ، ودخل المسلمون المدينة وغنموا ما فيها ، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وأكثر القتل ، وأرسل ابن وثاب إلى آمد مئة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى ، وأقام محاصراً للقلعة .

ثم إن ابن حسان بن الجراح الطائي سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة لمن بالرها ، فسمع ابن وثاب بقربه فسار إليه مجدّاً ليلقاه قبل وصوله ، فخرج من الرها جمع من الروم إلى حران فقاتلهم أهلها ، وسمع ابن وثاب الخبر فعاد مسرعاً فوقع على الروم فقتل منهم كثيراً ، وعاد المنهزمون إلى الرها ، ثم صالح ابن وثاب الروم الذين بالرها لعجزه عنهم وسلّم إليهم ربض الرها وكثر الروم بها وعمروها وحصنوها .

وفي سنة تسع وعشرين هادن المستنصر بالله العبيدي صاحب مصر ملك الروم وشرط عليه إطلاق خمسة آلاف أسير وشرط الروم عليه أن يعمروا بِيعَة قمامة ، فأرسل الملك إليه من عمرها ، وأخرج على عمارتها مالاً جزيلاً ، ثم انتقضت الهدنة سنة ٣٢ وجهز الروم جيشاً ، فالتقوا مع جيش المسلمين بين مدينة حماة وأفامية ، واشتد

القتال ، ثم إن الله نصر المسلمين وأذل الكافرين فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة وأسر ابن عم للملك وبذلوا في فدائه مالاً جزيلاً وعدة وافرة من أسراء المسلمين ، وانكفّ الروم عن الأذى بعدها .

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضاً قتل مسعود بن محمود سبكتكين وتملَّك ابنه مودود والقاتل لمسعود أولاد أخيه محمد ، والقصة طويلة ليس هذا محل ذكرها .

وفي سنة خمس وثلاثين أخرج ملك الروم من القسطنطينية المسلمين والغرباء ونادى ألاّ يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعدها كحل ، فخرج منها أكثر من مئة ألف إنسان ، ولم يبق بها أكثر من اثني عشر نفساً فضمنهم الروم فتركهم .

ذكر تملك مودود بن مسعود بن محمد سبكتكين
عدة من حصون بلاد الهند

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمئة اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وقصدوا لهاوور وحصروها ، فجمع مقدم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبه مودود يستنجده فأرسل إليه العساكر ، فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود فرحل الملكان الآخران إلى بلدهما ، فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما ، فانهزم منهم وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره فاجتمعوا بها وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل ، وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم ، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إلى ذلك باقي حصون ذلك الملك الذي لهم ، فحملهم الخوف وعدم الأقوات على إجابتهم إلى ما طلبوا ، وتسلم المسلمون الجميع وغنموا الأموال وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين ، وكانوا نحو خمسة آلاف نفر ، فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني فتقدم إليهم ولقيهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزمت الهنود وانجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح ، وأُسِر ضعفاؤهم وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم ، فلما رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة وطلبوا الأمان وحملوا الأموال وطلبوا الإقرار على بلادهم فأجيبوا إلى ذلك .

ذكر أخبار الروم والروسية

وفي سنة خمس وثلاثين ورد إلى القسطنطينية عدد كثير من الروسية في البحر يريدون حرب الروم ، فاجتمعت الروم على حربهم ، وكان بعضهم قد فارق المراكب إلى البر ، فألقى الروم في مراكبهم النار فلم يهتدوا إلى إطفائها فهلك كثير منهم بالحرق والغرق ، وأما الذين في البر فقاتلوا ثم انهزموا فلم يكن لهم ملجأ ، فمن استسلم أولاً استرقَّ ، ومن امتنع حتى أخذ قهراً قطع الروم أيمانهم وطيف بهم في البلد ولم تسلم منهم إلا قليل مع ابن ملك الروسية .

وفي سنة تسع وثلاثين سير المعز بن باديس صاحب إفريقية أسطولاً إلى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد .

ذكر غزو السَّلْجُوقية بلاد الروم

ولنذكر أولاً ابتداء ظهور الدولة السلجوقية ، أصلهم من الترك الذين مما وراء النهر أسلم جدهم سَلْجوق ووافقه على الإسلام جماعة منهم ، فخرج بهم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وصار يقاتل الكفار من الترك ، ووقع بينه وبين ملوك خراسان المسلمين وقائع وقتال يطول الكلام بذكره ، وولد له أولاد قاموا بالجهاد بعده وكثرت جموعهم وقويت شوكتهم وصاروا يتغلبون على ممالك خراسان والعراق شيئاً فشيئاً إلى أن دخلوا بغداد وأذهبوا دولة بني بُوَيه وتغلبوا على الخلفاء كما كان بنو بويه .

وكان دخولهم بغداد في خلافة القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر سنة سبع وأربعين وأربعمئة ، وكان الداخل منهم بغداد السلطان طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق ، وتوفي السلطان طغرلبك سنة خمس وخمسيين وأربعمئة ، وصار الملك بعده لابن أخيه ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، واستمر الملك في بنيه إلى سنة تسع وثمانين وخمسمئة ، وكان ابتداء تملكهم طوس ، وقيل الري سنة أربعمئة وتسع وعشرين فتكون مدة ملكهم مئة وستين سنة .

وطغرلبك ضبطه ابن خلكان بقوله بضم الطاء وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء الموحدة بعدها كاف ، وهو اسم تركي مركب من طغرل وهو اسم علم وبك معناه أمير وسلجوق بفتح السين المهملة وسكون اللام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف .

وكانت هذه الغزوة التي سنذكرها قبل تملكهم بغداد ، وهذه الغزوة التي سنذكرها هي أنه في سنة أربعين وأربعمئة غزا السلجوقية بلاد الشام وقائد الجيش الأمير إبراهيم إينّال أخو السلطان طغرلبك السلجوقي ، فظفروا وغنموا ووصلوا إلى منازكرد وأرْزن الروم وقاليقلا ، وبلغوا طرابزون وتلك النواحي كلها ، ولقيهم عسكر للروم يبلغون خمسون ألفاً فاقتتلوا واشتد القتال بينهم ، وكانت بينهم عدة وقائع تارة يظفر هؤلاء وتارة هؤلاء ، وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين فأكثروا القتل في الروم وهزموهم

وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم ، وممن أسر قاريط وكان من ملوكهم فبذل في فداء نفسه ثلاثمئة ألف دينار وهدايا بمئة ألف ، فلم يُجَبْ إلى ذلك ، ولم يزل السلجوقية يجوسون تلك البلاد إلى أن صار بينهم وبين القسطنطينية خمسة عشر يوماً ، واستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوها وغنموا ما فيها وسبوا أكثر من مئة ألف رأس وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء ، وحملت الغنائم على عشرة آلاف عجلة ، ومن جملة الغنائم عشرة آلاف درع .

ثم في سنة إحدى وأربعين وأربعمئة أرسل ملك الروم إلى السلطان طغرلبك هدية عظيمة وطلب منه الصلح والمعاهدة ، فأجابه إليها ، وعمر ملك الروم مسجداً بالقسطنطينية وكان بها كثير من المسلمين فأقاموا بالمسجد المذكور الصلاة والخطبة لطغرلبك بأمر ملك الروم ، ثم بعد ذلك دانت الناس لطغرلبك وتمكن في ملكه ، وتملك كثيراً من البلاد قبل دخوله بغداد .

ذكر غزوة أخرى للسَّلجوقية

في سنة ست وأربعين وأربعمئة سار طغرلبك سلطان السَّلجوقية إلى أرمينية وقصد مَنَازكرد وهي للروم ، فحصرها وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد ، وأخربها وهي مدينة حصينة وأثَّر السلطان المذكور في هذه الغزوة آثاراً عظيمة ، ونال منهم من النهب والقتل والأسر شيئاً كثيراً ، وبلغ في غزوته هذه إلى أَرْزَن وعاد إلى أذربيجان لما هجم الشتاء .

ومن السلجوقية قُتُلْمُش ابن عم طغرلبك كانت له ولبنيه دولة في قونية وأَقْصَرا وبلاد الروم ، لأن السلجوقية لما انتشروا في البلاد طالبين للممالك دخل قتلمش هذا إلى بلاد الروم وملك قونية وأَقْصَرا ونواحيها وافتتح بلاداً واسعة ، وبقي الملك في بنيه إلى ظهور الدولة العثمانية ، فمن تلك الممالك التي افتتحوها وكانت تحت أيديهم قونية وأَقْصَرا وسيواس وتوقات وأنكورية ومَلَطْية وبلاد البستان وقيسارية وتيكسار وأَمَاسية وأعمال هذه المدن .

ذكر فتح ألْب أرسلان مدينة آني وغيرها من البلاد النصرانية

في سنة ست وخمسين وأربعمئة غزا السلطان ألب أرسلان بلاد النصارى ، فسار من الري إلى أذربيجان ، ثم سلك مضايق إلى أن وصل إلى نقجوان ، فأمر بعمل السفن لعبور نهر أَرَس ، فقيل له إن سكان خُوَيّ وسلماس من أذربيجان لم يقوموا بواجب الساعة ، وإنهم قد امتنعوا ببلادهم ، فسيّر إليهم عميد خراسان ودعاهم إلى الطاعة وتهددهم إن امتنعوا ، فأطاعوهم وصاروا من جملة حزبه وجنده ، واجتمع عليه هناك من الملوك والعساكر ما لا يحصى ، فلما فرغ من جمع العساكر والسفن سار إلى بلاد الكرج وجعل عسكراً مع ولده ملكشاه ونظام المُلْك وزيره ، فسار مَلِكْشاه ونظام المُلْك إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم فنزل أهلها منها وتخطفوا من العسكر ، وقتلوا منهم فئة كثيرة ، فنزل نظام الملك ومَلِكْشاه وقاتلوا من بالقلعة ، وزحفوا إليهم فقتل أمير القلعة وملكها المسلمون .

وساروا منها إلى قلعة سرماري وهي قلعة فيها المياه الجارية والبساتين ، فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها ، وكان بالقرب منها قلعة أخرى ففتحها ملكشاه وأراد تخريبها ، فنهاه الوزير نظام الملك عن ذلك وقال : هي ثغر للمسلمين ، وشحنها بالرجال والأموال والسلاح والذخائر ، وسلّم هذه القلاع إلى أمير نقجوان .

وسار ملكشاه ونظام الملك إلى مدينة مريم نشين وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى ، وعامتُهم يتقربون إلى أهل هذه البلدة وهي مدينة حصينة سورها من الأحجار الكبار الصلبة المشددة بالرصاص والحديد وعندها نهر كبير ، فأعد نظام الملك لقتالها ما يحتاج إليه من السفن وغيرها وقاتلها وواصل قتالها ليلاً ونهاراً وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة ، فضجر الكفار وأخذهم الإعياء والكلال ، فوصل المسلمون إلى سورها ونصبوا عليه السلالم وصعدوا إلى أعلاه ، لأن المعاول كانت عن نَقْبه لقوة حصره ، فلما رأى أهلها المسلمين على السُّور فَتَّ ذلك في أعضادهم أي أضعفهم وسُقِط في أيديهم ، ودخل ملكشاه ونظام الملك البلد وأحرقوا البِيَعَ وخَرَّبوها وقتلوا كثيراً من أهلها وأسلم كثير منهم فنجوا من القتل ، واستدعى ألب أرسلان ابنه ملكشاه ، ونظام الملك فلحقوه في بلاد الكرج وفرح بما يسره الله من الفتح على يد

ولده ، وفَتَح مَلِكْشاه في طريقه عدة من القلاع والحصون وأسر من النصارى ما لا يحصى .

ثم ساروا جميعاً مع السلطان ألب أرسلان إلى تسبيذ شهر فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها من المسلمين كثير ، ثم إن الله تعالى يسَّر فتحها فملكها ألب أرسلان ، وسار منها إلى مدينة أَعَال لاَل ، وهي حصينة عالية الأسوار شاهقة البنيان ، وهي من جهة الشرق والغرب على جبل عال وعلى الجبل عدة من الحصون ومن الجانبين الآخرين نهر كبير ، فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها وكان ملكها من الكرج ، وهكذا ما تقدم من البلاد التي ذكرنا فتحها ، وعقد السلطان جسراً على النهر عريضاً ، واشتد القتال وعظم الخطب فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الأمان والتمسا من السلطان أن يرسل معهما طائفة من العسكر فسيَّر جمعاً صالحاً ، فلما جاوز الفصيل أحاط بهم الكرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم ولم يتمكن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك ، وخرج الكرج من البلد وقصدوا العسكر واشتد القتال ، وكان السلطان ذلك الوقت يصلي فأتاه الصريخ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته ، وركب وتقدم إلى الكفار وقاتلهم وكبَّر المسلمون عليهم فولوا منهزمين ، فدخلوا البلد والمسلمون معهم ، ودخلها السلطان وملكها واعتصم جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة فقاتلهم المسلمون ، فأمر السلطان بإلقاء الحطب حول البرج وإحراقه ففعل وأحرق البرج ومن فيه ، وعاد السلطان إلى خيامه وغنم المسلمون من المدينة ما لا يحد ولا يحصى ، ولما جُنَّ الليل عصفت ريح شديدة وكان قد بقي من تلك النار التي أحرق بها البرج بقية كثيرة فأطارتها الريح فاحترقت المدينة بأسرها ، وملك السلطان قلعة حصينة كانت إلى جانب تلك المدينة .

ثم سار منها إلى ناحية قرس ومدينة آني وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما سيل وَرْده ، ونورة ، فخرج أهلها مذعنين بالإسلام وخربوا البيع وبنوا المساجد .

وسار منهما إلى مدينة آني فوصل إليها فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لا تُرام ثلاثة أرباعها على نهر أَرَس والربع الآخر نهر عميق شديد الجرية لو طرحت فيه الحجارة الكبار لأخذها وحملها ، والطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصُّمّ ، وهي

بلدة كبيرة عامرة كثيرة الأهل فيها ما يزيد على خمسمئة بِيعة ، فحصرها وضيق عليها إلا أن المسلمين قد أيسوا من فتحها لما رأوا من حصانتها ، فعمل السلطان بُرْجاً من خشب وشَحَنهُ بالمقاتلة ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب ، فكشفوا الكرجَ عن السور ، وتقدم المسلمون إليه لينقبوه فأتاهم من لطف الله ما لم يكن في حسابهم ؛ فانهدمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب ، فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى عددهم بحيث إن كثيراً من المسلمين عجزوا عن دخول البلد بسبب كثرة القتلى ، وأسروا نحواً مما قتلوا ، وسارت البشرى بهذه الفتوحات في البلاد فَسُرَّ المسلمون ، وقرىء كتاب الفتح ببغداد في دار الخليفة بالثناء ، فبرز خط الخليفة على ألب أرسلان والدعاء له ، ورتب فيها أميراً في عسكر جرار وعاد عنها وقد راسله ملك الكرج في الهدنة فصالحه على أداء الجزية كل سنة فقبل ذلك .

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمئة أقبل ملك الروم من القسطنطينية في عسكر كثيف إلى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم جموعاً للعرب ، ثم ارتحل وعاد إلى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع .

ذكر خروج ملك الروم إلىٰ خلاط وأسره

في سنة ثلاث وستين وأربعمئة خرج أرمانوس ملك الروم في مئتي ألف من الروم والفرنج والروس والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، فجاؤوا في تجمّل كثير وزِيٍّ عظيم وقصدوا بلاد الإسلام فوصلوا إلى منازكرد من أعمال خلاط ، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خُوَيّ من أذربيجان ، وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع ، فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو فسيّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى همذان ، وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس وجَدّ في السير ، وقال لهم : إني أقاتل محتسباً صابراً فإن سلمت فنعمة من الله وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي ، وساروا ، فلما قاربوا العدو جعل له مقدمة ، فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل إلى السلطان فجذع أنفه ، وأنفذ بالسلب إلى نظام الملك وأمره أن يرسله إلى بغداد ، فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك

الروم يطلب منه المهادنة ، فقال ملك الروم : لا هدنة إلاّ بالري ، فانزعج السلطان لذلك فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : إنك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى كتب باسمك هذا الفتح ، فَالْقَهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر ، والدعاءُ مقرونٌ بالإجابة .

فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف فما ها هنا سلطان يأمر وينهى ، وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتَحَنَّط ، وقال : إن قُتِلتُ فهذا كفني ، وزحف إلى الروم وزحفوا إليه ، فلما قاربهم تَرَجَّل وعَفَّر وجهه بالتراب وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم وعَمِلَ المسلمون فيهم كيف شاؤوا ، وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض من جثث القتلى ، وأُسِرَ ملك الروم أسره بعض الغلمان فأراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع ملك الروم لا تقتله فإنه الملك ، وكان هذا الغلام الذي أسره قد عرضه سيده على نظام الملك فرده استحقاراً له فأثنى عليه سيده فقال نظام الملك عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً فكان كذلك ، فلما أسر الغلام ملك الروم أحضره عند سيده فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك فأمر بإحضاره ، فلما أحضره ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده وقال : ألم أرسل لك في الهدنة فأبيت ، فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد ، فقال : ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح ، قال له : فما تظن أني أفعل بك ؟ قال : إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام والأخرى بعيدة وهي العفو وقَبول الأموال واصطناعي نائباً عنك ، قال : ما عزمت على غير هذا ، ففداه بألف ألف دينار وخمسمئة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم في أي وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، واستقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، وأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد ، فقال ملك الروم أين جهة الخليفة ؟ فدُلَّ عليها ، فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة وهادنه السلطان خمسين سنة وسيَّره إلى بلاده وسيَّر معه

عسكراً أوصلوه إلى مأمنه وشيَّعه السلطان فرسخاً .

وأما الروم فإنهم لما بلغهم خبر الوقعة وأسر الملك وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد ، فلما وصل أرمانوس الملك إلى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ما تقرر مع السلطان وقال إن شئت أن تفعل ما استقر وإن شئت أمسكت ، فأجابه ميخائيل بإيثار ما استقر وطلب وساطته وسؤال السلطان في ذلك ، وجمع أرمانوس عنده من المال وكانْ مئتي ألف دينار ، فأرسله إلى السلطان وطبقاً ذهباً عليه جواهر بتسعين ألف دينار ، وحلف له أَنْ لا يقدر على غير ذلك ، ثم إن أرمانوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم ومدح الشعراء السلطان ألب أرسلان ، وذكروا هذا الفتح فأكثروا لأنه يشبه فتوحات الصحابة رضي الله عنهم .

ذكر مقتل السلطان ألب أرسلان

في سنة خمس وستين وأربعمئة قصد السلطان ألب أرسلان ما وراء النهر لقتال ملك من ملوك الإسلام خرج عن طاعته اسمه الملك شمس الملك ، فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه في نيف وعشرين يوماً وعسكره يزيد على مئتي ألف فارس ، فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمي ، جرى منه جناية وارتكاب وحمل إلى قرب سريره مع غلامين فأراد عقابه على ارتكابه ، فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه إليها ، فقال له يوسف : يا مخنث ، مثلي يقتل هذه القتلة ؟ فغضب السلطان ألب أرسلان ، وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين خليّاه ورماه السلطان بسهم ، فأخطأه ولم يكن يخطىء سهمه ، فوثب يوسف يريده والسلطان على سريره فقام عنه وعثر فوقع فبرك عليه يوسف وضربه في خاصرته بسكين كانت معه ، وقتل الأتراك يوسف وقطعوه ، ونهض السلطان فدخل إلى خيمة أخرى ، ومات السلطان من جراحته تلك بعد أيام .

وكان أهل سمرقند لما بلغهم عبور السلطان النهر اجتمعوا وختموا ختمات وسألوا الله أن يكفيهم أمره ، فاستجاب الله لهم ، ولما جرح السلطان قال : ما من وجه قصدته وعدو أردته إلا استعنت بالله تعالى عليه ، ولما كان أمس صعدت على تل فارتجّت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر ، فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا وما يقدر

أحد علي فعجّزني الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله وأستقيله من ذلك الخاطر ، وتملّك بعده ابنه مَلِكْشاه .

وفي سنة سبع وستين وأربعمئة توفي القائم بأمر الله وبويع حفيده المقتدي بأمر الله .

وفي سنة ثمان وستين أخذت مدينة منبج من الروم ورجعت إلى الإسلام ، والذي انتزعها منهم نصر بن محمود بن مرداس .

ذكر فتوح بلاد الهند

في سنة اثنتين وسبعين وأربعمئة غزا الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود سبكتكين صاحب غزنة بلاد الهند ، فحصر قلعة أجور وهي على مئة وعشرين فرسخاً من لهاوور ، وهي قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحتوي على عشرة آلاف رجل من المقاتلة ، فقاتلوه وصبروا تحت الحصر ، وزحف إليهم غير مرة فرأوا من شدة حربه ما ملأ قلوبهم خوفاً ورعباً ، فسلموا القلعة إليه ، وفتح أيضاً قلعة روبال وكانت على رأس جبل وليس لها طريق إلا من مكان ضيق مملوء بالفيلة والمقاتلة وبها من رجال الحرب ألوف كثيرة ، فتابع عليهم الوقائع وألح عليهم بالقتال بجميع أنواع الحرب إلى أن ملك القلعة واستنزلهم منها ، وكان في موضع يقال له دره نوره أقوام من الكفار لم يتعرض إليهم أحد من الملوك ، فسار إليهم إبراهيم ودعاهم إلى الإسلام أولاً فامتنعوا من إجابته وقاتلوه فظفر بهم وأكثر القتل فيهم ، وتفرق من سلم منهم في البلاد وسبى واسترقّ من النسوان والصبيان مئة ألف ، ثم قصد موضعاً آخر يقال له وَرَهْ في طريقه عقبات كثيرة وأشجار ملتفة وأهله كفار فقاتلهم ثلاثة أشهر إلى أن نصره الله عليهم ، فقتل كثيراً منهم وسبى وغنم وعاد سالماً .

وكان إبراهيم بن مسعود بن محمود عاقلاً ذا رأي متين ، فمن آرائه أن السلطان ملكشاه السلجوقي جمع عساكره يريد قتال إبراهيم المذكور في غزنة وينتزع الملك منه ونزل باسفرار ، فكتب إبراهيم بن مسعود كتاباً إلى جماعة من أعيان أمراء ملكشاه يشكرهم ويعتذر لهم بما فعلوا من تحسين قصد ملكشاه بلادهم ليتم لنا ما استقر بيننا من الظفر به وتخليصهم من يده ويعدهم الإحسان على ذلك ، وأمر القاصد بالكتب أن

يتعرض ملكشاه في الصيد ففعل ذلك ، فأخذ وأحضر عند السلطان فسأله عن حاله فأنكره ، فأمر السلطان بجلده فجلده فدفع الكتب إليه بعد جهد ومشقة ، فلما وقف ملكشاه عليها تحيل على أمرائه وترك المسير إلى إبراهيم وعاد إلى بلده ولم يقل لأحد أمرائه في هذا الأمر شيئاً خوفاً أن يستوحشوا منه ، ثم وقعت المكاتبة بينه وبين إبراهيم والمصافاة حتى زَوَّج إبراهيم ابنه مسعوداً بابنة ملكشاه .

ذكر فتح أنطاكية وانتزاعها من الروم

في سنة سبع وسبعين وأربعمئة سار سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب قونية إلى الشام ، فملك مدينة أنطاكية وكانت للروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة حصرها بعساكرها ونصب السلالم فصعدوا عليها وأخذ البلد فقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى وقتل كثيراً من أهلها ، ثم أذعنوا له فعفا عنهم وتسلَّم القلعة وأحسن إلى الرعية ورجع سالماً .

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة صقلية

في سنة أربع وثمانين وأربعمئة خرج الفرنج بجموع كثيرة وتملكوا جزيرة صقلية بعد حروب كثيرة ، وكان ملوك المسلمين بصقلية ـ لما ضعف أمر الخلفاء ـ قد تفرقوا في ممالك صقلية وصارت كل جهة منها بيد ملك متغلب عليها مستبدّ لا يسأل عن غيره ، فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة إلى أن بقي بأرض المسلمين قصريانَّهْ وجَرْجَت ، فحصرهما الفرنج في سنة أربع وثمانين وأربعمئة بجيوش كثيرة ، فكان من ذلك ذل للمسلمين وتضييق شديد عليهم حتى أكلوا الأموات ، فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم ، فتسلمها الفرنج لعنهم الله تعالى في السنة المذكورة ، فصارت الجزيرة كلها بأيديهم .

وفي سنة خمس وثمانين توفي السلطان ملكشاه السلجوقي ووقع بين أولاده اختلاف وحروب كثيرة لطلب الملك .

وفي سنة سبع وثمانين وأربعمئة توفي المقتدي بأمر الله ، وبويع ابنه المستظهر بالله ، ثم إن الفرنج لما ملكوا صقلية بالتمام كان الملك عليهم رجار الفرنجي من ملوك إيطالية ، ثم طمعوا في تملك كثير من إفريقية فخرجوا في أسطول كبير وجمّ غفير من مشهوري فرسان الفرنج فحاصروا مدينة جربة ونزلوا بساحتها وأداروا المركب بجهاتها ، فاجتمع أهلها وقاتلوا قتالاً شديداً وقتل منهم بشر كثير ، ثم انهزموا ، وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وهلك أكثر رجالها ومن بقي

منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من صاحب صقلية وافتكوا أسرهم وسبيهم وحريمهم .

ثم بعد مدة سارت مراكب الفرنج من صقلية إلى طرابلس الغرب فحصروها وعلقوا الكلاليب في سور البلد ونقبوه ، ثم وصل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد فقووا بهم فخرجوا إلى الأسطول فحملوا عليه حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة ، وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب والآلات ، فنهبها العرب وأهل البلد ، ورجع الفرنج إلى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا إلى المغرب فوصلوا إلى جيجل ، فلمّا رآهم أهل البلد هربوا إلى البراري والجبال ، فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذي بناه الأمير يحيى بن عبد العزيز بن حماد للنزهة .

ثم عادوا وجهزوا جيشاً كبيراً وسيّروه إلى طرابلس الغرب فأحاطوا بها براً وبحراً ، فخرج إليهم أهلها وأنشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع وقع اختلاف بين أهل طرابلس مع بعضهم ، آل الأمر فيه إلى قتال بعضهم بعضاً ، فانتهز الفرصة الفرنج ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال ، فملكت الفرنج البلد عنوة وقهراً بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم ، وهرب من قدر على الهرب والتجأ إلى البربر والعرب ، ثم نودي بالأمان في الناس كافّة ، فرجع كل من فرَّ منها ، وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصَّنوا سورها وحفروا خنادقها ، ولما رجعوا أخذوا رهائن من أهلها وولّوا عليها رجلاً من أهلها وأخذوا رهائنه وحده وأعادوا رهائن غيره ، واستقامت أمور المدينة وألزم ملكهم أهل صقلية والروم بالسفر إليها وعمرت سريعاً .

ثم إن أهل قابس عصى أميرهم على الحسن بن علي بن يحيى بن تميم أمير إفريقية ، وكاتَبَ صاحب صقلية وبذل له الطاعة ، وقال : أريد منك خلعة وعهداً بولاية قابس لأكون نائباً عنك ، فسيّر إليه صاحب صقلية الخلعة والعهد فلبسها وقرىء العهد بمجمع من الناس ، فسمع بذلك الحسن أمير إفريقية فجهز عسكراً كثيراً فساروا إلى قابس ونازلوها وحصروها ، فثار أهل البلد بالأمير الذي ملكها لصاحب صقلية وقبضوا عليه بعد قتال بينهم وبينه وسيّروه إلى أمير إفريقية فقتله بعد تعذيبه بأنواع العذاب ، من ذلك أنهم قطعوا ذكره وجعلوه في فِيهِ ، وتولى على قابس معمر بن رشيد وهرب جماعة

من أقارب الأمير الأول إلى صقلية وشكوا إلى صاحب صقلية واستجاروا به ، فغضب لذلك فجهز أسطولاً كثيراً ، بلغ نحو مئتين وخمسين شينياً مملوءة رجالاً وسلاحاً وقُوتاً وقصدوا المهدية ، وكان بها أمير إفريقية الحسن بن علي ، وكان قد حصل بإفريقية في تلك السنين قحط وغلاء شديد حتى إن أكثر الناس فارقوا البلاد والقرى وصاروا إلى صقلية ، فلما علم الحسن بن علي بمسير الفرنج إليه جمع الفقهاء والأعيان وشاورهم في القتال فقالوا نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين ، فقال : أخاف أن يحصرونا براً وبحراً بيننا وبين الميرة ، وليس عندنا ما نقتات به شهراً ، فنؤخذ قهراً وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيراً من الملك ، فالرأيُ أن نخرج بالأهل والولد ونسلم البلد فمن أراد أن يفعل ذلك فليبادر ، ثم أمر في الحال بالرحيل ، وأخذ معه من حضره وما خفَّ حمله وخرج ناس كثير معهم بأهله وأموالهم وأولادهم ، ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس ، ثم دخل الفرنج بلا ممانع ولا مدافع ، ووجدوا قصر الأمير بحاله لم يأخذ الحسن منه إلا ما خفّ من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ، ورأوا الخزائن مملوءة من الذخائر وكل شيء نفيس غريب يقل وجود مثله ، فختم الفرنج عليه وجمعوا سراري الحسن من قصره ونهبت المدينة مقدار ساعتين ، ثم نادوا بالأمان فخرج من كان مستخفياً ، وبعد جمعة رجع أهل البلد .

وأما الحسن أمير إفريقية فإنه سار إلى ملك مراكش عبد المؤمن بن علي فأكرمه وأحسن نزله وبقي عنده مكرماً إلى أن فتح المهدية عبد المؤمن بن علي ، كما ذكرنا ذلك .

ولما استقر الفرنج بالمهدية سيّروا أسطولاً إلى سفاقس وأسطولاً إلى مدينة سوسة وأسطولاً إلى قابس ، فأما أهل سوسة فإنهم لما سمعوا خبر المهدية ـ وكان أميرهم علي بن الحسن أمير إفريقية ـ خرج علي المذكور والتحق بأبيه الحسن وخرج الناس لخروجه ، ودخل الفرنج البلد بلا قتال .

وأما سَفاقس فإن أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج إليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد ، ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم إلى البلد وقوم إلى البرية وقتل منهم كثير ، ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة ، وأُسر من بقي من الرجال وسبي الحريم ثم نودي

بالأمان فعاد أهلها إليها وافتكوا حريمهم ، وفعلوا مثل ذلك بقابس وملكوها .

ثم سار الفرنج إلى قلعة قُلَيْبِيَة وهي قلعة حصينة ، فلما وصلوا إليها سمع بذلك العرب فاجتمع منهم خلق كثير وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم وقتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً ، فرجعوا خاسرين إلى المهدية ، ثم رجع الفرنج إليهم مرة أخرى وملكوها .

والحاصل أن الفرنج لما ملكوا صقلية تتابعت إغاراتهم على إفريقية فملكوا الجزائر ومالطة وجربة وتطاون وغير ذلك ، وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قرب تونس ومن الغرب إلى القيروان ، وكانت هذه الوقائع متتابعة في سنين ، وكان انتهاؤها سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة وذكرناها متتابعة ليتصل بعضها ببعض .

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمئة اختلف ملك الفرنج صاحب صقلية ، وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين ، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ، ولولا ذلك لملك صاحب صقلية جميع بلاد إفريقية ، وكان القتال بينه وبين صاحب القسطنطينية براً وبحراً ، والظفرُ في جميع ذلك لصاحب صقلية حتى دخل فم الميناء وأخذ عدة شواني لصاحب القسطنطينية وأسر كثيراً من الروم ، ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب ، وكان الذي يفعل هذا بالروم وبالمسلمين جرجي وزير صاحب صقلية ، ثم هلك جرجي ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه فعقد صلحاً مع صاحب القسطنطينية وسكنت الفتنة .

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمئة هلك رجار ملك صقلية وكان عمره قريباً من ثمانين سنة وملك بعده ولده غليالم ، وكان فاسد التدبير وسلك طريقة ملوك الإسلام من الجنائب والحجاب وغير ذلك ، وأسكن في جزيرة صقلية الفرنج مع المسلمين ، وأكرم المسلمين ومنع من التعدي عليهم وقربهم فخرج عن حكمه عدة حصون من حصون صقلية وتعدى الأمر إلى إفريقية .

فإنه لما كانت سنة إحدى وخمسين وخمسمئة قوي طمع الناس فيه فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة ، وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل إفريقية منهم أهل سفاقس ، وقد كان أبوه رجار لما فتحها استعمل عليها أبا الحسين العرياني وكان من العلماء الصالحين ، فأظهر العجز والضعف ، وقال له : استعمل ولدي ،

فاستعمل ولده عمر بن أبي الحسين ، وأخذ أباه رهينة إلى صقلية ، فلما أراد المسير إليها قال لولده عمر : إني كبير السن وقد قارب أجلي ، فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظرني أني أقتل وأَحْسِبُ أني قَدْمِتُّ .

فلما وجد الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال : يطلع جماعة منكم إلى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم ، فقالوا له : إن سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه ، قال : هو أمرني بهذا وإذا قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات ، فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم ، ثم تبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وفعل مثل فعله ، وبعدهما محمد بن رشيد بقابس ، وسار عسكر لعبد المؤمن إلى بونة فملكوها ، وخرج جميع إفريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهدية وسوسة ، وأرسل عمر بن أبي الحسين إلى زَوِيلة ، وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ، ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد إلى زَوِيلة ، فأعانوا أهلها على من بها من الفرنج ، وقطعوا الميرة عن المهدية ، فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين والد عمر صاحب سفاقس وعَرّفه ما فعل ابنه وأمره أن يكتب إليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعودة إلى طاعته ويخوّفه عاقبة فعله ، فقال له : من قدم على هذا لا يرجع بكتاب ، فأرسل ملك صقلية إليه رسولاً يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك ، فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا ، وأرسل عمر إلى الرسول يقول له : هذا أبي قد دفنته وقد جلست للعزاء فاصنعوا ما أردتم .

فعاد الرسول إلى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبي الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله حتى مات .

وأما أهل زَوِيلة فإنهم كثر جمعهم بالعرب وبأهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الأقوات بالمهدية قليلة ، فسير إليهم صاحب صقلية عشرين شينياً فيها الرجال والطعام والسلاح ، فدخلوا البلد وأرسلوا إلى العرب ، وبذلوا لهم مالاً لينهزموا ، وخَرَجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زَوِيلة فانهزمت العرب وبقي أهل زويلة .

وأما أهل سَفَاقُس فإنهم ركبوا في البحر فنجوا وبقي أهل زَوِيلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا إلى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج إلا القليل ، فتفرقوا ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن ، فلما قتلوا من قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شيء من أموالهم .

ودخل الفرنج زَوِيلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال واستقر الفرنج بالمهدية إلى أن أخذها عبد المؤمن وسيأتي إن شاء الله ذكر ذلك ، هذا حاصل ما كان من الفرنج في إفريقية .

وأما ما كان منهم في هذه السنين في الديّار الشامية فسيأتي ذكره عند ذكر الحرب المسمى بحرب الصليب ، لكن ينبغي قبل ذلك أن نذكر بقية ما كان بالأندلس من الفتوحات والغزوات وما يتبع ذلك ، ثم بعد إتمام ذلك نذكر حرب الصليب .

إتمام الكلام على غزوات الأندلس وما يتبع ذلك

قد تقدم ذكر بعض غزوات الأندلس باختصار ، ولو بسط الكلام فيها لطال ، وبقي كثير من غزواتها وأخبارها لم يذكر ، فينبغي إتمام الكلام على ذلك تتميماً للفائدة ، وأكثر التواريخ لم يذكروا فيها كثيراً من أخبار الأندلس فصار المشهور المستفيض عند أكثر الناس أخبار غير الأندلس ، مع أن المسلمين كان لهم بالأندلس ملك ضخم ، وكانت لهم وقائع ومجامع وأخبار عجيبة فينبغي ذكر كثير من ذلك ، وإن كان بعض تلك الأخبار زيادة على الغزوات والفتوحات التي لأجلها كان جمع هذا الكتاب ، لأن ذكر ذلك يحصلْ به زيادة فائدة ولا يُخِلُّ بمقصود الكتاب .

وقد تقدم أن الأندلس فُتح في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة اثنتين وتسعين على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نُصَير بضم النون مصغراً والصاد المهملة ، وهو مولى عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز ، وعبد العزيز هو أخو عبد الملك بن مروان ، والأندلس مشتمل على فحول العلماء المبرزين في كثير من الفنون ومشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك .

قال في (نفح الطيب) نقلاً عن لسان الدين بن الخطيب : خصَّ الله بلاد الأندلس من الرِّيع وغَدَقِ السُّقيا ولذاذة الأقوات وفَرَاهة الحيوان ، ودُرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتَبَحُّر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الأسنان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام التمدن والاعتمار ، بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها . أعادها الله للإسلام ببركة النبي عليه الصلاة والسلام .

وقال أيضاً : إن الأندلس بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجنان ، منبجس الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام وذوات السموم ، معتدل الهواء والجو والنسيم ، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر الاعتدال وتوسط الحال ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة .

وفي (نفح الطيب) أن من الأندلس مدينة شِنْتَرَة ، من خَوَاصّها أن القمح والشعير يُزْرَعان فيها ويُحْصَدان عند مُضِيّ أربعين يوماً من زراعته ، وأن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر .

قال ابن اليسع : قال لي أبو عبد الله الياكوري وكان ثقة : أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلاً من أهل شِنْتَرَة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يُقِلُّ الحامل على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار .

وفي الأندلس من أنواع المعادن ما لا يحصى ، وفيها المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة ، وطول الأندلس ثلاثون يوماً وعرضه سبعة أيام ، ويشقها أربعون نهراً كباراً ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد من ثلاثمئة من المتوسط ، وفيها من القرى والحصون ما لا يحصى كثرة حتى قيل إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية أثنتا عشرة ألف قرية ، وقيل إن طول الأندلس أربعون يوماً وعرضه ثمانية عشر يوماً ، وأما طيب ثمار الأندلس فلا يعادله شيء في الدنيا .

قال بعض العلماء : إن النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا يعني بذلك الأندلس .

وقال بعضهم : إن المرية مدينة من مدائن الأندلس كان بها لنسج طرز الحرير ثلاثمئة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول ، وللأسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك وللأصفهانية كذلك ، وكان بها من الحمامات نحو الألف ، واتسع ملك المسلمين فيها وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلاً وعرضها ميلان ، وعدد دور الرعايا الواجب على أهلها المبيت داخل السور مئة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار غير دور الوزراء وأكابر الناس ، وعدة دور أهل الدولة ستة آلاف دار وثلاثمئة دار ، ومساجدها ثلاثة آلاف وثمانمئة وثلاثون مسجداً ، وحماماتها سبعمئة .

وكانت قرطبة قبة الإسلام ، وبها استقر سرير الخلافة المروانية ، وهي معدن العلماء ، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ومسجدها ليس له نظير في الدنيا طوله ثلاثمئة وثلاثون ذراعاً ، وعرضه مئتان وخمسون ذراعاً ، وسواراهُ ألف وأربعمئة وهو مزخرف بالرخام والمرمر وماء الذهب واللّازَوَرْد .

وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا في الأحكام إليه ، وكانوا لا يكون فيهم مقلص إلا من حفظ الموطأ ، وقيل إلا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المُدَوّنة ، وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ، ويسلمون عليه ويخبرونه بأحوال بلدهم ، ويجعلون في مساجدهم نواباً يصلون بالناس الجمعة نيابة عنهم .

وتقدم أن ملوك بني أمية الذين كانوا بالأندلس أول من تملك منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمن الداخل ، كان في ابتداء ملكه بالأندلس سنة ثمان وثلاثين ومئة ، هرب من الشام مستخفياً حين كان ابتداء دولة بني العباس وكانوا يقتلون بني أمية ، فلما كان بالأندلس تغلّب على عمال بني العباس الذين كانوا بالأندلس وانتزع الملك منهم ، فكان له ملك ضخم ، وكان في عصر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ، وكان المنصور يسميه صقر قريش ، قال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش مَنْ ؟ قالوا : هؤلاءِ أميرُ المؤمنين ، يعنون المنصور الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأباد الأعداء ، قال : ما صنعتم شيئاً ، قالوا : فمعاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصّر الأمصار وجنّد الأجناد ودَوّن الدواوين وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلّلا له صَعْبَهُ ، وعبد الملك كان ببيعة له عقدها ، وأمير المؤمنين يعني نَفْسَهُ بطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيّد برأيه مستصحب لعزمه اهـ .

وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر ، توفي سنة اثنتين وسبعين ومئة وعمره تسع وخمسون أو ثمان وخمسون سنة ، ومن عَقِبِهِ الخليفة عبد الرحمن الناصر بن محمدبن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وَلِي الملك سنة ثلاثمئة وتوفي سنة ثلاثمئة وخمسين ، واتسع الملك بالأندلس في مدته ، ومِنْ اتساعه أنه بنى تجاه قرطبة مدينة سماها الزهراء لسكناه ؛ هي من عجائب الدنيا دالة على عظم قدر بانيها ، وأنفق فيها

من الأموال خمسة وسبعين مئة ألف دينار ، وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتًى وسبعمئة وخمسين فتًى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل غير أنواع الطير والحوت ، وعدد النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار والخدم ستة آلاف وثلاثمئة وأربعة عشر ، وعدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمئة وسبع وثمانون ، وقيل ستة آلاف وثمانمئة وثمانون ، والمرتّب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة ، وينقّع لها من الحمص كل يوم ستة أقفزة ، وأما أوصاف مدينة الزهراء فإنها طويلة ، ثم لما كثرت الفتن في الأندلس هدمت تلك المدينة .

ومن أغرب ما يحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوماً فقعد في البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك ، فأخذ الطبيب الآلة وحبس يد الناصر ، فبينما هو كذلك إذْ أطلَّ زرزور فصعد على إناء من ذهب في المجلس وأنشد ذلك الزرزور :

أيها الفاصد رِفقاً بأمير المؤمنينا ... إنما تفصد عرقاً فيه محيي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسُرَّ غاية السرور وسئل عمن اهتدى إلى ذلك وعلّم الزرزور ، فذكروا له أن أم ولده الحكم صنعت ذلك وأعدته لذلك الأمر فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار ، وتقدم أن الناصر مكث في الملك خمسين سنة ، وكان إذا حصل له يوم كان مسروراً فيه بدون نكد وتكدير يكتبه ووجد ذلك مكتوباً بخطه فإذا هي أربعة عشر يوماً في تلك الخمسين سنة ، وكان جده هشام بن عبد الرحمن الداخل يقتدي في سيرته بعمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته يسألون الناس عن سيرة عماله ويخبرونه بحقائقها فإذا انتهى إليه جور من أحد من عماله أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله ، ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن للإمام مالك رضي الله عنه قال : نسأل الله أن يزين موسمنا بمثل هذا ، وفي رواية نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم أو كلاماً هذا معناه ، فبلغ هشاماً ما قاله مالك مع ما بلغه من جلال مالك ودينه ، فحمل هشام الناس على مذهب مالك ، وكانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الأوزاعي ، فهشام هو السبب في انتشار مذهب الإمام مالك بالمغرب .

وغزا هشام مدينة أربُونة الشهيرة وافتتحها واشترط على المعاهدين من أهل جليقية

أن ينقلوا عدداً من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها إلى باب القصر بقرطبة ، فبنى منه المسجد الذي أمام باب الجنان ، ومناقب هشام هذا كثيرة .

قال في العقد الفريد في وصفه : هو أحسن الناس وجهاً وأشرفهم نفساً الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذي أخذ الزكاة على حلها فوضعها في حقها ، لم يعرف منه هفوة في حداثته ولا زلة في أيام صباه ، وكان يصرّ الصُّرَر بالأموال في ليالي المطر والظلمة ، ويبعث بها إلى المساجد فيعطي من وجد فيها يريد بذلك عمارة المساجد بالعلم والعبادة ، أوصى رجل في زمنه بمال في فك سبية من أرض العدو فطلبت فلم توجد أسيرة احتراساً منه للثغر واستنفاذاً لأهل السبي ، وكان في أيامه المنجم الضبي وكان مشهوراً بكمال المعرفة في علم النجوم ، فلما ولي هشام الملك سأله عن مدة ملكه فأخبره أنه نحو ثمانية سنين ، فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه وقال : يا ضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك والله إن هذه المدة لو كانت في سجدة لله تعالى لكانت قليلاً في طاعته ، ثم ازداد زهداً في الدنيا وفعلاً للخير ، توفي سنة ثمانين ومئة .

وولي بعده ابنه الحكم بن هشام ، وكان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل يشبه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في توطيد الدولة وشدة الملك وقمع الأعداء ، وغضب الحكم يوماً على خادم فأمر بقطع يده ، وحضر عنده زياد بن عبد الرحمن فقال له زياد : أصلح الله الأمير إن مالكاً حدثني في خبر رفعه أنَّ من كظم غيظاً يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمناً وإيماناً يوم القيامة ، فأمر أن يمسك عن الخادم وأن يعفى عنه ، ثم قال له : آلله إن مالكاً حدثك بهذا ؟ فقال زياد : آلله إن مالكاً حدثني بهذا .

ومما يحكى عن الحكم بن هشام أن عمه سعيد الخير بن عبد الرحمن الداخل كان له خصومة مع ابن بشير ، وكان مع سعيد الخير وثيقة فيها شهادات وشهود من جملتهم الحكم بن هشام كان شهد قبل أن يصير خليفة ، فجاء عمه سعيد الخير يطلب منه الشهادة وهو خليفة ، فخشي القاضي يرد شهاداته ، فأرسل قبل أن يؤدي الشهادة ورقة بخطه للقاضي يخبره بأنه يشهد على ذلك القاضي أن يقبل فأبى شهادته ، فلم يغضب من رد شهادته ، بل قال : إن القاضي رجل صالح ولا تأخذه في الله لومة لائم .

ومن أخبار عبد الرحمن بن الحكم بن هشام أنه أغضب جاريته طروب فهجرته وكان يحبها فأرسل إليها يترضاها فأبت وأغلقت باب مجلسها فأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر ، فأقبل حتى وقف بالباب وكلّمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أنّ لها جميع ما سد به الباب من البدر ، فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر في بيتها فأكبّت على رجله تقبّلها وحازت المال ، وكانت تبرم الأمور مع محصر الخصي فلا يرد شيئاً تبرمه ، وخَلّف عبد الرحمن المذكور من الذكور مئةً وخمسين ومن الإناث خمسين ، وكانوا يسمونه عبد الرحمن الأوسط .

ومن أخبار عبد الرحمن الناصر أنه لما بنى الزهراء صنع له قُبَّة لجلوسه وزخرفها وزينها بالذهب ، وصنع طعاماً دعا إليه العلماء وجلس في تلك القبة ، فلما حضر العلماء ومعهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي ، فلما رأى تلك القبة جعلت دموعه تتحادر على لحيته ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله تعالى بلَغَ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفَضَّلَك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين ، فانفعل عبد الرحمن الناصر لقوله وقال له : انظر ما تقول وكيف أنزلتني منزلتهم ، قال : نعم، أليس قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف : ٣٣] فوجم الخليفة وطرق ملياً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى ، ثم أقبل على منذر فقال له : جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أَجَلَّ جزائه وكَثَّر في الناس أمثالك ، وأمر بنقض سقف القبة الذي طلوه بالذهب وأعادها على صفة ليس فيها ما ينكر عليه فيه .

وكان القاضي منذر بن سعيد ذا علم متين وذكاء رصين متفنناً في العلوم ، عاملاً بعلمه ، ورعاً زاهداً ، وكان خطيباً بليغاً ، آية في الوعظ ، لا يسمع أحد وعظه إلا خشع وبكى ، وكان حاضرَ الجوابِ قوي الحجة ذا منظر جميل وخلق حميد ، وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم ، قد أفردت ترجمته بتأليف ، وُلِدَ رضي الله عنه سنة خمس وستين ومئتين وتوفي سنة خمس وخمسين وثلاثمئة وعمره تسعون سنة ، ولاّه الناصر قضاء الجماعة سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة ، ولبث قاضياً من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى أن توفي الناصر فأبقاه في قضاء الجماعة الحكم بن الناصر ،

واستمر منذر المذكور في القضاء إلى أن توفّاه الله سنة خمس وخمسين وثلاثمئة ، فكانت مدة ولايته لقضاء الجماعة ست عشرة سنة ، وقضاء الجماعة عند أهل المغرب هو المعبّر عنه عند أهل المشرق بقاضي القضاة ، وله رحمه الله تآليف منها كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من كتب الفقه وغيرها .

وقد تقدم ذكر غزو عبد الرحمن الناصر الجلالقة سنة ثمان وثلاثمئة ، وأنه وطىء بلادهم ودوّخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرّب حصونهم ، ثم غزا بنبلونة سنة ثلاثمئة واثنتي عشرة ، ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعامل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاذيه في الجبال والأوطار ، فلم يقدر العدو أن يظفر منه بشيء ورجع سالماً ، وقسم الغنائم ، ثم بعد مدة ثار عليه بعض المسلمين واستعان بالنصارى ، فظفر بذلك الثائر وقتله وقتل من كان معه من النصارى أهل ألبة ، وسار إليهم وفتح ثلاثين حصناً من حصونهم ، وكان البشكنس ملّكوا عليهم امرأة يقال لها طوطرة وانعقد بينه وبينهم صلح ثم نقضوا ذلك الصلح ، فغزا طوطرة ملكة البشكنس في بنبلونة ودوّخ أرضها واستباحها ورجع إلى قرطبة ، ثم غزا الجلالقة سنة سبع وعشرين وثلاثمئة وسار إليهم بنفسه فنزل على دار مملكة الجلالقة وهي مدينة سَمُّورة عليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السابقة ، وبين الأسوار وصلات ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين وكان جيشه مئة ألف أو يزيدون ، والتقى مع ردمير ملك الجلالقة وكان معه جنود كثيرة من الفرنج وحصل القتال الشديد بين الفريقين ، فكان النصر في أول الأمر للمسلمين ، ثم رجع النصارى عليهم فحصل الانهزام للمسلمين وكتب الله الشهادة لكثيرة منهم ، وكان الذين قتلوا من المسلمين نحو خمسين ألفاً ، ثم والى عليهم الغزوات وصار يبعث الجيوش مع قواده وقتل منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين قبل ذلك ، وقد ذكر العلامة أحمد بن عبد ربه الأندلسي في كتابه المسمّى : بالعقد الفريد اثنتين وعشرين غزوة من غزواته ، ونظم كل غزوة منها في منظومة من الرجز وكان معاصراً له ، قال : وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الأفرنج مالم يطؤوه قبل ذلك في أيام سلفه حتى أذعن له أمم النصرانية ، وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته ، ووصل إلى سدته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين

بجهات قشتالة وبنبلونة وما يليها من الثغور فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه ، ثم سماه ملكه ، فتملك سبتة وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره ، وأطاعته بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر حتى صار ملكه في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وتقدم أن مدة ملكه كانت خمسين سنة وأنه توفي في سنة خمس وثلاثمئة ، وبويع بعده ابنه الحكم المستنصر بالله فقام بأعباء الملك أتم قيام ، ولما توفي والده الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزاهم الحكم بنفسه واقتحم بلد فِرْدْلَنْد فنازل شنب أشتبير وفتحها عنوة واستباحها وقَفَل ، فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه .

ثم أغزىٰ غالباً مولاه وسار إلى مدينة سالم ليتوصل منها إلى دخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأثخن فيهم وأوطأ العساكر بلد فِرْدِلَنْد ودوّخها ، وكان البشكنس قد أنقض فأغزاه الحكم صاحب سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لقصر البشكنس فهزمهم فامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها ، ثم أغزى الحكم بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد برشلونة ، فعاثت العساكر في نواحيها ، وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القوس فعاثا فيها وقفلا ، وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية وكان أعظمها فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب مولاه ، ثم عمرها الحكم واعتنى بها ، ثم فتح بعض عماله قطانية ، وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث والغنم والبقر والرَّمَك والأطعمة والسبي ما لا يُحصى ، كان كل ذلك في أقرب الزمن .

وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمئة جهز جيشاً مع مولاه غالب إلى بلد ألبة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف ، فدوّخوا بلادهم ورجعوا غانمين .

وفي هذه السنة ظهرت مراكب المجوس في البحر الكبير فأفسدوا بسائط أشبونة من الأندلس وناشبهم الناس القتال وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، ثم جاءت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة فرجعوا إلى مراكبهم ، ثم كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة يتوقع مظاهرة الحكم مستجيراً به من ابن عم له خرج عليه ، فأكرمه الحكم ووعده النصر من عدوه وخلع عليه ، ثم بعث ابن عمه أيضاً يطلب البيعة والدخول في الطاعة فتقبل بيعتهم على شروط .

ثم بعث ملك برشلونة وملك طركونة وغيرهما من ملوك الفرنج كلهم يطلبون المعاهدة والدخول في طاعة الحكم ، وبعثوا بهدايا جزيلة فتقبلهم الحكم وعقد لهم الصلح والبيعة ، وشرط عليهم أن يهدموا الحصون التي تضر بثغور المسلمين ، وألاّ يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسل غرسية ملك بشكنس يسألون الصلح والدخول في الطاعة والبيعة ، فعقد لهم فاغتبطوا ورجعوا ، ثم أوصلت أم لُذَرِيق وهو القومس الأكبر ، فاحتفل لقدومها فعقدت السلم لابنها فرجعت ، وصنع لقدوم هؤلاء الملوك عليه احتفالات ومواكب فيها إظهار عز الإسلام يطول الكلام بذكرها وكلها مذكورة في التواريخ ، وكانوا عند دخولهم على الحكم يكشفون رؤوسهم ويخلعون برانطهم إعظاماً له ويقبّلون يده ويقول كل واحد منهم : أنا عبد أمير المؤمنين ، وإذا قام كل واحد منهم للانصراف يكون مقهقراً لا يُولي الخليفة ظهره تعظيماً له ويعلنون له بالدعاء ، وكان الحكم عاملاً نبيلاً أقام للعلماء والعلم سوقاً نافقاً ، واجتمع عنده من خزائن الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك قبله .

قال ابن حزم : إن عدد الفهرست التي فيها أسماء بعض الكتب أربع وأربعون فهرستاً ، وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين ، وأما غير الدواوين من سائر فنون العلوم فشيء كثير ، قيل إن كتبه كلها كانت أربعمئة ألف مجلد ، وقلّما يوجد كتاب منها إلا وله فيه قراءة ونظر ومكتوب على هوامشه خطه ، ولما ألّف أبو الفرج الأصفهاني كتابه المسمّى : بالأغاني بعث للحكم نسخة فأجازه بألف دينار ، تولى الحكم سنة ست وستين وثلاثمئة ومدة ملكه ست عشرة سنة ، وخلف ابنه هشام المؤيد وكان عمره تسع سنين ، وكان جعله ولي عهده واستوزر له محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور المعافري ومعافر بطن من حمير ، وكان يخدم أم هشام المؤيد ، ثم ترقّى إلى أَنْ ولاّه الحكم قضاء بعض المواضع فظهرت نجابته ، ثم ترقّى إلى أن ولاه الزكاة والمواريث ، ثم استوزره لابنه فحجب الخليفة هشاماً المؤيد وباشر الوزير المذكور تدبير الملك بنفسه ، وله صفات حميدة مذكورة في التواريخ ومفردة بالتأليف .

وجاشت الروم في أول ولاية هشام فجهز عليهم الوزير المذكور جيوشاً له لدفاعهم فنصره الله عليهم ، فتمكّن حبه من قلوب الناس خاصتهم وعامتهم ، واستجلب الناس بكرمه وحسن أخلاقه ، فانتشر صيته وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وأوسع الجند في العطاء ، وكان ذا عقل ورَأْي وشجاعة وكرم وبصيرة بالحروب ودين متين ، وكان عالماً مقناً ، وسيرة هذا الوزير وهو منصور بن أبي عامر طويلة مذكورة في التواريخ ، وأباد المتغلبين على الخلافة المارقين عن الطاعة ، وكرر الغزو والجهاد واستبد في جميع الأمور بحيث لم يبق ذكر لأحد من رجال الدولة ولا من أولاد الخلفاء ، بل الذكْرُ والتصرف كله له وحده والخليفة محجور عليه ، واستمر ذلك سبعاً وعشرين سنة ، وكان يغزو كل سنة غزوتين غزوة في الصيف وغزوة في الشتاء .

قال في (نفح الطيب) : إن المنصور بن أبي عامر تمرّس ببلاد الشرك أعظم تمرس ، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس وغادرهم صرعى في البقاع وتركهم في أذل من وتدٍ بِقَاع .

ذكر غزوة من غزواته

سبب هذه الغزوة أن أحد رسله سار في بعض مسيراته إلى غرسية ملك البشكنس بن شانْجُه ، فوالى في إكرامه وتناهى في بِرّه واحترامه وطالت إقامته عنده فلا منتزه إلا ومرّ عليه متفرجاً ولا منزل إلا سار إليه معرجاً ، فحلَّ مرة أكبر الكنائس هناك ، فبينما هو يجول في ساحتها ويجيل العين في ساحتها إذ عرضت له امرأة قديمة الأثر قويمة على طول الكسر فكلمته وعرفته بنفسه وقالت له : أَرَضِي المنصور أن يتنعم بِلَبُوسِ العافية ولي سنين مأسورة مختبئة ؟ وناشدته الله أن يبلغ المنصور خبرها ، فلما رجع إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه وهو مصغٍ إليه حتى تم كلامه ، فلما فرغ قال له المنصور : هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته ؟ فتذكر أمر المرأة المأسورة ، فأعلمه بقصتها فلامه على أن لم يبدأ به كلامه ، ثم أخذ للتجهز للجهاد من فوره ، فلما تم جهازه وتكاملت جنوده ، سار حتى وافى ابن شانْجُه ، فأخذت هيبته بسمعه وبصره ، فبادر بالكتاب إليه ليتعرف ما الجلية ، ويحلف أنه ما جنى ذنباً ولا جفا عن مضجع الطاعة ، فعنّف المنصور رسل ابن شانْجُه وقال لهم :

قد كان وعدني على أنه لا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ، ولو بعثه إليّ في حواصل الطيور ، وقد بلغني بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة والله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها ، فرجعوا إلى ابن شانْجُه وأخبروه ، فأرسل المرأة ومعها امرأتان أخريان وأقسم أنه ما أبصرهنَّ ولا سمع بهنَّ قبل ذلك ، وأعلمه أن تلك الكنيسة قد بالغ في هدمها تحقيقاً لقوله ، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطوله ، فاستحيى منه وصرف الجيش عنه ، وأوصل المرأة ومن معها إلى نفسه وألحق توحشهن بأنسه وأوصلها إلى أهلها ورجع من غزوته ، وكان الخليفة هشام لا يراه خاصٌّ ولا عام ، ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه إنعام ، وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيّرهم لا يعرفونه ، وأمرهم لا يذكرونه ولا يعهد فيه إلا الاسم السلطاني في السكة التي يتعامل الناس بها والدعوة على المنابر وربما أركبه في بعض السنين ، وجعل عليه برنساً ويركب معه بعض جواريه ، ويجعل عليهن مثلما عليه ، فلا يعرف من بينهن ويأمر من ينحي الناس عن طريقه حتى ينتهي إلى موضع تنزهه ثم يعود ، وأخذ في اغتيال من يَخْشىٰ منه خوفاً من أن يثوروا به ، وكانت غزواته نحو الخمسين يطول الكلام بذكرها ، وكلها كانت من مفاخر الإسلام حتى اشتدت هيبته في قلوب الكفرة اللئام .

ومما يحكى مما كان في بعض غزواته أن بعض الأجناد نسي رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العسكر ، وهذا مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث ، لأنهم لما أُشْرِبَتْ قلوبهم الخوف من المنصور وعلم كل من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه لجؤوا إلى الفرار وتحصنوا بالمعاقل والقلاع ، ولم يحصل منهم غير الإشراف من بعد والاطلاع .

ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مَرَّ بين جبلين عظيمين في طريق ضَيّق بوسط بلاد الفرنج ، فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يميناً وشمالاً لم يجسر أحد من الفرنج على لقائه ، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ثم عاد من ذلك الطريق فوجد الأفرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المحل الضيق الذي بين الجبلين وكان الوقت شتاء ، فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلاً من بلادهم لجيشه ونزل به فيمن معه من العساكر وأمرهم ببناء دور ومنازل وأن يجمعوا آلات الحرث ونحوها ليعلم الفرنج أنه أراد الإقامة بأرضهم ، وبَثَّ سراياه

فسبت وغنمت ، فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم أن أصحابي قد أبوا أن يخرجوا وقالوا : إنّا لا نكاد أن نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى فنقعد ههنا إلى وقت الغزوة الأخرى فإذا غزونا عدنا ، فما زال الفرنج يسألونه أن يرتحل إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معهم من الغنائم والسَّبي وأن يمدوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده وأن يُنَحّوا جيَفَ القتلى عن طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كله وانصرف عنهم ، ولَعَمْري إن هذا العزَّ ما وراءه مطمح ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح خصوصاً إزالتهم جيف قتلاهم عن الطريق ، وقد تقدم ذكر هذه الغزوة مختصراً فإعادتها لا تخلو من فائدة .

خبر عجيب من أخبار المنصور

ومن أخبار المنصور بن أبي عامر أنه قدم عليه رسول ملك الروم الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان ، وكان قَصْدُ ملكِ الروم من إرساله إياه أن يطلع على أحوال المسلمين وقوتهم ، فلما علم المنصور به قبل وصوله أمر أن يُغْرَسَ نيلوفرٌ كثير عند بركة عظيمة في بستان من بساتينه ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ما تسع النيلوفرة ، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي عند البركة ، فلما جاء رسول ملك الروم إليه فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي في موضعه المسمى بالزاهرة المشرف على موضع البركة ، فلما قرب طلوع الفجر جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة بيد خمسمئة منهم أطباق من الذهب ، وبيد خمسمئة منهم أطباق الفضة ، فتعجب الرسول من حسن صورهم وجميلِ هيئتهم ولم يدر ما المراد ، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر وصاروا يجتنونه كما يجتنى الثمر من الشجر وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ذلك وجاؤوا به فوضعوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً بين يديه ، فتعجب رسول ملك الروم من ذلك وأعظمه وظن أن ذلك ثمرُ ذلك الشجرِ ، فطلب المهادنة من المسلمين وذهب مسرعاً إلى مرسله ، وقال له : لا تعادِ هؤلاء القوم فإني رأيت الأرض

تخدمه بكنوزها ، وهذه القصة من الغرائب وإنها لحيلة عظيمة في إظهار عِزّ الإسلام وأهله ، وكان المنصور بن أبي عامر آية من آيات الله سبحانه وتعالى في السعد ونصرة الإسلام .

غزوة أخرى من غزواته

سبب هذه الغزوة أنه لقيته امرأة حين رجع من بعض غزواته فقالت له : يا منصور استمع ندائي فأنت في طيب عيشك وأنا في بكائي ، فسألها عن مصيبتها فذكرت أن لها ابناً أسيراً في بلاد سَمّتها له وأخبرته أنها لا يهنأ عيشها لفقده ، فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وأمر بالتجهز إلى الغزو ، وسار بجيوشه حتى بلغ تلك البلاد التي سَمَّتْها له وفيها ابنها ، فجاسوا أقطار تلك الديار وتخلَّلَها قتلاً وأسراً ونهباً وتخريباً حتى دوخها حتى خلص ابنها ، وجميع من كان هناك من الأسرى ، ورجع مظفراً منصوراً ، فهكذا تكون الهمة السلطانية والنجدة الإيمانية .

ومن مناقبه التي لم تكن لغيره من الملوك أن أكثر جنده من السبي الذي كان يأخذه من العدو ، ومن محاسن أخباره أنه خَطَّ بيده مصحفاً كان يحمله في أسفاره يقرأ فيه ، ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما عَلِقَ بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه منه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صُرَّة ضخمة ، وعهد إليهم أن يجعلوه في حَنُوطِهِ فكان كذلك ، وكان يجعل تلك الصُّرّة حيث سار .

ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينهزم في حرب قط وما انصرف من موطئه إلا قاهراً غالباً على كثرة ما زاول من الحروب ، قيل له مرة إن فلاناً شؤم فلا تستخدمه ، فقال : أُفٍّ لسعد لا يغطي على شؤمه ، فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذي به جرت العادة شيء .

ذكر غزوة أخرى من غزواته

من غزواته المشهورة غزوة مدينة شنت ياقُبَ وهي قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل به من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها

عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثل الأعلى ، فيها يحلقون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقُب الحواري أحد الاثني عشر الحواريين ، وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وهم يسمّونه أخاه للزومه إياه ، وياقُبُ بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً لبيت المقدس ، ثم خرج يستقرىء الأرض داعياً إلى الله لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ، ثم عاد إلى الشام فمات بها وعمره مئة وعشرون سنة ، احتمل أصحابه جثته فدفنوه بهذه الكنيسة ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها والوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبُعْدِ شُقَّتِها ، فخرج المنصور إليها من قرطبة غازياً بالصائفة سنة سبع وثمانين وثلاثمئة لِستٍّ بقين من جمادى الآخرة ، ودخل على مدينة قُورِيَة ، فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامِس المتمكنين في الطاعة ، فصاروا في عسكر المسلمين ، وكان المنصور أمر بإنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي انس من ساحل غرب الأندلس ، وجهزه برجاله وحمل في الأسطول الأقوات والعدة والسلاح استظهاراً على نفوذ العزيمة إلى أن خرج ذلك الأسطول بموضع يقال له برتغال على نهر دوين ، فدخل في النهر إلى المكان الذي عَيَّنه لهم المنصور للعبور منه فعقد هنالك جسراً بقرب الحصن ، وجعله يتصل بالأسطول ، فوجّهوا ما كان فيه من المِيرة إلى الحصن ، ثم منه إلى الجند فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت ياقب ، فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارش وما يتصل بها ، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق ولم يهتد الأدلاء إلى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه حتى قطعه العسكر وعبروا بعده وادي مِنْيُهْ ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أَرِيضة ، وانتهت مغيرتهم إلى ديرقشان وبسيط بلنبو على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايُهْ وغنموا وعبروا بساحته إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي فسبوا من فيها ممن لجأ إليها ، وانتهى العسكر إلى جبل مُرَاسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه .

ثم جاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء عليه ثم نهر أيلة ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم إليه من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعاً صفصفاً ، ثم كان النزول بعده على شنت ياقب وذلك لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعَفَوْا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيماً كأن لم تَغْنَ بالأمس ، ونشفت بعد ذلك سائر البسائط ، وانتهت الجيوش إلى مدينة شنت ماتكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقُبَ ، وقد بلغ غاية لم يبلغها قبله مسلم ، فجعل في طريقه وهو راجع القصد على عمل برمُند بن أردون تعيث جيوشه في عمله تخربه وتفسده حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين كانوا معه في عسكره ، فأمره بالكف عنها ، وَمَرَّ مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية ، فأجاز هناك القوامس الذين كانوا معه وأكرمهم على أقدارهم ، وكساهم وضرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح من بليقية .

وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه ملوك الروم ولمن حسن غَنَاؤه من المسلمين ألفاً ومئتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي ، وواحداً وعشرين كساءً من صنوف الحبر وكساءين عنبريين ، وأَحَدَ عَشَرَ سقلاطوناً ، وخمسة عشر مرشياً ، وسبعة أنماط ديباج وثوبي ديباج رومي وفروة فتك ، ووافى قرطبة بجميع العساكر سالماً غانماً ، وعظمت المِنَّة على المسلمين ولم يجد بشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأل عن مقامه ، فقال : أؤنس بيعقوب ، فأمر بالكف عنه .

غزوة أخرى من غزواته

سبب هذه الغزوة أن جماعة من صنهاجة وهم من البربر قدموا على المنصور بن أبي عامر من المغرب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة ، فنزلوا عليه بقرطبة فأكرمهم

وأجرى عليهم الوظائف ، وسألهم عن سبب انتقالهم من إفريقية إلى الأندلس ، فقالوا : إنما اخترناك على غيرك وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله تعالى ، فاستحسن ذلك منهم ووعدهم ووصلهم ، فأقاموا أياماً ثم دخلوا عليه وسألوه إتمام ما وعدهم به من الغزو ، فقال : انظروا ما أردتم من الجند لأجل أن نعطيكم ، فقالوا : ما يدخل معنا بلاد العدو وغيرنا إلا الذين معنا من بني عمنا ومن بقية صنهاجة وموالينا ، فأعطاهم الخيل والسلاح والأموال ، وبعث معهم دليلاً ، وكان الطريق ضيقاً فأتوا أرض جليقية فدخلوها ليلاً وكمنوا في بستان بالقرب من المدينة وقتلوا كل من به وقطعوا أشجاره ، فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد فضربوا عليهم وأخذوا جميع الخارجين وقتلوهم جميعهم ورجعوا ، فتسامع العدو فركبوا في أثرهم ، فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة ، فلما حازهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا في ساقتهم وكبروا ، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدو كثير ، فانهزموا وتبعتهم صنهاجة فقتلوا خلقاً كثيراً ، وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا إلى قرطبة ، فعظم ذلك عند ابن أبي عامر ورأى من شجاعتهم ما لم ير من جند الأندلس ، فأحسن إليهم وجعلهم بطانته ، فلما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد ، فقالوا للمنصور بن أبي عامر : لقد نشطنا هؤلاء للغزو ، فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد بنفسه ، وكان رأى في المنام تلك الليلة كأن رجلاً أعطاه الأسبراج ، وهو اسم لنبت فأخذه من يده وأكل منه ، فعبَّره علي بن أبي جمعة فقال له : اخرج إلى بلد اليونان فإنك ستفتحها ، فقال : من أين أخذت هذا ؟ فقال : لأن الأسبراج يقال له في المشرق الهِلْيَوْن كبرذون ، فملك الرؤيا قال لك هاليون ، فخرج بتلك الجيوش ونازلها وهي من أعظم مدائنهم ، واستمد أهلها الفرنج فأمدوهم بجنود كثيرة واقتتلوا ليلاً ونهاراً فكثر القتل في الفرنج ، وصبرت صنهاجة صبراً عظيماً ، ثم خرج قَوْمِصٌ كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله ، فجال بين الصفوف وطلب البراز ، فبرز إليه جلالة بن زيري الصنهاجي فحمل كل منهم على صاحبه ، فطعنه الفرنجي فمال عن الطعنة وضرب الفرنجي بالسيف على عاتقه فسقط الفرنجي إلى الأرض وحمل المسلمون على النصارى ، فانهزموا إلى بلادهم وقتل منهم ما لا يحصى ، وملك المدينة وغنم ابن أبي عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلها ، واجتمع من السبي ثلاثون ألفاً ،

وأمر بالقتلى فنضّد بعضهم على بعض ، وأمر مؤذّناً فأذّن فوق القتلى المغرب ، وخرب مدينة قامونة ورجع سالماً هو وعساكره .

قال في نفح الطيب : وانتهت هيبة المنصور بن أبي عامر وضبطه للجند إلى غاية لم يصلها ملك قبله ، فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلاً في الإطراق حتى إن الخيل لتتمثل في الإطراق مثل فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ، ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سلّه بعض الجند أقصى الميدان لهزل أو جِدّ بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله فقال : عَلَيَّ بشاهر السيف ، فمثل بين يديه لوقته فقال : ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا تشهر فيه إلا عن إذن ؟ فقال : إني أشرت به إلى صاحبي مغمداً فزلق من غمده ، فقال : إنّ مثل هذا لا يسوّغ بالدعوى وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودي عليه بذنبه ، وذكر أيضاً أن المنصور كان به داء في رجله واحتاج فيه إلى الكي فأمر الذي يكويه أن يكويه وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر وينهى ويتصرف في أموره ورجله تكوى والناس لا يشعرون حتى شَمّوا رائحة الجلد واللحم وهو غير مكترث بذلك فتعجب الناس من ذلك .

وذكر في نفح الطيب كثيراً من أخباره في الكرم والعفو والحلم وحسن الخلق ، ثم قال : وأخبار المنصور تحتمل مجلدات فلنمسك العنان .

توفي المنصور بن أبي عامر في غزوة للأفرنج في شهر صفر سنة ثلاثمئة واثنتين وتسعين بمدينة سالم لسبع وعشرين سنة من ملكه ، وقام بالأمر بعده ابناه عبد الملك وعبد الرحمن واحداً بعد واحد ، فقام بالأمر أولاً ابنه عبد الملك فجرى على سَنَن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين ، ثم قام بالأمر بعده الابن الآخر عبد الرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحَجْر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ، ثم ثاب له رأي في الاستئثار بالمملكة فطلب هشاماً لأن يجعله ولي عهده فأجابه لذلك لتغلبه عليه ، وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك فقرىء في ذلك المجمع ، وكتب القضاة والوزراء وسائر الناس شهاداتهم بخطوطهم ، ثم سعى كثير من الأمويين وغيرهم في نقضه وأثاروا لذلك فتنة إلى أن قتلوا عبد الرحمن سنة تسع وتسعين وثلاثمئة ، ثم خلعوا الخليفة هشاماً وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر ، ثم أعيد هشام ثم فُقِد سنة ثلاث وأربعمئة ، وقيل قتل ، وثار من

ذلك فتن كثيرة يطول الكلام بذكرها آل الأمر فيها إلى زوال ملكهم وافتراق كلمتهم ، وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر ، ثم صار في كل مملكة خليفة يدعى أمير المؤمنين ، وتبدّد شمل الجماعة بالأندلس ، ثم صار الملك في طوائف متغلّبين ، في كل ناحية ملك مستقل متغلب ، ولا حاجة بنا إلى ذكر أسمائهم ، وعند ذلك استفحل أمر النصارى ، وصاروا يتغلبون على ممالك الأندلس ، ويملكونها قطراً بعد قطر وناحية بعد ناحية ، وصار ملوك الطوائف لا يسأل بعضهم عن بعض ولا يحامي ولا يدافع إلا عن نفسه ، وربما تقاتلوا مع بعضهم وتغلّب بعضهم على بعض .

ذكر أول مدينة تملكها الطاغية

أول مدينة تملكها الطاغية بلنسية سنة ست وخمسين وأربعمئة ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بطرنة اسم موضع هناك ، وذلك أن الأفرنج ، خذلهم الله تعالى ، انتدبت منهم قطعة كثيفة ونزلت على بلنسية في السنة المذكورة وأهلها جاهلون بالحرب معرضون عن أمر الطعن والضرب مقبلون على لذات الأكل والشرب ، ولما نازلها الفرنج أظهروا لأهلها الندم على منازلتها والضعف عن مقاومة من فيها وخدعوهم بذلك فانخدعوا وأطمعوهم فطمعوا ، وكان المتغلب على تملكها من ملوك الطوائف عبد العزيز بن أبي عامر المعافري ، ثم إن العدو جعل في مواضع خارج المدينة كمناء وجماعة من الفرسان ، فظن أهل البلد أن العدو تفرق وارتحل عنهم ، فخرجوا في زينتهم ومعهم أميرهم فصبر العدو لهم استدراجاً ومكراً حتى خرج الناس كأنهم في عيد فخرج عليهم الكمناء ، وعطفوا عليهم بالقتل والأسر حتى استأصلوهم وما نجا منهم إلا من بقي أجله ، وخلص الأمير نفسه ، واستولى العدو على بلنسية ، وكانت بلنسية في شرقي الأندلس ، وكان في شرقي الأندلس من المدائن العظيمة بلنسية ومرسية وتطيلة وسرقسطة ولارِدَة ودانية والسهلة والثغر الأعلى ، ولكل واحدة من هذه أعمالٌ واسعة ، وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي ملكاً مستبداً بمدينة تُطِيلة ، ثم ملك سرقسطة والثغر الأعلى وبلنسية ولاَرِدَة ودانية والسَّهْلة ، فكان استيلاء العدو أولاً على بلنسية في السنة المذكورة ، وسيأتي ذكر رجوعها للمسلمين ثم استرجاع النصارى إياها مرة أخرى .

ذكر تملك العدو بَرْبُشْترْ وسَرَقُسْطَة وذلك قصبة بَرْبَطَانية

من الممالك التي في شرقي الأندلس بُرْبُشْتَر وسَرَقُسْطة والثغر الأعلى ومدينة تُطِيلَة ومرسية وبلنسية وغير ذلك ، والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان بن محمد بن هود الجذامي من سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة ، وكان قبلهم متغلباً عليها بنو منذر بن مطرق التجيبي فانتزعها منهم بنو هود في السنة المذكورة ، فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمئة نازلها جيش الأَرْذَمليس وحاصرها ، وقصَّر الأمير يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها ووكل أهلها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوماً ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوات لقلته ، واتصل الخبر بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها ، وكان لها مدينتان فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع ، فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمئة أفرنجي .

ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من أنهر إلى المدينة تحت الأرض في سِرْب موزون ، فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سَدَّت السرب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى إن الذي خصَّ به بعض مقدَّمي العدو نحو ألف وخمسمئة جارية أبكاراً ، ومن أَوْقَارِ الحلي والكسوة ما يحمل خمسمئة جمل ، وقُدّر القتلى والأسرى مئة ألف نفس .

ومن نوادر ما جرى لهذه المدينة لما فسدت القناة ، وانقطعت المياه أنَّ المرأة كانت تقف على السور وتنادي من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو لولدها ، فيقول لها : أَعْطني ما معك ، فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيرها .

وكان السبب في قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع في قتلهم ، فلما قتل منهم نيفاً عن ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقي ، وأمر أن يخرج من بقي بالبلد ، فازدحموا على الباب إلى أن مات منهم خلق كثير

ونزلوا من الأسوار بالحبال خشية من الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء ، وقد كان تجبَّر في المدينة ولم يخرجوا وكانوا زُهَاء سبعمئة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خَلَت مِمّن أُسِرَ وقُتِل وأُخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية أن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان ، وأُرْهِقُوا وأُزْعِجوا ، فلما حصل كلٌّ واحدٍ منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الأفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك ، وأخذ كلٌّ منهم داراً بمن فيها نعوذ بالله تعالى .

وكان جماعة من أهل المدينة قَدْ فَرّوا ولاذوا برؤوس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن بقي أجله .

وكان الفرنج لعنهم الله تعالى لما استولوا على المدينة يَفْتضّون البِكْرَ بحضرة أبيها والثَّيب بحضرة زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأمور والأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ، ومن لم يرض منهم أن يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن عَيْثةً ، وبَلَغَ الكَفَرة منهم ما لا يمكن أن يوصف على الحقيقة .

ولما عزم ملكهم على القفول إلى بلده تخيَّر من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثّيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم ألوفاً حملهم معه ليهديهم إلى مَنْ فوقه من ملوكهم ، وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفاً وخمسمئة ، ومن الرَّجّالة ألفين .

ومِمّا كان في هذه الوقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ملتمساً فِدْيةَ بناتِ بعض الوجوه ممن نجا من أهلها كُنَّ حَصَلْنَ في سهم قَوْمِسٍ من الرابطة فيها كان يعرفه ، قال : فذهبت إلى منزله واستأذنت عليه ، فوجدته جالساً مكان ربّ الدار مستوياً على فراشه رافِلاً في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خَلَّفَهما ربُّهما يوم محنته لم يُغَيَّر شيءٌ من رياشهما وزينتهما ، ووُصفَاؤه مضمومات الشعر قائمات على رأسه ساعيات في خدمته فرحَّب بي وسألني عن قصدي ، فعرفته وَجْهَهُ وأشرت

إلى وفور ما أبذل له في بعض اللواتي كُنَّ واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتي فتبسّم ، وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك ! أعرض عنهن وتعرّضْ لمن شئت ممن صيّرتُه لِحِصْني من سَبْي وأسرى من أقاربك ، فقلت له : أما الدخول إلى الحصن ، فلا رأي لي فيه وبقربك أنست ، وبكنفك اطمأننت ، فأعطني بعض من هنا فإني أعطيتك رغبتك ، قال : وما عندك ؟ فقلت : العين الكثير الطيب والبَزُّ الرفيع الغريب ، فقال : كأنك تُشهّيني ما ليس عندي يا باجَهْ ، ينادي بعض أولئك الوصائف يريد بهجة ، فغيَّره بعجمته ، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق ، فقامت إليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وإسقاط الحلي فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصه ، ثم قال لها : أَدْني من تلك التخوت ، فأدنت منه قطعة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظري وبهتُّ واسترذلت ما عندي ، ثم قال لي : لقد كثر هنا عندي كل شيء حتى ما ألتذ به ، ثم حلف لي أنه لو لم يكن عنده شيء من ذلك ثم بذل لي أحد مثل ذلك ما سخوت بهذه الجارية التي تطلبها نفسي ، فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه ، واصطفيتها لنفسي لمزيد جمالها لأجل أن تلد لي ، وفعلنا هذا مثلما كان قومها يصنعون بنسائنا إذ ملكونا حين كانت دولتهم وقد رَدَّ الله لنا الكرَّة عليهم فصرنا فيما تراه ، وأزيدك بأن تلك الخَوْدة الناعمة ، وأشار إلى جارية أخرى كانت مغنية لوالِدِها ، ثم قال لها : يا فلانة خذي عودك ، فأخذت العود وقعدت تسوّيه وإني أتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارع العِلْجُ مَسْحَهُ بيده ، واندفَعَتْ تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العلج وأظهر الطرب ، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً وأُطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبي والمغنم فطال تعجبي .

قال في نفح الطيب : فهذا فيه مَقْنَعٌ لمن تدبَّره وتَذْكِرة لمن تَذَكَّرهُ .

إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فإن أهل الأندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحلَّ بهم داء التقاطع ، وقد أُمِرُوا بالتواصل والألفة فأصبحوا على شفا جُرُفٍ يؤدي إلى الهلكة لا محالة ، وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل ويغترون بالنعيم الزائل ، وقد بعدوا عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سد ثغورهم حتى جاس عدوهم بخلال ديارهم ، ثم سرى البَثْقُ إليهم جميعاً فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ذكر استرجاع المسلمين بُرْبُشْتَر وسَرَقُسْطَة

ولما كانت السنة التي بعد أخذها وهي سبع وخمسين وأربعمئة ثار أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها ، والمتهم على أهلها لانحرافهم إلى أخيه صمد لها مع أمداد المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وسعى لإصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى ، عليه منها ما يمحوه إلا عفوه تعالى ، فتأهب لقصد بربشتر في جموع من المسلمين ، فجاهدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأَعَزَّ الله تعالى أهل الحقيقة والشجعان وحَمِي الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم وملكوهم أجمعين إلا من فَرَّ من مكان الوقعة ، ولم يدخل المدينة فأجيل السيف في الكافرين واستؤصلوا أجمعين إلا من استرق من أصاغرهم وفُدي من أعاظمهم ، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم وملكوا المدينة بقدرة الخالق الباري ، وأصيب في منحة النصر المناخ طائفة من حماة المسلمين الجادّين في نصرة الدين نحو الخمسين كتب الله لهم الشهادة ، وقتل فئة من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدى الإفك ، واسترجع بلنسية المأمون بن ذي النون ، وولّى عليها أبا بكر بن عبد العزيز المنصور ، فداخله ابن هود في الانتقاض ففعل ، واستبد ببلنسية وضبطها وذلك سنة ثمان وستين وأربعمئة .

ثم مات أبو بكر بن عبد العزيز فتملكها بعده ابنه القاضي عثمان بن أبي بكر وبقي إلى سنة ثمان وسبعين وأربعمئة ، فلما تملك الطاغية طُليطُلة في هذا العام ، كما سيأتي ، وتسلمها من القادر بن ذي النون وشرط عليه القادر أن يمكنه من تملك بلنسية ، فسار معه الطاغية بجيوشه إلى أن ملّكه بلنسية ؛ وذلك أَنَّ المسلمين لما أقبل عليهم القادر بن ذي النون ومعه جيوش الطاغية خافوا أن يتملكها الطاغية فخلعوا القاضي عثمان بن أبي بكر وسلموها للقادر بن ذي النون ، وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمئة ، وبقي إلى سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة وكان ذلك بعد دخول يوسف بن تاشفين الأندلس وتغلبه على ملوك الطوائف ، كما سيأتي بيانه ، فجهز جيشاً لتخليص

بلنسية من القادر بن ذي النون وجعل إمارة بلنسية للقاضي أبي أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف ، فحصر بها القادر بن ذي النون الذي مكن الأَذْفُونْشُ من طليطلة ثم هجم عليه القاضي في جماعة من المرابطين فقتلوه ، وذلك سنة ثلاث وثمانين وأربعمئة وتملك ابن جحاف بلنسية ، ثم رجع عنه طائفة المرابطين الذين كان استنصر بهم وأعانوه على تملكه إياها ، وصار خائفاً من استيلاء الطاغية عليه وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فيبطىء عليه النصر ، وفي أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة لذريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية فدخلها وعاهده القاضي ابن جحاف واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون ، فأقسم أنها ليست عنده ، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله ، فاتفق أنه وجدها عنده فأحرقه بالنار وعاث في بَلَنْسِيَةَ ، وكان الاستيلاء عليه سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ، وقيل في التي قبلها ، وهذا الطاغية الذي أخذها يقال له أيضاً القنطيور وحاصرها قبل أخذها عشرين شهراً ، قيل إنه دخلها صلحاً ، وقيل بل عنوة ، وحرقها وعاث فيها ، وممن أحرقوا فيها الأديب أبا جعفر بن البناء الشاعر المشهور ، ثم وجَّه إليها جيشاً أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين وجعل أميراً على الجيش أبا محمد مرزلي ، ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمئة ، وبقيت بلنسية بيد المسلمين إلى سنة ستمئة وثلاثين ثم أخذها العدو ، وسيأتي ما كان بعد ذلك .

ومما استولى عليه العدو مدينة المَرِيَّة وهي من مدائن الأندلس العظيمة الشهيرة استولى عليها العدو سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة ، وأُحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً .

قال ابن حبيش وهو آخر الحفاظ بالأندلس : كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله للإسلام ، فتقدمت إلى زعيم النصارى وهو ابن بنت الأذفونش وقلت له : إني أحفظ نسبك منك إلى هرقل ، فقال : قل فذكرته له ، فقال لي : آخرج أنت وأهلك ومن معك طلقاً بلا شيء ، ثم إنها بعد أن أخذت في السنة المذكورة استرجعها المسلمون سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة ، وبقيت بيد المسلمين إلى أن أخذها الكفار مرة أخرى ، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى .

ذكر تملك الطاغية طليطلة

قال في نفح الطيب : إن الأندلس ينقسم إلى مشرق ومغرب ومتوسطة ، وكل واحد من الأقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة ، كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لا يحصون في غاية التنعم والرفاهية ، فمن المتوسطة قرطبة وطليطلة وجَيَّان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالَقَة وغير ذلك مما يطول ذكره ، ومن شرق الأندلس مُرْسِية وبَلَنْسِية وشاطبة ودانية والسهلة والثغر الأعلى وسَرَقُسْطة وتُطِيلَة وغير ذلك مما يطول ذكره ، ومن غرب الأندلس إشبيلية ومارِدَة وأُشْبونة وشِلْب وشَرِيش ولَبْلَة والخضراء وبَطَلْيَوْس وغير ذلك مما يطول ذكره .

ولما ضعف أمر الخلافة وافترق ملوك الأندلس وكثر الاختلاف بينهم وانتشرت الفتن ، صارت الممالك بيد ملوك كثيرة يسمون ملوك الطوائف لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان تحت يده من الممالك ، وهم مختلفون في اتساع ممالكهم وعدم اتساعها ، وكان ابتداء تفرق الممالك واستبداد تملك الطوائف من سنة سبع وأربعمئة ، وصاروا يقاتل بعضهم بعضاً فيتغلب بعضهم على بعض ويستولي على ما بيد الآخر ، وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لا حاجة إلى ذكر أسمائهم ، وكان أعظم الممالك عندهم قرطبة وهي مقر دار الخلافة وسرير الملك والسلطنة ، وكان المستولي على قرطبة من ملوك الطوائف المعتضد بن عباد ، وكانت قبل تغلّبه عليها عند أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور المعافري الكلبي ، استبدَّ بها من سنة ثنتين وعشرين وأربعمئة ، ثم صارت لبنيه من بعده ، فأخذها منهم ابن ذي النون صاحب طليطلة سنة إحدى وستين ، وبقيت عنده إلى سنة تسع وستين وأربعمئة ، فانتزعها منهم المعتضد بن عباد بعد قتال وضمها إلى ما كان بيده من الممالك ، فصار ابن عباد أعظم ملوك الطوائف فكانوا يهابونه ويهادونه ويخضعون له ويخشون سطوته ، وكان أبو المعتضد وهو الذي أسس له هذا الملك قيل إنه من لخم وينتهي نسبه إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة في الجاهلية ، وتوفي المعتضد بن عباد سنة إحدى وستين وأربعمئة ، وصار الملك بعده لابنه المعتمد محمد بن عباد ، فاتسع ملكه وشمخ سلطانه أكثر مما كان لأبيه .

وكان أيضاً من أعظم الممالك طليطلة ، وكانت لبني ذي النون ، وكانت قبلهم ليعيش بن محمد بن يعيش من أول الفتنة والتفرق إلى سنة سبع وعشرين وأربعمئة ، فانتزعها منهم وتغلب عليها إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن سليمان بن ذي النون ، أصله من البربر من قبيلة هوارة ، وضمها إلى ما كان بيده من الممالك فاتسع ملكه ، وتوفي سنة تسع وعشرين وأربعمئة فَوَلِيَ بعده ابنه المأمون أبو الحسن يحيى ، فاستفحل ملكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه ، وتوفي سنة سبع وستين وأربعمئة فَوَلِيَ بعده حفيده القادر بالله يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى فانتزعها الطاغية منه ، وهي من المتوسطة من الأندلس ، وكانوا يسمونَها وجهاتِها الثغر الأدنىٰ ، ويسمون سَرَقُسْطَة وجِهَاتِها الثَّغْرَ الأعلى ، وتسمى طليطلة أيضاً مدينة الأملاك لأنها ملكها اثنان وسبعون ملكاً ، قيل إن سليمان بن داود عليه السلام دخلها ، وكذا عيسى بن مريم عليهما السلام ودخلها أيضاً ذو القرنين ، وهي مدينة حصينة قديمة من بناء العمالقة ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ورساتيق مريعة وضياع بديعة وقلاع منيعة ، وبها القنطرة العجيبة البناء يعجز الواصفون عن وصفها ، وطول تلك القنطرة ثلاثمئة باع ، وعرضها ثمانون باعاً على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جَرْي ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة ، وبنى المأمون فيها قصراً تأنق في بنائه وأنفق مالاً كثيراً ، وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة ، وسيق الماء إلى أعلى القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة متواليها كلها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من الماء يسكب ولا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها يوماً إذ سمع منشداً يقول :

أتبني بناء الخالدين وإنَّما ... بقاؤك فيها لَوْ عَلمتَ قليلُ
لقد كان في ظِلِّ الأراكِ كِفَايةٌ ... لِمَنْ كُلَّ يومٍ يعتريهِ رَحِيلُ

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيراً حتى قضى نحبه وذلك سنة خمس وثلاثين وأربعمئة ، وولي بعده ابنه يحيى القادر بالله إلى أن أخذت منه ، ثم صارت له بلنسية بواسطة الطاغية إلى أن قتل كما تقدم .

وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان مختلفة الطعوم والألوان ، وفيها ليوان كبير يقال إن الخيل تلعب فيه ، وكان بنو ذي النون ملوك طليطلة لهم دولة كبيرة وبلغوا في البذخ والترف إلى الغاية ، فطمع في ملكهم الطاغية المسمى بالأذفونش ، واشتغل القادر يحيى صاحبها بالخلاعة والمجون وأكثر مهاداة الأفرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب وامتدت يده إلى أموال الرعية ، ولم تزل الفرنج تأخذ حصونه شيئاً بعد شيء حتى أخذت منه طليطلة وسلبته ملكه ، ولما أرادوا أخذها سار إليها الأذفونش بجيوشه وسار يتملك قراها وعمالها ويضيق عليها بالحصار ، وكان ذلك كله في مدة سبع سنين ، فلما اشتد عليهم الحصار رضي صاحبها والمسلمون أن ينزلوا عنها وقد فني بالقتل والأسر والنهب كثير منهم في قراها وبواديها .

قال ابن بسام بعد ذكره وقعة بطرنة المتقدم ذكرها ، وذكر ما صار للمسلمين عند أخذها : وهكذا جرى لأهل طليطلة فإن العدو خذله الله استظهر عليهم وقتل جماهيرهم ، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم من ثياب الترفه ألف عقارة خارجاً عما سواها ، وكان أخذ الطاغية طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمئة وأعطى الأمان لصاحبها القادر بالله ولمن بقي بها من المسلمين ، ثم لما ملكها الطاغية صار يستميل أهلها الباقين فيها ويظهر لهم صورة العدل حتى حبب التنصر إلى كثير من الطغام منهم ، وقيل لملكهم الطاغية : ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك من الملوك ، فقال : حتى نأخذ قرطبتهم ، وأعدّ لذلك ناقوساً تأنق فيه وأخذ في الاستعداد لتملك قرطبة .

ومما يدل على عظم مدينة طليطلة وحصانتها أن المسلمين لما استرجعوا ما تملكه الأعداء من المدائن والقرى عجزوا عن استرجاع طليطلة وبقيت في يد العدو إلى آخر المدة ، ولما فتح المسلمون الأندلس في أول الأمر ألقى الله الرعب في قلوب النصارى وصاروا يأخذون في الفرار ، ولم يثبت منهم أحد بعد أول وقعة كانت بينهم وبين المسلمين حتى إنهم أخلوا طليطلة فوجدها المسلمون خالية ووجدوا فيها مائدة سليمان عليه السلام ، وقيل إنها ليست لسليمان وإنما هي لملوكهم تأنقوا في صنعها ، وكانت مصوغة من الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ولم ير الراؤون مثلها ، وكان

لها ثلاثمئة وخمسة وستون رِجْلاً بِكَسْر الراء وسكون الجيم ، وكان عليها طوق من اللؤلؤ وطوق من الياقوت وطوق من الزمرد ، وكلها مكللة بالجوهر وحافاتها وأرجلها وكانت أرجلها منها ، فأخذها طارق بن زياد فاتح الأندلس وأتحف بها الوليد بن عبد الملك .

ذكر ما جرىٰ بعد استيلاء العدو على طُلَيْطُلَة بين العدو والمعتمد بن عباد صاحب قرطبة

قد تقدم أن ابن عباد كان أعظم ملوك الطوائف ، وذلك لأنه قاتل كثيراً من ملوك الطوائف وانتزع منهم كثيراً من ممالكهم ، فصار له قرطبة وإشبيلية وبَطَلْيوس وشريش وقرمونة ورُنْدَة وغير ذلك ، فكان الباقون من ملوك الطوائف يهابونه ويلتمسون رضاه ، ولما رأى ابن عباد قوة الأذفونش الطاغية صار يداهنه ويهاديه ويخضع له ، وجعل له ضريبة على نفسه يؤديها إليه كل سنة ، فلما تملك الأذفونش طليطلة وأرسل إليه المعتمد الضريبة المعتادة التي كان يدفعها كل سنة فلم يقبلها الأذفونش ، وأرسل إليه يتهدده ويتوعده المسير إلى قرطبة ليفتحها إلا أن يسلم إليه الحصون المنيعة التي يريدها فيبقي العهد للمسلمين ، وكان رسول الأذفونش إلى المعتمد معه جمع من النصارى أتباع الأذفونش كانوا نحو خمسمئة فارس ، فلما وصل إلى المعتمد أنزله وحده وفرق أصحابه على قواد عسكره ، ثم أمر المعتمد قواد عسكره أن يقتل كلٌّ منهم من كان عنده من أولئك النصارى الذين جاؤوا مع رسول الأذفونش فقتلوهم ، وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه ، وسَلِم من أولئك النصارى المرسلين ثلاثة نفر فرجعوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان قد تجهز إلى قرطبة ليحاصرها ، فرجع إلى طليطلة ليزيد في التجهز ويجمع ما بقي من آلات الحصار ويكثر الجيوش والعدة ، فلما بلغ المعتمد اهتمام الطاغية في التجهز رحل إلى إشبيلية لتدبير هذا الأمر ، وسمع بذلك العلماء من مشايخ قرطبة وتحققوا جميع ما جرى وعلموا قوة الفرنج وضعف المسلمين ، وتأملوا في أمر ملوك الطوائف فوجدوهم منهمكين في اللذات والشهوات ويقاتل بعضهم بعضاً ويستعين بعضهم على بعض بالفرنج ، فاجتمع العلماء يتشاورون في هذا الأمر ، فقال بعضهم : هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الأفرنج وملكوا كثيراً

منها ولو استمرت الحال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت .

ثم ساروا إلى قاضي القضاة المسمى عندهم بقاضي الجماعة ، وكان في ذلك الوقت هو القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له : ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصَّغَارِ والذلّة وإعطائهم الجزية للطاغية بعد أن كانوا يأخذونها منه ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال : ما هو ؟ قالوا : نكتب إلى عرب إفريقية ونبذل لهم إذا وصلوا إلينا أنصاف أموالنا ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله ، فقال لهم : إذا وصلوا إلينا يخربون بلادنا ويطمعون فينا ويبدؤون بنا قبل الأفرنج ثم يذهبون بأموالنا إلى بلادهم ويتركونا مع الأفرنج فيزدادون قوة علينا ، والذي أراه أن المرابطين أتباع يوسف بن تاشفين ملك مراكش أقرب إلينا من عرب إفريقية ، وكان يوسف بن تاشفين له ملك ضخم في مراكش وفاس وأعمالها ، فاستحسن العلماء ما قاله قاضي الجماعة ، ثم ذهب قاضي الجماعة إلى المعتمد بن عباد وعرض عليه ما قالوه واستحسنوه ، فاستحسنه المعتمد بن عباد ، وقال للقاضي المذكور : أنت الرسول إلى ملك مراكش يوسف بن تاشفين ، فامتنع وأراد أن يبرىء نفسه من تهمة تقع عليه فلم يقبل منه المعتمد هذا الامتناع ، بل ألحَّ عليه المعتمد إلى أن رضي وعزم على المسير إليه ، فكان ما سيأتي ذكره .

وينبغي قبل ذكر مسير قاضي الجماعة أن نذكر شيئاً مما يتعلق بدولة يوسف بن تاشفين ملك مراكش ، وكيف كان ابتداء أمره ليعلم بذلك كيف ترقّت دولته حتى كانت في غاية القوة والمتانة ، وتعرف دولته بدولة المرابطين والمتلثمين لأنهم كانوا يتلثمون دائماً ، وهم عدة قبائل أشهر تلك القبائل قبيلة لمتونة ، وكان يوسف بن تاشفين منهم ، ومنهم قبيلة جدالة وملطة ، واختلفوا في انتهاء نسبهم اختلافاً كثيراً ، فاختار ابن الأثير أنهم ينسبون إلى حمير فهم على قوله من العرب ، وكان أول مسيرهم من اليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فسيَّرهم إلى الشام ثم انتقلوا إلى مصر ، ثم دخلوا المغرب مع موسى بن نصير ، ثم توجهوا مع طارق بن زياد فاتح الأندلس ، ثم أحبوا الانفراد ودخلوا الصحراء واستوطنوها ، ثم توحشوا وتوالد منهم قبائل كثيرة ، واختار ابن خلدون أنهم ليسوا من العرب وإنما هم من البربر وأن نسبهم ينتهي إلى يافث بن نوح ، ولما توحشوا في البوادي صاروا لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين

والصلاة ، ثم حج رجل منهم سنة ثمان وأربعين وأربعمئة ، فلما رجع صَحِبَ معه واحداً من العلماء ، وكان فقيهاً صالحاً اسمه عبد الله بن ياسين الكرولي وقصد بمجيئه إلى قومه أن يعلمهم الأحكام والشرائع ، فجاء معه فأكرموه وصار يعلمهم وينادون له ، ثم جعلوا عليهم أميراً من لمتونة وهو أبو بكر بن عمر وكان هو رأس لمتونة ، ثم صاروا يقاتلون أهل البغي والفساد ممن كان قريباً منهم فقوي أمرهم ، ثم خرجوا إلى السوس الأقصى وصاروا يأخذون الزكاة ، ووقع بينهم وبين أهل السوس قتال إلى أن انقادوا لهم ، ثم توفي أميرهم أبو بكر بن عمر بعد أن استخلف ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر ، ثم توفي أبو بكر أيضاً سنة اثنتين وستين وأربعمئة ، فاجتمعت طوائفهم على ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين فكثرت جموعهم وقوي أمرهم ، وكان يوسف المذكور مشهوراً بالعقل والصلاح وحسن التدبير ، فظهر أمرهم ، وعلا شأنهم فقصدوا موضع مدينة مراكش وكان قاعاً صفصفاً لا عمارة فيه ، فاخْتَطَّ يوسف هناك مدينة مراكش ونزلها بمن كان معه من القبائل ، ثم لم يزل يتملك مدائن المغرب مدينة بعد مدينة حتى صار له من القوة والمتانة ما هو مشهور مذكور في التواريخ والكلامُ على ذلك طويل ، فلما نزل بأهل الأندلس ما نزل من الكفار قصدوه ، فبعثوا إليه قاضي الجماعة بقرطبة القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم ، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمكاتبة من المعتمد بن عباد وعلماء قرطبة فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، وكان أمير المسلمين بمدينة سبتة ، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس وأرسل إلى مراكش في طلب ما بقي من العساكر ، وأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار إلى أن اجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، فكانت غزوة الزَّلاّقة المشهورة .

ذكر غزوة الزَّلاّقة

لما اجتمع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد بإشبيلية وجده قد جمع عساكره ، وكان فيهم من أهل قرطبة عسكر كثير ومعهم من المتطوعة من سائر بلاد الأندلس خلق كثير ، فلما وصلت الأخبار إلى الأذفونش الطاغية جمع عساكره وسار من طليطلة وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً باللسان العربي كتبه له بعض المخذولين ممن يدّعون الانتساب إلى الإسلام ، يغلّظ فيه القول ويصف ما عنده من القوة والعدد والعدة ، وبالغ الكاتب في الكلام وتجاوز الحد ، فأمر ابن تاشفين كاتبه أن يكتب الجواب لأذفونش فكتب كلاماً كثيراً ، فلما قرأه على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قال : هذا كلام طويل ، أحضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره : الذي سيكون ما ستراه لا ما استقر ماؤه ، فلما رجع الكتاب إلى الأذفونش ارتاع لذلك وعلم أنه بلي برجل له عزم وحزم ، فازداد استعداداً ، وكان في جيشه أربعون ألف ذراع ، وجملة جيشه ثلاثمئة ألف بغاية الاستعداد ، فرأى في منامه كأنه راكب على فيل وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه ، فَقَصَّ رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويل هذه الرؤيا ، فأحضر رجلاً من علماء المسلمين فَقَصَّ الرؤيا عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه ، فطلب منه الأمان على نفسه إذا عبّرها له فأمّنه ، فقال له : تأويلُ هذه الرؤيا يؤخذ من كتاب الله عز وجل وهو قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل : ١] إلى آخر السورة ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر : ٨ ـ ١٠] وهذا التأويل يقتضي هلاك هذا الجيش الذي جمعته ، فقال الأذفونش للذي عبّر له الرؤيا : بهذا الجيش أَلْقى إله محمد صاحب كتابكم ، وأقاتل بهذا الجيش الجنّ والإنس وملائكة السماء ، فانصرف ذلك المعبّر وقال لبعض المسلمين : هذا الأذفونش هالك وكل من معه ، وذكر قول رسول الله ﷺ : « ثلاث مهلكات : شُحٌّ مُطاعٌ وهَوًى مُتَّبَعٌ وإعجابُ المرءِ بنفسه » .

وكان الأذفونش استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانَهم ، ونشروا أناجيلَهم ، وأيقنوا بالنصر والظفر اغتراراً

بكثرتهم وقوة استعدادهم ، وما علموا أن النصر من عند الله وأن العاقبة للمتقين .

ثم سار أمير المسلمين والمعتمد بن عباد بجيوشهما وجيوش ملوك الطوائف حتى أتوا أرضاً يقال لها الزَّلاقة من بلد بطليموس ، وأتى الأذفونش بجيوشه ، فنزل موضعاً بينه وبينهم ثمانية عشر مِيلاً ، ولم يبق أحد من ملوك الطوائف بالأندلس إلا بادر وأعان بالمال والرجال وخرج بنفسه وأخرج عساكره ولكن لم يبلغ عدد مقدار جيش العدو ، وقيل لأمير المسلمين إن ابن عباد ربما أنه لا ينصح ولا يبذل نفسه دونك ، فأرسل أمير المسلمين يأمره أن يكون في المقدمة ففعل ذلك وسار ، وقد ضرب الأذفونش خيامه في سفح جبل والمعتمد في سفح جبل يتراؤون ، ونزل أمير المسلمين وراء الجبل الذي عنده المعتمد ، وظن الأذفونش أن عساكر المسلمين ليس إلا الذين يراهم مع ابن عباد فتيقنوا الغلب ، وأرسل الأذفونش إلى المعتمد في ميقات القتال فقال : يكون يوم الاثنين ، فقد وصلنا على حال تعب ، واستقر الأمر على هذا ، فركب الأذفونش ليلة الجمعة سَحَراً وصَبَّحَ بجيشه جيش المعتمد بكرة الجمعة غدراً وظناً منه أن ذلك المخيم هو جميع عساكر المسلمين ، فوقع القتال بينهم فصبر المسلمون وأحاط عليهم الأذفونش بجموعه من كل جهة ، وحَمِي الوطيس واستحرَّ القَتْلُ في أصحاب ابن عباد ، وقاتل ابن عباد بنفسه قتالاً لم يعهد مثله لأحد وجرح جراحات وضرب على رأسه ضربة فَلَقَتْ هامَتَهُ حتى وصلت إلى صدغه ، وجرحت يمنى يديه وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يميناً وشمالاً ، وكان ابن عباد قد بعث إلى أمير المسلمين يستحث نصرته ، فبينما هم في القتال إذ وصل أمير المسلمين بجيوشه بعد أن كاد المسلمون يهزمون ، وقَصَدَ خيام الفرنج ومحلة الأذفونش فاقتحموها وأحرقوها وفتكوا فيها وضربت الطُبول وزعقت البوقات ، فاعتزت الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجعت الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين فخرج لهم عنها ، ثم كرّ عليهم فأخرجوهم منها ، ثم كَرّوا عليهم فخرج لهم عنها ، ولم تزل الكَرّات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حَشَمَهُ السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بالدرق والسيوف والمزاريق ، فطعنوا الرجال والخيل فرمحت الخيل بفرسانها وأحجمت عن أقرانها ، وكان أهل الأندلس لا يعرفون

الجِمَالَ وليست في بلادهم ، فجاء أمير المسلمين معه بجمال كثيرة فكانت من جملة أسباب النصر لأن خيل العدو كانت تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها ، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء .

ومن منفعة تلك الجمال أنه كان يحدق بها العسكر وقت نزولهم وكان يحضرها الحرب فيكثر رغاؤها ، ثم تحول أناس من جيش أمير المسلمين جاؤوا إلى موضع القتال فلقيهم من بين أيديهم ووضع السيف فيهم فلم يتمالكوا الثبات وأنزل الله النصر وأنزل السكينة على المسلمين ، فانهزم العدو وأخذهم السيف من كل جانب ، وصدق المسلمون جميعاً الحملة فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم وأظلم النهار بالعجاج والغبار وخاضت الخيل في الدماء ، فانكشف الطاغية وفرّ هارباً منهزماً وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخنع بها وأُفْلِتَ فارّاً مع نفر يسير من قومه ، وهلك الباقون ، وكان موضع القتال متسعاً جداً فما كان فيه موضع قدم إلا وفيه من تلك الوقعة ميت أو دم .

وجمع المسلمون من رؤوس القتلى كُوَماً فكانوا يؤذنون عليها إلى أن جيفت فأحرقوها ، قيل لم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غير ثلاثمئة فارس وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك ، وجمع أمير المسلمين الغنائم وعَفَّ عنها وأعطاها ملوك الأندلس وعَرَّفهَم أن مقصده الجهاد ونيل الثواب العظيم ، وأقام أربعة أيام لجمع الغنائم ، وعاد ابن عباد إلى إشبيلية ، ورجع أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء وعبر إلى سبتة وسار إلى مراكش ، ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ، ففقدهم ولم يسمع إلا نَوْحَ الثكْلىٰ فاهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غَمّاً وهوى إلى أمه الهاوية ، وكانت هذه الوقعة في يوم الجمعة في العشر الأول من رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمئة ، فكانت هذه الغزوة من أعظم غزوات المسلمين وفتوحاتهم .

ذكر ما كان بعد غزوة الزَّلاقة

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من غزوة الزَّلاقة أقام بالأندلس أياماً ، ثم لما أراد التوجه إلى مراكش ترك جيشاً عظيماً بالأندلس لقصد غزو الأفرنج ، وشكا إليه كثير من علماء الأندلس جَوْرَ ملوك الأندلس الذين اقتسموها وانهماكهم في اللذات

والشهوات والمعاصي ، فوعظ الملوك وزجرهم ونهاهم عن المكوس ، وعن الظلم والجور والانهماك في اللذات والشهوات ، ثم رجع إلى مراكش ، فجاءته الأخبار بأنهم تقاعدوا عن جهاد الكفار واستغرقوا الأوقات في اللذات والشهوات ، وزادوا في الظلم عما كانوا ، فاستفتى علماء العراق فيهم فأفتوه بجواز انتزاع الملك منهم ، فعبر إليهم في سنة أربع وثمانين وأربعمئة ، وانتزع الملك منهم ، واستولى على الأندلس بعد قتاله لبعض المتملكين لها ، وقتل بعضهم وأسر بعضهم وحملهم إلى مراكش وحبسهم إلى أن ماتوا ، وصار ملك الأندلس كلها بيده ويد عماله مضافاً ذلك إلى ما بيده من المغرب الأقصى ، وأكثر من الغزو والجهاد بالأندلس هو وجنوده ، وتوفي سنة خمسمئة .

وكان الإمام الغزالي لما بلغه حسن سيرته أراد زيارته فرحل من العراق إلى الشام ، ثم بلغه موته قبل أن يصل إليه فرجع .

وكان يوسف بن تاشفين يخطب لبني العباس ، وكان قد طلب منهم تقليداً لأنه قيل له لا تجب طاعتك وتنفذ أحكامك إلا إذا كانت ولايتك من الخليفة ، فأرسل رسلاً إلى الخليفة ومعهم هدية وطلب التقليد ، فكتب له المستظهر بالله العباس بن المقتدي بأمر الله بن القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بالله بن المعتضد ، وعقد له على الأندلس وبقية الممالك التي كانت تحت يده ، ولقبه أمير المسلمين وناصر الدين ، وبايعوا بعد وفاته ولده علي بن يوسف بن تاشفين ، وكان حليماً عاقلاً صالحاً عادلاً .

ذكر خروج الفرنج بالأندلس بعد وفاة يوسف بن تاشفين

لما توفي يوسف بن تاشفين قوي طمعُ النصارى في الاستيلاء على الأندلس ، فخرج الأذفونش الأفرنجي صاحب طليطلة سنة خمس وخمسمئة ، يطلب ما بأيدي المسلمين من ممالك الأندلس ، فجمع وحشد فأكثر ، فسار إليه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين من مراكش في عساكره وجموعه فلقيه ، فاقتتلوا أشد القتال ، فكان الظفر للمسلمين ، وانهزم الأفرنج وقتلوا قتلاً ذريعاً وأُسر منهم شيء كثير ، وسبى منهم وغنم من أموالهم ما يخرج عن الإحصاء ، فخافه الأفرنج بعد ذلك .

وفي سنة أربع عشرة وخمسمئة خرج ابن ردمير من ملوك الأفرنج بجموع كثيرة

فالتقى مع أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين بجموعه ، فكانت الهزيمة على المسلمين ، ثم رجع ابن ردمير إلى بلاده ، ثم اشتغل أمير المسلمين بأمر محمد بن تومرت الذي ادعى أنه المهدي فاتسع الخرق في الأندلس ، فأرسل أمير المسلمين ابنه تاشفين أميراً على الأندلس لجهاد الكفار ، ووقع بينه وبين ابن ردمير وقائع وانتصر في بعضها على ردمير فمات مغموماً من الهزيمة بعد عشرين يوماً ، وكان من أشد ملوك الفرنج على المسلمين فكفى الله المسلمين شره ، وبقي من ملوك الفرنج الأذفونش الذي كان قد تملك طليطلة فوقع بينه وبين المسلمين وقائع ، ثم عقدوا معه صلحاً عشرين سنة .

ذكر قيام محمد بن تومرت المُدَّعي أنه المهديُّ المُنْتَظَر

اعلم أن هذه القضية الكلام عليها طويل مذكور في التواريخ ، وتلخيص ذلك باختصار أن محمد بن تومرت رجل من جبل السوس يَدّعي أنه شريف علوي حسني ، قرأ علوماً بالمغرب ثم ارتحل إلى المشرق والعراق واجتمع بكثير من العلماء وأخذ عنهم قيل منهم الإمام الغزالي وقيل لم يجتمع بالغزالي ، وكان يرى منامات يؤولها بالقيام بأمر الأمة ، منها أنه شرب البحر مرتين ، وقيل كان له معرفة بالرمل والنجوم ، فقام في نفسه أنه المهدي المنتظر وكتم ذلك في أول أمره وأظهره في آخره ، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة والتقشف ، فابتدأ أولاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبعه جماعة يأخذون عنه العلم ويجتمعون معه على الذكر ، وكان أعظمهم عبد المؤمن بن علي الكومي القيسي وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني وعبد الله الونشريسي ، وكان الونشريسي عالماً متضلّعاً فأمره أن يكتم ما عنده من العلوم ويجعل نفسه أبكم ويقوم بخدمة الشيخ ، وقال له أبقِ العلوم عندك مكتومة إلى أن نحتاج إلى إخراجها في وقت يكون إخراجها فيه كالمعجزة والبرهان لإتمام ما نريد ، فامتثل أمره وبقي أبكم بين الناس أبله ولعابه يجري على صدره ولا يتكلم إلا مع الشيخ في وقت الخلوة ، ثم إنهم دخلوا مراكش فرأوا نساء راكبات على بغال وهُنّ سافرات الوجوه ، وكانت تلك عادة لهن في تلك البلاد فأنكروا عليهن وضربوا بعض البغال فسقطت من فوقها امرأة فإذا هي أخت أمير المسلمين ، فرفع الأمر إلى أمير المسلمين بأن هذا الرجل

يتحدث في تغيير الدولة فأحضروه ومن معه ، وحضر عند أمير المسلمين جماعة من العلماء ووقع بينهم وبين ابن تومرت مجادلات فأقام الحجة عليهم بوجود كثير من المنكرات بين أظهرهم ولم ينكروها ، ووعظ أمير المسلمين حتى أبكاه ، فقال مالك بن وهيب وكان عالماً صالحاً ، يكثر مجالسة أمير المسلمين ، بل كان أحد وزرائه : إن عندي النصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها ، فقال أمير المسلمين : ما هي ؟ فقال : إني خائف عليك من هذا الرجل وأرى أنه لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إنما يريد الفتنة والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلّدني دمه وإن لم تقتله فخلّده في الحبس ، فقال بعض الحاضرين من جلساء أمير المسلمين : يقبح على أمير المسلمين أن يبكي من موعظة هذا الرجل ، ثم يسيء إليه في مجلس واحد ، وأن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سَدَّ جوعه ، فلما سمع الملك كلامه أخذته عِزّة النفس واستهون أمره وصرفه وسأله الدعاء ، فلما خرج من عند الملك قال لأصحابه : لا مقام لكم بمراكش مع وجود مالك بن وهيب ، فساروا إلى أغمات ثم ذهبوا إلى جبل تينمل وكان جبلاً عظيماً فيه كثير من القبائل وكثير من الزروع والفواكه واتصلوا بالسوس ، وذلك سنة أربع عشرة وخمسمئة واجتمع عليه خلق كثير وتسامع به أهل تلك النواحي ، وجعل يعظهم ويذكّرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الإسلام وما غُيّر منها وما حدث من الظلم والفساد ، وأنه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عَمّا هم فيه ، فتابعه قبائل كثيرة وسَمّى أتباعه الموحّدين ، وأعلمهم أن النبي ﷺ بَشَّر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً ، وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى ، فقام إليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن ، فقالوا : لا يوجد هذا إلا فيك فأنت المهدي ، فبايعوه على ذلك ، فانتهى خبره إلى أمير المسلمين ، فجهز جيشاً وسيّره إليه مع بعض أصحابه ووعد المهدي أصحابه بالنصر ، فلقوا جيش أمير المسلمين ، فهزموهم وأخذوا أسلاحهم وقوي ظنهم في صدق المهدي ، وأقبلت إليه أفواج القبائل من الحلل التي حوله شرقاً وغرباً وبايعوه وأَلَّف لهم كتاباً في التوحيد سَمّاه : المرشد ، وكتاباً في العقيدة ، ونَهَجَ لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض ، والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن ويزهدهم في الدنيا ، وكان قوته كل يوم برغيف وقليل من زيت أو سمن ، وكان

يحرضهم على قتال عدوهم وإخراج الأشرار من بينهم ، وكان يستميل الأحداث وذوي الغِرّة بالراء بعد الغين المعجمة ، وكان ذوو الحِلْم والعقل من أهاليهم ينهونهم عنه ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك ، فلما علم بذلك خشي أن يفسدوا عليه من اتبعه ويسلموه للملك ، فصار يسأل ويتجسس عن هؤلاء الذين يمنعون أولادهم وعشائرهم من اتباعه ويكتب أسماءهم في جريدة عنده ولم يُطْلِعْ على ذلك أحداً إلا عبد الله الونشريسي الأبكم الذي يخدمه ليترتب الأمر معه ، وقد تقدم أنه أمر أن يكتم ما عنده من العلم ويظهر البله والبكم ، فقال له : في هذا الوقت هذا وقت إظهار ما عندك ، وأمره أن يفعل ما سنذكره .

فخرج المهدي يوماً لصلاة الصبح فرأى في جانب محرابه إنساناً حسن الثياب طيب الرائحة فأظهر أنه لا يعرفه وقال : من هذا ؟ فقال : أنا الونشريسي ، فقال المهدي : ما قصتك فقد كنت أبكم لا تتكلم ؟ فقال : أتاني آتٍ الليلةَ من السماء فغسل قلبي وعلمني الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والأحاديث ، فبكى المهديُّ بحضرة الناس ، ثم قال : نحن نمتحنك ، فقال : افعل ، وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أي موضع سئل ، وكذلك الموطأ وغيره من كتب الفقه والأصول وبقية العلوم ، فعجب الناس من ذلك واستعظموه ، ثم قال لهم : إنّ الله أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة ، وقد أنزل الله ملائكة إلى البئر التي في موضع كذا يشهدون بصدقي ، وكان قد وضع في البئر رجالاً ثلاثة يشهدون بصدقه ، فسار المهدي والناس معه وهم يبكون إلى البئر وصلى المهدي عند رأسها ركعتين ، وقال : يا ملائكة الله إن عبد الله الونشريسي قد زعم كَيْتَ وكَيْتَ ، فقال من في البئر : صدق ، فلما قيل ذلك من البئر قال المهدي : إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة فالمصلحة أن تُطَمَّ لئلّا يقع فيها نجاسة أو ما لا يجوز وقال ذلك لئلا يظهر الرجال منها فَيُفْشون السرَّ فيفسد الأمر الذي دبّره ، فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طَمَّها وأَهْلَكَ مَنْ فيها من الرجال ، ثم نادى أهل الجبل بالحضور إلى ذلك الموضع فحضروا ليتميز أهل الجنة من أهل النار ، فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل الذي عرفه المهدي به أنه يخاف عاقبته وكتبه في الجريدة التي أطلعه عليها فيقول هذا من أهل النار فيقتل ، وإلى الشابِّ الغِرّ ومَنْ لا يخاف منه فيقول هذا من أهل الجنة فيترك على يمينه ، ولم يزل يجمعهم في

أيامٍ مرةً بعد أخرى ، ويفعل ذلك حتى تتبع كل من يخشى منه ، فقتله .

قال ابن الأثير في الكامل : فكان عدة من قتلهم سبعين ألفاً وصار الباقون معه على نيات صادقة متفقة على طاعته فجهز منهم جيشاً وجعل الأمير عليهم عبد المؤمن بن علي وسيّرهم لقتال المرابطين قوم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، وتتابع القتال بينهم مراراً وشرح ذلك يطول ، واستمرَّ أمره يعلو إلى سنة أربع وعشرين ، فمرض مرضاً شديداً وكان عبد المؤمن غائباً مع الجيوش التي تقاتل أهل مراكش ، فأوصى المهديُّ بأن خليفته عبد المؤمن وأمرهم باتباعه وتسليم الأمر إليه والانقياد له ، ثم توفي ، فلما رجع عبد المؤمن بايعه الناس وانقادوا له وتسمّى دولته دولة الموحدين لأن المهدي سماهم بذلك كما تقدم ، فجهز الجيوش وأزال ملك بني تاشفين وفتح البلدان وملك كثيراً من مدائن المغرب وكل ذلك مبسوط في التواريخ ، وصار لعبد المؤمن ملك عظيم في المغرب والأندلس توارثه بنوه بعده إلى سنة ثمان وستين وستمئة فانتزع الملك منهم بنو مرين فكانت مدة دولة بني عبد المؤمن مع مهديّهم مئة واثنتين وخمسين سنة .

قال في نفح الطيب : كانت دولة بني عبد المؤمن من أعظم الدول الإسلامية ، وكان كل واحد يلقب أمير المؤمنين ومسلكهم مسلك الخلفاء ، وكانوا يدعون على المنابر لمهديّهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة ، وتوفي عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسمئة وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة ، وكان عاقلاً حازماً سديد الرأي حسن السياسة كثير البذل للأموال إلا أنه كان سفّاكاً للدماء على الذنب الصغير ، وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة ومن ترك الصلاة قتله ، وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين ، ومما نقل من كرمه أن شاعراً مدحه بقصيدة مطلعها :

مـا هَـزَّ عِطْفَيْـهِ بيـن البِيـضِ والأَسَـلِ   مِثْـلُ الخليفـةِ عَبْـدِ المـؤمـنِ بـنِ عَلـي

فأشار إليه أن يقتصر على هذا البيت ولا يتمم قراءة القصيدة وأمر له بألف دينار ، فقال له : لِمَ لَمْ تسمع تمام القصيدة ؟ فقال عبد المؤمن : وما عسى أن يقول بعد قوله :

مـــا هـــزَّ عطفيـــه . . . . البيــت

يعني أنه لا يمكن أن يأتي بمدح أعظم مما في هذا البيت .

وفي (المونس في أخبار تونس) للعلامة أبي القاسم الرعيني القيرواني أن هذا الشاعر بعد أن قبض الألف دينار عاد إليه من الغد وأنشده البيت المذكور ، فأسكته وأمر له بألف دينار أخرى ، ثم لم يزل ينشده كلما دخل عليه ويأمر له بألف دينار إلى أن وصله بأربعين ألفاً فحسده بعض الشعراء ، وقال له إلى متى تفعل هكذا وما يؤمنك من تغير أخلاق أمير المؤمنين وقد وصلك بما فيه غَناؤك ؟ فارتحل من فوره إلى بلده ثم سأل عنه عبد المؤمن فأخبر برحيله فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله لقد ظنَّ بنا غير ما أردناه ولو طال مقامه لزدناه على ذلك ، وكان لعبد المؤمن معرفة بالشعر والأدب ، يحكى عنه أنه مر ببعض طرق مراكش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلّت من شباك جارية بارعة الجمال فقال :

عبد المؤمن : قدت فؤادي من الشباك إذ نَظَرتْ

فقال ابن عطية : حوراءُ ترنو إلى العُشّاقِ بالمُقَلِ

فقال عبد المؤمن : كأنّما لحظُها في قَلْبِ عاشِقِهَا

فقال ابن عطية : سيفُ المؤيدِ عبدِ المؤمنِ بنِ علي

ويقال لعبد المؤمن القيسي نسبة إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ، ويقال له الكومي نسبة إلى كومية قرية بتلمسان ، وكان المهدي محمد بن تومرت يقول له إن النبي ﷺ قال : « إنَّ اللهَ ينصرُ هذا الدينَ في آخرِ الزَّمانِ برجلٍ من قيس » وأرجو أن تكون أنت ، وكان أبوه صانعاً في عمل الطين يعمل منه الآنية ويبيعها .

قال ابن خلكان في ترجمة عبد المؤمن : كان في صباه يوماً نائماً تجاه أبيه ، وكان أبوه مشتغلاً بعمل الآنية من الطين فسمع أبوه دوياً في السماء فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار ، فنزلت كلها مجتمعة على ابنه عبد المؤمن وهو نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها ، فرأته أُمُّه على تلك الحالة فصاحت خوفاً على ولدها ، فَسَكَّتها أبوه ، فقالت : أخاف عليه ، فقال : لا بأس عليه بل إني متعجب مما يدل عليه ، ثم إنه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ماذا يكون من أمر النحل ، فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبي وما به أَلَمٌ ، فتفقدت أمه

جسمه فلم تر به أثراً ولم يَشْكُ لها ألماً ، وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى إليه أبوه وأخبره بما رآه من النحل مع ولده فقال ذلك الرجل : يوشك أن يكون لولدك هذا شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب ، فكان من أمره ما كان .

وتقدم أن من أصحاب المهدي عمر بن يحيى الهنتاني ، قيل إنه ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون بالحفصيين ، استمر ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمئة وإحدى وثمانين ، فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية ، وكانوا يلقبون بالحفصيين وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمئة وثمانية وسبعين سنة وهم من فروع دولة المهدي محمد بن تومرت ، واختلف الناس في أمر ابن تومرت ، فقال بعض العلماء : إنه أراد إظهار الحق فاجتهد وأخطأ ، وقال بعضهم : إنه كان على الأمة شراً من الحجاج ويزيد ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(ولنذكر) ما كان من الفتوحات في مدة عبد المؤمن وبنيه وفي مدة الحفصيين ملوك تونس .

ذكر أول تجهيز لعبد المؤمن إلى الأندلس

قال ابن الأثير في الكامل في حوادث سنة إحدى وأربعين وخمسمئة : في هذه السنة سيّر عبد المؤمن بن علي جيشاً إلى جزيرة الأندلس ، فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام ، وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء إليه جماعة من أعيان الأندلس ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين وإقامتهم لأمره ، فقبل عبد المؤمن منهم ذلك وشكرهم عليه وطيّب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج ، فجهز جيشاً كثيفاً وسيّره معهم وعمر أسطولاً وسيّره في البحر ، فسار الأسطول إلى الأندلس ، وقصدوا مدينة إشبيلية وصعدوا في نهرها ، وبها جيش من الملثمين ، وهم أتباع يوسف بن تاشفين ، ويقال لهم المرابطون ، فحصروها براً وبحراً وملكوها عنوة ، وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا ، واستولت العساكر على البلاد التي كان لعبد المؤمن من كان بها ، وانتزعت عساكر عبد المؤمن كثيراً من مدائن الأندلس التي

كانت في طاعة المرابطين مدينة بعد مدينة بعد حروب يطول ذكرها .

وفي سنة اثنتين وأربعين حصر الفرنج مدينة المرية من الأندلس وضيقوا عليها براً وبحراً ، فملكوها عَنْوة وأكثروا القتل بها والنهب ، وملكوا أيضاً مدينة شاسة وولاية جَيَّان وكلها بالأندلس .

وفي سنة ثلاث وأربعين ملك الفرنج بالأندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لارِدَة وإفراغة ، ولم يبق للمسلمين شيءٌ في تلك الجهات إلا واستولى الفرنج عليه ، وفي سنة خمس وأربعين سار السليطين ، وهو الأذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج ، في أربعين ألف فارس إلى مدينة قرطبة ، فحصرها وهي في ضعف وغلاء ، فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو بمراكش ، فجهز عسكراً كثيراً وجعل مقدمهم أبا زكريا يحيى بن يرموز وأنفذهم إلى قرطبة ، فلما قربوا منها لم يقدروا أن يلقوا عسكر السليطين في الوطاء وأرادوا الاجتماع بالمسلمين المحصورين بقرطبة ، فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة ، فساروا نحو خمسة وعشرين يوماً في الوعرة في مسافة أربعة أيام في السهل ، فوصلوا إلى الجبل المطل على قرطبة ، فلما رآهم السليطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة ليذهب إليهم ، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القائد بن غليون ، وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها ، فلما رحل الفرنج خرج من قرطبة لوقته وصعد إلى ابن يرموز وقال له : انزلوا عاجلاً ، وقال له : ادخلوا البلد ، ففعلوا وباتوا فيها ، فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن ، فقال لهم أبو الغمر : هذا الذي خفته عليكم لأن علمت أن السليطين ما ارتحل إلا طالباً لكم ، فإن من الموضع الذي كان فيه إلى الجبل طريقاً سهلاً ، ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة ، فلما رأى السليطين أنهم قد فاتوه علم أنهم دخلوا قرطبة ولم يبق له مطمع في قرطبة ، فرحل عائداً إلى بلاده ، وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر .

وفي سنة ست وأربعين سيّر عبد الرحمن جيشاً كثيفاً نحو عشرين ألف فارس إلى الأندلس مع أبي حفص عمر الهنتاني ، وسيّر معهم نساءهم فكنَّ يَسِرْنَ مفردات عليهنَّ البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضربه الخدم بالسياط ، فلما قطعوا الخليج ساروا إلى غرناطة وبها جمع من المرابطين جماعة ابن تاشفين ، فحصرها

عمر وعسكره وضيقوا عليها ، فجاء إليه أحمد بن ملحان صاحب مدينة وادي آش وأعمالها بجماعته ووحدوا وصاروا معه ، وأتاه إبراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش صاحب جَيَّان وأصحابه ووحدوا وصاروا أيضاً معه ، فكثروا جيشه وحرضوه على المسارعة إلى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الأندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز ، فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه ، فأرسل إلى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول إليه ، فوصل الفرنجي في عشرة آلاف فارس ، وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا إلى بلقوارة وبينها وبين مرسية التي هي مقر ابن مردنيش مرحلة ، فسمعوا بوصول الفرنجي مع ملك برشلونة ، فرجع جيش عبد المؤمن وحصروا مدينة المرية وهي للفرنج عدة شهور ، فاشتد الغلاء في العسكر وعدمت الأقْوات فرحلوا عنها وعادوا إلى إشبيلية فأقاموا بها .

وفي سنة إحدى وخمسين استعمل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد عثمان على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة ، فعبر أبو سعيد البحر إلى مالقة وهي من الأندلس واتخذها داراً ، وكاتبه ميمون بن بدر الملتوني صاحب غرناطة ورضي أَنْ يوحّد ويسلم إليه غرناطة ، فقبل ذلك منه أبو سعيد وتسلم غرناطة ، فسار ميمون إلى مالقة بأهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجّهه إلى أبيه عبد المؤمن بمراكش ، فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه ، وانقرضت بذلك دولة المرابطين ويقال لهم أيضاً الملثمون كما تقدم ، ولم يبق لهم إلا جزيرة ميورقة مع أحمد بن غانية .

فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش ، وسار إلى مدينة المرية وهي بأيدي الفرنج ، أخذوها من المسلمين سنة ثنتين وأربعين وخمسمئة ، فلما نازلها وافاه الأسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين ، فحصروا المرية براً وبحراً ، فلجأ الفرنج إلى حصنها فحصروهم ونزل وعسكره على الجبل المشرف عليها ، وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور إلى البحر وعمل فيه خندقاً ، فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصوراً بهذا السور والخندق ، ولا يمكن من ينجدهما من أن يصل إليهما ، فجمع الأذفونش ملك الفرنج بالأندلس المعروف بالسليطين جموعاً من الفرنج بلغت اثني عشر ألف فارس ومعه محمد بن سعد بن مردنيش في ستة آلاف فارس من المسلمين ، وراموا الوصول إلى المدينة ليدفعوا المسلمين عنها فلم يطيقوا

ذلك ، فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين ، فمات السليطين في عَوْدِهِ قبل أن يصل إلى طليطلة ، وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر ، فضاقت المِيرة وقَلّت الأقوات على الفرنج ، فطلبوا الأمان ليسلموا الحصن فأجابهم أبو سعيد إليه وتسلم الحصن ، ورحل الفرنج في الغد عائدين إلى بلادهم ، فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين .

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمئة وصل رُسُلُ أهل غرناطة من بلاد الأندلس وهي لعبد المؤمن إلى الأمير إبراهيم بن هَمْشَك صهر ابن مردنيش فاستدعوهم إليهم ليسلموا إليه البلد ، وكان قد وَحّد كما تقدم ، وصار من أتباع عبد المؤمن وفي طاعته وممن يحرض على قصد ابن مردنيش ، فلما وصل إليه رسل أهل غرناطة طمع في الملك ، فسار معهم إليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها ، فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجّه إلى غرناطة لنصرة أصحابهم المسلمين الذين بغرناطة ، فعلم بذلك إبراهيم بن همشك فاستنجد بابن مردنيش ملك البلاد بشرق الأندلس ، فأرسل إليه ألفي فارس من أنجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جنّدهم معه ، فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقوا هم ومَنْ بغرناطة من عسكر عبد المؤمن من قبل وصول أبي سعيد إليهم ، فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن ، وقدم أبو سعيد بمن معه فاقتتلوا أيضاً فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين والرجالة والأجلاد حتى قتلوا عن آخرهم ، وانهزم حينئذ أبو سعيد ولحق بمالقة .

وسمع عبد المؤمن الخبر فسيّر في الحال ابنه يعقوب في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين ، فجدّوا السير ، فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه إلى غرناطة ليعين ابن همشك ، فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير ، فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذي أمر به لابن همشك أولاً وهما ألفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ، ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ، ووصل عسكر عبد المؤمن إلى جبل قريب من غرناطة فأقاموا في سَفْحِه أياماً ، ثم سَيّروا سَرِيّةً أربعةَ آلاف فارس فبيتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جميع جهاتها فما لحقوا أن يركبوا فقتلوهم عن آخرهم ، وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة ، فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لا طاقة لهم ففروا

في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم ، واستولى الموحّدون على غرناطة .

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمئة توفي عبد المؤمن فبايع الموحدون ابنه محمداً ثم خلعوه بعد خمسة وأربعين يوماً وبايعوا أخاه يوسف بن عبد المؤمن وتلقّب بأمير المؤمنين كأبيه .

قال ابن خلكان : كان يوسف فقيهاً حافظاً متقناً نشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء ، كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام ، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري وكان يحفظ القرآن مع حملة الفقه ، وسيأتي الكلام على فتوحاته وليتمّ الكلام على جميع فتوحات أبيه عبد المؤمن في غير الأندلس .

ذكر فتوح المهدية

المهدية مدينة من مدائن إفريقية ، كانت المهدية في يد الحسن بن علي بن محمد بن تميم الصنهاجي ، وكان من عمال العبيديين ملوك مصر ، ثم تغلّب عليها فملكها الفرنج وانتزعوها من يده سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة ، وفَرَّ الأمير المذكور منها وقصد عبد المؤمن فأكرمه وأحسن نزله ، وكان أهل سفاقس وزويلة يقاتلون الفرنج لتخليص المهدية ، فلم يقدروا وانهزموا مرة بعد أخرى وقتل كثير منهم ، وذلك سُنّة ولا يتخلف منهم أحد كائناً من كان خوفاً من عقابه ؛ لأنه كان يقتل من يتأخر منهم ، وقدم بين يديه أمير إفريقية الذي فر منها حين أخذها الفرنج وهو الحسن بن علي بن محمد بن تميم الصنهاجي فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكان ملك تونس بيد أحمد بن خراسان ، وأقبلت أساطيل عبد المؤمن في البحر سبعين شينياً وطريدة وشلندى ، فلما نازل تونس أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال ، فلم يبق إلا أخذها ودخول الأسطول إليها ، فجاءت ريح عاصف منعت الموحّدين من دخول البلد ، فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوا ، فلما جُنَّ الليل نزل سبعة عشر رجلاً من أعيان أهل تونس إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة ، وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم على أنفسهم وأهليهم ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين ، وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله منها ، فاستقر الأمر على ذلك وتسلم البلد وأرسل إليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس أموالهم ، وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل ، وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم .

ثم سار عبد المؤمن منها إلى المهدية والأسطول يحاذيه في البحر ، فوصل إليها ثامن عشر رجب ، وكان بالمهدية أولاد ملوك الفرنج ، وأبطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غاية رمية سهم ، فدخل عبد المؤمن من زويلة وامتلأت

بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة ، ومن لم يجد له موضعاً من العسكر نزل بظاهرها ، وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام ، فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها ، وضيق موضع القتال عليها ؛ لأن البحر دائر بأكثرها فكأنها كفٌّ في البحر وزندها متصل بالبر ، وكان أول من بناها واتخذها مدينة عبيد الله المهدي أول ملوك العبيديين ، بناها سنة ثلاث وثمانمئة ، وكان الفرنج يخرج شجعانهم إلى أطراف العسكر فينالون منهم ويعودون سريعاً ، فأمر عبد المؤمن أن يبني سوراً من جهة غرب المدينة يمنعهم من الخروج ، وأحاط الأسطول بها في البحر ، وركب عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تفتح بقتالٍ لا براً ولا بحراً وليس لها إلا المطاولة بالحصار ، وقال للحسن : كيف نزلت عن مثل هذا الحصن ؟ فقال : لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر ، فقال : صدقت ، وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والأقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صارت الغلات والأقوات في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير ، فكان من يصل إلى العسكر من بعيد يقول متى حدثت هذه الجبال ؟ فيقول لهم : هي حنطة وشعير ، فيتعجبون من ذلك ، وتمادى الحصار .

وفي مدته أطاع عبد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسة وقصور إفريقية وما والاها ، وفتح مدينة قابس بالسيف ، فلما رأى أهل قفصة ذلك أطاعوه وكان الفرنج قد تملكوا صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمئة جاؤوها بجموع كثيرة وانتزعوها من عامل العبيديين ، وبقيت في أيديهم وصار لهم فيها قوة عظيمة فكانوا يمدون هؤلاء المحصورين في المهدية .

ففي شهر شعبان من السنة المذكورة أعني سنة أربع وخمسين وخمسمئة جاء أسطول صاحب صقلية من ملوك الفرنج في مئة وخمسين شينياً غير الطرائد ، وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه ، فأرسل إليه ملك الفرنج يأمر بالمجيء إلى المهدية فقدموا في التاريخ المذكور ، فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المدينة ، فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن وركب فيه العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر ، فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر

ودخل الرعب في قلوبهم ، وبقي عبد المؤمن يُمَرِّغ وجهه على الأرض ويبكي ويتضرع إلى الله تعالى ويدعو للمسلمين بالنصر ، ثم اقتتلوا في البحر ، فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع راجعين إلى بلادهم ، فتبعهم الموحدون فأخذوا منهم سبع شواني ولو كان معهم شواني لأخذوا أكثرهم ، وكان أمراً عجيباً وفتحاً قريباً ، وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً ، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ، ويئس أهل المهدية من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر إلى آخر ذي الحجة من السنة المذكورة ، فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم وكان قوتهم قد فَنِي حتى أكلوا الخيل ، فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إليه فلم يجيبوا ، ولم يزالوا يترددون إليه أياماً بالكلام اللين فأجابهم إلى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفناً فركبوا فيها وساروا ، وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم في البحر ولم يصل إلى صقلية إلا النفر اليسير ، وكان صاحب صقلية يقول : إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم ، فأهلكَ الله أكثرهم بالغرق في البحر ، وكان مدة ملكهم المهدية اثنتي عشرة سنة .

ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمئة وأقام بها عشرين يوماً ، فرتّب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد ، واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله ، وأقطع الحسن بها إقطاعاً وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها ، ورحل من المهدية أول صفر من السنة المذكورة ، وتوجه إلى بلاد المغرب وجهز جيوشاً إلى الأندلس .

ذكر فتوحات يوسف بن عبد المؤمن

لما استقرت البيعة له بعد موت أبيه وخلع أخيه أخذ منهج أبيه وسار سيرته واستكثر من الجيوش ، ومهد البلاد فصار له ملك ضخم أكثر من أبيه ، فكان ملكه من قاصية إفريقية إلى بلاد القبلة وبلاد الأندلس ، يُجْبى إليه خراجها دون مكس ولا جور ، فكثرت الأموال وأمنت الطرق ، ثم رحل إلى الأندلس لكشف مصالح دولته وتفقد

أحوالها ، وفي صحبته مئة ألف فارس ، ونزل إشبيلية ، وشرع في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج ، وكانوا قد استولوا على كثير منها ، فاتسع ملكه ، وحاصر الأذفونش في طليطلة وضيق عليه شهوراً ، فراسله الأَذْفُونْشُ في أنه يسلم المدينة ويعطيهم الأمان على نفوسهم ، فامتنع يوسف من ذلك ، فامتنع ، فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالي لَغَطٌ عظيم وأصوات هائلة ، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ، ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، فارتووا وتقووا على المسلمين ، فهادنهم سبع سنين وانصرف عنهم إلى إشبيلية ، وكان يرتفع إليه في كل سنة من خراج إشبيلية وأعمالها حِمْلُ مئة وخمسين بغلاً خارجاً عما يرتفع إليه من بقية البلاد .

وفي سنة خمس وستين وخمسمئة اتفق ابن مردنيش ملك شرق الأندلس هو والفرنج على يوسف بن عبد المؤمن ، فاستفحل أمرهم ، فجهز يوسف العساكر ، فجاسوا بلاد ابن مردنيش ، وخربوها وأخذوا مدينتين من بلاده ، وأخافوا عساكره وجنوده ، وأقاموا ببلاده مدة يتنقلوا فيها ويجبون أموالها .

وفي سنة سبع وستين توفي الأمير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرقي الأندلس ، وهي مرسية وبلنسية وغيرهما ، وأوصى أولاده أنهم بعد موته يقصدون يوسف بن عبد المؤمن ، وكان قد اجتاز إلى الأندلس في هذا العام في مئة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش ، فقدموا عليه بعد موت أبيهم ، فحين رآهم يوسف فرح بهم وسَرَّه قدومهم عليه ، وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظّم أمرهم ووصلهم بالأموال الجزيلة ، وأقاموا معه .

وفي سنة ثمان وستين توجه يوسف إلى الأندلس بعساكره ونزل إشبيلية ، ثم سار منها وقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رَنْدة فحصرها ، واجتمعت الفرنج على ابن الفنش في جمع كثير ، فلم يقدروا على لقاء المسلمين ، فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الأقوات عندهم وهم في جمع كثير ، فاضطروا إلى مفارقة بلاد الفرنج ، فعادوا إلى إشبيلية ، وهو مع ذلك يجهز العسكر ويسيرها إلى غزو الفرنج في كل وقت ، فكان له بها عدة وقائع وغزوات ظهر منها للعرب من الشجاعة ما لا يوصف ، وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور

من الفرنج فلا يبرز إليه أحد ، ثم عاد يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش .

وأما وقائعه مع من خرج عن طاعته من المسلمين في إفريقية فكثيرة لا حاجة بنا إلى ذكرها وهي مذكورة في التواريخ .

وفي سنة ست وسبعين أتاه ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس الصلح معه فهادنه عشر سنين .

وفي سنة ثمانين وخمسمئة سار يوسف إلى الأندلس في جمع عظيم من عساكر المغرب وقصد غربي بلاد الأندلس ، فحصر مدينة تشتير شهراً وهي للفرنج ، فأصابه بها مرض فمات به في ربيع الأول من السنة المذكورة ، وحمل في تابوت إلى إشبيلة ، وقيل إنه أصابته طعنة فمات منها ، وبعد أن وصلوا به إلى إشبيلية حملوه في التابوت إلى جبل تينمل ودفنوه هناك عند أبيه عبد المؤمن بجانب قبر المهدي محمد بن تومرت ، واتفق شيوخ الموحدين على مبايعة ابنه المهدي يعقوب فبايعوه ولقبوه المنصور .

(لطيفة) : يحكى أن الأديب أحمد بن عبد السلام الكوراني كان من ظرفاء الندماء ، وكوران قبيلة من البربر ، وكان يجالس عبد المؤمن ثم ابنه يوسف ثم ابنه يعقوب ، فاتفق أنه حضر يوماً عند يوسف بن عبد المؤمن وهناك الطبيب سعيد الغماري ، وغمارة أيضاً قبيلة من البربر ، فقال يوسف : من عجائب الدنيا شاعر من كوران وطبيب من غمارة ، فقال الكوراني وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه أعجبُ منهما والله خليفة من كومية ، فقال يوسف في نفسه أعاقبه بالحلم والعفو ففيه تكذيبه ، فعفا عنه ولم يعاقبه .

ذكر فتوحات يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

كان يعقوب المذكور ديناً مقيماً للحدود ، فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها ، فأقام راية الجهاد وأحسن السيرة في الناس ، ورتّب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ، ورتب المقاتلة في سائر بلادها ، وكان يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وكان مشاركاً في علوم كثيرة .

ومن لطائفه أنه بعث لبعض عماله أن ينظر له رجلاً لتأديب أولاده ، فبعث له العامل رجلين وكتب معهما كتاباً يقول فيه بعثت إليك برجلين أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه ، فلما امتحنهما لم يرض بهما فَوَقَّع على ظهر كتاب العامل : ظهر الفساد في البر والبحر .

وفي سنة ست وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شِلْب وهي في غرب الأندلس ، فتجهز إليها بنفسه وحاصرها وأخذها ، وأنفذ في الوقت نفسه جيشاً من الموحدين ومعهم جماعة من العرب ، ففتحوا أربع مدن كانت بيد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخافه صاحب طُلَيْطُلة وسأل الصلح فصالحه خمس سنين ، وعاد إلى مراكش ، فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثاً فظيعاً فانتهى الأمر إلى يعقوب وهو بمراكش ، فتجهز بقصدهم في جيش كبير في سنة إحدى وتسعين ، فسمع الفرنج بذلك فجمعوا خلقاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه ، وبعد أن عزم يعقوب على المسير بعد جمع جيوشه أصابه مرض شديد حتى أَيِسَ منه أطباؤه فتأخر عن المسير ، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد ، وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والأطراف ، وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس ، فاقتضى الحال تفرقة جيوش الأمير يعقوب لإصلاح ما فسد في الأطراف واشتغلوا بالمدافعة والممانعة ، فكثر طمع الأذفونش في البلاد ، وبعث رسولاً إلى الأمير يعقوب يتهدده ويتوعده ويطلب منه بعض الحصون من بلاد الأندلس ، وكتب له رسالة من إنشاء بعض من خذله الله ممن يدّعي أنه من المسلمين وهي : باسمك اللهمَّ فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح ، أما بعد : أيها الأمير فلا يخفى على كل ذي عقل لاذب ولا ذي لُبٍّ ثاقب أنك أمير الملة الحنفية كما أنه هو أمير الملة النصرانية ، وأنك لا يخفى عليك ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعايا وإخلادهم إلى الراحات ، وأنا أسوسهم بحكم القهر والخسف وأخلي الديار ، وأسبي الذراري ، وأمثل بالكهول وأقتل الشبان ولا عذر لكم عن التخلف عن نصرتهم ، وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ،

والآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً ، فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً .

ثم حكي لي أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاماً بعد عام ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، ولا أدري الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك .

ثم حكي لي عنك أنك لا تجد سبيلاً إلى الحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم بها فها أنا ذا أقول لك ما في ذلك وأعتذر عنك ولك أن تتوجه بجملة من عندك بالمراكب والشواني ، وأجوز إليك بجملتي ، وأبارزك في أعز الأماكن عندك ، فإن كانت لك الغلبة فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهديّة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحققتُ إمارة المِلَّتَيْن والتقدم على الفئتين ، والحكم على البرين ، والله يوفق الإرادة ويوضح السعادة ، لا رب غيره ولا خير إلا خيره .

فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه : ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولَنُخْرِجَنّهم منها أذلة وهم صاغرون ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه أو تقرؤه ، وكتب أيضاً بيتاً مشهوراً للمتنبي :

ولا كُتْـــبَ إلاّ المشــــرفِيّــــةُ والقَنَـــا   ولا رُسْـــلَ إلاّ الخميـــسُ العَـــرَمْـــرَمُ

وأعاد الكتاب إليه وجمع العساكر الكثيرة من المسلمين وعبر إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء ، فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيها ودانيها وأقبلوا إليه مجدّين مصمّمين على القتال واثقين بالظفر لكثرتهم ، فالتقوا تاسع شعبان شمالي قرطبة فاقتتلوا قتالاً شديداً استشهد فيه كثير من المسلمين ، وكانت الدائرة في أول الأمر على المسلمين ثم تراجعوا وعادوا على الفرنج فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم ، وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ، وكان عدد من قتل من الفرنج مئة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وأُسر منهم ثلاثة عشر ألفاً وقيل ثلاثون ألفاً ، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً ، فمن الخيام مئة ألف وثلاث وأربعون ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً وقيل ثمانون ألفاً ، ومن البغال مئة ألف ،

ومن الحمير مئة ألف وقيل أربعمئة ألف جاء بها الكفار أثقالهم ؛ لأنه لا إبل عندهم بالأندلس ، ومن الدروع التي صارت لبيت المال ستون ألفاً غير ما أخذه المسلمون منها ، وأما الذهب والفضة والجواهر والأموال ، فلا تحصى ، وبِيْعَ الأسيرُ بدرهم والحمار بدرهم ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع .

ونجا أَلْفُنْشُ بروحه وهو ملك النصارى إذ ذاك إلى طليطلة في أسوء حال وحلق رأسه ونكس الصليب وحلف ألاّ ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر ، وصار يجمع الرجال من البلاد البعيدة ويستعد للقاء ، ثم لقيه يعقوب بالجيوش مرة ثانية فهزمه وساق خلفه إلى طليطلة وحصره فيها ورمى عليه بالمجانيق ولم يبق إلاّ فتحها فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه يبكين بين يديه ويسألنه إبقاء البلد عليهن فرقَّ لهنَّ ومن عليهن بها ووهب لهم أموالاً كثيرة ، وعفا بعد القدرة ورجع إلى قرطبة فأقام بها شهراً يقسم الغنائم ، فجاءته رسل الأذفونش بطلب الصلح فصالحه وهادنه خمس سنين وأمن الناس ، وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له ، وأُحصي ما حمل إليه من السلب فكان زيادة على سبعين ألفاً ، وهذه الوقعة تسمى وقعة الأرك وهو اسم للموضع الذي كانت فيه الوقعة ، ولم يسمع بعد وقعة الزَّلاقة التي كانت على يد أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين بمثل وقعة الأرك هذه ، بل صرّح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزَّلاقة ، وكان جملة من استشهد من المسلمين في هذه الوقعة نحو عشرين ألفاً ، وعظم أمر الإسلام بالأندلس بعد هذه الوقعة ، ومدح الشعراء يعقوب بعد هذا الفتح بقصائد كثيرة وأجازهم بعَطَيّات وافرة ، فمنهم ابن منقذ وكان شاعراً بليغاً مدحه بقصيدة منها قوله :

سأشكر بحراً ذا عُبابٍ قطعته ... إلى بحر جُودٍ ما لأُخْراه ساحلُ
إلى مَعْدِنِ التقوىٰ إلى معدِنِ النَّدىٰ ... إلى مَنْ سَمَتْ بالذكر منه الأوائلُ
إليكَ أميرَ المؤمنينَ ولَم تَزَلْ ... إلى بابِكَ المأمولِ تُزْجَىٰ الرَّواحِلُ
قَطَعْتُ إليك البَرَّ والبَحْرَ مُوقِناً ... بِأنّ نداك الغَمْرَ بالنُّجْحِ كافِلُ
وَحُزْتُ بقُصْدِيكَ الغِنىٰ فَبلغْتُها ... وأَدْنى عطاياكَ العُلا والفَواضِلُ
فلا زِلْتَ للعلياءِ والجودِ باقياً ... تُبلغكَ الآمالُ ما أنت آمِلُ

وعدد أبيات القصيدة أربعون بيتاً فأعطاه أربعين ألفاً ، وإنما صالح يعقوب الفرنج

وهادنهم لأنه بلغه قيام ثائر من المرابطين بإفريقية ، فأراد يعقوب الرجوع إلى مراكش لقمع هذا الثائر وإخماده ، فرجع وقمعه وأخمده .

(لطيفة) : قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه في الفتوحات المكية : كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمئة وعساكر المسلمين قد جازت الأندلس لقتال العدو ، فلقيت رجلاً من رجال الله فسألني ما تقول في هذا الجيش هل يفتح له وينتصر في هذه السنة أم لا ؟ فقلت له : ما عندك أنت في ذلك ؟ فقال : إن الله تعالى قد ذكره في كتابه وبَشَّر به نبيه ﷺ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح : ١] وموضع البشرى فتحاً مبيناً من غير تكرار الألف في مبيناً فإنها لإطلاق الوقوف في تمام الآية ، فنظرت وحست الحروف فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمئة ، ثم جزت إلى الأندلس في السنة المذكورة وقد نصر الله جيش المسلمين ، فهذا من الفتح الإلهي لهذا الشخص اهـ .

وتوفي الأمير يعقوب بمدينة سلا وقيل بمراكش سنة خمس وتسعين وخمسمئة وعمره إحدى وأربعون سنة .

قال ابن خلكان في ترجمة يعقوب المذكور : ثم حكى لي جمع كثير بدمشق سنة ثمانين وستمئة أن بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزية بالشاع قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب ، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف اهـ .

قال في نفح الطيب : توفي السلطان يعقوب سنة خمس وتسعين وخمسمئة بمدينة سلا ، وكانت ولايته خمس عشرة سنة ، وما يقال إنه ساح في الأرض وتخلى عن الملك ووصل إلى الشام ودفن بالبقاع لا أصل له وإن حكى ابن خلكان بعضه .

وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم ، وقال : إن ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور ، انتهى .

قال ابن خلكان : وسمعت عن الأمير يعقوب حكاية يليق أن تذكر ههنا وهي أن الأمير أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاني كان قد تزوج أخت الأمير يعقوب المذكور وأقامت عنده ، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها

يعقوب ، فسيّر الأمير عبد الواحد في طلبها فامتنعت ، فشكا الأمير عبد الواحد إلى قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان ، فاجتمع القاضي المذكور بالأمير يعقوب وقال له : إن أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله ، فسكت الأمير يعقوب ومضى على ذلك أيام ، ثم إن الأمير عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير يعقوب وقال له : أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاؤوني ، فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له : يا أمير المؤمنين إن الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله وهذه الثانية ، فسكت الأمير يعقوب ، ثم بعد ذلك بمدة لقي الأمير عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له : يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنها ، فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له : يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فإما أن تُسيّر إليه أهله وإلا فاعزلني من القضاء ، فقال : يا أبا عبد الله ما هذا إلا جِدٌّ كبير ، ثم استدعى خادماً وقال له في السر تحمل أهل الشيخ عبد الواحد فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغيّر على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه ، وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره .

قال ابن خلكان : وكان محمد المذكور حديث السن عمره نحو تسع عشرة سنة ، فاستخف بكثير من وزراء أبيه ورجال دولته وبكثير من رجال الأندلس العارفين بالقتال حتى إنه قتل بعض رجال دولته وشنق بعضهم فكان ذلك سبباً لفساد النيات ولقوة الشكيمة للأفرنج ، فلما بلغه قوة شكيمتهم وطمعهم في التغلب على بعض الحصون ، بل أخذوا بعضها بالفعل ، شرع في التجهز للمسير لقتالهم فتجهز في ستمئة ألف مقاتل ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش واستعد له العدو بجموع كثيرة ، فلما التقوا وتقاتلوا في شهر صفر سنة تسع وستمئة انهزم المسلمون وكثر القتل فيهم ولم ينج من الستمئة ألف الذين مع محمد بن يعقوب غير عدد يسير لم يبلغوا الألف ، فكانت هذه الوقعة هي الطامة الكبرى على الأندلس بل على المغرب كله ، وما ذلك إلا لسوء التدبير والاعتماد على القوة وكثرة الجند والله غالب على أمره ، واستولى العدو بعدها على كثير من الأندلس ، وتسمى هذه الوقعة بوقعة العقاب ، ثم كثر الثائرون والخارجون عليه أيضاً في المغرب ، وتوفي محمد بن يعقوب المذكور سنة ست عشرة

وستمئة ثم تفرقت كلمةُ بني عبد المؤمن وكثر الاختلاف والقتال بينهم مع بعضهم وانتشرت فتن كثيرة بينهم ، فكانوا كلما بويع لواحد منهم خلعوه وخرجوا عليه إلى أن انقضت دولتهم ، وكانوا كلهم يدعون لمهديّهم محمد بن تومرت على المنابر في الخطبة ويسترحمون عليه ويكتبون اسمه على سكة الدراهم والدنانير ، إلا العاشر من خلفائهم وهو أبو العلاء إدريس الملقب بالمأمون بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فإنه أمر بإسقاط اسم مهديهم محمد بن تومرت من السكة والخطبة ، وألّف في ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلاله ، وصار يلعنه ، وكان إدريس المأمون عالماً فصيحاً متمكناً في علم الأصول والفروع ناظماً ناثراً ، وكان سفّاكاً للدماء وكانوا يسمونه حَجّاجَ المغرب ، قتل مئة من شيوخ الموحدين وسفك دماء كثيرة من دماء الخارجين الثائرين عليه ، وقتل في يوم واحد أربعة آلاف ، ونصب رؤوسهم على أسوار مدينة مراكش مات سنة ثلاثين وستمئة ، وكان تمام انقضاء دولتهم سنة ثمان وستين وستمئة ، فكانت مدة دولتهم مع مهديهم مئة واثنتين وخمسين سنة ، وجملة من تولى منهم مع مهديهم ستة عشر شخصاً ، فسبحان الملك الباقي الذي لا يعتري ملكه الزوال والنقصان ، وتفصيل ملوكهم مع الفتن التي وقعت بينهم ذكرته في تاريخ جمعته في أخبار الأندلس ، وكان المنتزع لملك بني عبد المؤمن جماعة من بني مرين ، وسنذكرهم إن شاء الله تعالى ونذكر ما كان منهم من الغزو لكفار الأندلس ، لكن ينبغي قبل ذكرهم أن نذكر الحفصيين ملوك تونس لأنهم من فروع دولة الموحدين والجميع من فروع دولة محمد بن تومرت المهدي على زعمهم ، والحفصيون ملوك تونس هم أولاد أبي حفص عمر الهنتاني وهو الوزير الثاني لمحمد بن تومرت ؛ لأنه أول قيامه بدعواه كان الملازمون القائمون بأمره ثلاثة :

عبد المؤمن بن علي وعبد الله الونشريسي ، وأبو حفص عمر الهنتاني ، أما عبد المؤمن فقد تقدم الكلام عليه وعلى أولاده الذين ورثوا الملك منه إلى أن ذهب ملكهم ، وأما عبد الله الونشريسي فقتل في بعض الحروب التي كانت أول ظهور محمد بن تومرت ، وأما أبو حفص عمر الهنتاني فكان وزيراً لعبد المؤمن وكان ولي العهد بعده ، ثم احتال عليه عبد المؤمن وخلعه وجعل ولاية العهد لابنه محمد ثم يوسف بن عبد المؤمن ، وكان عبد المؤمن في مدة ملكه اتخذ أبا حفص عمر الهنتاني

وزيراً وخليلاً يقربه ويدنيه ويستشيره في أموره كلها ، ثم صار أبناء عبد المؤمن يقربون أبناء أبي حفص ويدنونهم ويتخذون منهم وزراء وأمراء .

وفي سنة ستمئة وثلاث في مدة ملك محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، جُعِلت ولاية تونس لعبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاني ، وتوارثها بنو عبد الواحد المذكور ، وبقي ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمئة وإحدى وثمانين ، فانتزع ملك تونس منهم سلاطين آل عثمان ، فكانت مدة تَمَلّك تونس لبني حفص ثلاثمئة وثمانية وسبعين سنة ، وعدة ملوكهم ثمانية وعشرون ملكاً ؛ فدولتهم أيضاً من فروع دولة المهدي محمد بن تومرت ، وكان لهم ملك ضخم ، وجرى منهم غزوات وفتوحات سيأتي كثير منها بعد إتمام الكلام على دولة بني مرين المنتزعين ملك بني عبد المؤمن ، وبعد ذكر ما كان منهم من الغزوات والفتوحات بالأندلس .

ذكر دولة بني مرين وغزواتهم بالأندلس

اعلم أن بني مرين قبيلة من قبائل البربر ، وكانوا متوحشين يسكنون الصحراء والقفار ، وكانت لهم مواش ثم صارت لهم خيل وقوة ، فلما ضعف ملك بني عبد المؤمن ورأى بنو مرين ضعفهم ، واختلال ملكهم ، تخلصوا من الصحراء والقفار وتفرقوا في جهات المدن والأمصار وأوجفوا بخيلهم وركابهم ، وظهرت لهم رئاسة وقوة شوكة ، فخلعوا طاعة بني عبد المؤمن من بعد أن كانوا تحت طاعتهم ، فصار كثير من رعايا بني عبد المؤمن يحتمون ببني مرين ويلتجؤون إليهم ، ولا سيما إذا وقعت عليهم مظلمة من بني عبد المؤمن ، فتمسك كثير من الناس بمعتصمات بني مرين وأظلم الجو بينهم وبين عبد المؤمن ، وثار من ذلك فتن كثيرة بين الفريقين ، ووقع بينهم محاربات يطول الكلام بذكرها ، فصار بنو مرين يقوى أمرهم كلما ضعف ملك بني عبد المؤمن ، إلى أن استلبوهم الملك وانتزعوه منهم واستولوا عليه ، وأول ما ظهرت الرئاسة في بني مرين بعد الخمسين والخمسمئة من الهجرة ، وأول من ظهرت عليه الرئاسة منهم محيو بن أبي بكر بن حمامة فقدموه رئيساً عليهم إلى أن توفي سنة إحدى وتسعين وخمسمئة فقام بالرئاسة بعده ابنه عبد الحق بن محيو إلى أن توفي سنة أربع عشرة وستمئة ، فقام بالرئاسة بعده ابنه عثمان بن عبد الحق إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وستمئة ، ثم بعده أخوه أبو يحيى بن عبد الحق إلى أن توفي سنة ست وخمسين وستمئة ، فقام بالرئاسة بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق ، وفي هذه المدة السابقة كانت محاربات كثيرة بينهم وبين بني عبد المؤمن ، فقوي أمرهم وانتشر صِيتُهم واستولوا على مدائن وقرى ، منها مكناسة وفاس وتلمسان وطنجة فسبتة وغير ذلك ، إلا تونس وأعمالها فإن ملكها كان بيد الحفصيين أبناء أبي حفص عمر الهنتاني أحد أصحاب المهدي محمد بن تومرت ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وكان تملك بني مرين فاس سنة ست وأربعين وستمئة ، وآخر الأمر ملكوا مراكش سنة ثمان وستين وستمئة وقتلوا أبا دبوس الملقب بالواثق وهو آخر ملوك بني عبد المؤمن ، واستقر الملك لبني مرين على يد يعقوب بن عبد الحق ، فهو الذي ينبغي أن يكون أولهم ، ولما استقرت دولته بمدينة

مراكش جاءته البيعة من أهل الأندلس ، وجاء جماعة منهم يستنصرون به على النصارى المتغلبين على أكثر الأندلس ، وسيأتي ذكر تجهيزه لغزو العدو بالأندلس إن شاء الله تعالى .

ذكر ما كان من استيلاء العدو على كثير من مدائن الأندلس مدة ضعف دولة بني عبد المؤمن

كان بالأندلس عمال لبني عبد المؤمن متفرقون في أقطارها ومدائنها ، فلما حصل الضعف لدولتهم وانتشرت الفتنة بينهم مع بعضهم وبين بني مرين واشتغلوا بقتالهم ، اغتنم العدو الفرصة وصار يقتطع كثيراً من المدائن والمعاقل والحصون ويستولي عليها ، ولم يوجد بالأندلس من الجيوش والرجال من يدافع العدو ويقاتله وقد كَثُرَ ما استولى عليه الطاغية في هذه المدة التي ضعف فيها ملك بني عبد المؤمن ، وبعض المدائن استولى عليها العدو قبل ظهور الضعف في دولتهم ، فمن ذلك مدينة تُطِيلَة وأختها طرسونة استولى عليها الطاغية سنة أربع وعشرين وخمسمئة ، وكان ذلك في أول دولة بني عبد المؤمن وآخر دولة المرابطين ، بل كان قد استولى قبل ذلك على طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمئة كما تقدم ، حتى إن يوسف بن تاشفين لما عبر الأندلس ، وكانت وقعت الذلاقة عجز عن تخليص طليطلة من يد الطاغية ، واستولى الطاغية على مدينة سَرَقُسْطَة سنة سبع وخمسين وأربعمئة ثم استرجعت ، ثم استولى عليها ثانياً سنة خمسمئة واثنتي عشرة ، واستولى على بلنسية سنة أربعمئة وسبع وخمسين ، ثم ارتجعها المسلمون ، ثم تكرر استيلاؤهم عليها واسترجاعها كما تقدم ، ثم تغلب العدو عليها وأخذها مرة أخرى سنة ست وثلاثين وستمئة ، واستولى على حصن روطة سنة تسع وعشرين وخمسمئة ، وكان من أمنع الحصون سلّمه ابن هود لصاحب طليطلة لما عجز عن مقاومته ، واستولى العدو على مدينة المرية سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة ، وكان قبل ذلك استولى على مدينة لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمئة ، ثم ارتجع الموحدون المَرِيَّة سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة وبقيت بيد المسلمين سنين ، ثم ارتجعها العدو خذله الله مرة أخرى واستولى على كورة مارِدَة سنة ست وعشرين وستمئة ، وعلى مَيُورْقَة سنة سبع وثلاثين وستمئة ، وعلى جزيرة شُقْر

سنة تسع وثلاثين وستمئة ، وعلى قرطبة دار الخلافة سنة ست وثلاثين وستمئة ، وعلى شرقي الأندلس شاطبة وغيرها سنة خمس وأربعين وستمئة ، واستولوا سنة أربع وأربعين وخمسمئة على مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لارِدَة وإفراغة وعلى مرسية صلحاً في العام المذكور ، وحصروا إشبيلية سنة خمس وأربعين وستمئة وملكوها في العام القابل ، وبيان وقائع أخذ الطاغية لهذه المدائن يطول الكلام بذكره ، وذلك مشتمل على ما تتقرح له الأكباد وتنسجم له العيون .

ولما أُخِذَت قواعد المدائن وأمهاتها بالأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها ، انحاز أهل الإسلام إلى قطعة من شرقي الأندلس كانت بيد المسلمين منهم محمد بن يوسف بن هود الجذامي كان آباؤه لهم ملك بالأندلس من جملة ملوك الطوائف ، فكان محمد بن يوسف المذكور بمرسية من شرقي الأندلس ، وكان هناك عمال لبني عبد المؤمن فتغلب عليهم وأخرجهم ، واستعان على ذلك ببعض أهل الأندلس وعلمائهم وأعيانهم ، وصار الملك له وخطب لبني العباس ، وأقام الدعوة لهم ، ثم كثر المنازعون له والثائرون عليه من المسلمين ومن الفرنج وطمعوا فيه ، فاضطربت عليه الأمور ، وكان ممن نازعه من المسلمين بنو الأحمر ، وهم قوم ينسبون إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه الأنصاري سيد الخزرج في زمن النبي ﷺ ، كان تحت أيديهم بعض مدائن بغرب الأندلس فانتزعوا ما كان تحت يد محمد بن يوسف بن هود وضَمّوه إلى ما كان تحت أيديهم ، وكان أول من قام من بني الأحمر محمد بن نصر ، وكان أبوه نصر في دولة بني عبد المؤمن من أمراء الأجناد ، وكان محمد بن نصر يقال له محمد الشيخ وبويع سنة تسع وعشرين وستمئة ، وخطب لأبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاني ، وكان أبو زكريا المذكور إذ ذاك صاحب تونس ، وكان قد استفحل ملكه بتونس وإفريقية فخلع طاعة بني عبد المؤمن ودعا لنفسه وتسمّى بأمير المؤمنين ، فبايع ابن الأحمر الناس له ليفسد على ابن هود بيعته لبني العباس ، ودخل مع ابن الأحمر في تلك البيعة أهل جَيَّان وشَرِيش ، وكان الطاغية في ذلك الوقت محاصراً بلنسية ، وذلك سنة ست وثلاثين وستمئة ، ثم أرسل ابن الأحمر جماعة من أعيان أهل الأندلس لأبي زكريا الحفصي بتونس فقدموا عليه وعقدوا له بيعة أهل الأندلس واستصرخوا به يريدون منه النجدة في قتال النصارى ، فأجابهم إلى

مطلبهم ، وعقد أبو زكريا لتلك البيعة يوماً مشهوداً بتونس ، وأنشد شاعر أهل الأندلس القصيدة المشهورة التي أولها :

أَنْجِـدْ بِخَيلِـكَ خَيْـلِ اللهِ أَنْـدَلُسـا إنَّ السَّبيـلَ إلـى مَنْجـاتِهـا دَرَسَـا

وَهَبْ لَها مِنْ عزيزِ النَّصْرِ ما ٱلْتَمَسَتْ فلـم يـزلْ مِنـكَ عِـزُّ النصـرِ مُلْتَمَسـا

وهي قصيدة طويلة بليغة مذكورة في نفح الطيب ، فأجاب أبو زكريا بيعتهم ولَبّى دعوتهم وجهز أساطيل فيها المال والرجال ، فلما وصلوا الأندلس وجدوا الطاغية المحاصر بلنسيةَ قد ملكها ، ثم ملك مَرْسِيَةَ أيضاً صلحاً .

وكان ممن قام بالأندلس أيضاً أبو محمد أشقيلولة واستولى على قمارش ووادي آش ، وكان بينه وبين ابن الأحمر مصاهرة وقرابة مع منافسة باطنية ، فاستعان به ابن الأحمر على ابن هود قبل أن يتغلبوا عليه ، وكان جاءه خطاب وتقليد من الخليفة العباسي المستنصر بالله بن الظاهر بن الناصر ، فقوي ابن هود لما جاءه التقليد فبايعه ابن الأحمر وترك الخطبة لأبي زكريا الحفصي صاحب تونس وإفريقية ، ثم قام بإشبيلية أبو مروان الباجي ، فداخله ابن الأحمر على أن يزوجه ابنته ، فأطاعه أبو مروان ، فدخل ابن الأحمر إشبيلية ثم فتك بابن مروان فقتله .

ثم إن أهل إشبيلية بعد شهر كاتبوا ابن هود ودخلوا في طاعته وأخرجوا ابن الأحمر ، ثم تغلّب ابن الأحمر على غَرْناطة سنة خمس وثلاثين وستمئة بمواطأة من أهلها ، فجاءته بيعتهم وهو بجَيّان فجاء إلى غرناطة فدخلها وجعلها كرسي مملكته ، ثم تغلّب على مالِقَة .

وفي هذه المدة التي وقعت فيها هذه الفتن بين المسلمين بالأندلس قوي أمر النصارى وطمعوا فيما بأيدي المسلمين ، وتلقّفوا كثيراً من مدائن الأندلس وحصونها وداخلهم ابن هود ، وهادنهم بالصلح ليدفعوا عنه ابن الأحمر وأعطاهم كثيراً من المعاقل والحصون ، قيل إنه أعطاهم ثلاثين حصناً وجعل على نفسه ضريبة لهم كل سنة أربعمئة ألف دينار ، ثم ثار على ابن هود وزيره ابن الرميمي فقتله واستولى على ما بيده ، ثم استولى ابن الأحمر على ما بيد الرميمي سنة ثلاث وأربعين وستمئة ، ثم بايع ابن الأحمر أهل مَيُورْقَة سنة ثلاث وستين وستمئة ، وحصل لأعقاب ابن هود في

هذه الفتن خطوب كثيرة وحروب بينهم وبين ابن الأحمر ، ثم دخلوا في طاعته ، فبعث ابن الأحمر ابن أشقيلولة فتسلم منهم مرسية ، وخطب لابن الأحمر وعوضهم عن مرسية حصناً من عملها سنة ثمان وستين وستمئة ، ثم انقرضت دولة بني هود بالكلّية ، وكان ابن الأحمر في أول أمره يداخل النصارى ويستعين بهم على ابن هود ، فلما داخل النصارى ابن هود وأعطاهم الحصون المتقدم ذكرها وجعل لهم الضريبة على نفسه ، فزع إليهم ابن الأحمر لأنهم كَفّوا عن معاضدته التي كانت منهم له قبل ذلك وصاروا معاضدين لابن هود ، ثم لما رأى ابن الأحمر أمر النصارى يقوى ورآهم تغلبوا على قرطبة وغيرها خاف أن يستولوا على ما بيده ، فسخطهم ونبذ عهدهم وصار محترساً منهم ، وحاز في تملكه مدائن بغرب الأندلس وبالمتوسطة من الأندلس ، من ذلك غرناطة والمَرِيّة ومالقة ونحوها ، وتوفي ابن الأحمر محمد الشيخ بن يوسف بن نصر سنة ستمئة وإحدى وسبعين ، فبويع بعده ابنه محمد الفقيه بن محمد الشيخ ، وكان ممن بقي من ملوك الأندلس ابن أشقيلولة وكانوا نظراء لابن الأحمر في الرئاسة ، وبينهم وبينه مصاهرة ومنافسة ، وكان الرئيس فيهم أبا محمد صاحب مالقة وأخاه أبا إسحاق صاحب وادي آش وقمارس ، ثم إن ابن الأحمر محمد الفقيه في سنة ثلاث وسبعين وستمئة بعث جماعة من المسلمين إلى بني مرين يستصرخون بهم ويسألونهم النصرة والإعانة على قتال النصارى ، وكان في ذلك الوقت قد تمكن الملك في مراكش والمغرب الأقصى لبني مرين ، وكان الملك في ذلك الوقت من بني مرين يعقوب بن عبد الحق .

ذكر أول تجهيز من بني مرين لغزو النصارى بالأندلس

لما جاء الصريخ من أهل الأندلس مع الجماعة الذين بعثهم ابن الأحمر محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر ، جهز السلطان يعقوب بن عبد الحق جيوشاً كثيرة من مدينة فاس ومراكش ، فاجتازت إلى الأندلس مع بعض أولاد السلطان يعقوب ، والتقوا مع النصارى وقاتلوهم أشد القتال وهزموهم شرَّ هزيمة وملؤوا أيديهم من غنائمهم وأسلابهم ، وتحصّن النصارى في حصونهم ومعاقلهم في المدائن التي ملكوها ، ورجع بنو مرين سالمين منصورين ، ولم يخلصوا في هذه الغزوة شيئاً من المدائن التي ملكها العدو .

غزوة أخرى لبني مَرِين إلى الأندلس

في سنة أربع وسبعين وستمئة جمع أمير المسلمين السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني جموعاً كثيفة ، واستنفر المسلمين من كل ناحية ، وغزا الأندلس بنفسه ، فلما وصل طريف لقيه ابن الأحمر محمد الفقيه صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالِقَة فأكرمهما وفاوضهما في أمر الجهاد ، ثم أمرهما بالرجوع إلى بلديهما ، فانصرف ابن الأحمر مغاضباً لكلمات صدرت من ابن أشقيلولة أغضبته ، وجاء الخبر للسلطان يعقوب أن زعيم النصارى جمع جموعاً كثيرة يضيق عنها الفضاء ، فرتب السلطان جيوشه للقائه ، ثم التقوا وتقاتلوا قتالاً شديداً وهزم الله النصارى هزيمة قبيحة حتى قال بعض المؤرخين : إنّ المسلمين بعد أن هُزموا يوم العقاب الذي كان في دولة الموحّدين في مدة محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، ما نُصِروا حتى دخل السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الأندلس وفتك بهم ، وقتل الله زعيم النصارى في هذه الوقعة وكان اسمه دَنَّنَهْ ، وقتل من جيشه أكثر من أربعة آلاف ، وهزم الباقون شر هزيمة ، وملك السلطان من الأندلس رُنْدَةَ والجزيرة الخضراء وطريفاً وجبل طارق وغير ذلك ، وأعز الله به الدين بعد تمرد النصارى ، ولما قُتل دَنَّنَهْ زعيم النصارى في القتال المذكور بعث السلطان يعقوب رأس دَنَّنَهْ إلى ابن الأحمر ، فقيل إن ابن الأحمر طيّبه وأكرمه وردَّه إلى النصارى ، وجعل ذلك صنيعاً عندهم وكرامة لهم وولاية اختصها لهم ، وكان ذلك منه انحرافاً عن السلطان يعقوب .

قال ابن خلدون : وظهرت شواهد عليه بعد ذلك ، ورجع أمير المسلمين من غزوته إلى الجزيرة منتصف ربيع الأول من سنته فقسم الغنائم في المجاهدين وما أخذوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم ، بعد إخراج الخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسُّنَّة ليصرف في مصارفه ، وكان مبلغ الغنائم في هذه الغزوة مئة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً ، ومن الأسارى سبعة آلاف وثمانمئة وثلاثين أسيراً ، ومن الكراع أربعة عشر ألفاً ، وأما الغنائم فشيء كثير خارج عن الحصر ، وكذا السلاح وأقام أمير المسلمين أياماً .

غزوة أخرى

بعد فراغ الغزوة السابقة ورجوع السلطان إلى الجزيرة وإقامته أياماً خرج غازياً من الجزيرة إلى إشبيلية فجاس خلال ديارها ، وتتبع نواحيها وأقطارها ، وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعمرانها ، ثم ارتحل إلى شَرِيش فأذاقها وبال الغيث والاكتساح ، ثم رجع إلى الجزيرة بعد شهرين ، ثم رجع إلى المغرب من السنة المذكورة بعد أن رتب في الأندلس جيشاً يقيم هناك ليدوم الغزو والجهاد للكفار .

غزوة أخرى لبني مرين بالأندلس

في سنة ست وسبعين وستمئة تجهز السلطان يعقوب بن عبد الحق ، وسار بجموعه ونزل بطريف آخر المحرم ، ثم ارتحل إلى رُنْدَة ، ووافاه الرئيسان أبو محمد ابن أشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو إسحاق صاحب قمارش يريدان الغزو معه ، ولم يأته ابن الأحمر صاحب غرناطة ، فارتحل السلطان ومن معه إلى منازلة إشبيلية ، وكان بإشبيلية إذ ذاك ملك الجلالقة ابن أذفونش فحار وجَبُنَ عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محامياً عن أهله ، فرتب أمير المسلمين جيوشه وجعل ابنه يوسف في المقدمة وزحف في التعبئة ، فانحجز العدو إلى البلد ، واقتحموا أثرهم في الوادي وأثخنوا فيهم إلى أن جاء الليل ، وبات العسكر ليلتهم على ظهور خيولهم وقد أضرموا النيران بساحة العدو ، وضربوا الحصار عليهم وبثوا السرايا والغزوات في سائر النواحي حتى أبادوا عمرانها وملكوا حصن قطيانة عنوة ، وكذا حصن جليانة وحصن القليعة ، وأثخنوا في القتل والسبي ، ثم ارتحل السلطان إلى الجزيرة الخضراء بالغنائم ، فارتحل وقسم الغنائم في المجاهدين .

غزوة أخرى

في منتصف ربيع الثاني من السنة المذكورة ارتحل السلطان من الجزيرة الخضراء غازياً إلى شَرِيش ، فأذاقها نكال الحرب وأقفر نواحيها وقطع أشجارها وحرق كثيراً من ديارها وأعمالها ونواحيها وأثخن فيها بالقتل والأسر ، وتحصن العدو بمدينة شَرِيش

وجَبُنَ عن اللقاء ، فأراد السلطان أخذ الأطراف ليسهل حصار البلد وبعث ابنه يوسف في سرية للإغارة على إشبيلية وحصون الوادي فبالغ في النكاية ، واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليابة والقناطر ، ثم صَبَّحَ إشبيلية وانكفّ إلى أمير المسلمين فقفلوا جميعاً إلى الجزيرة الخضراء فأراحوا ، وقسموا الغنائم في المجاهدين .

غزوة أخرى

ثم لما كان السلطان بالجزيرة الخضراء حَثَّ المسلمين على غزو قرطبة ، ورغّبهم في عمرانها وثروة مساكنها وخصب بلادها ، فانعطفوا إلى جانبه وأرسل لابن الأحمر يستنفره ، ودارت بينهما مكاتبات فيها عتاب زال به ما كان في نفس ابن الأحمر ، فعزم على لقاء السلطان وخرج أمير المسلمين من الجزيرة الخضراء لأول جمادى ووافاهم ابن الأحمر بناحية أَرْشُذونة فأكرم وصوله ، فنازلوا جميعاً حصن بني بشر وملكوه عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء ونقلوا الأموال وخربوا الحصن ، ثم بث السرايا والثارات في البسائط واكتسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر وتقروا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة ، وانحجزت حامية العدو من وراء الأسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها وترددوا على جهاتها ، وملكوا حصن بركونة عنوة ثم أرجونة كذلك ، وجبن العدو عن اللقاء وأيقن بخراب العمران ، فجنح إلى السلم وأرسل لأمير المسلمين يطلب السلم ، فدفعه إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاءً بحقه ، فأجابهم ابن الأحمر إلى الصلح بعد عرضه على أمير المسلمين وإذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة ، فانعقد السلم وقفل أمير المسلمين من غزواته وجعل طريقه على غَرْناطة كرسي ملك ابن الأحمر احتفالاً به وخرج له أمير المسلمين عن الغنائم كلها ، فاحتوى عليها ابن الأحمر وقال له السلطان يعقوب : يكون حظ بني مرين من هذه الغزوة الأجر والثواب مثلما فعل يوسف بن تاشفين مع أهل الأندلس يوم الزَّلاّقة ، ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء في أول رجب من العام المذكور فأراهم ونظر في ترتيب المصالح على الثغور ، وكان بنو أشقيلولة مع أمير المسلمين في هذه الغزوة وفارقوه بعد فراغ الغزو ، ولما قفلوا اعتل

أبو محمد صاحب مالقة ثم مات غرة جمادى من السنة المذكورة ، فلحق ابنه محمد السلطان آخر شهر رمضان وهو بالجزيرة فنزل للسلطان عن مالقة ودعاه إلى اجتيازها لأنه رأى ابن الأحمر يطمع في انتزاعها منه ولا قدرة له على دفاعه ، وقال للسلطان : إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ، ولا يتملكها ابن الأحمر ، فقبلها السلطان منه وعقد عليها أمير المسلمين لابنه أبي زيال منديلاً ، ثم سار أمير المسلمين إليها بعد انقضاء شهر الصيام فوافاه سادس شوال وبرز إليه أهلها في يوم مشهود واحتلفوا له احتفال أيام الزينة سروراً بقدومه ودخوله في إيالته ، وأقام فيها إلى خاتم سنته ، ثم عقد عليها لعمر بن يحيى ـ وكان من صنائع دولتهم ـ وأنزل معه المسالح وزيان ابنه وابن أبي عباد بن عبد الحق في طائفة من أبطال بني مرين ، واستوصاه بمحمد بن أشقيلولة ، ولما علم ابن الأحمر أن أمير المسلمين تملكها شق عليه ، ثم ارتحل السلطان إلى الجزيرة ثم إلى المغرب سنة سبع وسبعين وستمئة وقد اهتزت الدنيا لقدومه وامتلأت القلوب بما أعطاه الله من نصر المسلمين .

لكن نشأ من تملكه مالقة غيظ لابن الأحمر وعظم عليه الأمر فتظاهر بطاغية النصارى واتفق معه على منع دخول السلطان الأندلس بعد هذه المرة إن أراد ذلك ، فاغتنم الطاغية مظاهرة ابن الأحمر له فنكث عهد أمير المؤمنين وأغزى أساطيله الجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره ، واحتال ابن الأحمر على عامل مالقة فأخذها منه ، وراسلوا بعض الثائرين على السلطان بالمغرب وحثوهم على إفساد الثغور ، واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش ويلغه أن المسلمين في الجزيرة الخضراء في شدة من ضيق الحصار ، فعقد لابنه على الغزو وأغزى الأساطيل في البحر إلى جهاد العدو .

غزوة أخرى لبني مرين بالأندلس

لما بلغ أمير المسلمين ما تقدم من نكث الطاغية العهد ومظاهرة ابن الأحمر فعقد السلطان لابنه ، فوصل إلى طنجة في شهر صفر من سنة ثمان وسبعين وستمئة ، وأوغر إلى البلاد البحرية لإعداد الأساطيل بسبتة ، وطنجة وسلا ، وقسم الإعطاءات واستنفر الناس ، فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت ، ولما

رأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين في الجزيرة الخضراء من حصار الطاغية لها وإشرافه على أخذها أخذته الحمية الإسلامية ، وأعد أساطيله وكانت اثني عشر وبعثها مدداً للمسلمين وإغاثة لهم ، وكانت أساطيل أمير المسلمين تناهز السبعين وقيل اثنتين وسبعين ، وبعث الأمير صاحب سبتة خمسة وأربعين أسطولاً ، وأساطيل الطاغية تناهز أربعمئة ، وتلاقوا مع العدو وأخلصوا لله عزائمهم وصدقوا في نياتهم ووعظهم خطباؤهم ، والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن كلّا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل فانكشفوا وتساقطوا في البحر فاستلحمهم السيف وغشيهم اليمُّ ، وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرفأ الجزيرة وفُرْضَتَها عنوة ، فاختل عسكر الطاغية ودخلهم الرعب ، وخرج الناس المحصورون من البلد وانتشرت النساء والصبيان بساحته فغنموا كثيراً من الحنطة والإدام والفواكه حتى ملؤوا أسواق البلد من ذلك أياماً .

وأجاز الأمير يوسف من حينه إلى الأندلس وأرهب العدو في كل ناحية ، ثم صده عن التوسع شأن الفتنة مع ابن الأحمر ، فرأى أن يعقد مع الطاغية صلحاً ويصل به يداً لينازل غرناطة كرسي ملك ابن الأحمر ، فأجابه الطاغية إلى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الأحمر في إعداده المدد لأهل الجزيرة ، وتظاهر الطاغية بالعداوة لابن الأحمر ، وبعث الطاغية أساقفته لعقد الصلح ، فأجازهم الأمير يوسف إلى أبيه أمير المسلمين فغضب لذلك وأنكر على ابنه ولم يرض بما أراده وزوى عنه وجه رضاه ، وأرجعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي ، وجاء أهل الجزيرة الخضراء إلى أمير المسلمين فلقوه بأرض السوس فولى عليهم ابنه أبا زيان منديل ، فنزل بالجزيرة وأتم الصلح مع الطاغية ونازل المرية براً وبحراً وكانت لابن الأحمر فامتنع أخذها عليه وانضوى إليه أهل الحصون القريبة بطاعتهم حذراً من الطاغية فتقبلهم ، ونازل الطاغية ابن الأحمر بغرناطة وحاصره فرجع ابن الأحمر إلى مسالمة بني مرين ، وبعث لأبي زيان ابن السلطان في طلب الصلح فأنهى الأمر إلى أبيه ، فأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من منازلة الطاغية ، فراسله السلطان إلى أن تم الصلح بينه وبين ابن الأحمر ، وارتحل الطاغية من غرناطة ، واشترط السلطان على ابن الأحمر إرجاع مالقة للسلطان .

غزوة أخرىٰ

من لطف الله بالمسلمين وعنايته ببني مرين أن أوقع الخلف بين الطاغية ابن أَذْفُونْش وابنه شانْجُه حتى سلب أباه ملكه وتغلب عليه ، فوفد على السلطان بطارقة الطاغية وزعماء دولته مستصرخين على ابنه شانْجُه مخبرين بأنه خرج على أبيه في طائفة من النصارى فغلبوه على أمره فجاؤوا يطلبون النصرة من أمير المسلمين ليرجع للطاغية ملكه وينتزعوه من ابنه ، ففرح أمير المسلمين بافتراقهم وأحب الدخول إلى الأندلس ليقضي مأربه من جهاد الكفار ، فأجاب أمير المسلمين رسل الطاغية ووعدهم بالقيام مع الطاغية ليرجع ملكه إليه وينتزعه من ابنه الغاصب له ، فأوعز إلى الناس بالجهاد وأمرهم بالنفير وجهز الجيوش ، وأجاز إلى الجزيرة الخضراء ، فاحتل بها في ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين وستمئة واجتمعت عليه مسالح الثغور بالأندلس ، وسار حتى نزل صخرة عباد ، فوافاه الطاغية بنفسه ذليلاً لعز الإسلام مؤملاً صريخ السلطان ، فأكبر وفادته وأكرم موصله وعظم قدره .

وذكر ابن خلدون وابن الخطيب أن هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبّل يده إعظاماً لقدره وخضوعاً لعزّه ، فدعا السلطان بماء فغسل يده من تلك القُبْلة بمحضر من كان هناك من جموع المسلمين والفرنج ، والتمس الطاغية من السلطان أن يمده بشيء من المال يستعين به فأمده لنفقاته مئة ألف من مال المسلمين استرهن فيها الطاغية تاجَه ، بقي بيد المسلمين فخراً للأعقاب .

ودخل السلطان معه دار الحرب حتى نازل قرطبة وبها شانْجُه بن الطاغية الخارج على أبيه السالب لملكه ، فقاتلها ثم تنقل في جهاتها ونواحيها ، وارتحل إلى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم وضاق معسكره منها ، ورجع السلطان إلى الجزيرة فاحتل بها لشعبان من السنة التي اتصلت يد السلطان بيد الطاغية .

خشي ابن الأحمر غائلته فجنح إلى موالاة شانْجُه الخارج على أبيه ووصل يده بيده وأكد له العقد وأضرمت الأندلس ناراً وفتنة ولم يغن ذلك شانْجُه شيئاً ، فلم يزل السلطان مع الطاغية حتى ظهر على ابنه ، وذلك أن السلطان كان اشترط على ابن

الأحمر إرجاع مالقة فلم يفعل ، فنهض السلطان إلى مالقة ونازلها فاتح ثنتين وثمانين فتغلب على الحصون القريبة ، ثم حاصر مالقة ، فضاق النطاق على ابن الأحمر فالتجأ إلى الأمير يوسف بن السلطان ، وخاطبه مستصرخاً لرقع هذا الخرق وجمع كلمة الإسلام ، فأجابه وأجاز لشهر صفر ، فوافى السلطان أمير المسلمين بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الأحمر والتجافي عن مالقة ، فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضا الله في جهاد عدوه وإعلاء كلمته ، وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر ونجدت عزائم المسلمين ، وقفل السلطان إلى الجزيرة وبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ، ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرة ربيع الثاني من سنة ثنتين وثمانين وستمئة حتى انتهى إلى قرطبة ، فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح حصوناً ثم رجع إلى الجزيرة في شهر رجب وقسم الغنائم ، ثم رجع إلى المغرب .

وفي فاتح سنة ثلاث وثمانين بلغه ملك الطاغية ابن أذفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانْجُه الخارج على أبيه ، فتحركت إلى الجهاد عزائم السلطان .

غزوة أخرىٰ

في سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على جهاد العدو بالأندلس ، فجمع الجيوش ونهض من مراكش في شهر جمادى الآخرة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان ، فقضى صومه ثم شرع في إرسال الجنود إلى الجزيرة الخضراء إلى خاتمة سنته ، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين ، ولما انتهى إلى الجزيرة سرح في بلاد العدو وبث السرايا والغارات في جميع النواحي ، فأثخنوا القتل والتخريب والسبي للنساء والذرية ، وركب غازياً بنفسه كثيراً من تلك الجهات ، وجرى في هذه الغزوات ما يطول الكلام بذكره وتعداد الجهات والحصون التي أخربوها وسلبوا ما فيها ، وبقي النصارى متحصنين في حصونهم المنيعة لا يقدرون على المبارزة لقتال ولا على الخروج من حصونهم ، فاستيقن الطاغية شانْجُه وأهل ملته أن بلادهم قد فنيت وأرضهم قد خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية ، فجنحوا إلى السلم وضرعوا إلى أمير المسلمين في كَفّ عاديته عنهم ، واجتمع النصارى إلى طاغيتهم شانْجُه خاشعة

أبصارهم وسألوه أن يبعث إلى أمير المسلمين الملأ من كبار النصارى يسألونه الصلح ، فأجابهم شانجة إلى ما دعوه إليه ، فأوفد إلى أمير المسلمين وفداً من بطارقتهم وكبار دولتهم ، فردهم أمير المسلمين اعتزازاً عليهم فأعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط أمير المسلمين ما شاء من عِزّ دينه وقومه ، فأسعفهم أمير المسلمين لما تيقن ذكرهم لعز الإسلام ، لأنه أراد الرجوع إلى المغرب لإصلاح ما فسد من الرعايا بقيام بعض الثوار الخارجين عن طاعته ، فعقد الصلح مع طاغية النصارى واشترط عليهم ما أراد ، مِنْ ذلك أنهم يقفون عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ، ورفع الضريبة عن تجار المسلمين المقيمين بدار الحرب من ممالكهم ، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة .

وفادة الطاغية على السلطان

لما رجعت رسل الطاغية إليه بعد عقد الصلح ، وفد على الطاغية رسل ابن الأحمر ليعقد السلم معه دون أمير المسلمين وأن تكون يده ويده واحدة على السلطان ، فأخبرهما بما عقده من أمير المسلمين ، ثم قال : هذا أمير المسلمين ، ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا ، ثم أشار عليه بعض رجال دولته بالوفادة إلى أمير المسلمين لتتمكن الألفة ، فقبل إشارتهم والتقى قبل ذلك بولي عهد أمير المسلمين وهو ابنه يوسف وكان نازلاً على فراسخ من شَرِيش ، فلقيه وبات في معسكر المسلمين ، ثم ارتحل من الغد للقاء أمير المسلمين ، فأمر المسلمين بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه ، وإظهار شعار الإسلام وأبهته ، فاحتفلوا وأظهروا عِزّ الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية ، فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يليق بها مثله من عظماء الملل ، وقدم هدية سَنِيّة لأمير المسلمين وابنه فقبلاها منه وقابلاه بكفائها ومضاعفتها ، وكمل عقد الصلح وتقبل الطاغية سائر الشروط ، ورضي بعز الإسلام وانقلب إلى قومه ، وسأله السلطان أن يبعث له من كتب المسلمين التي استولى عليها النصارى ، فلما رجع بعث إليه ستة عشر حملاً ، وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة في آخر شعبان وصام بها رمضان ثم أعمل نظره إلى الثغور وترتيب المصالح ، ثم اعتل وهو بالجزيرة واستمر به

المرض إلى أن توفي آخر المحرم من سنة خمس وثمانين وستمئة ، فكانت مدة ملكه تسعاً وعشرين سنة .

وكان ابنه ولي عهده في أقصى المغرب بعثه أبوه لتفقد الأحوال ، وهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، فأخذ البيعة له وزراء أبيه وعظماء قومه وحضر بنفسه في شهر صفر فأخذوا البيعة على الخاصة والعامة ، وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث إلى ابن الأحمر وضرب موعداً للقائه فبدر إليه ولقيه بظاهر مريالة لأول ربيع ، فلقيه هو بمعزة وتكريم ، وتجاوز له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمملكة والده السلطان يعقوب ما عدا الجزيرة وطريف وتفرق على أكمل حالات المصافاة والوصلة ، ورجع السلطان يوسف إلى الجزيرة فوافاه بها الطاغية شانْجُه فجدّدوا عقد السلم الذي عقده له أمير المسلمين يعقوب رحمه الله ، فأجابه .

غزوة أخرىٰ

في سنة سبع وثمانين نما الخبر للسلطان يوسف بن يعقوب بأن الطاغية انتقض العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور ، فأرسل السلطان إلى قائد المسالح بالأندلس أن يدخل إلى دار الحرب وينازل شَريش ويشنّ الغارات على بلاد الطاغية ، فنهض لذلك وجاس خلالها وتوغّل في أقطارها وأبْلَغ في النكاية وفصل السلطان في ربيع الآخر سنة تسعين من تازة غازياً واستنفر أهل المغرب وقبائله ، فنفر وشرع في إجازتهم البحر ، وبعث الطاغية أساطيله فالتقوا مع أساطيل السلطان في شعبان فاقتتلوا وانكشف المسلمون ، ووقعت عليهم هزيمة قدرها الله عليهم استشهد كثير منهم محصهم الله تعالى ، ثم أغزىٰ له ثانياً فجبنت أساطيل الطاغية عن اللقاء ، ثم ملكتها أساطيل السلطان .

غزوة أخرىٰ

ثم أجاز السلطان بنفسه في أواخر رمضان سنة إحدى وتسعين واحتل بطريف ، ثم دخل دار الحرب غازياً فنازل حصناً منيعاً ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو ورد الغارات عن شَريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ الغاية في النكاية

للعدو والإثخان ، وقضى من الجهاد وطراً وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن العسكر فأفزع عن الحصن ورجع إلى الجزيرة ، ثم أجاز إلى المغرب فاتح سنة اثنتين وتسعين .

غزوة أخرىٰ

في سنة اثنتين وتسعين تظاهر ابن الأحمر والطاغية ، واتفقا على منع السلطان إن أراد المجيء بعد المرة السابقة ، وسبب ذلك أنه لما أجاز السلطان إلى الأندلس سنة إحدى وتسعين وأبلغ من نكاية العدو أَهَمَّ الطاغيةَ أمرُه وثقلت عليه وطأته ، وحذر ابن الأحمر أيضاً غائلة السلطان ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وأن يغلبه على أمره ويستلبه ملكه ، ففاوض الطاغية وتحدثوا أنّ استمكانه من الإجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين ، فإن ذلك يسهل عبور شوانيهم وسفنهم وإن أم تلك الثغور طريف ، وإنهم إذا استمكنوا منها وملكوا من المسلمين تكون أساطيلهم بمرفئها بمرصد أساطيل المسلمين فتمنع عبورها ، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف ليتملكها ، وزعم له ابن الأحمر مظاهرته على ذلك ، ووعده بالمدد وإرسال الميرة لأقوات العسكر أيام منازلتها ، ووعده الطاغية أنها تكون لابن الأحمر إن خلصت من أيديهم ، فأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألحَّ عليها بالقتال ونصب الآلات ، واحتلت أساطيله ببحر الزقاق فحالوا بين صريخ المسلمين ووصوله إلى السلطان ، وجمع ابن الأحمر عساكره على طريف وهيأها قريباً منه وسرب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات .

واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار غاية المشقة ، فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد لصالحهم ، واستنزلهم ووفى لهم بوعده ، واستشرف ابن الأحمر أن الطاغية يسلمه طريفاً حسبما كان الوعد بينهما ، فأعرض الطاغية عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان ابن الأحمر نزل للطاغية عن ستة من الحصون عوضاً عنها ، ففسدت ذات بينهما ورجع ابن الأحمر يطلب التمسك بالسلطان ليستعين بها على الطاغية ، فأوفد ابن عمه أبا سعيد ووزيره أبا سلطان الداني في وفد من رجال دولته على السلطان لتجديد العهد وتقرير المعذرة ، فوافوا السلطان ،

فقبلهم وقبل ما اعتذروا به ، وأحكموا الصلح ورجعوا لابن الأحمر بإسعاف غرضه من المؤاخاة .

وقد ذكرنا فيما تقدم أنه كان جيش لبني مرين مقيماً بالأندلس دائماً للغزو ، فقدر الله أنه في خلال ذلك توفي قائد الجيش الذي بالأندلس لبني مرين فعمد السلطان لابنه ولي عهده أبي عامر على ثغور الأندلس التي في طاعته مع النظر في أمر الجيش الذي بالأندلس ، وأنفذه إلى قصر المجاز بعساكر فوافاه ابن الأحمر هناك وقدم له هدية وللسلطان هدية أيضاً ، فتلقاه الأمير أبو عامر واحتفل في مبرته ، ثم وفد ابن الأحمر على السلطان فوافاه بطنجة فبالغ في تكرمته ، وبسط له ابن الأحمر العذر في شأن طريف فقبل عذره ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت قبل ذلك لسلطان المغرب ، وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتمة سنة اثنتين وتسعين مَحْبُوّاً مجبوراً ، وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف ، وعقد السلطان على حربها لوزيره عمر الخرباش فنازلها مدة فامتنع عليه أخذها فأفرج عنها ، وهلك الطاغية شانْجُه سنة ثلاث وتسعين وستمئة واجتمع النصارى على ابنه أذفونش هراندة ، وحصل قيام ثائرين من المسلمين بتلمسان خرجوا عن طاعة السلطان فاعتزم السلطان على التجهيز والمسير إليهم بنفسه ، وانتشر بذلك فتنة يطول الكلام بذكرها ، فسافر السلطان بجيوشه إليهم وطالت تلك الفتنة إلى سنة إحدى وسبعمئة ، ومات ابن الأحمر في هذه السنة بالأندلس وقام بالأمر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع ابن محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر ، وبعث ولده للسلطان بتلمسان فأحكموا الأمر والعهد بينهما ، وكتب السلطان إلى رجاله المقيمين بثغور الأندلس في إعانتهم وأمدهم بالرجال سنة اثنتين وسبعمئة ، فكانت لهم نكاية في العدو ، ثم بدا لابن الأحمر محمد المعروف بالمخلوع أن يصل يده بالطاغية هراندة بن شانْجُه ، فكاتبه وأحكم عقد السلم بينه وبينه ، واتصل الخبر بالسلطان وهو محاصر لتلمسان فسخطه واستنفره الصريخ ، فبعث ابنه أبا سالم لسد تلك الفرجة وجمع إليه العساكر واستعد ابن الأحمر لمدافعة ابن السلطان ، فدخل أهل سبتة في خلع السلطان والقبض على عامله فتم له ذلك ، فسار أبو سالم ابن السلطان بعساكره إلى سبتة وحاصرها مرة ، ثم بيتوه ليلة فاحتل معسكره فأخرج عنها منهزماً ، فسخطه السلطان ،

واعتزم على النهوض لذلك بنفسه إلى أَنْ أشرف على فتح تلمسان فلم يمكنه النهوض بنفسه ، وكانت هذه الفتنة متصلاً بعضها ببعض وأنجز الأمر فيها إلى سنة ست وسبعمئة ، فقدر الله بمهلك السلطان يوسف وهو محاصراً تلمسان ، طعنه خَصِيٌّ من عبيده وهو على غفلة بمواطأة وزير من وزراء السلطان .

ثم صار الاختلاف الكثير بين أولاده ، واختلف بنو مرين فيما يختارونه للملك منهم ، وبايعوا بعضهم ثم خلعوه ، وبايعوا آخر ثم خلعوه وبايعوا آخر من إخوانه ، والكلام على ذلك طويل لا حاجة بنا إلى ذكره ، ووقعت بينهم مع بعضهم فتنة هائلة ، واستمر الأمر بينهم إلى سنة عشرة وسبعمئة ، فاستقر الملك لأخي السلطان يوسف المطعون ، وأخوه الذي استقر الأمر له هو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، وفي خلال هذه الفتن قَتل بالأندلس أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه أخاه محمداً المخلوع بن محمد الفقيه بن الأحمر ، وذلك سنة ثمان عشرة وسبعمئة ، فثار عليه ابن عمه أبو الوليد إسماعيل بن فرج الملقب بالرئيس ابن سعيد بن يوسف بن نصر ، وانقطع الملك عن أولاد محمد الشيخ ابن يوسف بن نصر ، وصار في أولاد ابن سعيد فرج الرئيس بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ؛ لأنه لما ثار أبو الوليد على أبي الجيوش صالحه أبو الجيوش سنة سبع عشرة وسبعمئة على الخروج إلى وادي آش ، فلحق بها وجدد له بها ملكاً إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وسبعمئة ، ودخل أبو الوليد غرناطة فأصّل لنفسه وبنيه مُلكاً .

وفي هذه المدة التي فيها هذه الفتن اغتنم الطاغية الفرصة ونازل الجزيرة الخضراء ، ثم أقلع عنها على صلح بعد أن أذاقها من الحصار شدة ، وبعده نزل جبل الفتح المسمى جبل طارق ، وتقدم أنّ طارقاً هو أول من فتح الأندلس ، وتسمّيه العامة الآن جبل الطار ، فتغلب عليه الطاغية وتملكه ، وذلك سنة تسع وسبعمئة ، وتراسل هراندة بن أذفونش مع صاحب برشلونة وأمره أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم ، فنازل المرية وحاصروها ونصب عليها الآلات ، وحفر العدو تحت الأرض سرباً مقدار ما يسير فيه عشرون راكباً ، وتَفَطَّنَ المسلمون لذلك فاحتفروا قبالتهم مثله إلى أن نفذ بعضهم إلى بعض فاقتتلوا من تحت الأرض ، وبعث ابن الأحمر عسكراً مدداً لأهل المرية ونبذ عهد الطاغية ، فلقيهم جمع للنصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة فهزمهم عسكر ابن

الأحمر واستلحمهم ، ونزل قريباً من العسكر الطاغيةُ وأقامت عسكر الطاغية على سَمّانَةَ وأسطبونة ، وزحفت عسكر بني مرين المقيمون بالأندلس للجهاد على عسكر أسطبونة وقتلوا قائده الفنش وثلاثة آلاف من قومه ، ودخل بعض عسكر المسلمين برجلين فحاصرهم جموع النصارى ، فجاء مدد للمسلمين فانفضَّ النصارى المحاصرون له ، وكان الطاغية بظاهر الجزيرة فارتحل يريد لقاء مدد للمسلمين ، فخالف أهل البلد إلى معسكره وانتهبوا محلاته وفساطيطه ، وصار للمسلمين القوة وامتلأت أيديهم من غنائمهم وأسراهم ، ثم هلك الطاغية أثناء هذه الهزائم سنة اثنتي عشرة وسبعمئة وهو هراندة بن شانْجُه وولي بعده ابنه الهنشة وكان طفلاً صغيراً جعلوه تحت نظر عمه دون بِطْرُه بن شانْجُه مع زعيم للنصارى اسمه جوان ، فكفلاه واستقام أمرهم على ذلك .

وشُغِل السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب بشأن ابنه علي ، فإنه خرج على أبيه ، وكان بينهما ما يطول ذكره ، فاغتنم النصارى الفرصة وقوي أمرهم بالأندلس وأناخوا عليها بعسكرهم وأممهم ، فبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان أبي سعيد وهو في شغله فيما كان بينه وبين ابنه ، وكان بالأندلس ، كما تقدم ، جيشٌ لبني مرين جعلوه مقيماً دائماً بالأندلس لقصد الجهاد ودفع العدو ، وكان الرئيس على أولئك المجاهدين عثمان بن أبي إدريس ابن عبد الحق المريني ، فلما جاء صريخ أهل الأندلس للسلطان أبي سعيد اعتذر إليهم السلطان بسبب ما هو مشغول به من أمر ابنه ، واعتذر إليهم أيضاً بوجود عثمان بن أبي العلاء رئيس الجيش بالأندلس وكان له قوة ورئاسة ، وكان السلطان يخشى منه التغلب على السلطنة ، فتفرقَتْ كلمة بني مرين فشرط عليهم أن يقبضوا على عثمان بن أبي العلاء ويدفعوه إليه برمته فيبقى عنده ويبعث إليهم من يقوم بتدبير جيوش بني مرين بالأندلس مع ما يمكنه من إرسال العساكر ، ثم إذا تم الجهاد بعث ابن أبي العلاء إليهم احتياطاً على المسلمين لئلا تفترق الكلمة ، فلم يمكنهم ذلك لقوة رئاسة عثمان بن أبي العلاء بعصابته من قومه ، فأخفق سعي هؤلاء المستصرخين بالسلطان ولم تحصل لهم نجدة منه ، وأطالت أمم النصرانية الحصار على غرناطة وأكثر الجيوش وطمعوا في تملكها ، ثم إن الله تعالى نَفَّس محنتهم ودافع بيد قدرته كما ستراه مذكوراً حالاً في هذه الغزوة العظمى .

غزوة عظمى[1]

لما أراد الله حصول النصر والفرج للمسلمين الذين حاصرهم العدو بغرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمئة ، وفّق الله شيخ الغزاة من بني مرين المقيمين بالأندلس للجهاد وهو عثمان بن أبي العلاء المتقدم ذكره حتى كان النصر بسببه وإعانته ، فكانت هذه من الغرائب والعجائب ، بل هي من أعظم معجزات النبي ﷺ في نصرة الله لأمته والقصة طويلة ، ومُلَخَّصُها أن النصارى عزموا في ذلك العام على استئصال المسلمين وإخراجهم من الأندلس بحيث لا يبقى شيء من الأندلس تحت يد المسلمين ، فتجهزوا لغزو غرناطة التي فيها أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر وأتاها الطاغية دون بِطْرُه في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً من ملوك الفرنج ، وكان النصارى وملوكهم قبل ذلك رحلوا إلى من يرجعون إليه في دينهم وهو البابا صاحب رومة ، فدخل ملكهم دون بطرة صاحب طليطلة على البابا وسجد له وتضرع وطلب منه استئصال من بقي من المسلمين بالأندلس وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها وعزموا على الاستنجاد بالسلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني صاحب فاس ومراكش ، وأنفذوا إليه رسلاً فاعتذر إليهم ، كما تقدم بيانه ، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو الالتجاء إلى الله تعالى وأخلصوا النيات مع حصول غاية الاضطرار ، وأقبل الأفرنج في جموع لا تحصى ، فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزيمة جيش النصرانية وقتل طاغيتهم دون بِطْرُه ومن معه ، وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً ، وكان سلطان الأندلس إذ ذاك الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، وشيخ الغزاة المقيم بالأندلس من بني مرين الشيخ العالم أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق المريني ، فاجتهد ابن الأحمر في تحصين البلاد والثغور ، فلما بلغ النصارى ذلك التحصين ، عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء ، فانتدب ابن الأحمر لردهم وجهز الأساطيل والرجال ، فلما رأوا ذلك عزموا على استئصال المسلمين وتوجهوا إلى طليطلة ليكملوا التأهب بذلك ، فأعدوا غاية الأهبة ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات والمراكب ،

ووصل العدو إلى غرناطة كرسي ملك ابن الأحمر وامتلأت الأرض بهم ، فتقدم ابن الأحمر إلى شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء وسأله الخروج للجهاد وإنجاد المسلمين بمن معه من الغزاة والشجعان ، فخرج إليهم يوم الخميس الموفي عشرين من ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمئة ، ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على سرية من المسلمين ، فخرج إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة فقطعوهم من الجيش ، وفرت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون إلى الصبح فاستأصلوهم ، فكان هذا أول النصر .

ولما كان يوم الأحد ركب شيخ الغزاة لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة ، فركب النصارى بجملتهم وحملوا عليهم فقاتلهم المسلمون أشد قتال ، وهزم الله الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وقتل الله دون بطرة ملك النصارى وقتلوا الملوك الخمسة والعشرين الذين كانوا معه جميعهم ، وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى فاستولوا على أموال عظيمة ، منها من الذهب ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مئة وأربعون قنطاراً ، ومن السبي سبعة آلاف ، وكان من جملة السبي امرأة الطاغية وأولاده فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً ، فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدة القتلى من النصارى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً ، ويقال إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطرق ، وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون ، واستمر البيع في الأسرى والسَّبْيِ والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر إلى سائر البلاد ، ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً وقيل عشرة أنفس ، وكان عسكر المسلمين خمسة آلاف وخمسمئة منهم ألف وخمسمئة فارس وأربعة آلاف رجالة ، وكانت الغنيمة تفوق الوصف ، وسلخ الطاغية دون بِطْرُه وحشي جلده قطناً وعُلّق على باب غرناطة وبقي معلّقاً سنوات ، وطلب النصارى الهدنة فعقدت لهم ، وكانت هذه الغزوة سنة تسع عشر وسبعمئة ، وكانت وفاة شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء سنة ثلاثين وسبعمئة وعمره ثمان وثمانون سنة ، واستوفى في المشهور سبعمئة واثنتين وثلاثين غزوة رحمه الله تعالى ورضي

عنه ، وكتبوا على قبره ترجمة طويلة تدل على علو شأنه في العلم والعمل والإخلاص في الجهاد ، وكانت وفاة ابن الأحمر سنة سبع وعشرين وسبعمئة وولي بعده ابنه أبو الحجاج يوسف ، وتوفي السلطان عثمان المريني سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة ، وولي بعده ابنه أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني .

ذكر استخلاص جبل الفتح من النصارىٰ

قد تقدم أَنَّ الطاغية تملّك جبل الفتح سنة تسع وسبعمئة ، وكان هذا الجبل للمسلمين من أحسن الثغور ، وكان شَجىً في حلق العدو ، وهو فاصل بين إفريقية والأندلس فَأَهَمَّ المسلمين شأنه ، وكان ابن الأحمر قدم على السلطان إلى سنة اثنتين وثلاثين فأكبر مقدمه وأركب المسلمين للقائه وبالغ في إكرامه ، فتذاكر معه في شأن استخلاص الجبل المذكور ، فاتفقا على التجهيز لاستخلاصه ، فأمر السلطان أبو الحسن بالتجهيز لاستخلاصه وعقد لابنه الأمير أبي مالك على جيش من بني مرين وأنفذه مع ابن الأحمر لمنازلة الجبل فاحتل بالجزيرة ، وتتابع إليه الأسطول بالمدد وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس يجمعون الناس ويستنفرونهم لذلك ، فتسايلوا إليه واجتمع معسكرهم جميعاً بساحة جبل الفتح ، وأبلوا في حربه ومنازلته بلاء حسناً إلى أن تغلبوا عليه وملكوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة ، وافتتحه المسلمون عنوة وقتلوا من كان به من النصرانية ، وغنموا ما كان معهم ، ووافاهم الطاغية ومعه أُمَمٌ كثيرة مدداً لقومه بعد مُضِي ثلاثة أيام من الفتح ، وقد شحنه المسلمون بالأقوات ونقلوها من الجزيرة على خيولهم ، ولما وصل الطاغية أناخ بجيوشه عليه ، وبرز أبو مالك بعساكره فنزل بحذائه ، ونزل أيضاً عسكر الأندلس بحذاء الطاغية وتحصن العدو في محلتهم ، فبادر ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية وسبق الناس إلى فسطاطه ، وتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً إعظاماً له ، فسأله ابن الأحمر الإفراج عن هذا المعقل ، فرأى الطاغية أن تملكه الجبل وانتزاعه من المسلمين شديد عَسِرٌ عليه ، فأجاب ابن الأحمر إلى ما سأل وأتحفه بذخائر مما لديه وارتحل لفوره ، وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر وسد فروجه وأنزل الحامية به ونقل الأقوات ، وكان هذا الفتح فتحاً طَوّق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر طول الدهر ، وكانت مدة منازلة المسلمين

إلى أن ملكوه ستة أشهر ، ثم أراد السلطان أبو الحسن أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع العدو في منازلته ولا يجد طريقاً للتضييق عليه عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال ، فأنفق السلطان كثيراً من الأموال وأرضى العمال حتى بنوا سوراً أحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال ، ثم زاد في التحصين بعده ابنه أبو عنان .

ذكر غزوة للسلطان أبي الحسن إلىٰ الأندلس

كان السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على جبل الفتح اشتغل بقتال جماعة ثائرين عليه بتلمسان ، واستمر ذلك إلى سنة تسع وثلاثين وسبعمئة فرجعوا إلى طاعته ، فتوجهت همته بعد ذلك لغزو النصارى بالأندلس ، فقصد أولاً ولاية ابنه أبي مالك على ثغور عمله بالأندلس وصرفه إليها ، وكان الطاغية مدة اشتغال السلطان بقتال أهل تلمسان قد اعتز على المسلمين ، ونازل السلطان أبا الوليد ابن الأحمر بغرناطة مراراً ، ووضع عليه جزية فتقبلها لعدم قدرته على دفاعه ، وأقبل الطاغية على التهام المسلمين بالأندلس ، فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أهل تلمسان دعته نفسه إلى الجهاد ، فأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور سنة أربعين بالدخول إلى دار الحرب وجهز إليه عساكر كثيرة ثم شخص بنفسه غازياً ، فتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها وأكثر القتل والسبي ، وغنم عساكره غنائم كثيرة ، فلما شرع في الرجوع عن أرضهم اتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له وأجدّوا السير في اتباعه ، فأشار عليه وزراؤه بالخروج من أرضهم وأن يصير إلى مدن المسلمين ويتحصن بها ، فامتنع من الرجوع وكان قرماً ثابتاً إلا أنه غير بصير بالحروب لصغر سنه ، فصبَّحهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وأدركوا الأمير أبا مالك قبل أن يركب على فرسه فقتلوه وكتب الله له الشهادة ، وقتلوا كثيراً من قومه واحتووا على عسكره بما فيه من الأموال ، ورجعوا على أعقابهم ، واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن ففجع لهلاك ابنه واسترجع واسترحم له واحتسب عند الله أجره ، وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل وفتح ديوان العطاء ، وعرض الجند وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب وارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد ، فتسامعت أمم النصرانية بذلك فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية

أسطوله إلى الموضع المعروف عندهم بالزقاق ليمنع السلطان من الإجازة ، واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي العدو ، وبعث إلى ملوك بني حفص بتجهيز أسطولهم ، فبعثوا إليه عشرين أسطولاً مشحونة بالعساكر ، وتوافت أساطيل المسلمين بسبتة تناهز المئة ، فناجزوا أسطول النصارى التي بالزقاق وزحفوا عليهم وتواقفوا ملياً ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض وقرنوها للمصاف ، فلم يمض إلا قليل حتى هبت ريحُ النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم ، واستلحموهم ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ، وألقوا أشلاءهم باليمّ ، وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة التي استولى المسلمون عليها ، فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤوس العدو في جوانب البلد ، ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء ، وعظم الفتح وجلس السلطان أبو الحسن للتهنئة ، وأنشدت الشعراء القصائد بين يديه ، وكان يوماً من أعز الأيام ، ثم شرع السلطان في إجازة من عنده إلى العساكر الغزاة والمتطوعة والمرتزقة .

ولما استكمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين ، ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها وهي بيد النصارى ، وأحاط عسكره بفنائها ، ووافاه سلطان الأندلس ابن الأحمر بعسكر الأندلس وأحاط الجميع بطريف نطاقاً واحداً ونصبوا عليها الآلات ، وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن العسكر ، وطال حصارهم للبلد ففنيت أزودتهم وافتقدوا العَلُوفات ، واختلت أحوال العسكر ، واحْتَشَدَ الطاغيةُ أُمَمَ النصرانية ، وأعانه البرتغال صاحب أشبونة وغرب الأندلس ، فجاء معه في قومه وزحف على المسلمين لستة أشهر من منازلتهم ، ولما قرب معسكرهم أرسلوا قطعة من جيش النصارى إلى طريف ، فدخلوها ليلاً على غفلة من العسس وأحسوا بهم آخر الليل ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ولَبَّسُوا على السلطان ، وقالوا له لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته ، وزحف الطاغية من الغد في جموعه ، وعبّأ السلطان مراكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا ، ولما نشب القتال كان للعدو جيش كمين فبرز وخالفوهم إلى معسكر السلطان وعمدوا إلى فسطاط السلطان ، ودفعه عنهم من كان عند الفسطاط للحراسة فاستلحموهم وقتلوهم ، وكان مع السلطان في هذه الوقعة

بعض نسائه ، فوصل هؤلاء المهاجمون إلى النساء ، فدافع النساء عن أنفسهن فقتلوهنَّ ، وخلصوا إلى حظايا السلطان عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب وفاطمة بنت سلطان إفريقية أبي يحيى الحفصي وغيرهن من حظاياه ، فقتلوهن عن آخرهن واستلبوهم وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً ، وأحس المسلمون الذين يقاتلون الكفار بما وراءهم في معسكرهم ، فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان هجم في طائفة من قومه حتى خالط الكفار في صفوفهم ، فأحاطوا به وقبضوا عليه ، وولى السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين ، واستشهد كثير من الغزاة ، ووصل الطاغية بنفسه إلى فسطاط السلطان أبي الحسن ، وأنكر على قومه قتل النساء والولدان ووقف منه لمنتهى أثره ، ثم انكفأ راجعاً إلى بلاده ، ولحق ابن الأحمر بغرناطة كرسي ملكه ، وخلص السلطان إلى الجزيرة ثم إلى الجبل ثم ركب إلى سبتة ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم .

ولما رجع الطاغية من طريف استأسد ؛ أي صار كالأسد على المسلمين بالأندلس ، وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة على مرحلة منها وجمع الآلات والأدي على حصارها ، واشتد مخنقها وأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمه ، وذلك سنة اثنتين وأربعين وستمئة ، وانصرف إلى بلده .

وأما السلطان أبو الحسن فإنه لما أجاز إلى سبتة ألزم نفسه بالعود إلى الجهاد ، وذهب إلى فاس وبعث إلى الأمصار للاستنفار ، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى اكتمل منها عدة وافرة ، ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها وقدم عساكره إلى العدوة مع وزيره ، وبعث إلى الجزيرة بعض أقارب الوزير ، وبعث إليهم مدداً ، وبلغ الطاغية الخبر فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق للمدافعة ، وتلاقت الأساطيل ، ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد ، وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق ، وملكوا دور المسلمين ، وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين ، وأمل في أن تنظمها مملكتُه مع جارتها طريف ، وحشر الفعلة والصناع بالآلات وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار واتخذ أهل العسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة ، وجاء السلطان أبو الحجاج بن الأحمر

بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح على سبيل الممانعة ، وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليبعث المدد من الفرسان والمال والميرة فلم يغنهم ذلك شيئاً ، واشتد الحصار عليهم وأصابهم الجهد ، وأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ليفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد إذن الطاغية له في الجواز مكر به وترصد له بعض الأساطيل في طريقه ، فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الطريق ، وضاقت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان ، وسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد ، فبذل لهم الأمان وخرجوا ، فوفى لهم وأجازوا إلى المغرب ، وذلك سنة ثلاث وأربعين ، فأنزلهم السلطان أبو الحسن ببلاده على خير نزل ، ولقاهم من الميرة والكرامة ما أعاضهم عما فاتهم ، وخلع عليهم وأجازهم بجوائز سنية لا يزال الناس يتحدثون بها ، وانكفأ السلطان إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله وإنجاز وَعْدِه في رجوع الكرة وعُلوّ الدين والله مُتِمٌ نوره ولو كره الكافرون .

ثم ثار على الحسن ثائرون بالمغرب وتوالت فتن كثيرة إلى أن توفي سنة اثنتين وخمسين وسبعمئة ، وولي بعده ابنه أبو عنان ، وثار بينه وبين إخوته فتن كثيرة ، وأما سلطان الأندلس أبو الحجاج بن الأحمر فقتل في الصلاة يوم عيد الفطر طعنه أسود مدسوس عليه ، وولي بعده ابنه محمد الغني بالله ، وذلك سنة خمس وخمسين وسبعمئة ثم أُعيد سنة ثلاث وستين ، والكلام على ذلك طويل لا حاجة لنا بذكره ، واستمر في ملكه إلى أن توفي سنة ثلاث وتسعين وسبعمئة ، وكان قد قوي ملكه وسلطانه بعد رجوعه إلى ملكه سنة ثلاث وستين حتى صار ملك المغرب وسلطان بني مرين تحت أمره .

ووقع في هذه السنين فتن بالأندلس بين النصارى مع بعضهم ؛ وذلك أن الهنش ملك النصارى هلك سنة إحدى وخمسين وسبعمئة وولي بعده ابنه بِطْرُه ، وثارت فتن وحروب بينه وبين إخوته ، وانتهز الفرصة ابن الأحمر وجمع جيوش المسلمين للجهاد ، ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية ، وخرب معاقلهم ومدنهم ، ثم رجع إلى غرناطة ، وذلك في سنة سبع وستين وسبعمئة ، ثم تَشَوّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة الخضراء إلى المسلمين ، فتراسل ابن الأحمر مع ملك مراكش وفاس ، وكان السلطان حينئذ السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ؛

واتفقا على أن ابن الأحمر يزحف بعساكره وملك المغرب يمده بالمال والأساطيل ، لعِزّة جمع العسكر عليه لما كان فيه من الفتن ، فأوعز صاحب المغرب إلى أساطيله فعمرت وسارت وبعث بمال كثير وذخائر ، وزحف ابن الأحمر بعساكره ، واستعدت الآلات للحصار فنازلها أياماً قلائل ، فأيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم ، فأجابهم السلطان ابن الأحمر إليه ونزلوا عن البلد ، وأقيمت فيه شعائر الإسلام ومراسمه ومحيت منه كلمة الكفر ومعالمه ، وكان ذلك في سنة سبعين ، وَوَلّى عليها ابن الأحمر من قِبَله ، ولم تزل تحت نظره إلى أن تمحض له النظر في هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها ، فهدمت سنة ثمان وسبعمئة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس والبقاء لله وحده .

وتوفي الغني بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن الأحمر سلطان الأندلس سنة ثلاث وتسعين وسبعمئة وولي ابنه يوسف ، وتوالت فتن كثيرة فقصد الأفرنج البرتغال مدينة سبتة سنة أربع عشرة وثمانمئة في مراكب كثيرة فقاتلهم أهلها ، ثم تغلّب عليهم الفرنج فملكوها وبقيت معهم نحو مئتين وخمسين سنة ثم انتزعها الإسبانيول منهم ، ثم توالت فتن بين بني الأحمر مع بعضهم في الأندلس وجرت أمور يطول الكلام بشرحها ، وآل الأمر فيها إلى خروج ملك الأندلس عن أيدي المسلمين ، فأخذ العدو مالقة سنة ثلاث وتسعين وثمانمئة ، وانقرض ملك بني مرين سنة تسعين وثمانمئة ، وانتقل الملك لوزرائهم بني وطاس ثم منهم للأشراف السعديين ، والكلام على ذلك يطول .

ولما حاصر العدو غرناطة أصاب المسلمون وقت حصار العدو لهم بها شدة الجوع وتفاقمت عليهم الخطوب ، فكاتبوا العدو في الصلح واشترط شروطاً وعقدوا وثائق ومكنوا العدو من غرناطة ، وكانت الشروط سبعاً وستين شرطاً ، منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال ، ومنها إبقاء الناس وأماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ، ومنها أن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك وألّا يدخل النصارى دار مسلم وألّا يغصبوا أحداً وألّا يتولى على المسلمين في الأحكام نصراني ولا يهودي وأن يفك من كان أسيراً منهم ، ومنها إن أراد الجواز إلى المغرب لا يمنع ، ولا يؤاخذ

من قتل أحداً من النصارى أيام الحرب إلى غير ذلك من بقية الشروط .

ثم إن النصارى نقضوا تلك الشروط شيئاً فشيئاً ونكثوها عروة عروة إلى أن آل الأمر إلى حملهم المسلمين على التنصر ، حتى صاروا يقولون لبعض المسلمين إنّ جَدّكَ كان نصرانياً فأسلم في زمن كذا فلابد أن ترجع نصرانياً كما كان أجدادك السابقون ، فلما فحش هذا الأمر قام جماعة من المسلمين كانوا بموضع يقال له البازين فقتلوا النصارى الذين كانوا عندهم فخرج الأمر من سلطانهم بقتل المسلمين إلا من تنصّر فإنه ينجو من القتل ، فتنصّر خلق كثير في البادية والحاضرة ، وامتنع قوم من التنصّر واعتزلوا النصارى واجتمعوا في بعض القرى متحصنين بها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً ، وبقي جماعة من المسلمين صعدوا جبلاً واحتموا فيه وقاتلهم العدو فقتلوا من العدو خلقاً كثيراً فأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصّر من المسلمين ولم يكن متنصراً في البواطن يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السّكّينة الضعيفة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقام المسلمون الذين تحصنوا في بعض الجبال على النصارى مراراً ، ثم تغلب النصارى عليهم ولم يقيض الله لهم ناصراً إلى أن كان آخر وقت أخرجهم النصارى فيه سنة ألف وعشر ، فخرج ألوف من المسلمين إلى فاس وألوف إلى تلمسان ووهران وجمهورهم خرج إلى تونس ، وتسلّط على كثير منهم الأعراب ومن لا يخشى الله ونهبوا أموالهم في البوادي والطرقات ، وأكثرُ النهب والأخذ وقع على الذين ذهبوا إلى تلمسان وفاس ، وأما الذين ذهبوا إلى تونس فأكثرهم سلم من ذلك ، وقد عمر هؤلاء الخارجون من الأندلس كثيراً من القرى الخالية في تلك المواضع التي ذهبوا إليها ومنهم جماعة بسلا وتطاون والجزائر ، واستخدم سلطان المغرب منهم عسكراً جراراً ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها ، لأنهم كانوا عدداً كثيراً لا يحصيهم إلا الله تعالى ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

قال في نفح الطيب : والسلطان الذي أخذت منه غرناطة آخر سلاطين بني الأحمر الذين انقرضت بانقراض دولته مملكة الإسلام بالأندلس ومُحيت رسومها ، هو السلطان

أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي الحسن بن السلطان سعد بن الأمير علي بن السلطان يوسف بن السلطان الغني بالله محمد واسطة عقدهم والمشيد مبانيهم الأنيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة ابن السلطان أبي الحجاج يوسف بن السلطان إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي رحمهم الله جميعاً ، وانتهى السلطان المذكور إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه متلهفاً على ما خلفه ، وبنى بفاس قصوراً ، قال في نفح الطيب : وعهدي بذريته بفاس إلى الآن سنة سبع وثلاثين وألف يأخذون من أموال الفقراء والمساكين ويُعدّون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

هذا خلاصة ما كان بالأندلس بغاية الاختصار ، ولنرجع إلى تمام الكلام على ما كان بالديار الشامية وغيرها ، وليكن الابتداء بذكر حرب الصليب .

ذكر ابتداء حرب الصليبية

اعلم أن أَمْر المسلمين منذ افتتحوا الشام في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما كان قتالهم في تلك الأراضي مع الروم ملوك القسطنطينية ، ثم صار من الخلفاء والأمراء الإسلامية غزوات وفتوحات كثيرة وافتتحوا فيها كثيراً من ممالك الروم ، وتقدم بيان ذلك ، ثم لما كان آخر القرن الخامس وظهر الضعف في الخلفاء العباسيين واستولى على مصر وبعض الشام الخلفاء العبيديون ، وتغلب على كثير من الممالك الإسلامية العمال الذين فيها طَمِعَ في ممالك الشام الأفرنجُ الذين نشأت لهم دول أوربة بعد ضعف الملوك الرومانية ، فتجمعت جموع من الأفرنج ملوك أوربة وساروا لتملك الممالك الإسلامية التي في الشام وأعمالها ، وكان ذلك سنة أربعمئة وتسعين هجرية .

وكان من أسباب قيامهم وهيجانهم لتلك الحروب أن رجلاً منهم اسمه بطرس الناسك ترهّب وانفرد عن أهله سائحاً متنسكاً ، فزار بيت المقدس وأخذته الحمية في استخلاص تلك الأماكن من أيادي المسلمين ، فلما رجع إلى بلاد إيطالية اجتمع مع البابا وخاطبه في ذلك ، فوافقه البابا على استحسان أفكاره وما قام بنفسه ، وعزم في الحال على اتخاذ الأسباب والوسائط المقتضية لإتمام هذا المشروع ، فأمر بطرسَ أن يجول في أقطار البلاد منادياً ومبشراً للشعوب بإنقاذ النصارى واستخلاص تلك الأراضي من أيادي المسلمين ، فأخذ بطرس يجول من مكان إلى آخر منذراً ومحركاً قلوب الناس للاشتراك في هذا العمل ، فاجتاز من إيطالية إلى فرنسة ، ثم سار إلى أكثر ممالك أوروبة زارعاً بين الجميع هذه الأفكار مُهيّجاً إياهم للنهوض والقيام ، وفي أثناء ذلك عقد البابا عدة مجامع في إيطالية وفرنسة ، وطرح فيها هذه المسألة أمام جمهور الحاضرين منتهضاً همتهم للمبادرة والاستعداد في هذا المشروع ، وجعل للرعايا القائمين بذلك إنعامات ورفع عنهم كثيراً من الضرائب والخراجات ، فنهض أحد الأساقفة وطلب من البابا أن يكون أول من يجاهد في هذا السبيل ، فسلمه البابا راية الصليب ، فتبعه جملة من رؤساء الدين ومن عامة الناس ، ورسموا جميعاً على

صدورهم صورة الصليب بلون أحمر ، وجعلوا هذه العلامة على الأسلحة والألوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سموا الصليبيين ، ودعيت حروبهم بالحروب الصليبية ، وإذا أراد الله ظهور أمر هيأ أسبابه ، فظهر لهم أمور وأسباب قوي بها عزمهم على ما أرادوا ، فمن ذلك ما ذكره بعض مؤرخيهم أنه في أثناء المناداة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهر لهم جملة من العجائب في السماء والأرض ، منها : تساقط بعض النجوم من السماء على الأرض ، وظهر بانتقالها علامة حمراء دموية في جانب الأفق ، وظهر لهم عمود ناري على شكل حربة ذات حديد بقرب الشمس ، وشوهد في الجو صورة مدن وعساكر وخيول وأسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ، ومنها أنه كان يرى في مدة ستة أيام متوالية على أثواب المسيحية صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لا يمكن لأحد أن يمحوها بالماء ولا بالنار ، فهذه المرائي التي كانت تتراءى لهم شددت عزائمهم وجعلتهم لا يتوقفون عن السفر ، وكانوا يستعدون من يوم إلى يوم حتى بلغ عددهم ثلاثمئة ألف مقاتل ، وكان الملك الكبير منهم المتقدم في قيادة جيوشهم يسمى بردويل ، وكان بينه وبين صاحب صقلية مصاهرة وصداقة ، فأراد أن يكون مرور جيوشهم على إفريقية فيتملكوها ، ثم يسيرون منها إلى الشام ، فأرسل إلى صاحب صقلية يقول له قد جمعت جموعاً كثيرة ، وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها وأكون مجاوراً لك ، فجمع صاحب صقلية أصحابه واستشارهم في ذلك فقالوا : وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم تصبح البلاد كلها بلاد النصرانية ، فرفع رجله لهم وضرط ضرطة عظيمة وقال : وحق ديني هذه خير من كلامكم ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : إذا وصلوا إليَّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندي أيضاً ، فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة ، وإن لم يفتحوا رجعوا إلى بلادي وتأذّيت بهم ، ويقول تميم أمير إفريقية غدرت بي ونقضت ما بيني وبينك من العهود وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا مع أن بلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة وأخذناها ! ، وأحضر رسول بردويل وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل ذلك فتح المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر ، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها عهد وأيمان لا يمكنني نقضها .

فلما لم يمكنهم صاحب صقلية من المرور عليه عزموا على التوجه إلى الشام من طريق القسطنطينية ، فمنعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده إلا بشرط أنهم يحلفون أنهم يسلمون له أنطاكية إذا ملكوها ، وكان يظن أنهم لا يقدرون على تملك البلاد الشامية لما فيها من جنود الإسلام وهو يريد هلاك الأفرنج خوفاً من أنهم يتغلبون عليه ؛ لأنهم لا يرى قوتهم تزيد كلما مضى زمن من الأزمان ، فلما اشترط عليهم أن يعطوه أنطاكية إذا ملكوها أجابوه إلى ذلك وقبلوا شرطه وعبروا الخليج عند القسطنطينية طالبين القسطنطينية ليجتمعوا فيها ، وكانوا أجناساً عديدة وفرقاً كثيرة من الإيطاليين والفرنساويين وغيرهم من سكان أوروبة ، وكان بطرس الناسك المتقدم ذكره متوشحاً بثوبه الرهباني قائداً للفرقة الأولى منهم ، فساروا بهم على طريق ألمانية وهنكارية وبلغارية ، فكانوا ينهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون ، فوثب عليهم الأهالي وقاتلوهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وبعد أن قاسوا أهوالاً شديدة انتهوا إلى القسطنطينية ، فأذن لهم ملكها أن يقيموا في المدينة إلى أن يحضر رفقاؤهم ، ثم نقلهم ملك القسطنطينية في مراكبه إلى سواحل آسية ، فلما انتهوا إليها التقتهم عساكر الإسلام في نواحي قونية ، وكانت تلك العساكر لملوك السَّلجوقية الذين كانت ممالكهم في الروم ، وأحاطوا بهم وقاتلوهم قتالاً شديداً ، فاستظهر المسلمون عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مضاربهم وذخائرهم فلم ينج منهم إلا القليل ، فهكذا كانت نهاية الوقعة الأولى .

وأما بطرس الناسك فكان قد رجع إلى القسطنطينية قبل حدوث هذه الوقعة متشكياً من عدم انتظام الصليبيين وعدم طاعتهم وانقيادهم لرؤسائهم ، ولكن لما بلغته هذه الأخبار المحزنة أقسم بأنه لا يرجع قط عن عزمه حتى يشاهد حرباً صليبياً ثانياً .

ذكر تملك الفرنج قونية وأنطاكية

قد تقدم أن الروم كانوا قد استولوا على أنطاكية سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ، وبقيت بأيديهم إلى سنة أربعمئة وسبع وسبعين ، فانتزعها منهم سليمان بن قُتُلمش السَّلجوقي ، فلما كانت هذه السنة أعني سنة أربعمئة وتسعين كان الأمير العامل على أنطاكية باغيسان التركماني ، ولمَّا بلغ أهل أوروبة ما حلَّ بأصحابهم من النكال حزنوا

جداً وتحركت عزائمهم على أخذ الثأر والاستيلاء على تلك الديار ، فتجهز منهم جيش جرار وساروا كالأولين إلى أن وصلوا إلى قونية ، فالتقتهم جيوش الإسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة ، وكانت الغلبة فيها لطوائف الأفرنج ، فاستولوا على مدينة قونية ، وكان ملكها بيد قِلِجْ أرسلان السلجوقي وهو الذي قابلهم بجموعه فهزموه وملكوا منه قونية ، ثم تقدموا إلى أنطاكية فحصروها تسعة أشهر ، ثم ملكوها في جمادى الأولى سنة ٤٩٠ من صاحبها باغيسان التركماني بعد أن ظهر منه الشجاعة وجودة الرأي والحزم ما لم يشاهد من غيره ؛ لأنهم لما قدموا على أنطاكية قابلهم بجيوشه وقاتلهم قتالاً شديداً ، وجرت وقائع متعددة وهجمات هائلة ، ثم لما عجز هرب ، ثم قُتل ، ولما دخل الأفرنج أنطاكية قتلوا من فيها من المسلمين ونهبوا أموالهم .

ولما سمع صاحب الموصل بتملكهم أنطاكية جمع عساكره وسار إلى الشام وهو الأمير قوام الدولة أبو سعيد كربوقا ، ثم أقام بعساكره بمرج دابق واجتمع معه عساكر الشام تُركُها وعَرَبُها سوى من كان بحلب وحمص وسنجار ، واجتمع كثير من الأمراء ، وعظمت المصيبة على الأفرنج وأرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان لما أقبل بالجيوش على أنطاكية ، فامتنع وقال : لا تخرون إلا بالسيف وحاصرهم ، ثم إن كربوقا المذكور أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء وتكبّر عليهم فخبثت نياتهم عليه ، ولما ضاق الأمر على الأفرنج وقَلّت الأقوات عندهم خرجوا من أنطاكية واقتتلوا مع المسلمين وكان معهم راهب مطاع فيهم ، وكان داهية من الرجال ، فقال لهم قبل خروجهم : إن المسيح كان له حربة مدفونة بالقيسان الذي بأنطاكية وهو بناء عظيم إن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم أبشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا : ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال : لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ولم يمكنهم من معاجلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما

تكامل خروج الفرنج ولم يبق بأنطاكية منهم أحد ضربوا مصافَّ عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والإعراض عنهم ، وثانياً مِنْ منعهم عن قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة على المسلمين ، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا معهم ، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة إذ لم يجرِ قتال ينهزم من مثله ، وخافوا أن يتبعوهم وثبت جماعة من المسلمين حِسْبة وطلباً للشهادة ، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة ، فصلحت حالهم وعادت عليهم قوتهم .

ذكر تملك الفرنج معرة النعمان

ثم سار الفرنج بجيوشهم إلى معرة النعمان ، وحاصروها وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ولقوا منهم الجِدّ في حربهم ، والاجتهاد في قتالهم ، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة ووقع القتال عليه ، فلم يضرَّ المسلمين ذلك ، فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين ، وتداخلهم الفشل والهلع ، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ، فرآهم طائفة أخرى من المسلمين منهم ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور ، ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور ، فصعد الفرنج إليه على السلالم ، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتلوا ما يزيد على مئة ألف وسبوا السبي الكبير وملكوا المعرة وأقاموا أربعين يوماً .

ذكر مصالحة أهل عرقة وحمص الفرنج

ثم ساروا إلى عرقة فحصروها أربعة أشهر ، ونقبوا سورها عدة نقوب ، فلم يقدروا عليها ، وراسلهم مُنْقِذٌ صاحبُ شَيْزَر فصالحهم عليها ، ثم ساروا إلى حمص وحصروها ، فصالحهم صاحبها جناح الدولة ، ثم ساروا إلى عكا فلم يقدروا عليها .

ذكر تملك الفرنج بيت المقدس

ثم ساروا لبيت المقدس وكانوا ألف ألف ، وكان فيها رجل يعرف بافتخار الدولة عاملاً للعبيديين ملوك مصر ، لأن بيت المقدس كان بأيديهم انتزعوه من خلفاء بني العباس ، فلما وصل الفرنج إليه حصروه نيفاً وعشرين يوماً ثم ملكوا المدينة المذكورة لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وأربعين وتسعمئة هجرية ، وركبوا الناس بالسيف ، ولبث الفرنج بالبلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ؛ منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وَزْنُ كل قنديل ثلاثة آلاف وستمئة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي ، وأخذوا من القناديل الصغار مئة وخمسين قنديلاً فضة نقرة ، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء ، وورد المستنفرون من الشام إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون ، وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال ، وسبي الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، وكانوا صياماً في رمضان ، فلشدة ما أصابهم أفطروا ، وأنشأ الشعراء في ذلك قصائد تبكي لها العيون ، وتنفطر لها القلوب ، وكان ذلك في خلافة المستظهر بالله المقتدي بأمر الله العباسي ، وكان في ذلك الوقت اختلاف كثير بين السلاطين السلجوقية وفتن قائمة بينهم بالعراق ، فلم تحصل منهم نتيجة ولا من الخليفة ، وبعث المصريون جيشاً لقتال الفرنج لما بلغهم ما وقع بالقدس ، واقتتلوا مع الفرنج ثم انهزموا وحصروا الفرنج بعسقلان وضيقوا عليهم فبذلوا لهم اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألفاً ، فارتحلوا عنهم ورجعوا إلى القدس وجعلوها دار ملكهم ، ثم استولى الفرنج على أكثر سواحل الشام ، فملكوا يافا وغيرها من القلاع والحصون ، وكانت محنة فاحشة على المسلمين .

ثم في سنة أربع وتسعين وأربعمئة ساروا إلى مدينة عكا فلم يقدروا على فتحها ، وكانوا قد عمروا مدينة يافا وسموها إلى القمّص من الفرنج وأقيم بملك القدس أفرنكِيٌّ آخر ، وقيل بل أقام بها بردويل بنفسه ، ومكث بيتُ المقدس بأيدي الفرنج إحدى وتسعين سنة ، وكذلك ما جاوره من سواحل الشام ، وعجز ملوك الإسلام عن

استرجاعه إلى أن استرجع ذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة ، كما سيأتي ذكره إن شاء الله .

ذكر تملك الفرنج مدينة سَرُوج وحيفا وقيسارية

في هذه السنة ملك الفرنج مدينة سروج من الجزيرة ، وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم ، وملكوا أيضاً مدينة حيفاً بالقرب من عكا على ساحل البحر ، وملكوا مدينة قيسارية ، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها ، وفي سنة ٤٩٥ ساروا إلى طرابلس الشام فقاتلهم أهلها وقتلوا من الفرنج نحو ثلاثمئة ، ثم هادنهم الفرنج على مال وخيل ، ثم رحلوا عنهم إلى أنْطرسوس وهي من أعمال طرابلس ، فحصروها وملكوها وقتلوا من كان بها من المسلمين ، ثم ساروا إلى حصن الطوبان فقاتلهم ابن العريض وأسر فارساً من أكابر الفرنج ، فبذلوا في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يُجبْهُم ابن العريض إلى ذلك ، وفي هذه السنة أيضاً سار الفرنج إلى حمص وقائدهم ملك من ملوكهم يسمى صنجيل ، فحاصروها وملكوا أعمالها ، ونزل القمص على عكا وضيق عليها وكاد يأخذها ونصب عليها المنجنيقات والأبراج ، وكان له في البحر ست عشرة قطعة ، فاجتمع المسلمون من سائر السواحل وأتوا إلى منجنيقاتهم فأحرقوها وأحرقوا سفنهم ، وكان ذلك نصراً عجيباً للمسلمين أذل الله به الكفار ، وفيها سار القمص الفرنجي إلى بيروت وحاصرها وضايقها وطال المقام عليها فلم ير فيها طمعاً فرحل عنها .

وفيها في رجب خرجت عساكر من مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من بلاد الشام ، فسمع بهم بردويل صاحب القدس ، فسار إليهم وقاتلهم فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج كثر القتل فيهم ، وانهزم بردويل فاختفى في أجمة قصب ، فأحرقت تلك الأجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها إلى الرملة ، فتبعه المسلمون وأحاطوا به ، فتنكر وخرج منها إلى يافا وكثر القتل والأسر في أصحابه .

وفي سنة ٤٩٦ جاءتهم جيوش المسلمين من مصر ووقعت بينهم وقائع يطول ذكرها كانت الغلبة في بعضها للمسلمين وفي بعضها للفرنج ، وخرجت هذه السنة وبيد الفرنج لعنهم الله البيت المقدس وفلسطين ما عدا عسقلان ، وبيدهم أيضاً يافا وأَرْسُوف

وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية ، ولهم بالجزيرة الرّها وسَرُوج ، وكان صنجيل يحاصر طرابلس الشام والمواد تأتيه وبها فخر الملك ابن عمار ، وكان يرسل أصحابه في المراكب يغزون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا فيها .

وفي سنة ٤٩٧ أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر واستاقوا المواشي وأسروا من بأيديهم من المسلمين ، وفي هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية ، وفيها الأجناد والتجار فاستعانوا بها على حصار طرابلس براً وبحراً وضايقوها وقاتلوها أياماً ، فلم يروا فيها مطمعاً ، فرحلوا إلى مدينة جُبَيْل فحاصروها وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً ، فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً وسلموا البلد إليهم ، فلم تَفِ الفرنج لهم بالأمان وأخذوا أموالهم وعاقبوهم بالعقوبات وأنواع العذاب ، فلما فرغوا من جُبَيْل ساروا إلى مدينة عكا واستعانوا بملكهم صاحب المقدس على حصارها ، فنازلوها وحاصروها في البر والبحر ثم ملكوها وفعلوا بأهلها الفعال الشنيعة ، ثم ساروا إلى حران ووقع بينهم وبين المسلمين وقائع يطول ذكرها كان النصر فيها للمسلمين ، وقتلوا من الفرنج اثني عشر ألفاً وأسروا القومص فافتداه الفرنج بخمسة وثلاثين ألف دينار وستين أسيراً من المسلمين .

وفي سنة ٤٩٨ سار الفرنج إلى حصن أَرْتَاح ووقع بينهم وبين المسلمين قتال شديد ، وانهزم المسلمون وقتل وأسر كثير منهم وملك الأفرنج الحصن .

وفي سنة ٤٩٩ وقع بينهم وبين المسلمين قتال على حصن كان بيد الفرنج بينه وبين دمشق يوماً ، فملكه المسلمون وقتلوا من كان بالحصن من الفرنج واستبقوا الفرسان أسرى وكانوا مئتي فارس ، وملكوا أيضاً منهم حصن رفنية وهو من حصون الشام وقتلوا به خمسمئة من الفرنج ، وفي هذه السنة ملك الفرنج حصن أفامية ، وكان من أمنع الحصون الشامية وقتلوا من فيه من المسلمين .

وفي سنة ٥٠٠ وقعت وحشة بين ملك القسطنطينية والفرنج الذين بالشام ، ثم وقع بينهم قتال شديد انهزم فيه الأفرنج ، ولم يزل الفرنج يتابعون الحصار على طرابلس الشام وبيروت والكلام على ذلك يطول ، إلى أن ملكوهما سنة ٥٠٣ وقتلوا وأسروا كثيراً من الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا من الأموال ما لا يحصى ، ثم ملكوا

بانياس وصيدا وصور وحصن أرتاح وهو قريب من حلب وغير ذلك .

وفي سنة إحدى عشرة وقيل أربع عشرة قصد بردويل بجيوشه الديار المصرية ليأخذها ، فانتهى إلى غزوة ودخلها وخربها وأحرق مساجدها ورحل عنها وهو مريض فهلك في الطريق .

والحاصل أن الفرنج لم يزالوا يتملكون كثيراً من الممالك الشامية ويقع بينهم وبين المسلمين الوقائع الهائلة التي يطول الكلام بذكرها حتى لم يبق بيد المسلمين سوى حمص وحماة والشام وحلب وبعض القرى الحقيرة ، واستمر الحال إلى سنة ١١٢٨ مسيحية الموافق سنة ٥٢٢ هجرية ، فصار ملك حلب والموصل للسلاطين السلجوقية وانتزعوهما من بعض أمراء المسلمين المتغلبين عليهما فأقاموا فيها عماد الدين زنكي والد السلطان محمود نور الدين الآتي ذكره ، وكان لعماد الدين شجاعة وشهامة وعزم شديد على جهاد الكفار ، فشنّ على الأفرنج الغارات ووالى عليهم الغزوات واسترجع كثيراً مما ملكوه ، وتوفي مقتولاً قتله بعض مماليكه سنة ٥٤١ ، وكان أبوه آق سنقر مملوكاً للسلطان ملك شاه السلجوقي ، ولما قتل عماد الدين وصار ملك حلب لابنه السلطان نور الدين محمود ، كان على الفرنج أشدّ من أبيه ، فزاد في قتالهم ونكايتهم ، وكان من أهل العلم والصلاح والتقوى والاستقامة وله ترجمة طويلة سيأتي ذكرها ، فأول ما ابتدأ في ولايته أنه جهز جيشاً لقتال الأفرنج وفتح مدينة أرتاح وأورفة وأماكن أخر .

وفي سنة ١١٤٧ مسيحية الموافق ٥٤٢ هجرية اشتدت حروب السلطان محمود وتوالت غزواته وفتوحاته ، فاستمد الفرنج الذين كانوا في مدائن الإسلام بالفرنج أهل أوروبة ، فأمدوهم بنجدة عظيمة تحت قيادة ملك جرمانية وألمانية وملك فرنسة لويز السابع ، وقبل قدوم ملك فرنسة بأيام يسيرة وصل ملك جرمانية إلى فلسطين في حالة يرثى لها ، إذ كان قد تلف أكثر من نصف جيشه في الطريق ؛ بعضهم بالجوع والمرض ، وبعضهم بالسيف في المعارك التي أثارها عليهم الأعداء في أثناء الطريق ، فلما بلغ سواحل سورية وافته مواكب السلطان نور الدين بجيوش الإسلام ، وفتكت بعساكره فانهزم مع باقي جيشه ، وبينما هو راجع التقى بملك فرنسة مع جنوده وقد وصلوا في حالة أحسن من حالته ، فالتقتهم جيوش الإسلام في نواحي أنطاكية وانتشبت

بينهم نيران القتال ، واستمر القتال بينهم مدة أيام وكانت الدائرة على ملك الفرنسيس وجنوده ، فانقلب راجعاً ببقية قواده وجيوشه ونزلوا في السفن ، وساروا إلى القدس وانضموا إلى ما فيه من العساكر مع بقايا العساكر الجرمانية .

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمئة ملك الفرنج طرابلس الغرب .

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة غزا نور الدين الفرنج من نواحي أنطاكية وقتل البرنس صاحب أنطاكية ، وهزم الفرنج هزيمة قبيحة ، وقتل منهم جمعاً كثيراً وأسر مثلهم ، وأكثر الشعراء من القصائد بمدحه وتهنئته ، وفتح نور الدين في هذه السنة والتي تليها حصوناً كثيرة ، وكان الفرنج نازلوا دمشق مراراً وحاصروها فلم يقدروا على تملكها ، واستمر القتال والغزوات بينهم وبين السلطان نور الدين إلى سنة ١١٧٣ مسيحية الموافق سنة ٥٦٩ ، وكان السلطان صلاح الدين بن أيوب من أتباع السلطان نور الدين ، فجهزه إلى مصر سنة ٥٦٤ وتملك مصر وانتزعها من العبيديين ، وقصة ذلك طويلة مذكورة في التواريخ ، وكان السلطان صلاح الدين في العلم والتقوى والصلاح مثل السلطان نور الدين ، فلما توفي السلطان نور الدين سنة ٥٦٩ جمع السلطان صلاح الدين بين ملوك مصر والشام فصار الملك فيهما له ، وتابع الغزوات في قتال الفرنج لاستخلاص ما بأيديهم من ممالك المسلمين ، وأول قتال وقع بينه وبين الأفرنج كان في حياة نور الدين سنة ٥٦٥ ؛ وذلك أنه جاءت جموع كثيرة منهم وحاصروا مدينة دمياط وضيقوا على من بها ، فتجهز السلطان صلاح الدين من مصر بجيوش حافلة وقاتلهم ، وأمده السلطان نور الدين بجيوش كثيرة ، وشن عليهم السلطان نور الدين الغارات بالشام ، ووالى على المدائن التي بأيديهم الغزوات ، فارتحلوا من دمياط ورجعوا خائبين .

وفي سنة ٥٦٦ سار السلطان صلاح الدين من مصر وأغار على الفرنج بعسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه ، فأتاه ملك الفرنج بعساكره ليرده فقاتلهم وهزمهم ، وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً ، وعاد صلاح الدين إلى مصر ، ثم غزا أيلة براً وبحراً وانتزعها من الفرنج .

وفي سنة ٥٦٩ كتب بعض أهل مصر أتباع العبيديين الذين انقرضت دولتهم إلى

الفرنج الذين بالشام والذين بصقلية ، أن يرسلوا إليهم جيوشاً يستعينون بهم على إخراج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية ، فبعث إليهم الفرنج مئة أسطول تحمل الرجالة ، وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وستة مراكب كباراً تحمل آلة الحرب ، وأربعين مركباً تحمل الأزواد وفيها من الرجالة خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمئة ، ونازلوا الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة خمسمئة وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة ، فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول ، فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ، ونزل الفرنج في البر مما يلي البحر وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد القتال ، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم ، وسيرت الكتب بالحال إلى مصر إلى السلطان صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ، ثم عاوَدَ الفرنج القتال اليوم الثاني وجدّوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قرب السور ، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية من كان قريباً من الإسكندرية ، فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر ، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون ، وكثر الصياح من كل جهة ، فارتاع الفرنج واشتد القتال ، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال ، فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ، ولم يزل القتال إلى آخر النهار ، ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر ، وفشل الفرنج وكثر القتل فيهم والجراح .

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله خبر منازلة الفرنج الإسكندرية سار من مصر بعساكره وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً ، وسير مملوكاً له مبشراً لأهل الإسكندرية بقدوم صلاح الدين والعساكر ، فوصل المملوك الإسكندرية وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال ، فنادى في البلد يبشرهم بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين ، ثم وصل صلاح الدين بعساكره في أثر المملوك ، فلما سمع الناس ذلك فرحوا وعادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب القتال وألم الجراح ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله ، وسمع الفرنج بوصول

صلاح الدين في عساكره فَسُقِط في أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً ، فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتجملات العظيمة ، وكثر القتل في الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر ، وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها ، فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم ، وغاص بعض المسلمين في الماء وحرق بعض شواني الفرنج فغرقت ، فخاف الباقون من ذلك ، فولّوا بشوانيهم هاربين ، واحتمى ثلاثمئة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ، ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم ، فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم .

وفي سنة خمسمئة وإحدى وسبعين عظم ملك صلاح الدين ، فكاتبه الفرنج وطلبوا منه صلحاً وهدنة فهادنهم على شروط معلومة .

وفي سنة خمسمئة وأربع وسبعين انتقض الصلح لأمور جرت ، فسار السلطان صلاح الدين من مصر بجيوشه قاصداً قتال الفرنج ، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر هو وجنوده فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الأعمال مغيرين ، فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد طمعوا وساحوا في الأرض آمنين ، ووصل صلاح الدين الرملة عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره ، فوصل إلى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم إلا والأفرنج قد أشرفت عليهم بجنودها وأبطالها ، وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لأن أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة ، فلما رأى الفرنج وقف لهم فيما معه وقاتلهم فقتل جماعة من الفريقين وقتل ابن تقي الدين ابن أخي صلاح الدين ، ثم صارت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه فقُتِل الفرنجي بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف قليلاً ، ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل ، فسلك البرية إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقلَّ عليهم القُوتُ والماء وهلك كثير من الدواب جوعاً وعطشاً وسرعةَ سَيْرٍ ، وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج في الغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأَسير ، وكان من جملة من أسر الفقيه عيسى الهَكّاري وكان من أشد الناس قتالاً وكان جامعاً بين العلم والدين

والشجاعة ، وأسر أيضاً أخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فَضَلاّ الطريق فأخذوا منهم جماعة من أصحابهما وبقوا سنين في الأسر ، فافتدى صلاح الدين الفقيه بستين ألف دينار وفدى أيضاً جماعة كثيرة من الأسرة ، ولما حصلت هذه الهزيمة سار الفرنج إلى مدينة حماة وحاصروها ، وكان الأسير عليها شهاب الدين الحارمي فقاتلهم هو وأهل البلد ، وكاد الفرنج يملكون البلد واشتد القتال وعظم الخطب وهجم الفرنج على بعض البلد ودام القتال ليلاً ونهاراً ، واستقتل المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال ، ثم أنزل الله عليهم النصر فأكثروا القتل في الفرنج ، وأخرجوهم من البلد ، فارتحلوا خائبين ، وكفى الله المسلمين شرهم ، ثم ساروا وحاصروا حارِم فلم يتم لهم أخذها فساروا عنها .

وفي سنة أربع وسبعين وخمسمئة في ربيع الأول سار جمع كثير من الفرنج إلى مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة ، فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى في طريقهم وأسروا وقتلوا ، فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم وهم قليل متوكلون على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا ، وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والأسر فيهم واستردوا ما غنموا من السواد ، وكان صلاح الدين بحمص فحملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه ، فأمر بقتل الأسرى فقتلوا لأن الإمام مخير في الأسرى بين القتل والفداء والمنّ بلا فداء .

وفي ذي القعدة من هذه السنة اجتمع الفرنج وساروا إلى دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا ، فأرسل صلاح الدين فَرُّخشاه ولد أخيه ومعه كثير من العسكر يقاتلهم ونصره الله عليهم ، وقتل كثيراً منهم وقتل جماعة من مقدميهم منهم هنقرى كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب ، فأراح الله من شره .

وفي سنة ٥٧٥ بنى الفرنج حصناً منيعاً بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام ، فكان يعرف بمخاضة الأحزان ، فلما سمع بذلك صلاح الدين بذل للفرنج ستين ألف دينار ليهدموه بغير قتال فامتنعوا ، فسار من دمشق إلى بانياس وأقام بها وبث الغارات على الفرنج ، ثم سار إلى الحصن بعساكره فحاصروا الحصن وقاتلوا من به وعاد هو إلى بانياس وخيله تُغِير على بلاد العدو ، وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي

الميرة فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر ، فسار في العساكر مُجِدّاً فوافاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالاً شديداً ، وحملوا على المسلمين حملات يزيلونهم عن مواقفهم ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كبيرة ، ونجا ملكهم فريداً وأُسِر كثير منهم ، منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك ، وأسروا أيضاً أخاه صاحب جبيل وصاحب طبرية وغيرهم من مشاهير فرسانهم ، فأما ابن بيرزان فإنه فدى نفسه بمئة ألف وخمسين ألف دينار ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة ، وتجهز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرته فأحاط به ، وبث العساكر للإغارة على الفرنج في تلك الأطراف ، ثم زَحف المسلمون على الحصن واشتد القتال وعظم الأمر ، ونقبوا الحصن وأشعلوا النيران فيه ، وانتظروا سقوط السور وكان عرضه تسعة أذرع بالنجاري ، فلم يسقط إلا بعد أيام ، فدخل المسلمون الحصن عنوة ، وقتلوا كل من فيه وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين ، وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا ، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعَفَا أثره وألحقه بالأرض ، وكان جملة من الفرنج قد اجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن ، فلما أتاهم الخبر بأخذه تفرقوا .

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمئة فتح السودان شقيفاً وأخذوه من الفرنج وهو من أعمال طبرية مُطِلٌّ على السودان ، وكان على المسلمين منه أذى شديد ، ولما بلغ الفرنج مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل ، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة ، وربما عاقوا المسلمين عن السير بأن يقفوا على بعض المضايق ، فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام ، فسمع فَرُّخْشاه ابن أخي صلاح الدين الخبر ، فجمع من عنده من عساكر الشام وقصد ما بأيديهم من البلاد ، وأغار عليها ونهب دَبُّورِية وما يجاورها من البلاد وأسر الرجال وقتل وسبى النساء وغنم الأموال وفتح منهم الشقيف ، ففرح المسلمون بفتحه فرحاً عظيماً لما كان يحصل لهم من الأذى منه .

ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق سار إلى طبرية ، وكان الفرنج بجموعها نازلة

بطبرية ، فنزل بالقرب منها وأغار ابن أخي صلاح الدين على بَيْسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى ، وأغارت العساكر والعربان في تلك الولاية حتى قابلوا مرج عكا ، وسار جماعة من الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً وأثخنوا القتل فيهم ، فرجعوا ورجع صلاح الدين إلى دمشق ، ثم سار منها إلى بيروت يريد حصارها وفتحها ، فأتاه الخبر أن البحر ألقى مركباً للفرنج فيه جمع عظيم منهم إلى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس ، فأسر المسلمون من بها بعد أن غرق كثير منهم ، وكان عدة الأسرى ألفاً وستمئة وستاً وسبعين أسيراً ، فضربت بذلك البشائر .

وسار أسطول للمسلمين من مصر في البحر فلقوا أسطولاً للفرنج فيه ثلاثمئة منهم معهم الأموال والسلاح مرسلين إلى فرنج الساحل ، فقاتلهم المسلمون فظفروا بهم وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم وغنموا ما معهم ، ثم أغار صلاح الدين على بيسان فأحرقها وخرّبها وقتل من فيها ، ثم أغار على الكرك وأطرافها ، ثم وصل إلى نابلس فأحرقها وخربها وقتل وسبىٰ وأسر ، ولم يزل يشنّ على الفرنج الغارات في كل الأطراف ، ويطول الكلام بذكر وقائعه مع الفرنج ، إلى أن فتح طبرية بعد قتال شديد ووقائع هائلة ، وأكثر القتل والأسر في الفرنج ، وكان جيش صلاح الدين لما حاصر طبرية ثمانين ألفاً ، فلما أشرف عليها وحاصرها وافاه ملك الفرنج الذي ببيت المقدس بجيوش هائلة للمدافعة والمحاماة عن أهل طبرية ، لأنها كانت عندهم من أهم مراكز البلاد ، وهناك التقى العسكران وماجت الأرض بالعساكر ، واستمر القتال بين الفريقين ، وكانت الدائرة على أهل الصليب ، فانقلبوا منهزمين على الأعقاب طالبين النجاة بعد أن فُقِد منهم نحو ثلاثين ألفاً ، ووقع الملك أسيراً مع خواصه وأكابر رؤسائه في أيدي الإسلام ، وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين مئتين وثلاثين رجلاً من أعيان الأفرنج المأسورين ، وأما الملك فإنه أرسل إلى دمشق .

ثم سار صلاح الدين إلى عكا وحاصرها وضيق عليها ، فطلب أهلها الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وخيّرهم بين الإقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين ، وساروا متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله وتركوا الباقي على حاله ، ودخل المسلمون عكا يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة .

ثم تتابعت الفتوحات بعد فتح طبرية وعكا وهما فتحان عظيمان ، وفي الحقيقة هما أول الفتوحات ، والذي كان قبلهما إنما كان إغارة في الأطراف وغزوات وسريات ، وسبب تأخر الفتوحات إلى سنة ٥٨٣ مع أن السلطان نور الدين توفي سنة ٥٦٩ وصار الملك بعده لصلاح الدين ، ثم إن كثيراً من عمال السلطان نور الدين الذي تحت حكمهم كثير من ممالكه ، امتنعوا من الدخول تحت طاعة السلطان صلاح الدين ووقعت بينه وبينهم محاربات في هذه السنين يطول الكلام بذكرها حتى أدخلهم تحت طاعته وصفا له الأمر ، وقبل ذلك ما كان متمكناً من التفرغ لقتال الفرنج كل التفرغ ، وأما في هذه السنة ٥٨٣ فقد تفرغ لهم كل التفرغ وتوجه غاية التوجه ، ولما ارتحل الفرنج من عكا ودخلها المسلمون وغنموا ما بقي مما لم يطق الفرنج حمله ، وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والبندق والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً ، فإنها كانت مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها ، وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله فغنمه المسلمون ، وأقام صلاح الدين بعكا أياماً لإصلاح حالها وتقرير قواعدها ، ثم ارتحل وفرق العساكر إلى الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيوف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا ، فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ، وقدموا بما سد الفضاء ، وبعث أخاه سيف الدين إلى مدينة يافا فحصرها وملكها وغنم ما فيها ، وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجرِ على أحد من أهل تلك البلاد .

وسار صلاح الدين وابن أخيه تقي الدين وكثير من العساكر وحاصروا تِبْنِين وضايقوها وهي من القلاع المنيعة على جبل ، فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر أطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مئة وأرسلوا يطلبون الأمان ، فأمَّنَهم وسيّرهم إلى مأمنهم ، ثم رحل إلى صيدا فاجتاز في طريقه بصرفند فأخذها صفواً عفواً بغير قتال ، ثم سار إلى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة ، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من ممانع ومدافع ، فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله ، ثم سار عنها إلى بيروت وهي من أحصن مدن الساحل ، فلما وصل إليها رأى أهلها قد صعدوا على سورها ، وأظهروا القوة

والجلد والعدد ، وقاتلوا على سورها قتالاً شديداً ، واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه ، وزحف المسلمون إليهم مرة بعد أخرى ، فبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى غلبة وقهراً ، فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة ، فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد ، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وكان مدة حصرها ثمانية أيام .

ثم أراد صلاح الدين السير إلى جبيل وكان صاحبها من جملة الأسرى الذين سُيّروا إلى دمشق ، فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جبيل على شرط إطلاقه ، فعرف صلاح الدين بذلك فأمر بإرساله إليه فأحضره مقيداً ، وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به ، وأطلقه صلاح الدين كما شرط له ، وكان صاحب جبيل من أعيان الفرنج وأصحاب الرأي والمكر والشر يضرب به المثل بينهم ، وكان للمسلمين عدواً أزرق ، فكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على ما سيأتي بيانه .

ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس عنده من أهم الأسباب ، منها : أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام ، وكان يختار أن تتصل الولايات فيسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ، ولِما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم إلى غير ذلك من الأغراض ، فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه سيف الدين العادل ومن معه من عساكر مصر ، ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان صلاح الدين قد أحضر من دمشق ملك الفرنج الذي أسر في وقعة طبرية ومعه مقدم الداوية وقال لهما : إن سلّمتما البلاد إليّ فلكما الأمان ، فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد وجابهوهما بما يسوؤهما ، فلما رأى السلطان ذلك جَدَّ في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف بجيوشه إليها مرة بعد أخرى ، وتقدم النقابون فنقبوا منه شيئاً ، وملكهم يكرر إليهم المراسلات بالتسليم ويشير عليهم

ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً ، واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ، ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً ، وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينتظرونها ، راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اشترطوها ، فأجابهم صلاح الدين إليها وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكان مدة الحصار أربعة عشر يوماً ، وسيّرهم صلاح الدين هم ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان .

ثم أقام صلاح الدين بظاهر عسقلان وبث السرايا من أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية ، ثم لما فرغ من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد سار إلى فتح بيت المقدس ، وكان قد أرسل أسطولاً في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركباً غنموه وشانياً أخذوه ، وكان في بيت المقدس البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم ، وفيه أيضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك ، وفيه أيضاً من خُلَّص فرسانهم كثيرون ، وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها ، فاجتمع فيه كثير من الخلق يبلغون ستين ألفاً ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ، ويرى أَنَّ بذلَ نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه ، وحصنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً ، وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذّبّ عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة بحسب استطاعتهم ، ونصبوا المنجنيقات فيمنعون من يريد الدنو منه والنزول إليه ، فلما قرب صلاح الدين منه رأى على سوره من الرجال ما هاله وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع ، وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله ؛ لأنه في غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمودا وكنيسة صهيون ، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونصب تلك الليلة المنجنيقات ، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ،

ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها ، وقاتل كل من الفريقين أشد قتال ، كلٌّ يرى ذلك ديناً حتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطان ، بل كانوا يُمْنَعون فلا يمتنعون ، ويُزْجَرون فلا ينزجرون ، وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين .

وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين بن مالك وهو من أكابر العلماء وكان محبوباً إلى الخاصة والعامة ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقعهم فأدخلوهم بلدهم ، ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحفوا والرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ، ليتمكن المسلمون من النقب ، فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكَّنَ النقابون من النقب وأنهم قد أشرفوا على الهلاك ، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون ، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس لصلاح الدين ، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان فامتنع السلطان صلاح الدين من إجابتهم وقال : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها ، فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغّبه في الأمان وسأله فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه ، فلما آيس من ذلك قال : أيها السلطان أعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يَفْتُرون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بدّ منه فوالله لنقتلنّ أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون ولاتأسرون رجلاً ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلنا ، ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً .

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وألاّ يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يُدْرى عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي ، وتحسب أنهم أسرى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج ، فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ، ويؤخذ من الطفل من الذكور والإناث ديناران ، وتزن المرأة خمسة دنانير ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً ، فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك ، وسُلّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة ، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره ، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الأمراء ليأخذ من أهله ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الأمناء الأموال وتفرقت أيدي سَبَا ، ولو أُدّيت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعَمّ الناس ، وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي ، وأخذ أسيراً ستة عشر ألف إنسان ما بين رجل وامرأة وصبي ، وأظهر صلاح الدين من عُلُوّ الهمة والشفقة والرحمة ما لا مزيد عليه ، فكان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عليهم حتى إنه أطلق ثلاثة آلاف رجل بدون فدية ، فكان في المدينة الملكة زوجة الملك المأسور ، وعند مقابلة صلاح الدين إياها أظهر لها من الرقة واللطف وكرم الأخلاق ما لا يوصف ، وكان يكلمها ودموعه تجري وأطلق لها مالها وحشمها ، واستأذنته في المسير إلى زوجها وكان محبوساً بقلعة نابلس ، فأذن له فأتته ، وأقامت عنده ، وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه أموال البِيَع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له صلاح الدين ، فقيل له إن أخذ ما معه يقوى به على المسلمين ، فقال : لا أغدر به ، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير ، وسيّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور ، وأمر صلاح الدين بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار .

ولما كانت الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين ، ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس ، وأمر أن يُعمَل له منبر ، فقيل له إن نور الدين محموداً كان قد عمل منبراً لبيت المقدس رجاء

أن يفتحه الله على يديه وأمر الصنّاع بتحسينه وإتقانه ولم يعمل في الإسلام مثله ، فأمر بإحضاره فحمل من حلب ونصب ببيت المقدس ، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة ، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ، ثم أمر صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى ، واستنفاذ الوسع في تحسينه وإزالة ما أحدثوه من التصويرات ، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها ، فأمر بكشفها ، وكان سبب تغطيتها بالرخام أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها ، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعله في مذبحها ، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها الرخام حفظاً لها ، فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وأدَرّ عليهم الوظائف الكثيرة ، فعاد الإسلام هناك غَضّاً طرياً ، وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله ، وكفاه ذلك فخراً وشرفاً .

وأما الأفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وباعوا ذلك بأرخص الثمن ، فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الأفرنج ، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ، ويأخذ منهم الجزية ، فأجابهم إلى ذلك ، فاستقروا واشتروا حينئذ من أموال الفرنج التي تركوها أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسِرّة والصناديق وغير ذلك وتركوها ، وأيضاً من الرخام الذي لا يوجد مثله من الأساطين والألواح وغير ذلك شيئاً كثيراً ، وساروا ، وفرّق صلاح الدين على أرامل وأيتام القتلى من الفرنج مالاً كثيراً ، وسمح للمتولين على القشلات والمستشفيات أن يبقوا في المدينة سنة أخرى لملاحظة المرضى والعاجزين والاعتناء بهم ، ثم أقام صلاح الدين بظاهر القدس إلى الخامس والعشرين من شهر شعبان يرتب أمور البلد وأحوالها وتقدم بعمل الربط والمدارس ، فجعل دار الاستبتار مدرسة للشافعية ، وهي في غاية ما يكون من الحسن ، وكانت مدة استيلاء الفرنج على بيت المقدس إحدى وتسعين سنة ، لأنهم ملكوه سنة اثنتين وأربعمئة ، وأخذ منهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة .

فلما فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور ، وكان قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيس صاحبها والحاكم فيها ، وكان تاجراً من تجارهم وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ في تحصين البلد ، ووصل صلاح الدين إلى عكا وأقام فيها أياماً ، فلما سمع المركيس بوصوله إليها جَدّ في عمل سور صور وخنادقها وتعميقها وواصلها من البحر من الجانب الآخر ، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنوّ منها .

ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا ، وسار في الثاني والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال ، وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على أهل البلد ، على أن الموضع الذي يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه ، وعليه الخنادق التي وُصِلَتْ من البحر إلى البحر ، فلا يكاد الطير يطير عليهما ، فإن المدينة كالكف في البحر ، والساعد متصل بالبر والبحر من جانبي الساعد والقتال إنما هو في الساعد ، فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والشروخ والدبابات ، والعرادات شيء أصغر من المنجنيق ، والشرخ نَصْلٌ لم يركب ، والدبابة آلة تتخذ للحرب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها .

وكان عشيرة صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازي وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقي الدين وكذلك سائر الأمراء ، وكان للفرنج شواني وحراقات يركبون فيها في البحر ويقفون من جانب الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد ، فيرمون المسلمين من جانبهم بالشروخ ويقاتلونهم ، وكان ذلك يعظم على المسلمين لأن أهل البلد يقاتلونهم بين أيديهم ، وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبهم ، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع ، فكثرت الجراحات في المسلمين والقُتل ، ولم يتمكنوا من الدنو إلى بلد ، فأرسل صلاح الدين إلى الشواني التي جاءته من مصر ، وهي عشر قطع وكانت بعكا فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها ، فكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين ، فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد وقتاله فقاتلوه براً وبحراً

وضايقوهم حتى كادوا يظفرون ، فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب ، وذلك أن خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل ميناء صور ليمتنعوا من الخروج والدخول إليهم فباتوا ليلتهم يحرسون ، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بشواني الفرنج قد نازلتهم فأزالتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور ، والمسلمون في البر ينظرون إليهم ، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق ، وتقدم السلطان إلى الشواني الباقية وأمرهم بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها ، فسارت فتبعها شواني الفرنج ، فحين رأى مَنْ في شواني المسلمين الفرنج مجدّين في طلبهم ألقوا أنفسهم من شوانيهم إلى البر فنجوا وتركوها ، فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور في البر ، وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال .

وفي بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خندقهم ، فاشتد القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار ، وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط ، فلما أُسِر قُتل ، وبقوا كذلك عدة أيام .

فلما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها وندم على ما فرط منه قبل ذلك ، فإنه كان كلما فتح مدينة وأمن أهلها الفرنج يجهزهم بأموالهم ورجالهم إلى الصور من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك ، فصار فيها بالساحل فرسان الفرنج بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصر وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلتجئون إليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها .

فلا ينبغي للملك أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم أعذر له عند الناس .

فرحل عنها آخر شوال إلى عكا وأذن للعسكر بالعود إلى أوطانهم والاستراحة في

الشتاء والعود في الربيع ، فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام ومصر وبقي في حلقته الخاصة مقيماً بعكا ، وكان قد أرسل قبل ذلك جماعة لحصار هونين ، فلما كان محاصراً مدينة صور أرسل أهل هونين يطلبون الأمان فأمنهم فسلموا ونزل منها فوفى لهم بالأمان ، ولما دخل المحرم سنة ٥٨٤ سار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب وهي مطلة على الأردنّ ونازلها ظناً منه أَنَّ ملكها سهل وهو في قلة من العسكر ، فلما رآها عالية منيعة والوصول إليها مُتَعَذَّر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد ؛ لأن البلاد الساحلية من عكا إلى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ما عدا هذه الحصون ، وكان أهل القلاع يقطعون الطريق على المجتازين ، فكان أحب شيء أن يتملكها ليأمن الطريق للمجتازين ، فلما حصرها ورآها منيعة يبطيء ملكها رحل عنها وجعل عليها جماعة يحاصرونها .

وسار إلى دمشق وكتب إلى البلاد جميعاً باجتماع العساكر ، وسار من دمشق منتصف ربيع الأول ووصل إلى حمص ، ثم أغار على مواضع للفرنج ووصل إلى قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها ، ثم عاد إلى معسكره سالماً وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها ما لا يُحصى ، ونزل على حصن الأكراد من الجانب الشرقي من حمص ، وأقام إلى آخر ربيع الآخر .

وكانت جَبْلَةُ من أعمال أنطاكية بيد الفرنج وفيها كثير من المسلمين ولها قاضٍ مسموعُ الكلمةِ عند الفرنج والمسلمين ، وجعله الفرنج يحكم على المسلمين واسمه منصور بن شبيل ، فأخذته الغيرة للدين فجاء إلى السلطان صلاح الدين وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية ، فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأول فنزل بأنطرسوس سادسه ، فرأى الفرنج قد أدخلوا المدينة واحتموا في بُرْجَيْن حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع ، فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ، ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم ، وحاصروا أحد البرجين فنزل إليه مَنْ في أحدهما بأمان وسلموه فأمنهم ، وخرب البرج وألقى حجارته في البحر وترك من في البرج الآخر ، فخرب صلاح الدين ولاية أنطرسوس ورحل عنها وأتى مرقية وقد رحل عنها أهلها ، وساروا إلى المرقب وهي من حصونهم التي لا ترام ولا تحدث أحداً نفسه بملكه لعلوه وامتناعه والطريق تحته والحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن

ساره والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد .

واتفق أن ابن صاحب صقلية أرسل نجدة إلى فرنج الساحل ستين قطعة من الشواني كانوا بطرابلس ، فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤوا ووقفوا في البحر تحت مرقب في شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام ، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بوضع مرر وأخشاب فَصُفّت على الطريق مما يلي البحر من أول المضيق إلى آخره وجعل راءها الرماة ، فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم ، فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى برروا المضيق ووصلوا إلى جبلة ثاني عشرة جمادى الأولى ، وتسلمها وقت وصوله ، كان قاضيها قد سبق إليها ودخل ، فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها سلمها إليه ، وتحصن الفرنج الذين كانوا بها واحتموا بقلعتها ، فما زال قاضي جبلة خوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى أن طلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة ، وكانوا بأنطاكية ، وقرر صلاح الدين أحوال جبلة وجعل فيها أميراً .

ذكر فتح اللاذقية

وسار إلى اللاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها ، وصعدوا إلى حصنين لهما على الجبل فامتنعوا بهما ، فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين وزحفوا إليهما ونقبوا الأسوار ، وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول إلى السور ، فلما أيقن الفرنج بالعطب دخل إليهم قاضي جبلة فخوفهم من المسلمين ، فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين ورفعوا الأعلام الإسلامية على الحصنين ، وسلم صلاح الدين اللاذقية لابن أخيه تقي الدين عمر ، وجعله أميراً عليها ، ولما نازل صلاح الدين اللاذقية وصل أسطول صقلية الذي تقدم ذكره فوقف بإزاء ميناء اللاذقية ، فلما سلّمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها الفرنج غيظاً عليهم حيث سلّموها سريعاً ، فسمع بذلك أهل اللاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية ، فكان ذلك سبب مقامهم فيها ، ثم إن مقدم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده ، فأمنه وحضر وقَبّلَ الأرض بين يديه ، وقال ما معناه : إنك سلطان رحيم كريم ، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا ، فاتركهم يكونوا مماليك وجنداً تفتح بهم

البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم ، وإلاّ جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال ، فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه مع إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر ، وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر ، فانقلب على وجهه ورجع إلى أصحابه .

ذكر فتح صهيون

ثم رحل صلاح الدين في السابع والعشرين من جمادى الأولى وقصد قلعة صهيون ، وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قمة جبل ، يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع ، بحيث إن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن ، إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال ، وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة ، فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم إلى ولده الظاهر صاحب حلب ، فنزل على المكان الضيق من الوادي ونصب عليه المنجنيقات أيضاً ، فرأى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة ، ودام رشق السهام في قسي اليد والشرخ وغير ذلك ، فخرج أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع ، وزحف المسلمون إليهم فتعلقوا بقرية من الجبل فتسلقوا بين الصخور حتى التحقوا بالسور ، فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك ، واحتمى الفرنج بالقصة التي للقلعة ، فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الأمان فلم يُجبْهم صلاح الدين إليه ، فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس ، وتسلّم الحصن وسلّمه إلى أمير يقال ناصر الدين ، فحصنه وجعله من أحصن الحصون .

ذكر فتح عدة حصون

ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي فملكوا حصن فلاطنوس وحصن العيد وحصن الجماهرين ، فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية ، ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل إلى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخلوها وتحصنوا بقلعة الشُّغْر ، فملك قلعة بَكَاسَ بغير قتال ، وتقدم إلى قلعة الشُّغْر

وهي وبَكَاسُ على الطريق السهل المسلوك إلى اللاذقية وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية ، فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل إليها بطريق من الطرق إلا أنه أمرهم بمزاحفتهم ونصب المنجنيق إليها ، ففعلوا ذلك ورموا بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شيء إلا القليل الذي لا يؤذي ، فبقي المسلمون أياماً لا يرون فيها طمعاً وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر التطرق إليهم وبلاء ينزل عليهم ، فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾ [الكهف : ٩٧] فقال صلاح الدين : أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح ، فبينما هم في الحديث إذ أشرف عليهم أفرنجي ونادى يطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين ، فأجيب إلى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك ، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به ، فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه ، وسبب استمهالهم أنهم أرسلوا إلى صاحب أنطاكية ، وكان هذا الحصن له ، يعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يُرحّل عنهم المسلمين وإلا سلموها ، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله في قلوبهم ، وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضاً ، فلما تسلَّم صلاح الدين الحصن سلمه إلى أمير يقال له قِلِج وأمره بعمارته ورحل عنه ، وكان قد سيّر ولده الظاهر غازي صاحب حلب إلى سرمينية ، فحصرها وضيق على أهلها واستنزلهم على قطعة قدّرها عليهم ، ثم هدم الحصن وعُفي أثره ، وكان في هذه الحصون من أسارى المسلمين الجَمّ الغفير ، فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة ، واتفق أن فتح هذه الحصون كلها في ست جمع مع أنها كانت في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين ، فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل ، وهي جميعها من أعمال أنطاكية ، ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك ، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى .

ذكر فتح قلعة برزية

ولما رحل صلاح الدين من قلعة الشُّغْر سار إلى قلعة برزية وكان قد وصفت له

وهي تقابل حصن أفامية وتناصفها في أعمالها ، وبينها بحيرة تجمع من ماء العاصي وعيون تنفجر من جبل برزية وغيره ، وكان أهلها أضرّ شيء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون في الأذى ، فلما وصل إليها نزل شرقيها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ، ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعاً يقاتلها منه ، فلم يجده إلا من جهة الغرب ، فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع ، وهذه القلعة لا يمكن أن تُقاتل من جهة الشمال والجنوب ألبتة فإنها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين ، وأما الجانب الشرقي فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته ، وأما جهة الغرب فإن الوادي المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعاً كثيراً حتى قارب القلعة ، بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام ، فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ، ونصب أهل القلعة عليها منجنيقاً أبطلها ، وكان ابن الأثير صاحب التاريخ مع صلاح الدين في هذه الغزوة طالباً للجهاد قال : ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة ، لكنه لا يصل منه شيء إليها ، امرأةً ترمي من القلعة عن المنجنيق وهي التي أبطلت منجنيق المسلمين ، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه ، فقسم عسكره ثلاثة أقسام : يزحف قسم فإذا تعبوا وكلّوا عادوا ، ويزحف القسم الثاني فإذا تعبوا وضجروا عادوا ، ويزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا ، فإنه لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك ، فإذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة ، فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الأقسام وزحفوا ، وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفنيات والجنويات والطرقيات ، ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل ، فلما قربوا من الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى ، وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة ، فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شيء ، فلما تعب هذا القسم انحدروا ، وصعد القسم الثاني وكانوا جلوساً ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاصة ، فقاتلوا قتالاً شديداً وكان الزمان حَرّاً شديداً ، فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم ، وكان تقي الدين ابن أخيه كذلك ، فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا

ورجعوا ، فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وبيده جماق يردهم وصاح في القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا مُلَبّين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم ، فجاء الفرنج ما لا قِبَل لهم به ، وكان القسم الأول قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم ، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوبُ الحناجرَ وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحرب والقتال ، فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن ، فدخل المسلمون معهم ، وكان طائفة قليلة في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لم يروا فيه مقاتلاً وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين ، فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع ، فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج ، فملكوا الحصن عنوة وقهراً ، ودخل الفرنج القلعة التي للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها ، وكان الفرنج قد رفعوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب ، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبّروا في سطح القلعة ، وظنَّ الفرنج أن المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر ، فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها ، وأخذوا صاحبها وأهله ، وأمست خالية لا ديار بها ، وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت .

قال ابن الأثير : وأعجب ما يحكى من السلامة أني رأيت رجلاً من المسلمين في هذه الواقعة قد جاء في طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة وهو يعدو في الجبل عرضاً ، فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لَبَعَجَهُ ، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه ، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة ، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه ، فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق موضع الرجل فضربه المنحدر عن الأرض وجاز الرجل ، ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر ولم ينله منه أذى ولا ضرر ، وقام الرجل حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاته ، فتعست أمُّ الجبان .

وأما صاحب برزية فإنه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له ومعها زوجها فتفرقهم العسكر ، فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع

شمل بعضهم ببعض ، فلما قرب أنطاكية أطلقهم وسيَّرهم إليها ، وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة صاحب أنطاكية ، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً عن الأحوال التي تؤثر ، فأطلق هؤلاء لأجلها ، ثم بعد فتح برزية رحل صلاح الدين فأتى جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية ، فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من عسكره .

ذكر فتح درب ساك

ثم سار عنه إلى درب ساك فنزل عليها ثامن رجب ، وهي من القلاع الحصينة التي يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد ، فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمي بالحجارة ، فهدمت من سورها شيئاً يسيراً ، فلم يبالِ مَنْ فيه بذلك ، فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها ، فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها ، وتقدم النقابون فنقبوا منها برجاً وعلقوه فسقط واتسع المكان الذي يريد المقاتلة أن يدخلوا منه ، وعادوا يومهم ذلك ، ثم باكروا الزحف من الغد ، وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه ، فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينظرون جوابه إما بإنجادهم وإزاحة المسلمين عنه وإما بالتخلي عنهم ليقوم عذرهم في التسليم ، فلما علموا عجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليهم وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم ، طلبوا الأمان فأمنهم على شرط ألاّ يخرج أحد إلا بثيابه التي عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها ، ثم أخرجهم منه وسيرهم إلى أنطاكية ، وكان فتحه تاسع عشر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمئة .

ذكر فتح بغراس

ثم سار صلاح الدين عن درب ساك إلى قلعة بغراس ، فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في حصرها ، فمنهم من أشار به ومنهم من نها عنه ، وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في اليزك مقابل أنطاكية ، فإذا كان الأمر كذلك قلَّ المقاتلون عليها ويتعذر الوصول إليها ، فاستخار الله تعالى وسار إليها وجعل أكثر عسكره يَزَكاً مقابلاً أنطاكية

يغيرون على أعمالها ، وكانوا حذرين من الخوف من أهلها إن غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ، ونصب المنجنيقات فلم تؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها ، فغلب على الظنون تعذر فتحها ، وشق على المسلمين قلة الماء عندهم ، إلا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها فخفف الأمر عليهم ، فبينما هو على هذه الحال إذ قَدْ فُتِح باب القلعة وخرج منه إنسان يطلب الأمان فأجيب إلى ذلك ، فأذن له في الحضور فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية فرفعت على رأس القلعة ، ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح ، وأمر صلاح الدين المسلمين بتخريبه فخرب ثم ندم على ذلك بعد ؛ لأنه حصل منه بعد ذلك مضرة على المسلمين ، لأن ابن إليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته وهو مجاور فجدد عمارته وأتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد ، فتأذى منهم السواد الذي لحلب .

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها ، فخاف صاحب أنطاكية من ذلك وأشفق منه ، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين ، فاستشار صلاح الدين من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم ، فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس يَقْترعوا ويجددوا ما يحتاجون إليه ، فأجاب إلى ذلك ، واصطلحوا ثمانية أشهر وسيّر رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى ، وكان صاحب أنطاكية في ذلك الوقت أعظم الفرنج شأناً وأكثرهم ملكاً ، فإنه كان الفرنج قد سلموا إليه طرابلس بعد موت صاحبها وجميع أعمالها مضافاً إلى ما كان له ، فلما سارت إليه طرابلس جعل ولدهُ الأكبر فيها نائباً عنه .

وأما صلاح الدين فإنه عاد إلى حلب ثالث شعبان فدخلها ، وسار منها إلى دمشق وفرق أكثر العساكر ، وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو فليتة قاسم بن المهنا العلوي الحسيني وهو أمير مدينة النبي ﷺ ، كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده

وفتوحه ، وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته ، وكان يكرمه كثيراً وينبسط معه ويرجع إلى قوله في أعماله كلها ، ودخل دمشق أول شهر رمضان فأشير عليه بتفريق من بقي من العسكر ، فقال : إن العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقي بيد الفرنج من الحصون الكرك وصفد وكوكب وغيرها ، ولابد من الفراغ منها فإنها في وسط بلاد الإسلام ولا يؤمن من شر أهلها ، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد ، والله أعلم .

ذكر فتح الكرك وما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكراً يحصره ، فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين ، وكان صلاح الدين قد جعله على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعاً على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إلى درب ساك وبغراس ، فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى مقدم العسكر الذي يحصرها فتسلم القلعة منهم وأمنهم ، وتسلم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع ، وفَرّغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جِرَانَهُ ، وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره ، فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وَجِلِين ومن شَرّهم مشفقين .

ذكر فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق وأشير عليه بتفريق من بقي من العسكر ، قال : لأعدِمَنَّ الأفرنج من صفد وكوكب وغيرها ، فأقام بدمشق إلى منتصف رمضان ، وسار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي إليها ليلاً ونهاراً بالحجارة والسهام ، وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى في المدة التي كانوا فيها محاصرين ، فإن عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم ، فلما رأى أهله جِدَّ صلاح الدين في قتالهم خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقي معهم من أقواتهم ، وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم ، فأرسلوا يطلبون الأمان ، فأمنهم وتسلمها منهم ، فخرجوا عنه

وساروا إلى مدينة صور ، وكفى الله المؤمنين شرهم ، فإنهم كانوا في وسط البلاد الإسلامية .

ذكر فتح كوكب

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع مَنْ بصور من الأفرنج ، وقالوا : إنْ فَتَحَ المسلمون قلعة صفد لم يبق كوكب ولو أنها معلقة بالكواكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد ، فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لهما سراً رجال وسلاح وغير ذلك ، فأخرجوا مئتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم ، فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين ، فاتفق من قدرة الله تعالى أن رجلاً من المحاصرين كوكب خرج متصيداً فلقي رجلاً من تلك النجدة فاستغربه بتلك الأرض فضربه ليعلمه بحاله ، وما الذي أقدمه إلى هناك ، فأقر بالحال ودلّه على أصحابه ، فعاد الجندي المسلم إلى مقدم العسكر فأعلمه الخبر والفرنجي معه ، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم في الشعاب والكهوف ، فلم يفلت منهم أحد ، فكان معهم مقدمان من فرسان الفرنج ، فحُملوا إلى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما ، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ما أظن أن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح ، وكان يفعل فيه الاعتذار والاستعطاف ، فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا .

ولما فتح صفد سار عنها إلى كوكب ونازلها وحاصرها ، وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب إن امتنعوا ، فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجدَّ في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمي الأحجار إليهم وزحف مرة بعد أخرى ، وكانت الأمطار كثيرة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً ، فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه ، وطال مقامهم عليها ، وفي آخر الأمر زحف إليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والخروج ، فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور ، فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا إلى السور الأعلى ، فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان ، فأمنهم وتسلم الحصن منهم

منتصف ذي القعدة وسيرهم إلى صور ، فوصلوا إليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد ، فاشتدت شوكتهم وحميت جموعهم وتابعوا الرسل إلى الفرنج الذين في أوروبة والأندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويطلبون الأمداد والنجدة ، وفي كل قليل تأتيهم ، وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عَضَّ بنانه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك ، واجتمع المسلمون بفتح كوكب وصفد من حَدّ أَيْلَةَ إلى أقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع أعمال أنطاكية سوى القصير .

ولما ملك صلاح الدين صفد وكوكب سار إلى البيت المقدس فعيَّد فيه عيد الأضحى ، ثم سار منه إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت سنة أربع وثمانين وخمسمئة .

ودخلت سنة خمسٍ وثمانين وخمسمئة ، وهي مسيحية سنة تسع وثمانين ومئة بعد الألف ، ففي ربيع الأول من هذه السنة سار إلى شقيف أرنوم وهي من أمنع الحصون ليحصره ، فنزل بمرج عيون ، فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب صيدا ، وكان أرناط هذا من أعظم الناس دهاء ومكراً ، فدخل إليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له أنا محب لك ومعترف بإحسانك ، وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور ما بيني وبينك ، فينال أولادي وأهلي منه أذى فإنهم عنده ، فأحب أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلّم الحصن إليك ، وأكون أنا وهم في خدمتك نقع بما تعطينا من إقطاع ، فظن صلاح الدين صدقه فأجابه إلى ما سأل ، فاستقر الأمر بينهما على أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة ، وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية ، فأمر تقي الدين ابن أخيه شاهنشاه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتيه غيرهم ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة ، وكان أيضاً منزعج الخاطر كثير الهمّ لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بها من الأمداد في البحر وأن ملك الفرنج الذي كان أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس ، فلما اصطلح هو وصاحب صور بعد اختلاف كان بينهما وأنهما قد اجتمعا في جمع لا يحصى ، وخرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها ، فكان هذا وأشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها

الجموع المتوافرة ، فتنقطع الميرة عنه ، إلا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع صاحب الشقيف في مدة الهدنة ، يشتري الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه ، وكان صلاح الدين يحسن الظن به ، وإذا قيل له عنه ما هو فيه من المكر ، وإن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور ، وحينئذ يبدي فضيحته ، ويظهر مخالفته لا يصدق فيه ، فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده أرناط صاحب الشقيف وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام ، فقال له في معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده وأهله وأن صاحب صور لم يمكنه من المجيء إليه ، وطلب التأخير مدة أخرى ، فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه ، فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف ، فطلب قسيساً ذكره ليحمل رسالته إلى من بالشقيف ليسلموه فأحضروه عنده ، فسارَّهُ بما لم يعلموا ، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف فأظهر أهله العصيان ، فأرسل صلاح الدين أرناط صاحب الشقيف إلى دمشق وسجنه ، وتقدم إلى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه من الذخيرة والرجالة ، وجاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يَزَكاً مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور وعزموا على حصار صيدا ، فسار صلاح الدين جريدة في شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف ، فوصل إليهم وقد فات الأمر وذلك أنّ الفرنج قد فارقوا صور ، وساروا عنه لمقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم لحرب شديد يشيب لها الوليد ، وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة ، وقتل من المسلمين أيضاً جماعة ، منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس ، فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يميناً وشمالاً فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله تعالى ، ثم إن الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى مكانهم .

ولما وصل صلاح الدين إلى اليزك وقد فاته الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثأر المسلمين ، فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة على أن ينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده ، وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف في الحرب ، فساروا

مجدّين وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم ، وقاربوا الفرنج ، فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا ، فلم يسمعوا ولم يقبلوا ، وكان الفرنج قد اعتقدوا أنّ وراءهم كميناً فلم يقدموا عليهم ، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ، فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف ، فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد ، فقاتلوهم فلم يلبثوا أن أماتوهم وقتل معهم جماعة من المعروفين ، وشقّ على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ، وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الأولى ، فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل إليهم في عسكر فحملوا على الفرنج إلى الجسر وقد أخذوا طريقهم ، فألقوا أنفسهم في الماء فغرق منهم نحو مئة ذراع سوى من قتل ، وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم ، فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معهم خلق كثير ، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور ، فلما عادوا إليها عاد صلاح الدين إلى تبنين ثم إلى عكا ينظر حالها ثم إلى المعسكر والمخيم ، ولما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه الخبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متعددين ، فكتب إلى من بعكا من العسكر ووعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ، ورتب كميناً في موضع من تلك الأودية والشعاب ، واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئاً من قتال ، ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم ، فإذا تبعهم الفرنج استجرّوهم إلى أن يجوزوا موضع الكمين ، ثم يعطفوا عليهم ، ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة .

فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أَنِفَ فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة ، وثبتوا فقاتلوا وصبر بعضهم لبعض ، واشتد القتال وعظم الأمر ودامت الحرب وطال على الكمين الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين إليهم قاصدين فأتوهم وهم في شدة الحرب فازداد الأمر شدة على شدته ، وكان منهم أربعة أمراء من ربيعة طيّيء ، وكانوا يجهلون تلك الأرض فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم ، وتبعهم بعض

مماليك صلاح الدين ، فلما رآهم الفرنج بالوادي فعلموا أنهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم ، وأما المملوك فإنه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه ، وجعلوا يرمونه بسهام الزنبوك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتاً .

ثم إن المسلمين جاؤوا من الغد إلى مواضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً فحملوه في كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فآيسوا من حياته وعرضوا عليه الشهادة وبشّروه بالشهادة فتركوه ، ثم عادوا إليه فرأوه وقد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فعوفي ، ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهداً إلا كان له فيه الأثر العظيم .

ذكر مسير الفرنج إلىٰ عكا ومحاصرتها

لما كثر جمع الفرنج بصور على ما ذكرناه ، مع أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان وسيّرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم ، فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الأموال ما لا يفنى على كثرة الإنفاق في السنين الكثيرة ، ثم إن الرهبان والقسيسين وخلقاً كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم ، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً ، ويستنجدون أهلها ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس ، وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه ، وقد جعلوا الدماء في صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمدٌ نبي المسلمين وقد جرحه وقتله ، فعظم ذلك على الفرنج فحصروا وحشدوا حتى النساء فإنهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارِزْنَ الأقران ، ومن لم يستطع منهم الخروج بنفسه استأجر من يخرج عوضاً عنه يعطيهم مالاً على قدر حالهم ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء ، حتى إن بعض الأسرى منهم حدّث أن له والدة ليس لها ولد سواه وما كانت تملك من الدنيا غير بيت ، فباعته وجهزته بثمنه وسيّرته لاستنقاذ بيت المقدس ، فأخذ أسيراً فكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حَدّه ، فخرجوا على الصَّعب والذَّلول براً وبحراً من كل فَجٍّ عميق ، وحاصروا عكا ثلاث سنين حتى ملكوها ، وكان ابتداء تجمعهم وسيرهم هذا

المسير سنة ٥٨٥ هـ وهي مسيحية سنة ١١٨٩ ، فنازلوا عكا منتصف رجب من السنة المذكورة والأمداد تأتيهم في كل وقت بالمال والرجال ، والمسلمون يقاتلونهم .

وفي سنة ١١٩٠ مسيحية وهي سنة ٥٨٦ هجرية قامت لهم التجريدة الثالثة ونفروا نفراً عامّاً من بلاد أوروبة تحت راية فيليب ملك فرنسة وفريدريك ملك جرمانية وريكاردوس الأول ملك إنكلترة الملقب بقلب الأسد وغيرهم من الأمراء ، فنهضوا جميعاً وقصدوا بلاد فلسطين بمئتي سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات ، وعند وصولهم إلى مدينة صور وهي الباقية بأيديهم تقدموا منها إلى مدينة عكا وحاصروها مع من كان قبلهم محاصرها حتى تم عدد المحاصرين ستمئة ألف ، ولاقى المسلمون من حربهم أشدّ البلاء ، وكان ابتداء مسيرهم من صور ثامن رجب سنة ٥٨٥ يموج بعضهم في بعض ، ومعهم الأموال العظيمة والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم ، ولزموا ساحل البحر في سيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر والضيق والسعة ، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم لتكون عدة لهم إن جاءهم ما لا قِبَل لهم به ركبوا فيها وعادوا .

ولما كانوا سائرين كان يَزَكُ المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ، ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم ، فسار حتى قاربهم ، ثم جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التي سلكوها ؟ فقالوا لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسايرتهم فإن الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده ، ومن الرأي أننا نسير في الطريق الواسع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم ، فعلم ميلهم إلى الراحة المعجّلة فوافقهم ، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون ، وقالوا إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض فلا يتهيأ لنا إزعاجهم ولا نيل الغرض منهم ، والرأيُ قتالهم قبل الوصول إلى عكا ، فخالفوه فتبعهم وساروا على طريق واسع فسبقهم الفرنج .

وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم ، فلم يقدم الفرنج عليه مع قلتهم ، فلو أن العساكر اتبعت رأي صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا كان بلغ غرضه منهم وصَدَّهم عنها ، ولكن إذا أراد الله أمراً هَيّأ أسبابه .

ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، ولم يبق للمسلمين طريق إلى عكا ، فنزل صلاح الدين عليهم ، وضرب خيمته على تل كيسان ، وامتدت ميمنته إلى تل القباطية وميسرته إلى النهر الجاري ، ونزلت الأثقال بصفورية ، وسيّر الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر ، فأتاه الناس من كل البلاد ، وكانت الأمداد تأتي المسلمين في البر وتأتي الفرنج في البحر ، وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة ، ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم ولا إلى عكا حتى انسلخ رجب ، ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبئة ، فلما كان الغد باكرهم بالقتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر ، وصبر الفريقان صبراً حار له من رآه ، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين ابن أخي صلاح الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم ، فركب بعضهم بعضاً لا يلوي أخ على أخ والتجؤوا إلى من يليه من أصحابه واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد ، وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ، ودخل المسلمون البلد وخرجوا منها واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه ، وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه ، فإن للصدمة الأولى روعة ، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة وتركو القتال وقالوا نباكرهم غداً ونقطع دابرهم ، وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كثيرة .

ذكر وقعة أخرىٰ

ثم إن المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم راستنفاذ وسعهم في استئصالهم ، فتقدموا على تعبئتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس ، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا في حفر خندق يمنع عن الوصول إليهم ، فألح المسلمون عليهم في القتال فلم يتقدم الفرنج إليهم ولا فارقوا مرابضهم ، فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ، ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن جماعة من الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب

وغيره من أشغالهم ، فكمنوا لهم من معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان ، فلما خرج جَمْعُ الفرنجِ على عادتهم حَمَلَ عليهم العربُ ، فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كانوا معهم وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين ، فأحسن إليهم بالجوائز والخلع .

ذكر الوقعة الكبرىٰ علىٰ عكا

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون إلى عشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه ، والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ، ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا : إن عسكر مصر لم يحضروا والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون إذا حضروا ؟ فالرأيُ أننا نلقى المسلمين غداً لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العسكر والأمداد إليهم ، وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائباً عن بعضهم مقابل أنطاكية ليرد صاحبها عن أعمال حلب ، وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضاً ، وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد ، وعسكر بمصر يكونون بثغر دمياط والإسكندرية وغيرهما ، والذي بقي من عسكر مصر لم يصلوا لطول بيكارهم ، فكان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين ، وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم إلى القتال ومنهم من هو في خيمته ومنهم من قد توجه في حاجة من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه إلى غير ذلك ، فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبّون على وجه الأرض قد ملؤوها طولاً وعرضاً وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا إليه ، فلما قربوا منه تأخر ، فلما رأى صلاح الدين الحال وهو في القلب أمدّ تقي الدين برجال من عنده ليتقوى تقي الدين ، فلما رأى الفرنج قلة الرجال في القلب وأن كثيراً منهم قد سار نحو الميمنة مدداً لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد ، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم ، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم ، فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مرّوا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة ، وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه ، ثم إن الفرنج نظروا إلى ورائهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم

فرجعوا خوفاً أن ينقطعوا عن أصحابهم ، فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين الذين صادفوهم وهم راجعون ، وكان صلاح الدين لما انهزم القلب تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكَرّة ومعاودة القتال ، فاجتمع منهم معه جماعة فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة ، فأخذتهم سيوف الله من كل جانب ، فلم يفلت منهم أحد وقتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى ، وكان عدة القتلى عشرة آلاف قتيل سوى من كان جانب البحر ، ثم أمر بالقتلى فألقوا في النهر الذي يشرب منه الفرنج ، وكان من جملة الأسرى ثلاثة نسوة فرنجيات كُنَّ يقاتلن على الخيل ، ولولا أن العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج الاستئصال والهلاك ، على أن الباقين بذلوا جهدهم وجدّوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلهم يفرغون منهم ، فجاء للمسلمين الصريخ بأن رجالهم وأموالهم نهبت ، وكان سبب هذا أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب ، فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه ، وكان في عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون في جمعها وتحصيلها ، فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعلب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك ، فرد الجميع على أصحابه ، ففاته ذلك اليوم ما أراد ، فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم .

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الأرض من نتن ريحهم ، وفسد الهواء والجو ، ووجدت الأمزجة فساداً ، وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مُبَرّح كان يعتاده ، فحضر عنده الأمراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له ، وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا ، والرأي أننا نبتعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعَوْد ، فإن رحلوا فقد كُفينا شرهم وكُفوا شَرّنا وإن أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه ، ثم إن مزاجك منحرف والألم شديد ولو وقع إرجاف لهلك الناس ، والرأي على كل تقدير

البعد عنهم ، ووافقهم الأطباء على ذلك ، فأجابهم إليه لما يريد الله أن يفعله ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له وما لهم من دونه من والٍ ، فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان وأرسل لمن في عكا من المسلمين وإغلاق أبوابها والاحتياط ، وأعلمهم بسبب رحيله .

فلما رحل هو وعساكره أمر الفرنج وانبسطوا في تلك الأرض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ومراكبهم أيضاً في البحر تحصرها ، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق ، وجاؤوا بما لم يكن في الحساب ، وكان اليزك كل يوم يواقعهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون إنما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم ، فحينئذ ظهر رأيُ المشيرين بالرحيل أنه غير صواب ، وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الأمر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب ، وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم ، فقال لهم : إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير ، فتأخر الأمر إلى أن عوفي ، فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا أنفسهم بما وجدوا إليه السبيل ، وكان من بعكا يخرجون إليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد ، ولما برىء صلاح الدين من مرضه كان الشتاء قد دخل عكا ، فأقام بمكانه إلى أن ذهب الشتاء . وكان يَزَكُه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج ، وفي منتصف شوال وصلت إليه العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين ، فقويت نفوس الناس به ، وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيئاً كثيراً ، ومعه من الرجالة الجم الغفير ، ووصل بعده الأسطول المصري ومقدمه الأمير لؤلؤة وكان شهماً شجاعاً مقداماً خبيراً بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة ، ووقع في طريقه على بسطة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرة وميرة عظيمة .

ودخلت سنة ست وثمانين ، فلما دخل صفر سمع الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذي في المعسكر عندهم قليلاً وأن الوحل الذي في مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن ينحدر إلى اليزك ، فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على

اليزك وقت العصر ، فقاتلهم المسلمون وحموا نفوسهم بالنشاب ، وأحجم الفرن
عنهم حتى فني نشاب المسلمين ، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد ، فاشت
القتال وعظم الأمر ، وعلم المسلمون أنه لا ينجيهم إلا الصبر وصدق القتال ، فقاتل
قتال مستقتل إلى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة ، وعاد الفرنج إل
خندقهم ، ولما عاد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس إلى نص
إخوانهم ، فأتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم ، فأقام ، ثم إنه رأى الشتاء ة
ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة من دمشق وحمص وحماة وغيرها ، فتقدم م
الخروبة نحو عكا ، فنزل تل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا م
المسلمين ، فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون .

ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

كان الفرنج في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً
طول كل برج منها في السماء ستون ذراعاً ، وعملوا كل برج منها خمس طبقات ، ك
طبقة مملوءة من المقاتلة وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار م
إحراقها ، وأصلحوا الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات ، وزحفوا بر
من العشرين في ربيع الأول ، فأشرفت على السور ، وقاتل بها من عليه فانكشف
وشرعوا في طَمّ خندق البلد ، فأشرف على أن يملك عنوة وقهراً ، فأرسل أهل البلد إل
صلاح الدين إنساناً سبح في البحر فأعلمه ما فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه م
أخذهم وقتلهم ، فركب هو وعساكره وتقدم إلى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتا
عظيماً دائماً ، شغلهم عن مكاثرة البلد ، فافترق الفرنج فرقتين : فرقة تقات
صلاح الدين ، وفرقة تقاتل أهل عكا إلاّ أن الأمر خف عمّن بالبلد ، ودام القتال ثماني
أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر ، وسئم الفريقان القتال وملّوا م
لملازمته ليلاً ونهاراً ، والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عج
من فيه عن دفع الأبراج فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها ، فلم يُفِد ذلك ولم يغن عنه
شيئاً ، وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك ، فأتاهم الل
بنصر من عنده وأذن في إحراق الأبراج .

وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين ، وتحصيل عقاقير تُقَوي عمل النار ، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسي إنما أشتهي معرفتها ، وكان بعكا لأمر يريده الله ، فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما ، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش وهو متولي الأمور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله ، فازداد غيظاً لقوله وحرد عليه فقال له : قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا ، فقال له من حضر : لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله ، فأجابه إلى ذلك وأمر المنجنيقي بامتثال أمره ، فرمى عدة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار ، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج ، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج والتصق به حتى إذا جاءته النار اشتعل سريعاً ، ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج ، وألقى قدراً ثانية وثالثة فأضرمت النار في نواحي البرج وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه ، وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير ، وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدر الأولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعي في الخلاص حتى عجل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة ، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني وقد هرب من فيه لخوفهم فأحرقه وكذلك الثالث ، وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله ، والمسلمون الذين مع صلاح الدين خارج البلد ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلاص المسلمين من القتل ؛ لأنهم ليس فيهم أحد إلا له في البلد إما نسيب وإما صديق ، وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة ، فلم يقبل منه الحبة الفردة ، وقال : إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه ، وسيرت الكتب إلى البلاد بالبشائر ، وأرسل صلاح الدين يطلب العساكر الشرقية ، فأول من أتاه صاحب سنجار بعساكره وديار الجزيرة ، ثم صاحب الموصل بعساكره ثم صاحب إربل بعساكره ، وكان كل منهم إذا وصل يتقدم

إلى الفرنج بعساكره وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ، ووصل الأسطول من مصر ، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولاً يلقاه ويقله ، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا ، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء ، فكان القتل بين الفريقين براً وبحراً ، وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله ، وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح ، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك ، إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين ، ووصل الأسطول الإسلامي سالماً .

ذكر وصول ملك الألمان الشام وموته

في هذه السنة كان خروج ملك الألمان من بلاده ، والألمان نوع من الفرنج من أكثرهم عدداً وأشدهم بأساً ، وكان قد أزعجه تملك المسلمين بيت المقدس ، فجمع عساكره وأزاح عليهم وسار إلى بلاده ، وكان طريقه على القسطنطينية ، وكان ملك القسطنطينية عقد صلحاً مع صلاح الدين ، وصار يكاتبه ويظهر له المودة ، فأرسل ملك الروم لصلاح الدين يخبره بقدوم ملك الألمان ويعده أنه لا يمكنه من العبور في بلاده ، فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه ، لكنه منع عنهم الميرة ، ولم يمكّن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم ، فضاقت بهم الأزواد والأقوات ، وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية ، وساروا إلى بلاد الإسلام وهي مملكة الملك قِلِج أرسلان السلجوقي ، وكان من ملوك الإسلام ، فلما وصلوا إلى أوائلها سار بهم المسلمون فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويأخذون ما قدروا عليه من أموالهم ، وكان الزمان شتاء والبرد شديداً والثلج متراكماً ، فأهلكهم البرد والجوع والقتل والأخذ ، فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين بن قلج أرسلان السلجوقي ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة ، فعاد إلى قونية ، فساروا حتى بلغوا أنطاكية وكانوا نيفاً وأربعين ألفاً ، ووقع فيهم مرض ووباء فمات كثير منهم ، ودخل ملكهم في نهر ليغتسل فغرق ، فجعلوا ابنه ملكاً عليهم بدله ، ثم ساروا حتى وصلوا إلى عكا ، فلما رأوا ما نالهم من المشقات أراد كثير منهم العود إلى بلادهم ، فركبوا في مراكب غرقت بهم ولم يبق منهم إلا القليل ، ولما بلغ

صلاح الدين إقبالهم استشار أصحابه ، فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا ، فقال : بل نقيم إلى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم مَنْ بعكا من عساكرنا ، لكنه سيّر بعضَ عساكره إلى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عادياتهم ، وكان حال المسلمين كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب : ١٠] لكن كفى الله شرهم وأقلَّ عددهم بما أصابهم من العوارض والبلايا في طريقهم .

ذكر واقعة للمسلمين والفرنج على عكا

وفي هذه السنة أعني سنة ٥٨٦ في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسُها وراجلُها من وراء خنادقهم ، وتقدموا إلى المسلمين وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أخو صلاح الدين ، فركب المصريون واصطفوا للقاء الفرنج فاقتتلوا قتالاً شديداً فانحاز المصريون عنهم ، ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم ، فكرّ المصريون ورجعوا عاطفين عليهم فقاتلوهم في وسط خيامهم فأخرجوهم عنها ، وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا ، وكانوا متصلين كالنمل ، فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم إلا الشريد ، وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل ، ولما جرت عليهم هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم ، فلما كان بعد يومين أتتهم أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكند هنري ابن أخي ملك فرنسة لأبيه وابن أخي ملك إنكلترة لأمه ، وصل معه من الأموال شيء كثير يفوته الإحصاء ، فلما وصل جَنَّد الأجناد وبذل الأموال ، فعادت نفوسهم قوية واطمأنت ، وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً ، فتماسكوا وحفظوا مكانهم ، ثم إنهم أظهروا يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين ، وكانت منزلة المسلمين قد أنتنت بريح القتلى ، فاختاروا الانتقال إلى موضع يتسع فيه المجال ، فانتقلوا من مكانهم إلى الخروبة في اليوم السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة .

ثم إن الكند هنري نصب منجنيقاً ودبابات وعرادات للتوصل إلى دخول عكا ، فخرج من بعكا من المسلمين ، فأخذوها وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج ، ثم إن الكند هنري بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقاً آخر فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين الذين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يُرْمى من المنجنيق ، فعمل تلاًّ من تراب بالبعد من البلد ، فكان الفرنج ينقلون التل إلى القرب من البلد بالتدريج ويستترون به ، فلما قرب إلى البلد وصار بحيث يصل من عنده حجر المنجنيق نصبوا من ورائه منجنيقين ، وصار التل سترة لهما ، وكانت الميرة قد قلّت بعكا ، فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا ، فتأخر إنفاذها ، فسيّر إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك فسيّر بسطة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم فرفعوا عليها الصلبان ، فلما وصلوا إلى عكا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يتعرضوا لها ، فلما حاذت ميناء عكا أدخلها من بها ، ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندرية ، وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحي الإسكندرية وأخذ من معها ، ثم إن الفرنج وصلهم كتاب من البابا ، وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره وكان قوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه ، وهو صاحب رومة الكبرى ، يأمرهم في كتابه بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً ويعلمهم بوصول الأمداد إليهم ، فازدادوا قوة وطمعاً .

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لما تتابعت الأمداد إلى الفرنج وجنّد لهم الكند هنري جمعاً كثيراً بالأموال التي وصلت معه ، عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين ، فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها ، وخرجوا حادي عشر شوال من السنة المذكورة في عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة ، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ على عكا ولقي الفرنج على تعبئة حسنة ، وكان أولاده الأفضل علي والظاهر غازي والظافر مما يلي القلب ، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة

ومعه عساكر مصر ممن انضم إليه ، وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماة ومعز الدين صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ، واتفق أن صلاح الدين أخذه مَغَصٌ كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم ، فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ، ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس ، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غرب النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً ، وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ، وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك ، فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية في أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام ، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلاّ يعلم المسلمون ما أصابهم ، ولولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل وإنما لله في كل شيء حكمة ، وله أمر هو بالغه ولا رادّ لما أراد .

فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً ، وفي الثالث والعشرين من شوال أيضاً كَمَنَ جماعة من المسلمين وتعرض جماعة أخرى من المسلمين للفرنج ، فخرج إليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيئاً من قتال وتطاردوا لهم ، وتبعهم الفرنج حتى جاوزوا الكمين فخرج من كان في الكمين من المسلمين عليهم فقتلوهم فلم يفلت منهم أحد ، واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مئة دينار صوري ، فصبروا على هذا ، ولما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنها لم تمكّن في الميناء ، فسيّروها إلى صور لأنها كانت بأيديهم ، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر للمسلمين ، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة ، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهَيْجاء السمين ، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها ، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك ، فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني ، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيّرهم إليها وأخرج عوضهم ، فدخل إليها عشرون أميراً ، فكان الذين دخلوا

قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا ، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم فتفرق خلق كثير ، فانحسر الشتاء والأمر كذلك ، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا ، وانقطع الطريق إلا من سائح يأتي بكتاب ، ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمئة .

ذكر وصول فيليب ملك الفرنسيس ثم ملك إنكلترة

في هذه السَّنة أعني سنة خمسمئة وسبعٍ وثمانين ثاني عشر ربيع الأول ، وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين علىٰ عكا ، وكان أول من وصل منهم الملك فيليب ملك الفرنسيس ومعه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوسهم ، وكان صلاح الدين يركب كل يوم ويقصد الفرنج يشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد ، وأرسل إلى مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز الشواني والمراكب وشحنها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من وصول شيء من شوانيهم إلى عكا ، ففعل ذلك صاحب بيروت وسيّر الشواني في البحر ، فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوءة رجالاً من أصحاب ملك إنكلترة الملقب بقلب الأسد المسمّى ريكاردوس الأول ، وكان قد سيّرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها من ملك الروم لأنها كانت بأيديهم ، فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب إنكلترة ، فغلبهم المسلمون واستظهروا عليهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال .

وأما الفرنج الذين على عكا فإنهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الأولى ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحوّل من موضعه الذي كان فيه ونزل قريباً من خنادق الفرنج مقابلة لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم ، فقرب منهم ، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خنادقهم ، فكانوا يشتغلون بقتاله فيخف القتال عمَّن بالبلد .

ثم وصل ملك إنكلترة في جمادى الأولى من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ ، بعد أن استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها بالمكر والخديعة من الروم ، فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها ، فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج ، فلما فرغ منها سار عنها إلى من بعكا من الفرنج فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كبار مملوءة رجالاً وأموالاً ، فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتها في المسلمين وكان رجل

زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً ، وبُلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثيل لها ، ولما وردت الأخبار بقدومه أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات ، فتجهزت وسيّرت من بيروت وفيها سبعمئة مقاتل ، فلقيها ملك إنكلترة مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتاله ، فلما آيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها ، وكانت عكا محتاجة إلى رجال .

ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها ، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش ، فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلاًّ كبيراً من التراب مستطيلاً ، وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف غلوة ، فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه ، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها ، فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يُعَرّفونه حالهم ، فلم يقدر لهم على نفع ولا منع .

ذكر تملّك الفرنج عكا

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمئة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا ، وكان أول وهن دخل على من في عكا أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكّاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم ، فخرج إلى ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم ، فلم يجبه إلى ذلك فعاد علي بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم ، ثم إن أميرين ممن كان بعكا لما رأيا ما فعلوا بالمشطوب وأن الفرنج لم يجيبوا إلى الأمان اتخذوا الليل جَمَلاً ، وركبا في شيء صغير وخرجا سراً من أصحابهم ولحقا بعسكر المسلمين وخرج معهما جماعة ، فلما أصبح الناس وعلموا ذلك ازدادوا وهناً إلى وهنهم ، وضعفاً إلى ضعفهم ، وأيقنوا بالعطب .

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك ،

واشترط أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا ، وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل ، فأرسل إلى من بعكا من المسلمين أن يخرجوا من عكا يداً واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ، فشرعوا في ذلك واشتغلوا باستصحاب ما يملكونه ، فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه من استصحاب ما يملكونه لظهوره ، فلما عجز الناس عن حفظ البلد وزحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على السور يحركون أعلامهم ليراها المسلمون الذين خارج البلد ، وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر ، فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلباً منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم ، وكان الفرنج زحفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد ، فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم ، فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من في البلد من يقاتلهم ، فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مئتي ألف دينار وخمسمئة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت ، وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور ، فأجابوه على ذلك وحلفوا له عليه وأن يكون مدة تحصيله المال والأسرى إلى شهرين ، فلما حلفوا له سلّم البلد إليه ودخلوه سلماً ، فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم ، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم ، فشرع في جمع المال ، فلما اجتمع عنده مئة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم ، فأشاروا عليه بألاّ يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه ، وأن يضمن الداوية طائفة من الفرنج كان لهم وفاء ، فراسلهم صلاح الدين في ذلك ، فقال الداوية : لا نحلف ولا نضمن لأنا نخاف غدر من عندنا ، وقال ملوك الفرنج : إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا ، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل شيئاً وأعاد الرسالة إليهم ، وقال : نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً على

الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء له ، فقالوا : لا نحلف إنما ترسل إلينا المئة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد عندنا حتى يجيء باقي المال ، فعلم الناس حينئذ غدرهم ، وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يعبأ به ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء ، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل ، وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم ، وإذا أكثرُ مَنْ عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وهم خلق كثير ، واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال ، وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسيّر الأسرى والصليب إلى الشام ، وكان ملك الفرنسيس قد توجه قبل ذلك إلى صور لترتيب أموره وبقي في عكا ملك إنجلترة إلى أن تم استيلاؤه عليها وغدر بالمسلمين وفعل بهم ما تقدم ، وارتحل إلى عسقلان في عشر شعبان ، واستمرت عكا بأيديهم بعد استيلائهم عليها ، وبقيت عندهم مئة سنة وثلاثين ، إلى سنة ستمئة وتسعين فافتتحها ، وانتزعها منهم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون ، وسيأتي أنه سار إليها بجيوشه وعساكره ونصب عليها المجانيق العظيمة وقاتلهم عليها أشد القتال إلى أن ملكها ، وقتل من فيها من الفرنج وغنم منها أموالاً لا تحصى ، وكان نزوله عليها في أوائل جمادى الأولى من السنة المذكورة أعني سنة ٦٩٠ ، وفتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمئة ، واستولوا على من بها ثم قتلوهم ، فقدر الله عز وجل في سابق علمه أنها تفتح في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمئة على يد صلاح الدين بن قلاوون فكان ، فتوجّها في مثل الشهر الذي ملكها فيه الفرنج ، وفي مثل اليوم الذي ملكوها فيه من الشهر ولقب السلطان الذي فتحها مثل لقب السلطان الذي أخذت منه ، إذْ كلٌّ منهما يلقب

صلاح الدين ولله في كل شيء حكمة وكل شيء عنده بمقدار لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص لا رادّ لما قضاه وقدّره ، ثم فتح السلطان صلاح الدين قلاوون بقية البلدان التي كانت بيد الفرنج من أرض الشام وقطع دابرهم ، وطهرت أرض الشام وسواحلها منهم فَلِلَّهِ الحمد على ذلك .

ذكر رحيل الفرنج إلىٰ ناحية عسقلان

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من إصلاح أمر عكا رحلوا مستهل شعبان قاصدين عسقلان ، وكان توجههم من جهة حيفا مع شاطىء البر لا يفارقونه ومراكبهم تسايرهم في البحر محاذية لهم ، فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل ، فساروا فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا إليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ، ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة ، فلما وصل الفرنج حيفا نزلوا بها ونزل المسلمون قريباً منهم ، ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويقتلون من قدروا عليه منهم ، فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون ، وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيراً ونزل الفرنج بها ونزل المسلمون قريباً منهم ، ولما نزلوا قيسارية خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم ، فأوقع بهم المسلمون فقتلوا منهم وأسروا ، ثم ساروا من قيسارية إلى أَرْسُوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق ، فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة فألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتلوا كثيراً منهم ، فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة منهم على المسلمين حملة رجل واحد فولّوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد ، والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة تبعتهم واشتهرت الهزيمة ، وهلك المسلمون ، لكن كان بالقرب من المسلمين قطعة كثيرة الشجر فدخلها المسلمون ، فظن الفرنج أنها مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق ، ثم سار الفرنج إلى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ، ثم سار صلاح الدين إلى الرملة وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان ، وقالوا قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء الأفرنج عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا فنزاح عنها وينزلوا

عليها ، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا ؛ لأن العدو قد قوي بأَخْذِ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ، ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجدّ غيرها ، فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجب أحد إلى ذلك ، وقالوا : إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار ، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا ، فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ ، وألقيت حجارتها في البحر ، وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعَفَا أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ، ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها .

وكان المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى ، لما كان بعكا أحس من ملك إنكلترة الغدر به ليتملك منه صور فهرب من عنده إلى صور فحصنها ، وكان رجل الفرنج شجاعاً وأحسنهم رأياً ، وكل هذه الحروب هو الذي أثارها ، فلما خربت عسقلان أرسل ملك إنكلترة يقول له : مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً ، ويتقدم على الجيوش ، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل ، لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مُجِدّاً فَرَحَّلْته وملكتها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار ، فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها ، وحقِّ المسيح لو أنني معك لكانت عسقلان بأيدينا اليوم لم يخرب منها غير برج واحد ، وقد عمر الفرنج عسقلان في المحرم سنة ٥٨٨ ، وملكوها .

ثم إن صلاح الدين لما خرب عسقلان مضى إلى الرَّمْلَةِ فخرب حصنها وخرب كنيسة اللّدّ ، ثم سار صلاح الدين إلى القدس وحصنها واعتبر ما فيه من ذخائر وسلاح وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه ، وعاد إلى المخيم ثامن رمضان .

وفي مدة إقامة الفرنج بيافا خرج ملك إنكلترة من معسكره ومعه نفر من عسكره ، فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وكاد ملك إنكلترة يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلّص الملك وأُسِر ذلك الرجل ، وفيها أيضاً وقعت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج كان النصر فيها للمسلمين .

ذكر رحيل الفرنج إلىٰ نطرون

لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد نزلوا يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته إلى نطرون ثالث عشر رمضان وخيم بها ، فراسله ملك إنكلترة يطلب المهادنة ، فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أخي صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن ملك إنكلترة يزوج أخته من الملك العادل ، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ، وتكون عكا وما بأيدي الفرنج من البلاد لأخت ملك إنكلترة مضافاً إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها الأول ، فعرض العادل ذلك على أخيه صلاح الدين فأجاب إلى ذلك ، فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت ملك إنكلترة وأنكروا عليها ذلك ، فامتنعت من الإجابة ، وكان الملك العادل في مدة الخوض في الصلح يجتمع في بعض الأوقات مع ملك إنكلترة ويتذاكران حديث الصلح ، وطلب من الملك العادل مرة أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له ، فاستحسن ذلك ، ثم إن الصلح لم يتم بينهما لما امتنعت أخت ملك إنكلترة ، ثم تبين أن ملك إنجلترة كان يفعل ذلك خديعة ومكراً .

ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس ، فسار صلاح الدين إلى الرملة ومعه العسكر وترك الأثقال في نطرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوماً ينتظرهم ، فلم يبرحوا ، فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات ينتصر فيها المسلمون على الفرنج ، وعاد صلاح الدين إلى نطرون ، ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد بيت المقدس ، فقرب بعضهم من بعض وعظم الخطب واشتد الحذر ، فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين ، فلقوا من ذلك شدة شديدة ، وأقبل الشتاء وحالت الأوحال والأمطار بينهما .

ذكر مسير صلاح الدين إلىٰ القدس

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم والأمطار متتابعة والناس فيها في ضنك وحرج من شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم ، وكان كثير من العسكر قد

طال عليهم البيكار ، فأذن لهم في العبور إلى بلادهم للاستراحة ، وسار هو إلى بيت المقدس فيمن بقي معه فنزلوا جميعاً داخل البلد وقدم إليه عسكر من مصر فقويت نفوس المسلمين بالقدس ، وسار الفرنج من نطرون ثالث ذي الحجة على قصد بيت المقدس ، فكانت بينهم وبين يزك المسلمين وقعاتٌ ، أسر المسلمون في وقعة منها نيفاً وخمسين فارساً من مشهوري الفرنج وشجعانهم ، وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سُورِه وتجديد ما رَثَّ منه ، فأحكم الموضع الذي تَملَّك البلد منه وأتقنه ، وأمر بحفر خندق خارج الفصل ، وسلّم كل برج لأمير يتولى عمله ، ثم إن الحجارة قلّت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيهتدي به الأمراء والعسكر ، فكان يجتمع من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام .

ثم إن الفرنج رجعوا إلى رملة في العشرين من ذي الحجة ، وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل ، فلما بعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ، ثم إن ملك إنجلترة قال لمن معه من الفرنج الشاميين ، صَوِّروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها ، فصوّروها له ، فرأى الوادي يحيط بها ما عدا موضعاً يسيراً من جهة الشمال ، فسأل عن الوادي وعن عمقه ، فأخبروهُ أنه عميق ، وعن المسلك ، فقال : هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة ؛ لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل إليهم منها إلى الرجال الذخائر وما يحتاجون إليه ، وإن نحن افترقنا بعضنا على جانب الوادي وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع إحدى الطائفتين ولم يتمكن للطائفة الأخرى إنجاد أصحابهم ؛ لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج من البلد عن المسلمين فغنموا ما فيه ، وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فإلى أن يتخلصوا من الوادي ويلحقوا بهم يكون قد فرغ صلاح الدين منهم ، هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما نحتاج إليه من الأقوات .

فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجري للجالبين لها من المسلمين ، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة فعادوا خائبين خاسرين ، ثم دخلت سنة

٥٨٨ ثمان وثمانين وخمسمئة ، فعمر الفرنج عسقلان كما تقدم ، وجرى بينهم وبين المسلمين حين عمارتها قتال شديد وعدة وقائع ، فكان المسلمون تارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع عنهم الميرة ، وأخذوا منهم قوافل كبيرة .

وفي شهر ربيع من هذه السنة جعل صلاح الدين للباطِنِيَّيْنِ من الإسماعيلية عشرة آلاف دينار إن قتلوا ملك الإنجليز أو المركيس صاحب صور ، فتمكّنا من قتل المركيس صاحب صور فقتلاه ، ثم قُتِلا ، فتملّك صور الكند هنري ، وتقدم أنه ابن أخت ملك الفرنسيس وابن أخت ملك إنكلترة لأمه .

وفي تاسع جمادى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ، ثم ساروا إلى بيت المقدس وصلاح الدين فيه ، وكان سبب طمعهم أن صلاح الدين فرق كثيراً من عساكره لأجل الشتاء ليستريحوا فظنوا أنهم ينالون غرضهم ، فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فَرَّق أبراج البلد على الأمراء ، وسار إلى الفرنج وكانوا على فرسخين من القدس ، فصب عليهم البلاء وتابع إرسال السرايا ، فعلموا أنهم إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن فرجعوا القهقرى ، وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام ، ولما بعد الفرنج عن يافا سيّر من عسكره إليها فقاربوها وكمنوا عندها ، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وغنموا ، وكان ذلك آخر جمادى الأولى .

وفي تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج خروج قفل كبير من مصر ، فأسر الفرنج منهم وأخذوا بعض القفل بنواحي الخليل وسلم البعض . ثم إن الفرنج أيقنوا أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين إذا فارقوا البحر وبعدوا عنه ، فرجعوا إلى عكا وأقاموا بها .

فلما علم صلاح الدين بذلك جمع العساكر وسار إلى مدينة يافا ، وكانت بيد الفرنج ، فنازلها وقاتل من بها إلى أن ملكها بالسيف عنوة في عشرين من رجب ، وغنم ما فيها وقتل كثيراً وأسر كثيراً ، وكان بها أكثر الأموال التي غنموها من قفل مصر ، وتحصن من بقي من الفرنج بالقلعة فحاصرهم فجاءتهم نجدة من عكا ومعهم ملك إنجلترة فأخرج مَنْ بيافا من المسلمين ، وتتابع إليه المدد من عكا وبرز إلى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم ، فلم يقدم إليه أحد ، فوقف بين

الصَّفَّين واستدعى طعاماً من المسلمين ونزل وأكل ، ثم رجع إلى يافا .

ذكر الهدنة مع الفرنج

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت هدنة بين المسلمين والفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وسببها أن ملك إنكلترة لما رأى اجتماع العساكر وأنه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر ، وليس بالساحل بلد للمسلمين يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده ، فأرسل إلى صلاح الدين في الصلح ، فلم يجبه صلاح الدين ، بل طلب منه المصافَّ والحرب ، فأعاد الفرنجي رسله مرة بعد أخرى ، وأرسل إلى الملك العادل أخي صلاح الدين في تقرير الهدنة ، فأشار هو وجماعة من الأمراء بالإجابة إلى الصلح ، وعرفوا صلاح الدين ما عند العساكر من الضجر والملل ، وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ، وما نفد من نفقاتهم ، وقالوا : إن هذا الفرنجي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده ، فإن تأخرت إجابته إلى أن يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج إلى البقاء هنا سنة أخرى فيعظم الضرر على المسلمين ، وأكثروا القول في هذا المعنى ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى الصلح ، فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة ، وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين من الفرنج باليان بن بارزان الذي كان صاحب الرملة ونابلس ، ومن جملة ما قال لصلاح الدين : ما عمل أحد في الإسلام مثلما عملت ، ولا هلك من الفرنج مثلما هلك منهم هذه المدة ، فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف مقاتل ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد ؛ بعضهم قتلته أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق .

ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة البيت المقدس فزاروه وعادت كل طائفة إلى بلادها ورجع ملك إنكلترة إلى بلاده ، وأقام بالساحل الشامي ملكاً على الفرنج وعلى البلاد التي بأيديهم الكند هنري ، وسار صلاح الدين إلى القدس وصام به رمضان ، ثم سار إلى دمشق في شوال وفرح الناس به لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام ، وكانت هذه الهدنة من لطف الله بالمسلمين ؛ لأن الله لما علم قرب وفاة صلاح الدين قدر وقوع هذه الهدنة ؛ لأنه لو توفي صلاح الدين في مدة

الحرب لزاد طمع الفرنج في بلاد الإسلام ، وانتشر شرهم ، ولربما أنه لا يوجد بعده من يقوم مقامه .

وكانت وفاة صلاح الدين بدمشق في السابع والعشرين من شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمئة بعد أن مرض أياماً ، وكان رحمه الله عالماً صالحاً حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً ، كثير المحاسن والأفعال الجميلة ، عظيم الجهاد في الكفار ، وفتوحاته تدل على ذلك ، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة ، ولم يخلف داراً ولا عقاراً ، ولم يوجد في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً صورياً ، وكانت ولادته سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة ، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة ، وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة ، وكان رحمه الله مشغوفاً بالإنفاق في سبيل الله تعالى ، فكان إذا عُقر أو جُرح لأحد من العسكر فرسٌ في سبيل الله يعوضه مثله ويزيده في عطائه ، وحسبوا ما وهبه من الخيل للحاضرين معه في الجهاد مدة ثلاث سنين فكان اثني عشر ألف رأس ، وكان كريماً شديد الكرم كثير البذل للأموال ولا سيما لِلْمجاهدين ، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب لإنسان من المجاهدين أو موعود بهبته وصاحبه ملازم في طلبه ، وما حضر للقتال إلا واستعار فرساً يقاتل عليه ، فإذا نزل عنه جاء صاحبه وأخذه ، وكانت مجالسه حافلة بأهل العلم والدين والفضل ، يحب مناظرة العلماء بين يديه ، ويشاركهم في المناظرة أحسن مشاركة في المسائل الغامضة ، حتى صار لمداومة مجالسته للعلماء أعرف منهم بالأحكام الفرعية والأدلة الشرعية ، وكان كثير الإكرام للعلماء متواضعاً لهم مواظباً على الفرائض الخمس ، لم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى إلا في جماعة ، وكان متوكلاً على الله لا يفضل في عزمه يوماً على يوم ، وكان كثير التغافل عن سيئات خدمه وأتباعه وزلاتهم ، يسمع ما يكره ولا يتأثر به ولا يخبر بخطيئته من أخطأ منهم ، حتى إن بعض مماليكه رمى بعضاً آخر بسر موزة فأخطأته ووقعت قريباً من السلطان وكادت تصيبه فالتفت إلى الجهة الأخرى تغافلاً عنها وصار يكلم من بجانبه ، وكان طاهر المجلس طاهر اللسان .

قال العماد الكاتب : مات بموته الرجال ، وفات بفواته الأفضال ، وغاضت الأيادي وفاضت الأعادي ، وانقطعت الأرزاق وألهمت الآفاق ، وفجع الزمان ورزىء

الإسلام ، وكانت مجالسه كلها مجالس الآخرة ؛ لأنها إما في إقامة عدل ينشره أو جهاد يتجهز له ، أو سماع الأحاديث النبوية ، أو برّ يواليه أو إحسان يوصله إلى ذوي الحاجات وأرباب الضرورات ، إلى غير ذلك من أنواع البرّ وأبواب القربات مع ما انطوى عليه من السجايا الجليلة والأخلاق الطاهرة ، والحياء الذي لا مزيد عليه والسخاء الذي لا يلحق فيه ، وكان يهب الجزيل ولا يراه ، بل يرى الفضل لآخذه ، وكان دائم البشر والبشاشة لا يرد سائلاً ولا يصد نائلاً ولا يُخجّل قائلاً ولا يخيب آملاً ، سأل مرة بعض الأمراء عن تخلفه عن غزوة تخلف عنها فذكر دَيناً عليه ، فأحضر الغرماء وتحمّل الدين عن ذلك الأمير ، وكان ذلك الدَّين اثني عشر ألف دينار ، وكان كل مماليكه وخواصه وجميع أمرائه وأجناده يقتدون به في أخلاقه وكرمه وحسن سجاياه ، فكانوا أعف من الزهاد وأكثر عبادة من العباد .

قال العماد الكاتب : ورأى لي يوماً دواة محلاة بشيء يسير من الفضة فأنكرها ، فقلت له : إن الإمام أبا محمد الجويني ذكر وجهاً في جواز مثل ذلك ، فقال لي : لا تتبع الرُّخص ، فلم أكتب بها بعد ذلك ، وكان كثيرالأوراد والأذكار وتلاوة القرآن ، وكانت أوقاته كلها مستغرقة بالعبادة علماً وعملاً وقلباً وقالباً ، قد هجر لذة الدنيا وزينتها وأخرج من قلبه محبتها وبهجتها ، فكان كالأسير في هذه الدار لا يؤمل بفك الأسر عنه إلا في دار القرار ، وكان لشدة حبه لسماع الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام يسمعها بين الصفين ، وسبب ذلك أنه قيل له : إنك يا مولانا سمعت الحديث في جميع المواطن الشريفة إلا بين الصفّين حين القتال ، فأحضر جزءاً من أجزاء الحديث وقرىء عليه هو وجنوده على ظهور الخيل بين الصَّفَّين يمشون تارة ويقفون أخرى ، والرؤوس تندر والرؤوس تقصر ، وواظب على ملازمة ذلك وتكراره في كثير من مواقفه ، وكان ذلك من أسباب النصر العظيم والفتح المبين .

وكان رحمه الله شجاعاً من أعظم الشجعان ، قوي النفس والقلب شديد البأس عظيم الثبات ، لا يهوله أمر حتى كان يقابل بالجمع القليل الجيوش الكثيرة من الفرنج مع أن نجدتهم كانت أيضاً متواصلة وعساكرهم متواترة ، وهو مع ذلك لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلة واحدة من الفرنج ما يزيد على سبعين مركباً عند محاربة عكا وصار بعض أتباعه يعدون تلك المراكب من بعد العصر إلى غروب الشمس

وكلها كانت مشحونة بعساكر الفرنج ويخبرونه بها ، وهو مع ذلك لا يزداد إلا قوة نفس وشجاعة وشهامة .

قال القاضي ابن شداد : ولما انعقد الصلح سألت بعض ملوك الفرنج وهو جالس بين يدي السلطان يوم انقطاع الصلح عن عدتهم ، فقال : خمسمئة ألف . قلت : فكم هلك منكم ؟ فقال : أما بالقتل فقريب من مئة ألف ، وأما بالموت والغرق فكثير لا نعلم عددهم وما رجع إلى بلادهم إلا القليل .

وكان رحمه الله إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق صفوف العساكر من الميمنة والميسرة ويأمرهم بالتقدم تارة والوقوف تارة في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاورهم ليدبر الأمر على ما يقتضيه الحال ، وكان رحمه الله له كمال المعرفة بتدبير الحرب ومكايده ، وما استعظم عدوه قط ولا استكثره لشدة توكله على الله تعالى وقوة وثوقه به ، وكان رحمه الله تعتريه أمراض في أيام منازلته للعدو ، فكان شديد الصبر ولا يخلُّ المرض بشيء مما يلزمه ، واعتراه أيام محاربة عكا دَماميل كثيرة من وسطه إلى ركبتيه بحيث إنه لا يستطيع الجلوس ، فكان لم يزل متكئاً على جنبيه وهو في الخيمة ، وامتنع من الجلوس على الطعام مع من كان يجلس معهم لعجزه عن الجلوس ، فكان يأمر بالطعام أن يفرق بين الناس ، وهو مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى الظهر يطوف على الأطراف ويدبر أمر جيوشه صابراً على شدة الألم وقوة ضربات الدَّماميل ، فكانوا يتعجبون من شدة صبره ، فكان يقول لهم : إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه كرامة عظيمة أكرمه الله تعالى بها ، وكان رحمه الله إذا جاء الشتاء يعطي الجيش دستوراً فيتفرقون ويبقى هو في طائفة يسيرة من جنده في مقابلة العدو أكثر ممن معه بأضعاف مضاعفة ، وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الله ، شديد القيام على المبتدعة والفلاسفة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق جميل المحاضرة طيب المفاكهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث إن مُحاضِرَه يستفيد منه ما لا يسمعه من غيره .

ومن محاسن أخلاقه مع خدمه : أنه طلب الماء مرة فلم يحضر ، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر ، فقال : يا أصحابنا قد قتلني العطش ، فأُحضر

الماء فشربه ولم ينكر التواني في إحضاره ، وكان مرة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت ، فلما برىء منه أدخل الحمام فكان الماء حاراً فطلب ماء بارداً فأحضره الذي يخدمه ، فسقط من الماء شيء على الأرض ، فناله منه شيء فتألم له لضعفه ، ثم طلب البارد أيضاً فأحضر ، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك ، فلم يزد على أن قال للغلام : إن كنت تريد قتلي فَعَرِّفْني ، فاعتذر إليه فسكت عنه .

ومن كرمه أنه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية ، مع أن أولاده الذين خلفهم كانوا سبعة عشر ولداً وبنتاً ، فلم يبالِ بكونه لم يترك مالاً يرثونه بعده ولا خلف داراً ولا عقاراً ولا ضيعة ولا بستاناً ، وذلك لشدة زهده في الدنيا وقوة وثوقه بالله تعالى وتوكله عليه ، ولما انقضت دولة العبيديين بمصر واستولى هو على مصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ، ففرقه جميعه ولم يأخذ لنفسه شيئاً .

ومن تواضعه رحمه الله أنه لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين ، وكان يحضر عنده الفقراء الصوفية ويعمل لهم السماع المعروف عند الصوفية ، فإذا قام أحد منهم لتواجد يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ ذلك الفقير ، ولم يلبس قط شيئاً مما ينكره الشرع .

ولما مرض مرض الموت حضر عنده ليلة من تلك الليالي القاضي الفاضل ، وكان القاضي الفاضل أعظم وزرائه ، وحضر أيضاً بعض أولاده والعماد الكاتب ، قال العماد : فأجلسناه وأسندنا ظهره إلى مخدة وأحضر ماء فاتراً ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدة حره فغير ، وعرض عليه ثانياً فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله لا يمكن أحداً تعديل الماء ، قال العماد فخرجت : أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد منا البكاء لما شاهدناه من مرضه ، والقاضي الفاضل يقول : انظر إلى هذه

الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا يبعض الناس كان ضربَ بالقدح رأس من أحضره .

وكان رحمه الله له إمام راتب ملازم مواظب فإن غاب يوم صلى به من حضره من أهل العلم إذا عرفه متقياً متجنباً للإثم ، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به ، ولم يكن إلى المنجم مصغياً ، ولم يزل لقوله ملغياً ، لا يتعيف ولا يتطير ولا يتعير ولا يتحير ، بل إذا عزم توكل على الله فلا يفضل يوماً على يوم ولا زماناً على زمان إلا بتفضيل الشرع ، وما زال ناصراً للتوحيد ، وقامعاً جميع أهل البدع بالتبديد ، شافعي المذهب أصولاً وفروعاً معتقلاً له معقولاً ومسموعاً ، يدني أهل التنزيه ويقصي أهل التشبيه ، ويديم استعادة فقه الفقيه واستفادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه ، فالعالمون في عدله والعالمون في نصه والبلاد في أمنه والعباد في مَنّه ، وكان رحمه الله حسن العقيدة ، وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع معتقد أهل السنة والجماعة فحفظها ، وكان يحفظها الصغار من أولاده ، وكان من القائمين بالليل للتهجد .

وكان يحب سماع القرآن العظيم ويشترط على من يتخذه إماماً أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم متقناً لحفظه . وكان رحمه الله خاشع القلب سريع الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه ، وكان شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ، لو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد لصدق وبَرَّ في يمينه ، ولقد هجر في محبة الجهاد الأهل والأولاد والوطن والمسكن وسائر الملاذ ، وقنع من الدنيا في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ذات ريح وكادت تقتله لما وقعت عليه ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومثابرة واهتماماً ، ومناقبُه رحمه الله كثيرة قد أفردت بالتأليف ، اللهم اجعل مقره جنات النعيم وأقِرّ عينه بالنظر إلى وجهك الكريم ، يا أرحم الراحمين ، اجمع بيننا وبينه في دار كرمك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو مع ما جمع الله فيه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمود نور الدين بن زنكي ، فإن السلطان محمود نور الدين هو الذي أقامه حتى صار من الكاملين ومن عباد الله المقربين ، (وقد) تقدم الوعد بذكر ترجمة للسلطان نور الدين المذكور عند ذكر وفاته سنة خمسمئة وتسع وستين ، وترجمته واسعة أفردت بالتأليف ، ولنذكر نبذة

منها لعلنا ننال ببركة السلطانين أنواع التشريف .

وقد تقدم أن السلطان نور الدين هو ابن عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر ، كان جده آق سنقر من مماليك السلطان ملك شاه السلجوقي ولاّه الولايات الجليلة ، ثم بعد ابنه عماد الدين زنكي ولي كثيراً من الولايات وفتح أعظم الفتوحات ، ثم صار الأمر بعده لولده السلطان محمود نور الدين فكان له ولاية حلب والموصل وغيرهما من الممالك ، فتح كثيراً من البلاد التي استولى عليها النصارى ، وبعث السلطان صلاح الدين إلى مصر فانتزعها من أيدي العبيديين ، فمما ذكروه في ترجمة السلطان نور الدين أنه كان عالماً فقيهاً على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه عابداً ورعاً زاهداً ، فمن زهده وورعه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، ولقد شكت إليه زوجته الضيق فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو عشرين ديناراً ، فاستقلّتها ، فقال : ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك ، وكان يصلي كثيراً بالليل وله فيه أوراد حسنة وكان كما قيل :

جَمَعَ الشَّجاعةَ والخشوعَ لربِّهِ ... ما أَحْسَنَ المحرابَ في المحرابِ

وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر من الله تعالى ، وأما عدله فإنه لم يترك في ممالكه على سعتها مكساً ولا عشوراً ، بل أبطلها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل ، وكان الولاة قبله قد جاروا في ذلك غاية الجور حتى وصلوا إلى أنهم يأخذون في المئة الخمسة والأربعين فأبطل ذلك كله ، فبارك الله له في الغنائم وفتح له الفتوحات حتى انتزع هو والسلطان صلاح الدين كثيراً من الممالك الشامية وغيرها من أيدي النصارى ، وكانوا قد استولوا عليها قريباً من مئة سنة ، وقد تقدم بيان ذلك بالاختصار ، وكان رحمه الله يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها وله في ذلك أخبار عجيبة ، فمن ذلك أن بعض رعيته ادّعى عليه بدعوى غير صحيحة ولا ثابتة وشكاه إلى القاضي الذي أقامه هو لتنفيذ الأحكام الشرعية ، فاستدعاه القاضي فحضر مجلس الحكم ، وقال للقاضي : إني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثلما تسلكه مع غيري ، وساوى خصمه في المجلس وحاكمه فلم

يثبت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين فقال : اشهدوا أني قد وهبت لخصمي هذ كل الذي حاكمني فيه ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له ، وهذا غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق ، وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة ، وإلا فقد انقاد إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظّنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ ، فدفع الله بهذا الفعل من الناس من الشر ما كان يوجد في غير ولايته .

وكان للسلطان نور الدين شيخ يحبه ويعتقده يقال له الشيخ عمر الملا ولقب بأمره بالملا ، لأن الشيخ عمر المذكور كان يملي تنانير الجص بأجرة يتقوت منها فكان لا يأكل إلا من كسب يده وذلك حلال ، وكان نازلاً بالموصل ، وكان السلطان نور الدين يرسل إليه من حلب من يأتيه منه بشيء يفطر عليه في رمضان يكون حلالاً ، فكان الشيخ عمر الملا يرسل للسلطان نور الدين أكياساً فيها الفتيت والرقاق ، فكان نور الدين يفطر عليه ، وكان إذا قدم السلطان نور الدين الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملا ، ويقبل قوله ويعمل بإشاراته ويأمر عماله بالموصل والجزيرة أن يعملوا بقول الشيخ عمر ويقبلوا إشارته لعلمه وصلاحه وديانته وورعه ، فاتفق أنه كثر الدعّار وأرباب الفساد بالموصل والجزيرة ، فحضر العمال والنواب عند الشيخ عمر الملا وقالوا له إنه : قد كثر الدعار وأرباب الفساد ولا يستقيم الأمر إلا بشيء من السياسة كالقتل والصلب ، وإذا أُخِذَ مالُ إنسان في البرية من يجيء يشهد له ، فلو كتبت إلى السلطان نور الدين أن يأذن لنا في شيء من السياسة ، فوافقهم الشيخ عمر الملا وكتب للسلطان نور الدين يسأله في أن يأذن لهم في شيء من السياسة التي يمنع بها الدعار وأهل الفساد ، وقال : إذا أُخِذ مال إنسان في البرية من يجيء يشهد له ؟ فقلب السلطان نور الدين كتابه وكتب له على ظهره : أن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم ، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم ، وأن مصلحتهم تحصل فيما

شرعه على وجه كامل فيها ، ولو علم أن الشريعة تحتاج إلى زيادة لإتمام المصلحة لشرعه ، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى .

فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملا جمع أهل الموصل وأقرأهم الكتاب ، وقال : انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد ، فعرفوا أن ما قاله السلطان نور الدين هو الصّواب ، وأن الصلاح إنما يكون بالعمل بالشريعة ، وكان السبب في إسقاطه المكوسات أن وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني رأى في منامه أنه يغسل ثيابه ، فقص ذلك عليه ، ففكر ساعة ثم أمر بكتابة إسقاط المكوسات ، وقال : هذا تفسير منامك ، وكان في تهجده يقول : ارحم العشار المكاس ، وبعد أن أبطل ذلك طلب من الناس الذين أخذت منهم قبل ذلك أن يجعلوه في حِلّ ، وقال : والله ما أخرجناه إلا في جهاد عدو الإسلام ، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم .

وكان رحمه الله لا يفعل شيئاً من الأعمال إلا بنية صالحة ، من ذلك أنه كان يخرج بالعساكر ويجرون الخيل في صورة اللعب ، ويريد بذلك تمرين الخيل والعسكر على الكَرّ والفَرّ ، فكتب إليه الشيخ عمر : ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة بينة ، فكتب إليه نور الدين : والله ما يحملني على ذلك اللهو واللعب ، وإنما نحن في ثغر والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاء وصيفاً إذ لا بدّ من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله الذي بعثني على ذلك .

قال ابن الأثير : فانظر إلى هذا الملك العظيم العديم النظير الذي قَلّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب بنية صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل في العالم مثله ، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة ، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين بعلمهم .

وكان رحمه الله كثير المطالعة للكتب الدينية متبعاً للآثار النبوية ، مواظباً على الصلوات في الجماعات ، عاكفاً على قراءة القرآن ، وحريصاً على فعل الخير ، عفيف

البطن والفرج ، مقتصداً في الإنفاق متحرياً في المطاعم والملابس ، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها وإرشاد إلى سنّة يتبعها .

قال ابن الأثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى زمننا هذا ، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك نور الدين ، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه وإنعام يسديه ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، أما زهده وعبادته وعلمه فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، وإذا أراد أخذ شيء من الأموال المرصدة لمصالح المسلمين أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يَحِلُّ له ، فيأخذ ما أفتوه بِحِلّه ، ولم يتعده إلى غيره ألبتة ، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع من شرب الخمر وبيعها في بلاده ومن إدخالها أي بلدة ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي وكل الناس عنده فيه سواء ، وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء ينام ويستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر ويشتغل بمهام الدولة ومصالح المسلمين ، وأرسلت له زوجته تخبره بأن النفقة قلّت عليها ولم يكفها ما كان قرره لها وطلبت منه الزيادة فتنكر واحمرَّ وجهه ، وقال للرسول : من أين أعطيها ما يكفيها ؟ والله لا أخوض النار في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لتنفق إن كان من عدو الإسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال للرسول : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً وقد وهبتها إياها فلتأخذها وكان يحصل منها قدر قليل ، وذلك نحو عشرين ديناراً .

وحكي أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل صوفي فأمر له بها ، فقيل إنها لا تصلح لهذا الرجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له ، فقال : أعطوها له ليبيعها وينتفع بثمنها فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت إلى ذلك

الصوفي ، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمئة دينار أو سبعمئة ، وقيل باعها في همذان بألف دينار .

وكان الملوك قبله في الجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته ، فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به عماله ومن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟ فليذكر نبي الله سليمان عليه السلام فإنه مع ملكه كان سيد الزاهدين في زمانه ، ونبينا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين من جميع العالمين ، وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا .

وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكماً ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مُكْساً ولا عشراً ، بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار بكر وغيرها مما حكم عليه ، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مئة دينار خمسة وأربعون ديناراً وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ، فلا جَرَمَ إن سار ذكره في شرق الأرض وغربها ، ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول : نحن مسخرون لها نُمضي أوامرها .

حكي أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره ، فسأل عنه فقيل له إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا ، فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بردّه وإعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين فرده كمال الدين إلى الخزانة ، وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني إنه له ، فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى

فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين فرد إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي رقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى يعاد قولاً واحداً .

ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى أن إنساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله تعالى ، فلما توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكا فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي ، وقد شق ثوبه وهو يقول : يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، فقيل له احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين والناس معه ، وطيّب قلبه ، وأزاح ظُلاَمَتَهُ ، ووهبه شيئاً أنصفه ، فبكى أشد من بكائه الأول ، فقال له صلاح الدين : لِمَ تبكي ؟ قال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

ومن عدل نور الدين رحمه الله أنه بنى داراً للكشف سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها لفصل الخصومات في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك ، وكان الناس يقولون : إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل ، وكان إذا حرق الحرب أخذ قوسين وترسين وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها ، سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك والإسلام والمسلمين فإنك عمادهم ، ولئن أصبت والعياذ بالله تعالى في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، وأخذت البلاد ، فقال : يا قطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الذي لا إله إلا هو :

وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ما ملكه من بلادهم بحسن تدبيره في أعمال الحيل عليهم ، ومن جيد الرأي ما سلكه مع سليح بن إليون ملك الأرمن فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الأفرنج ، وكان يقول : إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا طريق إليها ، هو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام فإذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألّف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج .

ولما توفي نور الدين وملك غيره وغيّر هذا الطريق ملك متولي الأرمن بعد سليح كثير من بلاد الإسلام وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه ، وكان رحمه الله يكرم العلماء ويكثر الإحسان إليهم ، ويبالغ في تعظيمهم حتى إنه إذا أدخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه ، مع أنه كان له هيبة عظيمة في قلوب الملوك والأمراء ، وما كان أحد من الأمراء يقدر أن يجلس في مجلسه إلا بعد الإذن له في ذلك ، وكان يكاتب العلماء بخط يده وينبسط معهم ولا يرد لهم قولاً ، وإذا أعطى أحداً من العلماء أو الفقراء يقول : إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المِنّة علينا .

وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حكم وحياء لا تنتهك فيه الحرم ، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو لا يتعدى هذا ، وقد حضر الحافظ ابن عساكر مجلس صلاح الدين لما ملك دمشق ، فرأى فيه من اللّغو وسوء الأدب من الجالسين فيه ما لا حد له فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعه ، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه ، فقال : نزهت نفسي عن مجلسك فإني رأيته كبعض مجالس السُّوقَة لا يسمع فيه إلى قائل ولا يردّ فيه جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير تعلوه الهيبة والوقار ، فإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا

استمع لنا ، فأمر صلاح الدين أصحابه ألاّ يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ ابن عساكر .

قال ابن الأثير : فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله تعالى مضبوطة محفوظة .

وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعياً لها لا يهملها ، ولا يمكّن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحق ، ومتى اقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ؟!

وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر النسك والزهد وقد كثر أتباعه وأظهر شيئاً من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه فطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه إلى حران فأقام بها إلى أن مات .

وكان لنور الدين رحمه الله مجالس يقرأ فيها كتب الحديث مع جماعة من العلماء ، فمرّ به يوماً أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفه ، وكان من عادة الجند أنهم يربطون سيوفهم بأوساطهم ، فلما سمع هذا الحديث أبطل ما كان عليه الجند ، وخرج من غد ذلك اليوم متقلداً سيفه ، فاقتدى به الجند وفعلوا مثل ما فعله ، فهذا يدل على أنه لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ في كل سُنّة تبلغه عنه ، وأَمَر رحمه الله بإسقاط ألقابه في الدعاء له على المنبر ، وطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما ينبغي أن يُدْعى له به ، فكتب له : إذا أراد الخطيب أن يدعو له يقول : اللهمّ أصلحْ عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ؛ أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين ، فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه : مقصودي ألاّ يكذب على المنبر أنّا بخل بكل ما يقال لا أفرح بما لا أعمل ، وكتب في آخر الرقعة : ثم تبدأ بالدعاء اللهمّ أره الحق ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم وفّقه من هذا الجنس .

ودخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر فمات بها وخَلَّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً ، فكتب بعض من كان بحلب إلىٰ نور الدين يذكر له أنه مات تاجر موسر وخلف

ولداً صغيراً وخلف عشرين ألف دينار ، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة وينفق على الصغير شيئاً يسيراً ويمسك الباقي إلى الخزانة ، فكتب على رقعته : أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فثمّره الله ، وأما الساعي فلعنه الله .

وكفى السلطان نور الدين منقبة ما ذكره العلامة السيد السمهودي في تاريخ المدينة المسمى « خلاصة الوفا في أخبار دار المصطفى ﷺ » أن السلطان المذكور رأى النبي ﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة ، وهو يقول له في كل مرة : يا محمود أنقذني من هذين الشخصين وهما شخصان أشقران تجاهه ، فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر ذلك له ، فقال : هذا أمر حدث بالمدينة النبوية ليس له غيرك ، فتجهز بمقدار ألف راحلة وما يتبعها وسار حتى دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ثم أمر بكتابة أسماء الناس ليتصدق عليهم وتصدق بأموال كثيرة ، ولا يعطي كلَّ إنسان إلا بيده لينظر إليه رجاء أن يرى الشخصين الأشقرين اللذين أراه إياهما النبي ﷺ حتى لم يبق أحد ، ولم يشاهد فيمن حضر عنده الشخصين الأشقرين ، فسأل هل بقي أحد ؟ فقالوا : لم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الرباط الذي في قبلة حجرة النبي ﷺ ، فجدّوا في طلبهما حتى أحضروهما ، فلما رآهما قال لوزيره : هما هذان ، فسألهما عن حالهما فقالا جئنا للمجاورة ، فقال لهما : اصدقاني ، وعاقبهما حتى أقرا أنهما من النصارى وأنهما وصلا لكي ينقلا مَنْ بالحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهما ، ووجدهما قد حفرا الأرض من تحت حائط المسجد القبلي لجهة الحجرة الشريفة ، ويجعلان التراب في بئر في الرباط ، وقيل كانا يجعلان التراب في محفظتيهما ويخرجان يلقيانه في الخارج ، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي هو في شرقي الحجرة خارج المسجد ، ثم أحرقهما بالنار ، وحفر خندقاً حوالي الحجرة الشريفة وسكب فيه الرصاص والنحاس المذاب واستحفظه غاية الاستحفاظ ، ثم ركب السلطان نور الدين راجعاً إلى الشام .

وكان السلطان محمود المذكور موصوفاً بكثير من الصفات الحميدة ، وقد خطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن ، ويذكرون اسمه بعد ذكر الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ، وترجمته واسعة قد أفردت بالتأليف ، وفي هذا القدر كفاية ، وإنما ذكرنا ترجمته وترجمة السلطان صلاح الدين لغرابة وجودهما في الزمن الذي كثر فيه جَوْرُ

الملوك والسلاطين ليعلم أنهما فتحا البلاد وانتزعاها من النصارى بالعدل ولا سيما في بيت المال ، وليعلم أيضاً أن الخلفاء الراشدين إنما فتحوا البلاد بالعدل في بيت المال ، وقد ذكر كثير من العلماء أن الدعاء مستجاب عند قبر السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين ، اللهم اجعل مقرهما جنات النعيم وأقِرَّ أعينهما بالنظر إلى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ، واجمع بيننا وبينهما في دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اهـ .

ولنرجع إلى إتمام الكلام على ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات بعد وفاة السلطان صلاح الدين ، فقد وقع اختلاف كثير بين أولاده ليس هذا محل ذكره وصار ملكه مقسماً بين أولاده وأخيه الملك العادل ، ثم تغلب أخوه عليهم فمنهم من انتزع الملك منه ومنهم من مات في ملكه ، ثم صفا الأمر لأخيه فقسم الممالك بين أولاده كما سيأتي ذكره .

ولما مات صلاح الدين كان ملك مصر لولده العزيز عثمان ، فجدّد الهدنة مع الفرنج وزاد في مدة الهدنة ، واستمر الأمر إلى سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة ، وكان الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ملك دمشق بعد وفاة أبيه ، فانتزعها منه أخوه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وجعل فيها عمه الملك العادل وأعطى الأفضل صرخد ، وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة ، فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج ، فاشتكى الفرنج من ذلك إلى الملك العادل أخي صلاح الدين وكان بدمشق والي الملك العزيز بمصر ، فلم يمنعا أسامة من ذلك ، فأرسل الفرنج إلى ملوكهم الذين بداخل البحر يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون : إن لم تنجدونا وإلا أخذ المسلمون البلاد ، فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة سنة ٥٩٣ ، وكان أكثرهم من ملك الألمان ، فلما سمع الملك العادل بذلك أرسل إلى الملك العزيز بمصر يطلب العساكر وكذا من بقية الأطراف ، واجتمعوا على عين جالوت فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال سنة ٥٩٣ ورحلوا إلى يافا وملكوا المدينة وامتنع بها من بالقلعة التي بها ، فَخَرّب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف ، وأخذوا كلَّ من بها أسراً وسبياً ، ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا ، فوصلهم الخبر بما وقع فعادوا وعاد المسلمون إلى عين جالوت ، فوصلهم

الخبر أن الفرنج على عزم قصد بيروت ، فعزم المسلمون على تخريب بيروت ، فسار إليها الملك العادل بجمع من العسكر فهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة سنة ٥٩٣ ، وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ، ورحل الفرنج من عكا إلى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا والفرنج بنواحي صيدا ، وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل .

وسار الفرنج سابع ذي الحجة سنة ٥٩٣ ، فوصلوا إلى بيروت ، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين ، فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة ، فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقي منها ، فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها ، وسافرت العساكر الإسلامية إلى صور فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج ، فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا عليها ، ونزل المسلمون عند قلعة هونين ، ثم أتاهم الخبر أن الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين ، فسيَّر العادل إليه عسكراً يحمونه ، ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة ٥٩٤ أربع وتسعين وخمسمئة ، وقاتلوا من به وجدّوا في القتال ونقبوه من جهاتهم ، فلما علم العادل بذلك أرسل إلى الملك العزيز بمصر يطلب منه الحضور بنفسه ، فسار العزيز مجداً بمن معه من العساكر ، فلما سمع الفرنج بوصوله رحلوا إلى عكا ، وعاد العزيز إلى مصر وبقي العادل ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج وانعقد بينهم صلح ، وعاد العادل إلى دمشق .

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ذكر غزو الروم	٢٤٤
ذكر فتح هرقلة وقبرس وغيرهما	٢٤٥
ذكر غزو الفرنج بالأندلس	٢٤٧
ذكر الغزو بالأندلس إلى بلاد الفرنج	٢٤٧
ذكر غزو المأمون إلى الروم	٢٥٠
ذكر خروج الروم إلى زبطرة	٢٥١
ذكر فتح عمورية وبروسة	٢٥١
ذكر غزوات زيادة اللّه بن إبراهيم بن الأغلب عامل إفريقية	٢٥٣
ذكر غزوات بإفريقية	٢٥٥
ذكر غزوات وفتوحات بإفريقية	٢٥٧
ذكر فتح قَصْرُيانّة	٢٦٤
ذكر مسير الروم إلى أرض مصر	٢٦٦
ذكر إغارة البجاة على مصر ومجاورة أرض النبوة ، والبجاة أهل تلك الأرض	٢٦٦
ذكر فتوحات وغزوات بإفريقية	٢٦٩
ذكر غزوة عظمى من الأندلس على بلاد الأفرنج	٢٧١
ذكر القتال مع صاحب الزنج	٢٧١
ذكر ملك الروم ولؤلؤة	٢٧٦
ذكر ملك المسلمين مدينة سرقوسة	٢٧٦
ذكر غزو الروم ووفاة بازمار	٢٧٩
ذكر حصر الصقالبة القسطنطينية	٢٧٩
ذكر حرب بين المسلمين والروم	٢٨٥
تنبيه	٢٨٧
ذكر خروج الروسية على بلاد الإسلام	٢٩٢
ذكر مسير المرزبان بن محمد بن مسافر ملك الديلم إليهم	٢٩٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ذكر وقعة أخرى	٤٨٤
ذكر الوقعة الكبرى على عكا	٤٨٥
ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا	٤٨٦
ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول	٤٨٨
ذكر وصول ملك الألمان الشام وموته	٤٩٠
ذكر واقعة للمسلمين والفرنج على عكا	٤٩١
ذكر خروج الفرنج من خنادقهم	٤٩٢
ذكر وصول فيليب ملك الفرنسيس ثم ملك إنكلترا	٤٩٤
ذكر تملك الفرنج عكا	٤٩٥
ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان	٤٩٨
ذكر رحيل الفرنج إلى نطرون	٥٠٠
ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس	٥٠٠
ذكر الهدنة مع الفرنج	٥٠٣
فهرس الكتاب	٥٢١